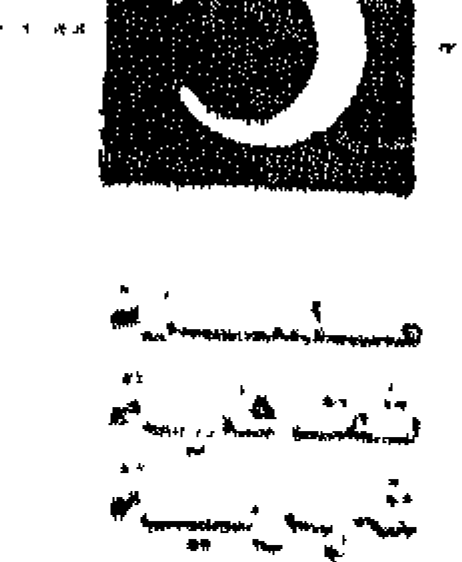
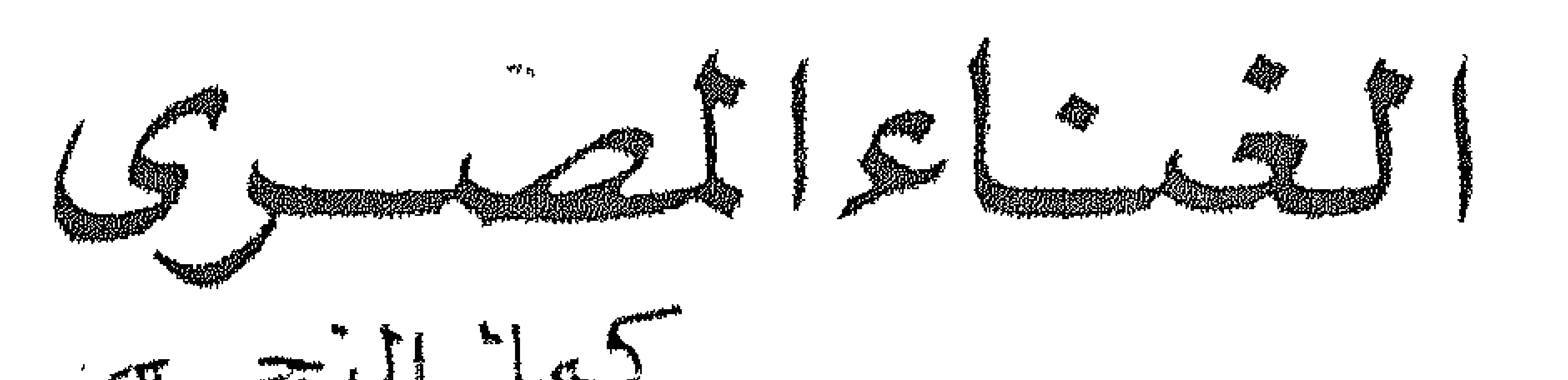

Bibliotheca Alexandrina
0137844

كتاب الهلال

١٠ قروش



سلسلة ثقافية شهرية



الغناء المصرى

كمال النجمى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٨٦ جمادى الاولى ١٣٨٦ سبتمبر ١٩٦٦

No. 186 — Septembre 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشــة
الفنـــان حسن فـؤاد

الغناء المصرى

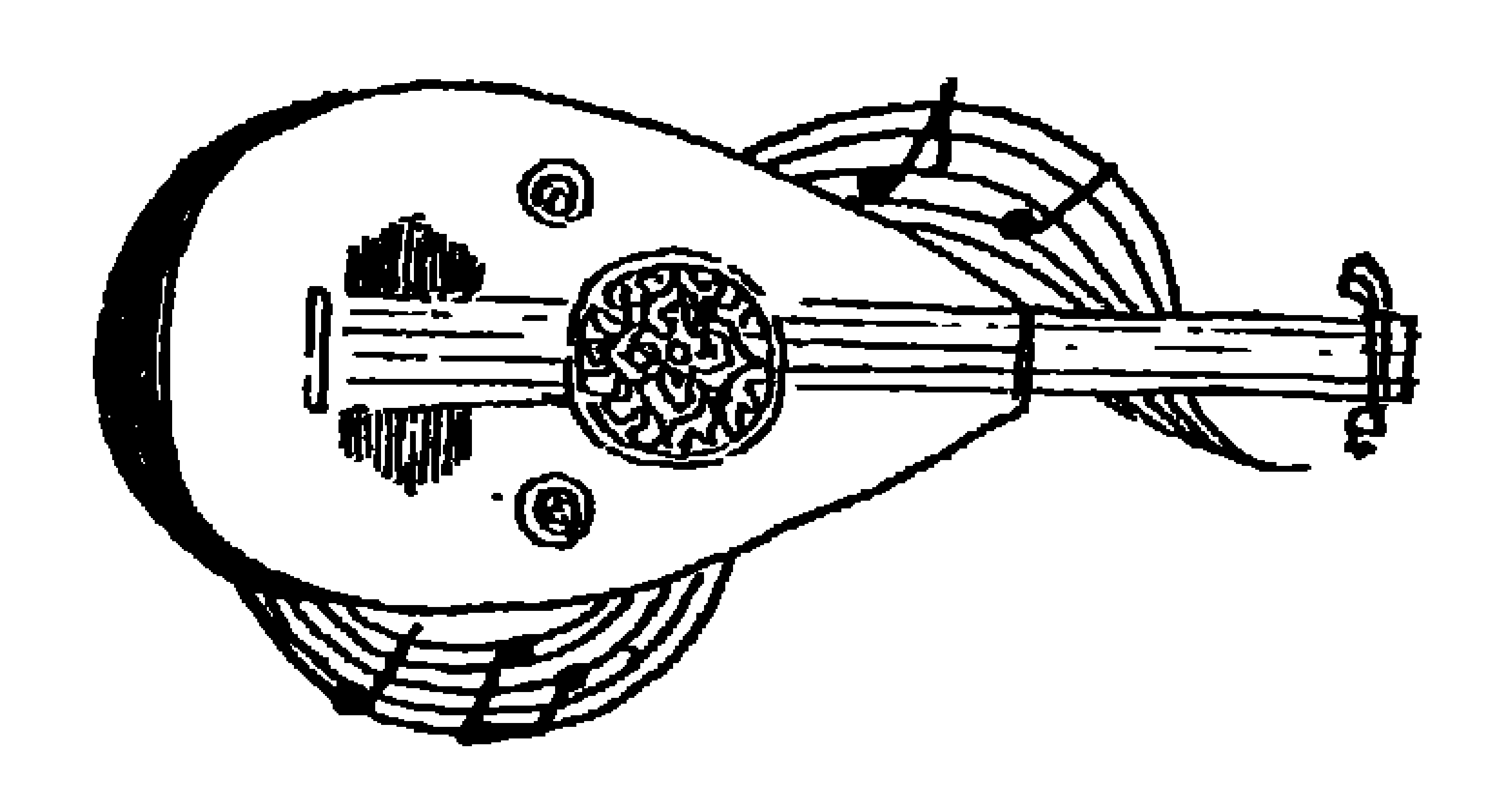
●

بقلم

كمال النجمى

●

دار الهلال



تقديم

لا اعتقد ان هذا الكتاب الصغير عن الغنـــاء المصرى سيكون له فى المستقبل ، مثل اهمية كتاب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى الذى صار منذ زمن بعيد ركنا ضخما من أركان الادب العربى

فالاصبهانى سجل الادب العربى كله تقريبا حين سجل غناء العرب فى جاهليتهم وحضارتهم ..

أما جهدى المتواضع فلم يسجل الا القليل من الادب المصرى خلال الاحاديث الطويلة عن الاصوات الذهبية وغير الذهبية التى تملأ أسماع جيلنا ،وربما ملأ بعضها أسماع أجيال مقبلة

واذا كان الاصبهانى قد تقدم بكتابه ـ قبل ألف سنة ـ الى الشاعر الفنان المجاهد الامير سيف الدولة الحمـدانى، فأجازه عليه بألف دينار ، فانى أتقدم بكتابى الى القارىء الشعبى الذى أصبح أميرا ذا سلطان ضخم ، يجيز الكتاب والشعراء

الا أننى لا أطلب منه جائزة غير قراءته للكتاب ، وأعتذر اليه ان كانت اشارتى هنا الى أبى الفرج الاصبهانى وأغانيه الخالدة ، توحى بأدنى محاولة منى للمـــوازنة بـين ذلك الكتاب الجليل ، وبين كتابى هذا الصغير

فالامر لا يعدو تشابها فى الاسماء ..

الا ان الذى يشـــفع لكتابى ، هو أنه أول كتاب من نوعه ، فى موضوعه ، صدر حتى الان ..

كمال النجمى



اذا كان صوتك ضعيفا أو خافتا فلا تيأس، فانك تستطيع ان تقف امام الميـكروفون وتغنى وتتمتـع بالشهرة كما يتمتع بها الآن عشرات من المطـربين والمطـربات ...

تمثال للميكروفون

رحم الله سلطانة الطرب منيرة المهـدية .. ماتت وفى نفسها حسرة من الميكروفون !

وقبل موتها عاشت أكثر من ثلاثين عاما حـاقدة على الميكروفون ، فقد كانت تعتبره عدوها اللدود الذى سرق منها سلطنة الطرب !

لولا الميكروفون لاحتفظت بعرش السلطنة طوال حياتها .. هكذا كانت تعتقد ..

فقبل اختراع الميكروفون ، كان المطرب أو المطربة يقف أمام مئات أو ألوف من المستمعين يغنيهم بصوته مباشرة،

فاذا كان صوته كثير المقامات ، واسع المساحة ، عاليـــا مجلجلا ، امتلك اسماعهم واطربهم حتى اخرجهـــم عن وقارهم ..

واذا كان صوته متواضع المقامات والمساحة ، خافت النبرات ، أخفق فى الوصول الى المستمعين الكثيرين ، وفشل صاحبه فى صناعة الطرب واعتزلها ، أو تحول الى مطرب « دكاكينى » لا يغنى الا فى جلسات خاصة يحضرها عدد محدود من المستمعين يرهفون أسماعهم بيقظة وعناء الى صوته الخافت الذى قد يكون أجمل من الصوت العالى الواسع .. صوت السرادقات الغاصة بألوف المستمعين ..

وقد كانت منيرة المهدية صاحبة أعلى وأوسع صوت فى عهدها .. عهد السرادقات قبل ظهور الميكروفون ..
كانت تغنى فى الافراح والليالى الملاح ، لألوف من المستمعين ، فلا يجد الجالسون منهم فى أقصى الصفوف مشقة فى تلقى صوتها والاستمتاع به

وكانت « بحتها » الشهيرة تكتسح السرادق اكتساحا ، كأنها تنبعث من خلال آلة قوية ، لا من خلال حنجرة بشرية . .
وفى المسرح .. كانت منيرة تغنى بالطريقة نفسها ، فيسمعها الجالسون فى « أعلى التياترو » كما يسمعها الجالسون فى الصالة وخارج الصالة ..

وفجأة ظهر هذا الاختراع الذى يسمونه « الميكروفون » وجاء الى مصر على استحياء ..

وفى البداية ، خيل الى المطربين والمطربات ذوى الاصوات المدوية ان الميكروفون « تقليعة » عابرة لا تلبث ان تموت ، فاداروا له ظهورهم ، ورفضوا خدماته ..

وفى ذلك الحين كانت منيرة وام كلثوم وفتحية احمد ونجاة على وصالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ومحمد عبد الوهاب يمتلكون أعلى الاصوات وأكبرها مساحة ..

ومما يروى عن أم كلثوم .. ان احدى محطات الاذاعة الاهلية ـ حوالى سنة ١٩٣٢ ـ وضعت امامها فى مسرح الازبكية ميكروفونا فغضبت أم كلثوم غضبا شديدا ، وطوحت بهذه الآلة الدخيلة بعيدا عن المسرح !

وما زالت كوكب الشرق تميل الى الغناء بلا ميكروفون، لان صوتها الطبيعى ـ حتى اليوم ـ يكفى وزيادة ، برغم تنازله عن عدد من طبقاته التى كانت له فى الماضى ..

وآخر حفلة غنت فيها بعض الوقت بلا ميكروفون ، كانت فى لبنان صيف عام ١٩٦٥

وقد اتيح لى ان اسمع أم كلثوم عدة مرات بلا ميكروفون .. أولها فى سنة ١٩٣٧ .. كنت حينذاك طالبا صغيرا فى السنة الاولى بمدرسة أسيوط الثانوية .. وجاءت أم كلثوم الى اسيوط لتحيى حفلة فى دار صيفية للسينما ، فكان صوتها يهزنى كأنه ينبعث من راديو الجيران القوى الذى يؤرقنى بعد منتصف الليل

وكانت دار السينما مكشوفة بلا سقف ، فكان صوت ام كلثوم يصل الى الشارع بوضوح فيتلقفه المستمعون الواقفون فى الشارع وهم أضعاف السعداء الجالسين على مرأى ومسمع من أم كلثوم داخل دار السينما ..

وآخر حفلة سمعت فيها أم كلثوم كانت فى الشتاء الماضى بسينما قصر النيل بالقاهرة .. وقد غنت من خلال ميكروفون بالغ القوة ،فانشغلت طوال الحفلة بالموازنة بين صوتها بميكروفون وبلا ميكروفون

أن صوت أم كلثوم السماوى لا يزيده الميكرفون جمالا مصطنعا ، ولا يزيف نبراته .. ولكنى أوثر جدا أن أسمعها بلا ميكروفون ، فانه لا نظير لجمال صوتها الطبيعى !

والميكروفون — بالنسبة لأم كلثوم — لم يكن الا حلية صناعية ، يمكن الاستغناء عنها ، اما بالنسبة لاصوات كثيرة أخرى ، فان الميكروفون كان أشبه بنجدة من السماء !

صحيح ان ميكروفون الراديو جمع حول ام كلثوم اسماع العرب من المحيط الى الخليج ، ثم لفت اليها اسماع العالم كله ، ولكن وقوفها على المسرح بدون ميكروفون ممكن كل الامكان فى الآونة الراهنة كما كان فى الماضى ..

ولكن ماذا تصنع أم كلثوم فى الصخب الجنونى الذى يصدر عن الجالسين امامها بلا انقطاع ؟!..

***

الحقيقة أن ظهور الميكروفون كان حادثا أليما فى حياة بعض المطربين والمطربات ، ومصادفة سعيدة فى حياة بعضهم الاخر ..

منيرة المهدية مثلا ..

فقدت ميزتها الكبرى — والوحيدة — وهى ارتفاع الصوت ودويه . .

لقد غزا الميكروفون السرادق الواسع الحصين الذى كان صوتها يسيطر عليه بلا ميكروفون

وعلى خشبة المسرح انتصب الميكروفون امام فم المطرب او المطربة مباشرة ، كأنه مبسم « الشيشة » .. وهذا التشبيه نستعيره من كلمات منيرة المهدية نفسها ..

وأصبح كل صوت ككل صوت أمام الميكروفون .. الصوت الواهن المحتبس يغنى لثلاثة آلاف مستمع كما يغنى الصوت المنطلق العالى ..

وبفضل الراديو أصبح الصوت الضعيف يهمس فى

استوديو الاذاعة بالقاهرة فيسمعه الناس فى بغداد وصنعاء والرباط والخرطوم

ولم يعد للزعيق فائدة ، فالراديو ينقل صـــوت فريد الاطرش بنفس القوة التى ينقل بها صوت صالح عبـد الحى ..

هكذا تغيرت دنيا الطرب ..

فدنيا الطرب فى الماضى كانت لا تعترف الا بالاصوات القوية الجهيرة الحادة من الرجال والنساء

وحلاوة الصوت لم تكن تغنى عن جهارة الصوت او حدته ، لان حلاوته لا تبلغ الاسماع الا فى جلسات ضيقة مقفلة لا تتيح للمطرب ان يتعرف الى الجماهير الواسـعة فيشتهر ويكسب ، كما يشتهر ويكسب اصـــحاب الاصوات العالية ...

اما الان فلا خوف على الصوت الخافت الصغير الحجم ما دام الميكروفون موجودا ..

ان الميكروفون قد نقل الينا صوتا من أرقى الاصوات واندرها وأجملها هو صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت

وقبل عهد الميكروفون ، كان صوت الشيخ رفعت ضائعا بين أصوات « المقرئين » القوية ..

كان اذا اجتمع فى سرادق واحد مع الشيخ على محمود مثلا ، افتتن الناس بجهارة صوت الشيخ على محمود .. فاذا جاء دور الشيخ رفعت بعده ، أخفق فى الوصـــول الى اسماع الناس ، فلا يتبين جمال صوته الفائق ، وروعة ادائه الفذ الا المدققون فى الاصغاء والتذوق !

فلما انطلق صوت الشيخ رفعت من الراديو ، وضحت للناس فتنة نبراته وعبقرية ادائه ، وأصبح فى نظرهم أعظم من جميع القراء ذوى الاصوات الجهيرة امثال الشيخين

على محمود وعبد الفتاح الشعشاعي

وقد استمعت الى الشيخ رفعت فى مسجد فاضل باشا بدرب الجماميز ــ بالقاهرة ــ قبل عشرين عاما ، فاذا به كصوت الكمان الخافت ..

هذا الخفوت يتحول فى ميكروفون الاذاعة الى وضوح تام .. ولولا ما أتاحه له الميكروفون من الوضوح لعاش الشيخ رفعت مجهولا كما كان قبل عهد الميكروفون ..

***

ومحمد عبد الوهاب ، كان قبل عهد الميكروفون يغنى بصوت منطلق رائق النبرات ، يحتوى مقامات كثيرة سليمة ساطعة قوية الاسر فى الاداء ..

ومن حسن الحظ ان صوت عبد الوهاب عندما بدأ يتراجع ، ظهر الميكروفون فاحتفظ عبد الوهاب ــ من خلاله ــ بمكانته الغنائية الكبيرة ، ولم تتسرب هذه المكانة من بين اصابعه كما كان يتوقع بعض ناقديه ..

فصوت عبد الوهاب القديم الرائع الذى فتن الملايين ، لم يثبت على صورته الباهرة التى كان عليها فى العشرينيات وبداية الثلاثينيات ..

ولكن الميكروفون أضفى عليه مسحة جـــديدة كانت تعويضا طيبا عن بعض ما فات ..

ان مقاماته الفاخرة ، وأوتاره الذهبية قـــد تغــيرت بعوامل فسيولوجية وبيولوجية عديدة ..

ويروى الصحفى المعروف الاستاذ محمد التابعى فى بعض كتاباته ان عبد الوهاب فقد صوته فترة من الزمن ، ثم رده اليه العلاج الطبى الناجح ؟؟

وسواء كانت هذه الحكاية دقيقة او غير دقيقة ، فان

صوت عبد الوهاب الان ، ليس الا تذكارا جميلا باقيا من صوته الرائع القديم ..

وهو نفسه يعترف بهذا ، ولا يحس أية عقدة نفسية من هذا التطور الذى لا مرد له .. فان للزمن حكمه فى كل الاحوال ..

***

ولقد جاء الميكروفون فى الوقت المناسب ، وكأنه كان على موعد مع عبد الوهاب ، فاستمر يغنى حتى الان مستخدما قوة ذكائه بدلا من قوة صوته ، وجمال فنه عوضا عن جمال نبراته .. وانها ليد بيضاء اسداها الميكروفون الى فن الغناء العربى الحديث ..

ان عبد الوهاب يستطيع الان ان يسجل عن طريق الميكروفون شريطا غنائيا جيدا .. ففن « المونتاج » المعروف يصنع له ما يريد ، وينقل الى المستمعين خلاصة نقية للمحاولات الطويلة المضنية ..

وما يقال عن عبد الوهاب ، يمكن ان يقال عن الاصوات الاخرى التى ازدهرت فى عصر الميكروفون

الفرق الوحيد هو ان عبد الوهاب الان ينقبض عن لقاء الجماهير ، فالمونتاج اساس اغانيه ..

وقد جاء عبد الحليم حافظ فى عصر الميكروفون ولم يجىء فى عصر السرادقات الذى كانت الحنجرة القوية فيه هى ميكروفون المطرب ..

وعبد الحليم حافظ صوت ميكروفوني ممتاز ، فعن طريق الميكروفون تصل نبراته الهامسة الى المستمعين فى الصورة التى يريدها من الارتفاع والضخامة وتجاوب الاصداء ..

وعبد الحليم وان كان يعتمد على « المونتاج » كعبد الوهاب ، الا أنه يستطيع أن يواجه الجماهير ، لان حنجرته شابة ، ونفسه مديد ..

وهو فى مواجهة الجماهير لا يبالى .. ويغنى حتى لو انقطعت الكهرباء عن الميكروفون ..

ولا يمكن فى هذا المجال ان ننسى نجاة الصغيرة التى تصل الينا همساتها عن طريق هذه الآلة السحرية ، فان نجاة الصغيرة هى بحق مطربة الميكروفون .. ولا يمكن للمرء أن يتصور صوتها بدون ميكروفون ..

***

ولكن .. هل يزيف الميكروفون نبرات الاصوات ؟!

انه يجسمها ، ويخفى بعض عيوبها ، ويبرز بعض حسناتها ..

الا انه يمكن عن طريق المونتاج فى الاغانى التى لا تذاع على الجماهير مباشرة ، تزييف اشياء كثيرة ، وستر بعض العيوب ..

وفى هذه الحالة يصبح الميكروفون مزيفا خطرا كمزيف الاوراق المالية ..

ولو كنت مطربا اضع الميكروفون فى فمى كما أضع مبسم الشيشة ، لعترفت للميكروفون حقه ، وأقمت له تمثالا فى حديقة بيتى .. لو كان آبيتى حديقة !

فهو صاحب الفضل الاكبر على مطربى عصرنا .. ومن حقه ان يقام له تمثال فى بيت كل مطرب وكل مطربة ..

وليس ضروريا ان يكون تمثالا من ذهب .. يكفى تمثال من فضة أو حتى تمثال من حجر ! ..



الأصـوات التى غنت طويلاً تحت الضوء الساطع .. ما الذى جعلها تنتقـل الى الظـل وتعيش فيـه حتى ينسـاها النـاس ؟ ! ..

أصوات اختفت!

ذات ليلة عجز الشيخ سلامة حجازى عن الغناء بعـد أن اتخذ مجلسه فوق المسرح ـ وكان قد أصابه الشلل فى اخريات حياته ـ فبكى الناس وأطموا خدودهم .. لقد ماتت حنجرة الـكروان ، أو ماتت قـدرة الكروان على تحريك أوتار حنجرته الذهبية !

ما أشبه مأساته بمأساة صالح عبد الحى التى رأيناها بعيوننا ، وما زال التليفزيون يعرض صورة منها بين الحين والحين .. اذ يجلس صالح عبد الحى مثقـلا بالشلل ، يحرك شفتيه ـ لا اكثر ـ حركة ضعيفة مرتعشة ، بينما نسمع تسجيلا من تسجيلاته القديمة ..

وقبل صالح عبد الحى وسلامة حجازى ، كانت مأساة عبده الحمولى ..

أصابه السل ، فأحال حنجرته النادرة الى قيثارة بلا روح ! ..

وفى سنة ١٩٤٣ رأيت مشهدا مبكيا من مأساة القارىء العبقرى الشيخ محمد رفعت ، صاحب أرقى حنجرة وأسمى فن غنائى فى عصرنا يعتمد على بديهة الارتجال

رأيت مأساته فى لحظات رهيبة تشبه الحلم المرعب وقد أحاط به مئات المستمعين فى مسجد فاضل باشا بدرب الجماميز

كانت عادتى فى تلك الايام أن أقصد يوم الجمعة مبكرا الى مسجد فاضل باشا لاجد مكانا قريبا من الشيخ رفعت، فقد كان صوته ـ على تعدد مقاماته واكتماله ـ صغير الحجم ، لا يستوعب دقة نبراته الا القريبون من مجلسه

وكنت الاحظ أن « الزغطة » التى أصابت الشيخ رفعت تقلل ـ يوما بعد يوم ـ مقدرته على التحكم فى صوته بالصورة المعجزة التى كانت معروفة عنه قبل أن تتسلل اليه تلك « الزغطة » اللعينة التى عجز الطب عن علاجها !

وفى المرة الاخيرة التى سمعت فيها الشيخ ـ ولم أسمعه بعدها ـ كان يتلو السورة فى مسجد فاضل باشا يوم الجمعة كعادته ، فقاوم « الزغطة » التى غص بها حلقه وقرأ ما سمحت به نوباتها المتكررة ..

ثم سيطرت « الزغطة » على الموقف ، وملأت حلق الشيخ وحبست صوته تماما ..

هنا أخرج من جيبه زجاجة صغيرة ممتلئة بسائل أحمر ، فاحتسى منها قليلا .. ثم عاد يحاول التلاوة ، فقرأ آية أو آيتين ، ولكن الغصة سرعان ما تغلبت على

الدواء الاحمر ، وقهرت حنجرة الشيخ .. فتوقف حائرا .. ثم ترك مكانه لشيخ آخر ، وتأهب لمغادرة المسجد !

في هذه اللحظة المؤسية انفجر الناس في المسجد باكين، وعلا نحيب « المقرئين » الشبان الذين كانوا يلتفون حول الشيخ رفعت كل أسبوع ليتعلموا طريقته وصناعته

وتحول الموقف الى مأتم رهيب للصوت العبقرى الذى ضاع ! ..

كانت هذه آخر مرة رأيت فيها الشيخ رفعت وسمعته وما زالت مأساته ـ منذ تلك الجمعة الحزينة ـ تثير مواجعى وأشجانى ، كلما خطرت ببالى ، وكثيرا ما تخطر ببالى ، فأراها ماثلة أمامى ، كأنها لم تذهب مع الماضى البعيد

ومازلت كلما سمعت شريطا مسجلا من قراءة الشيخ رفعت ، أتمثله أمامى فى موقفه ذاك ، وزجاجة الدواء الاحمر فى يده ، وصوته السماوى محتبس فى صدره ، والناس يضجون بالحسرة والالم والنشيج !

***

ان الشيخ رفعت الذى دهمته كارثة « الزغطة » فأسكتت أوتاره ، وعطلت قيثاره ، وأحزنت عليه الناس جميعا ..

وعبده الحمولى الذى عجز صدره ـ بسبب السل ـ عن تحريك الشفتين ..

وسلامة حجازى وصالح عبد الحى اللذين أعجزهما الشلل عن كل شيء ..

هؤلاء ليسوا الا أمثلة للفواجع التى تصيب الاصوات العظيمة ، وتصيب معها المستمعين ..

وليست الشيخوخة هى السبب .. فقد يغنى المطرب الى الخريات عمره ، مهما طال ، ويمد صوته فى سن السبعين أو الثمانين كما كان يفعل فى سن العشرين

وقد غنى الشيخ سالم العجوز الى ما بعد المائة من عمره المديد السعيد .. والتف حوله أهل القاهرة من الثلث الثانى للقرن التاسع عشر الى الربع الاول للقرن العشرين

واذا التفتنا الى التاريخ رأينا اسحاق الموصلى وقد عاش يغنى من عصر الرشيد الى عصر الواثق .. وهى فترة تزيد على خمسين عاما

كل ما يطرأ على هذه الاصوات العنيدة التى تقاوم الزمن ، انها تفقد - على مر الايام - بعض مقاماتها ، وشيئا من مرونتها كما يفقد القلب قدرته على عطائه النفس المديد

ولكن جوهر الصوت يبقى صحيحا لا يخدشه انتقال صاحبه من الشباب الى الشيخوخة

بل ان بعض الاصوات يكتسب بمرور الزمن ما تكتسبه الخمر المعتقة من نفاسة وروعة مذاق

وبعض الاصوات يكتسب بمرور الزمن رقة لم تكن فيه أيام شبابه ، فكأنه قلب شاعرنا أحمد شوقى الذى وصفه بقوله :

كلما مرت الليالى عليه
رق والعهد فى الليالى تقسى

***

وبين الاصوات التى يغدر بها الزمن ، والاصوات التى يخضع لها الزمن .. تقف مجموعة من الاصوات لا يغدر

بها الزمن ولا يخضع لها .. بل تتراجع الى الوراء سنة بعد سنة ، حتى تبتعد عن دائرة الضوء ، وتقف فى الظل، وربما فى الظلام ..

هذا النوع من الاصوات هو ضحية الاهمال او الملل أو انقطاع القدرة على المنافسة ..

فالاصوات الجديدة تظهر سنة بعد سنة ، وتطرد الاصوات القديمة من السوق

والمطرب الشاب والمطربة الشابة يلاقيان رواجا عند الجمهور ، أكثر مما يلاقى المطرب الكهل والمطربة التى امتد بها العمر ، ولم نر فى دنيا الغناء المصرى استثناء من هذه القاعدة ، الا ما يتعلق بأصوات نادرة

أما الاصوات العادية من الجيل القديم ، فان معركتها مع الجيل الجديد ، تنتهى بانزواء القديم وارتفاع راية الجديد ..

وهكذا انتقلت من الضوء الى الظل أصوات كانت ملء الاسماع فى الثلاثين عاما الماضية

كان أول هذه الاصوات انهزاما صوت منيرة المهدية ، لان الجيل الجديد الذى اقتحم عليها الميدان كان ام كلثوم .. شخصيا ! ..

ثم توالى انتقال الاصوات من الضوء الى الظل ، وامتلأت دائرة الضوء بأصوات جديدة ظهرت صوتا بعد صوت ، كأن عصا سحرية وراءها

ولو عددنا الاصوات التى أختفت فى العشرين عاما الاخيرة ، لهالنا أمرها ،فانها كانت تملأ الشوارع والبيوت والملاهى والمقاهى ، ولم يكن أحد يتصور أنها ستختفى هكذا .. بسرعة ، وبلا تعليق ! ..

ففي العشرينيات كان كثير من المستمعين يرون أن فتحية أحمد هي صاحبة الصوت الاول ، قبل منيرة المهدية وقبل أم كلثوم

ولم يكن صوت أم كلثوم فى ذلك الحين قد استكمل نضجه ، ولكن نضجه السريع الباهر ، دفع بصوت فتحية الى الخلف ، فأصبحت المطربة الثانية ، وعاشت فى هذا المركز — وهو مركز ممتاز — فترة طويلة .. ثم استراحت الى الظل ، وعاشت فيه متقاعدة أو شبهمتقاعدة

أما نجاة على فكانالمعجبون بها فىالثلاثينيات يرشحونها خليفة لأم كلثوم .. ثم غطى الاهمال والملل صوتهابطبقة كثيفة أفقدته قدرته على مواجهة الاسماع ، فتقاعدت بعض الوقت ، ثم عادت تغنى وكأنها لم تعد ، فانها — حين عادت — لم تجد جمهورها القديم ، ولم يجدها جمهورها القديم ولا جمهورها الجديد ..

وقبل خمسة عشر عاما كانت رجاء عبده وليلى مراد تتنافسان على عرش الأغنية السينمائية ، ولكن أين هما الآن ؟ !

وكانت « ملك » تؤرق المستمعين فى كثير من الليالى بضجيج مسرحها الغنائى فأين ملك الآن .. وأين ليالى مسرحها الغنائى ، وصرير بابها القديم ؟!

ولا تقل « لوردكاش » عن « ملك » فى هذا المضمار .. فصوتاهما متشابهان فى المعدن ، وان كان صوت ملك أعنف .. وقد كانت لوردكاش تملأ الليالى باذاعاتها المتوالية من راديو القاهرة منذ عشرين عاما .. ثم انطوت لياليها واذاعاتها ، كأن شيئا لم يكن ..

أما المغنية المخضرمة « نادرة » فكان المرحوم عباس

محمود العقاد يغالى بها ، وينظم لها الشعر ، وينظمه فيها .. وكانت لها الشهرة والصوت المسموع ! ..

وقد تقاعدت نادرة فى الوقت المناسب لها وللمستمعين، وطاب لها الظل الوارف الذى تقاعدت فيه ..

وأين الآن نور الهدى ؟ ! ..

لا أحد من الجيل الجديد يعرف نور الهدى ، وحتى الجيل الذى سمعها فى القاهرة بين سنتى ١٩٤٣ و ١٩٤٧ لم يعد يتذكرها الا بمشقة ، فقد توهجت وانطفأت كالشهب المنقضة من السماء ..

وكان المعجبون بها منذ عشرين عاما يتصورون انهم اكتشفوا فيها سلطانة جديدة للطرب بعد انقضاء عهد السلطانة منيرة المهدية ..

وكثيرة هى الاصوات التى فاءت الى الظل راضية أو مكرهة ، فهل فقدت هذه الاصوات التى تخطاها الضوء وتركها فى الظل ، كل قدرة على امتلاك الاسماع ؟ !

الحقيقة أن بعضها ما زال يقاوم وينتزع خبزه من يد الزمن ..

ولكن الغالبية آثرت أن تستسلم ، وتعيش على الذكريات !



تعالوا نحاول — مجرد محاولة — ان نتذوق بعض الأعمال الموسيقية المتطــورة التى قدمها لنــا الموســيقيون المصريون ...

بين الدارسين والموهوبين

الموسيقى لغة عالمية واحدة .. قالوا لنا هـذا ، ولكن اللغة الواحدة ، ذات الاصل الواحد ، والقواعد الراسخة، ينطقها الناس دائما بلهجات متعددة ، تعكس تعدد بلدانهم , وبيئاتهم وتاريخهم.

اللغة العربية مثلا .. ينطقها المصرى بلهجة ، والسودانى بلهجة ، والعراقى بلهجة ، والسورى بلهجة ، وهكذا ..

كذلك الموسيقى العالمية ، لغة واحدة متعددة اللهجات اذا فقدت تعدد لهجاتها أصبحت فنا غير انسانى ، معلقا فى الفضاء ، لا صلة له بالارض التى ينبت فيها الانسان وفن الانسان !

وليس فى عالمنا شىء عالمى بالمعنى الذى يتصوره بعضهم لهذه الكلمة ، من الغاء كل الفروق المحلية ، والسـمات

القومية ، لان كلمة « عالمى » تصبح عندئذ تجريدا فارغا من الحقيقة ..

وسيمفونية رفعت جرانة التى وصف بها مراحل ثورة ٢٣ يوليو هى ــ كما سمعناها فى التليفزيون ــ تكاد تكون بلا جنسية .. لا اثر فيها للهجة الموسيقى المصرية ، ولا للهجة الموسيقى فى اى بلد عربى أو شرقى ..

عنوان هذه السيمفونية « ثورة مصر » .. وهو عنوان ذو معنى واضح محدد ، ولكن الاستاذ جرانة كان يستطيع أن يأخذ عنوان سيمفونيته من أية ثورة أخرى وقعت فى اى مكان آخر .. وفى اى زمان ..

بل ان هذه السيمفونية التى تتحدث عن ثورة ، يمكن جدا لمن يسمعها من مواطنينا أن يتصور أنها تتحدث عن اى شىء آخر غير الثورة

صحيح أن المستمع الذى يلم قليلا بتاريخ الفن السيمفونى يستطيع تحديد العصر الذى ولدت فيه سيمفونية جرانة ، لانها مؤلفة من خمس حركات ، فلا يمكن أن تكون من سيمفونيات القرن الثامن عشر مثلا، فقد كانت السيمفونيات حينذاك تتألف من ثلاث حركات فقط ، كما قرأنا فى الكتب

ولكن المستمع يمكن أن يخطىء فيتصور أن سيمفونية جرانة هى احدى السيمفونيات الاوربية الحديثة ، فليس فيها غير مجموعة من النغمات الاوربية ، وفترات من العزف الصاخب ، تعقبها فترات من العزف الهادىء .. ثم فترات من الألحان المعقدة ، تليها بعض الالحان المنفردة أو شبه المنفردة .. وطلقة مدفع أو طلقتان فى وسط هذه المجموعات الاوركسترالية المترفعة عن مواجهة المستمع العربى والشرقى

هذا الشكل السيمفونى – على تطوره الزمنى – كان موجودا منذ عهد أوركسترا مدينة « منهايم » الشهيرة التى يسمع عنها حتى العازفون فى الفرق الموسيقية المتواضعة .. ويعرفون أنها أسهمت فى خلق السيمفونية الكلاسيكية قبل بيتهوفن

فكيف اذن يصدق المستمع العربى أن هذه السيمفونية، تعبر عن واقع مصرى أو عربى ، وليس عن واقع المانى مثلا ؟! ..

وعند تحديد جنسية هـذه السيمفونية .. ما هى الملامح المصرية أو العربية فيها ؟ !

واذا كانت خالية من هذه الملامح ، فكيف يصح فى الاذهان أنها سيمفونية مصرية أو عربية ، تعبر عن ثورة ٢٣ يوليو المصرية العربية ؟

اننا نسأل أيضا : كيف يعرف المستمع المصرى – وبخاصة فى بداية تجاربنا السيمفونية – أن سيمفونية جرانة هذه تصف الثورة وتعبر عن الثورة بالذات ، لا عن الحب أو البغض أو السعادة أو الحزن أو الغيرة او اللوعة او اليأس .. الى آخر المتناقضات النفسية والحياتية التى نراها فى السيمفونيات الأوربية ؟ !

ان سيمفونية جرانة جهد مشكور فى التأليف والتدوين والعزف وقيادة الأوركسترا والتصوير التليفزيونى ، ولكنها – بالتأكيـد – غير مصرية ، وغير عربية ، وغير شرقية ..

ويمكن لمن يستمع اليها أن يتصور انها تعبر عن الثورة، وعن أى شىء آخر غير الثورة ..

واذا كان المطلوب هو تقليد الموسيقى الأوربية ونغماتها المكررة ، فانا وانت وانتم – جميعا – نستطيع بعد دراسة

تكنيك هذه الموسيقى أن نقلدها وننسج على منوال نغماتها

فالتكنيك فى الموسيقى الاوربية هو شكلها الضخم الذى ينطوى أحيانا على مضمون ضامر ، بشهادة أهاليها أنفسهم • وقد سمعناهم — أو سمعنا بعضهم — بآذاننا يقولون هذا الكلام

ومشكلة المقلدين هى قناعتهم بتقليد هذا الشكل الضخم ، بدون محاولة لاغنائه بأى مضمون جديد ، يتمثل فيه طابعهم القومى ونبوغهم الخاص

ان الهدف الصحيح لاى موسيقى عربى متفتح يجب أن يكون بناء موسيقى عربية على أسس علمية ، لا فرض الموسيقى الاوربية بحذافيرها على الذوق العربى

فالموسيقى دولة عالمية حقا ، ولكنها ذات قوميات متعددة ••

وهى لغة واحدة ، ولكنها ليست لغة مصنوعة مفتعلة بلا جنسية ولا روح كلغة الاسبرانتو

وتقع الموسيقى فى التجريد الميتافيزيقى والبطلان التام اذا تجردت من الطابع القومى ، أو تجرد تعبيرها من الملامح التى ترسم الصورة الموسيقية ، فعندئذ يصبح هذا النوع من الموسيقى مجرد ذبذبات صوتية على أسس تكنيكية !

***

ثم نتحدث عن العمل الموسيقى الغنائى الذى صنعه عزيز الشوان على أساس لحن « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى » •• نشيد سيد درويش المشهور

ان المطربات والمطربين يغنون بطريقة كنسية أوربية لا تلائم بأى حال طريقة النطق باللغة العربية ••

وتتحول الكلمات العربية فى أفواه السوبرانو رتيبة

الحفنى والميتسو سوبرانو فيوليت مقار ، والتينور الباص - ولا أتذكر اسميهما - الى كلمات أعجمية ممضوغة متآكلة الحروف ، تصدم الذوق العربى !

وما دام هذا اللون من الغناء قد ولد فى مهد لغات أوربية ، فيجب على الموسيقيين العرب - اذا أرادوا الاقتباس منه - أن يكتشفوا طريقة لاداء هذا اللون من الغناء بحروف عربية سليمة تماما ، لا بحروف عربية على طريقة « الخواجات » ..

ويجب عليهم كذلك ألا تستعبدهم القوالب الاوربية التى يقلدونها ، فالتقليد لا قيمة له .. ويستطيع المستمع العربى أن يخص الاوبرا الايطالية مثلا باستماعه بدلا من الاستماع الى أوبرا « فرانكو آراب » .. لا تنتمى الى العرب ولا الى الاوربيين ! ..

لقد استمعت بأسى بالغ الى صوت رتيبة الحفنى الرائع وهو يتكسر فى نطق أوربى عربى مختلط لا تسيغه الاسماع ..

أما فيوليت مقار فقد اندفعت تغنى بلغة كلغة « الخواجات » ، حتى ملأتنى كمدا على صوتها الفخم الكبير ..

ولم يكن المطربان التينور والباص أحسن حظا من زميلتيهما السوبرانو والميتسو سوبرانو ..

***

وأخيرا نتحدث عن « سيمفونية » محمد عبد الوهاب واندريه رايدر التى قدماها فى العيد الثالث عشر لثورة ٢٣ يوليو ، وسماها عبد الوهاب « هدية »

هذه « السيمفونية » لا بد أن ننسبها الى عبد الوهاب

وزايدر معا ، لان الميلودى الذى صنعه عبد الوهاب ، لم يتخذ شكله السيمفونى الا بالتوزيع الموسيقى الاوركسترالى الذى صنعه رايدر

وهذه مرحلة لا بد منها الان ، يشترك فيها الموسيقى الموهوب والموسيقى الدارس ، فى التأليف الموسيقى .. الاول بلحنه الخام ، والثانى بصياغته العلمية ..

قد يبتسم بعضهم ساخرا من كلمة « سيمفونية » منسوبة الى القطعة الموسيقية الطويلة التى صنعها عبد الوهاب ورايدر فى عيد الثورة الثالث عشر ..

ولكنى أسأل : ولم لا ؟!

أليست السيمفونية قطعة موسيقية تعزفها مجموعة آلات وتتألف من أربع حركات أو خمس أو أكثر أو أقل؟!

وهل للسيمفونية شكلٌ مقدس ، نزل من السماء ، فلا يتغير فى أى زمان ، ولا يتلون فى أى مكان ؟

ان السيمفونية بعد عصر بيتهوفن ــ كما هو معروف جيدا ــ لم تثبت على شكل جامد .. ولم تتحدد فى « وصفة » أبدية خالدة

ويقول الموسيقيون الدارسون ، والمؤلفون النظريون فى الموسيقى ان السيمفونية الحديثة تنمو وتتسع فى حركاتها ، وتزيد من آلاتها العازفة ، وربما دخلها شىء من الغناء ، ولا شىء يقيد حرية المؤلف الموسيقى فى الألحان والايقاعات والعناصر الهارمونية الخ ..

وهذا تقريبا ما فعله عبد الوهاب ورايدر فى قطعتهما الموسيقية البديعة التى يعرف المستمع جنسيتها على الفور ، ويدرك أنها تعبر عن ثورة وفرح ..

صحيح أن انفراد القانون ثم الكمان ثم الناى طويلا بأداء منفرد مع ايقاع شرقى ، قد قطع الحركات

الموسيقية الهارمونية ، ولكن المؤلف الموسيقى الجديد لا يكبل مواهبه وقدراته بالقيود العتيقة ، فله مطلق الحرية فى اختيار الحانه وتصميم بنائه السيمفونى على أسس تختلف الى أى مدى يشاؤه عن الاسس الكلاسيكية والرومانسية للموسيقى السيمفونية ..

فاذا كان المؤلف عربيا ، وجب عليه أن يبرز ملامح موسيقاه الوطنية .. وقد أعلنت سيمفونية عبد الوهاب عن جنسيتها بالنغمات العربية المقتبسة من الموالد والأذكار وبالكمان والناى والقانون التى أدت «تقاسيم» منفردة مصحوبة بعزف على بعض الآلات ودق على الدفوف ..

* * *

قد يقال ان القانون والناى لا يدخلان فى تركيب أوركسترا على الطريقة الأوربية !

وهذا صحيح .. ولكن .. ماذا يمنع القانون والناى من الدخول فى تركيب أوركسترا على الطريقة العربية ؟!

اذا كان هذا لم يعرف فى بناء السيمفونية الأوربية فسيصبح معروفا فى بناء السيمفونية المصرية والعربية ، لأن معمار السيمفونية الأوربية ليس مقدسا ولا خالدا ، وليس له صفة ثبات من أى نوع .. ويمكن تحويره وتعديله ، بل والاستغناء عنه ، والاستعاضة بشيء جديد تماما ..

واذا كان لا بد للسيمفونية المصرية والعربية من نقطة انطلاق ، فلا جدال فى أن ما صنعه عبد الوهاب ورايدر هو احدى نقط الانطلاق المناسبة ..

فليس التقليد ــ طبق الأصل ــ هو الطريق الى تطوير موسيقانا ..



ام كلثوم كانت تستطيع العودة الى رباعيات الخيام لتختار منها أبياتا اخرى تغنيها ولكنها آثرت ان تغنى رباعيات عصرية لشاعر معاصر يكن اعتباره امتدادا للخيام.

رباعيات عصرية لأم كلثوم

فى السنة الفنائية ١٩٦٦ سمعنا أغنية جديدة من الشعر الفصيح ، كما سمعنا فى السنة الفنائية ١٩٦٥ قصيدة « أراك عصى الدمع » للشاعر العربى القديم ابى فراس ..

والاغنية الجديدة لشاعر رأيناه وعرفناه وأحببناه هو الطبيب الفنان البوهيمى المرحوم ابراهيم ناجى

وقد بحث الكثيرون عن ديوان ناجى ليقرأوا فيه قصيدة عنوانها « الأطلال » .. لان ماغنته أم كلثوم هو جزء صغير من هذه القصيدة الطويلة ..

وقصيدة « الاطلال » ليست رباعيات كما قالت بعض الصحف ، فالرباعيات المأثورة والمترجمة عن الخيام هى الشطرات الاربع ، أما الاطلال فتتألف من «كوبليهات» كل منها أربعة أبيات ، أى ثمانى شطرات

ولكن شهرة رباعيات الخيام هى التى جعلت الناس يتصورون أن قصيدة ناجى هى رباعيات جديدة

والحقيقة ان ناجى نظم مئات من الابيات فى شكل رباعيات .. وبعضها من الوزن الذى اختاره أحمد رامى لترجمة رباعيات الخيام .. أما قصيدة « الاطلال » التى غنت أم كلثوم بعض أبياتها ، فمن وزن آخر ..

وليس فى « الأطلال » ما يلفت النظر الا موسيقاها اللفظية وشجنها ودموعها ، وبيت متوهج يصور فيه ناجى عجزه عن الهروب من الحب ، لأنه يسرى فى عروقه كدمه فيقول :

ليت شعرى أين منه مهربى
أين يمضى هارب من دمه ؟ !

وناجى كان يحب كلمة « الأطلال » .. فجعلها عنوانا لقصيدته هذه التى غنت منها أم كلثوم ،ولقصيدة أخرى يقول فى مطلعها :

يا من بواديه حططت الرحال
ورحبت بى وارفات الظلال

والفرق بين القصيدتين أن اسم « الاطلال » الأولى بألف ولام للتعريف .. أما اسم الثانية فهو « اطلال » فقط بدون أداة التعريف

ولكن الهدف الذى يدور ناجى حوله فى القصيدتين لا يتغير : الحب ، والبكاء على الحب !

ولناجي رباعيات ذات عناوين مختلفة وموضـــوع واحد تقريبا :

رباعيات « لقاء فى الليل » .. نظمها فى احدى ليـــالى الغارات الجوية خلال الحرب العالمية الثانية ، ومطلعها :

قالت تعـــال فقـــلت لبيـــك
ميهــــــــات أعصى أمر عينيك

أنا يا حبيبـــــة طـــائر الأيك
لم لا أغنى فى ذراعيـــــــــك ؟ !

ورباعيـــات « من ن الى ع » .. أى من ناجى الى الملهمة الاولى فى حياته ، وأول حرف من اسمها « ع » ..

ورباعيات « الحياة » .. وهى استعراض للحيـــاة فى الشارع .. فذات مساء جلس ناجى فى مقهى بشارع فؤاد الاول ـ ٢٦ يوليو الآن ـ فنظم هذه الرباعيات يصف بهـــا صورة الحياة العابرة فى الشارع

ولناجى رباعيات فكاهية يهجو بها رجـــلا ضريرا تزوج من شابة حسناء .. يقول فيها :

يا جمال الصبا وأنس النفـــوس
خبرينــــــا عن زوجك المنحوس

حدثى أنت عن عماه « الحيسى »
وصفى لى الغـــــرام بالتحسيس

ويبدو ناجى فى هذه الرباعيات مغيظا محنقا شــــديد الغيرة من هذا الضرير الكهل الذى ملكت يمينه هــــذه الزوجة الحسناء

ترى .. ماذا كان ناجى يستفيد ، لو أن هذه الحسناء كانت على ذمة شاب له عينان ؟ !

لقد كان ناجى ـ كما رأيته فى أخر عمره ـ شديد الغيرة من الشباب .. يكاد يحسدهم أحيانا ، ويتمثل بقول شوقى فى مسرحية « كليوباترا » على لسان «زينون» أمين مكتبة قصرها الطاعن فى السن :

أما الشـــباب فقـــد بعد
ذهب الشـــباب فلم يعـد
لم ألق رأســـا فاحمـــا
الا حمـــلت له الحســـد
ووجـــدت لاعج غـــيرة
بين الجـــوانح تتقـــد

ولكن ظرفه البالغ كان يستر غيرته من الشباب وحسرته على شبابه ، وان كانت حساسيته العاطفية المفرطة تدفعه الى مآزق يخرج منها بجراح دامية ..

ومن نوادره فى هذا الباب ، أن صديقا لنا كان عليه دين أو مبلغ من المال لفتاة حسناء فكتب به شيكا واستدعى الساعى ليرسله بالشيك الى الفتاة فى محل عام كانت تنتظر فيه ..

وحضر ناجى كتابة الشيك ، فحدثته نفسه بشىء ، وأطمعته ومدت له حبل الامانى ، فأصر على أن يحمل الشيك بنفسه الى الفتـــاة .. وكان يعرفها لانها ممن يتعاطين الشعر ويترددن على الصحف التى كان يكتبفيها ناجى ...

فلما بلغ ناجى حيث تنتظر الفتاة من ذلك المحل العام ـ وكانت تنتظر الساعى لا الشاعر الكبير ـ وجدها تجلس الى شاب جميل تبدو عليه القوة ..

ولمحت الفتاة شاعرنا قادما ، فأدركت فورا أنه جعل من نفسه ساعيا يحمل اليها الشيك ، ليظفر منها نظير

هذه الخدمة المتواضعة بجلسة شاعرية ..

ولم تكن الفتاة فى تلك الساعة مستعدة لجلسة شاعرية مع ناجى ، فالشاب الجميل يشغلها ويفتنها ، فأوعزت الى فتاها أن ينهض فيقطع الطريق على الشاعر الكبير ويأخذ منه الشيك ويشكره ويفهمه أن الجلسة « مقفلة » لا يستطيع اقتحامها ..

ومد ناجى الى صديق الفتاة يدا ترتعش ، وسلم اليه الشيك ، فلم يزد الشاعر الكبير فى تلك الليلة على أن يكون ساعيا يحمل الشيك الى صاحبته حيث تجلس مع ذلك الشاب السعيد !

ومرض ابراهيم ناجى عدة ايام من أثر هذه «الصدمة» .. كان ـ رحمة الله ـ رقيقا جدا يعتبر كل شىء يصادفه صدمة لا علاج لها الا المرض ولزوم الفراش !

وبعد أيام قابلته ـ وقد بلغنى النبأ كله ـ فقلت له :

ـ كيف الحال الآن ؟

قال ، وما زال الحنق فى صوته :

ـ الولد اخذها منى !

قلت له :

ـ وماذا فى هذا .. ان أى رجل يقع له أحيانا مثل هذا الذى وقع لك ، فيحمله على محمل الفكاهة ويسخر من نفسه ومما حدث له ..

قال ناجى والحزن فى نبراته وعينيه :

ـ ولكن هذا كثير على قلبى .. ولا أستطيع أن اتفكه بهزيمتى أمام شاب « هلفوت » !

هكذا كان ناجى ..

فليس الكهل الضرير المسكين هو وحده الذى اخذ احدى الحسان من ناجى ، فكل من عرفوا ناجى ـ كلهم

تقريبا ـ أخذوا منه الحسان ، وألزموه الفراش !

ولو ذهبنا نبحث عن رباعيات ناجي لوجدنا منهـــا الكثير وكلها فى موضـــوع الحب الخائب الذى طارت عصفورته من يد الشـــاعر الرقيق ، الى يد شاب ذى عينين ، أو يد كهل ضرير

فكل من صاول ناجي فى ميدان الحب ، خرج منتصرا ، وانقلب هذا الشاعر الرقيق الحساس مهزوما متحسرا ، يبكي كالأطفـــال ، ويكابد المرض فوق الفراش ، ناظمـا لوعته فى رباعيات أو خماسيات ، أو أى شكل آخر من أشكال الشعر ..

ان حديث الرباعيات لا يقف عند حد ، فقد أصـبح للرباعيات شأن فى الشعر منذ غنت أم كلثوم رباعيات الخيام ..

وعندما قيل ان أم كلثوم ستغنى « رباعيات ناجى » تطاول المستمعون بأعناقهم يترقبون ..

ولا رباعيات هناك .. فان أم كلثوم تخطت جميـــع رباعياته ، واختارت أبياتا له من غير الرباعيـــات التى أسرف فى نظمها كل الأسراف ..

وأسلوب ناجي فى نظم رباعياته متأثر بأسلوب محمـد السباعي وأسلوب أحمد رامى ـ معـا ـ فى ترجمـة رباعيات الخيام ، على بعد ما بين الأسلوبين ..

فنـاجى هو تلميـذ معانى الخيام ، وتلميـذ أسلوب مترجمى هذه المعانى الى العربية وبخاصة السباعى ورامى

وترجمة محمد السباعى لرباعيات الخيام ، هى خليط من شعره وشعر الخيام صيغ فى خماسيات لا رباعيات ..

وقد نقلها السباعي عن الترجمة غير الحرفية التى كتبها فتزجرالد بالانجليزية ..

وهذه الترجمة الانجليزية ـ على شهرتها الفائقة ـ ليست ترجمة كلام بكلام ، بل خلط كلام بكلام

أما وديع البستانى ، فقد ترجم الرباعيات الى سباعيات ، وقال فى مقدمة سباعياته : « عسانى لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسى الى بيت عربى .. بل من رباعيات الى سباعيات » ! ..

وقد ترجم وديع البستاني الرباعية الأولى بهذه السباعية :

بت فى حانتى سمير المدام
وقبيل انهزام جند الظلام
هتف الطيف بالندامى النيام:
أيها الغافلون هبوا قياما
وارشفوها وودعوا الأياما
قبل أن تجرعوا كئوس المنايا
وتعافوا والخمر عزت شرابا

هذا الكلام الكثير الذى يشبه الثرثرة أكثر مما يشبه الشعر ، جاء مختصرا لطيفا فى ترجمة رامى لهذه الرباعية نفسها :

سمعت صوتا هاتفا فى السحر
نادى من الحان غفاة البشر
هبوا املأوا كأس الطلا قبل أن
تفعم كأس العمر كف القدر

وفى العشرينيات ترجم الاديب أحمد حامد الصراف رباعيات الخيام نثرا لا شعرا .. وسمعت من بعض العارفين باللغة الفارسية أن هذه الترجمة هى أدق

الترجمات العربية التى صــدرت حتى الآن .. عيبهــا الوحيد أنها نثر لا شعر

وفى الثلاثينات حاول الشاعر الكبير على محمود طه أن يصوغ رباعيات على غرار رباعيات «الخيام ـ رامى» .. وخماسيات على منوال خماسيات « الخيام ـ السباعى »

وقد بلغ على محمود طه فى رباعياته « الله والشاعر » ذروة المعانى الخيامية ، بل تجاوزها وزاد عليها أحــلام الرومانسيين المحدثين ، وحكمة شعراء العرب القدامى

ولا تفوتنــا الاشــارة الى ما ترجمــه المرحوم ابراهيم عبد القادر المازنى من رباعيات الخيام ، ترجمة دقيقة عن رباعيات فتز جرالد الانجليزية

وتختلط ترجمة المازنى فى ذاكرتى بترجمة السباعى ، لأن البحر واحد فى الترجمتين ، وهو بحر « الرمل » ذو الايقاع البطىء الحزين الجزل .. وان كانت رباعيــات السباعى خماسيات،أما رباعيات المازنى فهى رباعيات فعلا
ان حديث الرباعيات طويل جدا .. وليس ما قدمنا هنا الا لمحــة منــه .. وحسبنا أن نقول ان الخيــام جعــل للشطرات الأربع طقوسا فنية خاصة ، فكل شاعر ينظم هذه الشطرات يقع على الفور فى ظــلال روح الخيــام ، فيمشى وراءها فى درب المعانى الصوفية وغير الصوفية .. وكأنه مسحور ! ..

ولمــا غنت أم كلثوم رباعيات الخيــام ، أضــافت الى صوفيته الشعرية ، صوفيتها الغنائية ..

ويقف رياض الســنباطى فى هذا المجال الفنى مع أم كلثوم ، بطريقته الفذة غير المسبوقة ، فى تلحين هذا اللون من الشعر الوهاج ..



هذا الكاتب الشاعر الفنان الثرثار كان يحلو له دائما ان يتصور انه مطرب عظيم » وان يحاول اقناع قرائه بأنه مطرب عظيم وأن لم يحترف الطرب ! ..

ثرثرة مطرب غير محترف

محمد عبد الوهاب أوشك منذ بضعة عشر عاما أن يغنى قصيدة طويلة تتحدث عن مغامرات الدكتور زكى مبارك فى مصر الجديدة يوم الثلاثاء من كل أسبوع ..

ولكن عبد الوهاب فكر قليلا ثم طلب الى الدكتور زكى مبارك أن يحذف من قصيدته كل اشارة الى الزمان أو المكان، ولا يبقى فيها الا المعانى الوجدانية ! ..

كان مطلوبا من زكى مبارك أن يحذف « يوم الثلاثاء » و « مصر الجديدة » .. أى الزمان والمكان ، ويستبقى الشوق والوجد والدموع وبقية الكلمات الغنائية المعروفة

وقال عبد الوهاب انه لا يستطيع أن يغنى كلاما عن

يوم الثلاثاء ، ومصر الجديدة ، والا اضطر فيما بعد الى مجاملة بقية أيام الأسبوع ، ومجاملة بقية أحياء القاهرة وضواحيها ، فليس مستساغا أن يغنى ليوم الثلاثاء ، ويترك يوم الاربعاء أو الخميس .. وأن يغنى لمصر الجديدة وحدها ولا يغنى لمصر القديمة وشبرا وبولاق ..

والحكاية يرويها الدكتور زكى مبارك فى الجزء الأول من ديوان أشعاره الذى سماه « ألحان الخلود » وأصدره سنة ١٩٤٧ ..

لم أقرا هذا الديوان عند صدوره برغم الضجة المتعة التى أقامها حوله زكى مبارك ومريدوه فى ذلك الحين

وبعد ثمانية عشر عاما من صدوره ساقتنى اليه المصادفة .. كنت أمر بسور الازبكية متفرسا وجوه الكتب القديمة الذابلة ، فاذا بديوان زكى مبارك يستند الى السور حزينا اصفر منطويا على نفسه ، كأنه يبكى صاحبه الذى فارقه فى حادث أليم منذ بضعة عشر عاما ..

ولم أفاجأ بمحتويات الديوان ، فان لدى فكرة قديمة عن ثرثرة الدكتور زكى مبارك ، شعرا ونثرا ..

ولكن عهدى بثرثرته أصبح بعيدا .. وأين أنا الآن فى سنة ١٩٦٦ مما كنت أطالعه من ثرثرة زكى مبارك قبل خمسة وعشرين عاما ..

فى صباى طالعت كثيرا من كتاباته وقليلا من منظوماته ، فلما جلست أخيرا مع ديوانه شعرت كأنى ألتقيت بصديق قديم ترتبط به مجموعة من الذكريات ..

وتحولت أصداء ثرثرته القديمة الى أصوات مجلجلة تتواثب على صفحات ديوانه العجيب ..

هذا الديوان الذى أقول ــ بلا مبالغة ــ انه يمتع قارئه بثرثرة فريدة فى نوعها .. آية فى خفة الظل وبشاشة الوجه ..

أن الدكتور زكى مبارك هو صاحب قصيدة « مصر الجديدة فى يوم الثلاثاء » التى أوشك عبد الوهاب أن يغنيها منذ بضعة عشر عاما .. ومنها :

مصر الجديدة فى يوم الثلاثاء
كانت مراتع لذاتى وأهوائى
يا فاطر الحب فى يوم الثلاثاء
متى يعود لنا يوم الثلاثاء

ويروى زكى مبارك قصة هذه القصيدة فى صفحات طويلة من ديوانه الذى ملأه بالنثر الى جوار الشعر ، وقال فيه ما شاء عن عبقريته التى يتصور أن الناس يجحدونها .. وجرى واستطرد وراء حكايات لا تنتهى عن حبيباته اللاتى ذبن فيه صبابة ووجدا ، وعن أصدقائه وخلانه وندمائه وبطانة خلواته كبارا وصغارا ، وأصدقائه من الوزراء والباشوات وكبار موظفى « وزارة المعارف العمومية » التى كان زكى مبارك مفتشا بالمدارس الاجنبية الخاضعة لها

وتبدو استطرادات زكى مبارك وأقاصيصه كلون من الكتابة ذى طابع خاص ، فهو ليس كتابة علمية ولا أدبية بل ثرثرة مرسلة راقصة ، أساسها خفة ظل الصياغة

لقد كان زكى مبارك ثرثارا فصيحا ، لا ثرثارا مهذارا جاهلا بأصول الكتابة ، ولهذا ترتفع ثرثرته الى مستوى الفن الجميل

ويمكن أن يقال ان زكى مبارك فى عصره ، كان أستاذ

فن الثرثرة .. وكان يمارس فنه هذا بلا افتعال ، فى كتبه الادبية ودواوينه الشعرية وكتاباتة الصحفية

ولولا الثرثرة لما بلغ عدد صفحات ديوانه « الحان الخلود » أربعمائة صفحة ، فقد انساق وراء المقدمات النثرية ، فكتب لمعظم قصائده مقدمات طويلة : طار فيها شرقا وغربا ، وانطلق يثرثر عن كل شيء حتى يتعب ، فيتوقف عن الثرثرة النثرية ليبدأ الثرثرة الشعرية ..

والفرق بين ثرثرته ناثرا ، وثرثرته شاعرا ، فرق كبير جدا .. فهو كاتب بارع الاداء لذيذ التعبير ، ولكنه شاعر يحاول الشعر ولا يكاد يقيم بيتا جيدا متينا وسط حشد الابيات الواهنة التى يقيمها بسرعة واسراف وقلة مبالاة ، مرغيا فيها ومزبدا كما يشاء ..

ولكنه مع ذلك تأخذه « الجلالة » فى ثرثرته فيسمى نفسه « ملك الشعراء » .. ويتحدى جميع الشعراء .. أن يأتوا ببيت واحد كأبياته التى يعتبرها من المعجزات

ثم يمعن فى الثرثرة فيزعم لقرائه أن له صوتا جميلا لو غنى به واحترف الغناء لبذ الاولين والاخرين ، من كبار المطربين ..

وكثيرا ما أعلن زكى مبارك ندمه على أنه ضيع صوته هباء اذ لم يحترف الغناء .. فهو مطرب عظيم لايجاريه أعظم المطربين ولكن الناس لم يسمعوا صوته .. وكيف يسمعونه وهو غير محترف ؟!

وقبل أن نكمل قصة أغنيته عن مصر الجديدة ويوم الثلاثاء التى رفض عبد الوهاب أن يغنيها ، نمشى قليلا وراء ثرثرة زكى مبارك فى ديوانه « الحان الخلود »

لقد أصدر زكى مبارك هذا الديوان بينما كان يخوض معركة صحفية ضد بعض الوزراء والباشوات والشعراء

ذوى المناصب فى وزارة المعارف حينذاك

وبخفة تامة نقل زكى مبارك معركته ضد هؤلاء الناس من الصحف الى ديوانه الذى يفترض فيه انه سيسجل أشعاره لا سجل معاركه الصحفية

وهو يسخر من أحد وزراء المعارف الذين اضطهدوه فيكتب عنه قصيدة يقدم لها بهذه السطور :

« .. فى أيام وزارة النقراشى الاولى جاء موعد وضع الحجر الاساسى للمدينة الجامعية ، وكان يجب أن يحضره الملك .. ومضى اسماعيل باشا تيمور ليرى مكان الحجر ، فوجد طلبة الجامعة قد طمروه بالتراب والطين وأوراق الشجر ، فرجع الى الملك بسرعة وأخبره بما رآه ، فأمره الملك بأن يسأل النقراشى عما يعرف من هذه الحكاية الغريبة ، فاتصل النقراشى بمدير مصلحة التنظيم ، ورفعت تلك الانقال فى ثلاث ساعات ..

« .. والنقراشى باشا على جانب من الذكاء ، فأصدر أمراً بمنع الطلبة من حضور الاحتفال ، خوفا من صدور هتافات عدائية

« لم يحضر الحفلة غير الوزراء .. وكان وزير المعارف فى غفلة عما وقع ـ وهو من أكابر الغافلين ـ فابتدأ خطبته بالعبارة الاتية : أبنائى طلبة الجامعة .. فنظر اليه الملك نظرة غضب وقال : أين أولئك الابناء ؟ .. وزلزل الوزير فلم يتم خطبته .. وانصرف الملك فرأى طلبة الجامعة مترصدين فى أدغال حديقة الاورمان ، فأشار على النقراشى بأن يستقيل فاستقال ! ..

« فى تلك المدة كان مكرم عبيد يناصر تلك الخلائق ـ أى النقراشى ووزراءه ـ ومكرم باشا تحفة من تحف

التاريخ الحديث ، وله فى كل يوم ألوان ٠٠

« رأيته أول مرة فى باريس ، يوم كنت طالبا بجامعة باريس ، فسلمت عليه فرد السلام ، وكان غـــاية فى الشرود ، وهو غزال شرود ٠٠

« هل كان ينظم قصيدة ؟ ٠٠ هل كان يغنى ؟ ٠٠ انه رخيم الصوت بشهادة الموسيقار محمد عبد الوهاب ٠٠ وأصحاب الاصوات الرخيمة بكاءون ، ولهذا بكى مكرم حين رأى تلك العصابة ــ يقصد حكومة النقراشى ــ تقتل طلبة الجامعة أشنع تقتيل ! ٠٠

« كفاية ٠٠ كفاية ٠٠ كفاية ٠٠ ان هذا التمهيد فيه ما يفسر سرائر هذا القصيد »

وهكذا ثرثر زكى مبارك من السياسة الى الطرب ٠٠ وبدأ بالنقراشى وانتهى بعبد الوهاب ٠٠

ولما كان زكى مبارك يعتقد أعتقادا لا يعتريه الشك أبدا أنه مطرب عظيم ، وان كان مطربا غير محترف ، فانه لما نظم قصيدته التى يتحدث فيها عن غراميـــاته فى مصر الجديدة يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ذهب الى محطـــة الاذاعة وطلب الى المسئولين فيها أن يفتحوا أمامه الميكروفون ليغنى قصيدة « غرام الثلاثاء »

ورفضوا على الفور ٠٠ فهم يعرفونه أديبا مشهورا ، ولكنهم يجهلونه مطربا عظيما ، وملحنا طويل الباع ؟

ولم يسكت زكى مبارك على هذا الضيم ٠٠ خـرج من دار الاذاعة فانتضى قلمه وهجم به على رجال الاذاعة هجمة عنترية ساحقة ٠٠ وقال ــ فيما قال ــ ان حقـــد الوزارة النقراشية عليه هو السبب فى منعه من الغناء فى الاذاعة

وحقد الوزارة النقراشية عليه ، لم يطارده فى وظيفته

فى وزارة المعارف فقط ، بل طارده فى الاذاعة ايضـــا فحرمه من الغناء فى ميكروفونها ..

ومن اجل هذا تتبع زكى مبارك ســـقطات الوزارة النقراشية وندد بها ، على النحو الذى رأيناه فى السطور السابقة من هذا المقال

ويشرح زكى مبارك مشكلته مع الوزارة النقراشـــية كمطرب يريد أن يغنى فى الاذاعة فيقول : « أنا غنيت فى عهد الوزارة النقراشية الاولى ، وكانت محطة الاذاعة تابعة لوزير الشئون الاجتماعية ، واسمه عبد المجيد بدر باشا وهو رجل لطيف وظريف ، ولكنه خاف من أن تكون لى حقوق المؤلف والملحن والمطرب ، وهذا لا يمكن مع وزارة تريد أن أجوع ، لانى قلت فى جريدة البلاغ ان السنهورى — وزير المعارف — من سنهور .. وأنا اقسم بالله أن السنهورى من سنهور ٪ وعليه أن يصدر بلاغا بأنه ليس من سنهور ..

« وكان محمد عبد الوهاب يريد أن يغنى غـــرام يوم الثلاثاء ، ولكنه عرف أن محطة الاذاعة لا تسمح له بذلك الغناء لانه يعود على الشاعر بربح جزيل ، فالغرض أن يجوع كل ثائر على الوزارة النقراشية .. ولم يعلموا ان الله الذى يرسل السحاب لسقى الاعشاب فى الصحراء ، لا يرضيه أن يجوع رجل فى مثل أدبى وعلمى وفضلى »

* * *

ثم يعود زكى مبارك فيكتب مقدمة لقصيدة أخرى فى الديوان يكرر فيها الحديث عن غرام يوم الثلاثاء فيقول : « خطر فى البال أن أغنى فى محطة الاذاعة بصوتى ، وهو فى رخامة صوت عبد الوهاب ، ولكن أبنائى اعترضـوا ،

فلا يجوز عندهم أن يكون أبوهم من المغنين وهو يملك أكبر مجموعة من الالقاب العلمية

« قلت لابنائي : الا تسمعونني أغني من حين الى حين بقوة تنقل صوتي من الدور الثاني الى أسماعكم بالدور الاول ؟ .. قالوا : نعم .. قلت : انا أغني أشعاري حين يجود بها الوحي ، فما الذي يمنع من تقديم صورة ناطقة يعرف بها الجمهور كيف أنظم أشعاري ؟ .. قالوا : وأين الملحن ؟ .. قلت : انا الملحن ، فالشعر شعري وانا أعرف كيف الحنه بالصورة التي تموجت بها خفقات قلبي ..

« ونظمت هذه القصيدة وأنا ابكي من الفرح ، واصرخ من الفرح ، فما أنعم الله على شاعر بمثل ما انعم على باقبال تلك الروح ..

« انا بخير وعافية ، فلي مع هذه الروح في ليلة عيد القمر ميعاد .. وسأغني بحضرتها فأقول :

يا ليل ... يا ليلى ... يا ليل
يا ليل ... يا ليلى ... يا ليل
يا ليل ... يا ليلى ... يا ليل

« .. وهنا أذكر أن عبد الوهاب اعترض على هذه الزفرة المحرقة : يا ليل .. يا ليلى .. يا ليل ، وقال : سأترك هذه الكلمات عند الغناء ، فقلت : ولكنني كنت أهتف بها عند كل فاصلة من فواصل هذا القصيد .. فتأمل عبد الوهاب لحظة ثم قال : هي كلمات غير مفهومة ولكنها « شمهورش » وللجن وحي يضلل الشعراء » ..

***

لم يغن عبد الوهاب اغنية « مصر الجديدة في يوم الثلاثاء » ولم يغنها زكي مبارك في الاذاعة ، ولكنه ــ كما

يقول ـ سجلها فى شريط وترك الشريط امانة فى اعناق الاذاعيين

ولكن لماذا رفضت الاذاعة ان تذيع صوت زكى مبارك للناس .. ألانه صوت ردىء ؟ .. وكيف يكون رديئاوزكى مبارك يؤكد ان صوته لا يقل جمالا عن صوت عبد الوهاب ؟ !

يقول زكى مبارك « لابد للمصدور ان ينفث » وقد نفث المصدور ففنى بصوته غرام يوم الثلاثاء فى محطة الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية .. غنى واطرب ، وفى محطة الاذاعة شريط لذلك الغناء .. شريط مسجون ، فكيف سجن ذلك الشريط ؟!..

« سجنه معالى الاستاذ عبد المجيد بدر باشنا الى ان يسمعه ، ولكن متى يسمع ؟! .. قيل أنه لا يستظرف أن يغنى مدرس سابق ، ومفتش سابق بوزارة المعارف ، واستاذ سابق بدار المعلمين العالية فى بغداد .. كأنما الغناء محظور على رجال التعليم والتثقيف !

« ليت هذا الوزير يعرف !.. ليته يعرف انى ابدعت ثمانين لحنا من الاناشيد الصوفية ، وأن روحى غناء فى غناء » ..

ولما يئس زكى مبارك من اذاعة شريطه واسماع صوته للجماهير ، ويئس من ان يغنى عبد الوهاب قصيدة يوم الثلاثاء ، قصد ومعه وهيب دوس الى أم كلثوم ..

قال له وهيب دوس :

ـ أم كلثوم هى القادرة على غناء هذا القصيد العظيم ! ..

واتصل وهيب دوس تليفونيا بدار ام كلثوم فلم يرد

التليفون ، ولم يتمكنا من الذهاب اليها فى دارها ومحادثتها فى غناء قصيدة يوم الثلاثاء ..

وانهارت أحلام زكى مبارك فى قصيدة الثلاثاء ، بعد أن رفضها عبد الوهاب ، وبعد أن عجز صاحب القصيدة وصديقه عن تقديمها لام كلثوم

ولكن زكى مبارك ترك وراءه ثرثرة خفيفة الظل الى آخر حد ، عن قصيدة يوم الثلاثاء المغلوبة على أمرها ..

وثرثرته عن القصيدة افضل بكثير من القصيدة ذاتها ، وأفضل طبعا من غنائه الذى يقول أنه سجله فى شريط تركه سجينا فى دار الاذاعة ..

أكبر ظنى أنه لم يسجل غناء فى شريط ، وأن كل ما سجله هو هذه الثرثرة الممتعة فى ديوان « الحان الخلود » الذى صور نفسه فيه شاعرا وناثرا ومشاغبا سياسيا ومطربا غير محترف ، وملحنا غزير الانتاج ، صنع ثمانين لحنا لم يسمعها أحد ..



المطلوب الآن ، قفزة جـديدة فى اتجاه سيد درويش ، تزيد موسيقانا العربية تطويرا مع بقاء جنسيتها العربية .. وكل قفزة فى غير هـذا الاتجاه هى قفزة طائشة فى الفضاء

سيد درويش وموسيقى المستقبل

يبدو ان سيد درويش سيظل يبزغ بالتدريج على مر الزمن ، فكلما ظهرجزء من عبقريته ، بقى جزء اخر وراء الغمام ينتظر البزوغ .. وحتى الذين يعرفونه الان ، لم يعرفوه كله بل عرفوا منه شيئا وغابت عنهم أشياء ..

ومنذ سنوات كنت أحسب انى أعرف الكثير عن سيد درويش ، حتى جلست فى ندوة فنية كان يقيمها صديقنا الرسام طوغان فى منزله من ليلة الى ليلة ، فسمعت هناك الملحن سيد مكاوى يغنى الحان سيد درويش .. فما زال يغنى ويغنى حتى أيقنت أنى ما عرفت من قبل الا القليل من هذه الالحان وبدأت أعيد تعليم نفسى فى هذا الباب الضخم

ولقد قدم لنا التخت الشرقى بعد وفاة سيد درويش أعظم عبقرية غنائية هى أم كلثوم ، وصوتاً فذا هو صوت محمد عبد الوهاب

ولكن صوت أم كلثوم الذى لا نظير له ، وصوت عبد الوهاب الذى كان عميق الوقع فى الاذن المصرية ، وما زال وقعه عميقا حتى الان ، لم يسدلا الستار على سيد درويش ، لان سيد درويش كان اشارة المستقبل للموسيقى المصرية

ولقد انحسرت موجة سيد درويش زمنا غير قصير بعد وفاته ، ثم عادت ترتفع وتسيطر ، بالرغم من أن التخت ما زال مزدهرا ، واصواته ما زالت تتكاثر ..

معنى ذلك ان الاتجاه الى المسرح الغنائى ، يمكن ان يتم مع وجود الاتجاه التقليدى الى أغانى التخت ، أذ لايمكن فرض الاتجاه الاول بمرسوم ، ولا يمكن الغاء الاتجاه الثانى بجرة قلم ..

ان سيد درويش نفسه لم يظهر فى الموسيقى المصرية بجرة قلم ، بل أظهرته عوامل التاريخ العميقة حين اكتملت له تاريخيا أسباب الظهور ..

ووجود موسيقى سيد درويش المسرحية حتى اليوم الى جوار أغانى التخت ، يؤكد أنه لايمكن الغاء انتاج فنىبجرة قلم ، ولا يمكن ان تؤلف موسيقى مصرية على الاسس العلمية الا من خلال روحنا الموسيقية التى ستفشل جميع المحاولات فى قهرها والغائها

أن الكثيرين يعيبون على « عبد الوهاب » مثلا انه يستعير أحيانا جملا كاملة من الموسيقى الاجنبية الراقصة أو الموسيقى الكلاسيكية المشهورة .. ويقول الموسيقار

سليمان جميل فى مقالة عن سيد درويش أن استعارة عبد الوهاب لهذه الجمل الكاملة كانت « البادرة الاولى لانهزام التعبير الموسيقى العربى فى اغنية عبد الوهاب .. وتحولت اغنيته الى خليط عجيب من العناصر الموسيقية واساليب التعبير الموسيقى » ..

فاذا كانت استعارة جملة او عدة جمل فقط تصنع فى موسيقانا هذا الفساد ، فما بالك بالغاء موسيقانا كلها ، وارغام أذواقنا ــ قهرا ــ على التخلى عن هذه الموسيقى؟

هذا غير معقول بالمرة .. وسيظل الكونسرفاتوار بأساتذته وخريجيه غريبا عنا ، وتظل السيمفونية فى واد ونحن فى واد ، ما لم يهتد هؤلاء وامثالهم الى الاتجاه الصحيح الذى يجعل موسيقانا علمية ومصرية فى وقت واحد ..

ولن يتاح لاحد ان يتخذ من سيد درويش قميص عثمان فى معركة الموسيقى ، أو يتخذ منه جسرا الى « الغاء » الموسيقى العربية جملة وتفصيلا ، فان سيد درويش كان تطويرا للموسيقى المصرية ، ولم يكن الغاء لوجودها ..

***

ومن المحاولات التى تتخذ من المسرح الغنائى جسرا الى الغاء موسيقانا كلها ، ما يسمونه بتعريب الاوبرات العالمية ..

وقد استمعت الى أوبرا « لاترافياتا » أو « المنحرفة » التى وضع موسيقاها جوسيبى فردى ، وعرضت لاول مرة قبل مائة سنة على أحد مسارح مدينة البندقية ، ثم جاء فنانونا اخيرا فصبوها فى كلمات عربية وعرضوها على جمهورنا

رأيت لغتنا العربية تتمزق فى حنجرة المطربة السوبرانو وزميلتها الميتسو سوبرانو ، وحناجر المطربين الصارخين بالتنيور والباريتون والباص

ليس السبب طبعا ان لغتنا « ضد الموسيقى العالمية » بل السبب هو أن لغتنا لها موسيقى لفظية خاصة كامنة فى اوزان كلماتها القائمة على الاشتقاق ..

ولابد ان تستقيم الالحان التى تغنى بالعربية مع اوزان كلماتها ، فضلا عن اوزان شعرها .. ولا يمكن نطق اللغة العربية بغير مراعاة هذه الاوزان

ولكن بعض فنانينا يريدون ان ينقـــلوا كل شىء من الخارج نقلا حرفيا ..

والنتيجة أن نسمع صراخا ، ولا نفهم اللغة ولا الموسيقى ويفاجأ ذوق الانسان العربى ـ الذى صنعته عوامـــل تاريخية عميقة ـ مفاجأة عنيفة ، تجعل بينه وبين الاوبرا حاجزا نفسيا لايمكن أن يتمزق بسهولة !

ان الجمهور العربى الذى صدمته تجربة لاترافيـــاتا العربية ، يترقب الآن تجارب جديدة لتعريب أوبرا عايدة لفردى ، والبوهيمية لبوتشينى ، وحلاق اشـــبيليه لروسينى ، وكارمن لبيزيه ، ودون جـــوفانى لموزار ، وفاوست لجونو الخ ..

واذا جرت الامور فى تعريب هذه الاوبرات كما جرت فى « المنحرفة » فسيتم الانحراف ، وستكون القطيعة بين المستمع المصرى وبين الاوبرا العالمية ..

ان علوم الموسيقى على العين والرأس ، ولكن المطلوب هو البحث عن قوالب موسيقية ملائمة للغتنا وذوقنا .. وبدون هذا لن يستمع شعبنا العربى الى الموســـيقى « العلمية » ! ..

ولقد استمعت فى التليفزيون الى مطربة « أوبرالية » مضرية شـــابة تغنى كلاما عربيا على أنغـــام أوبرالية ، ويرد عليها مطرب ، يجأر بكل قوته قائلا :

معاذ الله ..

اسرار القلب ..

من علم ربى ..

هـ .. ا . ا . ا . ها .. ا

وبصعوبة بالغة استطعت أن أميز الحروف العربية فى غناء المطربة والمطرب ، فقد امتضغاها وطحناها وابتلعـا حروفها ثم نفثاها على هيئة غناء أوبرالى !

ان شعبنا يسمع منذ سنوات مطربات اوبراليـــات مجتهدات كالسيدات رتيبة الحفنى واميرة كامل وفيوليت مقار .. فلماذا لم تستطع أية واحدة منهن ان تجتـــذب الاسماع ، برغم جمال اصواتهن جميعا ؟!

السبب هو ان الموسيقى الاجنبية تفرض عليهن ان ينطقن اللغة العربية فى غنائهن الاوبرالى نطقا غير صحيح ، فيتجاهلن أوزان الكلمات العربية ومخارجها ..

ومن المستحيل اقناع المستمع العربى بأن يصغى الى غناء بهذه الطريقة ..

هل معنى هذا ان نرفض الغناء الاوربى والموســـيقى الاوربية ، ونكتفى بطريقتنا العربية فى الغناء والموسيقى كما هى الان ؟!

طبعا .. لا نرفض الموسيقى الاوربية والغناء الاوربى ، بل نسمعهما ..

ان المستمع الاوربى قد يستطيب شيئا من الغنـــاء العربى ، ولكنه لا يفكر فى الاستغناء عن طريقة الغنـــاء الاوربى ، كما يفكر هنا ــ فى البلاد العربيـــة ــ بعض

الموسيقيين الذين يقلدون الموسيقى الاوربية تقليداحرفيا، غير عابثين بكل تراث الامة العربية ومزاجها وعبقريتها الخاصة ومقتضيات لغتها وشعرها وفنونها كافة ..

فالفارق فى التكوين اللغوى يجعل للكلمات العربية أوزانا خاصة ،ويعفى الكلمات الاوربيةمن هذه الاوزان. فاذا اضفنا الى أوزان الكلمات المفردة ، الاوزان العروضية فى الشعر العربى ، ثم اضفنا اليها اختلاف المخارج الصوتية فى لغتنا العربية عن المخارج الصوتية فى اللغات الاوربية ..

واذا عرفنا ان الغناء الاوبرالى وما يجرى مجراه قد نشأ فى مهد لغاتأوربيةأدركنا عقم التقليد الحرفى الذىيمارسه بعض الموسيقيين العرب لهذا الفن !

ثم نضيف الى ما تقدم مشكلة ربع الصوت وكثرة النغمات العربية وتنوعها ، وقلة النغمات الاوربية وتشابهها ..

هنا نتبين انه لا بد لنا من سلوك طريق مستقل فىتطوير غنائنا وموسيقانا ، مستفيدين بالتجارب الاجنبية ، بدون أن نقع فى هاوية التقليد الحرفى

ولم تحترم الامة العربية ، ولن تحترم أبدا ، فنا أسمه « فن التقليد » !

ان موسيقى المستقبل فى بلادنا ، هى الموسيقى النابعة من أرضنا ، لا الموسيقى التى يجدها المقلدون مدونة فى « نوتات » جاهزة ، يستطيع ان يأخذ منها أى «موسيقار» ما يريد !!



ماذا صنع الملحنون لصوت أم كلثوم خلال ثلاثين عاما .. وماذا صنع لهم صوت أم كلثوم ؟ ...

الملحنون وصوت أم كلثوم

« الفل والياسمين والورد » . . مطلع أغنية قام بتلحينها فى العشرينيات طبيب من هواة الموسيقى هو الدكتور المرحوم احمد صبرى .. وغنتها المطربة الناشئة فى ذلك الحين أم كلثوم ، وسجلتها على اسطوانة ، أقبل على شرائها « السميعة » الذين كانوا قد انفضوا تقريبا من حول « سلطانة الطرب » منيرة المهدية ، اعجابا بصوت أم كلثوم الذى كان يحمل آثار الطفولة ، ولكنه ـ مع ذلك ـ كان أجمل واقوى من كل الاصوات فى تلك الايام . .

اتيح لى أخيرا ان اسمع فى جلسة واحدة ، هذه الاسطوانة القديمة ، ثم اسطوانة « انت الحب » الجديدة التى لحنها عبد الوهاب . .

وبين الاسطوانتين تمتد فترة من الزمن ، غنت فيها ام كلثوم لاكثر من عشرة ملحنين .. فماذا صنعوا ؟!

اذا تأملنا اغنية « الفل والياسمين والورد » وجدنا ملحنها الدكتور صبرى مفتونا بالطبقات العليا لصوت أم كلثوم .. وكانت هذه الطبقات عندئذ ذات عنفوان وحدة ومضاء ، ولكنها لم تكن قد تخلصت بعد تماما من نبرات الطفولة ، فكانت تتألق فيها قوة صوت أم كلثوم وطفولته معا ..

ولم يعن الدكتور صبرى بالمطابقة بين الكلمات والالحان، فالكلمات تؤدى معنى ، واللحن مشغول باستعراض حلاوة صوت المطربة الناشئة وحدة نبراته وكثرة مقاماته وسلامتها واقتدارها ..

وهذا النوع من التلحين كان عظيم الفائدة فى اوانه ، اذ كان بمثابة تدريبات صوتية لام كلثوم ، اكتشف فيها الملحنون سعة صوتها وامكاناته الفائقة

ولكن محمد القصبجى والشيخ « ابو العلا » اللذين عاصرا نشأة أم كلثوم لم يستسلما كل الاستسلام لاغراء استعراض صوتها ، فطلع القصبجى بأغنيته المشهورة « ان كنت اسامح » .. وفيها حاول ان يجعل الالحان تطابق معانى الكلمات ، بل حاول ان يضفى بالالحان ظلالا حول الكلمات تضاعف قوة تعبيرها

وكان الملحن القدير الشيخ أبو العلا محمد ، يدرك جيدا اهمية التوافق بين الكلام والالحان ، فأخرج تحفته الغنائية « أفديه ان حفظ الهوى او ضيعا » .. غنتها أم كلثوم بعد ان زايلت صوتها ملامح الطفولة ، فكانت من أجمل الالحان المتكاملة كلاما ولحنا واداء .. واستطاعت مهارة الشيخ « ابو العلا » أن تستعرض عظمة صوت أم كلثوم وتعطى للكلام واللحن حقهما من التوافق فى الوقت نفسه ..

ويمكن ان يقال ان اغنية « افديه ان حفظ الهوى او

ضيعا » .. هى النموذج للغناء العربى الكلاسيكى

فليس فيها نغمة واحدة غير عربية ، وقد وضع ملحنها الكلام واللحن فى وعاء واحد ، وأعطى للصوت أكمل فرصة يستعرض فيها قوته وجماله وعظمته وقدرته على خلع القلوب طربا .. وعلى هذا النحو كان الغناء العربى كما حدثنا عنه كتاب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى ، وكما أوضح طريقة تلحينه وأدائه

وبفضل الاداء العربى الصميم الذى حمل لواءه الشيخ أبو العلا وجماعة من معاصريه ، تخلص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والفجرى التى كانت قد أفسدت أوتار الحناجر فى ذلك الزمان وما قبله ، وسرعان ما أحب المستمعون الطريقة العربية وانصرفوا عن الطريقة العثمانية الفجرية ..

وهكذا كان للشيخ أبو العلا ومعاصريه المشايخ ذوى الفطرة الفنية المرهفة ، والنبوغ العجيب ، اكبر الفضل فى رد الغناء العربى الى ما يشبه أسلوبه الكلاسيكى الاول ..

وبدأ الناس حينذاك يستمعون ــ من خلال صوت أم كلثوم ــ الى غناء يتوافق كلامه ولحنه ، كما كان الشأن فى الغناء العربى القديم

ولم تكن هذه الثورة الفنية ذات صلة بالغناء الاوربى ، لانها كانت قائمة فى اساسها على بعث الطريقة العربية ، لا على تقليد الطريقة الاوربية ..

وفى هذه الظروف ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الغناء والموسيقى ، وكان صوتها من ابرز عوامل النجاح لهذه الثورة ، فقد كان عسيرا ان تصفى الاسماع التى أفسدتها الحان الاتراك والغجر ، الى الحان الشيخ « ابو العلا » ذات الاسلوب العربى ، لولا ان قيضت الاقدار

السعيدة صوت أم كلثوم لهذا الاسلوب فملأت به الدنيا وشغلت الناس ..

***

وفى الثلاثينيات أصبح كل الثمر يانعا فى بستان الغناء العربى .. واصبحت ام كلثوم كوكب الغناء،واجتذب صوتها كل الملحنين الموهوبين ..

ورسخ اسلوب الغناء العربى ، فبدأت أم كلثوم تتطلع الى الاسلوب الاوربى فى الغناء ، لتعرف أين تقف منه بالضبط ، بعد ان قطع محمد عبد الوهاب فى هذا المجال شوطا لفت الانظار ..

وفى عام ١٩٣٤ قامت ام كلثوم ببطولة فيلم « وداد » فكان فرصة لبعض التجارب المتحفظة فى التلحين الجديد ونجحت هذه التجارب فى نطاقها الضيق ، ثم اتسعت قليلا فى الفيلم الثانى « نشيد الامل » الذى قامت أم كلثوم ببطولته سنة١٩٣٦ وغنت فيه لاول مرة الحانا موزعةعلى الطريقة الاوربية ، كما فى أغنية « يا مجد ياما اشتهيتك» و « منيت شبابى » .. و « نشيد الجامعة »

وبرغم نجاح هذه التجربة ، عادت ام كلثوم الىالطريقة العربية الخالصة فى أفلامها التالية ، وبلغت هذه الطريقة حد البداوة فى فيلم « سلامة » الذى تولى زكريا احمد تلحين جميع أغانيه ــ ما عدا اغنية واحدة لحنها السنباطى ــ ولكن بداوة ام كلثوم وزكريا بلغت فى اغانى سلامة قمة عالية من قمم الجمال !

وقد كانت اغانى أفلام أم كلثوم ــ بوجه عام ــ من خلاصة أغانيها ، وأقواها وأجملها

الا ان حفلاتها الاذاعيةالشهرية التى بدأتها قبل ثلاثين عاما كانت تحتاج الى الحان اخرى غير الحان الافلام ، ففى هذه الحفلات تخاطب أم كلثوم المستمعين مباشرة ، لا فى

المسرح الذى تغنى فيه وحده ، بل فى كل مكان من العالم العربى يوجد به راديو ..

وهذا كله يحتاج الى الحان شبه خطابية يعيش الجمهور العريض فى حماستها واثارتها طوال السهرة

ومن هنا بدأت تنمو طريقة السنباطى فى التلحين لام كلثوم ، بحيث تشتمل كل اغنية على مقاطع معينة تثير الجمهور ، و « قفلات » خاصة تهزه فى مقاعده

الا ان السنباطى لم يتبع أسلوبا سوقيا مبتذلا فى اثارة مستمعى الحفلات الشهرية ، بل أستطاع ان يستنبط طرائق فى التلحين وافقت عظمة صوت أم كلثوم ، وسايرت تطور فن الغناء العربى ، بل أسهمت فى تطوير فن الغناء العربى ، ودفعته الى الأمام ..

وبالتدريج اصبحت لطريقة السنباطى فى التلحين ملامح خاصة ثابتة ، واقترنت فى اسماع الناس بصوت ام كلثوم وطريقة أدائها ..

وخلال ثلاثين عاما تقريبا لحن السنباطى لام كلثوم روائع وشوامخ ، اصبح عسيرا على غيره أن يصنع مثلها فاجفل الملحنون وخافوا من التلحين لام كلثوم

ولكن الزمن لم يتوقف ، وكان لابد ان يجرب الملحنون حظهم مع صوت أم كلثوم ، واتاحت أم كلثوم لهم هذه الفرصة .. فهل تقدموا بألحانهم خطوة الى الامام ؟!

هل استطاعوا أن يتخطوا السنباطى ويخلفوه وراءهم ؟! ..
انهم تخطوا الدكتور صبرى وبعض أغانيه العشرينية ..

ولكنى لا أستطيع ان اقنع اذنى بأن الحانهم الجديدة شىء جديد ، أو اعلى مقاما من القديم ، أو خطوة الى الامام بعد القصبجى وزكريا احمد والسنباطى ..



غنت أم كلثوم للحب ، وغنت للوطن .. والصلة وثيقة جدا بين ما غنته للحب وما غنته للوطن

أم كلثوم والأغنية الحماسية

الغناء الوطنى والثورى انسدل عليه الستار تقريبا في أواخر العشرينيات بعد موت سيد درويش ، وتراكم الرماد على ثورة ١٩١٩

ولكن الروح الوطنية انتعشت فى الثلاثينيات قبل عقد معاهدة ١٩٣٦ فبدأت الاغانى الوطنية والاناشيد تظهر من جديد ، وان لم تكن تحمل الثورية التى كانت لها خلال عواصف ١٩١٩ وسنوات الصراع الوطنى قبل موت سعد زغلول ..

وقبل أن يتولى حزب الوفد الحكم متوجا رأسه بمعاهدة ١٩٣٦ اندفعت وزارة على ماهر حينذاك وراء موجة الحماسة الوطنية ، فأقامت مسابقة لتأليف نشيد قومى أسفرت عن فوز النشيد المعروف الذى مازال يتردد حتى الان ومطلعه «بلادى بلادى فداك دمى» من تأليف محمود محمد صادق

وفاز معه نشيدان اخران ، اشتهر احدهما وهـــو من تأليف الاديب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، ومطلعه :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن

وكانت للرافعى فى العشرينيات محاولة اخرى لنظـم نشيد قومى ، أسفرت عن نشيده المعروف الذى يتحدث فيه على لسان سعد زغلول ، أو أى مواطن آخر قائلا فى مطلعه :

اسلمى يا مصر انتى الفدا ذى يدى ان مدت الدنيا يدا

وكان الاديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد من خصوم الرافعى فى مذهبه الادبى ، فعز عليـه أن يكون الرافعى بالذات هو مؤلف النشيد القومى ، وانبرى يعارضه أو يسد عليه الطريق بتأليف نشيد قومى آخر .. قال العقاد فى مطلعه :

قد رفعنا العلم

للعلا والفدا

فى ضمان السماء

وقد مات نشيد العقاد فى مهده ، ولم يستمع اليه أحد بعد نشره فى الصحف

وقبل موت نشيد العقاد ، مات نشيد شوقى الذى قال فيه :

بنى مصر مكانكم تهيـــا فهيا مهدوا للملك هيـــا
خذوا شمس النهار له حليا ألم تك تاج أولكم مليـــا

وبعد أن أصبح نشيد « بلادى بلادى فداك دمى » النشيد القومى الرسمى ، بدأت موجة خفيفة للاناشـيد تزحف على أفلام السينما المصرية ودواوين الشـــعراء والزجالين ..

وكان نشيد « الجامعة » الذى لحنه السنباطى وغنته ام كلثوم فى فيلم « نشيد الامل » سنة ١٩٣٦ من آثار تلك الموجة الخفيفة للاناشيد الوطنية ..

ويقول أحمد رامى ـ مؤلف النشيد ـ في مطلعه :

يا شباب النيل
يا عماد الجيل
هذه مصر تناديكم فلبوا
دعوة الداعى الى القصد النبيل

ويقول فيه أيضا :

مصر ترجو عـزها فى نصركم
فانصروها بالعلوم والفنـــون
واكتبوا فى صفحة الدهر لهـا
آية المجد وذكر الخـــالدين

وهكذا يجرى الكلام فى هذا النشيد فى صيغة نداءات عامة تدعو الشباب الى المجد والنصر والقصـد النبيل ، ومجموعة أخرى من الاهداف المبهمة

فلم تكن للشباب المصرى فى ذلك العهد أهداف محددة ، ولم يكن الشعراء المصريون يجيدون الا النداءات الحماسية العامة ، يكثرون فيها من الاشادة بالنيل والاهـــرام وأبى الهول ورمسيس وبقية الالفاظ الحماسية المتعلقة بمجد قدماء المصريين

وكانت عروبة مصر حينذاك مثار جدل بين المثقفين، ولم يكن أكثرهم يتصور مجدا قديما لمصر الا من خلال مايعرفه عن الاهرام وأبى الهول ومعبد الكرنك الخ ..

والحقيقة أن اناشيد الثلاثينيات كانت كليشـــيهات مكررة يتناولها الشعراء ، بحسب مقدرة كل منهم على النظم

بلا اختلاف جوهرى فى مضمون الكلام ..

وفى فيلم « دنانير » غنت أم كلثوم نشيدا عن « بغداد » .. فقد كان هذا الفيلم يروى قصة مطربة بغدادية قديمة فى عصر هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكى

وكان من الممكن ان يتضمن هذا النشيد الحماسى شيئا عن مجد الامة العربية الممتد من بغداد الى الاندلس ، ولكن مؤلف النشيد التزم بمفاهيم الثلاثينيات، وخصص النشيد كله للتغنى بجمال بغداد ومجد هارون وجعفر

الا أن أم كلثوم لم تقتصر على غناء الاناشـــــيد الحماسـية فى أفلامها ، فجربت كذلك أن تتغنى بالوطن غناء عاطفيا أو شبه عاطفى

من ذلك أغنيتها البديعة التى لحنها زكريا أحمد وغنتها فى فيلم « عايدة » عن القطن المصرى ومطلعها :

ابيض منـــــور على عــــوده
يحيى الأمل عند وجـــــــوده

وفى بداية الأربعينيات بعد انتشار الدعوة الى انشاء الجامعة العربية ، غنت أم كلثوم اول قصيدة عروبية ، أحيت بها حفلة اقامها مندوبو الدول العربيــة فى بداية تأسيس الجامعة ..

ومؤلف القصيدة هو الشاعر المرحوم محمد الاسمر ، ومطلعها :

زهـــــر الربيع يرى أم سادة نجب
وروضة أينعت أم حفــــلة عجب

ومنها قوله :

حياكم وهو جذلان وقال لـــكم
ان العروبة فيما بيننـــا نسب

وختم محمد الأسمر قصيدته ببيت من شعر حافظ ابراهيم :

هـذى يدى عن بنى مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب

وكانت لهذه القصيدة ضجة فى حينها ، فقد كانت أول قصيدة عروبية تغنيها أم كلثوم ويلحنها زكريا أحمد

❋ ❋ ❋

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية ، ونهضت مصر تطالب البريطانيين بالجلاء عنها ، فانتشرت الاناشيد والاغانى الحماسية ، وكان أشهرها بيت شوقى الذى غنته أم كلثوم من قصيدة « سلوا قلبى » :

وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وكانت كلمة « المطالب » هى مفتاح الحماسة فى هذا البيت ، لأن الأهداف الوطنية كان اسمها فى ذلك العهد « المطالب الوطنية » .. وكان بعضهم يسميها « الأمانى الوطنية »

ثم توالت القصائد الحماسية تغنيها أم كلثوم من شعر شوقى ، وأشهرها فى تلك الأيام قصيدة « النيل » :

من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كف فى المدائن تغدق

وقصيدة السودان ، وفيها يقول شوقى :

وقى الارض شر مقابيره
لطيف السماء ورحمانها

ويصف ماء النيل الفائض علينا من السودان :

وما هـــو مـــاء ولكنـــــه
وريد الحيـــــاة وشريانهـــا

كان الهتاف الوطنى عقب الحرب العالمية الثانية هو : « الجلاء ووحدة وادى النيل » .. وكان هذا الهتاف يجد تعبيرا فيما تغنيه أم كلثوم من شعر شوقى ..

فكلمة « المطالب » تعنى المطالب الوطنية

أما « وريد الحياة وشريانها » فهو السودان .. الشطر الثانى من هتاف ما بعد الحرب العالمية الثانية

وفى الخمسينيات الأولى ــ قبل الثورة ــ عندما كان الهدف الغاء معاهدة ١٩٣٦ وشن حرب العصابات على الاحتـــلال البريطانى فى منطقـــة قنـــاة الســـويس ، غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة حافظ ابراهيم :

وقف الخـــلق ينظـــرون جميعـــا
كيف أبنى قواعـــد المجـــد وحـــدى

وبلغ السنباطى فى تلحين هذه الأغنية الوطنية قمـــة النجاح فى الملاءمة بين الحماسة والتطريب

❋ ❋ ❋

ثم جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وفى بدايتها حيتها أم كلثوم بقصيدة من شعر أحمد رامى والحـــان رياض السنباطى مطلعها :

مصر التى فى خاطـــــــرى وفى فمى
أحبهـــــــــــا من كل روحى ودمى

نسج رامى فى هذه القصيدة على منواله القديم : نداءات حماسية عامة .. كلام جميل عن الوطن ومائه ونخيـــله

وظلاله .. ألفاظ عن الخير والجمال والحب والسعادة ..

ولم ينس المعنى التقليدى الذى كان لا ينساه الشعراء والكتاب فى مصر قبل عشرين عاما ، وهو طمأنة « النزلاء الأجانب » على أموالهم وأرواحهم !

وتدفقت ثورة ٢٣ يوليـــو ، وتدفقت معها الأغانى والاناشيد الوطنية ، وكان لام كلثوم نصيب كبير فى هذه الاغانى والاناشيد

يكفى أن نتذكر بعض أغانيها وأناشيدها

- يا جمال يا مثال الوطنية
- والله زمان يا سلاحى
- محـــــــلاك يا مصرى
- ثوار ..
- الزعيم للشعب وفى بالعهود
- طوف وشوف
- على باب مصر
- الحب الكبير

لقد تبلورت المعانى والأهداف الوطنية عنـد الشعراء لأنها تبلورت على صعيد الوطن كله ، ولم تعد نداءات عامة ، وكلمات معسولة عن الوطن وأمجاده القديمـة ، وأهرامه العالية !

ومع تبلور المعانى فى كلام الشعراء والزجالين تبلورت طرائق التلحين لدى الملحنين



منذ اكثر من ثلاثين عاما تغني ام كلثوم في حفلات اذاعية شهرية .. لم يتغير شيء في مطربة عصرنا الكبيرة طوال هذه السنين

في حفلات أم كلثوم

قبل عشر سنوات كانت حفلات أم كلثوم الاذاعية تنتهي في الثانية صباحا أو قبلها .. وقلما تمتد الى الثالثة ، فضلا عن الرابعة ، كما يحدث في حفلات هذه الايام ..

لشد ما يزداد سخاء أم كلثوم ، ولشد ما يزداد طمع المستمعين في سخائها ، حتى اضطرت في احدى حفلاتها الاخيرة أن تقول للمستمعين في « قفشة » غنائية ضاحكة « نسينا النوم » .. بعد أن استعادوا أغنية « نسيت النوم » حتى مطلع الفجر ! ..

وأظن أنه قد آن للسعداء الذين يتاح لهم حضور حفلاتها أن يقتصدوا في الاستعادة ، ويضبطوا عواطفهم قليلا ، لتنتهي كل حفلة في الثانية صباحا على الاكثر ..

غير معقول ـ فيما أتصور ـ أن يواصل المستمعون هذا الجشع الفنى والعاطفى ، فينتهبوا من أم كلثوم هذا الجهد وهذا الوقت فى كل حفلة ..

فقد آن لحفلات كوكب الشرق أن تبدأ مبكرة وتنتهى مبكرة .. وآن لجمهور هذه الحفلات أن يأخذ من كوكب الشرق ما تجود به ، بلا الحاح فى الاستعادة مرة بعد مرة ، وبلا ضجيج وراء كل عزف منفرد على احدى آلات التخت أو « الاوركسترا » .. وبلا انفجار ساذج خلف كل مقدمة موسيقية ، أو « لازمة » تلعب فيها اصابع العازف ببراعة وانسياب ..

صحيح أن من يسمع أم كلثوم فى حفلة ، ويراها رأى العين تغنى ، تعتريه حالة من الوجد لا يمكن مقاومتها ، ولكن الوجد الشاعرى ، يختلف كثيرا عن هذا الانفلات العصبى الذى يصيب بعض الجمهور

لقد آن لهؤلاء أن يلتزموا قواعد سلوكية لا يخالفونها ، فليس معقولا أن يواصلوا هذا الهرج والمرج فى كل حفلة وكل اغنية ، وكل مقطع من أغنية ، ويمنعوا أم كلثوم أن تنتقل من نغمة الى نغمة الا بعد استعادات متوالية ملحاحة تشبه الابتزاز

هذه الملاحظة السلوكية ، العابرة لا شأن لها بالفيض الفنى الذى لا ينضب أبدا عند أم كلثوم

فنحن ـ كما قالت احدى الصحف الامريكية ـ لا نقلق عليها من شىء ، ولا نراها فى امتدادها الظليل المستمر الا قطعة من الخلود ..

لو كانت الصحة ـ فى أكثر صورها توهجا ـ والقوة ـ فى أكثر حالاتها غضارة ـ مما يمكن ان يشتريه انسان

لانسان ، لاشترت الامة العربية كل الصحة والقـــوة والسعادة لام كلثوم

وقديما قال الخليفة « الواثق » لمطربه العظيم اسحاق الموصلى : لو كانت الصحة والقوة مما يجتلبه المرء بالمال لاشتريتهما لك بنصف ملكى ! ..

ان أم كلثوم – على أية حال – انسانة .. ولها طاقة الانسان ، مهما استطاعت بموفور طاقتها الفذة أن تشـع الايحاء بالخلود والتجدد الدائم

***

ومن عجائب أم كلثوم فى حفلاتهـــا الغنائية – ونترك مشكلة جمهور هذه الحفلات جانبا – انها قادرة على تقديم فنها متجددا فى كل حفلة من هذه الحفلات

فأغانيها القديمة فى الثلاثينيات ، يمكن أن تعود فى الستينيات جديدة تماما ..

هل معنى ذلك أن صوت أم كلثوم يتحرك على امتداد السنين فى مكانه ، وفى مداره ، كأنه مقدود من معدن صلب عجيب لا يتأثر بعوامل الزمان التى يتأثر بها كل شىء ؟!

ان الثابت ، بلا جدال ، هو أن معدن صوتها الذهبى لا يصدأ أبدا .. لقد برهنت الايام المديدة على أنه صوت ذهبى بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة .. فالصدأ لا يتطرق اليـــه ..

ولكن .. حتى الذهب يتحرك مع الزمن ، ويتشكل مرة بعد مرة ..

وهذا تقريبا ما اتفق لصوت أم كلثوم فى تعامله مع

الظروف الكثيرة التى تأثر بها فى مراحله المتعاقبة

ان كتلة الذهب الهائلة التى صيغ منها صوت أم كلثوم لم تجمد على صياغة واحدة طوال مراحلها الزمنية والفنية

واذا تأملنا أداء أم كلثوم لاغانيها فى موسمها الغنائى الاخير ، انفتح امامنا باب واسع نطلع من خلاله على بعض أسرار هذا الصوت ..

لقد استوفى صوت أم كلثوم نضجه منذ بـــــداية الثلاثينيات ، وامتلأ بالروعة التامة من قمته العليـــــا الساطعة كعين الشمس ، الى سفوحه الخضراء الفاتنة

أما « أراضيه » فلم يتوقف عندها ملحنو أغانى أم كلثوم حينذاك ، لان الثراء الاسطورى فى قممه وسفوحه أغرى الملحنين باستغلالها حتى استنفدوا طاقتهم هناك ..

وهكذا أسمعتنا أم كلثوم فى الثلاثينيات ألحـــــان التصبجى ذات النغمات المديدة والترجيعات الطويلة

ولم يكن هذا أول عهدها بالمد والترجيع الطويل ،فقد كانت اغانيها التى لحنها المرحومان الدكتور احمد صبرى والشيخ أبو العلا محمد فى العشرينيات حافلة بالنغمات العالية التى تمس الاطراف العليا للصوت ، ولا تهبط الى السفح لتستقر فيه ، بل لتحتشد وتتأهب للصعود الى القمم مرة أخرى ..

كانت أغانيها فى تلك الفترة أشبه بتمرينات صوتية وصقل للمادة الذهبية فى صوتها ..

وبعد انقضاء هذه الفترة ، وانتهاء العهـــــد الاول للقصبجى فى الثلاثينيات ، بدأ السنباطى رحلته الموفقةمع الصوت السماوى فى نفس الطريق تقريبا .. فسمعنا ألحانه الرائعة لام كلثوم : افـــرح يا قلبى .. قضيت

حياتى .. النوم يداعب عيون حبيبى .. يا ليلة العيد الخ

ثم جاءت التجربة العريضة لزكريا أحمد مع صوت أم كلثوم فى الالحان التى صاغ بها كلمات بيرم التونسى فى الاربعينيات

وخلال هذه التجربة الناجحة الغنية ،تذكرت أم كلثوم أغانيها التى اشتهرت بها العشرينيات ، عندما كانت صبية صغيرة موهوبة ، فبدأت أم كلثوم - خلال الاربعينيات - تخصص « وصلة » فى بعض حفلاتها لاداء أحدى أغانى العشرينيات ، فسمعنا منها « وحقك انت المنى والطلب » .. و« أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » .. وبعض الاغانى القديمة الاخرى

عادت أم كلثوم فى الاربعينيات الى تلك الاغانى العشرينية ، فأدتها بصوت أكمل وأجمل ، ومقدرة وذوق أكثر نضجا

صحيح أنها لم تتمسك فى أدائها هذا بما كانت تتمسك به فى العشرينيات من الانضباط الصارم ، لان هذا الانضباط الصارم انما كان سببه فى العشرينيات حاجتها - وهى ناشئة - الى اثبات تفوقها الساحق فى الاداء مستوفيا درجات الصوت،مع قوة بالغة فى«الاسر». وأعنى بهالتحكم الدقيق فىاللحن ، مع جزالة الاداءوصلصلة الصوت ، على نحو ماكان متبعا فى تلك الايام

أما فى الاربعينيات ، فان أم كلثوم أصبحت بلا شريك من المطربات والمطربين ، فقد اندثر صوت منيرة المهدية ، وتراجعتفتحيةأحمد والمطرباتالاخريات، وانتهت منافسة عبد الوهاب لها بوصفه مطربا بعد الذى طرأ على صوته من تغيرات فسيولوجية أفقدته الكثير من ميزاته التىكانت له فى العشرينيات وبداية الثلاثينيات ..

وأصبح كل المستمعين يدينون بالولاء لصوت أم كلثوم وحده ، ويدركون نفاسة معدنه ، واستحالة وجود قطعتين من هذا المعدن النفيس فى زمن واحد وعالم واحـــد ، لأن وجود هذا المعدن النفيس المدهش متمثلا فى صـــــوت أم كلثوم ، ليس الا فلتة من فلتات الدهر ، لا تتكرر الا بمصادفة فذة على امتداد الاحقاب ..

واختتمت أم كلثوم مرحلة الاربعينيات بروائعهـا التى لحنها السنباطى : سلوا قلبى .. من أى عهـــد .. وفى الارض شر مقاديره .. ريم على القاع .. ولد الهدى .. رباعيات الخيام

***

وعندما سافرت أم كلثوم فى بداية الخمســينيات الى أمريكا أول مرة ، كان الحفاظ على صحتها يعنى الحفـاظ على الكنز القومى الرفيع

ولما عادت وقد عوفيت ، بدأت مرحلة جديدة فى الصوت والاداء تناسب الصياغة الجديدة لكتلة الذهب فى صوتها بعد أن تعاقبت عليه عوامل فسيولوجية مختلفة ..

وبدا واضحا أن التبعات الفنية الجديدة التى تنتظـــر الصوت السماوى أضخم من كل التبعـــات الفنية التى نهض بها فى الماضى وأداها

ولا ينسى أحد روائع أم كلثوم فى هذه الفترة ، فقـــد لحن لها السنباطى مجموعة من القمم الغنائية

وفى أواخر هذه الفترة لاحظ المستمعون بتأثر بالغ ، أن الخصائص الجمالية فى صوت أم كلثوم تزداد تركيزا ، فان انتشار هذه الخصائص على مساحة صوتية شاسعة ،

كان من شأنه فى الماضى أن يقلل من تركيز هذه الخصائص النادرة ..

وأصبح واضحا أنه كلما تركزت خصائص الجمال فى صوت أم كلثوم ، برزت روعته أكثر مما كانت فى الماضى بل برزت فيه روعة جديدة كانت خافية ..

ليس معنى هذا أن الدرجات العليا لصـوت أم كلثوم قد استراحت نهائيا من العمل .. فقد رأينا هذه الدرجات تعمل بكفاية عجيبة فى مناسبات متعددة لا تبعد عنا اليوم الا قليلا ..

ففى عام ١٩٦٢ غنت أم كلثوم أغنية « هو صحيح الهوى غلاب » .. وما زال تسجيلان لهذه الاغنية يذاعان فى التليفزيون من وقت الى آخر

وفى نهاية أحد هذين التسجيلين ــ بعد أن يستعيد الجمهور أم كلثوم ــ تعود الى فتح الستار وتغنى المقطع الاخير .. وفيه تطلق لصوتها العنـان الى أعلى درجاته ، حتى ليخيل الينا أنها تغنى أحد ألحان أحمد صبرى فى العشرينيات ..

وقد فعلت أم كلثوم ذلك فى أغنية التزم ملحنها المرحوم زكريا أحمد درجات معينة من صوت أم كلثوم ، ليس منها الدرجات العليا التى أشرنا اليها

وفى احدى الحفلات الاخيرة غنت أم كلثوم « أروح لمين » بأداء جديد ..

ومن خلال هذا الاداء الجديد ، تصرفت فى اللحن بحيث كبحت جماح الدرجات العليا ، فالمهم فى أداء هذه الاغنية وأمثالها من الاغانى القديمة نسبيا ليس استعراض مساحة الصوت ، بل احياء الاغنية ذاتها ، وتفسير ألحانها تفسيرا جديدا

ومن عادة أم كلثوم عند أدائها هذا النـوع من الاغانى ألا تكتفى بتفسيرها من جديد ، بل تضيف اليهـا ألحانا ترتجلها فى لحظات الغناء

ولكن أم كلثوم فى هذه المرة ، عدلت عن هذا اللون من الارتجال العفوى الذى يفاجأ به المستمعون ، بل ويفـاجأ به كذلك العازفون وراءها فى التخت الكبير بقيادة العازف النابغة محمد عبده صالح

وكان واضحا عنـــدما قطع عبـــده صالح بضرباته الموسيقية العالية سياق الاغنية ، وبدأ فى « التقسيم » أن الوقوف هنا متفق عليه سلفا بين المطربة الكبيرة والعازفين

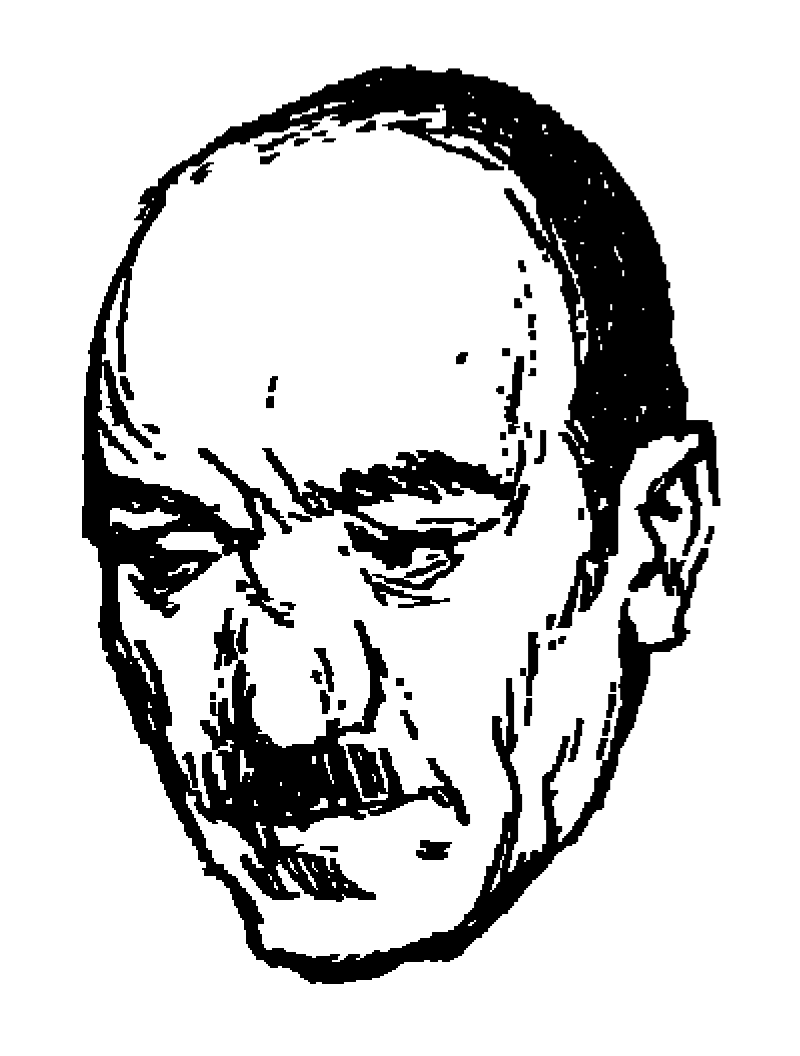
وفى اعتقادى أن هذه هى الطريقة الصحيحة المناسـبة للالحان المرتجلة الرائعة التى اعتادت أم كلثوم أن تقطـع بها سياق الاغانى التى كررت أداءها ســـنوات ، حتى أصبحت فى حاجة الى الاحياء والتفسير الجديد والاضافات المرتجلة البديعة ..

لقد عاش صوت أم كلثوم مرحلة شبابه الاول .. وهو الان يمضى فى شبابه الثانى ..

وماذا بعد شبابه الثانى ؟!

الشباب الثالث طبعا ..

فان صوت أم كلثوم هو الشباب الدائم



بغناء القصائد من حين الى حين ، تؤكد أم كلثوم لمستمعيها المختلفى الميول والاذواق انها لم تهجر غناء القصيدة العربية ، ولن تهجره ، لانه أساس فنها العظيم ...

فن غناء القصائد

أم كلثوم هى مطربة القصائد فى عصرنا .. فلم تغن مطربة ولا مطرب نصف ما غنت من القصائد ..

وقد بدأت أم كلثوم حياتها الفنية بغناء القصائد والتواشيح ، ولم تغن الشعر العامى الا بعد سنوات من التمرس بالغناء الفصيح ..

وكان من حسن حظ الغناء العربى الحديث أن التقت أم كلثوم فى بداية عملها على مسارح القاهرة بالملحن الشاعر الاديب الشيخ « ابو العلا محمد » فنقل ذوقه الفنى اليها ، ودرب حنجرتها الناشئة على الغناء العربى السليم ، فى ذلك العصر الاعجمى الذى شاع فيه الغناء الغجرى والعثمانى

ان أم كلثوم قد ثقفت حنجرتها فى مدرسة هـذا الشيخ الشاعر الملحن .. فأصبحت لهجتها فى الغناء هى لهجة المثقفين ، وسمع الناس - لاول مرة حينذاك - مطربة تغنى بلهجة راقية

كانت « البحة » الغجرية البدائية هى علامة الحسن والجمال فى أصوات المطربات .. وكان العويل العثمانى الاجوف دليل المقدرة الفنية ، وكان النطق العامى الفظ هو لغة جميع الاصوات !

فلما غنت أم كلثوم وسط هذه الضوضاء ، صمت المطربون والمستمعون

كانت اللهجة العربية المثقفة هى أول خط بارز فى فن أم كلثوم الغنائى الذى اقتحمت به مسارح القاهرة !

وهكذا بدأت أم كلثوم حياتها الفنية على أساس علمى كما يبدأ المطربون والمطربات الكبار فى أوربا ..

فان هؤلاء يبدءون بالتدرب على النطق وتثقيف اللسان والاحبال الصوتية وكان هذا الاساس العلمى مجهولا عند مطربات القاهرة ومطربيها

وبطبيعة الحال كان فن غناء القصائد فى تلك الايام ضعيفا ساذجا ، لا يرتبط بالتراث العربى القديم لفن الغناء .. وهذا التراث قائم اصلا - كما هو معروف - على غناء القصائد ..

وعندما غنت أم كلثوم من ألحان الشيخ أبو العلا « وحقك أنت المنى والطلب » و « الصب تفضحه عيونه » افتتحت عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية ..

وبصوتها النحيل الذى يحمل أثار الطفولة غنت أم

كلثوم قصائد رقيقة جميلة ، كقصيدة أحمد رامى التى يقول فيها :

ان حالى فى هواهـــا عجب أى عجب
ليس يرضينى رضـاها ثم يشـــقينى الغضب

وكقصيدة على الجارم التى مطلعها :

مالى فتنت بلحظ الفتاك وسلوت كل مليحة الاك

وقد اشتهرت قصيدة الجارم فى العشرينيـات ، حتى كان الفلاحون يغنونها وراء المحاريث فى حقولهم

واختتمت أم كلثوم المرحلة الفنية الاولى لغناء القصائد بلحن رائع للشيخ « أبو العلا » فى أبيات جميلة رقيقة من قصيدة شـــاعر العصر الايـــوبى « ابن النبيه » التى مطلعها :

أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا
ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

وكان الطابع الاساسى فى غناء قصائد هذه الفترة ، اطلاق صوت أم كلثوم على أمتداد مقاماته الكثيرة والتشدد فى دقة الاداء تحقيقا لعنصر أساسى من عناصر الغنـــاء العربى سبق أن تحدثنا عنه ، وهو « قوة الاسر » ٠٠ أى متانة بناء الاداء نبرة فوق نبرة !

وقوة الاسر فى الغناء العربى ، استطراد للفصاحة فى الشعر العربى ، فلا تجتمع الفصاحة الشديدة فى الشعر مع ركاكة الغناء !

واذا كان الشعر ضعيفا كقصيدة « وحقك انت المنى والطلب » ٠٠ فان الاداء القوى يستر هذا الضعف ، وبخاصة اذا قام بهذا الاداء صوت قوى أيضا ٠٠

وقد حققت أم كلثوم فى هذه الفترة تدريبا صوتيا بالغ الاهمية ، كما حققت نصرا ساحقا على طريقة الغنــــاء الغجرى والعثمانى ، واكدت ان القصيدة فى عصرنا هى نصف فن الغناء العربى على الاقل !

وفى تلك الفترة تطور فن غناء القصائد عند أم كلثوم ؛ من طريقة « الانشاد » بلا آلات موسيقية ، الى غناء قائم على أصول فنية ، متنوع المقامات ..

وفى بداية هذا التطور كانت أم كلثوم تستخدم تختا شرقيا يحتوى الالات الاربع الاصلية : العود والنــــاى والقانون والرق ·· مضافا اليها « الكمنجة » وهى آلة غربية تم تعريبها فى القرن التاسع عشر على أيدى العازفين السوريين ، ثم دخلت القاهرة مع والد سامى الشوا ·· وكان اسمها فى ذلك العهد « كمنجه الاروام » ·· ثم نطقت كمنجة الاروام بالعربى مع آلات التخت الشرقى !

والقصائد الاولى لام كلثوم معزوفة على التخت الشرقى ذى الالات الموسيقية الاربع مضافا اليها كمنجة الاروام الناطقة بالالحان العربية !

وعلى يد الشيخ ابو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن يعرفها رجال الموالدوحلقات الذكر والاناشيد الدينية ··

ففى القاهرة كان الملحنون يدرسون كتاب الشــــيخ محمد شهاب المعروف باسم « سفينة شهاب » ويعرفون أن هناك مقامات كثيرة غير الصبا والسيكا والبياتى !

وفى القاهرة ـ على يد الشيخ ابو العلا ـ غنت أم كلثوم المقامات الغنائية التى لم يكن يعرفها رجال الموالد وحلقات مرة بسفينة الشــــيخ شهاب وكنز التواشيح والمقامات الذى تحتويه !

وفى الثلاثينيات غنت أم كلثوم مجموعة جـديدة من القصائد لاحمد رامى وغيره ، وظهرت الاوزان الشعريـة المتعددة ، والقوافى المختلفة فى القصائد التى تغنيها أم كلثوم ، لتواجه تعدد المقامات اللحنية واختلافها ..

ومن ناحية الشعر ، ظهرت المعانى الرومانسية لاول مرة فى هذه الاغنيات التى نظمها رامى .. كقوله :

يا غائبا عن عيونى
وحاضرا فى خيالى
تعال هدىء شجونى
طالت على الليالى

ثم انتقل رامى فى القصيدة الى وزن آخر :

تعال فى مسرى النسيم العليل
بين المروج الخضر عند الاصيل
حتى اذا الشمس دنت للمغيب
وآوت الاطيار بعـد الغروب

ثم عاد الى الوزن الاول :

راعيت سرب النجـوم
وبت أشكو الهمـوم

هكذا تنقل رامى بين الاوزان والقوافى ، ليواجـه الاحتياجات الفنية الجديدة التى تلزم للملحن المجدد محمد القصبجى الذى توسع فى استخدام المقامات الموسـيقية والجمل اللحنية المختلفة .. مع اعطاء « التخت » مجالا اوسع ليشترك مع المطربة فى التعبير والاداء اللحنى ، وبذلك بدأ التخت الشرقى خطواته الاولى ليقف اخيرا ــ وفى ايامنا بالذات ــ على اعتاب التحول الى نـوع من الاوركسترا لا هو بالغربى ولا بالشرقى الصميم !

والحقيقة أن تجارب القصبجى فى تلحين قصائد أم

كلثوم وأغانيها الزجلية فى الثلاثينيات جديرة بدراسة واسعة ، فانه يخيل الى ان القصبجى كان يتطلع فى تجاربه هذه الى ادخال نوع من الهارمونى على الغناء والموسيقى فى بلادنا .. ومن يتأمل الحانه الان يجد بعضها طيعا للتوزيع الهارمونى البسيط ..

وقد وصل القصبجى بالفعل الى هذه المرحلة سنة ١٩٣٦ عندما لحن لام كلثوم أغنية « منيت شبابى » وأغنية « يا مجد ياما اشتهيتك » وهما من الاغانى الزجلية فى فيلم « نشيد الامل » .. وقد تم فيهما توزيع الالحان والموسيقى على أسس هارمونية (١)

ولكن أم كلثوم لم تندفع فى هذا الاتجاه الفنى ، فالحقيقة ان حكاية الهارمونى هذه ليست بسيطة !

فماذا تصنع أم كلثوم فى السلالم أو الدرجات أو المقامات المتعددة فى موسيقانا العربية !

هل تتنازل عن معظم هذه المقامات وتكتفى بالمقامات القليلة التى انتهت اليها الموسيقى الاوربية بعد أن اجتازت مرحلة الميلودى الى مرحلة الهارمونى ؟!

لقد قذف الموسيقيون والملحنون الاوربيون منذ زمن بعيد بثروة من المقامات الى اعماق البحر .. وهم الان يتحسرون وينظرون الينا قائلين : هؤلاء الشرقيون ما زالوا يحتفظون بثروتهم من المقامات والالحان !

فالمقامات الكثيرة التى ألغاها نظام التأليف الهارمونى فى الموسيقى الاوربية والغناء الاوربى ، لا تغرينا نحن العرب بالغاء مقامات موسيقانا ، او معظم مقاماتها ..

---

(١) أخذ برأينا هذا بعض النقاد الموسيقيين الذين كتبوا عن القصبجى بعد نشر رأينا هذا فى الصحف

فاذا خسرنا هذه الثروة الطائلة ، فماذا نربح بدلا منها ؟!

وهكذا كانت تجربة القصبجي فى « الهارمونى » لمحة خاطفة انطفأت ولم تعقب أثرا حقيقيا ..

صحيح انه استمر يلحن القصائد لأم كلثوم طوال الثلاثينيات ، ولكن أم كلثوم لم تكتف فى تلك الفترة بألحانه ، فغنت قصائد من ألحان زكريا أحمد ورياض السنباطى ، لم ينسجا فى تلحينها على منوال القصبجى ، بل وقفا فى الوسط ، بينه وبين الشيخ أبو العلا ..

واشتهرت فى الثلاثينيات وبداية الاربعينيات مجموعة من القصائد نذكر منها القصيدة التى مطلعها :

أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى

واسمع أذنى عنك ما ليس تسمع

وقصيدة أبى فراس التى لحنها زكريا لأول مرة فى تلك الايام : « أراك عصى الدمع »

ومجموعة أخرى من قصائد رامى . اشهرها قصيدته التى يقول فيها :

اذكرينى كلما الفجر بدا ناشرا فى الافق أعلام الضياء
يبعث الاطيار من أوكارها فتحييه بترديد الغناء

وتضم الافلام السينمائية الستة التى ظهرت فيها أم كلثوم ، ثروة من القصائد ذات الاتجاهات المختلفة فى التلحين والاداء .. فضلا عن الشعر ..

فى فيلم « وداد » — أول أفلام أم كلثوم — غنت أبيات الشريف الرضى التى يقول فيها :

أيها الرائح المجد تحمل حاجة للمتيم المشتاق

وهى تحفة فى التلحين والاداء ، ونموذج لتلحين المعانى بحيث يتوافق نبض الكلمة ونبض النغمة

وفى فيلم « دنانير » غنت أم كلثوم قصيدة لرامى من تلحين القصبجى ، كما غنت لرامي منظومة شعرية أسمها « نشيد بغداد » من تلحين السنباطى ٠٠ وقام زكريا احمد بتجربة فى التلحين لم تتكرر فى أغانى فيلم آخر بعد فيلم دنانير ٠٠ فقد صنع لقصيدة واحدة فى الفيلم ثلاثة الحان من مقامات مختلفة ، غنتها أم كلثوم واحدا بعد الاخر فى مشهد واحد ٠٠

وفى فيلم « دنانير » ايضا غنت ام كلثوم قصيدة لرامى على اطلال قصر جعفر البرمكى ، من تلحين السنباطى يقول فيها رامى :

رحلت عنك ساجعات الطيور وذوت فيك يانعات الزهور

***

وفى فيلم « سلامة » لحن السنباطى قصيدة نظمها على احمد باكثير ٠٠ مطلعها :

قالوا أحب القس سـلامة وهو التقى الورع الطـاهر

وفى هذه القصيدة اخطأت ام كلثوم فى « النحو » لاول مرة ــ فيما أعلم ــ حين غنت هذا البيت :

كأنما لم يدر طعم الهـوى والحب الا الرجل الفـاجر

فنطقت كلمة « الحب » بالضم ٠٠ والصواب «الكسر» ، ولا وجه عند النحويين لضم هذه الكلمة فى هذا الموضـع ٠٠ ولو نطقتها أم كلثوم بالفتح لامكن للنحويين أن يجدوا لها تأويلا نحويا مقبولا ٠٠

وفى فيلم « فاطمة » ــ آخر أفلام أم كلثوم ــ غنت من الحان السنباطى قصيدة لرامى مطلعها :

اصون كرامتى من قبـل حبى
فان النفس عندى فـوق قلبى

وتشهد هذه القصيدة ببراعة السـنباطى فى تلحين

الكلمات ذات الحروف المتنافرة ..فقد حفلت هذهالقصيدة بالكلمات غير الموسيقية والتعبيرات العقلية الجافة ، ولكن السنباطى أخضع لفنه كل هذه التعقيدات اللغوية

أن قصائد افلام أم كلثوم تكاد تكون مجموعة الحان قائمة بذاتها ، ولها صفاتها المشتركة ، وقد جاءت ــ تاريخيا ــ بعد مجموعة القصائد الاولى التى لحنها الشيخ أبو العلا ومعاصروه فى العشرينيات ،وبعد مجموعة القصائد الثانية التى لحنها القصبجى فى الثلاثينيات ..

واذا كانت الحان الشيخ أبو العلا هى المجموعة الاولى ، والحان القصبجى هى المجموعة الثانية ، والحان الافلام هى المجموعة الثالثة ، فان المجموعة الرابعة من قصائد أم كلثوم ، هى القصائد النبوية والوطنية فى الاربعينيات والخمسينيات ..

فى بداية الاربعينيات حيت أم كلثوم جامعة الدول العربية بقصيدة مطلعها :

زهرة الربيع يرى أم سادة نجب
وروضة اينعت أم حفلة عجب

وهذه القصيدة من تلحين زكريا احمد ..

ثم غنت أم كلثوم الحان السنباطى الرائعة فى قصائد شوقى : « سلوا قلبى » .. « ريم على القاع » .. « من أى عهد فى القرى تتدفق » .. « وقى الارض شر مقاديره » .. « ولد الهدى » .. ثم قصيدة حافظ ابراهيم :

وقف الخلق ينظرون جميعا
كيف ابنى قواعد المجد وحدى

ولابد من اضافة قصيدة « سلوا كئوس الطلا » الغزلية الى هذه المجموعة الدينية الوطنية لانها تنتمى اليهـــا تاريخيا وفنيا وان اختلفت فى مضمونها الشعرى ..

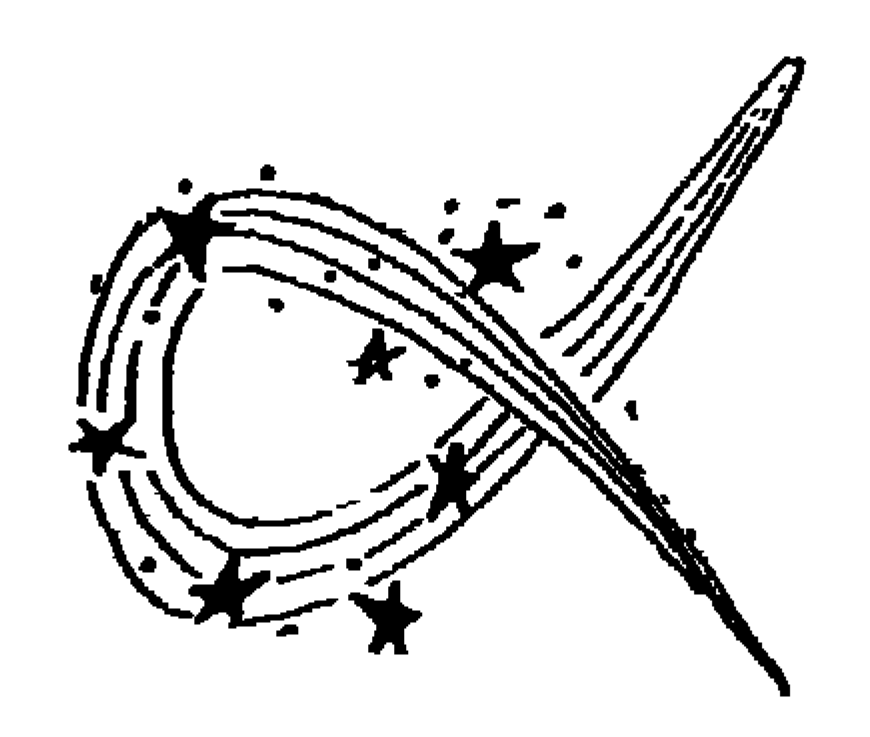
وكذلك قصيدة رباعيات الخيام ذات الروعة الدائمة

أما المجموعة الخامسة فهى قصائد رابعة العـــدوية وهى ظلال باهت من ظلال المجموعة الرابعة ، ولولا صوت أم كلثوم لما كان لهذه القصائد صدى فى أسماع الناس

وأخيرا تجىء قصيدة « أراك عصى الدمع » ثم قصيدة « الاطلال » .. وفيهما يحاول الســـنباطى أن يتحرر من الايقاع الحاد الى ما يشبه القراءة الموسيقية ..

ويهدف السنباطى - فيما أظن - بمقدمة الاطـــلال الموسيقية الخالية من الايقاع الشرقى الراقص الى كسر الموجة الراقصة التى اكتسحت مقدمات أغانى أم كلثوم منذ لحن لها محمد عبد الوهاب أغنية « أنت عمـــرى » ذات الايقاع الراقص !

وبين قصائد العشرينيات ذات الالحان الجزلة العالية ، وقصائد الستينيات ذات القراءة الموسيقية ، يمتد فن غناء القصائد ، وهو نصف فن أم كلثوم



كان سيد درويش نموذجا للفنان الذى تجتذبه عوامل التحرر والتقدم .. ولهذا أسهم بنصيب ضخم فى ثورة الغناء المصرى الحديث ! ...

ثورة الغناء المصرى

لا أحد يدرى بالضبط ماذا كان ممكنا أن يفعل هذا الفنان الموهوب ـ سيد درويش ـ لو عاش حتى يومنا هذا ..

فقبل أن يموت ، قبل أكثر من أربعين عاما وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، كان يتأهب للسفر الى أيطاليا لدراسة الموسيقى الاوربية ..

وكان قد بدأ فعلا فى تطوير موسيقاه . وخطا فى هذا السبيل خطوة هامة ، تحدث عنها الدكتور محمود أحمد الحفنى فى كتابه عن سيد درويش ، فقال : « لم يكن

سيد درويش يفوته ارتياد دار الاوبرا أو غيرهامن المسارح للاستماع الى الفرق الاجنبية وهى تؤدى المسرحيـــات الغنائية العالمية الخالدة فى أسلوبها ، المتعددة الاصـوات .. ثم هو يستفيد بعد ذلك من هذا اللون الغربى فتراه يعمد الى التجديد بادخال تعدد الاصوات الهارمـــونى فى مسرحياته .. وهذا الاسلوب الهارمونى الذى استمع اليه وحاكاه لم ينقله بشكله نقلا ينفر منه الذوق الشرقى ، بل ظل مثال الموسيقار العربى الصميم » ..

وقبل وفاة سيد درويش بأقل من شهرين تعــاقد مع المهنـــدس اميل عريان « مخترع البيـــانو الشرقى » على تأسيس شركة بينهما لتدوين أغانيه بالنوتة تحت اسـم « أغانى الشعب » ..

وكان من شروط هذا التعاقد أن تقدم ألحان ســـيد درويش بتوزيع صوتى طبقا لقواعد الهارمونى الغربية ..

ويعلق الدكتور الحفنى فى كتابه عن سيد درويش ،على هذه الواقعة التاريخية قائلا : « من العجيب أن يكون ذلك فى زمن كانت الامية الموسيقية فيه ما زالت مسيطرة على السواد الاعظم من محترفى هــذا الفـــن ، بل على بعض كبارهم .. وقل من كان يفكر وقتئذ فى تدوين ألحـــانه على مثل هذا النهج العلمى الذى اتجه اليه سيد درويش وسجله فى هذا العقد » ..

والحقيقة أن الذى دفع سيد درويش الى الاقتنـــاع بهذا النهج العلمى هو المهندس اميـــــل عريان .. فهـو الذى اشترط فى العقد أن يتحاشى سيد درويش استعمال نغمة ثابتة تكون بمثابة ايقاع متكرر يســـاند اللحــن ، وأن يستبدل سيد درويش بهذا الايقاع المتكرر ، طريقـــــة الهارمونى على حسب القواعد « الافرنكية » ..

ولو كان سيد درويش جامد العقلية ، لرفض هــــذا الشرط ، وأصر على تسجيل أغانيه بشكلها البســـيط « الميلودى » أسوة بجميع المطربين والملحـــنين فى ذلك العصر ..

ولكن سيد درويش فكر جيدا ثم وافق على ما عرضــه عليه المهندس اميل عريان من تسجيل الحانه بطـــريقة الهارمونى « على حسب القواعد الافرنكية » .. على حد تعبير العقد المبرم بين الطرفين ! ..

كان سيد درويش نموذجا للفنان الذى تجتذبه عوامل التحرر والتقدم فى عصره

فلأول مرة فى ذلك العصر يسمى أحد الملحنين أغانيــه باسم « أغانى الشعب » ..

كان غناؤهم مزيجا من الصراخ العثمـــانى والنواح الملوك والامراء والباشوات ، لا الى الشعب ..

ولكن سيد درويش لم يغن أبدا في قصر من قصـــور هؤلاء السادة الكبار .. كان غناؤه كله مأخـــوذا من روح الشعب ، موجها الى روح الشعب !

في ذلك العصر كان المطربون المحترفون غارقين فى لون من الغناء غريب عن روح الشعب المصرى ..

كان غناؤهم مزيجا من الصراخ العثمـــانى والنواح الغجرى ، وكانت حناجرهم قد فسدت من طول ممارستها هذا الغناء ، حتى اكتسبت لكنة خاصة ، ثقيلة الوطـــأة على الاذن المصرية الصميمة

ولكن ثورة ١٩١٩ التى أيقظت شـــخصية الشـــعب المصرى ، أتاحت لسيد درويش مناخا صالحـــا لرسالته الفنية ، فانبعثت على يديه الالحـان المصرية الصـــميمة ،

اقتباسا من الفلكلور القديم ، أو ابتكارا من عبقرية سيد درويش ذاتها ..

ان للشعب المصرى طريقة خاصة فى الغناء ، وقد أهمل المغنون هذه الطريقة مئات السنين ، فعاش الشعب يغنى لنفسه ، بينما المطربون المحترفون يغنون للسلاطين والامراء والمماليك ثم الباشوات العثمانيين

ولم يهمل المغنون المحترفون طريقة الشعب فقط ، بل أهملوا كذلك طريقة الغناء العربى القديمة التى حدثتنا عنها كتاب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى .. وهى الطريقة التى كانت تضع الكلام واللحن فى وعاء واحد ، فلا يعبر الكلام عن معنى واللحن عن معنى آخر .. وكانت لهذه الطريقة ضروب وأوزان ونغمات شتى ..

ومضت القرون فماتت طريقة الغناء العربى فى مصر ، وانحصرت طريقة الغناء المصرى الشعبى فى ركن بعيد لا يغشاه المطربون الكبار المحترفون الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة الطبقات الحاكمة الوافدة من خارج مصر والمنعزلة عن فن الشعب وذوقه وطريقة حياته ، فضلا عن جهلها بالغناء العربى القديم جملة وتفصيلا ! ..

ولكن يقظة الشخصية المصرية بعد الثورة العربية ، مهدت الطريق امام المحاولات الاولى التى بذلت للخلاص من الصراخ العثمانى الاجوف ، والبحة الغجرية البدائية

ثم جاءت ثورة ١٩١٩ فجعلت من المستحيل أستمرار الغناء العثمانى الغجرى الذى تشكلت على أساسه أوتار حناجر المطربين والمطربات فى تلك الايام ..

والذى يستمع الآن الى الاسطوانات التى تركها مطربو تلك الايام يخيل اليه انه يستمع الى بعض المطربين الاتراك

أو الايرانيين أو الغجر الرحل التائهين فى البلاد العربية..
ان رنة حناجر هؤلاء المطربين ليست مصرية ولا عربية .. وطريقة نطقهم تختلف عن طريقة النطق الفصيحة والعامية ..

وتستطيع أن تتبين ذلك بسهولة اذا استمعت الى اشهر مطرب فى الربع الاول من القرن العشرين وهوسلامة حجازى ، والى أشهر مطربة وهى منيرة المهدية ..

وعلى منوالهما ينسج جميع المطربين والمطربات فى ذلك الزمان ..

وقد بوغت هؤلاء جميعا بانقضاء مرحلتهم التاريخية ، ويزوغ مرحلة تاريخية جديدة يتخلص فيها الغناء المصرى من جرثومة الغناء العثمانى الفارسى الغجرى التى أفسدت أوتار الحناجر ، كما أفسدت الاذواق ..

وحمل الشيخ أبو العلا محمد أستاذ أم كلثوم – لواء الاداء العربى الصميم فى الغناء ، وحمل معه اللواء عدد من المشايخ الموهوبين ، أتيح لهم أن يستوعبوا الموشحات القديمة التى جمعها الشيخ محمد شهاب الدين فى مصنفه الذى سماه « سفينة شهاب »

ويذكر الدكتور الحفنى فى كتابه عن سيد درويش هذه الموشحات فيقول : أن السيد محمد شهاب الدين المتوفى عام ١٨٥٧ جمع فى كتابه « سفينة شهاب » حوالى ٣٥٠ موشحا منوعة فى مقاماتها وأوزانها العروضية وقوافيها واساليب التعبير فيها .. « ومن هذا التراث الضخم ظلت تؤخذ الاقباس من معين لا ينضب، فنجا تراثناالعربى من الغرق فى ظلمات العصور ومجاهل الايام » ..

هذا هو الينبوع الذى أستقى منه الشيخ أبو العلا

محمد والمشايخ الاخرون ، وجددوا به الغناء العربى وردوه الى أسلوبه الاول ، أو الى قريب من هذا الاسلوب الذى تحدثت عنه كتب التراث ..

وهكذا بدأ الناس يستمعون الى غنـاء يتوافق كلامه ولحنه ، كما كان الشأن فى الغناء العربى الذى اختفى خلال العصور الطويلة التى استعجمت فيها الطبقات الحاكمة فى القاهرة وفى غيرها من العواصم العربية ..

وكان ما صنعه الشيخ أبو العـلا فى الغناء شبيها بما صنعه محمود سامى البارودى فى الشعر ، حين ثار على طريقة العصر العثمانى ورد الشعر العربى الى طريقته فى العهد العربى ..

وقد جاءت ثورة البارودى مع ارهاصات الثورة العرابية، ووسط نيرانها .. ثم جاءت ثورة الشيخ أبو العـلا مع ارهاصات ثورة ١٩١٩ ووسط نيرانها ، وبعد خمود هذه النيران ..

واكتملت بتحرير الشعر العربى من اللكنة العثمانية ، وتحرير الغناء العربى من الصراخ العثمـانى ، ثورة مزدوجة لهذين الفنين ـ الشعر والغناء ـ ردت اليهمـا عروبتهما الصميمة ..

ولما كانت الحان الشيخ أبو العلا قد تسللت الى الاسماع من خلال صوت أم كلثوم ، فان ظهور أم كلثوم منذ أربعين عاما ، ارتبط بثورة قومية فى مجال الغناء والموسيقى ، وكان صوتها من أكبر عوامل النجاح السريع لهـذه الثورة ..

فقد كان يصعب على الاسماع التى أفسدتها ألحـان الاتراك والفرس والغجر ، أن تصغى الى ألحان الشـيخ أبو العلا ذات الاسلوب العربى،لولا هذه المصادفة التاريخية

التى تمثلت فى صوت أم كلثوم ..

وقد صحبت حركة بعث الغناء العربى حركة بعث الفولكلور المحلى ، والغناء الشعبى المصرى ، وكان سيد درويش فى مقدمة هذه الحركة الفنية الشعبية

وبنجاح الحركتين معا ــ وفى وقت واحد تقريبا ــ أكتمل التعبير عن روح الشعب المصرى بفن الغناء والموسيقى ...

فكان الشيخ أبو العلا ــ من خلال صوت أم كلثوم ــ هو المعبر عن روحنا القومية العربية فى الغناء ، وبمايتصل بهذه الروح من ميراث ضخم فى هذا الفن .. أما سيد درويش فكان المعبر عن الروح المحلية للشعب المصرى ، وعن المزاج المصرى الذى تختلف خصائصه المحلية عن الخصائص المحلية للشعوب العربية الاخرى ..

وبعد هذا النجاح الساحق للغناء العربى والغناء المصرى الشعبى ، اصبح مستحيلا ان تستمر طريقة الغناء العثمانية الفارسية الغجرية ، واضطر أشهر مطربى ذلك العصر ومطرباته الى التقاعد ..

ولم يبق فى ميدان الغناء العثمانى الغجرى الا عدد محدود ممن وقفوا فى وجه العاصفة التاريخية .. الا ان هؤلاء غنوا لانفسهم أكثر مما غنوا للناس ، ثم طواهم الزمان !

بقى أن أقول ان سيد درويش كان لديه المقدرة التامة على الاسهام فى رد الغناء الى عروبته لا الى مصريته فقط، ولكن العمر القصير الذى عاشه اتاح له ان يكون باعث الغناء الشعبى فقط ، ولو امتد به العمر لاصبح سيد درويش أضخم فنا من كل ما نتصور الان !



اقصد بالغناء المصرى الغنـــاء العربى بوجه عام ، فان الغنـاء المصرى هو الجزء الاجمل والاكثر تطورا وانتشارا من فن الغنـــاء الذى تتذوقه جميع الشـــعوب العربية الآن ..

مستقبل الغناء المصرى

نجيب حنكش هو أحد ظرفاء لبنــــان الفنانين . وهو « سميع » قديم لام كلثوم كمعظم أهل لبنان ..

وقد طالعت فى الصحف برقية أرسلها الى أم كلثـوم يدعوها للغناء فى لبنان ، ويصفها بأنها « خاتمة المطربات »

ماذا يقصد نجيب حنكش من وصفه أم كلثوم بأنهــا « خاتمة المطربات » ؟!

لم يستخدم حنكش تعبيرا جديدا ، فقد أعتاد الادباء من قديم أن يصـــفوا الشاعر العبقرى مثـــلا بأنه « خاتم الشعراء » ..

فعندما ظهر « المتنبى » وملأ الدنيا ـ قبل ألف سنة ـ

وصفه معاصروه بأنه « خاتم الشعراء » .. لانهم لم يصدقوا أن شاعرا آخر فى مستواه سيجىء بعده ..

ولما ظهر البارودى بعد فترة ركود طويلة جدا فى الشعر العربى أطلقوا عليه هذا اللقب ، ثم أطلقوه على أحمد شوقى ..

أما اطلاق هذا اللقب على أم كلثوم ، فله فى ظروف الغناء العربى الراهنة معنيان ..

المعنى الاول .. أن ظهور صوت كصوت أم كلثوم وعبقرية كعبقريتها فى الغناء ، أمر مستحيل أو كالمستحيل

المعنى الثانى ـ وهو المهم حقا ـ يتعلق بمستقبل الغناء العربى كله ..

فكثير من الناس يتوقعون أن ينتهى الغناء العربى القائم على « ربع الصوت » وينقرض كفن متخلف لا يساير الحياة ..

والبديل الذى يتوقعونه لهذا اللون من الغناء العربى هو الغناء الاوربى بأنواعه

والذين يتوقعون هذه النهاية للغناء العربى يعتقدون ان الحائل الوحيد الذى يمنع وقوعها الان هو وجود أم كلثوم ..

فأم كلثوم يلتف حولها ملايين المستمعين العرب الذين لا يستسيغون الا غناءها ، ولا يطربون الا له ، ولايحاولون أن يتذوقوا لونا غيره من ألوان الغناء الاوربية ..

وأم كلثوم هى التى ترفع راية الطريقة العربية فى الغناء ، وصوتها يخلع على هذه الراية ما يشبه التقديس فليس لمستمع ولاء فنى الا لهذه الراية العالية ..

لقد نقلوا كلمات الاوبرات الاوربية الى اللغة العربية

وغنوها للمستمعين العرب فلم يلتفت اليها الا القليل من هؤلاء المستمعين المشغولين بأم كلثوم

وغنت رتيبة الحفني وأميرة كامل ومنـــار أبو هيف وفيوليت مقار غناء أوربيا ، فلم يستمع اليهن أحــد ، برغم جمال أصواتهن جميعا ، ومقدرتهن على الغنـــاء الاوربى ..

أكثر من هذا .. عجزت التجارب الموسيقية الخالصة كالسيمفونيات التى ألفها موسيقيون عرب ، عن أن تشق طريقها الى المستمعين .. فالذوق العربي لا يتذوق الا أم كلثوم ، وما حول أم كلثوم من الحان وموسيقى يؤلفها السنباطى وعبد الوهاب وبليغ حمدى والموجى وغيرهم

وبعضهم لا يخفى غيظه من هذا الموقف ، فان زميلنا الكاتب الفنان — والمطرب الســابق — أنيس منصور ، يكتب من وقت الى اخر قائلا ان أم كلثوم هى التى تمنع شروق الشمس !

والشمس التي يعنيها أنيس منصـــور ، هى شمس الموسيقى الاوربية والغناء الاوبرالى وما اليه من ألوان الغناء المسرحى الاوربى

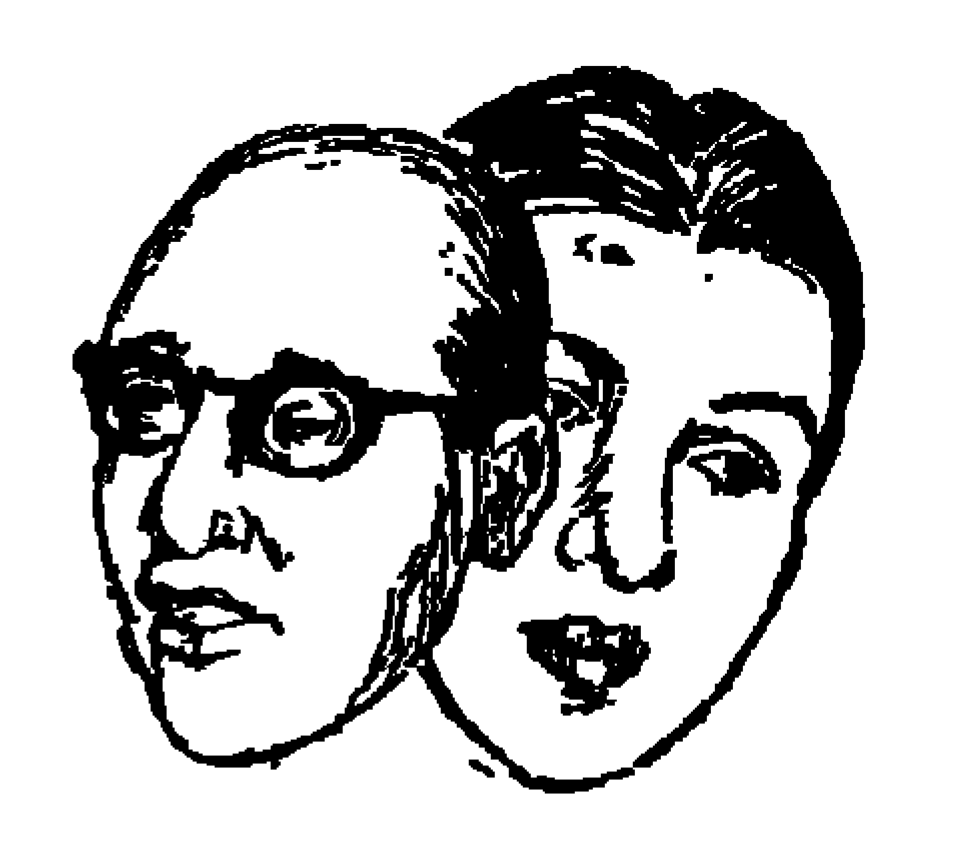
وهذا هو — بالضبط — المعنى الذى يعنيه الظـــريف اللبنانى نجيب حنكش ..

انه يعتقد أن أم كلثوم هى اخر مطربة عربيـــة كبيرة يدين لها المستمعون جميعا بالولاء ، فهى اذن خاتمة المطربات العربيات ..

الا أن هذه الاحلام كلها تعلات أفلاس لاصـــــحاب الموسيقى الاوربية والغناء الاوربى ، لان سبب فشلهم فى أجتذاب المستمعين العرب ، هو نقلهم الحـــرفى ،

وتقليدهم الاعمى للموسيقى الاوربية .. ومحاولتهم فرض هذا النقل والتقليد على ذوق المستمع العربى بقـــوة الدعاية التى تشبه الخداع والتضليل ! ..

وسيظل ولاء المســـتمع العربى منصرفا الى أم كلثوم مائة سنة أخرى ، أو بضع مئات من السنين ، ما دامت البضاعة الجديدة هي النقل الحـــرفى والتقليد الاعمى والتجاهل التام لذوق شعبنا ووجدانه الخاص وعبقريته الموسيقية الخاصة !



عبقرية ام كلثوم ، وعبقرية عبد الوهاب الغنائيتان .. يبدو انهما لن تتكررا فى عصرنا .. فهل تتكرران بعد عصرنا ؟

المعجزة .. هل تتكرر؟

فى عام ١٩٢٦ فازت « سلطانة الطرب » منيرة المهدية بجائزة الغناء من وزارة الاشغال العمومية

كانت دار الاوبرا تتبع فى ادارتها وصيانتها وزارة الاشغال ، فكانت الوزارة ـ لهذا السبب ـ ترى نفسها مسئولة عن نهضة فن الغناء فى مصر ..

ولكن « سلطانة الطرب » برغم هذا التكريم الرسمى الذى صحبته ضجة دعاية عظيمة لم تستطع أن تبقى فوق عرشها سلطانة للطرب ، ودفعتها الظروف ـ بعد عامين أو ثلاثة من فوزها بالجائزة ـ الى الانزواء .. ثم اضطرتها بعد عامين آخرين أو ثلاثة الى الاعتزال ، لان صوتا فذا جديدا قد ظهر فاجتذب الاسماع ، ثم امتلكها امتلاكا ، وطغى اسم صاحبته ـ أم كلثوم ـ على اسم

سلطانة الطرب الذى كان يدوى كطبول ميادين القتال فى ذلك الزمان

وبعد عشر سنوات – على الاكثر – من ظهور المطربة الجديدة أم كلثوم ، نسى جمهور الغناء سلطانته القديمة ، بعد أن خلعها عن عرش السلطنة ، وزالت أيام مجدها ولياليها ، كأن لم تكن !

وفى نفس هذه الفترة ظهر المطرب الجديد – حينذاك – محمد عبد الوهاب .. وتقدم بسرعة على أكبر مطربى عصره أمثال عبد اللطيف البنا وصالح عبد الحى ، وأمين حسنين ، حتى لم يعد أحد منهم ينافسه

ومنذ ذلك الحين ، مضت أربعون عاما تقريبا ، لم يظهر خلالها صوت نسائى ينافس صوت أم كلثوم ، ولا صوت رجالى ينافس صوت عبد الوهاب !

ومع ذلك لم تنقطع المحاولات المستميتة طوال هذه السنين المديدة ، لاكتشاف مطربات ومطربين يتربعون على القمة ..

فى البداية .. عندما كانت أم كلثوم فى مطلع شهرتها، حاولت منيرة المهدية نفسها أن تنافسها

ولكن الايام كانت قد سبقت منيرة وتخلت عنها ، لان صوتها العريض الغنى بطبقاته كل الغنى ، لم يكن – برغم مزاياه – يستطيع الجرى فى الميدان الجديد الذى يجرى فيه صوت أم كلثوم ..

فقد تشكلت أوتار حنجرة منيرة على أساس الغناء البدائى الذى كان شائعا فى بلادنا فى تلك الفترة ، استطرادا لشيوعه فى الفترة الطويلة التى سبقتها طوال عهد العثمانيين !!

وجاءت أم كلثوم بحنجرة جديدة ، تشكلت أوتارها

على أساس الغناء العربى القديم الذى كانت بقاياه تعيش فى الموالد والاذكار ..

وبفضل هذا الغناء العربى الاصل نجت حنجرة أم كلثوم من عدوى الغناء العثمانى والغجرى ، وسلمت شفتاها من النطق الشائه الذى كان طابع الغناء الغجرى العثمانى ، وكانت منيرة أشهر مغنياته ..

ولقد كان هذا النطق الصحيح أعجوبة أم كلثوم الثانيه بعد صوتها ..

وقبل أن تستسلم منيرة المهدية لفشلها النهائى حيال الصوت الجديد ، ذهبت الى الملحن محمد القصبجى تطلب اليه أن يلحن لها أغنية على غرار أغنية « ان كنت أسامح وأنسى الاسية » التى لحنها لأم كلثوم فى ذلك العهد ..

واستجاب القصبجى لرجاء منيرة فلحن لها أغنية حافلة بألوان « التجديد » ولكن منيرة لم تستطع أن تكسب شيئا بهذه الاغنية ، لأن صوتها العثمانى الغجرى ونطقها العاجز ، أفسدا الاغنية ، وطمسا معالم التجديد فيها ..

وبعد منيرة المهدية ، لم يبق فى الميدان الا « مطربة القطرين « فتحية أحمد » ..

وفى بداية الثلاثينيات ظهرت مطربة جديدة ذات صوت حاد « سوبرانو » مثل منيرة المهدية وفتحية أحمد ، اسمها نجاة على

وبلغت نجاة أوج شهرتها عندما ظهرت مع عبد الوهاب فى فيلم « دموع الحب » سنة ١٩٣٥

ولكنها لم تستمر .. انطفأت بعد فيلمين أو ثلاثة

وفى سنة ١٩٤٣ جاءت من لبنان المطربة الكسندرا بدران التى سماها يوسف وهبى « نور الهدى » وأسند

اليها البطولة فى فيلم « جوهرة »

وانفجرت نور الهدى كالقنبلة فى دنيا الغناء ، ووصفتها الاعلانات فى تلك الايام بأنها « معجزة » وتهامس بعض الصحفيين فيما كتبوا بأن « نور الهدى » هى الصوت الذى يستطيع أن يغنى ويتفوق ويتربع على العرش !!

والحقيقة أن صوت نور الهدى كما بدا من خلال الميكروفون فى فيلم « جوهرة » كان صوتا جميلا يدعو الى التأمل ..

كان يبدو وكأنه مزيج من صوت أم كلثوم وفتحية أحمد ومنيرة المهدية ونجاة على ..

ولكن « الميكروفون » ـ فيما يبدو ـ بالغ فى تجسيم حسنات هذا الصوت ..

ولم تستطع نور الهدى أن تستمر ، لان صوتها لم يثبت على مستوى معين .. كان صوتا مذبذبا .. يلمع أحيانا ويقوى ويحلو .. ثم ينطفىء ويختنق وتتورم نبراته !

ثم جاءت الطبقة الجديدة من المغنيات .. ليلى مراد ففايزة أحمد وزميلتها نجاة الصغيرة .. وأصواتهن حلوة ولكنها متواضعة الامكانيات

معنى هذا كله انه خلال أربعين سنة لم تنجب مصر ولا البلاد العربية الا صوت أم كلثوم ..

وليس هذا عقما فى مصر ولا فى البلاد العربية ، لان أم كلثوم معجزة لا تتكرر بسهولة خلال أربعين عاما

● **وماذا عن عبد الوهاب ؟**

ان عبد الوهاب بدأ مع أم كلثوم فى العشرينيات ،

وكان صوته جديدا ورائعا عندما بدأ يشتهر ·· واكتسح جميع الاصوات الرجالية فى عصره ··

وخلال فترة قصيرة قبل ثلاثين عاما حاول أحمد عبد القادر أن ينافسه

وفى الثلاثينيات ظهر عبد الغنى السيد ، وكان صوته فى البداية ناعما قويا

ولما ظهر فريد الاطرش ، كان صوت عبد الوهاب قد تراجع عن مقاماته العالية القديمة ، وبدأ يستقر فى القسم الثالث من الاصوات ·· قسم « الباص » ··

وكان صوت عبد الوهاب يجتاز مرحلة الكهولة عندما ظهر عبد الحليم حافظ ··

ومع ذلك لم يتزحزح عبد الوهاب عن عرشه كمطرب لا منافس له ·· لان صوته ــ برغم كل ما فقده ــ ظل كما كان أغنى الاصوات وأجملها (١)

ومعنى ذلك أن الاصوات الرجالية لم تستطع أن تنافس عبد الوهاب ·· برغم كل ما طرأ على صوته من تغيرات ونواقص ، وتطورات ·· لأن هذه الاصوات كانت كلها أصواتا عادية ·· ليس فيها شيء من الاعجاز الذى كان طابع صوت عبد الوهاب فى بدايته ، ثم استند اليه صوت عبد الوهاب فى كهولته كذكرى مقدسة لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ··

---

(١) أنظر مقالة « عبد الوهاب وخلفاؤه » ففيها تفصيل لما أجملناه هنا عن عبد الحليم والاطرش وعبد الغنى السيد وأحمد عبد القادر وغيرهم من معاصرى عبد الوهاب



اسمهان هى الحاجز الصوتى الذى لم تستطع مطربات عصرنا اجتيازه حتى الآن .. انهن مازلن يقفن وراءها بمسافة كبيرة ، برغم انها غير موجودة بينهن !!

أسمهان والصوت الثانى

ستظل مأساة أسمهان دموعا فى عيون كثير من الناس ! ..

فى سنة ١٩٤٤ غرقت أسمهان ، فبكاها مئات الالوف من المعجبين .. وبعضهم انتحر أو شرع فى الانتحار

ورثاها شاعر لبنان الكبير بشارة الخورى بقصيدة بديعة ، تضمنت معانى دقيقة ، من بينها هذا المعنى :

أضاع جبريل من قيثاره وترا
في ليلة ضل فيها نجمه الهادى

كانت أسمهان فى رأى بشارة الخورى وترا من قيثارة ملائكية ، ضاع فى ليلة حالكة السواد ، حجبت السحب فيها ضوء النجوم ..

الحقيقة أن أسمهان كانت صاحبة أجمل صوت نسائى ظهر فى عصرنا بعد صوت أم كلثوم

كان صوتا فريد النبرات ، دقيق الملامح ، نبيلا معطرا معطاء ، سليما ناضجا من أعلى جوابه الى أدنى أراضيه

والاراضى هنا تعبير لبنانى وسورى عن قرارالصوت..

كان مزيجا من صوت المرأة وصوت الكمان وصوت الناى وصوت الاوبوا وصوت الحمامة المطوقة ، فى تركيب عجيب فاتن ، يكاد يجعل منه صوتا غير بشرى !

واكتملت له صفات القوة والوضوح وشدة الاسر ، لانه ــ اذا استعرنا الاصطلاح الاوربى ــ كان من قسم « السوبرانو » فى الاصوات النسائية ، فلم يكن صوتا جميلا جدا فقط ، بل كان كذلك غنيا بمساحته ومقاماته .. أى أنه لم يكن جميلا وخافتا كبعض الاصوات .. بل كان جميلا وعاليا متوهجا كعين الشمس !

وهو بهذه الصفات العبقرية ، يحتل المكان الثانى بعد صوت أم كلثوم .. وهو مكان ضخم ، لان أم كلثوم ــ منذ ظهورها ــ تحتل المكان الاول .. وليس وراءها مكان ثان ولا ثالث تحتله مطربة أخرى

ولم يعرف المستمعون مطربة ثانية بعد أم كلثوم ، الا فى الفترة التى عاشتها أسمهان ...

وقبل أسمهان لم يهتم المستمعون الا بثلاث مطربات : منيرة المهدية ، وفتحية أحمد ، ونجاة على ..

أما منيرة المهدية ، فكان لها صوت لامع عريض مديد ، يرتفع بقوة الى ذروة جوابه ، وتتفجر منه خلال ارتفاعه وانخفاضه تلك « البحة » المشهورة

ولكن هذا الصوت ، كان ـ برغم هذه المزايا ـ موحشا جافا كالصحراء ..

كان له جمال صحراوى بدائى خشن ، تضل فيه الاسماع والاذواق

وكان المستمع اليه يشعر كأن حلقه يجف من الظمأ ، فأنه صوت جديب بلا مياه ولا ظلال ..

فلما ظهرت أم كلثوم ، سارع المستمعون فانفضوا من حول منيرة ..

تركوا الصحراء الواسعة اللافحة ، الى المرج الفسيح الظليل ..

فصوت أم كلثوم يشغل مساحة واسعة كصوت منيرة . ولكن المساحة التى يشغلها صوت أم كلثوم هى مساحة من المياه والازهار والاثمار والانسام والظلال .. بعكس المساحة التى يشغلها صوت منيرة فهى مساحة من الرمال وأشعة الشمس الحارقة

وكانت منيرة محدودة المقدرة على الاداء ، فكان صوتها عملاقا ضخما يقف على ساقين من الطين

ومأساة هذا الصوت الكبير أنه لم يكن يفتقر الى الرقة والعذوبة والخصوبة فقط ، بل كان محروما أيضا من المقدرة على الاداء البارع ..

وهذا هو السبب فى أن منيرة ارتاعت من ظهور أم كلثوم ، ولم تصمد أمامها ، بل انسحبت من الميدان بعد منافسة قصيرة فى أواخر العشرينيات ..

وبعد منيرة .. بقيت فى الميدان فتحية أحمد..

وفتحية أيضا « سوبرانو » .. على الطريقة الشرقية..

صوتها لامع مكتمل ، ومقدرتها على الاداء فائقة ، ولا تنقص صوتها وأداءها نبرة الذكاء التى كانت تنقص منيرة المهدية ..

ولكن صوت فتحية — على جماله — لم يكن نفيس المعدن .. كان نحاسى الرنين لا ذهبيا ولا فضيا ..

وكانت عيوبه تبدو مجسمة لقيام الموازنة بينه وبين صوت أم كلثوم

فكان أكبر عيوب صوت فتحية أنه موجود الى جوار صوت أم كلثوم ..

وغنت فتحية سنوات طويلة ، ثم آثرت الاعتزال ..

المطربة الثالثة هى نجاة على ..

كان المعجبون بها يتصورون أنها ستكون شيئا كبيرا .. فقد كان لها صوت لامع كبير المساحة ..

ولكن صوتها كان يكافح وحده .. لم يكن يسنده فى كفاحه ذكاء ولا مقدرة فى الاداء .. وهكذا سارت « نجاة على » سريعا الى عالم النسيان ..

أما أسمهان ، فهى الصوت الذى اكتملت له صفات جعلت منه الثانى بعد صوت أم كلثوم ..

ولما انتهت أسمهان عاش صوتها ، وبقى ثابتا فى مكانته التى كانت له فى حياتها ..

وما زالت أسمهان هى المطربة الثانية .. وما زال مكان المطربة الثالثة بعدها شاغرا ..

يروى محمد التابعى فى كتابه عن أسمهان أن أصدقاءها

كانوا يوقلون لها : انك تؤدين أغنية « يا نسيم الصبا تحمل سلامى » ·· أفضل مما يؤديها الشيخ على محمود ·· وهذه القصيدة سجلها الشيخ على محمود على اسطوانة منذ بضعة وثلاثين عاما ، وأداها بطريقة فذة مزج فيها مزجا باهرا بين أداء المنشدين والمقرئين والمطربين ··

وخلع عليها من سطوة أدائه وصوته ما جعلها من بدائع الغناء العربى الكلاسيكى ··

وأداء هذه الاغنية يحتاج الى صوت رائع ، ونفس مديد، وفحولة ونعومة ·· ويحتاج قبل كل شىء الى احساس فائق الدقة بالغناء العربى ··

والحقيقة أن أسمهان كانت على نصيب وافر من كل هذه الصفات ·· وهذا هو سبب حبها لاغنية الشيخ على محمود ···

ان أداء أسمهان لهذه الاغنية يدلنا على الموارد الفنية الاصيلة التى نهلت منها هذه المطربة العظيمة ·· على عكس مطربات الزمن الاخير اللاتى أخذن فن الغناء من الراديو والتليفزيون والسينما !

ـ ولكن ·· ماذا كان يحدث لو عاشت أسمهان ؟!

بعضهم يقول : كانت ستتطور وتغنى أفضل مما غنت !

ولكنى أقول : بل كانت ستنتهى ! ··

ان أسمهان لم تكرم حنجرتها ، بل أهانتها طوال حياتها ، بالادمان على الخمر ، والدخان بأنواعه ·· والسهر الطويل وما ينطوى عليه ··

وفى أول أفلامها السينمائية « انتصار الشباب » كان صوتها لامعا نظيفا شديد الحيوية ، يستند الى رئتين

قويتين ، وقلب سليم !

أما فى فيلمها الثانى « غرام وانتقام » ·· فان التغيز فى صوتها كان واضحا ··

كان لمعانه أقل ، وحيويته أضعف ، والقلب والرئتان تجاهد لاعطائه نفسا مديدا · ·

كان واضحا أن هذه الحنجرة الفذة تنحدر باطـــراد ، ولا تصعد أبدا · ·

ولو عاشت أسمهان ، لفقدت صـــــوتها وعاشت على ذكراه ·· أما الان فان صوتها يعيش على ذكراها

ولكن ·· ليتها عاشت !



عاش عبد الوهاب أربعين عاما بلا منافس حقيقى برغم كثرة منافسيه وخلفائه .. ماهو السر؟ .. صوته ام الحانه .. ام شيء غامض يتعلق بشخصيته الفنيه ؟

عبد الوهاب وخلفاؤه

بدأ عبد الوهاب حياته الفنية فى عصر سلامة حجازى قبل الحرب العالمية الاولى ، فكان حلمه الذهبى أن يهتف الناس ذات يوم باسم « الشيخ عبد الوهاب » كما كانوا يهتفون باسم « الشيخ سلامة » !

وفى الشباب الاول لعبد الوهاب ، كان يستميت فى تقليد الشيخ سلامة فينجح فى تقليده ، فقد كان صوت عبد الوهاب الصغير جميلا جدا .. وكانت موهبته فى الاداء باهرة ..

ومن يستمع الان الى الاسطوانات الاولى لعبد الوهاب - وقد سجلها منذ خمسة وأربعين عاما تقريبا - يظن لاول وهلة أنه يستمع الى الشيخ سلامة بصوته النحيل

الحاد الكثير الذبذبة والارتعاش !

وبعد وفاة الشيخ سلامة ، وانطواء صفحة فنه ، وانقضاء تأثيره فى الناس ، أصبح عبد الوهاب بلا مثل أعلى ينسج على منواله •• ووجد نفسه وجها لوجه أمام مشاهير المطربين فى ذلك الوقت ، أمثال صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ••

كان عبد الوهاب قد كبر سنا وادراكا للفن ، فلم يبهره نجاح عبد الحى والبنا ، ولم يجد فيما يقدمانه للمستمعين شيئا يثير حماسته ورغبته فى منافستهما ••

كان الذى يبهره ويثير حماسته حينذاك هو فن الملحن الجديد الشيخ سيد درويش ••

وكما استمات عبد الوهاب فى اقتفاء آثار الشيخ سلامة ، فانه استمات فى تتبع خطوات الشيخ سيد ••

وانقلب عبد الوهاب من يمين الفن الى يساره ، ومن مطرب قديم الى مطرب جديد ••

ومن يستمع الان الى اسطوانات عبد الوهاب التى سجلها فى فترة تقليده لسيد درويش ، يخيل اليه أن عبد الوهاب نقل ألحان سيد درويش بلا تصرف •• ولولا اختلاف صوتيهما لكان التمييز بينهما شديد الصعوبة ••

ومنذ أوائل العشرينيات أصبح صوت عبد الوهاب ناضجا مكتمل النبرات ، مصقول المساحة قرارا وجوابا •• وقدم نفسه الى المستمعين مطربا جديدا فى فنه وصوته، يستظل براية سيد درويش » بعد أن كان يتفيأ ظلال المطربين القدماء ••

وكان عبد الوهاب فاتن الصوت والاداء ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، وانتزع جمهور الغناء من المطربين المحافظين الذين عاشوا ـ حتى ذلك الوقت ـ على تراث عبده الحامولى وخلفائه العظام

وكان أشهر المطربين المحافظين فى ذلك العهد صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ، فتراجع صالح عبد الحى بفنه القديم من مكان الصدارة ، وتراجع معه عبد اللطيف البنا .. وجلس عبد الوهاب على عرش الغناء الجديد

ليس معنى هذا أن عبد الوهاب كان أقل معرفة بالقديم ممن آثروا المحافظة عليه وعدم الخروج قيد شعرة عنه ..

فالحقيقة أن النشأة الفنية لعبد الوهاب أتاحت له أن يحيط بالقديم احاطة شاملة ، لا تقل عن احاطة المحافظين .. ولكن عبد الوهاب لم يستعبده القديم ولم يفسد ملكته فى التجديد والابتكار ، وكانت النتيجة أن عبد الوهاب استوعب القديم وتمثله وتذوقه وأحبه ثم ثار عليه ، نوعا من الثورة .. أما المحافظون فانهم جمدوا عنده وقدسوه وبكوا على عتباته ، ولعنوا الزمن الذى جار عليه ..

وكان سيد درويش هو نقطة انطلاق عبد الوهاب فى تجديد الغناء العربى .. فكثر اتهام النقاد له بانتهاب ألحان سيد درويش وانتحالها .. والحقيقة أن أكثر ما اتهموه بانتهابه وانتحاله ، لم يكن الا محاولات للتقليد « طبق الاصل » .. ومن هنا اختلط الامر على بعضهم فسموا التقليد المتقن سرقة بالاكراه ! ..

وفرق آخر بين عبد الوهاب والمحافظين على الغناء القديم ، منشؤاه تفرد عبد الوهاب بموهبة جبارة فى تذوق

الالحان واستيلادها واختراع الجديد منها ، ومزجها أو تفريقها وتفريع فرع من أصل ، أو استنبات أصل من فرع .. فكان عبد الوهاب بهذه الموهبة متفوقا عليهم تفوقا لا سبيل الى لحاقهم به .. وبذلك اكتملت له أسباب التفوق على معاصريه ، فأطفأهم جميعا ، وتفرد وحده بالسيطرة على الاسماع ..

ان عبد الوهاب الذى يقتبس من الموسيقى الاوربية ، هو عبد الوهاب الذى أصغى جيدا الى الالحان العربية غناء وتجويدا من أمثال الشيخين على محمود ومحمد رفعت ..

وتتعايش الالحان العربية فى وجدانه مع الالحان المختلفة الجنسيات ، ولديه المقدرة على التوفيق بينها على نحو عجز عنه معاصروه القدامى ، وما زال يعجز عنه معاصروه فى الزمن الاخير ..

ومنذ أربعين عاما تقريبا استقر عبد الوهاب فى منزلته الفنية كأكبر مطرب عربى ..

استقر فى هذه المنزلة الكبرى ، بفضل روعة صوته القديم ، ومقدرتيه المتكاملتين فى التلحين والاداء ..

وانحازت اليه غالبية جمهور المستمعين ، فأصبح حزب الطرب القديم – لاول مرة – أقلية ، بعد أن كان أغلبية تشبه الاجماع ..

وهكذا هدأ الصراع بينه وبين المطربين المحافظين .. لم يعد أحد منهم ينافسه . وانطوت صفحة حامد مرسى وهو حى يرزق – وما زال – كما انطوت صفحة عبد اللطيف البنا وتلاشى رنين صوته الانثوى الغريب الذى تعلقت به الاذواق زمنا غير قصير ..

وانكمش صالح عبد الحى فى دائرة الطرب القديم

الضيقة ، واختفى الشيخ أمين حسنين ، وكان صــــوته من أحسن الأصوات !

ومنذ ذلك الحين لم يعدالمطربون ينافسون عبد الوهاب، بل أصبحوا يقلدونه ، أو يحاولون أن يسلكوا الطــريق الذى سلكه ونجح فيه ..

والاصوات الجميلة التى لم تسلك طريق عبد الوهاب لم تستطع أن تنجح ..

أحمد عبد القادر مثلا .. كان له صوت جميل لامــع رنان ، ولكنه سار خطوة أو خطوتين فى طريق الفن ثــم تعثر وتوقف ..

لم يكن السبب فى تعثره هو انطفاء صوته واصــابته مبكرا بخشونة مفاجئة ..

كان هذا سببا فرعيا .. أما السبب الرئيسى فهــو عجزه عن منافسة عبد الوهاب فى التجديد والابتكار ..

ولبث عبد الوهاب وحده كالضوء المعلق فى الفضــاء لا يزاحمه أحد ، لان جميع الذين جاءوا بعده كانوا أقــل منه فى ناحيتيه : الصوت والتلحين .. بل كان أكثــرهم لا يملك الا الصوت فقط ..

وعندما ظهر عبد الغنى السيد ،أنصت اليه المستمعون، لانهم لمحوا فى صوته مشابه من صوت عبد الوهاب الذهبى القديم ..

ولكن عبد الغنى السيد ، كان صوتا فقط .. لم يكن يملك موهبة التلحين العادية ، فضلا عن الموهبة النــادرة التى يملكها عبد الوهاب

وساء حظ عبد الغنى السيد بسرعة ، فقد خشن صوته،

وتحولت نبراته التى كانت مستساغة فى بداية ظهوره ، الى نبرات مسنونة ذات وخز فى الاذن .. وانتهى أمره الى الغناء فى الصالات ..

وفى بداية الثلاثينيات ، ظهر فريد الاطرش ..

وصوت فريد فى بداية ظهوره كان ينفرد بصفات خاصة أرهفت حوله الاسماع

واستند صوت فريد الى موهبته فى التلحين ، وهى موهبة ذات شأن أستطاعت أن تسير بصوته فى طريق النجاح شوطا طويلا ..

ولعل فريد الاطرش هو الصوت الوحيد الذى نافس عبد الوهاب قليلا أو كثيرا فى مرحلة من عمره الفنى المديد

فان فريد الاطرش ظهر كملحن ومطرب مجدد مثل عبد الوهاب ..

بل كان فريد الاطرش فى شبابه أكثر جنوحا الى ما يسمى بالتجديد من عبد الوهاب ..

واجتذب تجديد الاطرش جماهير واسعة ، فأضطر عبد الوهاب الى المغالاة فى التجديد ، والتوسع فى اقتباس الالحان الاوربية كما كان يفعل فريد الاطرش حينذاك ..

ثم انتهى التنافس بينهما ، لان الاطرش تفرغ للغناء فى الافلام الاستعراضية ، وسار عبد الوهاب فى طريقه التجديدى المعروف ..

— أما المرحلة الاخيرة التى نراها الان من فن عبد الوهاب ، فهى مرحلة الاستاذية ، والبحث عن خليفة للاستاذ ..

وفى مجال الحديث عن تلاميذ عبد الوهاب وخلفائه ،

يمكن أن نذكر أسماء كثيرة : محمد عبد المطلب . جلال حرب . رءوف ذهني .. وأخيرا عبد الحليم حافظ ..

ان عبد الحليم حافظ هو صاحب أحب الاصوات الى الجماهير بعد صوت عبد الوهاب الذهبى القديم

ويمكن اعتبار عبد الحليم خليفة لعبد الوهاب فى الشهرة واتساع قلوب الناس له .. أما فى الصوت وموهبة التلحين ، فلا يمكن اعتباره كذلك

ففى الصوت ، لا يعقد أحد من العارفين أية مقارنة بين صوت عبد الوهاب الذهبى القديم وبين صوت عبد الحليم فى نطاق مقاماته وأمكانياته ..

أما فى التلحين ، فالامر لا يحتاج الى كلام كثير أو قليل .. فعبد الحليم حافظ ليس ملحنا ولا يحاول التلحين ..

الا ان اختفاء صوت عبد الوهاب الذهبى القديم ، واستقرار صوته على حالته الراهنة المعروفة ، جعل لصوت عبد الحليم مكانة خاصة . فان صوته الان هو أحسن اصوات المطربين الشبان وأرقاها معدنا ، وهو يستند فى الاداء على موهبة ممتازة تضاعف من قدرته على النفاذ الى قلوب الناس ..

ان الكلمة لاخيرة التى يمكن أن تقال ، هى أن عبد الوهاب ــ كأم كلثوم ــ أزاح منافسيه ، ثم عاش بلا منافس طوال أربعين عاما

ترى ما هو سر عبد الوهاب ؟

أنا اعتقد أن سره يكمن فى « الشخصية الفنية التاريخية الرائدة » التى يتمتع بها ..



المسافة بين أغاني عبد الوهاب القديمة وبين المطربة اللبنانيـة الرقيقة فيروز ، ليست مسـافة زمنية فقط .. انها قبل كل شيء مسافة في الصوت والاداء ...

عبدالوهاب وفيروز

فى العشرينيات والثلاثينيـات الاولى ، كانت حنجرة محمد عبد الوهاب تتألف من أجمـل وأكمل الاوتار الغنائية ..

كان صوتا جديدا تماما بالنسبة لاصوات ذلك الزمان ، كأنه شعاع انبعث من نجم بعيد مجهول

كان صوته صادحا ــ على حسـب المصطلحات التى أقرها المجمع اللغوى ــ أو صوتا من قسم « التينور » على حسب مصطلحات الغناء الاوربى

ولكن جماله لم يكن فى كثرة طبقـاته فقط ، بل كان قبل ذلك فى نفاسة نبراته هبوطا وصعودا ..

وقد يمتلك مغن صوتا كثير الطبقات ، ولـكن العبرة

ليست بكثرة الطبقات ، فأهم منها معدن الصوت ..

وقد كان معدن صوت عبد الوهاب من أنفس وأرقى معادن الاصوات التى عرفتها مصر والبلاد العربية فى المطربين منذ أربعين عاما ..

كان ينطبق عليه ما يقوله عبد الوهاب الان عن صوت أم كلثوم من أنه ينحدر من سلالة أصوات عريقة اجتمعت فيها أجمل النبرات وأشدها بريقا

وبهذا الصوت المتفوق غنى عبد الوهاب فى العشرينيات وبداية الثلاثينيات أغانيه التى أجلسته على عرشه ،وجعلت منه أشهر مطرب فى مصر

كان عبد الوهاب كروانا حقيقيا عندما غنى « خايف أقول اللى فى قلبى » و « يا جارة الوادى » وبقية أغانيه حينذاك ..

ولاسباب فسيولوجية ـ فيما يبدو ـ اسرعت الىصوت عبد الوهاب تغيرات واضحة ..

فبعد أن سجل أغانيه البديعة فى فيلم « الوردة البيضاء » سنة ١٩٣٢ ، انتهى العصر الاول لصوته الذهبى ، وبدأ العصر الثانى الذى كانت أغانى فيلم«دموع الحب » بداية اغانيه ! ..

وفى أغانى « دموع الحب » بدت فى صوت عبد الوهاب تغيرات لا تخطئها الاذن ، فقد انطفأت بعض طبقاته العالية، واكتست اوتاره بخشنة طفيفة ، لم تحجب تماما لمعانه القديم !

ثم جاء فيلم « يحيا الحب » سنة ١٩٣٦ وفيه اختفى صوت عبد الوهاب القديم تماما ..

اختفى الصوت الذهبى الذى غنى « كلنا نحب القمر » و « ولما انت ناوى تغيب على طول » و « فى الليل لما خلى » .. وبقية الروائع

وبدا واضحا ان « التينور » القديم يأخذ طريقه الى القسم الثالث من أصوات المطربين الرجال ، ويسميه الاصطلاح الاوربى « الباص » .. اما المجمع اللغوى فيسميه « الجهير الثانى » !

ولكن صوت عبد الوهاب لبث - كما كان - اجمل أصوات المطربين فى مصر .. برغم ما فقده من طبقات ومفاتن ولمعان .. ولم يصبح - بعد كل ما فقده - صوتا فقيرا ، لانه كان فى الماضى عظيم الثراء ، فاستطاع ان يتحمل ما وقع عليه من خسائر ، ويحتفظ بعدها ببقية صالحة ، تبقيه على رأس المطربين ، كما كان ..

وفى الاربعينيات بدا صوت عبد الوهاب وكأنه استقر نهائيا ، واتخذت نبراته شكلها الاخير ، ولكن التغيرات التى كانت دائما من طبيعة حنجرة عبد الوهاب لم تتوقف .. ولم تسر ببطء كما كان المتوقع ، بل عادت بعد فترة الى الجرى السريع ، فتغير صوته مرة اخرى ، وتحول نهائيا الى صوت ذى نبرات غليظة ..

وأصبحت كل ثروة عبد الوهاب الصوتية منذ ذلك الحين محصورة فى « القرار » الفخم الذى كان من مزايا صوته ومفاتنه منذ نشأته ..

والان .. يستقر صوت عبد الوهاب معتمدا على قراره العريق ، لا يستطيع أن يتحرك الا فى أضيق الحدود ..

وهناك ظاهرتان عجيبتان صحبتا هذا التطور فى صوت

عبد الوهاب أربعين عاما :

فالاصوات الرجالية التى احترفت الغنـــاء أو تلاوة القرآن طوال هذا الزمن ، لم تصبها تغيرات سريعة حاسمة أخفت معالمها القديمه تماما كما فعلت فى صوت عبدالوهاب ولنتذكر على سبيل المثال صوت الشيخ عبد الفتـــاح الشعشاعى الذى ظل على حاله تقريبـا حتى جاوز السبعين عاما ..

وكذلك صوت الشيخ محمد رفعت ، فقد احتفظ بطبقاته وصفاته طوال عمره ، ولم يحطمه الا مرض « الزغطة » الذى منعه من القراءة ..

ولن ننسى صوت الشيخ على محمود ، وصوت المطرب صالح عبد الحى ، واصواتا اخرى كثيرة من اصـــوات المطربين والمقرئين !

ـ الظاهرة الثانية ، تمثلت فى عقم أصــوات المطربين الذين عاصروا عبد الوهاب ، فطوال اربعين عاما لم يظهر صوت واحد ينافسه ..

ومما يذكر بالثناء لعبد الوهاب أنه لم ييأس عندما بدت على صوته بوادر التغير الاولى ، فمنذ سنة ١٩٣٥ بدأ يطور غناءه ويخضع طريقة تلحينه لامكانيات صـوته التى تتناقص ..

وبدلا من الالحان ذات المد والغن والتطريب ، بدأ عبد الوهاب يصنع ألحانا قصيرة على « مقـاس » صـــوته الجديد ..

ونجحت طريقته الجديدة نجاحا مذهلا ، حتى ان عبد الوهاب جمع معظم ثروته « الذهبية » من ألحانه وأفلامه التي صنعها بعد اختفاء ملامح صوته الذهبى القديم !!

وبالتدريج أصبح عبد الوهاب ملحنا وصانع مقطوعات موسيقية أكثر منه مطربا ..

وفى السنوات الاخيرة ، بدأ عبد الوهاب يحن الى ماضيه ، ولكن لا سبيل الى هذا الماضى ، فقد انسدل الستار على الصوت الذى صنعه ..

ولا ادرى الظروف النفسية التى دفعت عبد الوهاب الى احياء ماضيه بحنجرة المطربة اللبنانية الرقيقة فيروز ..

لعل الظروف النفسية لم تكن وحدها فى هذا الموقف فهناك الارباح ..

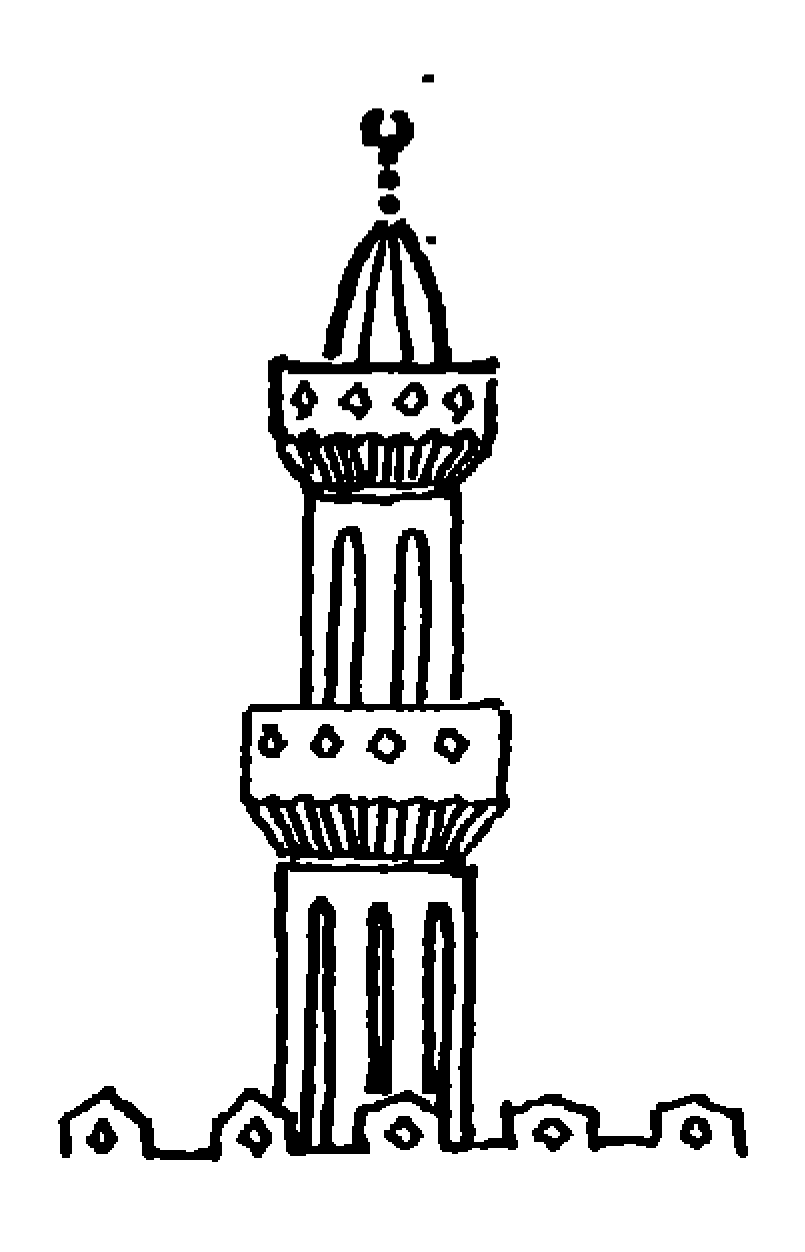
وهكذا سمح عبد الوهاب لفيروز بغناء « يا جارة الوادى و « خايف أقول اللى فى قلبى » .. بدعوى اظهارهما فى اطار جديد من التوزيع الموسيقى !

وكانت مفاجأة كبيرة لنا نحن الذين سمعنا هاتين الاغنيتين بصوت عبد الوهاب القديم ، عندما سمعناهما بصوت فيروز المحدود الطبقات والنبرات

لقد أراد عبد الوهاب تذكير الناس بصوته القديم ، فلجأ الى هذه الطريقة الذكية .. اختار مطربة معروفة ، فى مصر ولبنان والبلاد العربية ، وأقنعها أن تغنى أغانيه القديمة ..

ولما سمع الناس فيروز تغنى ، عادوا الى اسطوانات عبد الوهاب القديمة ، فبهرهم صوته ، وأدهشهم الفرق الواضح بين امكانيات هذا الصوت العظيم وبين امكانيات الصوت النسائى الذى يقلده الان ، بعد مرور أربعين عاما ..

وكسب عبد الوهاب من جميع الوجوه .. من وراء فيروز والاخوين رحبانى !!



هل يؤذن محمد عبد الوهاب فوق مئذنة مسجد الحسين او مسجد الشعرانى فى شهر رمضان؟ .. ان كثيرا من الناس يتوقعون منه ان يفعل .. ولكن ماذا يقول عبد الوهاب من هذه المغامرة ؟

لماذا .. لا يؤذن ؟

فى شهر رمضان من كل عام يتساءل بعض الناس : هل يفى مطربنا عبد الوهاب بوعده فيصعد مئذنة مسجد الحسين ، أو مئذنة مسجد الشعرانى ، ويرفع صوته — من خلال الميكروفون — مؤذنا لصلاة المغرب أو صلاة الفجر ؟!

وقد تحدثت الى عبد الوهاب مرة أسأله عن هذه الحكاية التى تتكرر فى كل رمضان ، فلا هو يصعد مئذنة ، ولا الناس يسأمون السؤال عن موعد الصعود المأمول !

وأجابنى عبد الوهاب كما توقعت ..

فهو لن يصعد مئذنة الحسين ، ولا مئذنة الشعرانى ، ولا أية مئذنة أخرى ، فى رمضان أو فى غير رمضان !

فالدنيا فوق المئذنة فى الفجر أو المغرب برد قارس ..

ووقوف عبد الوهاب على المئذنة فى الفجـــــر أو فى المغرب ، أو حتى فى الظهر يستلزم تكييف هواء المئذنة ، وضبط الضغط الجوى فوقها ، ليستطيع عبد الوهاب أن يعيش هناك بضع دقائق !

وقد انقضى الزمن الذى كان فيه عبد الوهاب قادرا على القيام بمثل هذه المغامرة ، فوق مئذنة الشعرانى فى باب الشعرية ..

كان عبد الوهاب فى ذلك العهد صبيا صـــــغيرا .. وصوته ـ بلا ميكروفون ـ يغطى بنبراته الجميلة دائرة واسعة حول المئذنة .

والان .. يربض فوق المئذنة ميكروفون قوى خساس .. ولكن أين صوت الصبا وقدرته العظيمة على الانطلاق فى مهب الرياح ، بعيدا عن حجرات التسجيل المغلقـــــة المكيفة الهواء ؟!

ولو أن عبد الوهاب حقق أمنية مستمعيه ، فأذن فى منارة الحسين أو فى منارة أى مسجد آخر ، لأحيا عادة طيبة كان مطربو الجيل الماضى يحرصون عليها

فالاذان للصلاة فى رمضان هو العمل الذى كان مطربو الجيل الماضى يتقربون به الى الله فى رمضان وفى غيره من الشهور

وكان بعضهم يتحرى أن يكون الوقت شتاء ، حتى

يلسعه البرد ، فيكون أجره أكبر عند الله ..

واذا كان عبد الوهاب لم يتح لنا أن نعرفه مؤذنا كما عرفناه مطربا ، فان مطربى الجيل الماضى قد أتاحوا لمعاصريهم أن يعرفوهم مؤذنين كما عرفوهم مطربين ..

و « سى عبده » .. أو عبده الحامولى هو أشهر من أدى الاذان من مطربى الجيل الماضى ..

ومن حسن حظنا ان اديبا كبيرا هو المرحوم خليل مطران ، قد سمع عبده الحامولى يؤذن فى منارة الحسين، فسجل هذا الحدث الفنى الممتع فى مقالة بديعة وردت فى كتاب « الموسيقى الشرقية والغناء العربى » الذى ألفه المرحوم قسطندى رزق ..

فى بداية المقال يصف خليل مطران بهجة الناس وفرحتهم بلقاء شهر رمضان ، ثم يقول : « اجتمع عبده بعدة نفر من كرماء اخوانه فى رمضان فأفطروا وتسامروا هنيهة عرضوا فيها ما عرضوا من أمور الدنيا ، ثم أشار بعضهم بنقلة لقضاء جانب من الليل فى نوع آخر من انواع الصفاء .. فاستقر الرأى على الذهاب الى سيدنا الحسين للجلوس هناك فى المناهى البلدية ، غير أنه بدا لآخر من الرفقاء أن يقترح على عبده عملا مبرورا يرضى به الله والنبى ، ويسدى به يدا الى ألوف العامة الذين لا يملكون من المال والوقت ما ييسر لهم سماع عبده فى السوامر ..

كان طلب ذلك المقترح أن يصعد عبده مئذنة سيدنا الحسين وينشد بعض التسابيح على أثر أذان العشاء .. وهذه التسابيح جرت العادة أن تنشد من اعلى المنائر فى أواخر رمضان .. فلم يتردد عبده فى الموافقة » ..

وعبده الحامولى لم يتردد فى الموافقة على هذا الاقتراح لانه اعتاد أن يصعد منارة الحسين من حين الى حين ، ليؤذن وينشد التسابيح ، فقد كان متدينا لا تفوته الصلاة ولا الزكاة ، بل كان كما يصفه خليل مطران ·· يؤدى الفروض والنوافل ويستغفر ربه عما يقع فيه من المغريات التى تتيحها له اتصالاته بالطبقات الثرية التى تتسع حفلات قصورها الباذخة لكل شىء

فاذا جاء رمضان اتخذه عبده الحامولى ، لا شهرا للصوم فقط ، بل موسما للعبادات كلها ··

ثم يقول خليل مطران : « مضى الرفقة الى سيدنا الحسين ، وأخبر بعضهم من بالجامع أن عبده سينشد تسابيح بعد اذان العشاء ، ففرحوا ·· وما لبثت الاشاعة

أن جالت جولة البرق بين الجماهير فى الحى كله ، فلم يأزف وقت الاذان حتى كانت المقاهى وشرفات المنازل المجاورة والساحة الممتدة أمام المسجد تحتوى من الخلق مالا يدرك البصر آخره ··

هذا المنظر التاريخى الفريد يمكن أن يتكرر الان ، لو أن عبد الوهاب صعد مئذنة الحسين ··

بل ان هذا المنظر الفريد ليتضاءل الى جوار ما يمكن أن تراه العين فى حى الحسين لو أن عبد الوهاب صعد المئذنة فى رمضان ··

ان وسائل الاعلام الحديثة قادرة على اثارة اهتمام الناس بحدث فنى كهذا ، فيحضرون من أقصى البلاد لمشاهدته

ولن تضيع نبرات عبد الوهاب فى الهواء ، فستنقلها الاذاعة وتسجلها ، ويصورها التليفزيون والسينما والصحف ، وتلتقط لها الصور من جميع الزوايا ··

ويستطيع عبد الوهاب أن يملأ بالاذان والتسابيح مليون اسطوانة ، ويغترف من حق الاداء العلنى ما يشاء .. فهل يعاود عبد الوهاب التفكير فى هذه الثروة المالية، اذا كان غير قانع بالثروة الفنية ؟!

***

ازدحمت القاهرة حول مسجد الحسين ، وفى داخله .. تستمع الى عبده الحامولى ..

وبلا ميكروفون غطى صوته هذا الحشد الهائل ،ووقف الكثيرون فوق سطوح المنازل العالية فى الاحياء المجاورة لحى الحسين يرهفون السمع الى صوت « سى عبده » ، وهو يكاد يغطى نصف القاهرة القديمة !

ويقول خليل مطران : « بدأ عبده انشاده بصوت ينحدر الى المسامع وفيه كل الوقار من خشية الله ، وكل الرجاء فى فضل الله وفى مغفرة الله .. وكان يغالب العاطفة المتدفقة من قلبه ليتدرج فى ابرازها .. والجمهور فى اثر كل وقفة من وقفاته يملأ الجو تهليلا وتكبيرا

وقد بقى فى ذاكرتى بيتان مما انشده عبده فى تسابيحه ، وهما :

يا من تحل بذكره
عقد النوائب والشدائد
يا من لديه الملتقى
واليه أمر الناس عائد

« بيتان من عادى الشعر ، ومن أشق ما يكون فى التلحين ، ولكن ذلك المطرب العجيب ، تصرف فى القائهما والترنم بهما تصرفا لا يقدر عليه الا من أوتى عبقريته مع صدق ايمانه .. وقد عقب على هذين البيتين بكثير

غيرهما ٠٠ وكلها فى معنى الاستغاثة ، فكل مقطع يقف عنده ترتفع فى أثره الاهات من الصدور ، ولهـا دوى كدوى البحر الزاخر » ٠٠

ومكث عبده الحـامولى ساعة أو نحوها فى هذا الانشاد الرائع ، والناس وقوف تحت المنارة وحول المسجد ، وفى النوافذ والشرفات والسطوح ، والقاهرة كلها صـامتة مصغية الى الصوت المنطلق من منارة الحسين

ويعقب خليل مطران على ذلك قائلا : « يالله ٠٠ رجل فى أعلى المنارة لا يبدو منه الا شبح ضئيل ، وهو الذى من اجله تتوافد هذه الجماهير المتزاحمة من الناس على اختلاف مراتبهم ، كانهم فقراء ينتظرون من محسن علوى تنزيل الاقوات وتوزيع الصدقات ٠٠ لسان تتصل به نياط الاف من القلوب لتهتز بحكم نبراته اشـهى الاهتزازات ، ولتحلق على أجنحة مصعدة الى السماوات »!

والحديث عن هـذه الليلة الرائعة من ليالى عبده الحامولى ، لا يترك لنا مجالا للحديث عن غيره من مطربى الجيل الماضى الذين ارتقوا المنائر وأذنوا فيها للصلاة فى رمضان ٠٠

ان جميع مطربى الجيل الماضى ، صعدوا المنائر واسمعوا اصواتهم للمصلين وغير المصلين ٠٠ فقد كانت نشـأة هؤلاء المطربين نشأة دينية ، فى الازهر ، أو فى الجامع الاحمدى بطنطا ، أو فى غيرهما من مدارس الثقـافة الاسلامية ٠٠

والذين لم ينشأوا فى الازهر أو فى المعاهد الدينية ، من المطربين ، أتيح لهم أن يتلقوا الثقافة الدينية على أيدى المشايخ البارعين الذين اشتغلوا بالغناء والتلحين بعـد أن

درسوا الدين والادب ..

وكثير من هؤلاء كانوا « مقرئين » ومطربين فى وقت واحد .. فلم يكن الاذان والتسبيح مما يعجزون عنه ، أو يجدونه غريبا عنهم

ولقد نشأ عبد الوهاب نشأة المشايخ ، وصعد المنائر مثلهم ..

ولكن هذا كان فى صباه .. أما الان فان عودته الى الاذان والتسبيح فوق المنائر ، لا تتم الا بشروط فنية ، والا كان عمله فى هذا المجال استطرادا لاعمال المشايخ السابقين ..

وقد تحدثت الى عبد الوهاب مرة أخرى ، وكنا فى شهر رمضان ، فقال لى انه لن يؤذن على المنائر ، تقليدا للمؤذنين، لانه لابد ان يضيف جديدا الى هذا الفن

وبعد أن عزف بفمه قطعة موسيقية دينية ، قال لى انه لن يصنع شيئا اذا كان كل ما يصنعه هو تأليف قطعة أخرى كهذه .. فصياغة الاذان صياغة جديدة عمل شاق جدا ، فهل يستطيع ان يقوم به ..

ان الفن عندما يتناول عملا له صبغة دينية يحتاج الى مزيد من الاناة والتأمل والصبر والتردد .. وهذه هى القضية كما يراها عبد الوهاب !



قد تفكر ليلى مراد فى العـودة الى الغناء فى السينما بعد الغياب الطويل .. ولاشىء يعوقهـــا ، فالمستمعون مازالوا يذكرون ليلى مراد ..

ملكة الأغنية السينمائية

بداية الطريق ـ على خلاف العادة ـ كانت مفروشـة بالازهار والرياحين ، فلم تجد ليلى مراد صعوبة فى الخطوة الاولى ، وأصبحت مطربة بين يوم وليلة ..

والدها المطرب المعروف قرر ذات يوم أن يعتزل الغناء، ورآها تصلح لملء مكانه من بعده ، ففتح لها الباب وقال لها : ادخلى ! ..

هكذا اعتزل المطرب القديم زكى مراد مهنة الطرب ، وأخلى مكانه لابنته الصغيرة ليلى مراد ، فلم تطرق الابواب، ولم تضطر الى الكفاح للوقوف امام الجمهور وبين افراد التخت !

وفى حفلة نسقها المطرب زكى مراد اجمل تنسيق ، وحضرها أمير الشعراء وبعض الفنانين والادباء ، ظهرت

ليلى مراد منذ خمسة وثلاثين عاما تقريبا .. كانت هذه الحفلة شهادة ميلاد للمطربة الجديدة التى تسلمت راية فن الغناء من والدها ..

لم يكن ممكنا أن تستمر ليلى مراد بعد هذه الحفلة ، وتكتسب وجودا فنيا ، لو انها كانت مجرد « بلفة » دعائية تعتمد على شهرة المطرب الكبير الذى قدمها بلباقة الى الناس ..

فقد ظهرت ليلى مراد فى عصر الاصوات الجميلة القوية ، قبل عصر الميكروفون .. وكان متعذرا فى تلك الايام ان يتقدم « صوت » الى المستمعين الا اذا كان قادرا على نقل نبراته الى أسماعهم بدون وساطة الميكروفون

وبلا ميكروفون نجحت ليلى مراد فى حفلتها الاولى صوتا واداء ، مع انها كانت فى فجر شبابها ، قبل اكتمال دربتها الفنية ، وقبل أن يسمع باسمها أحد ..

ثم ازدهرت وازداد نجاحها فى عصر الميكروفون ، عصر الاذاعة والسينما ، بل اصبحت اشهر مطربة مصرية بعد أم كلثوم ، خلال فترة امتدت عشرين عاما (١)

وبعد حفلة « الافتتاح » بخمس سنوات تقريبا ، وجدت ليلى مراد نفسها نجمة سينمائية .. فقد دعاها محمد عبد الوهاب لتقاسمه بطولة فيلم « يحيا الحب » ..

ادت ليلى مراد ـ منفردة ـ اغنيتين فقط فى هذا الفيلم، كانتا كافيتين لعقد صداقة بين صوتها النحيل الساطع وبين أسماع الجيل الجديد ، فأصبحت ليلى مراد منذ ذلك الحين مطربة جيل السينما الذى سيطر على « شباك

---

(١) نقصد أنها كانت أشهر مطربات السينما

التذاكر » بعد جيل المسرح ! ..

كانت الاغنية السـينمائية قد بدأت تتملك أذواق جماهير واسعة منذ ظهرت أفلام « الوردة البيضـاء » و « دموع الحب » و « وداد » و « الغندورة » و « أنشودة الفؤاد » لعبد الوهاب وأم كلثوم ومنيرة المهدية ونادرة ..

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت السينما سيدة الموقف ، وبلغت الاغنية ذروة الاهمية فى الفيلم السينمائى ، وانهمك المنتجون والمخرجون و « المكتشفون » فى البحث عن أصوات جديدة ..

كان للاصوات الجديدة فى سنوات الحرب ما يشبه السوق السوداء ، فقد كان الجرى وراء الربح عن طريق هذه الاصوات أشبه بالجرى وراء الربح فى السـوق السوداء التى يتجر ابطالها بمواد التموين !

وخلال الحرب اشتهرت اسماء كثيرة كان موعدها مع الشهرة والثراء قيام هذه الحرب ..

فى عام ١٩٤٣ انتقل ابراهيم حمودة من صالة بديعة الى بطولة فيلم « عايدة » وغنى فيه مع أم كلثوم ، وكان صوته حينذاك من أجمل أصوات المطربين وأقواها ..

وفى العام نفسه جاءت الكسندرا بدران من بيروت ، وسماها يوسف وهبى « نور الهدى » واعلن انها معجزة غنائية ، وحقق فيلمها الاول « جوهرة » أضخم نجاح فى عالم الافلام الغنائية ، ورشحها بعض النقاد ملكة للافلام الغنائية ..

وفى عام ١٩٤٤ اجتذبت الافلام الغنائية اسـمهان فعادت تغنى ، وظهرت فى فيلم « غرام وانتقام » الذى نجح أكثر مما نجح فيلم « جوهرة » ..

وأغرى نجاح نور الهدى واسمهان كثيرا من الاصوات اللبنانية ، فجاءت « صباح » الى القاهرة عام ١٩٤٥ .. وتبعتها أسماء أخرى كثيرة .. كما جاء المطرب العظيم وديع الصافى ..

وكثر تلاميذ محمد عبد الوهاب ..

ففجأة ظهر المطرب محمد أمين ، واصبح نجما للافلام الغنائية ، تحت رعاية عبد الوهاب وأستاذيته

ثم ظهر جلال حرب .. وغنى ألحان عبد الوهاب كما غناها محمد أمين ..

وكان الامر كله اشبه بزحف للمطربات والمطربين على دوى قنابل الحرب العالمية الثانية ..

وفى سنوات الحرب هذه ، لمعت ليلى مراد ، ونضج صوتها ، وكثرت افلامها ، واصبحت من اعلى المطربات أجرا ..

وعندما تربعت نور الهدى على عرش الافلام الغنائية تراجعت ليلى مراد بعض الوقت ، ثم تربعت اسمهان أيضا على عرش الافلام الغنائية فازدادت ليلى مراد تراجعا ..

ولكن اسمهان ماتت سنة ١٩٤٤

ونور الهدى بدأت تنطفىء بانطفاء نيران الحرب .. وهكذا عادت ليلى مراد من جديد سيدة للافلام الغنائية ، واشتد ضغط المنتجين والمخرجين عليها .. كل يريدها بطلة لفيلم أو لعدة أفلام

وارتفع أجرها فوق العشرة الاف جنيه ، وصار اسمها الورقة الرابحة فى يد المنتج الذى يسعده الحظ بالتعاقد

معها ·· يستطيع بهذا الاسم ان ينتزع ـ مقدما ـ مبالغ طائلة من موزعى الافلام الاثرياء

باختصار ·· اصبحت ليلى مراد المطربة رقم «١» فى السينما المصرية ·· واصبح اسمها مفتاحا سحريا لشباك التذاكر ، وانقلبت اغانى افلامها الرائجة الى « اناشيد قومية » فى أفواه البنات والاولاد ، وسيطرت نبـــرات صوتها على أسماع جمهور السينما العريض فى البـــلاد العربية ··

والحقيقة أن ليلى مراد لم تتربع على قمة الفيلم الغنائى الا بعد ان توافرت لها الاسباب ··

فقد خلا الميدان من نور الهدى وأسمهان ولم يبق الا رجاء عبده وصباح وبعض المطربات

وعليهن جميعا تفوقت ليلى مراد بصوتها الجميـــــل الواضح العذب ، وبشـــخصيتها ذات الجـــاذبية السينمائية ··

ومن أهم أسباب نجاح ليلى مراد فى السينما ، أنهـا شقت طريقها مستقيما كمطربة للسينما ··

لم تحاول تقليد أم كلثوم فتقيم حفلات غنـــائية على المسرح ، بل خضعت لضرورات الاغنية الســـينمائية واستثمرت فيها صوتها خير استثمار لان صوتها لا يتسع لاكثر من أداء الاغنية السينمائية ··

وقد انطفأت نور الهدى ـ مثلا ـ فى السينما ، برغم ضخامة صوتها واتساع مساحته ، لان أصدقاءها همسوا لها أنها تستطيع أن تصبح أم كلثـــوم الثـــانية ·· فسارعت تقيم حفلات غنائية فى المسارح ، تغنى واقفة

أمام افراد التخت ، وتمسك بيديها منديلا فضفاضا ! ..

ان الغناء أمام التخت ساعات طوالا ، هو الفخ الذى انزلقت اليه كل مطربة متفائلة ظنت أن طريقها الى المجد هو تقليد أم كلثوم .. وما زال هذا الفخ قائما — حتى الآن — تحت أقدام المطربات المتفائلات !

وقد نجت ليلى مراد من هذا الفخ لانها التزمت حدود صوتها كمطربة سينمائية ، وكرست جهودها للسينما

ومن خلال ميكروفون السينما غنت ليلى مراد عشرات الاغانى ، وبدا صوتها فى معظم هذه الاغانى سليم النبرات عذبا مستساغا كشراب الورد الخفيف .. واحيانا كالماء القراح المثلج فى الصيف !

ومن خلال « البحة » الجميلة فى صــوتها ، نجحت مجموعة من أغانى الحب السينمائية ، شغلت أســماع الناس طويلا ، ورددتها المطربات الناشئات فى ركن الهواة بالاذاعة ..

وبفضل خفة حركة صوتها ، استطاعت ان تشترك فى مجموعة من الاغانى الفكاهية ، كأغانيهـــا مع نجيب الريحانى فى فيلم « غزل البنات » واغانيها مــع عزيز عثمان وشكوكو واسماعيل يس وغيرهم ..

ان ليلى مراد لم تقف بصلابة فى وجه الزمن ، فاستطاع أن يتخطاها ويخلفها وراءه ..

ولو انها وقفت فى وجه الزمن بقوة واصرار على البقاء، لتوقفت عقارب الساعة طويلا أمام صوتها وفنها ..

ولكن ليلى مراد تصرفت فى أمر نفسها وكأنها كانت تنتظر ان يقول لها الزمن : تقاعدى ! ..



فايزة احمد ليست فى القمة ، وليست فى السفح .. وصوتهـا جميل غنى النبرات ولكنه ليس صـــوتا ذهبيا فاخـــرا ..

الصوت الأبيض المتوسط

اذا كان الصوت الجميل من ذهب ، فصوت فايزة أحمد من فضة ، ولونه ابيض كلون الفضة الســـائلة من السبائك ..

وليس الفن والجمال فى الغناء وقفا على الاصـــوات الذهبية الفاخرة ، فان الاصوات الفضية ، كصـــوت فايزة احمد ، لها نصيب وافر من الفن والجمال ..

ولا فرق بين الاصوات الذهبية والاصوات الفضية الا فى نفاسة المعدن ، فالاصوات الذهبية أنفس معدنا ، واندر وجودا ..

وصوت فايزة احمد يعترف بجماله كل من يسمعه ، ولكنه ليس بالجمال الباهر الساجر ، وانما هو لون من الجمال « المتوسط » .. لا يعلو الى قمم الجمال العليا

فى الاصوات ، ولا ينحدر الى سفوحها ، بل يبقى فى موضع كريم فوق السفح ، ودون القمة ..

فهو صوت ابيض ، لانه من فضة لا من ذهب ..

وهو صوت متوسط ، لانه يأخذ مكانة بين القمة والسفح ..

ليس معنى هذا انه صوت ضائع بين الثرى والثريا ، لا طعم له ولا لون ولا رائحة ..

فقد اعتادت أذواقنا العربية من قديم أن تستخف بالفن « المتوسط » الذى لا يرتفع الى الذروة ، ولا يقع فى الهاوية ..

وكان قدماؤنا يقولون : « ليس اثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط » ..

وقال ابن الرومى يهجو شاعرا :

فما أنت سخن ولا بارد

وما بين ذين سوى الفاتر

ولكن هذا كله لا ينطبق على صوت فايزة احمد ، فانه ليس صوتا وسطا بالمعنى الذى اراده ابن الرومى .. انه ليس بالصوت « الفاتر » لا هو ساخن ولا بارد .. بل هو — الان — أجمل صوت نسائى يقف أمام التخت الشرقى

ولا نحتاج طبعا الى استثناء ام كلثوم ، فانها مستثناة من كل مقارنة وموازنة فى عالم الاصوات ..

وصوت فايزة احمد يمتاز بحرارة الاداء ، وثراء النبرات ، ودقة التعبير وذكائه ..

ومع ان فايزة ذات مظهر عادى لا يجتذب احدا ، الا ان صوتها لا تعوزه الجاذبية الانثوية

وليس صوتها من النوع الحاد الذى تسميه مصطلحات

المجمع اللغوى « الندى الاول » وتسـميه المصطلحات الاوربية « السوبرانو » ·· ولكن براعة فايزة احمد فى الاداء تنسى المستمع ما يفتقر اليه صوتها من اتسـاع المساحة ··

وهو مزيج رائق من بعض نبرات أسمهان ونور الهدى ومنيرة المهدية والشيخ مصطفى اسماعيل ··

وأخيرا ، فهو صوت ميكروفونى ، تتجسم محاسنه فى الميكروفون وتتضاعف ، ولكنه ليس صوتا واهنا يعتمد على الميكروفون ، ويكاد يتلاشى بدونه !

ان الاصوات الميكروفونية تسيطر الان على الاسماع··

وصوت فايزة أحمد من أكثر الاصـوات صـداقة للميكروفون ، ونجاحا فى التعامل معه ·· فهى تقـدم صوتها للميكروفون ، والميكروفون يتولى اخراج نبراته وتقديمها فى احسن صورة ··

ولكن الميكروفون ليس اصل نجاحها ، فلو جاءت قبل عصر الميكروفون لنجحت وأخذت مكانها

ان فايزة احمد هى احدى مطربات « القطرين » اللاتى عرفهن فن الغناء العربى فى مصر منذ زمن غير قصير

فمنذ بداية القرن العشرين ، بدأت مصر تسـتقبل ممثلات سوريات ولبنانيات اجتذبتهن نشأة المسرح فى مصر ·· وكان اكثر الممثلات حينذاك يجمعن بين التمثيل والرقص والغناء ··

وكانت الممثلات المغنيات اللاتى ينحدرن من اصـل سورى او لبنانى ، ينسبن الى مصر والشام معا ·· الى « القطرين » الشقيقين ··

ولم ينبغ من مطربات القطرين فى العشرينيات والثلاثينيات الا فتحية أحمد ..

وفى الاربعينيات لمعت أسمهان ونور الهدى وصباح ..

وفى العشرينيات وما قبلها ، كانت هجرة الفنانات والمغنيات الى مصر ترتبط بحركة انشاء المسرح المصرى ..

أما فى الثلاثينيات ، وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها بسنوات ، فقد كانت هجرة الاصوات الى مصر مرتبطة بحركة انشاء السينما المصرية ، وقيام شركات رأسمالية ، وافراد مغامرين فى هذا الميدان ..

وخلال الحرب العالمية الثانية ، اقتضى السعى وراء الربح فى ميدان السينما ، اجتذاب عدد من الاصوات اللبنانية والسورية .. وقد انجذبت هذه الاصوات بسهولة لانها هى ايضا كانت تبحث عن مكان لها تحت شمس القاهرة ..

وكانت نور الهدى واسمهان أبرز مطربات « القطرين» اللاتى عاصرن تحول الانتاج السينمائى المصرى من مغامرات فردية الى شركات رأسمالية راسخة ..

وبعد اختفائهما ، برزت صباح .. ودارت مع عجلة رأس المال السينمائى دورة طويلة مثمرة !

وحاولت مطربات أخريات أمثال سعاد محمد ونجاح سلام أن يدرن مع عجلة رأس المال ، ولكن بعد فوات الاوان ، فقد انتهت الحرب فتقلص الانتاج السينمائى ، وانكمش رأس المال ليتفادى الخسائر التى بدأت تلحق به بسبب انصراف الجماهير عن الانتاج السينمائى الردىء الذى استمرأ رأس المال تقديمه خلال الحرب ، ثم واصل

تقديمه بعدها ، غير مبال بالفروق النفسية والاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على المجتمع ..

والان .. فى مجتمعنا الجديد .. انتهت قصة السينما مع رأس المال المستغل ، ولم يعد استجلاب المطربات والممثلات من الخارج واردا فى سياسة السينما المصرية..

ومع ذلك ، فان هجرة الاصوات الجميلة الى القاهرة ، لا يمكن ان تنقطع ، لان القاهرة ما زالت كعهدها موئل فن الغناء العربى ، ونقطة انطلاق كل صوت جميل يريد أن تستمع اليه الجماهير العربية من المحيط الى الخليج

الا أن هذه القاعدة ليست قاطعة مانعة ، فمن الممكن أن يجد الصوت الجميل نقطة انطلاق مناسبة فى بلد عربى آخر ، اذا توافر لهذا الصوت من الامتياز والقوة ما يتيح له اجتذاب الاسماع ..

فقد أخفق وديع الصافى مع السينما المصرية خـــلال الحرب العالمية الثانية ، فسافر الى امريكا اللاتينية ليسمع صوته لجميع المهاجرين العرب هناك ، ثم عاد الى لبنان ليغنى ويسمع صوته لدائرة واسعة من الجماهير اللبنانية والسورية ..

وفى النهاية وصل صوته الى القاهرة ، وانطلق منها .. وكان وصوله اليها ، وانطلاقه منها ، دليلا على نجاحه فى الانطلاق من مسقط رأسه فى جبل لبنان ..

أما فيروز ، فان صوتها الحريرى الناعم الهـــامس .. اتيح له ان ينساب فى هدوء الى الاسماع قبل أن يصل الى القاهرة ، لان صوت فيروز ــ كصوت وديع الصافى ــ يمتلك مزايا خاصة تجمع حوله الاسماع

ولكن القاهرة تبقى دائما ، حلم كل صوت عربى يريد

أن يعرفه كل العرب ..

وقد جاءت فايزة أحمد الى مصر منذ عشر سنوات تقريبا .. كان حلمها أن تكون نجمة سينمائية ، ولكن حلمها لم يتحقق على النحو الذى تصورته ، لان وجهها وقوامها ومواهبها فى الالقاء والتمثيل لا تتيح لها ان تكون نجمة سينمائية

ولكن صوتها الفضى الجميل ، لقى ما يستحق من نجاح لانه ملأ فراغا لم تملأه مطربة أخرى منذ وفاة أسمهان واختفاء نور الهدى والمطربات الكبيرات امثال فتحية احمد ونجاة على ورجاء عبده

ويؤدى صوت فايزة ـ الان ـ مهمته الفنية الصعبة وهى ملء الفجوة الواسعة التى تقع بين صوت أم كلثوم واصوات المطربات

فالفرق بين أم كلثوم وبينهن ، فرق رهيب .. وفايزة احمد هى التى تقف بين أم كلثوم وبينهن ..

انها أقل كثيرا من أم كلثوم ، وأكبر قليلا من المطربات الاخريات .. وصوتها هو الصوت « الوسيط » الذى يقف فى الوسط ليستريح اليه الناس من عناء الاستماع الى مطربات الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة ، وليأنسوا اليه اذا فاتهم الاستماع الى أم كلثوم

وأنها لمهمة فنية ذات شأن يؤديها صوت فايزة احمد .. هذا الصوت الابيض المتوسط الذى يقف وسط الاصوات ، وينساب كالفضة البيضاء الذائبة فى السبائك !



بدأ عبد الحليم حافظ حياته الفنية كنافخ فى الاوبوا .. فهل كان يتصور وهو فى خطوة البداية انه سيصبح اشهر مطرب ظهر فى مصر بعد عبد الوهاب ؟ ..

نافخ الأوبوا .. يغنى

لم تنشأ الصداقة والثقة بسهولة وسرعة ، بين عبد الحليم حافظ وصوت عبد الحليم حافظ ..

كان صوته ـ قبل خمسة عشر عاما ـ يقول له : لا تستهن بى ، فانى أستطيع أن أشق لك طريقا وسط هذا الحشد من الاصوات ..

ولكن الذى كان يتأمل صوت عبد الحليم حافظ فى ذلك الوقت ، ويحسب عدد درجاته أو مقاماته ، ويصغى الى نبراته الهادئة المنخفضة المحصورة فى حيز ضيق .. كان لابد أن يتساءل :

ـ ماذا يستطيع هذا الصوت أن يفعل ؟!

وبعض اللجان الرسمية التى وقف أمامها عبد الحليم

لاختبار صوته فى بداية خطواته ، لم تجد صعوبة فى الاجابة عن هذا السؤال

وكانت اجابتها صدمة للمطرب الناشىء كفيلة بتحطيم عزيمته ، لولا أنه كان قد اقتنع بأنه يستطيع أن يكون مطربا ‥ ثم قرر فعلا أن يصبح مطربا ‥

فلماذا قرر احتراف الغناء بعد أن بدأ حياته فعلا كعازف محترف ؟

يبدو أن مستقبل آلة « الاوبوا » التى تدرب على النفخ فيها ، كان يلوح غائما أمام عبد الحليم حافظ قبل خمسة عشر عاما ‥

واذا كان قد تدرب على « الفلوت » ايضـــا ‥ فان مستقبل الفلوت لم يكن يبدو امامه اقل جهامة من مستقبل الاوبوا ‥ كلتاهما من آلات الاوركسترا الغربى الذى لم يكن له وجود حقيقى فى بلادنا عندما كان عبد الحليم حافظ يفكر فى المستقبل واحتمالاته ‥ ولهذا قرر ان يحترف الغناء ‥

فان مطربا مسموع الصوت في التليفزيون والسـينما واضواء المدينة افضل عند الجمهـــور من عازف أو نافخ فى الفلوت أو فى الاوبوا

وهكذا بدأ نافخ الاوبوا خطواته كمطرب محترف ‥

وفى البداية كانت العثرات ‥ لم يستطع الجمهـــور ـ حتى من خلال الميكروفون ـ أن يتعرف على مــــواطن الجمال والجدة فى هذا الصوت الناشىء الذى تســيطر عليه روح نافخ الاوبوا اكثر مما تسيطر عليه روح المطرب المحترف ‥

ان النافخ فى هذه الالة الاوركسترالية ـ كما هو معروف ـ يتحكم فى أنفاسه بصرامة لكى يضبط النغمات الدقيقة الحزينة المتفجعة « الخنفاء » التى تصدر عنها ..

وبدون التحكم الصارم فى أنفاسه ينفلت منه عيار « الاوبوا » لتملأ الجو عويلا وتفجعا ..

وقد غنى عبد الحليم منذ بداية أمره ، متأثرا بانضباط عازف الاوبوا .. ووضع أنفاسه المدربة الخبيرة فى خدمة حنجرته ، بعد أن كان يضعها فى خدمة المبسم الدقيق فى الطرف الضيق من آلة الاوبوا ..

ولكن صوت عبد الحليم لم يكن متمردا متوحشا كآلة الاوبوا .. لم يكن يهدده بانفلات العيار والانطلاق بعنف وشدة كما كانت تهدده الاوبوا اذا لم يعطها أنفاسه بحذر وحساب ..

فالحقيقة أن صوت عبد الحليم حافظ بمساحته وامكانياته المعروفة ، صوت « مستأنس » لا وحشية فيه ولا عنف ولا رغبة فى الانفلات ..

ولكن عادة « الانضباط » القديمة التى اكتسبها عبد الحليم من نفخ « الاوبوا » المتوحشة ذات العويل الحاد ، لم تفارقه عندما أصبح مطربا ..

وانعكست عليه هذه العادة فى صورة جديدة تمثلت فى متانة أدائه ، وامتداد أنفاسه وتحكمه فيها ، بل وتلاعبه فيها بحيث تبدو ـ اذا لزم الامر ـ أطول مما هى فى الواقع وأكثر عمقا وامتدادا ..

وهذا هو فى اعتقادى السر الاول وراء قوة الاسر فى أداء عبد الحليم حافظ ..

بعضهم يحاول أن يقول ان عبد الحليم اكتسب دقة الاداء من اصغائه الطويل الى الشيخ رفعت وعبد الوهاب .. وكلاهما أستاذ فى دقة الاداء

ولكنى أعتقد أن عبد الحليم لم يتمكن من الاصغاء الطويل الى الشيخ رفعت ، بحيث يستفيد من متانة أدائه الفائقة .. فان الشيخ رفعت توقف عن العمل الفنى قبل عشرين عاما .. وكان فى السنوات الخمس الاخيرة من عمله مضطرب الصحة ، فاضطرب أداؤه كما يضطرب أداء صاروخ جبار محلق فى الفضاء ..

أما الشيخ رفعت الحقيقي ، ذو الاداء الباهر المعجز ، فكان موجودا حقا قبل الحرب العالمية الثانية ، عندما كان عبد الحليم حافظ فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره

وأما اصغاء عبد الحليم لعبد الوهاب فليس فيه جدال ، ولكن من يتأمل هذه الناحية يكتشف أن عبد الحليم قد أصغى لعبد الوهاب فى أغاني الافلام السينمائية ، أكثر مما أصغى لعبد الوهاب فى الاغانى القديمة ذات الاداء الرائع ..

ولم يقف عبد الحليم طويلا عند أغانى عبد الوهاب القديمة ، لان صوت عبد الوهاب فيها كان شديد الاقتدار والاتساع ، الى حد أقنع عبد الحليم ـ وهو رجل أعمال واقعى ـ بألا يفكر فى ممارسة هذا النوع من الاداء الذى يحتاج الى بذخ فاحش فى الصوت ..

فلم يبق أمامه بعد ذلك الا أغانى عبد الوهاب السينمائية وما يجرى مجراها من أغانى الفترة التى بدأت بفيلم « يحيا الحب » ..

كيف تأثر عبد الحليم بهذه الاغانى ؟

لقد تأثر بجوها أكثر مما تأثر بأدائها .. وهذا هو سر نجاح عبد الحليم حافظ كمطرب فى عصر عبد الوهاب

نجح لانه تقدم الى الجمهور بأداء جديد ، لا يقلد فيه أحدا ممن حفظت الاسماع طريقة أدائهم ، وفي مقدمتهم عبد الوهاب الذى لا تخطىء الاسماع طريقة أدائه قديما وحديثا ..

فعندما استمع الناس الى « صافيني مرة » و « على قد الشوق » وباكورة أغانى عبد الحليم ، وجدوا صوتا جديدا ، وأداء جديدا .. ولم يجدوا فى المطرب الجديد الذى يتعرف اليهم بصوته وأدائه ما يذكرهم بمطرب يعرفونه فعلا ..

ومع أن عبد الحليم حافظ لا يلحن أغانيه بنفسه ، الا أن معدن صوته وطريقة أدائه فرضا على ملحني أغانية لونه الخاص في الغناء

فالملحن يجد نفسه ملزما بمراعاة هذه المساحة الصوتية الضيقة الخصبة ذات الطعم الخاص ، والجو الخاص ..

وعندما بلغ عبد الحليم درجة النجاح التى أقنعت عبد الوهاب بالتلحين له ، جرى عبد الوهاب فى سباق رابح مع ملحنى عبد الحليم ، فعرف هذا الاستاذ القدير كيف يستغل معدن هذا الصوت ولون أدائه وفطرته الموسيقية الغنائية ، فى مجموعة بارعة من الالحان المناسبة لمقتضى الحال ! ..

وبسرعة شق عبد الحليم حافظ طريقه .. وتوالت أغانيه ، يلحنها ملحنون مختلفو المواهب والاساليب : عبد الوهاب .. كمال الطويل .. بليغ حمدى .. محمد الموجي .. ولكنهم جميعا ملتزمون بمعدن صوت عبد

الحليم وفطرته وأدائه وجوه الخاص ومساحته الصوتية الضيقة الخصبة ..

ومهما اختلف الملحنون فى أساليبهم ، واختلفت معانى الاغانى التى يلحنونها له ، فان الجو العام لا يتغير ..

ان الذى صبغ جميع هذه الاغانى بلونها الواحد ، وأعطاها « جنسية » فنية واحدة ، برغم اختلافها الواضح هو المطرب ذو المساحة الصوتية الضيقة الخصبة ، والاداء الخاص ، والجو الخاص ..

انه يطبع كل لحن بطابعه .. وهو فى هذا ــ مع الفارق ــ يشبه سيدة الغناء أم كلثوم .. فهى « تكلثم » جميع الالحان التى تغنيها مهما اختلف ملحنوها .. ويستوى فى الخضوع لها ما يلحنه السنباطى وما يلحنه عبد الوهاب وبليغ حمدى وغيرهم ..

ولكن هذا كله ــ وحده ــ لم يكن كافيا ليبلغ به عبد الحليم حافظ ما بلغ حتى الان من النجاح واطراد النجاح ..

فقد كان ممكنا أن يظهر عبد الحليم حافظ بهذهالمساحة الصوتية الضيقة الخصبة فلا يظفر الا بنجاح قليل ، أو يعجز حتى عن الظفر بهذا النجاح القليل ..

فماذا اذن ؟! ..

الحقيقة أن السبب الرئيسى فى نجاحه ــ بعد امكاناته ومميزاته ــ هو أنه جاء فوجد فى دنيا الغناء بعض الفراغ ، فملأ هذا الفراغ ..

فبعد أن تربع عبد الوهاب على عرش المطربين ، انهار عالم الطرب القديم بمطربيه القدماء ، ولم يظهر من المطربين

الجدد الا مجموعة من تلاميذ عبد الوهاب ومقلديه ..

ربما ظهر مطرب حاول أن ينفرد بلون خاص ، بل انفرد فعلا بلون خاص ، كفريد الاطرش ..

وربما ظهر عدد من المطربين الذين جرت العـــادة فى الزمن الاخير بتسميتهم « مطربين شعبيين » ..

ولكن شيئا من الفراغ فى دنيا الغناء الرجالى خيم على هذه الفترة الطويلة لان عبد الوهاب كان فيها وحده ، ولم يكن - وحده - يستطيع أن يملأ هذا الفراغ كله ..

ومنذ خمسة عشر عاما بدأ هذا الفـــراغ يتسع ، لان الغناء لم يعد المهمة الفنية الوحيدة لعبد الوهاب .. فقد ألمت بالصوت الذهبى القديم عدة عوامل جعلت التـأليف الموسيقى والتلحين فى المقام الاول من أعمال «عبد الوهاب» بعد أن كان الغناء أكبر أعماله الفنية وأخطرها وأحبها الى الناس ..

وفى هذه الفترة بالذات ظهر عبد الحليم حافظ ..

لم يستطع طبعا أن يملأ الفراغ ، ولكنه ملأ جانبا منه، يراه البعض صغيرا ، ويراه البعض كبيرا .. وأثار فى هذا الجانب حرارة وحيوية يثيرهما الشىء الجديد دائما فيمـا حوله ..

ان النافخ الذى هجر آلة الاوبوا الخشـــبية ، وآلة الفلوت الفضية ، ظفر من دنيا الغناء العريضة بتعويض كاف عن الفضة والخشب ، وربما عن الذهب .. لو كان ينفخ فى آلة من الذهب !

فان التجربة العملية أثبتت له - وهو ذاهل سعيد - أنه جاء فى أوانه ، وأن مكانه الذى احتله كان فى انتظاره

وفى أرض الاغنيـــة الفردية ، غرس عبد الحليم حافظ قدميه بقوة ·· لقد جاء فى عصر هذه الاغنية ، بل جـــاء والاغنية الفردية فى ربيع أيامها وزهرة شبابها ·· سوقها رائجة ، وتكاليفها ميسورة ، و « عائدها » محترم جدا ·· والتخت الشرقى « المتطور » يخـــــدمها بآلاته القديمـــة والمستعارة ، والمؤلفون ينظمون لها كلامامن جميع الاوزان، والملحنون يحركون الكلام على نغمات الســـيكا والصـــبا وأخواتهما ، و « يحبشون » لها الكثير من « اللزم » المثيرة للطرب والاعجاب !

والذى يتأمل الان الموقف الفنى لعبد الحليم حافظ ، يراه ملتزما حدوده لا يتعداها ·· فهو ابن الاغنية الفردية وممثلها الاكثر نجاحا ·· وكل محاولة له فى غير هــــذا المجال تعتبر لديه مغامرة غير مأمونة العواقب ، ولا داعى لها على الاطلاق ··

ولكن ماذا عن المستقبل ؟

ان عبد الحليم حافظ ينظر حوله فيرى عبـــد الوهاب وفريد الاطرش وغيرهما ··

وعبد الحليم أصغر سنا ، ولـكن المســـتقبل الفنى لا يخضع لمجموعة السنين التى يحملها الفنان على كتفيـه ·· والبقاء دائما للاصلح لا للاصغر ··

ولا جدال فى أن عبد الحليم يفكر فى اليوم الذى ينفرد فيه بعرش الاغنية الفردية ··

ولكن ·· من الذى يضمن مستقبل الاغنية الفـــردية ذاتها ؟!

صحيح أن صوته الان فى أيام نضجه وحيـــويته ··

والميكروفون فى خدمته ، ولكن تجربة المطربين الكبـــار تجعلنا نفكر فيما بعد النضج ..

ليس هذا تخويفا لمحبى عبد الحليم وهواة صـــوته ، ولا تذكيرا لعبد الحليم نفسه بتقلبات الايام .. فلســت واعظا ، ولا أحب الحكم والامثال والمواعظ .. ولـــكنى أحاول أن أختبر الصورة من جميع جوانبها ، وأنظر اليها فى حالة حركتها نحو المســـتقبل ، لان حاضرها وماضيها معروفان للجميع ..

ان صوت عبد الحليم - الان - يتمتع بجاذبية وسيطرة لا جدال فيهما على أسماع الناس .. ولا ينافسه صـوت رجالى اخر فى هذا المجال ..

وهو صوت اذاعى تليفزيونى سينمائى واضح الملامح ، قوى التأثير يتعامل ببراعة مع الميكروفون

الا أن استمرار نفوذه لدى المستمعين ، رهين باستمرار ازدهار الاغنية الفردية .. ورهين كذلك بعدم ظهور صوت جديد يتلقفه الميكروفون وينشره على أوسع نطاق ! ..

وأنا شخصيا أؤمن بأهمية الاغنية الفردية ، وحاجـة الذوق المصرى اليها فى كل وقت ، ولهذا أدرك أهميـــة صوت عبد الحليم حافظ وكل صوت من نوعه ..

فان الذوق المصرى سيظل دائما شديد التعلق بالاغنية الفردية وبالاصوات التى تؤديها على النحو الذى يرضـيه ويؤثر فيه ..



خلال اكثر من ثلاثين عامـا ، استطاع فريد الاطرش أن ينفرد بين المطربين بفن خاص ، اسمه « فن الدموع » .. وقد اعتـاد النقاد ان يهاجموا هـذا الفن ، ولكن المستمعين لهم رأى آخر ..

فن الدمـوع !..

الميكروفون يلتقط دموع المطربين والمطربات فيجسمها ويضاعف تأثيرها فى بعض القلوب ، حتى يتصور أصحاب هذه القلوب أن الميكروفون ينشج ويذرف الدموع !

ان الدموع رائجة فى سوق الغناء هذه الايام كما كانت رائجة منذ زمن بعيد .. وربما تحولت خمس دقائق من الدموع الى خمسة أرقام متجاورة فى حساب مطـرب أو مطربة بالبنوك ..

ودموع المطربين والمطربات المشهورين تساوى أضعاف وزنها ذهبا ..

فالجماهير تبكى وتدفع ، كما تضحك وتدفع ، أو تأكل وتدفع ، أو تنام وتدفع ..

وأشهر دمـوع فى عصرنا هى دمـــوع المطرب فريد الاطرش ..

انها تسيل من عينيه ، ومن حنجرته ، ومن الميكروفون الواقف فى خشوع أمام عينيه ، يتلقى منهما الدمـــوع ويمطرها على المستمعين فى مشارق الارض ومغاربها ..

وفريد الاطرش يقدم نفسه للجماهير دامعا حزينـــا ، مفتت القلب والكبد كالشهداء المظلومين ..

والذين يسمعونه باكيا حزينا ، جريح القلب والكبد ، يتساءلون : ماذا وراء هذه الدموع ؟!

ويؤكد عارفو فريد الاطرش أن وراء دموعه ماضـــيا معذبا مليئا بالحرمان والالم .. ويقول لك هؤلاء العارفون أن الماضى الشقى يطارد فريد الاطرش حتى اليوم ، ويثـير دموعه ، ويؤرق لياليه ؟!.

ولكن جميع الناس تقريبا يقاسون أنواعا من الحـرمان والالم فى أيام من حياتهم ، وأكثـرهم ينسى المــاضى بحرمانه وآلامه ، اذا أتيحت له حياة جديدة سعيدة ..

ويشرح لك أصدقاء فريد الاطرش مسألة دموعه بشىء من الصراحة .. فدموعه ليست نابعة من الفشـــل فى الحياة ، بل من الفشل فى الحب ..

ولكن .. هل يظل الانسان غارقا فى الدمــوع حتى يتخطى سن الخمسين بسبب الفشل فى الحب ؟!

الحقيقة أن دموع فريد التى يذرفها فى الميـــكروفون ليست دموع الحب ، ولا دموع الندم ، ولا دموع الشوق .. انها ــ بالضبط ــ دموع حنجرته ، لان الفن الغنـــائى الذى يمارسه فريد الاطرش هو « فن الدموع » !

ولماذا يمارس فريد الاطرش فن الدموع ؟!

لان حنجرته ـ لاسباب فسيولوجية ـ لا يمكن أن تنطلق بالغناء ، ولا بد لها من وقفات تتنهد فيهـــا وتتنفس ، فتختلط التنهدات عندئذ بالالحان ، وتختنق الكلمـــات بنشيج يشبه نشيج انسان معذب حزين !

ومن دموع حنجرة فريد الاطرش ، انبعثت أســطورة دموع حياته كلها ..

ان صوته وتر واحد ضيق يزحف الى الاســماع كأنه ينزلق بصعوبة من عنق زجاجة !

وعنق الزجاجة الضيق ، هو المسئول الاول عن دموع فريد الاطرش .. ان عنق الزجاجة يخنق صوته حتى يكاد يبكى بكاء حقيقيا ..

ثم تجيء لكنته غير المصرية فتضفى على نطقه ومخــارج ألفاظه رنة غريبة ، وتبلله بكميات مضاعفة من الدموع ..

فالاذن المصرية مدربة على سماع الغنـــاء المصـــقول ، بألفاظ قائمة على الوزن الصحيح للكلمة العربية المفـــردة وطريقة تحريكها فى المقام اللحنى .. فاذا لم تجـد الاذن المصرية هذا كله فى صوت من الاصـــوات ، أحست لدى سماعه شيئا من الكآبة ، فيبـــــدو كأنه مبلل بشيء من الدموع !

وهكذا تضافرت العوامل التى تجعل صــــوت فريد الاطرش باكيا فى أسماعنا ، حزينا لا يفارقه الحزن أبدا .. حتى لو كان فريد الاطرش نفسه فى قمة السعادة !..

والاطرش غير ملم بالاوزان الشعرية ، ولهذا تختــــل العلاقة بين ألحانه وبين الاوزان العروضـــية للازجال أو الاشعار التى يغنيها ..

وهذه المفارقات كلها جعلت فريد الاطرش لونا قائما بذاته فى الغناء المصرى الحديث ·· وقد نجح برغم كل شىء ·· لغرابته !·

واستطاع طوال ثلاثين عاما أن يحتفظ بدموعه ونشيجه وغرابة صوته ونطقه وألحانه ، فاختفى عشرات المطربين ، وما زال هو متربعا فى مكانه ··

وهناك مطربون ذوو أصوات بارعة الجمال ، لم يبلغوا النجاح الذى بلغه فريد الآطرش ··

لقد رأيت المطرب العظيم وديع الصافى فى القاهرة منذ بضعة عشر عاما يحاول جاهدا أن يظهر فى السينما أو يغنى فى الاذاعة ، فلا يستطيع ·· مع أنه صاحب صوت نادر المثال بين المطربين العرب ··

وحياة وديع الصافى حافلة بالكفاح ولكنه لو أراد أن يستقطر منها نصف دموع فريد الاطرش لما استطاع ·· فان دموع الاطرش ليست دموع حياة ، بل دموع حنجرة ·· دموع صوت ينزلق بصعوبة من عنق زجاجة !

وليس هذا عيبا ·· فيما يبدو ··

فلو كان عيبا لما تمسكت جماهير واسعة بفريد الاطرش أكثر مما تمسكت بمطربين مفتوحى الحناجر ، يغنون من أعماق صدورهم ، من أعلى ذروة فى طبقة « التينور » !



كبرت نجاة الصغيرة.. والناس مازالوا يتذكرونها طفلة تغنى وتقلد ام كلثوم .. وهم يرونها الان مطربة مشهورة تحاول أن تتخلص من تبعيتها الفنية لكبار الملحنين ، ومن اسرافها فى البكاء

الصغيرة التى كبرت

منظر قديم يقفز الى ذاكرتى الان ، رأيته فى شارع عماد الدين بالقاهرة منذ بضعة عشر عاما .. نجاة الصغيرة تتأبط عودا لا يقل طوله عن ثلاثة أرباع طولها ، وهى تسير مع شاب صغير ـ لعله شقيقها ـ وفى يده حقيبة للكمان ..

كان الوقت ظهرا ، أو بين الظهر والعصر ، والاخوان الصغيران يمشيان بهدوء ، لا يلتفتان الى أحد ، ولا يلتفت اليهما أحد من السائرين فى الشارع أو الجالسين على أبواب المقاهى ..

كانت نجاة الصغيرة حينذاك صغيرة حقا .. القد

صغير طولا وعرضا .. الملابس صغيرة .. الحذاء صغير ، ومظهرها العام أشبه بمظهر تلميذة فى مدرسة اعدادية هاربة من دروسها ..

هل كان من الممكن أن تصبح نجاة الصغيرة أطول وأعرض وأكثر امتلاء - وربما أعلى صوتا - لو أتيح لها من الرعاية فى طفولتها أكثر مما سمحت به الظروف !

لا أدرى .. ومع ذلك فان نجاة الصغيرة فى مرحلة الطفولة استطاعت أن تغنى ..

وفى أوائل الاربعينيات سمع الجمهور لاول مرة باسم نجاة الصغيرة ، عندما كتب عنها الاستاذ فكرى أباظة فى « المصور » .. ووصفها بأنها طفلة فى السابعة من عمرها تغنى بعض أغانى أم كلثوم

وكان فكرى أباظة سخيا فضفاض العبارة - كعادته عندما يتحمس - فوصف الطفلة الصغيرة بأنها معجزة .. وخليفة أم كلثوم !

وكان اسمها « نجاة » فقط فخشى المعجبون بها أن يختلط اسمها باسم « نجاة على » أشهر مطربة فى مصر بعد أم كلثوم فى ذلك الحين ، فسموها نجاة الصغيرة ..

وعاش اسم نجاة الصغيرة فى ظل المطربة الشهيرة نجاة على ، حتى انطفأت نجاة على ، ولمعت نجاة الصغيرة

وفى الاربعينيات لم تكن نجاة الصغيرة تفعل شيئا الا أن تقلد أم كلثوم .. كان تقليدا رديئا .. ولكنه كان يبنى اسمها ويقربها الى المستمعين الذين يلذ لهم أن يعرفوا كيف تصبح أغانى أم كلثوم عندما تنبعث من حنجرة غير حنجرتها الذهبية ..

ولبثت نجاة الصغيرة تقلد أم كلثوم زمنا غير قصير ،

حتى ظن الناس أن هذه المطربة الناشئة لن تصنع شيئا الا هذا التقليد ..

ومنذ ثلاثة عشر عاما تقريبا سافرت أم كلثـــوم الى الخارج للعلاج ، فجاءت الاذاعة بنجاة الصغيرة فى غيبة أم كلثوم لتقلدها .. فأسمعتنا الصغيرة أغنية « ولد الهدى » وهى احدى الروائع العسيرة الاداء الا على أم كلثوم

وكانت هذه الاغنية اخر عهد نجاة الصغيرة بتقليـــد أم كلثوم ، فان التقليد ـ ولو كان بارعا ـ لا قيمـــة له ، فكيف اذا اعتوره النقص والتقصير من جميع جهاته ؟! ..

لماذا أطالت نجـــاة الصغيرة فترة تقليـــدها لاغانى أم كلثوم ؟

يبدو انهم قالوا لها في طفولتهـا وصـــباها انها لابد ستكون ذات يوم خليفة أم كلثوم ، والطريق الى الخـلافة المنتظرة هو أن تؤدى أغانيها

كان الطريق الذى رسموه لها يفضى الى لا شىء ..

ولكنها لم تخرج من التقليـــد بلا زاد .. فانه ـ على عتمه ـ كان مدرستها التى تخرجت فيها كمؤدية للالحان

ولولا الاختلاف الجوهرى بين حنجرتى أم كلثوم ونجاة الصغيرة لاكتسبت الصغيرة من سنوات التقليد أكثر ممـا اكتسبت ..

واجتازت نجاة الصغيرة مرحلة التقليد ..

وعلى يد الملحن كمال الطويل كان ميـــلاد المطربة « المستقلة » نجاة الصغيرة ..

وانبعث صوتها يحمل آثار الخـــوف من التجـــربة

الجديدة يغنى « ليه خليتنى أحبك » و « أسهر وأنشغل أنا » ...

كان أداؤها فى تلك الفترة مفتقرا الى الثقة بالنفس ، فقد كانت فى أول طريقها الجديد ..

وفى بداية هذا الطريق الجديد لم يكن لنجاة الصغيرة لون غنائى خاص يلائم صوتها ..

فأغنية « ليه خليتنى أحبك » كانت من أغانى ليلى مراد

وأغنية « أسهر وانشغل » نسجت فى أدائها ـ بقدر طاقة صوتها ـ على منوال أم كلثوم

ولكن نجاة الصغيرة سرعان ما وجدت لونها الخاص ، كمطربة للشباب من الجنسين ، تحل فى المكان الذى خلا باعتكاف ليلى مراد ، وفتور شادية عن الغناء لانصرافها الى التمثيل ..

وبدأ جمهور المستمعين يتذوق صوتها الذى يشبه مادة حلوة مركزة بعض التركيز ، ولكن حلاوته مزة ـ بضم الميم ـ كحلاوة البرتقال ..

ـ هكذا طوت نجاة الصغيرة صفحتها القديمة ، بعد أن عرفت أن نجاحها الحقيقى هو أن تكون نجاة الصغيرة ، بامكانياتها وظروفها وحسناتها وعيوبها ، فانها بهذا وحده تحقق ذاتها ، وتؤدى دورها الفنى بدون أن تتعلق بما لا طائل تحته ..

وليبحث الباحثون بعد ذلك عن خليفة لام كلثوم فلن يجدوها لان المطربات العظيمات لسن سلالة ملكية تتوارث عرش الطرب ..

والمتفائلون هم الذين يبحثون عن « مواصفات » صوت أم كلثوم فى غير صوت أم كلثوم

انتهت اذن مرحلة تقليد نجاة الصغيرة لاغاني أم كلثوم ، وأفاقت من وهم « الخلافة » الذى انساقت وراءه زمنا كما انساقت مطربات كثيرات من قبل ...

ووجدت نجاة مستقبلها فى الاغاني العاطفية الخفيفة التى تناسب مقامات صوتها وامكانياتها فى الاداء والتعبير .. ولكنها أسرفت فى الغناء الباكى الغارق فى الدموع ، فكادت تتحول الى مطربة بكاءة تخاطب المستمعين بدموعها أكثر مما تخاطبهم بنبرات صوتها ..

ثم تزحزحت قليلا عن هذا المنهج الغريب عندما غنت بعض الالحان المتفائلة البسيطة التى سلكت فيها طريقا جديدا أشبه بالطريق الذى تسلكه المطربة اللبنانية « فيروز » ..

ولعل من الممكن ـ الى حد ما ـ أن تصبح نجاة الصغيرة مطربة من نوع فيروز ، مع الفارق بينهما فى الصوت والاداء .. ولكنّ نجاة الصغيرة لا تثابر على سلوك هذا الطريق ، بل تتردد بينه وبين طريق الدموع

وتمر نجاة الان بمرحلة من التبعية لفن عبد الوهاب ، فهى تنتظر كل عام ما يصنعه لها من ألحان ، فاذا لم يصنع لها شيئا ظلت تنتظر ، كأنها أصبحت مؤمنة بأن نجاحها فى الغناء مرتبط بألحان عبد الوهاب ..

ولا شك فى أنّ نجاة الصغيرة لو استطاعت أن تتخلص من هذه التبعية الفنية ، ومن الدموع والانين ، فانها ستصبح شخصية ذات شأن فى دنيا الغناء العربى ..

ولكنّ .. هل تفعل ؟!



نجحت شادية فى السينما بصوتها وأدائها الغنائى لابتمثيلها، ومع ذلك انصرفت أخيرا عن الغناء الى التمثيل فقط .. لعلهم خدعوها فقالوا لها أن الممثلة الكبيرة ، تمثل ولا تغنى (١)

خدعوها.. فقالوا: لاتغنى

أصبحت شادية ـ فيما يبدو ـ مقتنعة بالامتناع نهائيا عن الغناء فى السينما ..

ويلوح لى أن شادية ضحية خدعة فنية ، وأن أصحاب هذه الخدعة أوهموها بأن مجدها الحقيقى هو التمثيل لا الغناء ، وأن الغناء يقلل من هيبتها الفنية

والحقيقة أن شادية ما زالت تعيش على سمعتها الفنية كمطربة ذات صوت خاص ، ولون خاص ، لا تنافسهما مطربة أخرى

---

(١) كتبنا هذا المقال قبل أن تعود شادية الى الغناء مقتنعة بوجهة النظر المعروضة هنا

ومنذ عشرين عاما تقريبا ظهرت شادية فى أول أفلامها السينمائية مع المطرب محمد فوزى ..

ونجحت شادية في السينما ، بصوتها وأدائها الغنائى لا بتمثيلها .. بل ان تمثيلها فى ذلك الوقت لم تكن له قيمة كبيرة ..

وبعد سنوات قليلة من ظهورها على الشاشة كمطربة ، أصبحت أكثر المطربات التصاقا بجمهور واسع يجرى وراء الاغانى الخفيفة ، ويحفظها عن ظهر قلب ..

وكانت شادية في هذه الالوان من الاغانى ، جديدة تماما ، خلقتها بصوتها وسليقتها الفنية الفطرية ، ولم يخلقها الملحنون ..

وأصبح اسم « شادية » علامة مسجلة على هذا الغناء الجديد ، وانقاد لها الملحنون فصنعوا الالحان التى تستطيع أن تتصرف فيها بصوتها وأدائها كما يحلو لها ، فتبدو وكأنها هى التى لحنتها ..

وعندما احتجبت ليلى مراد ــ وكانت زعيمة الاغانى الخفيفة ــ أصبحت شادية وحدها فى هذا الميدان ، بصوتها الخاص ولونها الخاص ، وطريقتها المبتكرة

وتعلقت الجماهير الواسعة بشادية المطربة تعلقا فاق كل ما كانت تتصوره شادية وهى تبدأ حياتها كمطربة صغيرة متواضعة

ان صوت شادية من الاصوات الجميلة ذات المعدن الخاص

وأداؤها يضفى على صوتها طعما فنيا لا مثيل له ، ولا يمكن تقليده ..

ولم تصل شادية الى الشاشة الا بفضل صوتها وأدائها ، أى بفضل مكانتها كمطربة لا كممثلة ..

ولكن شيئا ما جعل شادية تتصور أن التمثيل هو مجالها الحقيقى ، وأن صوتها يجب أن يستريح ، أو يحـــال الى التقــاعد !

وهذا ما فعلته شادية ، بعد فترة من التردد بين الغناء والتمثيل ..

ففى آخر الامر اســــــتسلمت للخدعة .. واعتزلت الغناء !

لا أحاول هنا أن أدعوها الى الغناء فى أفلامها ، فلست من أنصار الغناء المفتعل الذى نراه ونسمعه فى بعض الافلام

ولكنى أدعوها الى أن تكون ذات صفتين فنيتين : ممثلة ومطربة ..

فهى ممثلة ممتازة ، ومجالها على الشاشة واسع ، ولا أحد يطالبها بأن تغنى على الشاشة الا اذا كانت الاغنيـــة جزءا من البناء العضوى للفيلم ..

ولكن الكثيرين يطالبونها بأن تغنى كما كانت تغنى فى الماضى ، وتطلق صوتها من سجنه ، وتعيد طريقة أدائها الى الحياة ، وتظهر من جديد فى الحفلات الغنائية ، وتملأ الاشرطة والاسطوانات

ليس معنى هذا أن تعود شادية الى غناء ذلك اللون من الكلمات المراهقة التى كانت تدير رءوس الشـــــابات والشبان ..

فان صوت شادية وطريقتها الخاصة فى الاداء يستطيعان خلق أغنيات جديدة ذات كلمات جديدة تناسب التطـــور الاجتماعى والفنى فى بلادنا ..

وقد كسبنا شادية كممثلة سينمائية لامعة ، ولكن هذا

الكسب لا يبرر أن نخسرها كمطربة لا تنافسها مطــربة أخرى فى صوتها وأدائها ولونها

شيء واحد يبرر اعتزالها الغناء ، هو أن تكون قد فقدت صوتها ، أو فقدت أهم مزاياه ..

فى هذه الحالة نعذرها ونأسف لها ..

ولكنى لا أعتقد أن صوت شادية من الاصوات التى تتحطم بسهولة ، فان له معدنا لامعاً ونبرات سليمة قادرة على مقاومة الزمن ..

كل ما فى الامر أن بعض من لا يفهمون الاصوات ، ولا يقدرون فن شادية المطربة ، خدعوها فقالوا لهــــا : لا تغنى !



لم ينجح المطرب محمد رشدى فى بداية حياته الفنية ، ثم نجح فى السنوات الاخيرة ، لانه استطاع ان يفهم المعنى الجديد لرسالة المطرب الشعبى

معنى جديد للمطرب الشعبى

ثلاث سجاير على الاقل دخنها المطرب الشعبى محمد رشدى خلال نصف ساعة ، وهو يحدثنى عن رحلة قام بها الى احدى امارات الخليج العربى ..

قلت له :

ـ أنت أول مطرب رأيته يدخن .. ان المطربين الآخرين يكتفون بشم السيجارة ، حماية لاصواتهم من النيكوتين !

قال رشدى :

ـ أنا قليل التدخين .. والسيجارة تسليتى الوحيدة،

فليس لى أى « كيف » آخر » ٠٠

وبعد قليل اضطر محمد رشدى الى هبوط السلالم ثم صعودها ، فلهث وأحمر وجهه ٠٠ قلت له :

ـ هذه هى النتيجة ٠٠ ان السيجارة تجعـــل النفس الطويل قصيرا ٠٠ وبدون طول النفس لا تســـتطيع أن تمد صوتك ٠٠ ان صوتك يتألف من بضعة عشر مقـــاما ، وسيتخفض عدد مقاماته اذا انخفضت كفاءة قلبك ورئتيك، فليس الصوت مجرد اوتار فى الحنجرة ٠٠ انه كذلك قلب ورئتان بحالة جيدة !

والحقيقة ان السجاير عند المطرب محمد رشدى ، رمز لأزمة نفسية عاشها أكثر من ستة عشر عاما ٠٠ والدخان الذى يتصاعد من سيجارته هو دخان يتصاعد من حالته النفسية كذلك ! ٠٠

ومتاعب محمد رشدى بدأت عندما كان يدرب صوته فى قسم الاصوات بمعهد الموسيقى الشرقية ، فخرج من المعهد ، ولم يكمل الشوط الى نهايته ٠٠

وفى سنة ١٩٥٠ عرف الطريق الى الاذاعة ٠٠ اختبر الفنيون صوته ، وقاسوا مساحته الواسعة ، ونقـــروا باصبعهم على نبراته الفضية ، ثم فتحوا له الميكروفون ، وقالوا له : تستطيع الآن أن تغنى ! ٠٠

وغنى محمد رشدى فى الاذاعة لحنا عاطفيا ٠٠ وانتظر الصدى فأحس أنه لم يصل الى قلوب المستمعين ٠٠ لان صوته بمساحته الواسعة ، ونبراته الريفية ، يبدو فى الاغانى العاطفية ، كثوب الفلاحة المصرية الفضفاض على قوام فتاة باريسية نحيلة !

أن الاغانى العاطفية بمعناها المتداول عنـــدنا الآن ،

تحتاج الى صوت حالم ضيق ، يختنق بدموع المطرب او المطربة .. أما صوت محمد رشدى فانه صـــوت يتظ عريض كصوت فلاح يغنى وراء الساقية !

لهذا فشل رشدى فى الغناء « العاطفى » وعجز عن منافسة مطربى العواطف الذين سبقوه الى الاذاعة ، أو دخلوها معه سنة ١٩٥٠

وامتدت محاولاته العاثرة سنوات ، حتى سدت الاذاعة أبوابها فى وجهه ، فبدأ يبحث عن رزقه فى حفلات خارج القاهرة ..

وفى سنة ١٩٥٨ كان عائدا الى القاهرة من حفلة فى السويس فأصيب فى حادث سيارة ، وكسرت ساقه ، ولحقت بوجهه اصابات فادحة !

ان ساقه مازالت تؤلمه ، والاطباء يقولون له : سافر الى الخارج ليكسروها لك مرة اخرى ويعيدوا وضع الجبس عليها ، فقد التأمت عظامها بطريقة غير ملائمة !

أما وجهه الذى مزقته الحادثة ، فقد انقذته عمليـــة تجميل تشبه المعجزات .. وهو الان من اكثر وجـــوه المطربين نجاحا فى التعامل مع شاشة التليفزيون وشاشة السينما ..

وعندما تتأمل وجهه لا تصدق ان هذا الوجه قد مزقته حادثة مروعة !

هذه الازمات المتلاحقـــة ، جعلت محمد رشدى انسانا مرا .. كلماته تنضح مرارة .. والشـــعور بالاضطهاد يلاحقه دائما حتى والناس يصفقون له معجبين !

قال لى : لماذا كتبت عن جميع المطربين والمطربات ولم تكتب عنى شيئا خلال مقالاتك الطويلة عنهم ؟!

قلت له : هل تريد أن تقول انني ايضا اضطهدك ؟ .
انني لا أعرفك الا بأذني .. ولا أعرف المطربين والمطربات الا بأذني ، وقد انتقدتهم جميعا .. ولم يبق الا انت.!

والحقيقة انني كتبت قليلا عن زملاء محمد رشدى من المطربين الشعبيين ، اما هو فكان لابد من وقفة عنده ، لانه الان – بصوته واتجاهه الفنى – يمثل مرحلة جديدة للمطرب الشعبى فى بلادنا

فماذا يعنى النجاح الذى حققه محمد رشـــدى فى السنوات الاخـــيرة فى الغناء « الشـــعبى » بعــد كبوته الطويلة فى الغناء « العاطفى » ؟ !

عندما بدأ محمد رشدى محاولاته قبل ســتة عشر عاما ، كان المطربون « الشعبيون » المعتمـــدون لدى الاذاعة والسينما وصالات الرقص والغنــاء قد بدءوا يخرجون متثاقلين من معمعة الغناء لجمهور الحـــرب العالمية الثانية .. ولم يكونوا قد أفاقوا بعــد من نشوة الغناء لهذا الجمهور !

هؤلاء المطربون لم يغنوا فى سنوات الحرب للعمـــال والفلاحين وفئات الشعب الكادحة كما نفهمها الان ، وانما غنوا لعمال المعسكرات الحربية الذين كانوا غالبيةجمهور السينما والصالات والملاهى

ولهذا لم يخاطب المطربون الشعبيون هذا الجمهور بأية فكرة اجتماعية أو سياسية ، لان مهمتهم الوحيدة الرابحة كانت تسلية هذا الجمهور فقط .. ولم يكن هذا الجمهور يسعى الى شىء أعمق من التسلية ..

ان حشود العمال تخرج من المعسكرات الحربيـــة الاجنبية لتفرغ جيوبها فى السوق ، وبخاصة ســـوق

السينما والصالات والملاهي . وجو الحرب يدفع الرابحين من الحرب الى الانفاق الكثير ، بعد أن اكتشفوا وسائل عديدة للكسب الوفير ..

واذا تذكرنا الآن الاغانى «الشعبية» فى سنوات الحرب والسنوات الخمس التى أعقبتها ، وجدناها أغانى للتسلية والغرام السطحى ..

كانت الاغاني الشعبية بوجه عام فرعا « شعبيا » من الاغانى العاطفية المريضة التى نشرتها أفلام الحرب كالوباء!

وبانتهاء الحرب ، وانفضاض جمهورها ، اضطرب حال الغناء « الشعبى » . وتقهقر مطربو الحرب الشعبيون ، واختفت تمانيلهم من الشوارع

ولبث محمد رشدى عشر سنوات على الاقل لا يجد جمهورا ، ولا يدرى ماذا يغنى بالضبط ..

كان يبحث عن اتجاه فنى بعد أن توقف اتجاهه الى الاغنية العاطفية المريضة !

وليس من قبيل المصادفة أن محمد رشدى لم يتمكن من وضع قدميه على طريق النجاح الا فى السنوات الخمس الاخيرة ..

ففي هذه السنوات بدأ مجتمعنا يتغير بعد صدور قوانين يوليو ١٩٦١ وقيام نظام اجتماعى جديد يتجه بثبات صوب طريق الاشتراكية

ان التغييرات التى طرأت على المجتمع المصرى فى السنوات الاخيرة ، أتاحت الفرصة للفئات الشعبية لتستمتع بالفن ، وتقتنى أجهزة الراديو والتليفزيون ، وتدخل دور السينما والمسارح والمعارض الفنية ، وتقرأ الكتب والصحف ..

وبظهور هذه الفئات على وجه الحياة الاجتماعية الجديدة ، ظهرت حاجتها الى فنون تعبر عنها ..

وفى مجال الغناء برزت حاجة الجماهير الشعبية الى لون شعبى حقيقى من الغناء ! ..

ولم يستطع المطربون الشعبيون التقليديون الذين أطربوا جمهور الحرب ، أن يسايروا هذا الاتجاه الجديد مسايرة فعالة .. فقد تطورت أفكار الناس أكثر مما تطورت أفكار هؤلاء المطربين ..

ولا أدرى كيف لحق محمد رشدى بهذه الموجة الجديدة .. المهم أنه لحق بها واستطاع أن يلتصق بالجماهير ويغنى لها شيئا من حياتها وأفكارها الجديدة ..

غنى للفئات العاملة ، فئة بعد فئة .. كلاما بسيطا وألحانا بسيطة ، مثل «تحت السجر ياوهيبة» و«بلديات» و « آه ياليل يا قمر » و « نعناعة » و « عدوية »وموال أدهم الشرقاوى ، وحسن ونعيمة

وبذلك أصبح محمد رشدى يغنى وكأنه مرتبط بفلسفة اجتماعية ، محاولا تطبيق الشعار الذى يقول « الفن للشعب » !

ولهذا السبب وحده نجح محمد رشدى وأصبح ذا أهمية فنية

ان هذا المطرب المهيض الساق ، سيبلغ غايته اذا سار ولم يتعب ، بشرط أن يكف على الفور عن التدخين

ان السيجارة هى عدوه الاول ..

والقلق عدوه الثانى ..

ولا بد له أن يتخلص منهما ، ويتفرغ لفنه !



لولا « الجاذبية » لتغير ترتيب الاصوات التى نسـمعها الان .. كان ممكنا انيتقدم مطربو الصف الثانى ، ويتأخر مطـربو الصف الاول الىالوراء خطوة أوخطوات!

شىء اسمه الجاذبية

الذين يفهمون علوم الغناء والموسيقى يقولون لنا ان صوت المطرب محمد قنديل يحتوى بضع عشرة درجـــة موسيقية ..

أى أن مساحة صوته تساوى ضعف مساحة هـــذا الصوت أو ذاك من أصوات مطربين ومطربات أكثر شهرة ولمعانا من محمد قنديل

ومحمد قنديل نفسه ، يصيح من وقت الى اخر : « يا ناس .. يا عالم .. أنا مطرب كبير .. صوتى مساحته كبيرة ، لا تقل عن مساحة صوت عبد الوهاب القـديم فى الثلاثينيات .. ومع ذلك يتجاهلنى عبد الوهاب وبقيـة الملحنين » ..

والملحن كمال الطويل يصرح من حين الى حين بأن صوت محمد قنديل ذو امكانيات كبيرة •• ولكن كمال الطويل لم يصنع لحنا كبيرا لمحمد قنديل حتى الان ••

الجميع يقولون له : « صوتك عظيم •• مساحته كبيرة •• مقاماته كثيرة » ! ••

ثم لا يتعدى اعجابهم به حد التنويه الشفوى الذى لا يقدم ولا يؤخر ••

والحقيقة أن نجاح الاصوات لا يتوقف على قوة أحبالها الصوتية فقط ••

فعبد الحليم حافظ ـ مثلا ـ لم ينجح بقوة حنجرته ، ولا بكثرة مقامات صوته •• بل نجح بالجاذبية التى تكمن فى نبرات صوته

ولا جدال فى أن التدريب والتهذيب يصقلان هذه الجاذبية ، ويقدمانها الى الاسماع فى أنقى صورة ممكنة ، ولكن سر الجاذبية يبقى دائما خافياً على كل تحليل وتعليل ••

علماء الاصوات يقولون كلاما كثيرا فى هذا المجال ،ولهم فيه تحليلات كثيرة ، ولكن جماهير الاذاعة والسينما والتليفزيون لا تعرف هذه التحليلات ، ولا تحتاج الى معرفتها لان غريزتها التى لا تخطىء تهديها الى الصوت الجذاب !

وبعيدا عن تحليلات علماء الاصوات والموسيقى ، نقول ان الاصوات معادن ، وكل معدن منها له رنين خاص ، بل ان له فى السمع والعين لونا خاصا •• فهذا صوت براق كالذهب وهذا صوت أحمر كالورد •• وهذا صوت أبيض كالقطن وهذا صوت أسود كالفحم

والصوت قد يكون مكتمل القرار والجواب ، سليم النبرات صعودا وهبوطا ، واسع المساحة ، لا يقل عن ستة عشر مقاما .. ولكنه مع ذلك لا يظفر من النجاح والشهرة واتساع قلوب الناس له ، بمثل ما يظفر به صوت يحتوى ثمانية مقامات مثلا ..

فجمال الصوت وجاذبيته لا ينبعان من ضخامته أو اتساع مساحته ، بل من جاذبيته التى تكمن فيه كما يكمن السر المستغلق الذى تحار فيه العقول !

وقبل أربعين عاما كانت منيرة المهدية سلطانة الطرب فى القاهرة ، وكان لها صوت مديد عريض ذو بحة أرغولية عميقة ساخنة عجيبة ! ..

ومع ذلك لم تستطع أن تصمد لمنافسة صبية صغيرة جاءت من الريف تغنى لاهل القاهرة ..

لم يستطع صوت منيرة الضخم أن يصمد لصوت أم كلثوم الذى كان حينذاك يمر بمرحلة التكوين

ولكن صوت أم كلثوم الصغير الذى لم يكن قد نضج بعد ، استطاع أن يخرج صوت منيرة المهدية من دنيا الطرب ، ويحيله الى التقاعد بسرعة مذهلة !

لان جاذبية صوت أم كلثوم كسبت الجولة ، فىمواجهة العملاق الكامن فى حنجرة منيرة المهدية !

وقبل أربعين عاما أيضاً انتصرت جاذبية صوت عبد الوهاب على أصوات معاصريه الكبار والصغار ، فخرج الى التقاعد السريع منافساه عبد اللطيف البنا وحامد مرسى ..

وعندما أتاحت الاذاعة للشيخ محمد رفعت أن يسمع

صوته للناس ، قهرت جاذبية هذا الصوت العبقرى كل منافسة فى طريقه ، وتراجع الى الوراء مشاهير « المقرئين » الذين امتلكوا الاسماع زمنا طويلا بضخامة أصواتهم ،أمثال الشيخين على محمود وعبد الفتاح الشعشاعى ..

وهذه القاعدة الفنية لا تخطىء أبدا .. فالصوت ذو الجاذبية يقهر الصوت العريض المديد الواسع المساحة الذى يفتقر الى الجاذبية

هذه القاعدة الصارمة هى التى حددت لصوت المطرب محمد قنديل مكانه فى الصف الثانى .. وكان جديرا ـ نظرا لمساحته الكبيرة ـ أن يتقدم الى الصف الاول ..

ولكن هذه القاعدة ليس معناها أن الاصوات الكبيرة الواسعة المساحة تتخلف جاذبيتها دائما عن جاذبيةالاصوات المحدودة الصغيرة ..

فان صوت أم كلثوم ، هو أعظم الاصوات جاذبية .. ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ أوسعها مساحة وأكثرها مقامات ..

وصوت عبد الوهاب الذهبى القديم ، كان كذلك أكثر أصوات الرجال جاذبية ، وأوسعها مساحة أيضا ..

وعندما تقترن الجاذبية باتساع المساحة ، فهذا هو الصوت الكامل العظيم ..

وهذا الصوت لا يمكن الا أن يتربع فى الصف الاول أو على رأس الصف الاول ..

والذى حدث ـ فيما يختص بمحمد قنديل ـ أنه واجه المستمعين بصوت قوى العضلات ، ولكن بلا قدر عظيم من الجاذبية ..

وليس صوته خاليا من كل جاذبية فالحقيقة أنه عندما يجد لحنا مناسبا ، يتألق ويصافح الاسماع بحـرارة ‥ ولكن اللحن المناسب قلما يتاح له ‥

وقد لعب الميكروفون دورا حاسما فى تطبيق قاعـــدة الجاذبية الصوتية ‥ فعن طريقه تصل الاصوات الجذابة الى الجماهير ، وتحظى باعجابها ، مهما كانت هذه الاصوات ضيقة أو محدودة المقامات

فلو جاء محمد قنديل وشهر زاد وكارم‌محمود وعبدالحليم حافظ ونجاة الصغيرة ، قبل عهد الميكروفون ، لظفر بأكبر قدر من النجاح قنديل وكارم وشهر زاد ‥ ولما وجـــد عبد الحليم ونجاة الا دائرة ضيقة من المستمعين ‥

فخفوت الصوت — قبل عهد الميكروفون — كان يحجب جاذبيته عن الاسماع

وجهارة الصوت ، كانت فى ذلك العهد هى الميكروفون الطبيعى الذى لا يملك المطرب غيره

ان الميكروفون قد ألقى الضوء على معــادن الاصوات ، وكشف مواطن الجاذبية فيها ، ومواطن القوة « الغاشمة » التى لا جاذبية فيها ‥

ومن هنا نجحت نجاة الصغيرة ذات الصوت الصغير ، لان صوتها اجتذب الاسماع ، ونجح عبد الحليم حافظ ، لان جاذبية صوته بدت مجسمة من خلال الميكروفون ‥

ومن هنا أيضا تعثرت خطوات شهرزاد ، مع أن صوتها لا تنقصه السعة ‥ وتعثرت خطوات محمد قنديل وكارم محمود وعشرات من المطربات والمطربين !

ان كارم محمود يأخذونه فى المسرحيات الغنائية لان له

صوتا قويا جهيرا ..

ولكن القوة والجهارة لا تغنيان عن الجاذبية ، فى مواجهة جمهور الاغانى الفردية من خلال ميكروفون الاذاعـــــة والتليفزيون ..

وسواء كان الصوت واسع المساحة أو ضيقا ، فلا بد له أن يكون جذابا لكى ينجح ويعيش !

فلولا الجاذبية الفائقة ما استطاعت أم كلثوم أن تغنى للناس أربعين عاما ..

ولولا الجاذبية ما كان المطرب الثانى بعد عبد الوهاب الان هو عبد الحليم حافظ ..

كان ممكنا أن يكون المطرب الثانى هو محمد قنديل ، والثالث كارم محمود ، والرابع أى صوت آخر له عضلات قوية !

ولولا الجاذبية لكانت فايزة أحمد ونجاة وفيروز هن مطربات الصف الثاني بعد شهرزاد !



هناك أصوات تغنى وتحترف الغناء سنوات بعد سنوات ، وتظل دائما تحت التمرين ، لان تربية الصوت وتمرينه مشكلة كبرى لمطربى التخت ومطرباته ..

أصوات تحت التمرين

الصوت كالطفل ، يمكن تربيته وتهذيبه وتدريبه ، أو تركه بلا تربية على الاطلاق ..

والصوت المتوسط الجمال ، يمكن صقله وعلاج عيوبه ، حتى يبدو أجمل من حقيقته ..

وحتى الصوت القبيح ، الخشن الاجش ، يمكن بالتدريب والتربية أن يؤدى الاغانى بصورة مقبولة ..

وأشهر صوت قبيح فى عصرنا ، هو صوت المرحوم عزيز عثمان ، ولكنه كان يؤدى الاغانى المختلفة بصورة تقبلها الاذن ، بل ترتاح اليها أحيانا ، لان احساسه الفنى كان كبيرا ، ومعرفته بالاداء الجميل ، كانت معرفة واسعة استمدها من بيت الفن والطرب الذى نشأ فيه

ولكن جمال الاداء لم يشفع لعزيز عثمان ، فكان صوته وحيا دائما لرسامى الكاريكاتير كلما أرادوا اضحاك قرائهم بالسخرية من مطربى محطة الاذاعة فى ذلك الوقت ..

ويوما بعد يوم ، رضخ عزيز عثمان لرأى رسامى الكاريكاتير فيه ، واقتنع بأن مهمته الحقيقية هى انتزاع الضحكات ، لا انتزاع آهات الطرب والانسجام ..

وهكذا تحول عزيز عثمان من مطرب خشن الصوت ، حسن الاداء ، الى مطرب كاريكاتيرى يظهر فى أفلام السينما كمهرج خفيف الظل ، يغنى ليضحك الناس !..
أن عزيز عثمان نموذج للمطرب الذى ضاع بين جمال أدائه وخشونة صوته ..

وثمة نموذج اخر .. المطرب صلاح عبد الحميد الذى يغنى على السنة الدمى فى مسرح العرائس ، ويتألق فى أغانيه الفكاهية التى نظمها صلاح جاهين ولحنها سيد مكاوى لاوبريت « الليلة الكبيرة » ..

هذا المطرب ، ذو صوت جيد سليم النبرات ، وقدرته على الاداء ممتازة ..

ولكن شيئا ما جعل جمهورالمستمعين لا يرى فى صوته الا الجانب الاجش الذى فرض على هذا المطرب القدير أن يصبح مطربا هزليا ، أو مطرب عرائس خشبية !

ان الجماهير كثيرا ما تخط بيدها مصير صوت جميل ، أو صوت قدير .. ولا أحد يدرى بالضبط ما هو الشىء الذى يجذب الجماهير ، ولماذا يجذبها ، والى أى مدى يجذبها ؟! ..

والمطرب الذى يدرب صوته ويربيه ويصقل نبراته

قد يخفق ، بينما ينجح مطرب آخر لم يصقل صوته ولم يتدرب تدريبا فنيا صحيحا ..

وهناك قاعدة عامة على كل حال ولكنها قاعدة زئبقية لا يستطيع أحد أن يتحكم فيها .. فالصوت الجميل ، المكتمل الجمال ، يستطيع بالتدريب والصقل أن يشق طريقه الى الاسماع والقلوب ..

ولكن الصوت العادى أيضا ، يستطيع ـ حتى بدون صقل وتدريب ـ أن يتعرف الى الاسماع ، ويتحبب الى القلوب !

أم كلثوم وعبد الوهاب مثلا .. صوتان فائقا الجمال ، مصقولان بالدربة والاحساس الفنى الاصيل .. ولهذا نجحا واحتفظا بنجاحهما عشرات السنين ..

ولكن أصواتا أخرى نجحت وعاشت ، وهى لا تملك الا النبرات العادية التى يدندن بها أى انسان عندما يستخفه الطرب فى عزلته ..

وليس هذا مجال سرد أسماء من هنا وهناك ، فالاسماء كثيرة فى أيامنا هذه ، كما كانت فى الماضى القريب والبعيد ..

والحديث هنا عن عدد من الاصوات التى نسمعها الان .. هل تدربت ؟ .. هل تعيش تحت التمرين ؟ .. هل تستطيع أن تخرج يوما من تحت التمرين ، أم تظل دائما فى حاجة الى التمرين ؟

بعض هذه الاصوات جديد فى صلته بجمهور المستمعين ، كصوت المطربة التليفزيونية الدينية روحية يونس مثلا ..

ان روحية يونس ظهرت فجأة .. مكتملة السن

والصوت .. أما التدريب فقد تلقته ـ فيما يبدو ـ بينها وبين نفسها وهى تستمع الى أغانى أم كلثوم وتقلدها ..

ولا يشك أحد يستمع الى هذه المطربة الجديدة أنها خريجة المدرسة الكلثومية فى الاداء ..

الا أن طريقة أم كلثوم فى الاداء بحر لا ساحل له .. فهى ليست طريقة لاداء الطبقات العليا فقط ، وليست طريقة لمد الصوت الى غايته القصوى فقط ..

ان أم كلثوم هى مطربة كل ألوان الغناء ،من الهمس الى الدندنة الى رفع الصوت ، الى الصداح العريض ، ثم الى أعلى ذبذبات السوبرانو الاوبرالية ..

وهى تغنى الفرح والمرح والحزن والبكاء والحماسة والخوف والاستعطاف والكبرياء ..

وصوتها قدير على ابراز كل معنى من هذه المعانى فى صورة مؤثرة دقيقة الملامح ..

وروحية يونس ـ وهى مطربة ذات صوت كبير جميل ـ تستطيع أن تستوعب الكثير من هذه الفنون الكلثومية وتصقل بها صوتها ، وتستثير احساسها الفنى ، فان روحية يونس ـ فيما يظهر لى ـ أقوى صوت نسائى منذ عهد منيرة المهدية وفتحية أحمد .. وهى تضع صوتها فى « ركن » لا يسمح له بحرية الحركة ، وتكاد تكتفى حتى الان بشىء من الدندنة وشىء من الزعيق ..

وفى مجال الاصوات « الرجالى » التى نسمعها الآن ، يمكن أن يقال أن معظم هذه الاصوات ما زال فى دور التدريب .. ما زال تحت التمرين !

صحيح ان بعض هذه الاصوات يحترف الغناء منذ سنوات ، ولكن احتراف الغناء من وراء ميكروفون الاذاعة

والتليفزيون والسينما ، لا يعنى أن المطرب « المحترف » قد اجتاز مرحلة التمرين !

بل ان بعضهم تمضى الايام والسنوات عليه وهو يغنى محترفا ، ولكنه لا يتدرب ولا يستفيد شيئا من الوقوف فى مواجهة الميكروفون !

ومن سوء حظى أننى لا أتذكر الاسماء الجديدة التى أسمعها فى الاذاعة ، أما الاصوات التى أسمعها فى التليفزيون فلا أتذكر عقب سماعها الا شكل شاشة التليفزيون بعد اطفاء النور

وهذا الحظ السيىء هو الذى أعتذر به من عدم الكلام عن هؤلاء المطربين والمطربات الجدد وأنصاف الجدد الذين نسمعهم فى الاذاعة وفى التليفزيون

الا أن بعضهم يستحق — لسبب أو لاخر — أن نشير اليه ، من بعيد ••

— هناك مثلا •• مطرب محترف منذ سنوات ، ولكنه من الناحية الفنية ما زال تحت التمرين

ولن يستطيع اجتياز هذه المرحلة الا باعادة تربية صوته تربية صحيحة من جديد ، فان نبراته تحمل أخطاء تربيته القديمة ••

ولو ظل يغنى بهذه الطريقة مثقلا بأخطاء تربية صوته ، فسيذبل صوته بالتدريج ، حتى يجد نفسه ذات يوم يواجه الميكروفون بلا صوت••

— هناك مطرب آخر •• مشكلته ليست فى تدريب صوته ، بل فى صوته نفسه

ان صوته لا يصافح الاذن ، بل يهجم عليها بمثل وخز الابر الحادة ••

وهذا الوخز الذى تعانيه الاذن من صوته ، لا يعالجه التدريب وحده ، فلا بد له من علاج طبى ناجع ..

وقد أفلح الطب فى حالات كهذه ، فأزال من بعض الاصوات أطرافها الشوكية الواخزة

وهذا المطرب يغنى بسرعة وآلية ، فلا يتكىء على صوته ليظهر احساسه ..

ولو اتكأ على صوته لزاد الاسماع وخزا .. فمن حسن حظ المستمعين أنه لا يفعل !

ـ هناك مطرب ثالث ليس له صوت بالمعنى المفهوم ..

ان صوته لا يزيد على أربعة مقامات .. صوت باهت لا يصلح الا للدندنة وراء الميكروفون .. لا أكثر ..

وهذا المطرب قادم من خارج مصر ، واذا نظرنا الى قدرته على الغناء باللهجة المصرية والتلحين بها أيضا ، أدركنا أنه يتمتع باحساس فنى يفوق امكانيات صوته الضئيل

وهو يندفع وراء احساسه الفنى متصورا أنه يستطيع ـ بصوته المحدود الى أقل حد ـ أن يغنى ويطرب الناس .. وهذه هى مشكلته الحقيقية مع المستمعين

وهناك مطربون كثيرون ، ومطربات كثيرات .. بعضهم وبعضهن يلمعون فوق الشاشة الكبيرة ، وفوق الشاشة الصغيرة ، ووراء ميكروفونات الاذاعات المصرية كلها .. وفى الاسطوانات التى تطبع وتوزع بالالوف

ولكنهم مع كل هذا الضوء الذى يغمرهم ـ يعيشون ـ فنيا ـ تحت التمرين !

وبعضهم سيبقى طول حياته تحت التمرين ـ بدون أن نتمرن !

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم :

علم النفس فى الفن والحياة

بقلم
الدكتور يوسف مراد

يصدر فى ٥ أكتوبر ١٩٦٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص : ب ٢٤

انجلترا :

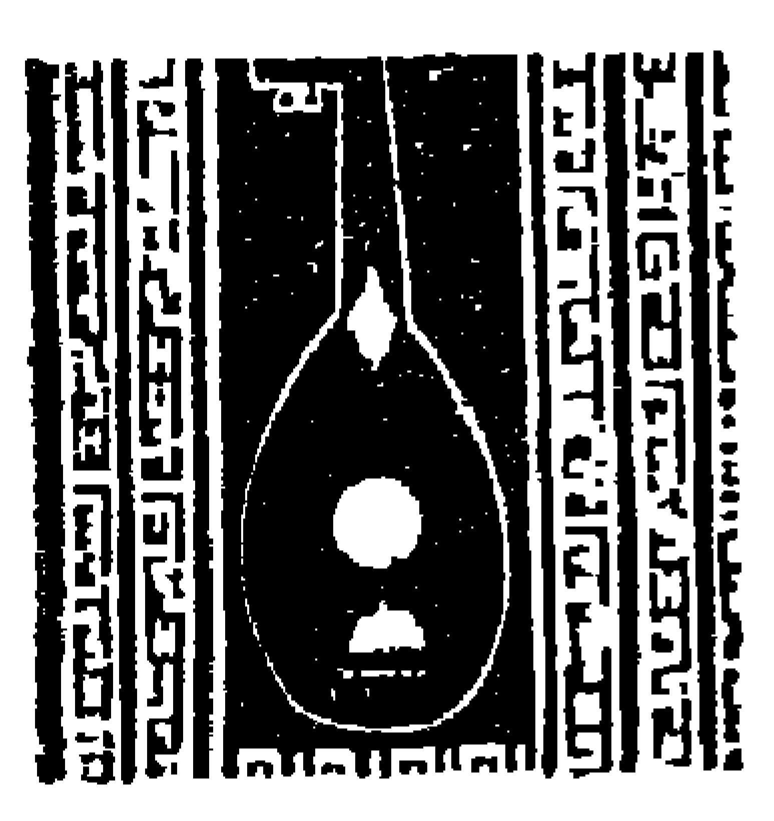
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Atrijari Assharat
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

البرازيل :

Mr. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL



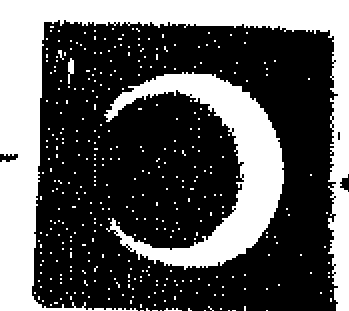
هذا الكتاب

الغناء المصرى قريب جدا الى قلب كل عربى .. ويمكن أن يقال انه لم يعالج من قبل فى المكتبة العربية، ولم يكتب فيه أحد بهذه المعلومات الشاملة ، وهذا الاسلوب الطريف ، وهذه الجدية التى اتسم بها كتاب ((الغناء المصرى))

ان هذا الكتاب يلقى – لأول مرة – ضوءا قويا على فن الغناء المصرى وعناصره المختلفة منذ حوالى مائة عام .. ومن أيام ألمظ وعبده الحمولى ، الى أيام أم كلثوم وعبد الوهاب

وقد استطاع كمال النجمى ان يتعرف بأذنيه الى أكبر عدد من المطربات والمطربين والمقرئين ومنشدى التواشيح والملحنين والعازفين .. واستمع خلال اكثر من ثلاثين عاما الى مئات من أصواتهم وألحانهم

وكان وهو منشغل بالاستماع الى هذه الاصوات والالحان ، منشغلا كذلك بتعرف أصولها الفنية وقيمتها وتطورها وتأثيرها فى عصرها وتأثرها به .. حتى أخرج هذه المجموعة غير المسبوقة من البحوث عن الاصوات والالحان التى يستمع اليها فى عصرنا مائة مليون عربى ...



علم النفس في الفن والحياة

الدكتور يوسف مـــراد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٧ جمادى الآخرة ١٣٨٦ اكتوبر ١٩٦٦

No. 187 — Octobre 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

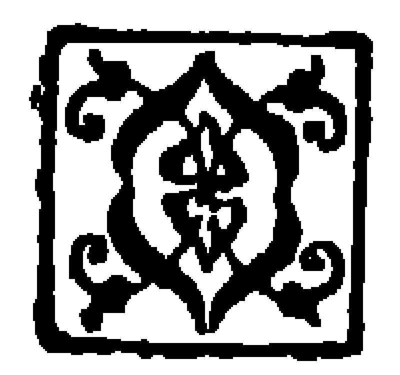
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة

الفنان حلمى التونى

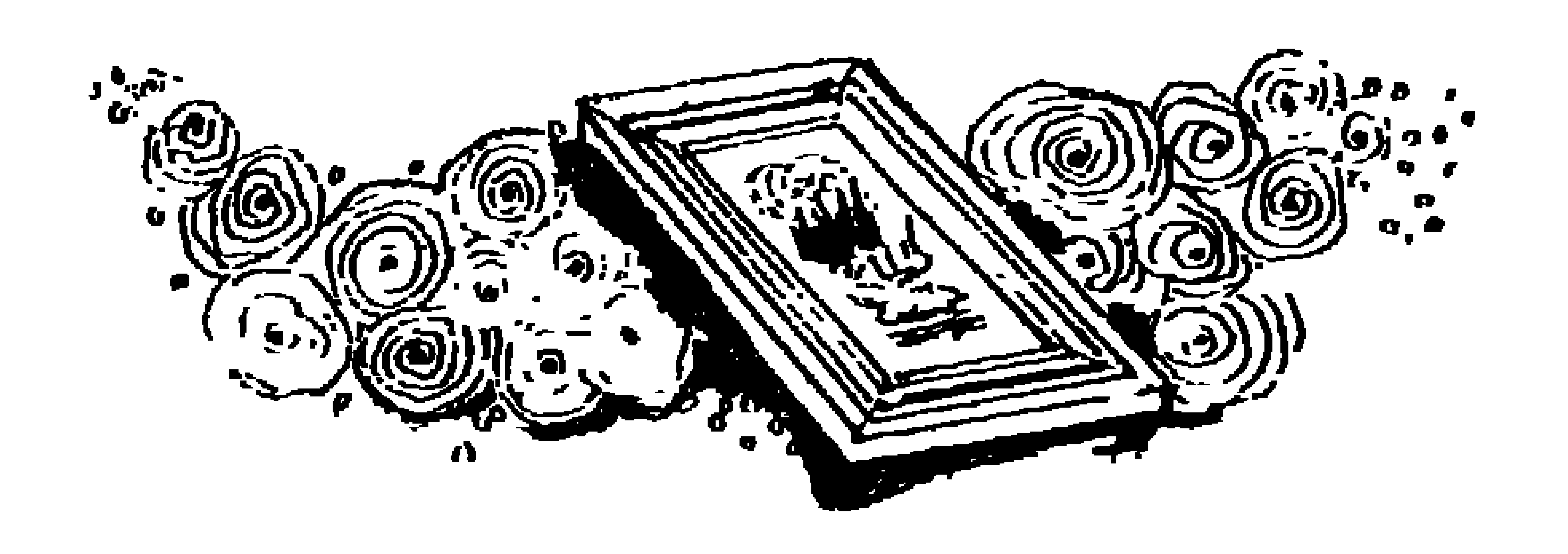
علم النفس
في
الفن والحياة

•

بقلم
الدكتور يوسف مراد

•

دار الهلال



مذهبي في الحياة

عندما اخذت أفكر فى هذا الموضوع تزاحمت الاسئلة فى ذهنى وخيل الى أننى سأشغل المستمع بهذا السيل من الاسئلة دون الوصول الى اجابة نهائية شافية . فما أكاد اجيب عن سؤال حتى تثار حول الاجابة شتى الاعتراضات ، وانتهى بى التفكير الى حالة مؤلمة من الشك والتردد . فهل لى وأنا قد وصلت الى الشوط الاخير من حياتى ، هل لى مذهب فى الحياة واضح المعالم محدد الخطوط ثابت الاركان ؟ فلابد أن يكون لكل انسان سواء كان سويا أو منحرفا ، سواء كان يتمتع بشخصية قوية أو ضعيفة ، فلابد ان يكون له مذهب فى الحياة ، أو على الاقل اسلوب خاص ينهجه فى سلوكه وتصرفاته ، حتى وان كان على غير وعى به . وذلك لان الانسان يبدأ حياته وهو طفل بالعمل والنشاط والحركة ولا يأتى التفكير الا متأخرا . وحتى هذا النشاط الفكرى يظل سطحيا ملتصقا بالنشاط الحركى أو بمعالجة شئون العالم الخارجى ، وقلما ينعكس على نفسه ويتخذ من نفسه مادة للتحليل والتفسير . أريد ان أقول أن مراجعة الشخص لنفسه لمعرفة نقائصه وتبين أهدافه والحكم على ملائمة الوسائل التى يصطنعها

لتحقيق هذه الاهداف عملية شاقة ينفر الانسان منها لاستغراقه فى النشاط الخارجي تلبية للدوافع الحيوية الاولية . والعقبات التى تعترض سبيل المرء وهو يسعى فى تحقيق التكيف بينه وبين مطالب الحياة تؤدى دورا هاما فى خلق الوعى الشخصي وفى ابراز اسلوب السلوك فى معالجة الشئون اليومية وتحويل هذا الاسلوب من حالته الضمنية الى حالته الصريحة الواضحة

التجارب اليومية التى نعانيها تساهم فى تكوين مذهبنا فى الحياة كما تساهم فى تعديله وتطويره .. غير أن دلالة هذه التجارب ستختلف من شخص الى آخر تبعا لطباعه وما لديه من أستعدادات فطرية . فالصورة الكاملة للشخصية لا تتكون الابتأثير التفاعل المستمر بين المزاج الاصلى والخبرات اليومية التى نمر بها . واذا سلمنا بصحة هذا القول فالخطوة التالية التى يجب ان أقوم بها هى ان أحاول معرفة البناء العام لطبعى ، أو بعبارة أدق البناء الخام لهذا الطبع قبل أن يتأثر كثيراً بعوامل التربية والتهذيب . وربما أعترض بعضهم على مثل هذه المحاولة وقالوا بأنه من المحال معرفة الطبع الاصلى أو المزاج الاساسى وان كلّ ما يمكن الكشف عنه هو محصلة هذا التفاعل بين المزاج الاصلى الذى نفترض وجوده وبين الخبرات اليومية والتأثيرات التربوية . ولكن مثل هذا الاعتراض من العسير ان أقبله بصورة مطلقة واميلَ الى الاعتقاد بأن الخبرات اليومية وان كانت تؤدى الى تعديل المزاج الاصلى فهى فى الوقت ذاته تكشف عن المزاج وتوضحه . وربما يرجع أعتقادى هذا الى اهتمامى بدراسة علم النفس الفسيولوجى أكثر من اهتمامى بدراسة علم النفس الاجتماعى ، وكنت دائما أصرح بأن معرفتنا

للانسان ككائن اجتماعي لا يمكن أن تتم الا بفضل معرفتنا له ككائن حيوانى وأن القوانين العامة التى تفسر الظواهر البيولوجية ترسم فى ثناياها القوانين العامة التى تفسر سلوك الانسان الاجتماعى . وانى أعرف أن الكثيرين من علماء النفس الاجتماعيين ومن علماء الاجتماع لا يقبلون هذا الرأى وردي عليهم هو أننا لا زلنا نجهل الكثير عن الظواهر البيولوجية وأن تخبط علماء الاجتماع فى تفسير السلوك الاجتماعى للافراد والجمـــاعات ترجع الى جهلهم لمقومات الانسان البيولوجية مما جعلهم ينظرون الى الانسان نظرتهم الى وحدة ميكانيكية صماء

وبعد هذا الاستطراد الذى يكاد يكشف عن مذهبى فى منهج دراسة الانسان أعود فأقول انه لابد من أن أبين السمة الرئيسية لمزاجى الاصلى ، هذه السمة المتأثرة الى حد كبير بتركيبى التشريحى والفسيولوجى ، وخاصة بكل مايتعلق بالجهاز العصبى وبمجموعة الغدد الصماء . وبعد تأمل طويل فى موقفى من احداث الحياة منذ طفولتى الاولى وبعـــد استعراض الامراض التى اصابتنى فى الماضى وتلك التى أعانى الآن بعد اعراضها من حين الى آخر ، وأخيرا بعد تحليل موقفى من المرض وأسلوب استجابتى له أرى أن العوامل الوجدانية والانفعالية تقوم بدور هام فى تشكيل اتجاهاتى وتصرفاتى فى الحياة . أى أن الجانب العاطفى هو السمة الغالبة فى تكوين شخصيتى وان الفكرة لدى تظل خامدة بليدة حتى تشحن شحنة وجدانية كبيرة لكى تحركنى الى العمل ولكى تصبح وجهة نحو الهدف الذى لا يكتسب جاذبيته الا بفضل هذه الطاقة الوجدانية المتزايدة

ومن خبرات الماضى التى بنيت عليها هذا الراى ساذكر حادثتين الاولى عندما كنت تلميذا فى حوالى الثالثة عشرة

وكنت حريصا جدا على أن يظل اسمى مذكورا فى لوحة الشرف بين التلاميذ الممتازين بحسن سلوكهم . ثم حدث ان كذبت على المدرس فشطب اسمى من لوحة الشرف فتأثرت للغاية وندمت على تصرفى أشد الندم فانتهز المدرس هذه الفرصة ليصور لى بشاعة الكذب وضرورة التزام الصدق فى اقوالى وافعالى ، ولشدة انفعالى كان لكلام المدرس اعظم الوقع على نفسى فوعدته والدموع تنهمر من عينى الا أعود الى مثل هذه الفعلة البشعة

أما الحادثة الثانية ، وذكراها لا تقل وضوحا عن الاولى، فيرجع تاريخها عندما كنت فى سن العشرين . وهى تتعلق بقراءة كتاب ترك فى نفسى أثرا عميقا لعب دورا هاما فيما بعد فى توجيه حياتى . لم يكن هذا الكتاب قصة خيالية ولامجموعة قصائد ولامجموعة مواعظ وارشادات للشباب بل كان يتحدث بالتفصيل عن حياة عالم وأعماله العلمية ، حياة العلامة باستور الذى حارب نظرية التولد التلقائى فى الاحياء ووضع أسس علم الميكروبات وعلاج الامراض المعدية . وقد راعنى تواضع هذا العالم وتفانيه فى خدمة الانسانية،واذكر ان تأثرى بمواضع كثيرة من الكتاب لم يكن مقصورا على الناحية العقلية أو الفكرية بل كان يتغلغل فى أعماق نفسى الى حد اغريراق العين بالدمع . . فأصبح باستور هو مثلى الاعلى فى الحياة،وحبه للانسانية رائدى الوحيد . .

ان الصدق وحب الانسانية ونكران الذات والتضحية فى سبيل اسعاد الاخرين فضائل وعواطف جميلة للغاية يجب ان يتحلى بها كل انسان محب للخير وكان فى امكانى أن أبدأ حديثى بذكر هذه الفضائل على أنها مذهبى فى الحياة ولكنى آثرت أن أتحدث عما وقع لى فعلا من خبرات وكيف غرست فى نفسى هذه الاتجاهات،لان مذهب الحياة لكى

يكون فعالا صادقا يجب ان يأتى نتيجة للخبرات الشخصية التى تهز النفس هزا عميقا بفضل ما تحمله من شحنات وجدانية ، ودور الفكر أو العقل يأتى بعد ذلك لتدعيم الاتجاهات التى تخلقها تجارب الحياة

وكما أن هذه التجارب هى التى تضع أسس مذهبنا فى الحياة فهى كذلك التى تعدله أو تغيره . ومن شأن بعض التجارب المؤلمة أن تجعلنا نحاول تحطيم المثل الاعلى الذى أشرقت انواره فى مقتبل الشباب ولكن على الرغم مما أصابنى من صدمات لم يضعف ايمانى بمثلى الاعلى . غير ان هناك اتجاها جديداً بدأ يتكون فى نفسى كرد فعل لهذه الصدمات التى تكاد تكون من نصيب كل انسان يكافح فى سبيل رقيه الروحى والمادى . ويبدو لى أن هذا الاتجاه الجديد أصبح بصورة تدريجية بمثابة خط الدفاع ضد عوادى الدهر ، بمثابة البلسم الذى يشفى بسرعة الجراح النفسية التى يسببها الفشل والاحباط وخيبة الامال

ان الانسان بفضل ما له من قدرة على التفكير والتخيل تتنازعه قوتان احداهما تدفعه الى ان يعود بتفكيره الى الماضى وأن يستغرق فى استرجاع ذكرياته وأن يحزن ويتحسر على مافات وانقضى ، والخطر يكمن فى أن يصبح الانسان أسير الماضى وأن يهمل الحاضر وما تتطلبه الحياة اليومية من جهد وكفاح . أما القوة الثانية فانها تدفعنا الى تخيل المستقبل وبناء الآمال الواسعة والاستسلام للمتعة التى نجنيها من تحقيق هذه الآمال فى مجال الوهم والخيال. والاسترسال فى اثارة الاحلام الخلابة ينتزعنا من الواقع ومن اللحظة الحاضرة ويحول دون القيام بواجباتنا اليومية فالمثل الاعلى بصدد هاتين القوتين هو تحقيق التوازن بينهما بالحد من نداء الماضى ومن اغراء المستقبل اى بتحقيق

التوازن بين التحسر من جهة والامل المسرف من جهـة اخرى . ويبدو لى اننى نجحت الى حد لا بأس به فى تحقيق هذا التوازن فروضت نفسى على عدم الاسراف فى استرجاع حوادث الماضى الا بالقدر الذى يفيدنى فى تجنب الاخطاء التى وقعت فيها . وأدركت فى نهاية الامر ان التحسر على الماضى تبديد لقوى النفس وأن الحكمة والشجاعة المعنوية تقتضيان قلب الصفحة لمواجهة مطالب اليوم بعزيمـة متجددة ..

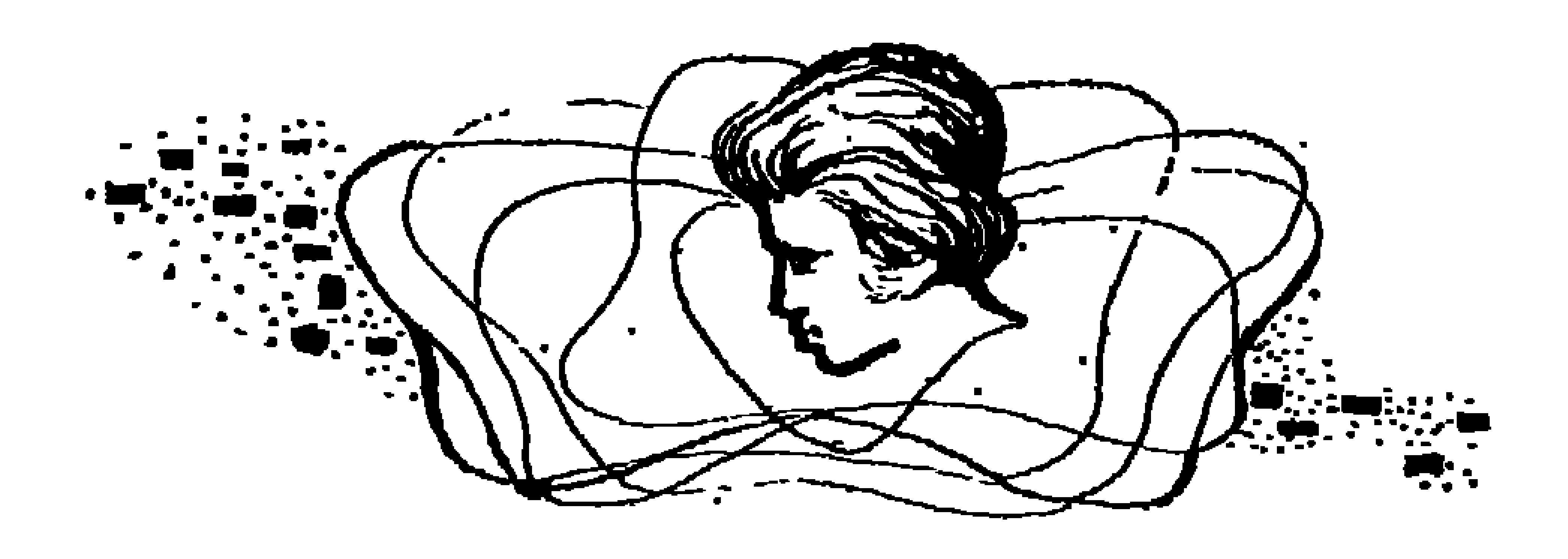
أما فيما يختص بموقفى من المستقبل ومما يوحى به من آمال باسمة فقد ادى بى مرور الاعـوام واقتراب الشيخوخة الى تضييق الافاق وهذا أمر طبيعى لا مفـر منه . غير ان المستقبل لم يصبح فى نظرى وارجو الا يصبح ابدا شبيها بصحراء جدباء فلا زالت هناك بعض الآمال تراودنى وان كانت أقرب منالا من امال الشباب .

وهذا الموقف الوسط بين التحسر والامل المفرط هو كما قلت خط الدفاع ضد الفشل والخيبة ، ولا اعتقد انه موقف سلبى اذ أنه يساعدنى على تعبئة ما لدى من قوى وامكانيات لمواجهة مطالب الحياة اليومية

ومما يجعلنى أعتقد ان موقفى هذا الاخير ليس سلبيا هو اننى اخذت منذ بضع سنوات أشعر بشعور جديد يبدو أنه بدوره رد فعل آخر لرد الفعل الاول الذى وصفته بخط الدفاع . وهذا الشعور الجديد هو ضرورة محاربة الملل الذى قد يصيبنى بعد سن الستين أى بعد اعتزال الخدمة فى الجامعة . وأحسن وسيلة لمحاربة هذا الملل هو خلق أهتمام جديد بناحية جديدة من النشاط الانسانى تكون لها صفة ثقافية وترفيهية فى آن واحد . ولم يدهشنى

ان تكون هذه الهواية الجديدة بعثا قويا لهـــذا الجانب العاطفى فى شخصيتى والذى قلت عنه فى بدء حديثى أنه كان مسيطرا على منذ الطفولة فقد اكتشفت، وذلك بفضل خبرة شخصية ، عالما جديدا هو عالم الفنـــون الجميلة وخاصة فن التصوير ومدارسه المعاصرة التى تصطدم فيها شتى التيارات الانفعالية والفكرية

وخلاصة القول أن مذهبى فى الحياة يقوم على اركان أربعة رئيسية هى الصدق وحب الانسانية والتزام الاعتدال بين نداء الماضى واغراء المستقبل ، وأخيرا ضرورة تجديد الاهتمام واستغلال أكبر قدر ممكن من امكانياتنا . ويجب أن أشير مرة أخرى الى أن هذه الاتجاهات الاســـاسية لمذهبى فى الحياة لم تكن مصطنعة أو مفتعلة بل نبعت من خلال خبرات الحياة وتجاربها فهى ليست سوى تعبير صادق عن مزاجى الاصلى وعن تفاعل سمات هذا المزاج بعوامل التربية وتأثيرات البيئة الخارجية



عالم النفس

علم النفس من أقدم العلوم ومن أحدثها فى آن واحد . فقد عاصر الفلسفات الاولى بل قد سبقها متمثلا بصورة رمزية فى أساطير الشعوب وفى قصص الآلهة ، بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقول انه نشأ مع نشأة اللغة وتجسم فى معانيها وصيغها وعباراتها . فان كانت اللغة وسيلة من وسائل ترجمة الموجودات الخارجية وتصنيفها فهى أيضا وسيلة من وسائل ترجمة شعور المتكلم ومرآة تنعكس عليها خلجات نفسه وعواطفه وأفكاره وسائر أوجه نشاطه الذهنى ، هى الحلقة التى تربط بين أحلام النوم ومشاهدات الواقع الخارجى

غير أن الانسان لم يلبث طويلا حتى أدرك أن اللغة قد تكون وسيلة لاخفاء أفكاره أو تشويهها ، فبعد أن كانت مرآة صادقة أصبحت بتقدم الحضارة وتحت ضغط المواقف الاجتماعية قناعا وستارا

واذا كانت المحاولات الاولى التى بذلها الشعراء والفلاسفة والاطباء قد ألقت بعض الضوء على خفايا النفس الانسانية فقد كانت فى الوقت نفسه تكشف عن مجاهل جديدة كأن حدود المجهول كانت تتسع كلما تبددت

الظلمات وزادت رقعة المعلوم

واذا نظرنا الى الانسانية فى حركتها التطورية منذ عهد الكهوف حتى عصرنا هذا ، واذا نظرنا الى الانسان الواقعى بلحمه ودمه .. فى كفاحه الطويل فى أثناء سيره نحو قيم الحضارة ، وتتبعنا تعقد المواقف الاجتماعية التى تتنازعه كلما خطا خطوة الى الامام فى طريق التقدم أدركنا مدى الصعوبات التى كانت تعترض علم النفس فى أثناء نموه ، بل التى كانت تتضاعف كلما أضاف التطور الاجتماعى والثقافى الى الطبقات السابقة طبقة جديدة من المعلومات والمعانى والخبرات ،فبينما نجد موضوعات العلوم الطبيعية هى هى لم تتغير منذ أن شرع الانسان يكشف أسرارالكون، نرى بالعكس أن الانسان الذى هو موضوع علم النفس يتطور فى عقليته ويزداد تعقدا مع تقدم العلوم الطبيعية • فالتفاعل بينه وبين الطبيعة محدود الاثر اذا قيس بالتفاعل القائم بينه وبين نفسه ، أى بينه من حيث هو الذات العارفة وبين نفسه من حيث هو مرآة للثقافة والتطور الاجتماعى ..

وهذا يفسر لنا حالة الفوضى التى وصل اليها علم النفس فى أواخر القرن التاسع عشر والتى تردد صداها فى الربع الاول من هذا القرن فى الصراع العنيف الذى كان قائما بين العشرات من مدارس علم النفس المختلفة

كان التأمل الفلسفى فى النفس الانسانية ، قد انتهى الى تحليل العقل الى عناصر لا وجود لها الا فى الالفاظ التى كانت تستخدم فى بناء المذاهب والنظريات • والاسراف فى التحليل مصيره انحلال موضوع التحليل وتحويله الى سحابة من الذرات • والذين شعروا بجدب النظريات المجردة استغاثوا بالعلوم الطبيعية فاستعاروا مناهجها

ومنطوقاتها وأخذوا يترجمون جميع الوظائف النفسية بأسلوب فسيولوجي بحت آملين في يوم من الايام أن يكتفوا بالاسلوب الكيميائي ان لم يكن بالاسلوب الرياضي نفسه . فضاع علم النفس واندثرت معالمه تحت غيوم التجريد تارة أو تحت المنطوقات الفسيولوجية والكيميائية والرياضة تارة أخرى ، وحق للفيلسوف أوجست كومت ومن تبعه من الوضعيين أن يقرروا أن لا مكان لعلم النفس في موكب العلوم ، فالانسان اما حيوان أو مجرد صدى سلبي للمجتمع

تلك كانت حالة علم النفس في أواخر القرن التاسع عشر ، حالة شبيهة بحالة العلوم الطبيعية قبل نيوتن أو بحالة علم الاحياء قبل داروين

كان علم النفس في حاجة الى من يلم أشتاته وينفث في عروقه روح الحياة ، في حاجة الى نيوتن جديد يثور على الاساليب البالية في التحليل والتجريد والتفسير بالعلل المادية ، في حاجة الى من ينفذ ببصره الى أعماق الحياة النفسية لكي تصبح موضوع فهم وادراك لا مجرد مادة تفسر بسلسلة من العلل المادية

***

في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ توفي في لندن عن ثلاث وثمانين سنة أحد ضحايا الاضطهاد النازي في فينا عاصمة النمسا ، سيجموند فرويد .. فقد شاءت الاقدار أن يرقد رقدته الاخيرة بالقرب من رفات نيوتن وداروين . فقد جمع الموت بين ثلاثة من عباقرة الانسانية : نيوتن الذي وحد بجرأة تفكيره بين عوالم الكون أجمع وكشف عن نظام سير الافلاك والكواكب في الفضاء غير المتناهي ، وداروين الذي وصل بين الماضي

السحيق والحاضر مرتبا الاجناس الحية فى سلم تصاعدى متتبعا تطور الحياة خلال الاحقاب المتتالية ، وفرويد الذى نفذ ببصره الحاد الى أعماق النفس الانسانية مكتشفا آخر قارة من القارات التى ظلت مجهولة ، عالم اللاشعور . وأحدث هؤلاء الثلاثة أكبر صدمة أصابت كبرياء الانسان وغروره : فالارض كالذرة فى حقل الافلاك غير المتناهى ، والانسان تربطه أواصر وثيقة باخوته الحيوانات المتواضعة، والنفس الانسانية ليست سيدة أمرها كما يبدو لها لاول وهله ، بل عليها أن تواصل الكفاح لاستئناس القوى الغامضة التى تتفاعل بعنف فى أعماقها

جمع فرويد شتات علم النفس ، كما نظم نيوتن علم الاجسام السماوية ، وداروين علم الاحياء . ومن العسير المفاضلة بينهم فكل فى ميدانه نجح فى عمله العلمى،عمل التنظيم والتفسير والتوحيد . غير أن نظرية فرويد لم تقتصر على دراسة طبيعة النفس الانسانية بل تناولت جميع آثار النشاط الانسانى منذ فجر الحضارة حتى العصر الحديث ، وفى ضوئها انجلت لنا بعض أسرار النشاط الدينى والعلمى والفنى والاجتماعى بوجه عام . ويمكن القول بأن الثورة التى أحدثتها نظرية فرويد فى التحليل النفسى لم تقتصر على علم النفس وحده بل تناولت أيضا جميع العلوم الانسانية

يعرف العالم الفرنسى بوفون «Buffon» العبقرية بأنها صبر طويل . ويقصد بوفون بهذا التعريف أن العبقرية تقوم خاصة على صفات الخلق وأن الذكاء العميق والبصيرة النافذة لا تثمران ما لم تسندهما الشجاعة والمجهود المتواصل والامانة العلمية . ولا شك فى أن ما اتصف به من خلق رفيع أهله لكى يتحدث بهدوء وبصفاء عن هذه

الامور التى كانت موضوع همس حتى فى مجامع العلماء ، أعنى الامور الجنسية فى صورها السوية والشاذة

ليس من اليسير تصوير عبقرية فرويد فى بضعة أسطر . لا بد من تلمس معالم هذه العبقريه فى ثنايا كتبه ومقالاته ، فى مواقفه من أصدقائه وأعدائه ، من تلامذته ومرضاه ، وخاصة فى مواقفه بازاء نفسه وبازاء الواقع الذى كان يتجدد باستمرار بين جدران مكتبه وهو يصغى بأذن مرهفة الى أنين الانسانية المعذبة القلقة وذلك مدة ثمانى ساعات كل يوم دون أن تختلج عضلة من عضلات وجهه خلجة الضجر أو الملل . سمع نداء رسالته عندما أوشك أن ينتهى من دراسته الثانية وهو يصغى الى أستاذه يقرأ قصيده جوتيه «*Goethe*» فى الطبيعة وأسرارها ، ها هو ذا لغز الحياة يناديه ، الحياة فى أقوى صورها ، صورة النفس الانسانية المغللة . فأراد أن يحطم أغلالها وأن يهذب القوى المتناثرة التى تتنازعها فعقد النية على القيام بهذه الرحلة الى أعماق النفس المظلمة ليسلط عليها نور العقل فيهذبها ويلجمها ويعيد اليها الحرية عن طريق المعرفة : اذا أردت أن تكون حرا فاعرف أولا نفسك . وكثيرا ما كان فرويد يقول : كيف يمكن القبض على اللص ما دام مختبأ ؟ وكانت رحلته الى الاعماق محاولة طويلة لتتبع أثر هذا اللص الذى يكمن فى خبايا النفس لا للقضاء عليه بل لتحويله قدر الامكان الى عامل خير ورقى

رأى فرويد أن دراسة الطب هى السبيل المؤدية الى معرفة طبيعة الانسان ومن بين مواد الطب أمراض الجهاز الذى كان أوثق ارتباطا بالعمليات النفسية من غيره وهو الجهاز العصبى . وبدأ حياته العملية كطبيب للأمراض

العصبية مستخدما الكهرباء كوسيلة للعلاج . ثم بعد أن وقف على عقم هذا النوع من العلاج استخدم التنويم المغناطيسى مع صديقه بروير «Breuer» ولم تكن طريقتهما استخدام الايحاء فى أثناء نوم المريض ، بل اضعاف القيود التى يفرضها الشعور على الذكريات المنسية لتتاح لها فرصة التعبير عن نفسها . وكان المريض فى أثناء معاناته لخبرات الماضى الصاعدة من اللاشعور يتخلص من الاثر المؤلم الذى كانت تحدثه هذه الخبرات فتتطهر نفسه وتستعيد الى حد كبير سيطرتها على نفسها . ونجحت هذه الطريقة مع بعض المصابين بالاعراض الهستيرية ، غير أن فرويد كان يشعر بأنه لم يصل بعد الى جذور المرض ، الى معرفة طبيعة القوى الضاغطة التى كانت تتحول الى هذه الاعراض الهستيرية الغريبة والتى كانت تتصاعد أبخرتها الى الشعور فى صورة القلق والحصر . والواقع أن بروير كان قد وصل مصادفة الى اماطة اللثام عن سر هذه القوى، غير أنه لم يكد يلمح اللص حتى أخذه الرعب فلاذ بالفرار وترك علاج الامراض العصبية . فقد حدث أن احدى مريضاته تعلقت به فى أثناء العلاج وزعمت أنها حامل منه فلم يدرك معنى هذا التعلق وإعتقد أنه هو المقصود بهذا الحب الجارف فترك الميدان عاجزا عن الجام هذه القوى التى حررها فى مريضته فأعوزه الفهم كما أعوزته الشجاعة . ولم يصرح بهذا الحدث عند وقوعه بل كتمه ولم يفه به الا بعد سنوات . غير أن فرويد كان قد استشعر ببصيرته الحادة طبيعة هذه القوى الثائرة ، قوى الحياة فى جهادها البطىء حينا ، المتوثب حينا آخر ، فى سبيل البقاء والانتشار والتجديد ، قوى الجنس التى تحمل فى توترها الخالق مواكب الاجيال المتلاحقة من الاحياء ابتداء من أشكالها المتواضعة الى أشكالها المعقدة ،

الى هذا الحيوان العجيب الذى منحته الطبيعة تلك الهبة الرهيبة ، هبة الشعور والفكر ، تلك القدرة التى جعلته يدرك أنه فى آن واحد ساحه قتال ومجموعة القوى المتقاتلة ..

صمد فرويد أمام اكتشافه لانه كان أعظم منه وصمد أمام صيحات الاستنكار والسخط ولم يبال بهمسات السخرية التى حاولت أن تنال لا من قيمته العلمية فحسب بل من خلقه أيضا • ولم يثر هذا الموقف العدائى فى نفس العالم الصامت أية ضغينة أو حقد ولم ترتسم على شفتيه إبتسامة الرجل المعتد برأيه ، بل أخذ يتأمل الموقف لفهمه كما كان يصنع بازاء أخيه المريض • ألم يقف حياته لدراسة انفعالات النفس الانسانيه ؟ أليس هو الذى كشف عن تعبيراتها الرمزية المقنعة سواء فى الاحلام أم فى الاعراض المرضية ، أو حتى فى هذه الاخطاء اليسيرة التى يقع فيها الانسان من حيث لا يدرى وهو فى معترك الحياة اليومية ؟ أليس موقف أعدائه دليلا جديدا على حقيقة هذه العمليات الدفاعية من كبت ومقاومة واسقاط

رأى فرويد أن التنويم المغناطيسى طريقة علاجية ناقصة لانه يسلب المريض ارادته ، وأن العلاج يقتضي اشتراك المريض اشتراكا فعليا اذ الغرض منه تقوية الذات لا اضعافها ، فاستبدل بالتنويم ما يعرف بتداعى الافكار غير المقيد • وهذه الطريقة الجديدة تتلخص فى أن يقول المريض كل ما يطرأ على ذهنه من أفكار ومعان وصور مهما بدت له تافهة أو مزعجة أو مؤلمة • واذا كان التداعى فى ظاهره غير مفيد فانه فى الواقع لا يسير خبط عشواء بل توجهه ـ ولكن بطريقة مقنعة ـ خبرات الماضى التى لها صلة بالمرض • ومهمة التحليل النفسى احياء هذه الخبرات من جديد والكشف عنها وراء الرموز التى

تبسترها • فكل ما يقوله المريض وكل ما يراه فى الاحــلام له دلالة مرتبطة من قريب او من بعيد ، بصورة صريحة أو ضمنية ، بما يعانيه من اضطراب حالته النفســية وفى سلوكه مع الآخرين • فالحياة النفسية خاضعة لقــوانين خاصة بها ومن أجل هذا يمكن تفسيرها وفهمها • وهــذه القوانين هى التى تفسر لنا الاحلام ، هــذا اللغــز الذى استعصى فهمه على الانسانية ولم يفك رموزه سوى التحليل النفسى • وهذه القوانين هى التى تفسر السلوك الســوى كما تفسر السلوك الشاذ ، فقد سدت نظرية فرويد الفراغ الذى كان قائما بين الطب العقلى وعلم النفس وقربت بــين المرض والصحة معتبرة الاختلاف بينهمــا اختــلافا فى الدرجة لا فى طبيعة كل منهما ، محققا الانقلاب نفسه الذى أحدثه العالم الفسيولوجى كلود برنار فى منتصف القرن التاسع عشر عنـــدما قرر أن قوانين الوظائف العضوية السوية هى نفسها التى تفسر لنا اضطراب هذه الوظائف

ولم يقتصر فضل التحليل النفسى على تفسير الاحــلام وتعليل السلوك والتوحيد بين قوانين الحياة النفســية السوية وقوانين امراضــها ، بل امتد أيضــا الى ميدان بعض الامراض العضوية ونفخ روحا جديدة فى دراســة الطب وفى موقف الطبيب من المريض • فقد دلت البحوث حول بعض الامراض كالربو وقرحة المعدة وقرحة الامعاء الدقيقة وبعض حالات ضــــغط الدم المرتفع والامراض الجلدية على أن العامل الهام فى احداث هــذه الامراض وتطورها هو ما يدور فى لاشعور المرء وما يعانيه من صراع نفسى • بل هناك الامراض المعدية والوبائية الناشــئة عن اصابات جرثومية ، فهى أيضا تتأثر فى تطورها بالعوامل النفسية اذ أن لهذه العــــوامل أثرا واضحا فى تحقيق التوازن الفسيولوجى ، كما بينه العالم كانن «Cannon»

مؤلف كتاب « حكمة الجسم » • ومقاومة بعض الناس فى أثناء انتشار الامراض الوبائية لا ترجع دائما الى تمتعهم بمناعة فسيولوجية بل بمناعة نفسية

ويظهر أثر العوامل النفسية فى تعرض بعض النـاس للاصابة بحوادث العمل بصفة تسترعى الانتباه ، فقـد بحثت حالة مائتين من سائقى السيارات من حيث وقـوع الحوادث فى أثناء العمل فوجد أن تبعة نصف عـدد الحوادث تقع على خمس عدد السواقين • ولوحظ أن تغيير المهنة لا يقلل من تعرض الانسان للاصابة فى حوادث من نوع آخر • وبتحليل مثل هذه الحالات اتضح وجود عامل لا شعورى يدفع الانسان الى التعرض للخطر هو عامـل الايذاء الذاتى كأن يريد المصاب أن يعاقب نفسه ويكفر عن ذنوبه • وهذه الاصابات المتوالية بمثابة محاولات جزئية للانتحار ••

وهناك ميدان اخر ألقى عليه التحليل النفسى ضـوءا جديدا هو ميدان الجريمة وخاصة اجـرام الاحداث • والحركة التى أدت الى الحاق العيـادات السيكولوجية بمحاكم الاحداث يرجع معظم الفضـل فيها الى الاسس الجديدة التى وضعها فرويد لتفسير السلوك فى مختلف مظاهره المتباينة • وحول هذه الحركة نشأت حركة أوسع تناولت الصغار والكبار فى المنزل والمدرسة والشـارع والمصنع وجميع مرافق الحياة الاخرى ، هى حركة الصحة النفسية التى ترمى الى الوقاية من الامراض النفسـية ومن الاضطرابات السـلوكية • فللتحليـل النفسى اليوم رسالة اجتماعية جليلة فى ميدان التربية ولا يقتصر أثره الحميد على الافراد أو على جماعات صغيرة من الافراد ، بل يمتد أيضا الى ميدان السياسة والعلاقات الدوليـة •

فمهمـا يكن أثر العـوامل الاقتصـادية كبـيرا فى وقوع الاحداث السياسية وتطور النظم الاجتماعية فهناك أثـر العامل النفسى فى خلق القائد أو رجل السياسة وخاصة أثر الصراع النفسى الذى يعانيه القائد أو السياسى فى توجيه آرائه وتحديد مواقفه • وقد وضح ذلك الدكتـور وست فى كتابه «علم النفس ونظام العالم (١)» مشيرا الى اشتراك سيكولوجية الدوافع اللاشعورية فى فهم العلاقات الجماعية والدولية

اذا كان مقياس العبقرية القدرة على الاكتشـاف فان فرويد عبقرى لانه كشف عالم اللاشعور ، وفى ضوء هـذا الكشف قدم لنا تفسيرا وافيا مقنعا لاساطير القـدماء والمعتقدات السحرية والاحـلام والامراض النفسـية والجسمية • وعظمة هذا الكشف تتجلى فى اخضاع غير المعقول والمتناقض للتفسير العقلى

واذا كان مقياس العبقرية مدى تأثير الاكتشـاف فى الحياة الاجتماعية فان فرويد عبقرى لأن التحليل النفسى أحدث تغييراً ملحوظا فى جميع العلوم الآنسانية : النفسية والانثروبولوجية والاجتماعية والسياسية والفلسـفية • فقلما يوجد مجال للنشاط الانسانى لم يتأثر بالضـوء الجديد الذى سلطه التحليـل النفسى على أسرار النفس الانسانية ••

قد يعيب بعضهم على التحليل النفسى أنه يتناول هـذه الجوانب الحيـوانية الدنيئة التى تشمئز منها النفس الرقيقة المهذبة • ولكن ليس العيب عيب فرويد بل عيب طبيعة الانسان وما يعتلج فيها من دوافع الانانيـة واللذة

---

(١) «Ranyart West; Psychology World order. London 1945

والعدوان . وكان لا بد من تقدير قوة هذه الدوافع التقدير الصحيح لكى يتمكن الطبيب والمربى والمصلح الاجتماعى والفيلسوف من وضع الانظمة الكفيلة بمقاومة هذه القوة وتهذيبها اذ يجب أن يكون نظام الدفاع أقوى من نظام الهجوم ..

من فوق القرون المتوالية التى تمتد من عصر الفلسفة اليونانية والطب اليونانى الى عصرنا هذا يمد فرويد يده الى سقراط ، أول من اضطهد من الفلاسفة ، مرددا ماكان يردده سقراط : اعرف نفسك ، ولن يكون فرويد آخر من يقابل بالاضطهاد فالانسانية لا يمكن أن ترتقى الا محمولة على مناكب العباقرة ، وعلى كل عبقرى أن يدفع بعرقه ودمه ثمن عظمته



يتذوق الجمال

جاء فى منثور الحكم الصينية القديمة : « اذا كان لديك رغيفان من الخبز فبع أحدهما واشتر بثمنه باقة من الزهر » . فى هذا القول حكمة بليغة قد لا تؤدى الى غلبة أمة على غيرها بالسلاح والنار ، ولكنها تبعث بلا جدال فى قلوب المؤمنين بالجمـــال شعاعا دافئا من السعادة الهادئة

ما أتعس الانسان الذى لا يسعى الا لاشباع حاجاته الجسمية ، مسخرا قواه العقلية لتحصيل أكبر قسط من المتعة المادية ، غافلا عن أن الروح أيضا فى حاجة الى ما يغذيه وينعشه ، والا أظلمت سماؤه ، ونضبت عيون سعادته ، وشعر بوحدة مكفهرة

وما وحشـــة الحيـــاة التى يموج فى أكنافها عبيـــد حضارتنا المادية الا من وحشة الروح وحرمانه ما يروى تعطشه الى الجمال ! وما الصمت الهائل الذى يملأ أرجاء القلوب التى غمرتها سورة اللذات الفانية الا من صخب المدينة المسلحة الميكانيكية ، صخب الهمجية المقنعـــة ، الذى حطم أوتار الحساسية البريئة منذ فجر الطفولة ! وما الظلام الشامل الذى أرخى على النفوس سـجوفه ــ على الرغم من أنوار المدنية الساطعة ــ الا من تحول

الأغلبيـــة العظمى الى وســيلة طيعـــة لارضـــاء المنفعـــة الشخصية والمــآرب الدنيئة !

ابحث عمن يرضـــون أن يستبـــدلوا برغيفهم زهرة وديعـــة ، فانية فى جمالهـــا الحى ، باقية فى ذكراها العطرة ـ انهم لقليلون حقا . واذا عثرت عليهم ألفيت القوم يعدونهم من المجذوبين الذين يسبحون فى عالم من الخيال الزائف . ولكنهم هم الذين ظفروا بلب الواقع ، وارتشفوا الحق من ينبوع الجمال الخـــالد .. فاللذة المادية لا تترك وراءها من ذكرى الا حسرة وغما ، ممايزيد النفس فقرا وتصدعا ، فى حين أن ذكرى اللذات المعنوية السامية تنمى النفس وتزيدها قوة وثراء

* * *

جوهر الحياة تجديد وابداع وخلق ، لا جمود وتكرار آلى . جوهر الحياة صعود وتسام نحو النور ، لا هبوط واستسلام لظلام المادة وقوانينها الغاشمة . ان قوة هائلة تدفع بالانسانية نحو الخلود ، ولكن العيون التى غشيتها سحب المنفعة المادية العاجلة لا تدرك غير السراب الخادع ، فتعود القلوب محطمة الآمال ، ظمأى الى ما يسكن شجوها ويرضى حنينها ، الى الفردوس المفقود !

والحياة فى تواصل موكبها وترابط حلقاتها صـــورة الخلود ، ومعـــين الأمل الذى لا تنضب ميـــاهه . وهى كالفن ، تكشف وتعبر . هى الفنان الأول ، بل مصور كل فن . ولا يمكن تفهم كنهها والاتحاد بها ، كما لا يمكن تذوق الفن واستشفاف جمـــال آياته ، الا عن طريق الاعجاب الساذج الطليق ، والاعجاب طريق الحب قبل أن يكون طريق المعرفة

وينعدم الاعجاب كلما حل التحجر محـــل الحيـــاة ،

والتكرار الآلي محل الابداع . وبقدر اقترابنا من ينبوع الحياة وارتشاف مياهه المتدفقة ترهف حواسنا ، وتصفو أرواحنا ، لتقبل رسالة الجمال ، وتلقى وحيه المنبعث من كل ما هو حى ، الوحى المنبعث من أعماق نفوسنا الحية الوثابة، والذى يتردد صداه فى منظر من مناظر الطبيعة فى زهرة وديعة ، فى تغريد طير ، فى نغمة صوت حنون ، فى كل حركة يبعثها الحب الخالص الطاهر ..

وآفة حضارتنا العصرية القائمة على الآلة الصماء ـ وهى رمز التكرار الأعمى الذى يستمر بلا هوادة ـ انها يسرت السبل الى ارضاء كل مايشتهيه المرء، وقدمت صورا زائفة ممسوخة من الارضاء العاجل . ولهذا السبب يعيش انسان القرن العشرين فى جو رهيب من القلق والخوف والوحشة ، لأن السعادة الحقة ليست فى ارضاء حاجات الجسد ، بل فى ارضاء حاجات الروح ، ورى تعطشها الى المثل العليا ، والمثل الأعلى كما يقول جوته : يستأنس وحشة الحياة الدنيا

الانسان مخلوق نبيل حقير فى آن واحد : نبيل اذا نظرنا الى غايته القصوى ، وهى اتحاده بالحق والخير والجمال . حقير من حيث هو فرد من أفراد القطيع الذى ينقاد الى حيث لا يدرى . ونظام الحضارة العصرية أشبه ما يكون بنظام القطعان ، فقد نسى الانسان غايته القصوى . ولا تخدعنا الخطب الرنانة التى يتشدق بها مدعو القيادة والزعامة ، ومحترفو الارشاد الخلقى والتوجيه الاجتماعى ، فهى ليست قبسا من نور الحق ، بل هى صدى الأصوات التى ترددها قطعان العبيد المصفدين ..

لا تزدهر المثل العليا الا فى جو من الطمأنينة والحرية ، اذ فى غير هذا الجو تموت حاسة الجمال ، وهى فى الوقت عينه حاسة الخير والحق . وكلما تقدم المرء فى السن مخلفا وراءه سنى الطفولة ، ازدادت القيود التى يفرضها نظام القطيع على أفراده ، فيصبح مقلدا بعد أن كان فى طفولته مبدعا ، وتحـل المحاكاة العميـاء محـل الابتكار ، وتختنق جميع الأحاسيس التى كانت تبعثها فى نفسـه قدرته على الابداع أيام كان طفلا ، تختنق تحت أعباء ما يلقنه اياه قادة القطيع وسادته

واذا كانت المعـارف التى قد تفيـد المرء فى حياته المادية قابلة لأن تلقن ، فان هناك كنوزا روحية تزول عند محاولة تلقينها ، لأنها لا تخضع لنظام القطيع ومعايير الأغلبية ، ومن هذه الـكنوز الروحيـة ادراك الجمـال وتذوقه . ولهذا السبب خابت جميع المحاولات لاحيـاء حاسة الجمال فى البالغين بعد موتها ، وبعد أن تحجرت النفس بتأثير التقليد الأعمى . واذا كان هنـاك بصيص ضئيل من نور الجمال لا يزال يلوح فى أعمـاق نفوس البالغين الذين فقدوا نعمة الحرية والقدرة على التجديد والتعجب السـاذج ، فلا يؤدى ما يدعى بالتثقيف الجمالى للبالغين فى غالب الأحيان الا الى اضافة ضرب آخر من ضروب الآليات والتصنع ، أى الى توثيق أغلال النفوس بدلا من تحريرها

يجب اذن رعاية حاسة الجمال منذ نشأتها فى الطفولة ، وتوفير جميع الأسباب لازدهارها . بعد أن تنبثق حرة طليقة مع فيض الحياة الوثاب الذى يغمر الطفولة من كل صوب ، حاملا اياها على أجنحـة الحب والأمل . والحياة تجديد متواصل ، وابداع مستمر ، وهى فى أقوى حالة من التدفق والغزارة عند ينبوعها قبـل أن

تركد مياهها فى القوالب الجامدة التى تفرضها التقاليد والعـادات ..

هناك حقيقة ثابتة لم يفطن اليها المربون الا اخيرا ، وهى أن الطفل فنان بطبعه ، مهما كان مستوى البيئـة التى يعيش فيها حقيرا ، وذلك لأنه أدنى الى ينبوع الحياة والابداع من الفتى البالغ ، فهو مرهف الحساسـية ، طليق الخيال يحظى بقسط كبير من الحرية ، ولما يتقيد بقيود المنطق والمعارف العقلية ، ولأن جانب النشـاط الوجدانى فيه أقوى وأشمل من أى نشاط آخر ..

والفن هو فى جوهره تعبير وجدانى . ونشاط الطفل لا يعدو أن يكون فى جميع مظاهره تعبيرا متصـلا عن وجدانياته ، وعما يغمر نفسه من أحاسيس ورغبات ، وما يرد على قلبه من تخيلات وأطياف ، يعبر عن كل ذلك فى مناغاته العذبة ، وأصـواته الايقاعية وشـتى أنواع ألعـابه وحركاته ، فيمـا تخطه يده من رسـوم وزخارف ، وما ينطق به لسانه من قصص وتلفيقـات بريئة . والطفل عندما يكون محمولا على أمواج الحيـاة التى أبدعته ، وعندما ينصت ، وكأنه فى حلم ، الى نشيد الخلق الذى يتصاعد من أعماق كيانه ، لا يمكن أن يأتى الا بما هو جميل رشيق

فطن بعض المربين الى هـذه الحقيقة ، وعمـلوا على استغلالها فى رياض الأطفال ، وفى مدارس التربيـة الحديثة التى ترى أن مهمة المربى ليست تغيير طبيعـة الطفل وقهرها واخضاعها لمعايير الكبار وقيم الجماعة ، بل مساعدتها على الازدهار والنمو وفقا لنواميسها ، وأن ثروة الطفل النفسية هى فى بدء الأمر ثروة وجدانية ، فان لم يهيأ له الجو الملائم لارهاف حساسيته وتغـذية

خياله ماتت فيه حاسة الجمال وهددت تنشئته الخلقية بالغلظ والجفاف ، وحرم فى كبره أعذب مورد من موارد السعادة والهنــاء ، بل هدد تكوينــه العقلى بالانحراف والتضخم ، فيعجز عن تقــدير الأمور تقديرا انسانيــا كاملا ، كما يعجز عن ادراك المثل العليا والاتحاد بها فى اخلاص عميق وحب هادىء . ومتى خلت حيــاة من الأشعة التى تفيض بها المثل العليا أصبحت قاحلة باردة ، أشبه ما تكون بالمناطق القطبية التى يغطيها الجليد على الدوام ..

* * *

جاء فى لائحة التأسيس لمعهد علم النفس والتربية ، الذى انشأته جامعة ليون فى فرنسا سنة ١٩٤٢ ، أن الغرض من التربية أن نعلم الطفل كيف يعجب ويفــكر ويعمل . فمن الواضح أن الخطوة الأولى فى مســاعدة الطفل على تنمية ملكاته وتكوين شخصيته بحيث تنسجم جوانبها وتتكامل مقوماتها ، ويتهيــأ الجو المــلائم الذى تتطلع فيه نفسه الى كل شىء جميل عجيب ، كما تتفتح الزهرة النضرة لتقبل ندى الفجر المشرق ، هى أن نحيط الطفل بجو من السعادة والطمأنينة والتقدير ، وأن نتيح له أكبر عدد ممكن من الفرص لكى يعبر عن نفسه ، ولكى يبدى اعجابه بما يرد من جديد وطريف ، وأن نرفع عنه القيود التقليدية التى تحــد من طموحه وتغــل حركاته الوثابة ، وتميت على شفتيه صرخة الاعجاب ، وتطفىء فى عينيه هذا البريق الذى تنعكس عليه آيات الجمال ، جمال الحياة التى تدب فى عروقه وقلبه ، جمال الخليقة الذى يتجدد فى كل صباح

ما أجمل التسمية التى أطلقها انصار التربية الحديثة

على مدارس الصغار ومعلمات هذه المدارس ، فأصبحت المدرسة روضة وبستانا ، والمعلمة مهذبة هذه الروضة ، ترعى الأطفال برفق وحنان ومحبة ، كما يرعى البستانى برفق وحنان ومحبة لآلىء بستانه المشرقة . كانت المدرسة القديمة بفنائها الضيق الموحش ، وبنائها القبيح الصارم ، وغرفها المظلمة العابسة ، أشبه ما تكون بقبر تذبل فيه الأغراس ، فى جو تسوده الرهبة والقسوة ، وتموت فيه آمال المستقبل ، والأطفال شاحبو اللون ، محبوسو الانفاس ، تحدق عيونهم الذاهلة فى الجبين المقطب والعصا الأثيمة ، يرددون ما لا يفهمون ، يقومون بحركات شوهها التصنع ، وحجرتها القيود ، فلا عجب أن تتحطم أوتار الحساسية الرقيقة ، وتختنق المخيلة فى مهدها ، وتغلظ القلوب ، فلا يعود يصدر عنها الا صرخات الرعب وأنات الألم ، كتلك التى يتردد صداها فى الغاب عندما يطعن القناص فريسته طعنة الموت

كيف يتسنى لنا أن ننتظر من أطفال شبوا على الخوف وعدم التقدير أن تظل حاسة الجمال فيهم حية مرهفة ، وأن يتذوقوا آيات الفن التى لا تقاس بمقياس المنفعة ، بعد أن لقنوا ان الغرض الوحيد من ذهابهم الى المدرسة أن يتسلحوا لخوض معارك الحياة المادية ، وأن عنوان النجاح أن يتمكن المرء فى المستقبل من أن يشترى رغيفين ، لا أن يستبدل بما يفيض عن حاجته القصوى زهرة جميلة تقر العين وتنعش القلب

فلنحطم هذه الدور القبيحة العابسة ولنشيد مكانها دورا جميلة زاهية ، تشع فيها السعادة والمرح بالألوان والأنوار ، لا تقع فيها العين الا على ما يبعث فى القلب الاعجاب وحب الحياة ، ليشعر الطفل أن هذا الشخص

الكبير الذى يراقبه هو صديق حتون ، هو انسان مثله ، لا يؤدي واجبا ، بل يقوم برسالته عن رضى وحب ، وأن هذا الشخص الكبير الذى يقبل عليه باسما هو الساحر الأكبر الذى يرد ذكره فى هذه القصص الخيالية التى يسمعها وهو يلهث عجبا وشوقا ، الساحر الذى سيكشف له عن كنوز الجمال الباهرة التى أخذ بريقها يلوح في قلبه من حين الى اخر ، وهى لما تنبلج مشرقة وضاءة ..

ليخرج الأطفال الى الهواء الطلق فى حضن الطبيعة الزاهرة ، ليتحدوا بها وهى الأم الحنون ، مبعث البهجة والحياة ، لينصتوا الى أصواتها الشجية ، وترانيم الفرح والسرور التى تتصاعد من كل ما تدب فيه الحياة الخالقة .. ولنسمح لهم أن يعبروا عن الاحاسيس والرغبات التى تختلج بها قلوبهم ، أن يعبروا عنها بأسلوبهم الرشيق الجميل وبطلاقة وحرية ، لا بأسلوب الكبار بتصنع وجفاف . والطفل بطبعه شاعر وفنان ، له أسلوبه الخاص فى التعبير الفنى . وهو كالشاعر ، لا يمكن أن يحيا الا اذا عبر وغنى ورقص وجسم انفعالاته وعواطفه فى صيحاته وكلامه وحركاته وألعابه

والشاعر أيضا ، وكذلك كل فنان مهما اختلفت لديه وسائل التعبير ، كالطفل الطليق الحر الذى لما يتقيد بقيود الصنعة ! هو كالطفل ، لأن قدرته على الاعجاب لا تزال حية فياضة ، لأنه لا يزال يتطلع الى آفاق بعيدة مجهولة ، ستشرق شمسها فى هذه اللحظات المقدسة التى تتحرر فيها الروح من قيود المكان والزمان ، لكى تتحد بمصدر الفيض والجمال ..

الفن تعبير صادق ، ولا يكون التعبير الفنى جميلا

الا اذا كان صادقا ، ولا يمكن تذوق الآية الفنية الجميلة الا اذا كانت بطريقـة ما تعبـيرا عن جانب من جوانب أنفسنا . الفنـان البـارع هو الذى يجعلنا نتنـاغم مع ما يصدر عن فنه من شعر أو رسم أو موسيقى . هو الذى يذكى فينا جذوة الجمال التى كادت تطفئها مشاغل الحياة المادية ، بحيث نشعر فى لحظة خاطفـة كأننـا نشاركه فى وحيه ، وفى صعوده نحو النور والجمال . هو الذى يهتدى الى كهوف النفس ومغاورها ، منـاديا بصوته السحرى أطياف الطفولة وأحلامها ، ليبعثهـا حية من جديد

لا يتم تذوق الجمـال اذن الا عن طريق المشـاركة الوجدانية . وهو فى الواقع خبرة فنية لا يمـكن أن نعانيها الا بعد تصفية النفس من كل ما علق بهـا من أدران المنفعة الخسيسة والأنانية الضيقة ، والعودة الى سذاجة الطفولة وطلاقتها . فالمتعة الفنية نعمة يهبها الله لكل من أمكنه مشاركة الجمال فى صفاته وبهجته ، كما تهب الحياة جبين الطفل النور والاشراق ..



أثر الجمال في انفعال النفس

الانسان بطبعه تواق الى الكمال والى اقتناء كل ماينمي ثروته الروحية ، وفي سبيل هذا نراه يلتمس شتى الوسائل المؤدية الى تحقيق الانسجام : الانسجام مع نفسه أولا ، ثم الانسجام مع غيره من الناس . وكلما ارضى حاجته ــ سواء كانت هذه الحاجة جسمية أم معنوية ــ شعر بلذة . ومنشأ هذه اللذة اعادة التوازن الى جسمه أو نفسه ، وشعوره بازدياد حيويته ونمو قدرته على أن يطلب المزيد . ولكن اللذات لا تتفاوت فقط في درجات شدتها ، بل تختلف أيضا في طبيعتها ، والاختلاف في طبيعة اللذات يرجع الى اختلاف في طبيعة الحاجات التي قد يصل بعضها سريعا الى درجة الاشباع . واذا حاول المرء بعث الحاجة بطريقة صناعية مبتسرة ضعفت اللذة ، وانقلبت الى ملل ثم الى ألم . وكلما كانت الحاجة واضحة النداء كانت وسائل تلبية هذا النداء سريعة الأثر في ارضائها وأشباعها . اما اذا كانت الحاجة غامضة لا يدرك منها الانسان في بدء الأمر الا أصداء خافتة ، تعاوده بين حين

وآخر في الحاح متزايد دون أن ينجلي عنها الغموض، تُرجّح المرء بين الامل واليأس وبين الرضا والقلق ، واكتفى في كثير من الأحيان بلذة البحث عن اللذة المنشودة التي لم يشم منها الا لوامع خاطفة عابرة . ان السعادة والشقاء طرفان متضامنان متحدان ، وان كانا في ظاهرهما ضدين متقابلين ، والانسان مخلوق تستهويه العلا كما تستهويه الاعماق ، وكثيرا ما يجد لذة مرة في استطلاع كل ما هو بعيد خفي غامض . وفي قرارة نفسه تتصارع قوى خفية غاشمة ، يعجز عن ادراك كنهها وتقدير شدتها ؛ ولكن هذه القوى ليست صامتة ، فلا تلبث آثارها أن تظهر مستعيرة شتى الالوان من أحلام وأخيلة وانفعالات ولعب وتعبيرات لغوية وفن.

يجد الشخص الضعيف لذة في تخيل القوة والعظمة ، وفي هذا التخيل يظفر بما يعوض عن عجزه وقصوره ؛ ويجد الطفل الطليق لذة من وراء لعبه ومرحه ونشاطه الزائد ، ويجد الشاعر ، وكل من فاض قلبه بالالهام ، لذة في التعبير عما يخالج النفس من آمال ومخاوف ، من أفراح وأحزان ، من أفكار وتصورات ، سواء استخدام في التعبير عنها الأصوات والأشكال أم الأضواء والالوان أم شتى الرموز التي تبتدعها العبقرية بعد أن تكون حطمت أغلال المادة الجامدة ..

وفي أثناء الابداع الفني يكون الفنان منقادا لروح اللعب الحر ، كما يكون في الوقت نفسه متقيدا بمناهج الصنعة التي صقلتها جهود الاجيال المتعاقبة

ويشعر رجل الفن أنه يعبر في آن واحد عن نفسه ، وكل ما تمتاز به من ذاتية وفردية ، وعن شيء آخر يفوقه ويغمره ، ذلك هو الطبيعة وآفاقها الواسعة ، وماينبعث

منها من جلال وقوة ونظام

فى الفن تجاوب بين الفنان ونفسه ، وبينه وبين الطبيعة ، وبينه وبين من يتلقى آثاره الفنية ويتأملها . وقد يكون هذا التجاوب قويا أو ضعيفا ، ولكنه من مستلزمات الفن ، وهذا التجاوب الذى هو ضرب من المشاركة الوجدانية ، أو من التقمص الوجدانى ، هو لب الانفعال الذى يحرك الفنان عندما يبدع ، كما أنه يحرك نفس من يتلقى الاثر الفنى لتقديره والتمتع به

ان اتحاد اللعب ، وما يمتاز به من حرية وطلاقة ، بقيود الصنعة وقواعد الفن ، ثم وجود هذا التجاوب بين مبدع الفن ومقدره ، يجعلان من الجمال أمرا موضوعيا وذاتيا ، مطلقا ونسبيا فى آن واحد . أى أنه على الرغم من تغير الظروف وتعدد الحضارات وتفاوت الاذواق توجد تعبيرات جميلة فى حد ذاتها ، أو بعبارة أخرى ان للجمال وجودا موضوعيا كما للحق وللخير . والجمال — لكى يدرك — لا بد من أن يتجلى فى شىء محسوس فيصبح هذا الشىء جميلا . والشىء الجميل يعبر عن الجمال ، مثلما يعبر الرمز عن المرموز اليه ، وكل تعبير يستتبع تأثيرا فيمن يتلقى هذا التعبير . ولكن ماهو هذا الجمال الذى تصدر منه هذه التأثيرات التى تحدث فى النفس المتعة الفنية والوجدان الجمالى ؟ .. قبل الرد عن هذا السؤال يجب أن نميز أولا بين ما هو طبيعى ، وما هو من صنع الانسان ، أى بين الطبيعة والفن . فاذا نظرنا الى الطبيعة قلنا أن الجمال هو التعبير عن نشاط خفى ينمو ويتطور وفقا لنظامه وقانون تكوينه . والنظام تتضمن معانى التوافق والتماثل والتحديد وتوازن العلاقات وانسجام النسب

ولكن اذا نظرنا الى آثار الفنون الجميلة وجدنا من الصعب فى بدء الامر تعريف الجمال بصفة مطلقة . فما هو العامل المشترك بين جمال قطعة من الشعر ونغمة موسيقية وصوره زيتيه وتمثال من الرخام ومعبد من المعابد الأثرية ؟ اننا نقول عنها كلها انها جميلة ، ونشعر بلذة خاصة عند سماعها أو مشاهدتها . فهل نقول ان كل هذه الآيات الجميلة تعبر عن نشاط نما وتطور وفقا لنظامه ؟ لا شك في أن كل آية فنية تعبر عن نشاط خفى : عن فكرة أو رغبة أو حالة وجدانية معينة . لقد استطعنا بالمشاهدة والاستقراء والتجربة أن نكشف عن النظام الذى يخضع له كل ما هو من صنع الطبيعة . فهل من السهل تحديد النظام الذى يجب أن يسير بمقتضاه هذا النشاط ؟ أو ليس للعوامل الذاتية ، وللحالات المزاجية المتقلبة ، وللاعتبارات الاجتماعية التى تختلف باختلاف الحضارات . أثرها العظيم فى تقدير ما هو جميل وما هو قبيح من الانتاج الفنى . ونحن اذا عرضنا لتطور الأذواق خلال الاجيال والحضارات ، أو راعينا ما يعترى الذوق والتقدير الفنى من تغير فى مراحل العمر التى يجتازها الفرد من الطفولة الى الشيخوخة ، ألا يحق لنا أن نقرر أن لا وجود لجمال مطلق ، ولا لنماذج جميلة ثابتة للتعبيرات الفنية ، وأننا نحن الذين نخلع على الطبيعة جمالها ، وأنها لا تعكس لنا الا مانسقطه عليها من معان وحالات نفسية ، وأن ما هو جدير بالعناية هو معرفة هل بيننا وبين الجميل فى حكم الاصطلاح تجاوب ومشاركة وجدانية سواء أدت هذه المشاركة الوجدانية الى لذة أم لا ؟ !

الواقع أن هذه النظرة الأخيرة جديرة بالاعتبار ولكن قبل أن نلم بها نريد أن نقرر انه على الرغم من اهمية العوامل الذاتية لا بد من أن يتصف الأثر الفنى الجميل

بهذه الصفات الموضوعية التى ذكرنا ، وهى النظام وما ينطوى عليه من توافق وتماثل وتجديد ، ومن توازن العلاقات وانسجام النسب . وهذا الأمر واضح فى الموسيقى .. وفى الشعر الذى هو موسيقى أيضا ، وفى الفنون التصويرية التى تعالج الأشكال والالوان والاضواء ، وكل ما هو قابل للتشكل . فالفن الجميل هو نشاط حى ، ولكنه موزون ، والمتعة الفنية لدى المتأمل تنشأ من اللذة المصاحبة للشعور بالنشاط والحيوية والتوازن . فاللذة الجسمية تنشأ عن اعادة التوازن الى الوظائف العضوية بسد النقص أو ازالة الزائد ، واللذة المعنوية التى يثيرها الاثر الجميل تنشأ عن الاحساس بالتوازن والانسجام والتعادل فى أثناء تحقيقها ، وتزداد اللذة شدة كلما هدد هذا التوازن بالاختلال دون أن يتحطم ، كأنه فى كل لحظة يحقق انتصار النظام على الفوضى

ولكن هذه العوامل الموضوعية من نظام وانسجام تصطبغ دائما بصبغة ذاتية ، وقد تطغى العوامل الذاتية الى حد اخفاء كل ما هو موضوعى ، وفى هذه الحالة تصبح الآية الفنية عرضة للتقديرات المتفاوتة ، بل قد تعد فى نظر بعضهم قبيحة ، وفى نظر غيرهم جميلة . وقد لا يرجع اعجاب المعجبين بها الى ما قد تثيره من لذة ومتعة ، بل الى أنها تحرك النفس ،وتزيد من توترها بدلا من أن جعلها تشعر بالاتزان والانسجام

ولكن نوع الاستجابة التى يستجيب بها الشخص للاثر الفنى لا يتوقف فقط على العوامل الذاتية وعلى آثار التجارب السابقة والعرف الاجتماعى ، بل يتوقف ايضا على الغرض الذى أراد مبدع الفن ان يحققه . فبعض رجال الفن من شعراء ومصورين يرمون الى اثارة الانفعالات

بتصوير أمر مثير للعواطف ، فى حين يعتبر غيرهم أن مثل هذا الفرض يحط من قيمة انتاجهم ، ويذهبون الى ان غرض الفن الوحيد هو تنظيم المادة الفنية وتشكيلها . وقد يحاول غيرهم التوفيق بين هذين الفرضين والاخذ بوجهتى النظر معا . ولا شك ان أثر الآية الفنية فى نفس المتأمل سيختلف باختلاف موقف كل من المبدع والمقدر من الاخر . ففى التصوير مثلا يمكن التمييز بين ثلاثة انواع من التصوير مع اختلاف كل نوع فى غرضه الفنى . فلدينا اولا التصوير الكلاسيكى الذى يرمى الى التأليف بين الخطوط والاحجام ليكون منها كلا موحدا منظما . ولا يهتم المصور الكلاسيكى بأن يمثل اشياء واقعية ، أو بأن يثير الانفعال فى النفس بقدر ما يهتم بالخصائص الشكلية للصورة التى تضم الاجزاء المكونة لها لتجعل منها كلا منظما

ثم التصوير الرومنتيكى وهو الذى يقصد قبل كل شيء الى اثارة الانفعال ، وحمل المتأمل على أن يشارك الفنان فيما كان يعانيه من حالات وجدانية عندما تصور عمله ، او فيما يريد التعبير عنه فى لوحته من حالات نفسية

وأخيرا التصوير الوصفى وهو الذى يكتفى بأن يحاكى الاشياء الطبيعية ، وبأن يصورها كما هى فى الطبيعة لكى تثير فى نفس المتأمل ما تثيره المشاهد الطبيعية نفسها

وما يقال عن التصوير يقال أيضا عن الشعر الذى قد يعنى خاصة اما بالشكل والوزن والايقـاع ، واما باثارة الانفعال ، واما بالوصف الدقيق الصادق ، دون اهمال الناحيتين الاخريين . وكذلك الموسيقى ، غير أنها نادرا ما تكون وصفية . فلدينا الموسيقى الكلاسيكية التى يرجع تأثيرها الى صفاتها الشكلية ، والموسيقى الرومنتيكية التى ترمى خاصة الى اثارة الانفعال الذى قد توحى به مشاهد

الحب المؤثرة من أمل او يأس ، وفرح او حزن ، وحسرة او عزاء ..

ولكن هذه الاغراض كثيرا ماتكون متـداخلة ، ويكون موقف من يتلقى الاثر الفنى غامضا مركبا ، فينشـأ عن تفاعل هذه العوامل كلها حالة نفسية مركبة ، تتضارب فيها الحركات الوجدانية والاحكام العقلية ، وقد يغمر كل هذا موجات من التغيرات الفسيولوجية التى لايكاد يخلو منها انفعال من الانفعالات

ولقد قام بعض علماء النفس باجراء التجارب لتحديد انواع الاستجابات الجمالية ، فاستخدمت الوان متفرقة ، او صور فنية شهيرة ، او قطع موسيقية ، وأسفرت جميع التجارب فى نتائجها عن أربعة نماذج من الاستجابات :

(١) النموذج الذاتى العضوى : يصف الشخص فيـه تأثره بذكر الاحساسات الداخلية التى يشعر بها من توتر أو حرارة او انقباض

(٢) النموذج الموضوعى : يتخذ الشخص فيه موقفا عقليا بحتا ليحكم على صفات ما يشـاهده وعلى مزاياه الشكلية ، مكتفيا بالتعبير عن تأثره الجمالى البحت

(٣) النموذج الارتباطى : يثير العمل الفنى فى الشخص المتأمل ذكريات وحوادث سبق ان شاهدها ، فيربط بينها وبين الاثر الفنى المعروض عليه ، مستخدما فى حكمـه التشبيهات ، فتنبعث فى نفسه الانفعـالات التى كانت تصاحب ذكرياته القديمة

(٤) النموذج الخلقى : ينظر الشخص فيه الى الاثر الفنى كأنه شخص مجسم يتصف بشتى الصفات ، كأن يصفه بأنه كئيب أو مخيف أو مروع او نشيط او خامل .. الخ، دون أن يشعر هو نفسه بما تفيده هذه الصفات من حالات

وجدانية ، على العكس من النموذج الذاتى الذى سبق ذكره ..

ولكن يجب ألا يخدعنا هذا التقسيم الذى قد يكون عيبه الكبير أنه منطقى اكثر مما تقتضيه هـــذه الامور الغامضة التى تتضارب فيها العوامل الفكرية بالعـوامل الوجدانية . فان الشخص الذى نجرى عليه التجـارب يحاول وصف ما يشعر به شعورا واضحا دون التنبه الى ما قد تحدثه الدوافع اللاشعورية من كبت أو تشويه أو تغيير . فللعوامل اللاشعورية اثر كبير فى تكييف انفعالنا للآية الفنية الجميلة ، على الرغم من عجزنا عن تحليل هذه العوامل وأثرها تحليلا واضحا كاملا ، كما أن أثرها بليغ فى بعث الالهام لدى الفنان ، واثارة الصور والمعانى التى يبنى عليها عمله الفنى . فاذا كان الصراع الذى يعانيه الفنان ، والذى يعبر عنه فى فنه ، هو نفس الصراع الذى يعانيه المشاهد أو المتأمل ، فلابد من ان يحدث التجاوب ، وان يشعر من يتلقى الاثر الفنى بما يخفف عنـه ضغط الرغبات والانفعالات اللاشعورية المكبوتة . ولا يهمنا هنا ان تكون هذه الرغبات المكبوتة من طبيعة جنسية أولا ، وفى كثير من الآيات الفنية من شعر ومسرحيات وتصوير يكون العامل الجنسى هو سبب الصراع ، وهو المحرك الاساسى للتعبير والافصاح ـ ولكن مايهمنا هو عملية التعويض التى تحدثها الآيات الفنية الجميلة ، أو كما يقول أرسطو : عملية التطهير . فمشاهدة المأساة قد لا تسبب لذة فنية بمعنى الكلمة ، بقدر ما تسمح للمشاهد بأن يشعر من جديد بانفعالات مؤلمة متصلة بصراع لاشعورى مكبوت ، وقد يؤدى بعث هذه الانفعالات فى الشعـــور الى خفض التوتر الذى كان ناشئا عن كبتها ، دون أن تفقد هـــذه الانفعالات التى يعانيها الشخص من جديد صفتها المؤلمة .

في هذه الحالة يصبح من الصعب ان نقول ان المأساة سببت لذة فنية فى نفس من شاهدها ، وليس خفض التوتر الا نوعا من اللذة السلبية اذا صح هذا التعبير

بل يمكن القول ان فى بعض الحضارات الحديثة التى تمتاز بالسرعة والمنافسة والحياة الصاخبة ، كما فى المدن الكبيرة ، يرمى مبدع الفن من وراء عمله ، كمـــا يرمى المشـاهد ، لا الى تحقيق غرض معـــين ، او خفض التوتر الانفعالى ، بل الى ازدياد هذا التوتر واحـداث حالة من التهييج والحمى الوجدانية ..

***

وصفوة القول أن تأثير الآية الفنية الجميـلة لا يكون حتما احداث لذة جمالية خاصة . فقد يلبى المبـدع أو المشـاهد نداء الفن الجميل مدفوعا بعدة دوافع ، بعضهـا واضح فى الشعور ، وبعضها الاخر غير واضـــح ، ومن الصعب تقدير أثر كل دافع على حدة .. فالانفعال الجمالى، أو التأثر الفنى ، حالة معقدة غامضة ، تمتد جذورها الى خصائص الانسان الفطرية ، ثم تتشكل وتتنوع بتأثـير التجارب اليومية والخبرة النفسية التى يعانيها الانسان فى صراعه مع نفسـه ومع غيره من الناس



طبيعة الفن

لا يزال الجدل قائما ، حادا عنيفا ، حول قيمة الفن الحديث المعاصر . والمقصود هنا بالفن الحديث بصفة خاصة تلك الحركات الجديدة التى ولدت مع القرن العشرين والتى أدت الى تكوين الاتجاهات الرئيسية التى تقتسم انتاج المصورين ، ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات فى ثلاثة : التكعيبية والسريالية والتجريدية ، والطابع المشترك بينها جميعا الابتعاد عن الواقع وتشويهه ، بل انكاره وخلق تشكيلات غير مألوفة ، غير مفهومة ، تترك المشاهد فى حالة من الحيرة والسلبية ، بل تثير فيه غالبا شعورا بالاستنكار والنفور ، بل بالغيظ والحنق . ولكن هناك فئة من الناس ، وأن كانت قليلة العدد ، تقدر هذا الفن وتبنى تقديرها على الفهم والتجاوب وتعتبر أن هذه الاعمال التى يستنكرها الجمهور هى أعمال فنية أصيلة

ما هو سر الاختلاف بين المستنكرين والمحبذين ؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال يجب أن نقول ان مثل هذا الاختلاف ليس بالامر الجديد وأنه ليس خاصا بالفن المعاصر فتاريخ التصوير فى القرن التاسع عشر مثلا ملىء بالمجادلات العنيفة حول كل حركة جديدة تحاول أن تخرج عن الحدود

الصارمة التى وضعها التصوير الاكاديمى ، فهذه مثلا لوحة ديلاكروا الشهيرة « مذبحة خير » توصف بأنها مذبحة التصوير وأن الفنان لا يرسم بالفرشاة بل بمكنسة سكرى ، ولم يفلت كورو من بعده ، ثم الانطباعيون من النقد اللاذع ، بل ان جوجان وفان جوخ وسيزان قيل عنهم انهم يجهلون اصول الرسم والتصوير . ومع ذلك قد بيعت اخيرا احدى لوحات سيزان بما يعادل مائتى ألف جنيه ..

ويعد سيزان اليوم ــ وقد توفى سنة ١٩٠٥ ــ ممن وضعوا الاساس الاول للفن المعاصر وحرروا التصوير من القيود التى فرضتها عليه التقاليد ومهدوا له السبيل لكى ينقى لغته ويسترجع استقلاله الذاتى كفن قائم بنفسه . غير أن الجمهور تخلف فى تطوره عن تطور الفن فظل حبيس رؤيته التقليدية التى لا تفهم سوى المألوف والتى لا تبحث فى الفن الا عما يحاكى الواقع اليومى

وعلى ذلك يرجع سر الاختلاف بين من يستنكر الفن الحديث ومن يحبذه ان الاول ابى أن يساير التصوير فى تطوره وان يتعلم لغته الخاصة فأصبحت اللوحات الحديثة عديمة المعنى غير مفهومة ، ومن ثم جاء الحكم بأن الفنان الحديث يسخر بالجمهور وأن عمله لهو وهذيان . لا يمكن أن ننكر أن الثقافة تتطور وتتقدم وأن التقدم ليس محصورا فى دائرة العلوم وتطبيقاتها بل يتناول أيضا الاداب والفنون والتفكير الفلسفى ، لا شك أن معرفتنا لطبيعة الانسان أصبحت أوسع وأعمق مما كانت عليه فى الماضى بفضل التقدم الرائع الذى أحرزه علم النفس فى القرن العشرين

والواقع أن فهمنا لطبيعة النشاط الفنى قد عمق واتضح بفضل تقدم التفكير الفلسفى وبفضل الكشوفات التى

حققها علم النفس . ولا توجد نسبة بين البحوث والمؤلفات التي تنشر منذ مطلع القرن العشرين عن الاعمال الفنيــة والابداع الفني وشخصية الفنان والاديب وبين الشذرات القليلة التي نشرت في القرون السابقة . ففي امكان الباحث اليوم أن ينفذ ببصره الى طبيعة الفن أكثر من ذي قبل وان يميز بدقة أكبر بين النشاط الفني وغيره من الوان النشاط الاخرى التي تكون في مجموعها سلوك الانسان كالصناعة والسحر والدين والعلم واللغة والحياة الاجتماعية

نعم ان هذه الجوانب المختلفة للنشاط الانساني متداخلة ولكن ضرورة الدراسة والفهم تقتضي التمييز بينها دون فصلها بعضها عن بعض . ولفهم طبيعة الفن سننظر اليه من زاويتين : أولا من زاوية تطور الفرد من الناحية النفسية وثانيا من زاوية تطور الانسانية من الناحية الحضــارية والثقافية . وقد نلمس بعض التوازي بين تطور الفرد وتطور الجنس البشري في مجموعه بشرط الا نفهم أن كل تطور جديد يقضي على مراحل التطور السابقة ، بل يجب ان نسلم ببقاء آثار الماضي واندماجها الى حد ما في الاطوار الجديدة وإلا يصبح من المحال تفسير حالات النكوص والارتداد . بل يجب القول ، بصدد تطور الجنس البشري ، بأنه لم يتم بصورة واحدة لدى مختلف الجماعات وانه من اليسير أن نتبين قيام عدة اطوار معا جنبا الى جنب على الرغم من اعتبار هذه الاطوار مراحل اجتازتها الانسانية في رقيها

سنبدأ اذن بالقاء نظرة سريعة على تطور الحيــــاة النفسية لدى الفرد لتعيين المستوى الذي يظهر عنــده النشاط الفني وعلاقة هذا المستوى بالمستويات الاخرى التي تسبقه أو التي تليه لكي نبين التيارات المختلفة التي في غيره من ألوان النشاط الانساني

ولا شك أن هناك وجهات نظر متعددة يمكن النظر من خلالها الى تطور الحياة النفسية لدى الفرد ، ولا داعى الى ذكر هذه الوجهات المختلفة ومناقشة قيمتها المنهجية والعلمية • فلابد أن نختار وجهة النظر التى توحى بهـــا الحقائق الاولية التى تسفر عنها دراسة السلوك ، سلوك فرد من الافراد داخل مجاله الحيوى . والامر الاساسى الذى يسترعى النظر هو أن السلوك يصدر عن توتر ويرمى الى خفض هذا التوتر ، أو بعبارة أخرى أن السلوك هــو دائما ، بشكل من الاشكال وبدرجة من الدرجات ، استجابة تكيفية • والقول بأنه استجابة يتضمن وجود منبـــه من شأنه اطلاق الاستجابة • والمنبه قد يكون خارجيـــا أو داخليا وفى معظم الاحيان يحدث تضامن بين المنبه الخارجى والمنبه الداخلى ، بل يجب القول ان المنبه الخارجى ، سواء أكان بسيطا ــ أى مظهرا من مظاهر الطاقة الطبيعية ــ أم مركبا ــ أى موقفا من المواقف الاجتماعية ــ لا يكتسب دلالته كمنبه سيكولوجى الا بفضل المنبه الداخلى الذى يتمثل فى أى دافع من الدوافع البيولوجية أو النفسية أو فى مجموعة من الدوافع المتفاعلة بعضها مع بعض

وتكون الاستجابة اما مباشرة واما مرجأة. اما الاستجابة المباشرة فانها تتخذ اما صورة الاقدام اذا كان المنبه ملائما أو صورة الاحجام اذا كان المنبه منافرا • وتكون الاستجابة الحركية مصحوبة بشحنة وجدانية ، اما لذة أو ألم . وتؤدى الاستجابة المباشرة الى خفض التوتر الذى احدثه المنبه وعندئذ تؤدى وظيفتها التكيفية . هذا فى حالة ملاءمة استعدادات الفرد وآلياته لمواجهة الموقف بنجاح . اما فى حالة عجز الآليات ــ سواء أكانت فطرية أم مكتسبة ــ عن خفض التوتر واغلاق دائرة النشاط اما بالاقدام والاستيلاء

على المنبه وتمثيله ، أو بالأحجام والفرار من المنبه وتجنب آثاره الضارة ، ففي هذه الحالة من العجز تظــــل دائرة النشاط مفتوحة ويظل التوتر قائما وتظهر استجابة من نوع جديد تتميز بزيادة اختلال التوازن وبمضاعفة التوتر وهذه الاستجابة هي التي نطلق عليها اسم الانفعال

وينطوي الانفعال على معنى النقص والفشل ويفيد دائما عدم التكيف الكامل ، ويصبح الانفعال ، خاصة عندما يتخذ صورة القلق ، دافعا جديدا يدعم الدافع الاول الذي صدر عنه السلوك الفاشل . وفي هذه الحالة ، أي في حالة فشل الاستجابة المباشرة ، يضطر الشخص الى ارجاء الاستجابة التكيفية حتى يتمكن من تنمية اســــــتعداداته واعادة تنظيم امكانياته في اطار أوسع يضم ما يحصله من معلومات جديدة وما يجنيه من استبصار وتبصر في ضوء تجاربه السابقة .

والانفعالات التي يعانيها المرء ، بالاضافة الى نتــائج عمليات النضج والتعلم والى الخبرات الجديدة في مجال العالم الخارجي ومجال الذات الشاعرة تؤدي الى تــكوين العواطف أو ما يعرف بالاتجاهات ، أو بالاسلوب الرئيسي الذي سيسور تفكير كل فرد ووجدانه وسلوكه العام

ونتيجة للتعلم والتحصيل يصبح في مقدور الشخص ان يواجه مشكلته بقسط أوفر من النجاح . فيرى أنه لا يتحتم أن يتجه الفرد نحو الحل الواقعي المباشر ، فقد يلجأ لسبب من الاسباب الى استجابة بديلة من شــأنها أن تخفض التوتر بصورة رمزية تعويضية ، اذ لابد ان نذكر هنا أن خلال النمو النفسي يزدوج مجال النشاط الى مجال حركي ومجال ذهني من جهــة ، والى مجال واقعي آخر من جهة أخرى ، كما أن اثار الخبرات اليومية لا تظل ماثلة

فى الشعور بل تتوارى معظمها فى اللاشعور

ومما يميز الانسان عن الحيوان هو بصفة خاصة قدرته على أن يحيا من حين الى آخر فى عالم الخيال وان يخلق عالما من الرموز والتصورات الوهمية وأن يرضى دوافعه النفسية بشتى الطرق البديلة والتعويضية التى يكتشفها أو يبدعها أو التى توحى بها أليه المواقف التى تضمه . وقد أشرنا فى موضع آخر (١) الى الدور الهام الذى تؤديه المخيلة فى عملية الابداع الفنى ..

والاستجابات البديلة أنواع : أحلام اليقظة ، وأحلام النوم ، واللعب ، ومعظم أعراض الامراض النفسية ، ثم النشاط الفنى فى جانب من جوانبه . وأقول فى جانب من جوانبه لان النشاط الفنى غير مقصور على عالم الخيال وعلى ما يقوم خلف هذا العالم من انفعالات وعواطف واتجاهات ، فهو من جهة أخرى ضرب من الاستجابة الواقعية التى يتجاوز أثرها حدود الفرد حتى يصل الى المجتمع للتأثير فيه وتشكيله الى حد ما بأسلوبه ونمطه . فاذا كان العمل الفنى بالنسبة الى الفنان وسيلة من وسائل التنفيس والتطهير والابتهاج من حيث هو تعبير رمزى ، فهو بالنسبة الى المجتمع آلة تنقل انطباعات الفنان ورؤيته . العمل الفنى بمثابة مرآة تعكس فى آن واحد صورة الفنان وصورة مجتمعه ، لا الصورة المحتجزة المصطنعة المألوفة بل الصورة الحية المتحركة للتوترات الداخلية التى تعمل فى أعماق الفرد وفى التيارات الخفية التى تحمل المجتمع الى طور جديد من أطواره المقبلة . فالعمل الفنى الصادر

---

(١) لزيادة توضيح مراحل النموالنفسى ، كما رسمنا خطوطها الاولية هنا ، يمكن الرجوع الى كتاب المؤلف ، مبادىء علم النفس العام ، الفصل الاول والثانى ،والفصل الحادى عشر عن التحليل

عن اعماق النفس والذى يعبر عن الشخصية بكليتها والذى يعكس بشكل من الاشكال حالة المجتمع يظل يحمـل فى طياته آثار التناقض الخصب الذى يتنازع نفسية الفنان والتناقض الاصيل الذى يبعث فى المجتمع حركة التطور والتقدم . وما يقال عن الفنان المبدع يقال أيضا عن المتذوق فلا بد له أن يشارك الفنان ويشارك مجتمعه فى هذا الصراع والتوتر ، فى هذا التناقض الذى يكون لب الوجـود ، والموت ، بين الاطمئنان والقلق ، بين الامل واليأس . وكل التناقض بين الحب والبغض ، بين اللذة والالم ، بين الحياة والموت ، بين الاطمئنان والقلق ، بين الامل واليـأس وكل طرف من هذه الاطراف وثيق الصلة بالطرف الاخر ولا يمكن أن يقوم أحدهما دون الاخر ، وليست المتعة الحقيقية فى السكون والراحة ، بل فى الحركة التى تحاول التوفيق بين المتناقضات الملازمة بعضها لبعض ، دون أن تصل ابدا الى التوفيق التام . فالمتذوق الحق هو الذى يشارك الفنان فى كفاحه الاليم المؤدى الى ابداع التعبيرات الرمزية ، هو الذى يتقمص فى الحظة التجلى شخصية الفنان فيحس باحساسه ويندمج فى وجدانه ويتحد معـه فى مجهوده وحركاته التعبيرية بحيث يخيل اليه أنه هو المبدع ، وهو المعبر ، فتزول المسافة التى كانت تفصـل بينه وبين الفنان ، دون ان يقع فريسة للهذيان ، أى دون أن يفقد ذاتيته ، فيعود المتذوق الى نفسه وهو أكثر ثراء وابتهاجا

ولكن لكى يتحول المشاهد الى متذوق عليه أن يطهر نظرته من الشـوائب النفسية وان يطهـر فؤاده من الاعتبارات الفكرية التى تحوم حول الفن وهى ليست من صميمه ، سواء أكانت هذه الاعتبارات فلسفيـة أم أخلاقية أم سياسية أم اجتماعية ، عليه أن يتعلم لغـة الفن وأن يرتدى مسحه قبل ان يلج محرابه ، فالرؤية

والرؤيا فى مجال الفن هما فى نهاية الامر شىء واحد

***

ننتقل الآن الى النظر فى طبيعة النشـاط الفنى من زاوية تطور الانسانية . فالموقف الاول الذى وقفـه الانسان ازاء الطبيعة هو مواجهة مطالب الحياة اليومية ، الحصول على الطعام وعلى المأوى ، الدفاع عن النفس من الحيوانات الضارية . وقد اضطرته الحـاجة الى ابتكار السـلاح والادوات الاولية التى تزيد من قوته العضلية ومن قدرته على قهر الطبيعة واستئناسها . ولكن هذا الابتكار كان محصـورا فى دائرة الاغراض النفسية ، غير أنه يمثل الوثبة الاولى للفكر الانسانى

ثم اتسعت دائرة النشاط فى مجالي السحر والدين ويمثل هـذا النشاط الجديد وثبة جديدة فى طريق التطور غير إننا ما زلنا أمام محاولة الانسان لاحداث أثر مفيد ، أثر يخدم حياته . ولكن هذا الغزو الجديد هو توسيع للآفاق فى المكان والزمان واضافة أثر القوى الروحية الى أثر القوى الطبيعية

ثم جاء النشاط الفنى ، بعد ان حقق الانسان الاول قسطا من الطمأنينة والاستقرار . ويمثل النشـاط الفنى الوثبة الثالثة للفكر الانسانى ، اننا بصدد تطور جديد ، غير أنه ليس بتطور يسير فى خط مستقيم ، بل هو تطور تتخلله تغيرات فجائية ، تطور يقفز من مستوى الى مستوى جديد ، يعتمد على القديم ولكنه يتحرر منه لخلق صورة جديدة ، فيه شىء من الصـناعة ومن السحر ومن الدين ولكنه يتجاوز وظيفة كل منها لـكى يقوم بوظيفة جديدة . فالانسان الصانع والسـاحر والمتدين يحاول ان يصنع العالم وان ينظمه ، أما الانسان

الفنان فانه يحاول أن يعبر خلال العالم عن نفسه . ولكنه لا يعبر عن العالم الذى تدركه خلال نشاطها التكيفى ، هو تعبير عن نظرة جديدة ، عن رؤية تجرد العالم من صفاته النفعية

ان النظرة التكيفية تدرك الاشياء للاستيلاء عليها ، لأكلها وتدميرها ، للوقاية منها اذا كانت ضارة ، فهى تبحث عن لذة عضوية وتحاول أن تتفادى الألم العضوى . اما النظرة الفنية فهى نقيض النظرة التكيفية النفعية ، ولكن فى كلتا النظرتين التكيفية والفنية نستخدم حواسنا . فالسؤال الذى يفرض نفسه علينا هو الاتى : هل لحواسنا وظيفة تكيفية وأخرى فنية أو استطيقية جمالية ؟

فى هذا السؤال يكمن لب المشكلة ، وللاجابة عنه سنشرع فى القاء نظرة سريعة الى تطور الحواس فى الانواع الحيوانية . ان حاسة اللمس هى التى ظهرت فى بادىء الامر ، وكانت فى أول الامر منتشرة غير متمايزة الاعضاء والمواضع ، وليست الحواس الاخرى سوى تخصص لحاسة اللمس . فالذوق تخصص غشاء اللسان للتنبه بمنبهات كيميائية ، وكذلك الشم ليس سوى تخصص غشاء الانف للتأثر بمنبهات كيميائية أيضا والصلة وثيقة جدا بين حاستى الذوق والشم . أما العين فهى تخصص يقع على الجلد لتركيز الضوء وكانت الاذن فى بادىء الامر عضوا يقوم باستقبال الاهتزازات وباثارة الاستجابات الخاصة بتوازن جسم الحيوان وأوضاعه المختلفة

واللمس والذوق حاستان للتنبيه بالتماس ، فلا بد من أن يلمس المنبه سطح الجلد او الغشاء ويضغط عليه

لكي يحدث التنبيه الحسي . وفي الشم قد يكون الجسم الفائح بعيداً ولكن أجزاء منه لطيفة جداً تنفصل عنه وتصل الى غشاء الانف لتنبهه . أما في البصر والسمع فلابد من وسيط بين المنبه وعضو الاحساس ، فهما حاستان تدركان عن بعد ولذلك فان قيمتهما التكيفية تفوق بكثير قيمة الحواس الاخرى لانهما تسمحان للكائن الحي بالاستعداد والتوقع ، وهما مفيدتان جداً في حالة الدفاع ..

ان اللمس والذوق والشم مفيدة أيضاً في حالة الدفاع غير أن المسافة بين المنبه والجسم صغيرة بحيث لا تسمح باتخاذ الاحتياطات مقدما ، ولا تزداد فائدتها التكيفية الا بمعونة العين او الاذن ، ثم انها من خصائص الاعضاء التي من عملها الاستيلاء على الشيء ، والاستيلاء على الشيء الملائم للجسم مصحوب دائما بلذة ، فهي اذن حواس مشحون نشاطها بشحنة وجدانية كبيرة

أما حاستا السمع والبصر فهما في الاصل مجردتان عن هذه الشحنة الوجدانية التي تصاحب تنشيط حواس الاستيلاء

ومما هو جدير بالملاحظة ان حواس اللمس والذوق والشم لم تؤد الى خلق فنون خاصة بها ، في حين أن الفنون الجميلة هي فنون سمعية وبصرية . فالارتقاء من المستوى النفعي الى المستوى الاستطيقي الجمالي لم يتم الا في مجالي السمع والبصر . ان اللذة العضوية تستغرق نشاط اللمس والذوق والشم ، وعندئذ يؤدي الاشباع الى اغلاق دائرة النشاط . أما ارتقاء السمع والبصر الى المستوى الاستطيقي فالدليل عليه قيام الفنون الجميلة . واللذة هنا ليست عضوية بحتة ، هي لذة فنية نتيجة التجرد من النزعة النفعية . والهذا السبب

تكون الاذن والعين فى حاجة الى تربية خاصة لكى تفهما لغة الفن ، بل لكى نتعلم أولا هذه اللغة • ومما هو جدير بالملاحظة أن تهذيب الاذن من الناحية الاستطيقية أسهل من تهذيب العين ، على الرغم من أن الانسان عادة قد يعترف بعجزه عن فهم بعض الوان الموسيقى البحتة ، ولكنه لا يقبل أبدا أن يعترف بجهله فى ميدان الفنون التشكيلية فهو يبادر دائما الى ابداء رأيه سواء بالاستحسان أو بالاستنكار

ويرجع سبب هذا الاختلاف الى أن عناصر لغة الموسيقى ليست مستمدة من الطبيعة ، فالطبيعة لا تحوى الا الضوضاء ، أما الاصوات الموسيقية والالحان والتأليفات الصوتية فهى من عمل التجريد والخلق ، هى مجردة منذ البداية من الطابع النفعى وتتميز الى درجة قصوى بطابع الاختيار والابتكار ، فان سلم الموسيقى مصطنع وموضوع وضعا . ثم ان تركيب قوقعة الاذن من الناحية التشريحية يهيئها للاستجابة للايقاع والالحان ••

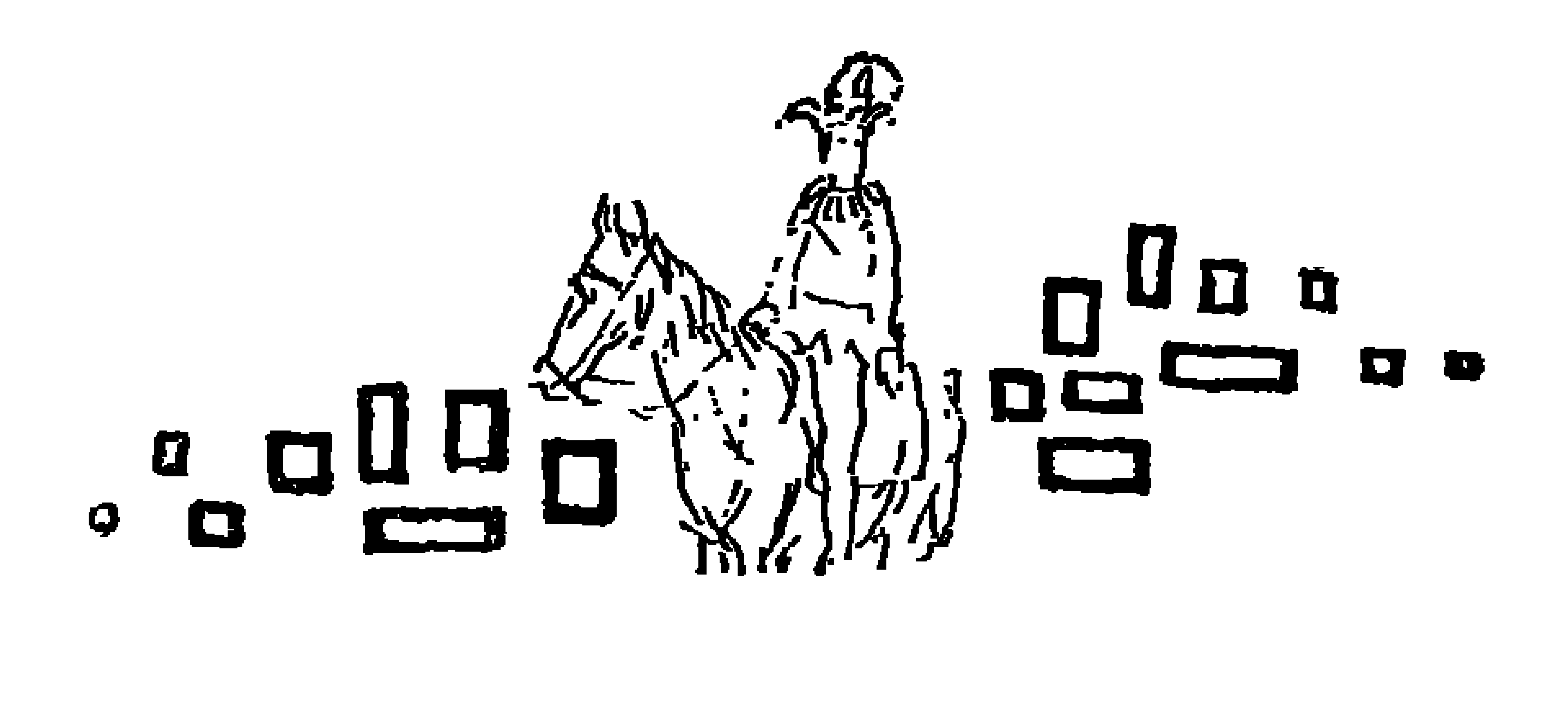
أما لغة التصوير فانها لا تختلف عن لغة الطبيعة ، فالاشياء تبدو ملونة وذات أشكال وأحجام ، والعنصر الذى يحتاج الى التجريد هو الخط مع أن الطبيعة قد توحى به بسهولة • فالعين اذن أكثر التصاقا بالخصائص الحسية للطبيعة من الاذن ، فعليها اذن لكى تسمو فوق مستوى التكيف النفعى أن تبذل مجهودا اكبر . فهى تستعير من الطبيعة مباشرة لغة الالوان والاشكال ولكن لابد من خلع دلالة جديدة على عناصر هذه اللغة الطبيعية

ويمكن تلخيص الفرق بين الموقف النفعى والموقف الفنى بأن نقول ان فى الاول : لون الشىء يدلنا على الشىء

أما فى الثانى فليس الشىء سوى وسيلة لمعرفة اللون

والفن الحديث ، على الرغم من بعض الانحرافات التى تظهر من حين الى آخر ، ليس سوى محاولة جـــــريئة لتخليص لغة التصوير من الشوائب النفعية وذلك ضمانا لاستقلاله كفن ـ بحيث لايحاكى النحت ـ اعتمادا على تحليل الاحساس البصرى والتعبير عن هــذا الاحساس بواسطة قيم شكلية ولونية . فاللوحة دلالتها تشكيلية لا موضوعية . ان الموضوع أو الشىء الخارجى هو مجرد سند أو وسيلة وقد يكون عقبة فى نظر الفنان

والفن التجريدى المعـــاصر هو المرحلة الاخيرة التى وصل اليها التصوير فى محاولته خلق لغة خاصة به ، لغة تتكون من نسب بين الاشكال والخطوط والالوان كما أن الموسيقى تتكون من نسب وعلاقات صوتية . فمن أراد أن يفهم لغة الفن الحديث فعليه اولا ان يتعـــلم أصولها ..



مشكلة الإبداع الفني

في دراستنا لسيكولوجية النشاط الفني آثرنا أن نرسم أولا الخطوط الرئيسية للاطار الاجتماعي والثقافي الذي يحيط بانتاج الفنانين ، وقد رأينا أن كل عصر من العصور الكبرى التي تقتسم تاريخ الفنون الجميلة يمتاز بأسلوبه الخاص وأن المحك الرئيسي الذي يسمح بالربط بين الاساليب الفنية المختلفة هو ما سميناه بالتكافؤات الشكلية • وعلينا الان أن نتجه من هذا الاطار العام نحو النقط المركزية التي تملأ هذا الاطار والتي تكون مضمونة مع ما يمتاز به هذا المضمون من تنويعات خاصة ناشئة عن الطابع الشخصي لكل واحد من الفنانين المبدعين

وأول مشكلة تثار أمامنا ونحن نتجه من الاطار الى مضمونه : مشكلة الابداع الفني • هل الفنان مجرد صدى لعصره ؟ هل هو بمثابة المرآة التي تعكس بطريقة سلبية الاشعة التي تسقط عليها ؟ هل المجتمع هو وحده مصدر الوحي ، وعبقرية الفنان المبدع ليست سوى أداة خلقتها الاقدار ؟ هل هناك بجانب هذه المحصلة الناشئة عن التفاعل العشوائي بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة عامل

شخصي ينتمي الى عالم الفكر والحرية يقوم باستغلال ما تقدمه الصدفة البحتة ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة تقربنا من حل الطرف الاول من المشكلة وهو الابداع بوجه عام ، وهناك طائفة أخرى من الاسئلة يثيرها الطرف الثاني وهو الفن وطبيعته ..

هل يكفى أن يتألم الانسان وأن يصرخ من الالم لكى تتحول صرخته الى شعر أو الى لحن موسيقى ؟ هل يكفى أن يلعب الطفل بالخطوط والالوان لكى يتحول هذا اللعب الى لوحة فنية ؟ هل كل تعبير وان كان صادقا تعبير فنى ؟ وهل كل صياغة وان كانت محكمة من شأنها أن تثير الاحاسيس الجمالية ؟

من الواضح أن الاجابة عن هذه الاسئلة ستكون بالنفى ، اذ أن كل عامل من هذه العوامل لا يكفى لكى يخلع على العمل صفة الفن . وربما اذا ألفنا بين هذه العوامل كلها — أى بين الانفعال والعاطفة ، واللعب والتلقائية ، وصدق التعبير وطرافته ، وأخيرا الصنعة المحكمة والتمرين الموجّه — نكون قد حققنا الشروط الاساسية التى تكفل فنية العمل وجماله . ولكن ألا يوجد عامل أولى جوهرى لا يمكن أن يتم دونه هذا التأليف ؟ وهذا السؤال الاخير يعود بنا الى الطرف الاول من المشكلة التى نحن بصددها ويضطرنا الى أن ننظر بشيء من التعمق فى عملية الابداع فى حد ذاتها ..

هل يمكن أن يتم الابداع صدفة واتفاقا ، ودون أن يكون هناك توجيه ما ، واحساس — ولو خفى غامض — بالهدف؟ قد يكون ذلك ولكن المحاولة العشوائية التى تنجح مرة تقتضى ملايين المحاولات الفاشلة ، واحتمال تحقيق المحاولة الناجحة مرة ثانية احتمال ضئيل جدا لان مبدأ النجاح يظل

مجهولا فالابداع يقتضى بالضرورة نشاط العقل وهو فى الواقع أعلى الوظائف العقلية وأكثرها تعقيدا

وقد أجرى علماء النفس دراسة عملية الابداع أو الخلق تحت اسم المخيلة المبدعة ، وهم يميزون بين نوعين من التخيل ، التخيل الاسترجاعى وهو تمثل صور المحسوسات فى الذهن ، والتخيل التأليفى أو الابداعى الذى ينظم صور المحسوسات فى تركيبات جديدة

والتخيل الاسترجاعى ليس فى الواقع الا عملية تذكر الصور المحسوسة دون تحديد نشأة هذه الصور فى الزمان والمكان ودون ارجاعها الى خبرتنا الماضية ، أما التخيل الابداعى فانه يقتضى عملية تفكيك التركيبات القديمة واختيار بعض العناصر من هنا ومن هناك والتأليف بينها فى تركيبة جديدة ، بعد تغيير القيمة الوظيفية للعناصر المفككة بحيث تكتسب التركيبة الجديدة صفة الابداع أو الابتكار

ويعترض على هذا الرأى بأن النشاط العقلى ليس محصورا فى دائرة الصور الذهنية ، وأن هناك معانى وأفكارا لا يتمثلها الذهن فى شكل صور ذهنية حسية ، وأن الابداع يتناول هذه المعانى والافكار المجردة دون الاعتماد دائما على الصور الحسية ، وأنه يمكن أن نفكر دون أن نستخدم الالفاظ اللغوية أو الصور الذهنية المحسوسة ، ولا يتحتم أن يكون مضمون التفكير شعوريا فى جميع أنحائه ، بل هناك جوانب لا شعورية ، لا يدرك الشعور سوى نتيجة هذه العمليات اللاشعورية • ثم أن لغة الرياضة والفلسفة والعلم مليئة بهذه المفاهيم المجردة التى ابتكرها التفكير والتى لا يمكن دائما تحويلها الا الى صور محسوسة

وعلى ذلك يجب التمييز بين الابداع من حيث هو وظيفة

عقلية فكرية بحتة وبين القدرة على تكوين الصور الذهنيه وعلى تمثل الافكار أو الاشياء بطريقة عينية مجسمة وهذه القدرة الاخيرة تتفاوت درجتها تبعا للافراد ، وهى تميز الفنانين بصفة خاصة ، غير أن الفنان نفسه لا يقتصر ابداعه على عالم الصور بل يتناول أيضا المعانى والافكار المجردة . فهو لا يتخيل دائما بل فى امكانه أن يبدع دون أن يتخيل والادلة على ذلك كثيرة جدا ، فالشاعر أو الاديب لا يعيش فقط فى عالم الصور الحسية والالفاظ

والمصور لا يقصر نشاطه فى دائرة الخطوط والالوان والاضواء والظلال . والموسيقى عندما يرتقى بفنه الى مستوى الموسيقى البحتة غير التعبيرية - لا يستلهم فقط عالم الاصوات والانغام . فهناك قبل أن تتزاحم الالفاظ لدى الاديب ، وقبل أن تتعانق الخطوط وتتجاوب الآلوان لدى المصور ، وقبل أن تنسجم الاصوات وتتنوع الالحان لدى الموسيقى ، نشاط عقلى يدور خلف عالم الصور ، تنبض فى ثناياه حركات الابداع ، وذلك مهما يكن هذا النشاط غامضا ومهما تكن هذه الحركات الابداعية خفية

وما هو هذا النشاط العقلى الذى يكمن فى قلب حركة الابداع ؟ هل هو شيء آخر غير النشاط العقلى الذى يوجه السلوك الذكى ؟ يبدو لاول وهلة أن الابداع والذكاء شيء واحد . ألم يعرف الذكاء بأنه القدرة على ابتكار الحل عندما تواجه الكائن الحى مشكلة ما ؟ أو بأنه القدرة على التكيف فى المواقف الجديدة ؟ ولكن هناك تعريفات أخرى للذكاء تختلف عن السابقة وان كانت قريبة منها بوجه من الوجوه . أليس الذكاء هو أيضا القدرة على الفهم ، وعلى ادراك العلاقات والمتعلقات ، وعلى التجديد والتعميم ، وعلى ادراك العلاقة بين الوسيلة والهدف ؟

ان كل هذه التعريفات صحيحة ولا يدل تعددها الا على عمق مشكلة الابداع وتشعبها ،فليست كل المشكلات سواء. فهناك المشكلة التى تواجه الشخص من الخارج وتفرض نفسها عليه فرضا وفي هذه الحالة يكون الموقف فهم وادراك للعلاقات واعادة بناء معطيات المشكلة ، وهناك المشكلة التى تنبع من داخل الشخص ، وكدنا نقول المشكلة التى يبتدعها الشخص لكى يمنح نفسه متعة حلها ، وفى هذه الحالة يصبح المبدع بصدد بناء المشكلة وبناء حلها ، وذلك ابتداء من معطيات ناقصة غامضة ، وعلى الرغم من العقبات والفجوات التى تعترض سبيله . واذا كان يحق لنا أن نمنح الذكى قدرا من القدرة على الابداع ، فان هذه القدرة تصل الى ذروتها لدى العبقرى - والعبقرى هو المبدع الحق

قد يبدو هذا التمييز تعسفيا بعض الشيء ، وربما يمكن ان نخفف من هذا التعسف بالقول بوجود مستويات مختلفة لملء الفجوة التى أحدثناها بين مجرد الفهم والابداع الخلاق . ففى المستوى الادنى نجد الفهم المحصور فى مشكلة خاصة دون القدرة على تعميم مبدأ الحل . ثم تزداد هذه القدرة على التعميم كما تزداد عملية التعقل عمقا حتى نصل الى نوع من التعقل يمتاز بقدر كبير من الاشعاع والتعمق بحيث يمكن ادراك أوجه الشبه بين مشكلات تبدو لاول وهلة مختلفة فيما بينها تمام الاختلاف . والعبقرى هو وحده الذى يتمتع بمثل هذه القدرة الفائقة ، ولهذا السبب نجد أن كبار العباقرة برزوا فى عدة ميادين فى آن واحد أمثال ديكارت وليبنتز من بين الفلاسفة وجوتيه من بين الادباء ، وميكيل انجلو ، وليوناردو دافنشى من بين رجال الفن ، فكانت لكل هؤلاء جولات ناجحة فى ميادين أخرى غير ميدانهم الخاص

رأينا أن العامل المشترك بين المستويات التى تربط بين مجرد الفهم والابداع الخلاق هو درجة تعميم المبدأ الذى يقوم عليه الحل وعملية التعميم تقتضى اولا التجريد الذى يعزل الصفة التى ستعمم على أساس اشتراكها فى الاشياء المتشابهة • ولا يتحتم ان تتم عملية التجريد فى المستوى الشعورى التأملى ،فهناك مايشبه عملية التجريد فى سلوك الحيوانات والاطفال الصغار فى مواقف حل المشكلات العملية ، ونكون حينئذ بصدد ما يعرف بالذكاء العملى فى مقابل الذكاء النظرى او التأملى . ففى مجال الذكاء العملى يتناول النشاط الاشياء المجسمة ولا يمكن تفسير السلوك الذكى فى المجال العملى الا اذا افترضنا وراء النشاط الحركى نشاطا ادراكيا يتناول العلاقات التى يمكن أن تقوم بين أجزاء الموقف ، وهذا النشاط الادراكى هو من قبيل التجريد ولكنه تجريد تلقائى

أما فى مجال الذكاء النظرى أو التأملى فقد يقل الجانب الحركى ويكاد النشاط ينحصر فى مجال الذهن ، فيتناول بدلا من الاشياء ما يرمز اليها من معان وأفكار ، وتكون حينئذ بصدد تجريد تأملى شعورى . ولكن حتى فى مجال الذكاء النظرى ، بل فى مجال الابداع الفكرى ، لا ينعدم التجريد التلقائى . وما يقال عن التجريد فى شكليه : التلقائى والتأملى ، يقال أيضا عن التعميم

فتجد أن عملية حل المشكلات سواء أكانت عملية أم نظرية ، وكذلك عملية الابداع عند مستوياتها العليا لاتتم بفضل النشاط الادراكى او العقلى دون أن يبعث هذا النشاط ويغذيه دافع من الدوافع ، ودون ان يكون مصحوبا بشحنة وجدانية تزداد أو تنقص أو تتلون بشتى الالوان تبعا لدرجة اشباع الدافع او احباطه

والدافع الاساسى لدى الحيوانات والاطفال الصغار

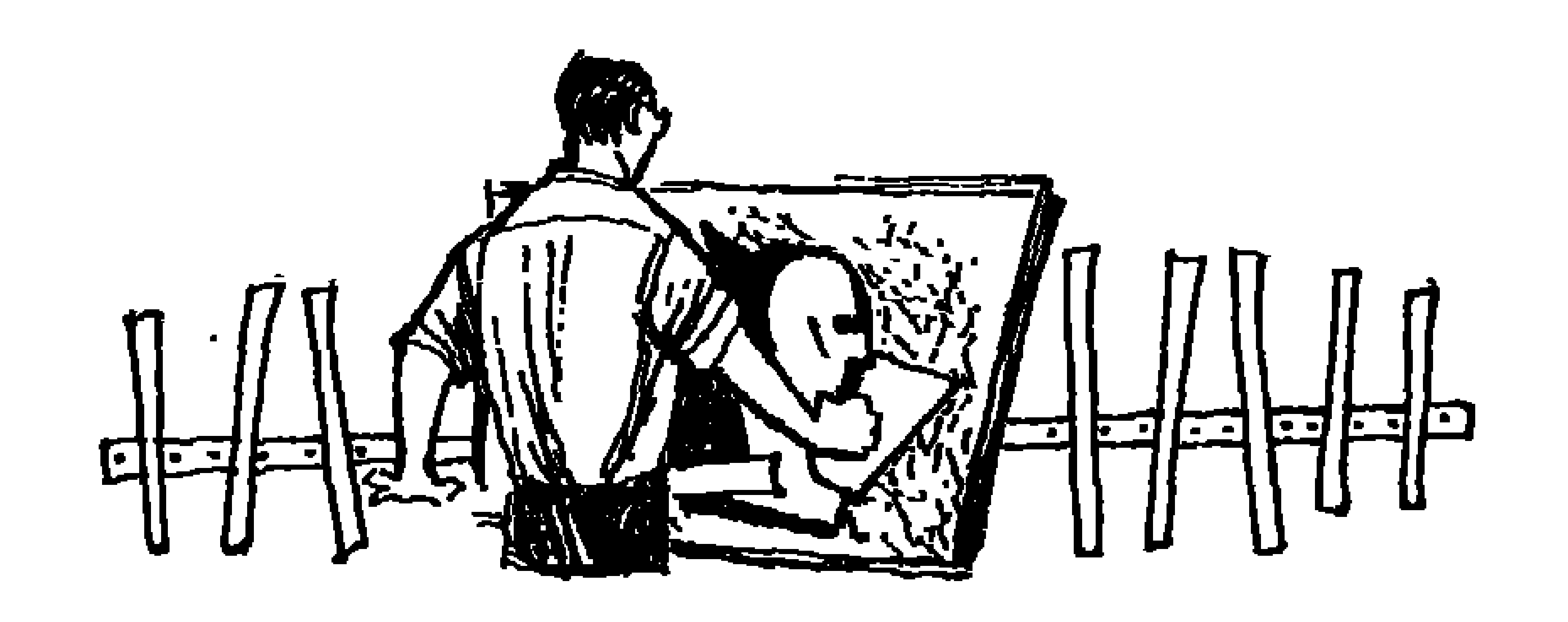
محصور فى دائرة الحاجات العضوية والحيوية المباشرة . وبمجرد اشباع الدافع تغلق دائرة النشاط ويعـــود الكائن الحى الى حالة من التوازن والاستقرار حتى يبعث الدافع من جديد . والصفات المدركة فى هـذه المواقف الحيوية الاولية هى صفات وظيفية ، اى هذه الصفات التى تكون لها قيمة مباشرة بالنسبة الى اشباع الدافع أى الصفات من حيث فائدتها او ضررها . فالقيمـــة الوظيفية لا تعدو أن تكون قيمة نفعية . وتنطبق هذه الحقائق على جوانب كثيرة من سلوك الاطفال والراشدين عندما يدور نشاطهم الحركى او الذهنى فى مجال الدوافع البيولوجية . ولكن ما يميز الانسان عن الحيوان هو أن الاول مدفوع ايضا برغبته فى المعرفة وفى تركيز خبراته من حين الى آخر فى مجال الشعور ، نعم أن المعرفة قد تصبح بدورها وســيلة من وسائل تحقيق الدوافع البيولوجية ولكن هذا لا يمنع أن تصبح غاية لذاتها وأن يحاول الانسان أن يعرف وان يكشف عن الحقائق وان يبتدع دون أن يربط بين نشاطه وبين غرض نفعى . أليس معنى هذا ان الاكتشافات العلمية لم تحفـــزها أبدا مشكلات عملية حيوية ، ولكن هناك بجانب الاعتبارات النفعية حافزا أصيلا ينبع من أعماق الشخصـــية الانسانية يدفع الانسان الى أن يخلق لمجرد متعة الخلق ، كأن الخلق أمر ضرورى لا يمكن تجنبه .

واذا كان التجريد التلقائى هو الخطـــوة الاولى فى الطريق المؤدى الى الفهم او الى الابداع فهل يوجد مثل هذا التجريد لدى الاديب أو الفنان وما هو الطابع الخاص الذى يميز عملية التجريد فى ميدان الابداع الفنى . ننتقل بهذا السؤال الى الشطر الثانى من المشكلة التى نحن بصددها وهو طبيعة الفن ولا يتسع المقام لتفصيل القول

فى هذا الموضوع وسنكتفى هنا بذكر أهم النقط . انه من البديهى ان العمل الفنى ليس مجرد محاكاة للواقع وليس مجرد مهارة صناعية لتكرار العمل نفسه . واذا كان الفنان يستند من جهة الى العـــالم الواقعى والى الطبيعة غير انه من جهة أخرى يقوم بتشكيل المعطيات الاولى التى يقدمها له الواقع وفقا لرؤية شخصــــية فيطبعها بأسلوبه ويعود هذا الاسلوب بدوره بشكل الواقع أى يجعل متذوق الفن يرى الواقع خلال أسلوب الفنان

فالفنان يقوم بعملية تجريد ولكن الصــفات المجردة والجوانب المعزولة فى رؤيته ليست لها قيمة وظيفيـــة نفعية . فالتجريد التلقائى الذى يكمن وراء نظرة الفنان الى الواقع هو تجريد عاطفى يتناول القيم الاستطيقية ، اى التى يعتبرها فى نظره قيما جمالية ، وهى القيم التى تكون لغة فنه الخاصة ، الاصوات والايقاع والاشــكال وما يقوم بينها من تجاوب وانسجام او من تقابل وتنافر ..

فالدافع هنا ليس دافعا عضويا بيولوجيا ، كما أنه ليس دافعا معرفيا بحتا ، بل هو الدافع الى الخلق فى مجال خاص ، هو المجال الاستطيقى ، يختلف جوهريا عن المجال النفعى كما أنه يختلف عن المجال الفكرى الاستدلالى . فالفنان لا يرمى الى اثبات شىء او نفى شىء ، لا يرمى الى الاقتناع او الدعاية ، وليس فنه وسيلة من وسائل العيش بل هو يعيش فنه . ولكن على الرغم من كل هذا قد يرى المتذوق او المشاهد ان للعمل الفنى دلالة أخرى غير دلالته الفنيـة ، كما أنه قد يحدث أن يعيش الفنان من فنه ، غير أن كل هذه الاعتبارات عرضية ثانوية لا تفسر جوهر العمل الفنى من حيث هو عمل ابداعى . أما اذا طغت هذه الاعتبارات العرضية فعندئذ تكون جـــذوة الابداع الفنى قد خبت وانطفأت ..



سيكلوجية النشاط الفنى

ان الدراسات السيكولوجيةالتى تتناول ارتقاء الحياة النفسية المعقدة المتكاملة بينت لنا ان حــركة التطــور لا تتخذ أبدا شكل الخط المستقيم بل هى تسير وفقـــا للشكل الحلزونى الذى يجمع فى آن واحد بين الحــركة الدائرية والحركة الصاعدة ، وقد اطلقنا على هذه الحركة المركبة اسم الحركة الدائرية اللولبية • أى أن التطور لكى يفيد فى الوقت نفسه معنى التقدم ، لا يسير تبعا لحركة دائرية مغلقة والا انتابه التكرار الممل والجمود ، وهذا التكرار ينذر حتما بالنكوص والتدهور • وما يقال عن تطور الحياة النفسية يقال ايضا عن تطور الحياةالاجتماعيةبشتى وجوهها . فان الاشكال الجديدة للثقافةوالحضارةلاتظهر بصورة فورية ولا تقضى قضاء تاما على الاشكال القديمة بل تتمثل من هذه الاشكال القديمة ما هو جدير بالبقاء وتعيد تنظيمه داخل الاطار الجديد . فقد يبعثمن جديد اتجاه كان سائدا فى احد العصور السابقة ، ولكن بعد اثرائه وادماجه فى التيارات المستحدثة

وفيما يختص بتطور الفنون الجميلة وتطور اساليبها فقد ذهب بعض مؤرخى الفن الى ان هذا التطور يســير

أيضا وفقا للحركة الدائرة اللولبية وان هذه الحركة تمر بثلاثة اطوار وأن كل طور يتميز بأسلوب معين وفقا لترتيب واحد : الاسلوب البدائي ، الاسلوب الكلاسيكي ، الاسلوب الباروكي «Baroque» (١)أو الرومنتيكي بل ذهب بعضهم الى ان كل اسلوب فني من الاساليب الفرعيـة سواء في العمارة او التصوير يمر بهـذه الاطوار الثلاثة . فالطور الاول يمثل مرحلة التجارب التي تحاول فيهـا الاشكال البحث عن الوسائل التعبيرية الملائمة لها . وفي الطور الكلاسيكي يتم تثبيت الاسلوب الذي يحقق اعلى درجة من التوافق بين العنـاصر البنائية والعنـاصر الزخرفية . أما في الطور الثالث المعروف بالبـاروكي تتحرر العناصر الزخرفية من النظام الذي كانت خاضعة له وتأخذ تنمو وتتكاثر لذاتها الى حد الطغيـان على العناصر البنائية

ومهما يكن من صحة هذا القانون وثباته فان الامـر الذي لايحتمل الشك هو أن الاساليب الفنية تتطـور وتتغير كما تتطور الاذواق وتتغير ، سواء اتخذ هذا التطور شكلا دائريا ثلاثي الاطوار او شكل الترجح بين قطبين متقابلين مثل الكلاسيكية والرومنتيكية أو العقل والعاطفة. ونجد خلال هذا التطور ان هناك في كل عصر من العصور فنا يتزعم بقية الفنون فيخضعها لمقتضيات اسلوبه الخاص بحيث يتم التجاوب بينها جميعا بفضل هذه التـكافؤات الشكلية التي سبقت الاشارة اليها

نجد في القرون الوسطى ، أي ما بين القرن الحادي عشر وأواخر القرن الخامس عشر ، ان فن المعمار هو الذي

(١) من اسم المصور الايطالي باروتش Barroci ١٥٢٦ — ١٦١٢ الذي جعل لعنصر اللون المرتبـة الاولى من العنـاصر التشكيلية الاخرى

يفرض سلطانه على النحت والتصوير ، وأن هذه الفنون الثلاثة تخضع بدورها لسلطان الدين . وليست مهمة النحت والتصوير مهمة زخرفية بقدر ما هى مهمة تعليمية : تعليم الشعب الذى لم يكن يعرف القراءة أصول الدين واطلاعه على أهم الاحداث التى مرت بها الكنيسة منذ نشأتها . وكانت التماثيل المنحوتة جزءا لايتجزأ من البناء فهى مندمجة فيه وخاضعة للاطار المحدد لها . وكذلك كان الغرض من التصوير تغطية مسطحات الجدران بالرسومات الملونة . وتلك هى الوظيفة الاصلية للتصوير كما فهمه تماما قدماء المصريين ومصورو اليونان والرومان . فلم يبدأ النحت والتصوير يتحرران تدريجا الا ابان عهد النهضة ، ثم اخذت هذه الحركة تنمو وتتضح منذ هذا العهد حتى يومنا هذا

وتتميز الحركة الفنية فى عهد النهضة بالعودة الى نماذج الفن القديم ، الذى كان يتصف بالنزعة العقلية وبالتوازن والانسجام . وكان أرقى نموذج للجمال الفنى فى نظر الايطاليين فى القرن الخامس عشر هو النحت اليونانى القديم الذى وصل الى ذروته فى تماثيل فيدياس Phidias وبوليكليت Polyclete وبراكسيتيل Prapitele وخضع التصوير للرؤية النحتية وكان مصورو عصر النهضة يعتبرون التجسيم والبروز وتمثيل البعد الثالث واظهار القيم اللمسية من الصفات التشكيلية الاساسية

وعندما نقارن بين العصور الوسطى وعصر النهضة من حيث الجو الفكرى الذى كان يحيط بنشاط الانسان نلاحظ ان الجو الفكرى فى العصور الوسطى كان جوا دينيا مقدسا يسمو بنظرة الانسان نحو السماء . وهذا الجو المقدس يفرض مبادئه على اللوحة التى يرسمها المصور :

فالمنظور هنا فكرى لا بصرى ، وما يعين حجم الاشـــكال ليس بعدها عن عين الرائى بل مرتبة أصحابها دينيـــــا واجتماعيا : فالملك مثلا ، حتى وان كان فى مؤخرة الصورة يجب أن يصور أكبر من النبلاء ، وهؤلاء أكبر من عامـة الشعب

اما فى النهضـة فان العودة الى فلسفة القدماء وأدبهم، وتغلب النزعة الفردية الدنيوية على النزعة الجماعيـــة الدينية أدت الى تغلب الواقعية على المثالية والى تطبيـــق مبادىء المنظور البصرى فى لوحات الفنانين ، وذلك بتنظيم الخطوط وتنغيم القيم اللونية بحيث تعطى الاحســاس بالبعد الثالث مما يزيد من الانطباع الواقعى المجسم . فيمكن القول اذن أن منظور فنانى عصر النهضةوالعصور التى اقتفت اثره يمثل فى عالم الفنون التشكيلية تصورا فلسفيا واجتماعيا جديدا تغلب عليه النزعة الانسانيـة الدنيوية

غير ان هذا الاسلوب الفنى المقتبس من القـــــدماء والمعروف بالاسلوب الكلاسيكي قد مر بالمراحل الثلاث التى سبق ذكرها : مرحلة بدائية تجريبية ثم مرحـــلة الكمال والاتزان ، واخيرا مرحلة الاسلوب الباروكى . ويمكن ان نلمس هنا تأثير الاطار الفكرى والثقافى فى هذا التطور وفى الصراع الذى قام بين الاتجاهات المختلفة قبـــل انتصار اتجاه واحد على الاتجاهات الاخرى . ولكن يجب أن نذكر أيضا تأثير القوميات المختلفة فى تشكيـل صور هذا الصراع . فقد أدت مثلا حركة الاصــــلاح الدينى من جهة ، وسيطرة عرش اسبانيا الكاثوليكية من جهـــة أخرى الى بعث الايمان والعاطفة الدينية ، غير أن هــذا الايمان كان وثابا مجاهدا فى عصر مزقته الحروب الدينية، فتأثر التصور التشكيلى فى العمارة والنحت والتصـوير

بهذا الحماس الدينامیکی فظهر الاسلوب الباروکی فی الفن المعماری لدی برنینی Bernini ، وبوروميني Borromini وفی التصویر لدی تنتوریه Tintoret وروبنس Rubens والجريكو Le Greco وفی الفن المسرحی الاسبانی لدی لوبیه دی فیجا Lope de Vega وبدرو كلدرون Pedro Calderon ويتميز الاسلوب الباروكی ، فی الواقع ، بانه مسرحی حيث تحل الحركة محل السكون والخطوط المنحنية المتعرجة محل الخطوط المستقيمة الهادئة ، وتغطی العناصر الزخرفية علي العناصر التشكيلية المتزنة وتبدو الشخصيات فی اللوحة او فی المجموعة المنحوتة كأنها تتحرك علی المسرح

ولكن هذه الحركة الزخرفية الجامعة أخذت تضعف فی النصف الثانی من القرن الثامن عشر وظهرت اتجاهات جديدة يمكن تلخيصها فی عبارة واحدة : الفرار من جو التصنع والافتعال والالتجاء الى جو أكثر أصالة وبراءة وسذاجة . فنجد ان الفنانين والادباء يحولون نظرهم نحو آفاق جديدة ، وترجع هذه الاتجاهات الجديدة الى اربعة اتجاهات رئيسية : العودة الى الماضی ، تلبية نداء العاطفة ، الالتجاء الى أحضان الطبيعة ، وأخيرا الانجذاب نحو عالم الغيبيات وخوارق الطبيعة . وتتمثل العودة الى الماضي فی اتجاهين متعارضين : ماضی العصور القديمة اليونانية والرومانية من جهة ، والقرون الوسطی ، وخاصة عصر الفن القوطی Gothic من جهة أخری . وقام الصراع بين هاتين النزعتين فانتصرت النزعة الاولی المعروفة ، بالحركة الكلاسيكية الجديدة ، فی عهد الثورة الفرنسية حيث كان ابطال القدماء نماذج للشجاعة والشهامة والاخلاص وسائر الفضائل التی يجب ان يتصف بها المواطن الصالح . ثم اضطرت هذه الحركة

الى التقهقر امام الحركة الرومنتيكية التى قادهاالشعراء والموسيقيون فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومما ساعد على تدعيم الرومنتيكية العودة الى الطبيعـة وتجميد العاطفة وتغليبها على النزعةالعقلية الجافة وليس هذا الصراع سوى صورة من صور المعركة التى تحتدم من حين الى آخر بين أنصار القديم وأنصار الحديث ..

والاديب الذى مجد العاطفة ومهد السـبيل للحركة الرومنتيكية هو بصفة خاصة جان جاك روسو فبينما كان الفيلسوف ديكارت يقول فى القرن السابع عشر : «أنا افكر واذن فأنا موجود » ، نجد روسو يقول ما معناه : أناأحس وأتألم واذن فأنا موجود ، ان ما يميز الانسان عن الحيوان هو قدرته على البكاء ، وان معيار الطيبة والفضيلة هـو كميـة الدموع والقابلية الزائدة لسرعة التأثر والتألم . وسيتردد صدى هذه المعانى لدى الشاعر دى موسـيه حينما يقول : دع قلبك يهتز ويضطرب اذ فى ثناياه تكمن العبقرية ! ولا يصل الانسان الى معرفة نفسية الابفضل الالم ، فالالم هو المعلم الاول !

ونادى جان جاك روسو ايضا بالعودة الى احضـان الطبيعة والى الفطرة الطيبة وحذر من تصنع المجتمع ومفاتنه وعد المجتمع سبب الفساد والانهيار الخلقى ولم يقتصر تأثير مذهب روسو على الادب بل امتد الى التصـوير فظهرت النزعة الاخلاقية الوعظية فى لوحات جروز Greuze مثلا ، ومن جهة اخرى أخذت تحتل مناظر الطبيعةالمكانة الاولى لدى بعض المصورين ، خاصة فى انجلترا ، حتى أصبحت اللوحات التى تصـور منظرا طبيعيا تنافس اللوحات الاسطورية والتاريخية

واخيرا نجد فى أواخر القرن الثامن عشرازديادالاهتمام

بالغيبيات والسحر وبمظاهر التنويم المغناطيسي وبعالم الارواح والشياطين • ويمكن ارجاع الحركة السريالية فى الشعر والفنون التشكيلية الى أعمال الشاعر والرسام الانجليزى وليم بليك William Blake والى مجموعة « النزوات » التى رسمها جويا

ولكن على الرغم من جموح الحركة الرومنتيكية وانطلاقها ما زالت الاشكال الفنية فى الادب والتصوير والموسيقى خاضعة فى بنائها العام لنظام معين . وهذا واضح جدا فى الشعر الرومنتيكى الذى كان فى هذا العهد رائد الفنون . فلم يتحرر بعد من قواعد الشعر الكلاسيكى من حيث الشكل وان كان أطلق العنان للعاطفة والخيال ، كما أنه لم يسرف فى الالهام والرمزية • ويمكن أن نقرر ان منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت التغييرات الشكلية والاسلوبية الفنية تترجح بين الكلاسيكية والباروكية داخل الاطار الفكرى الموروث من عهد النهضة ، وان الفن الذى كان رائد الموكب فى العصور الوسطى هو العمارة ، ثم تلاه النحت فى عصر النهضة ، ثم المسرح فى الحركة الباروكية واخيرا الشعر فى العهد الرومنتيكى

وفى النصف الثانى من القرن العشرين أخذت الاشكال التقليدية فى الفكر والفن تتفكك تدريجا لتحل محلها تصورات جديدة واتجاهات ثورية ، ووصلت هذه الحركة الانقلابية الى ذروتها فى القرن العشرين فى الفترة بين الحرب العالمية الاولى والثانية . ومما هو جدير بالملاحظة ان هذا الانقلاب لم يكن محصورا فى مجالات الفن والشعر والنظريات الفلسفية والسياسية بل حدث أيضا فى نطاق العلم . وكان الهجوم الاول موجها لا ضد علم الطبيعة التقليدى القائم على نظرية نيوتن فى الميكانيكا ، بل ضد

العلوم الرياضية ، ففي النصف الاول من القرن التاسع عشر بدأ بعض علماء الرياضة يدركون الاسس التقليدية الراسخة لهندسة أوكليدس ويشكون في الصفة الضرورية للمسلمات ، بل للبديهيات التي كانت تعد الثمرة اليقينية لمبادىء العقل البشرى ونشاطه . فحدث في مجال تصورنا لطبيعة العقل ما اعترى تصورنا لطبيعة العالم في عصر النهضة عندما حارب جاليليو تصور القدماء للعالم بأنه محدود متناه وقال بفكرة اللا متناهي . فبعد توسيع آفاق العالم امتدت بدورها آفاق العقل واقترب معنى الابتكار أو الابداع من دلالته المطلقة . ثم جاء دورميكانيكا نيوتن لتتلقى الضربات التي وجهتها اليها نظرية النسبية، تلك النظرية التي مهدت السبيل لتفجير الذرة مما أتاح لانسان القرن العشرين غزو الفضاء محققا بذلك في عالم الواقع ما تنبأ به جاليليو في عالم النظر والتأمل

ولهذا التطور السريع الشامل لتصورنا للعالم وللعقل البشرى اثره البليغ في عالم الفنون الجميلة وفي نظريات الابداع الفنى والنقد الفنى . ولابد من ان نشير هنا الى نظرية فرويد في التحليل النفسي ، فكما أن الانقلاب في التفكير العلمى أدى الى توسيع آفاق العقل نحو الخارج فان التحليل النفسي أدى الى تعميق العقل ومد حدوده الى عالم اللاشعور ، وهذا التفجير في جوهر العقل يناظره تفجير جوهر الذرة فانتقلت البحوث العلمية من الشعور الى اللاشعورية في ميدان علم النفس كما أن الحتمية في علم الطبيعة انتقلت من مجال الجزيئات - لا الجزئيات - الى مجال ما تحت الذرة فزادت صفتها الاجتماعية مما دفع بعض المفكرين الى منح الجسيمات التي تتحرك في مجال الذرة قسطا من الحرية !

وكما أن الحركة العلمية في العلوم الطبيعية وفي علم

النفس كادت تصل الى اقصى حدود التحليل نجد ان الفنانين بدورهم ورجال الفلسفة والادب يقومون بتحليل جميع امكانيات انسان هذا العصر وبتمجيد الحرية المطلقة والفردية المستقلة ، وهذا يفسر لنا هذا العدد الضخم من المدارس الادبية والفنية التى تكاد تشبه فى تكاثرها تكاثر الاعشاب البرية كما أنه يساعدنا على فهم تطور معايير النقد الفنى ، من معيار التشابه الى المعايير الايديولوجية والتاريخية حتى أصبح المعيار السائداليوم هو مجرد قدرة الفنان والاديب على الابداع وعلى اثبات شخصيته وفرديته خلال هذه القدرة الابداعية

والآن الا يحق لنا بعد هذه المرحلة التحليلية ان نتوقع فى المستقبل القريب حركة تركيبية تاليفية تحول النشاط الفنى من الاتجاه الفردى الى الاتجاه الجماعى ؟ يبدو أن هذا التحول هو الطابع الذى سيسود الانتاج الفنى فى السنوات المقبلة وذلك للاسباب الآتية :

ان عصرنا يتميز من الوجهة الاجتماعية والسياسية بارتفاع مستوى الحياة وبتحقيق قدر كبير من المساواة بين الطبقات الاجتماعية وبتركيز سلطات التوجيه فى الدولة والمنظمات الكبرى مما سيؤدى الى زيادة التوحيد والتطابق الاجتماعى . وسيحد هذا التطور من الاتجاه الذاتى والفردى فى الفن ويمهد السبيل للنشاط الفنى الجماعى حيث سيحقق الفنان ازدهار شخصيته بفضل الاسهام فى عمل فنى مشترك

وهناك تغيير خطير فى سبيله الى أن يؤثر فى الاساليب الفنية وهو تفكك الابنية والانظمة التقليدية التى كانت سائدة فى الفنون التشكيلية وقد اخذ هذا التغيير يتضح فى تصورنا الجديد للابعاد المكانية وللفضاء . فالمحاولات التي تبذل الان لغزو الفضاء ستؤدي حتما الى أن

يحل الفضاء الكونى محل الفضاء الارضى ، وستصبح الاساليب الفنية الراهنة عاجزة عن أن تعبر عن هذا الفضاء الكونى الذى يتميز بنوع من الحركة اللامتناهية او بنوع من اللانهاية الديناميكية المتحركة . فلا بد ان يتطور فن العمارة بحيث لا تطغى واجهة البناء على مايوجد خلفها من أجزاء ، بل يجب أن تشترك الواجهة مع الاجزاء الداخلية فى حركة واحدة ، بنائية ووظيفية فى آن واحد ، وفى جو من الشفافية يسمح بتتبع أشكال هذه الحركة ومنحنياتها

وكذلك لابد من ان يتطور التصوير من رؤيته القديمة التى كانت قائمة على النظر بالعين الواحدةالى رؤيةجديدة تتعدد فيها المنظورات وسيؤدى هذا التطور الى الاقلال من شأن اللوحات الصغيرة التى سوف لاتتفق مع مقتضيات نظم الحياة الجماعية وما يقتضيه التصور الجديد للابعاد المكانية الكونية ، وسيدخل تصوير مثل هذه اللوحات الصغيرة فى نطاق الفنون الصغرى ، وسيحتل التصوير الحائطى مكانة عظمى وبهذا التحول يعود فن التصوير الى وظيفته الاولى فى خدمة المعمار وفى الوقت نفسه سنجد بعض الفنون التى كانت تنعت بالصغرى كالزجاج الملون المعشق ، والتصوير بقطع الفسيفساء (موزيكو) ، والخزف (سيراميك) تنتعش من جديد لتندمج بدورها فى فن العمار . وهكذا يبعث فن المعمار من جديد ليصبح رائد الفنون كما كان الحال فى القرون الوسطى حيث كانت النزعة الجماعية هى النزعة السائدة فى الانتاج الفنى .. ولهذا فان العامل الاساسى فى هذا التطور الذى سيؤدى الى التأليف بين الفنون التشكيلية هو انتقال المجتمع من وضعه الراهن المطبوع بطابع الفردية الى وضع المجتمع الاشتراكى التعاونى



مدخل إلى الفن الحديث

ان الجدل حول قيمة الاعمال الفنية ينبعث عصرا بعد عصر كلما ظهرت حركة جديدة تحاول الخروج على القيود والقواعد التى يفرضها الاسلوب الفنى السائد . ففى أواخر القرن السابع عشر مثلا قامت المعركة بين انصار بوسان وانصار روبنسن ، تعتبر الفئة الاولى ان الخطوط والاشكال المغلقة المرسومة بدقة والتكوين المتزن الهادىء هى العناصر التى تعين قيمة اللوحة الفنية ، اما الفئة الثانية فترى ان اللون والاشكال المفتوحة والتكوين المتحرك هى التى تضفى الى اللوحة روعتها وشاعريتها . واستمرت المعركة فى القرن الثامن عشر وفاز انصار اللون على انصار الرسم وقامت الحركة الرومانتيكية فى التصوير فى النصف الاول من القرن التاسع عشر بعد أن هزمت مدرسة دافيد التى كانت تنادى بالعودة الى الكلاسيكية .

غير أن النزعة الكلاسيكية أو بعبارة أخرى أن النزعة الاكاديمية ظلت قائمة على هامش الحركات الجديدة التى شاهدها القرن التاسع عشر ، تشن من حين الى اخر حملتها العدائية ضد كل محاولة للتجديد والابتكار . ولم يفلت فنان واحد من كبار فنانى هذا القرن – امثال ديلاكروا

وكورو ومانيه ومونيه وجوجان وفان جوخ وسيرا وسيزان ـ من نقد الاكاديميين اللاذع ومن تهكمهم الساخر ..

فعندما عرض ديلاكروا لوحته المشهورة « مذبحة خيو » قيل عنها انها مذبحة التصوير وان ديلاكروا لايرسم بالفرشاة بل بمكنسة سكرى ، وقد اتهم جوجان وسيزان انهما يجهلان أصول الرسم والتصوير . وبينما كان نجم هؤلاء المجددين يزداد تألقا فى سماء الفن طوى النسيان أسماء المصورين الاكاديميين ـ أليس من المخجل ان يعترض أعضاء أكاديمية التصوير على قبول الحكومة الفرنسية الهبة التى قدمها أحد أنصار الانطباعيين وكانت تحوى اكثر من خمسين لوحة لمونية وسزلى وبيسارو ورينوار ، وان يدعموا اعتراضهم بأكثر العبارات بذاءة وقحة ، كالعبارات التى نسمعها اليوم عندما يتحدث بعضهم عن التكعيبية والسريالية والتجريدية . وكان يغدو الامر هينا لو اكتفى المستنكرون بالقول بعجزهم عن فهم هذه الحركات الجديدة ، بل على العكس من ذلك فانهم يطلقون أحكامهم الساخرة بكل يقين واطمئنان ويطالبون بطرد أصحاب هذه الحركات من المدينة ونبذهم من المجتمع ، تماما كما هاجم الاكاديميون أعمال المدرسة الانطباعية فى أواخر القرن التاسع عشر

ان التاريخ يعيد نفسه : كل مجدد يجب أن يضطهد وجريمته الكبرى هى أنه يريد ان يثور على التقاليد البالية وان يستبدل بالمألوف شيئا غريبا يعيد الى حواسنا نضارتها والى قلوبنا هذه النبضات القوية الساحرة التى توقظنا من السبات العميق الذى يلجأ اليه عندما يعترينا التعب والخمول . فالطريق الممهد المقيد الذى ينحدر نحو أسفل اسهل مسلكا من الطريق الوعر الذى يدعونا الى

تسلق الجبل حيث تشرق عند قمته اضواء الحيـــــاة والابتكار ..

ولكن لابد ان تسير القافلة وان تسير بسرعة لان السرعة هى طابع القرن العشرين ، ولا بد ان تتسع الافاق الضيقة التى كنا نعيش حدودها وان ننظر الى الوجود لا بالابعاد الارضية المألوفة ، بل بأبعاد الفضـــاء الكونى لان عصرنا هو عصر غزو الفضاء ، ولابد من ان نحطم القشور التى خنقت النبضات الوجدانية العميقة لان عصرنا هو عصر غزو اللاشعور ، ولابد من ان نتجاوب مع القلق الذى تفخر موجاته من حين الى آخر على قلوبنا اللاهفة وعقولنا الحاضرة، لان عصرنا هو عصر التساؤل الاليم عن مصير الانسانية ، عن مصير كل واحد منا

وليس الفن الحديث ، مع ما يحـــويه من ثورة ومن مفارقات ، سوى ترديد رمزى بلغته الخاصة لهذه السمات التى تطبع العصر الذى نحيا فيه ، هو تعبير عن هـــذه المتناقضات التى تتنازع نفوسنا ، الامل واليأس ، الابتهاج والحزن ، والرضا والاحبـــاط ، الحب والكراهيـــــة ، والاستسلام والمقاومة . أن من يرفض الفن الحديث ، جملة وتفصيلا ، ويواجهه مقطب الجبين ، عابس الوجه وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم ، فانه اقرب الى الموتى منه الى الاحيـــــاء .. لا ينتمى الى عصره ما دام لا يتجاوب مع التيارات التى تطبع عصره . فقد تخلف عن القافلة وجلس على جانب الطريق يتحسر على الماضى ، فحرم نفسه من متعة فهم الحاضر ، بل حرم نفسه من متعة الماضى نفسه لان دلالة الماضى ترى وتجدد فى ضوء الحاضر ..

فاذا أردنا أن نفهم الفن الحديث فلا بد من أن نضـــعه

اولا فى اطاره التاريخى والثقافى ، وان ننظر اليه بمنظار القرن العشرين وان نبحث عن الوسائل التى ستساعدنا على ان نألف الاساليب التشكيلية الجديدة وان نتذوقها ..

يجب ان نذكر بادىء ذى بدء أن الفن الحديث ليس له وجه واحد ، بل عدة وجوه . وتتعدد هذه الوجوه فى اكثر من مجال : مجال رؤية الفنان ، أى نوع التفاعل الذى يحدث بينه وبين العالم المرئى ، ثم مجال الوسائل والطرق المستخدمة فى الصنعة الفنية ، واخيرا مجال الدلالة التى يخلعها الفنان على عمله ، او الهدف الذى يرمى اليه ..

وستؤدى هذه البحوث في المجالات المتعددة للنشاط الفنى الى الكشف عن معيار الحكم الملائم لكل حركة فنية جديدة . وان التطور الذى اصاب الانتاج الفنى خلال العصور المتعاقبة لابد وان يصيب بدوره النقد الفنى . فمن المحال ان يقف النقد الفنى جامدا عند مرحلة من مراحل التطور ويتمسك بمعيار واحد يدعى انه المعيار الوحيد بينما تتغير الاوضاع الاجتماعية والاجواء الفكرية والثقافية وتزداد الاتصالات بين الحضارات المختلفة . فمن واجب النقد الفنى ان يتابع باخلاص وبقدر كبير من التعاطف والتجاوب الوجدانى الحركات الفنية الجديدة وان ينظر اليها كجزء لا يتجزأ من تطور الثقافة ومن تطور نظرة الانسان الى العالم والى نفسه ، وان يعتبرها مرحلة من مراحل تطور الفن نفسه

فهناك اذن عدة طرق تؤدى الى فهم العمل الفنى : اولا تاريخ الفن الذى يتتبع النشاط الفنى من عصر الى عصر وفي الحضارات المختلفة فيوضح التأثيرات التى

يتلقاها الفن من النظم الاجتماعية والدينية والسياسية ويحاول الكشف عن القوانين التى قد تفسر تطور الاساليب الفنية . ثانيا : سيكولوجية الفن وهى الدراسة التى تتناول بالتحليل عملية الابداع الفنى وصلتها بشخصية الفنان ، كما أنها تحلل الخبرة الجمالية والمتعة التى يحدثها العمل الفنى لدى المتذوق . وفى ضوء بعض الحقائق التى اكتشفها التحليل النفسى ودراسة اللاشعور تحاول سيكولوجية الفن الربط بين الفنان والمتذوق من حيث قدرتهما على الابداع وبالتالى على التجاوب العاطفى ثالثا : النقد الفنى الذى يبحث عن الاسس التى يقوم عليها الحكم الاستطيقى أو الجمالى ، فيستعرض مختلف معايير الحكم من واقعية ومثالية وفكرية وفلسفية وسيكولوجية ..

ولكن كل طريقة من هذه الطرق الثلاث لا تكفى وحدها لتفسير العمل الفنى فلابد من الربط بينها جميعا ويجب ان يكون الرابط نوعيا أى خاصا بكل فن من الفنون . فلغة التصوير تختلف عن لغة النحت كما انها تختلف عن لغة الموسيقى . فالاساس الاول الذى يجب ان تقوم عليه الدراسات التاريخية والسيكولوجية والنقدية هو تعلم اللغة الخاصة بكل فن ، والالمام بعناصرها وبالقواعد التى يجب ان يخضع لها تركيب هذه العناصر وتنظيمها داخل وحدة العمل الفنى . فمن البديهى ان تذوق النصوص الادبية يقتضى الالمام بمفردات اللغة وبقواعد الصرف والنحو وبأصول البيان والبديع . وما يصدق على تذوق الادب يصدق أيضا على تذوق التصوير أو تذوق الموسيقى . غير أنه مما يثير الدهشة أن المرء قد يعترف بعجزه عن فهم قطعة من الموسيقى البحتة دون أن يصدر حكما عن قيمة

هذه القطعة ، ولكنه يدعي دائما لنفسه الحق باصدار حكمه على اللوحات الفنية ، فيستحسن اللوحات التى تمثل موضوعات مألوفة والتى يمكن ترجمة مضمونها الى لغة الكلام والتحدث عنها كأنها سيناريو لانشاء قصة او اخراج مسرحية ، فى حين ان اللوحات غير المفهومة مباشرة والتى لا تمثل أشياء مألوفة يستهجنها ويخرجها من دائرة الاعمال الفنية . ومعظم لوحات الفن الحديث من هذه الفئة الثانية التى لا تمثل موضوعات مألوفة والتى يقال عنها انها لوحات تجريدية

ولكن يجب ان نقرر منذ الان ان التفرقة بين التصوير التمثيلى والتصوير التجريدى قائمة على مغالطة ضخمة لان مبدأ التفرقة لا ينتمي بحال من الاحوال الى لغة التصوير وهو بعيد كل البعد عن الاتجاه الاستطيقى السليم . فالعمل الذى يبدعه المصور ليس صورة من هذا الشخص او ذاك ، وليس مجموعة من اشخاص يمثلون ادوارا فى قصة أو فى مسرحية ، ليس اشياء ذات اسماء كشجرة أو تفاحة أو زجاجة أو كمنجة ، بل العمل الذى يبدعه المصور هو قبل كل شيء لوحة ذات بعدين تحمل رسوما وألوانا وأضواء وظلالا، منظمة بشكل معين منشأنه ان يثير انفعالا او متعة من نوع خاص . فمن بيناللوحات التمثيلية التى يسهل قراءتها لاول وهلة لوحات جديدة من الناحية الفنية واخرى رديئة ، كما ان من بين اللوحات التجريدية لوحات جيدة من الناحية الفنية نفسها ، واخرى رديئة ، فليست قيمة اللوحة فى الاشياء التى تمثلها ، كما انها ــ اذا كانت تجريدية فى الدوائر والمربعات والاشكال الهندسية أو البقع الملونة التى تتكون منها فان قيمة اللوحة تكمن فى براعة الفنان فى استخدام

العناصر التشكيلية وفى طريقة تنظيمها وثبــــــاتها وانشائها ..

ان الدراسات التاريخية والسيكولوجية والنقدية تمهد السبيل الى فهم اللوحة الفنية ، ولكنها تصبح عديمــة الفائدة اذا لم تتوجها دراسة تحليلية للعمل الفنى ذاته — وبالاعتماد على لغة الفن ذاتها . أن معرفتنا بالاساطير أو بالحوادث التاريخية التى يمثلها المصدر لا تفيدنا شيئا البتة لفهم اللوحة من النــاحية الفنية البحتــة . وان الموضوع الذى تمثله اللوحة هو المضــــمون العرضى لا المضمون الجوهرى — اما المضمون الجوهرى فهــو متشابك تشابكا عضويا مع القيم التشكيلية التى تكــون فى مجموعها اللوحة الفنية . ويجب النظر فى آن واحـد الى الشكل والمضمون أو الانتقال مرات عديدة من الشكل الى المضمون الى الشكل حتى تتضح الوحدة التى تضمهما معــا ..

وسواء تأملنا فى لوحة تمثيلية او فى لوحة تجريدية فان خطوات التحليل المؤدية الى الخبرة الاســـتطيقية والى التذوق تنحصر فيما يلى : اولا : تحليل العـــوامل التشكيلية الاتية :

الفضاء التشكيلى ، الخط ، اللون ، الضوء ، التفاعـل بين اللون والضوء . ثانيا : صياغة العوامل التشكيلية من وجهات النظر الاتية : التكوين ، التوتر ، البناء ، النسب ، الحركة ، الايقاع ، الانسجام ، وأخيرا العلاقة بين المضمون والشكل ..

تلك هى لغة فن التصوير وكأى لغة يجب أن تتعــلم أصولها لكى تتمكن من فهمها .. وربما تكون لغة التصوير أصعب من غيرها لان الاداة التى نســتخدمها هى العـين

والعين من الحواس التى نعتمد عليها أكثر من غيرها لكى نتكيف مع العالم الخارجى ، أى لكى لكى نميز فى أدراكنا بين النافع والضار للاستيلاء على الاول وتجنب الثانى ، ولكن الاتجاه الاستطيقى بعيد كل البعد عن هذا الاتجاه النفعى • ولهذا السبب تكون تربيةالعين من الناحية الفنية عملية شاقة لانها تتعارض مع نزعة طبيعية متأصلة فى الانسان هى النزعة النفعية ، نزعة الاستيلاء أو التجنب ، فى حين أن موقف المتذوق للفن موقف المشاهد

وبعد تربية العين من الناحية الحسية تأتى تربية العقل أو تربية الحدس الاستطيقى بحيث يتعلم المشاهد كيف يتحرر من صداع المضمون العرضى لكى يتفتح وجدانه وفؤادة لتقبل المضمون الجوهرى وذلك فى حركة واحدة تضم الاحساس الشامل بالشكل والمضمون معا . .

تلك هى الاعتبارات الرئيسية التى يجب الاسترشاد بها فى تناول أهم الاتجاهات المعاصرة فى الفنون التشكيلية وفى ضوء هذه الاعتبارات ننتقل الى الحديث عن نشأة الفن الحديث لدى الانطباعيين وبول سيزان

لم يشهد عصر من العصور ، مثل القرن العشرين ، هذا التنوع الكبير فى اتجاهات التصوير ، بل هذا التضارب العنيف بين المدارس المختلفة التى نشأت بسرعة مذهلة منذ بداية هذا القرن والتى لا تزال تنمو وتتطور بدرجة كبيرة من النشاط والحيوية • وتاريخ الفن المعاصر يبدو للباحث كأنه سلسلة من الانفجارات تعاقبت فى بلاد مختلفة فى فرنسا والمانيا وهولندا وايطاليا . وقد تأثرت هذه الحركات الفنية المستحدثة بفنون الشعوب البدائية، وبالفن الزنجى بصفة خاصة ، كما انها تفاعلت مع الفن

اليابانى والفن الهنـــدى والفن الفارسي والفن المصرى القديم ..

والفن الحديث مطبوع بطابع خاص هـــو الثورة الجامحة على التقاليد المتحجرة المتمثلة فى الفن الاكاديمى وأصبح الفنان لا يبالى برضا الجمهور أو بعدم رضاه بـل اطلق العنان لمخيلته المبدعة ، مصرا على اثبات شخصيته وعلى فرض رؤيته الخاصة والتعبير عن واقعه بأسلوبه الشخصى المبتكر . ويمكن القول ان شخصية الفنان حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تتوارى خلف القواعد التى تفرضها الصنعة ، ثم قفزت هذه الشخصية الى المقام الاول ــ فاقتحمت حدود اللوحة واصـــبح الاسلوب الرسمى فى التعبير هو العامل الاساسى فى تقييم اللوحة وتقديرها . ويقابل هذا الانقلاب فى الوضـــع ما حدث فى الدراسات السيكولوجية عندما أبرز التحليل النفسى الدور الهام الذى تقوم به العوامل اللاشعورية فى توجيه سلوك الانسان وتفكيره ، فالحياة الشعورية ليست الا جانبا سطحيا من الحياة النفسية وهذا الجانب لايعبر فى العادة الا عن المألوف والمتواتر ، أى على ما تفرضـــه التقاليد الاجتماعية السائدة ، فى حين ان العمـل الفنى الاصيل يجب ان يكون قبل كل شىء مطبوعا بطـــابع الفردية والتعبير الشخصى

وبالاضافة الى هذه السمة الجديدة ، سمة انطلاق اللاشعور والتيارات الوجدانية الجامحة سمة اخرى تكاد تتعارض مع السمة الاولى ، وهى الدور الهام الذى تقـوم به العوامل الفكرية حتى يمكن القول بأن الفن الحديث على الرغم مما يمتاز به من التلقائية والانطلاقيـــة ، فن فكرى كأن من بين أهداف الفن معرفة الوجود لا مجـــرد

التمتع بما يحويه من قيم جمالية

وصعوبة فهم الفن الحديث ترجع الى هذه العوامل التى ذكرنا ، فما دام هناك عنصر عقلى فى انتاج المصور بالاضافة الى العناصر الحسية فلابد من بذل مجهود اكبر لاستيعاب جميع النواحى العقلية والحسية الممثلـــة فى اللوحة الفنية

فالجدل القائم بين العقلى والحسى فى اللوحة العصرية ليس سوى بعث جديد لمشكلة قديمة هى القيمـــــــة النسبية لكل من الرسم والتصوير ، أى الخطوط من جهة والالوان من جهة أخرى ، والرسم بالخطوط يمثل الجانب العقلى فى حين ان التصوير بالالوان يمثل الجانب الحسى. وهنا يجب ان نتوقف قليلا لتذليل بعض الصـــعوبات الناشئة من مفردات اللغة التى نستخدمها للتحـــدث عن فن لا يستخدم فى تعبيراته لغة الكلام والالفاظ . اننـــا نستخدم لفظ «تصوير لترجمة Paintiny بالانجليزية و Peinture,

بالفرنسية . بينما يتضمن اللفظ الاجنبى معنى اللـــون فان اللفظ العربى لا يوحى به اصلا ، بل يكاد يكون مصدرا على الرسم وعلى رسم، صورة ، والصورة هى الشـــكل لشىء موجود فى الطبيعة ، جماد أو نبات أو حيوان ، واذا قلنا أن التصوير يستوحى الطبيعة فتكون مهمة المصور رسم شكل الشىء وتحديد معالمه بالخطوط ثم ملء الفراغ المحدد بالالوان . ويمكن الاعتراض على هذا الرأى بالقول بأن الخطوط والمسطحات ليست موجودة فى الطبيعـــة ، بل ما هو موجود فيها هو الاحجام والكتل .. وعلى ذلك يكون استنباط الخط او السطح نتيجة عملية تجـريد عقلى ، فى حين أن العين تتأثر مبـــاشرة بالالوان . وعلى ذلك تكون عملية التصوير مقصـــورة على وضع بقع من

الالوان توحى بالشىء الخارجى . ولكن كيف يمكن الايحاء بالاحجام والكتل على اللوحة وهى سطح ذو بعدين فقط ، بشرط الا يكون هذا الايحاء ضربا من الخداع والا انعدم الفن . تلك هى المشكلة الكبرى التى يحاول كل فنان أصيل حلها ، وهذه المشكلة تنبعث باستمرار . وليست النزعات المختلفة فى فن التصوير سوى مجموعة هذه المحاولات لحل هذه المشكلة الاساسية

ان العقبة الكبرى التى تعترض دائما فن التصوير هى التوفيق بين سطح اللوحة والبعد الثالث ، وذلك بشرط الا يتحول التصوير الى مجرد محاكاة للنحت . ومعنى ذلك أن الفضاء التشكيلى ، أى الفضاء كما يمثله الفنان يختلف عن الفضاء الملموس الذى نعيش فيه . ثم ان لون الاشياء ليس ثابتا ، بل يتغير باستمرار . كل بقعة لونية تعكس الاشعاعات الصادرة عن البقع اللونية المجاورة لها . فاذا سلمنا انه من واجب المصور ان يكون مخلصا للطبيعة فعليه ان يحقق معجزة كبرى وهى أن يثبت ماهو فى جوهره متغير ، أو على أقل تقدير أن يوحى بهذا التغير المستمر بطريقة فنية ما . واخيرا هناك مشكلة اخرى خاصة بالظل . هل احتفظ بالظل لكى أوحى بالبعد الثالث أو استبعده من اللوحة وعندئذ ابتعد عن الطبيعة . واذا احتفظت بالظل فهل يجب أن يكون الظل قاتما يميل الى السواد ، وكيف يكون ذلك والاسود لا وجود له فى عالم المرئيات ؟

تلك هى بعض المشكلات الكبرى التى واجهت الفنانين فى أواخر القرن التاسع عشر .. مشكلة الرسم واللون ، مشكلة البعد الثالث ، مشكلة الظل ، وهذه المشكلات تكون الجذور الاولية التى خرجت منها حركات التصوير المعاصر .

والمدرسة الاولى التى حاولت حل هذه المشكلات تكونت فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر وهى المدرسة الانطباعية بزعامة مونيه ، وسيزلى ، وبياور .. وليسر ، أصحاب هذه المدرسة هم الذين اختاروا هذه التسمية بل أطلقت عليهم ازدراء من أحد نقاد الفن بمناسبة لوحة لمونيه اسمها : « شروق الشمس : انطباع »

ويمكن تلخيص موقف الانطباعيين فيما يلى :

١ ـ يجب على الفنان ان يخرج الى الطبيعة وأن يصور لوحته فى الضوء الطبيعى لا فى ضوء الاستوديو المفتعل

٢ ـ يجب ابعاد الالوان القاتمة

٣ ـ هدف الفنان ان يصور او أن يمثل على لوحته الاثار الملونة التى يحدثها ضوء الشمس فى الجو الخارجى وذلك بواسطة اللمسة المجزأة ـ فالعين لا تدرك الاشكال بل الاهتزازات الملونة ، ويمكن تمثيل هذا الاحساس بوضع لمسات من الالوان النقية جنبا الى جنب بحيث يتم المزج بينها فى شبكية العين . فاللمسة مستقلة عن شكل الشىء ، وعندئذ يختفى ما يعرف باللون الموضعى الثابت..

والواقع أن الهدف الرئيسى للانطباعيين هو التقاط اللحظة الفورية ، أما اهتزاز الضوء أو سرعة الحركة فالعالم الخارجى ليس سوى سلسلة من الانطباعات أى من ظواهر دائمة التغير ولا وجود لها الا لمن يدركها . فليس هناك شىء فى ذاته ، بل تتعدد الاشياء والموضوعات بتعدد الاضاءات والتجاورات ، وعلى ذلك تنعدم الاشكال والمسطحات والاحجام وكل مايتبقى ليس سوى اهتزازات ضوئية دائمة التغير . فالنزعة الانطباعية التى كانت ترمى الى التقاط الواقع المرئى فى الصورة الفورية وذلك بتحليل

الضوء أدت فى نهاية الامر الى تفكيك الواقع وزواله

غير ان للحركة الانطباعية اثرا بليغا فىتغيير نظرةالجمهور الى موضوع اللوحة . فكان الفن الاكاديمى التقليدى يرى أن هناك موضوعات أرقى وأروع من غيرها . فاللوحات التى تمثل القصص الاسطورية والحوادث التاريخية تأتى فى المقدمة ، ثم تليها صور الاشخاص ثم المناظر التى تمثل حياة الاسرة وعاداتها ثم المناظر الطبيعية بشرط أن تحوى شيئا من العمارة وان تمثل بعض الاشخاص وأخيرا مايعرف بالطبيعة الصامتة . فجاء الانطباعيون وقلبوا هذهالاوضاع فليس هناك موضوع نبيل وموضوع حقير ، ان كل شيء من شأنه ان يلهم الفنان لان قيمة اللوحة ليست فيما تمثله او فيما توحى به من معان وتأملات بل فى صفاتها الجمالية طبقا لاصول فن التصوير . فاللوحة ليست وسيلة لغاية غير فنية بل غايتها فى فنيتها ، فى دلالتها الجمالية . ان الغرض الذى يرمى اليه الفنان هو اتقان لغة التصوير بغض النظر عن قيمة المضمون من النواحى التاريخية او الاجتماعية أو الفلسفية . ومن اليسير ان نلمس هذا التغيير الجوهرى فيما يختص بقيمة الموضوع فى انتاج الفن المعاصر حتى ان الموضوع تلاشى تماما من اللوحات التجريدية . الحركة الانطباعية تضعف حوالى عام ۱۸۸۰ وقد ظهرت حركات جديدة مناهضة لها تطالب باعادة التماسك والاتساق والبناء الى اللوحة فلابد من بعث الاشكال من جديد ورد الصلابة الى الاشياء بعد أن تفكك الواقع وانحل فى لوحات الانطباعيين ومن أكبر الفنانين الذين قاموا باعادة البناء فان جوخ وجوجان وبصفة خاصة سيزان . هؤلاء الثلاثة تأثروا بالانطباعية فى بادىء الامر ثم انفصلوا عنها ووضع كل منهم البذور الاولى لثلاثة

اتجاهات ستظهر وتقوى فى القرن العشرين : أدى فن فان جوخ الى ابراز الشخصية الوجدانية المنبعثة من الالوان والى اعطاء المقام الاول الى التعبير العنيف عن انفعالات الفنان مما مهد السبيل الى حركة الوحشيين من جهة والى حركة التعبيريين من جهة أخرى . ولقد ثار جوجان على الرؤية الواقعية كما كانت سائدة فى أوروبا وأشاع فى لوحاته جوا من الرمزية والشاعرية التى استلهمها من البلاد الاستوائية البدائية التى أقام فيها فى آخر حياته

أما سيزان فهو الملقب بأبى الفن الحديث ،والفن التكعيبى بصفة خاصة . والواقع ان سيزان اكتشف بمجهوده الشخصى المتواصل لغة التصوير الاصلية وحقق التعاون الحى بين الرسم واللون وأبرز الخصائص التى تميز الفضاء التشكيلى عن الفضاء الملموس الذى نعيش فيه ، فضلا عن انه أعاد الى اللوحة تماسكها وبناءها المتين . فلم يكن يعنيه - كما كان الحال مع الانطباعيين .. تحليل الضوء بل التقاط النغمات اللونية والتعبير عن هذه النغمات بدقة الباحث والمحلل . فهو يرسم باللون ، أى أن الحوار الذى يقوم بين النغمات اللونية المتجاورة ومن انعكاسها بعضها على بعض هو الذى يؤدى الى بناء الشكل . فعندما تصل النغمات اللونية الى أقصى درجة من الثراء والغزارة يكون الشكل أقرب الى الكمال ..

وقد اتهم سيزان بانه لا يتقن فن الرسم ، غير ان الذين يقولون ذلك يتجاهلون السنوات العديدة التى قضاها سيزان فى محاكاة كبار المصورين ، او بعض اللوحات التى رسمها طبقا لاسلوب اكبر مصور ورسام فى القرن التاسع عشر وهو أنجر ، ولكنه لم يرسم هذه اللوحات الا ليسخر

بانجر وبأسلوبه الاكاديمى ، ثم ان القول بأن سيزان لايتقن الرسم دليل على عدم فهم لغة التصوير الاصليــــة وعلى الخلط بين الفضاء التشكيلى والفضاء الملموس الذى نعيش فيه ، وهذا الخلط هو السبب الاساسى فى عدم فهـــم اللوحات التكعيبية التى سيرسمها براك وبيكاسو فى أوائل القرن العشرين

فبفضل براعة سيزان فى التعبير عن النغمات اللونية ، وفى تنظيم التجاور بين النغمات الحارة والنغمات الباردة قدم لنا تأويلا جديدا للاحجام وللضوء الذى يغمـرها ، ويختلف هذا الضوء عن الضوء الطبيعى كما تختلف اللوحة عن الطبيعة نفسها ، وفى هذا الاختلاف يكمن سر الفن فى التصوير

ان سيزان كان مصورا فحسب ، قليل الكلام عن فنه وكان يسخر من المصورين المتفائلين ، وان كانت له فلسفة فهى تتلخص فى حب الفنان للطبيعة وفى بعض العبـارات التى كان يفوه بها من حين الى اخر ليكشف عن الالم الذى كانت نفسه الشاعرية تعانيه لعجزه أحيانا عن أن يعبـر تعبيرا صادقا فى لوحاته عن احساساته ازاء الطبيعة

كان سيزان مصورا فحسب ، فلم يتناول الموضـوعات التاريخية او الادبية فاى منظر من مناظر الطبيعة أو أى شخص من أصدقائه او أى مجموعة من الثمار والازهار ، كانت كافية لاستلهامه ، مادامت تتيح له الفرصـــة لكى يتحدث بلغة التصوير ولكى يكشف عن اشكال جـــديدة وايقاعات تشكيلية مبتكرة



أوجين ديلاكروا.. والحركة الرومانتيكية

فى صباح ١٣ أغسطس ١٨٦٣ ، بينما كانت اجراس كنيسة سان سولبيس ترسل دقاتها الفضية مع أشعة الشروق الوردية ، كان الفنان ديلاكروا يلفظ أنفاسه الاخيرة ، لم يعد يقوى على الكلام بعد أن أوصى خادمته العجوز جينى ، بألا يقام تمثال على قبره ، بل يكتفى بزرع الازهار ذات الالوان الحارة الزاهية بحيث تصبح مقبرته لوحة أخيرة تردد أنشودة اللون التى كثيرا ما هزت نغماتها القوية نفسه الطموحة الى الحب والجمال

وعندما شعر الفنان وهو يحتضر أن سحابة مظلمة بدأت تغشى عينيه وأن ملامح وجه جينى أخذت تختلط وتتلاشى اغلق جفنيه وأطلق العنان مرة أخيرة لمخيلته الفياضة فانبعثت من جديد تلك الاشباح والأطياف التى كانت تطارده فى مطلع الشباب وتلح عليه بأن يمنحها الحياة بلمسات فرشاته السحرية . ما أجمل هذه الساعات التى كان يقضيها فى قراءة دانتى وشيكسبير وجوتيه وولتر سكوت وبيرون باحثا عن موضوع للوحاته بل باحثا عن صورة لنفسه المترجحة بين الطموح واليأس ، بين النشوة والحزن ٠٠ ها هما دانتيه وفرجيل فى الجحيم، استمع الى

حديث هاملت وهوراسيو فى المقبرة ، الا يؤلمك منظـــر أوفيليا وهى تنتحر لتتحد أخيرا بصورتها الطاهرة .. ألا تهز مشاعرك مشاهد البطولة فى حرب تحرير اليـــونان من طغيان الاتراك ، انها الحرية التى تقود الشعوب لتحطيم قيود الاستعباد

وهاهى النيران تندلع والدماء تسفك فى جو من الرعب والعنف والاضطراب : مذابح خيو ، موت سردنبال ، موقعة تايبورج . هل كانت نفسك لايهزها الا اللون الاحمر ، لون النيران والدماء ، ولكن انظر هاهى ارض المغرب وسماؤها الصافية ، ما أنبل الفارس العربى ممتطيا صهوة جواده الاصيل ! ولكن سرعان ماتتوق نفسك الى المشاهد الدامية، الى مطاردة السباع واقتناصها .. وشعر بموجة طاغيـــة من الحرارة تدب فى عروقه فتحركت انامله تخط بالقلم انطباعاته فى طنجة واشبيلية والجزائر

وأخذت صور الماضى تتتابع وتتلاحق ،وكلما كان المرض يزيد هذا الجسم نحولا كانت نفسه تزداد طموحا وتطلعا الى آفاق جديدة .. واخيرا بينما كانت أجراس كنيســـة سان سولبيس القريبة من مرسمه ترسل دقاتها الفضية مع أشعة الشروق الوردية توقف موكب الذكريات وتقدمت فى هالة من الضوء الساطع الصورة الكبيرة التى رسمهـــا على أحد جدران الكنيسة ، صورة الصراع بين يعقـــوب والملاك ، صراع الفنان مع حارس معبد الجمال بل مع من يمتلك سر الجمال ، هى فى الواقع صورة صراعه الطويل المرير مع الأشباح والاطياف التى ظلت تطارده حتى اللحظة الاخيرة والتى وهبها الحياة من لحمه ودمه ، من نبضـــات قلبه ووحى خياله ، وعندما فتح عينيه للمرة الاخيرة رأى صورته التى رسمها لنفسه ، الصورة التى وهبها لخادمته

العجوز (١) ، تبتسم وتقـول له انك كنت حقـا جديرا بمصارعة ملاك الجمال

هذا الفنان العبقرى كاد أن يحمل وحده راية الحركة الرومانتيكية فى التصوير ، وظل يدافع عن فنه طـوال أربعين عاما منذ أن عرض لوحته الاولى دانتيه وفرجيـل فى الجحيم سنة ١٨٢٢ وهو فى الرابعـة والعشرين حتى وفاته سنة ١٨٦٣ . انه قاوم بشجاعة الهجمات العنيفـة التى شنها عليه النقاد الرسميون والمصورون أتبـاع المدرسة الاكاديمية مدافعا باصرار واباء عن حرية الفنان فى التعبير عن رؤيته الخاصة وعن شخصيته الحميمة . وكان رده الوحيد على هجوم أعدائه مواصلة انتاجه الفنى بصدق وعزم واهبا حياته كلها لرسالته الفنية

ولم يقتصر نشاطه على التصوير بل تعداه الى الادب ؛ كان شغوفا بمطالعة روائع الفكر والادب والاستماع الى الموسيقى ، ودفعه ميله الى الانطـواء الى تدوين تأملاته وانطباعاته عن معاصريه ، وتعد مذكرات ديلاكروا اليومية من الروائع التى يعتز بها الادب الفرنسى . كان ديلاكروا من القلائل الذين جمعوا بين جمال فن التصوير وروعة الكتابة الادبية وعمق التفكير النقدى ، أى بين قوة الانطلاق فى التعبير واندفاع التلقائية الوثابة وبين القـدرة على ضبط هذا الانطلاق واخضاع هذه التلقائية لمنهج دقيق محكم . ولهـذا السبب فانه يتجاوز وحـده حدود الرومانتيكية ليلتقى مع كبار فنانى عصر النهضة والقرن السابع عشر أمثال ميكل انجلو وفيرونيز وروبنس

كان اذن ديلاكروا فنانا وأديبا فى آن واحـدا وكانت

---

(١) بعد وفاة ديلاكروا أهـدت جينى هذه الصـورة الى متحف اللوفر

ثقافته التاريخية والادبية واسعة عميقة ، غير انه لم يلجأ الى الماضي يحتمي فيه بعيدا عن أحداث عصره ، بل كان أيضا حريصـــا على أن يعيش في عصره وأن يستوحي الاحداث الاجتماعية والسياسية التي كانت تملأ بضجيجها النصف الاول من القرن التاســع عشر . فقــد استجاب للحركات الثورية التي كانت تهز فرنسا وبلاد اليونان .
وهذا يفسر لنا تنوع مصادر الهامه ، هذا فضـــلا عن الانطباعات التي جمعها أثناء اقامته في انجلترا عام ١٨٢٥ وخلال رحلته الى اسبانيا والمغرب والجزائر عام ١٨٣٢ حيث عاد بذخيرة من الرسوم استخدمها في تصوير عشرات من لوحاته الخالدة ، ابتداء من نساء الجزائر عام ١٨٣٤ حتى لوحاته عن صيد النمور والسباع عام ١٨٥٤ والخيول العربية عام ١٨٦٠ ..

ان فن ديلاكروا وان كان يعد نهاية عهـــد في تاريخ التصوير المنحدر من عصر النهضة فانه من جهة اخرى يمهد السبيل للمدارس التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . وقــد كان الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته مناسبة طيبة لمحـــاولة الربط بين الحركات الفنية التي تعاقبت في القرن التاسع عشر حتى عصرنا هذا . ولاستخلاص مضمون رســـالته الفنية والفكرية ، وقبل التحدث عن شخصية الفنـــان وخصائص فنه ، يجدر بنا أن نوضح معالم الحـــركة الرومانتيكية في الادب والفن وأن نشير الى ما تميزت به الحساسية في عهد ديلاكروا

خصائص الحركة الرومانتيكية

ان ثورة ١٧٨٩ في فرنسا لم تكن الا ثورة ســياسية

واجتماعية ولم تؤد الى تغيير عميق فى الادب والفن نعم انها أعلنت ان الفن لم يعد فى خدمة الامير بل فى خدمة جميع المواطنين ، غير ان المدرسة الكلاسيكية التى كان يتزعمها لويس دافيد لم تزد الا قوة ورسوخا وظلت مسيطرة وحدها على ميدان الفن

ان بذور الثورة على الكلاسيكية والتى وضعها روسو وأندريه شينييه ومدام دى ستال وشاتو بريان فىالادب ، وفنان اسبانيا الكبير جويا فى التصوير ، لم تنبت الا بعد سقوط امبراطورية نابليون . وهذه الثورة التى ترمى الى تحرير الفرد والفنان والشاعر تعرف بالحركة الرومانتيكية ومن الطريف ان نقرر أن رد الفعل الرومانتيكى فى التصوير سبق بحوالى عشر سنوات انفجار الرومانتيكية فى الادب

ان المقدمة التى كتبها فكتور هوجو لمسرحيته «كرومويل» نشرت عام ١٨٢٧ وفى عام ١٨٣٠ وقعت ما سمى فى تاريخ الادب بمعركة هرنانى ، فى حين ان المعركة بدأت تحتدم بين المدافعين عن كلاسيكية دافيد وأنصار الحركة الجديدة منذ أن عرض الفنان جيريكو فى صالون ١٨١٩ لوحته الشهيرة « عوامة الميدوزا »

وهنا يجب أن نطرح السؤال الاتى : هل مفهوم الرومانتيكية فى الادب هو هو فى التصوير ؟ وقبل الرد عن هذا السؤال يجدر بنا أن نبحث فى أصل كلمة رومانتيكية Romantisme

يقول لويس ريو Louis Rean ان كلمة Romanti وردت أولا فى الادب الانجليزى فى منتصف القرن الثامن عشر وانها كانت تطلق اولا على فن تنسيق الحدائق وان معناها : ما هو جدير بأن يصور ، بأن يوحى فرشاة مصور المناظر الطبيعية التى تتسم بالهدوء والوحشية

بحيث تسمح للنفس بأن تستسلم لاحلام اليقظة وأن تتمتع بما تثيره الذكريات من عواطف عميقة فياضة ، من أشجان وآمال ، ثم أطلق اللفظ بعد ذلك على الاثار الادبيـــة من شعر ومسرح

وإذا عدنا الى اشتقاق الكلمة فاننا نجـــد الاتى : ان Romantique و Romanesque لهما أصل واحد هو كلمة Romanus التى جاءت منها فى اللغة الفرنسيـــة القديمة كلمة Romans ومعناها أولا : لغة الشعب فى مقابل اللغة اللاتينية التى كانت لغـــة الفلسفة والعلم . ثانيا : كتابة شعرية باللغة العامية . ومن Romans جاءت Romance, Romancier, Romanesque

ومن جهة أخرى نجد فى لغة منشدى الشعر المتجولين كلمة Romant التى جاءت منها .
Romantique, Romantisme

يتبين لنا من دراسة اشتقاق اللفظ أن الحـــــركة الرومانتيكية أنشأها رجال من الشعب فى مقابل المتعلمين والعلماء واتباع الكلاسيكية . فالشعبى يطلق العنـــان لغرائزه وعواطفه محاولا تحطيم القيود التى يفرضهـــا العقل الجامد ..

وباستعـــراض التعريفات العـــديدة التى قيلت فى الرومانتيكية يتبين لنا أن هذه الحركة تضع فى المقام الاول الحساسيـــة والخيال والتعبيـــر الشخصى واثبات الذات وتمجيد الغريزة ، وانها تميل فى تعبيراتها الى المبـــالغة والتضخيم ..

ويقول ديلاكروا فى يومياته متحدثا عن نفسه :

« اذا كان المقصود من الرومانتيكية التعبيـــر الحر عن انطباعاتى الشخصية وابتعادى عن الانماط والنماذج التى يعاد نسخهـــا فى المـــدارس دون أدنى تغييـــر ونفورى من

المواصفات الاكاديمية يجب أن أعترف لا فقط انني رومانتيكي ، بل انني كنت رومانتيكيا منذ الخامسة عشرة »

ويمكن تلخيص مميزات الحركة الرومانتيكية في الادب والفن فيما يلي :

١ ـ روح الثورة على القيود والقواعد الكلاسيكية مثل قاعدة الوحدات الثلاث ، الترتيب التصاعدي للأنواع الادبية والفنية والتي كانت تعتبر عوائق في سبيل نمو الشخصية الحر وازدهارها

٢ ـ انتصار النزعة الفردية والمطالبة الحماسية بحقوق الفرد ، مع تقوية النزعات القومية التي هي بمثابة فردية جماعية ..

٣ ـ سيطرة الحساسية والعواطف على العقل . واذا كان العقل هو القاسم المشترك بين الجميع فان مايميز كل شخصية في صميمها وحميمها هو الجانب الوجداني اللاشعوري منه . أن الرومانتيكي تغمره باستمرار موجات من الحزن والحنين الى السعادة المفقودة ، أن حساسيته مريضة متقلبة تسكنها أشباح الموتى ويمزقها القلق والهيلة ، وغالبا ما يكون مآله الجنون والانتحار

٤ ـ ولكن ليس من الضروري أن تكون الحساسية الرومانتيكية دائما مريضة ، فقد أشاد الرومانتيكيون بجمال الطبيعة وسحرها خاصة تحت ضوء القمر ولأول مرة أصبح المنظر الطبيعي الذي يعكس انفعالات الفنان موضوعا لذاته ودون وجود أشخاص فيه ، وكذلك أشادوا بالليل الساحر الذي يهيىء الجو المناسب للتأملات والأحلام ، والليليات Nocturnes في الشعر والموسيقى والتصوير تتجاوب نغماتها واشعتها وظلالها في جو ساحر حالم . وكما ان الرومانتيكي يؤثر الليل على النهار فانه

يجد متعته فى ذكر الخريف والشتاء والتجول ليلا ونهارا بين الانقاض والاكواخ

ومن جهة أخرى وجدت حساسية الرومانتيكى غـذاء جديدا بفضل بعث الشعور الدينى بعد الموجة الالحادية فى القرن الثامن عشر • فقـد فتحت الكنائس التى أغلقتها الثورة وطلب من الفنانين رسم الصور الدينية ، غير ان عددا قليلا منها يعد من روائع الفن . وقد أسهم ديلاكروا فى اثراء التصوير الدينى مثل لوحته المؤثرة : عذراء الشفقة فى كنيسة سان دينى ، والصور الحائطية لهيكل الملائكة فى كنيسة سان سولبيس

٥ ــ واخيرا لجأ الرومانتيكيون الى مصـادر الهام جديدة فبينما كان الكلاسيكيون يطالبون بالعودة الى فنون العصور القديمة توجهت الانظار الى القرون الوسـطى والى العالم الاسلامى فى الشرق وشمال افريقيـا والى الصـين فى الشرق الاقصى . والمؤلفات الادبيـة التى استوحت الاستشراق عديدة مشهورة ، وجزء كبير من أعمال ديلاكروا استمدت موضوعاته من الشرق ، مناظره وعاداته وأحداثه التاريخية

اما مميزات الحركة الرومانتيكية فى التصوير بصفـة خاصة ، فانها تتلخص فيما يلى :

١ ــ الغاء الترتيب التصاعدى للوحات حسب موضوعها . فاللوحة التى تمثل حدثا أسطوريا لم تعد تعلو على لوحة تمثل منظرا طبيعيا أو طبيعة صامتة • أن العبـرة فى كيفية تعبير الفنان عن حسه وانفعاله ، وبذلك أصبح كل موضوع مهما كان متواضعا جديرا بالهام فرشاة المصور ، حتى القبح قد يصبح حسنا بفضل سحر الفـن • وليس من المحتم على الفنان أن يصور منـاظر الريف الرومانى ،

بل عليه أن يستوحى مناظر الريف فى بلاده
٢ ــ أحياء الكاريكاتور والاشكال المشوهة واستخدام الرسم كوسيلة من وسائل الهجو والنقد الاجتماعى . ان معيار الجمال المثالى لم يعد له أى وزن ، فالمصور غرضه الاول ابراز الطابع الذى يميز موضوعه ، سواء كان هذا الموضوع جميلا او قبيحا ، جادا أو هزليا . ألم يرسم جريكو Gericault فى مجموعته الشهيرة عن نزلاء مستشفيات الامراض العقلية ، ألم يرسم ديلاكروا صورة الشاعر الايطالى توركواتوتاسو وهو يعانى من هلوسات الجنون ؟ وفى عالم الكاريكاتور السياسى والاجتماعى لابد من ذكر الفنان دوميه Daumier
٣ ــ اما من ناحية صنعة التصوير بالزيت فلم تؤثر فيها الحركة الرومانتيكية . ان الالوان يتم مزجها على الباليت غير أن العجينة أصبحت اكثر سمكا من ذى قبل . ونرى ديكام Descamps يستخدم السكينة لهذا الغرض . غير ان ديلاكروا تحت تأثير المصور الانجليزى كونستبل Constable يمهد السبيل لفن الانطباعيين والتنقيطيين فيما يختص بتجزىء القيم اللونية ووضعها جنبا الى جنب على اللوحة دون مزجها على الباليت بحيث يتم المزج والاحساس بالالوان المركبة فى شبكية العين مباشرة وتتميز الحركة الرومانتيكية بتقديم اللون على الرسم أى بتقديم العنصر الحسى على العنصر العقلى . والأخيرا يجب أن نذكر انتشار التصوير بالالوان المائية ــ اكواريل وجواش ــ وذلك تحت تأثير الفنانين الانجليز ، وكذلك التقدم الكبير الذى حققته فنون الحفر .. الحفر البارز على الخشب والحفر على النحاس ، واخيرا الليتوجرافيا التى ظهرت فى بافاريا عام ١٧٩٨ . وقد استفاد فن الكاريكاتور

وفن تصوير الكتب من الليتوجرافيا ، كما تشهد على ذلك أعمال دومييه والصور التى رسمها ديلاكروا لكتاب فاوست لجيتيه ..

تلك هى أهم خصائص الحركة الرومانتيكية فى الادب والتصوير ، وقد وصلت هذه الحركة الى ذروتها فى عام ١٨٣٠ ، وتزعم الحركة فى الادب فيكتور هوجو ، وفى الموسيقى برليوز ، وفى التصوير ديلاكروا ، ثم تلاشت فى عام ١٨٤٣ عند سقوط مسرحية هوجو «البورجراف» أما الحركة التى بدأها ديلاكروا فقد ظلت محتفظة بروحها القوية الجذابة حتى وفاته ، فى حين انحرفت لدى الاخرين وغرقت فى موجة من الحساسية المريضة .. ويكمن سر نجاح ديلاكروا فى شخصيته التى جمعت صفات الفنان والمفكر والاديب

شخصية ديلاكروا

من المحال ارجاع العبقرية الى منطوق واحد . ألم يكن ديلاكورا نفسه يقول لاستندال Stendhal

« اننا مزيج غريب من الاضداد لا يمكن تفسيره ، ان الشخص الواحد يحوى عشرة أشخاص ، وقد يحدث فى بعض الاحيان ان هؤلاء العشرة يظهرون جميعهم دفعة واحدة »

ان شخصية ديلاكروا ذات قطبين رئيسيين: لدينا من جهة الشخص الجامح الحساس الذى تجرفه سيول الانفعال والخيال ، ومن جهة أخرى الناقد الصارم المتزن والذى ينتابه الشك من حين الى اخر . انه

رومانتيكي بفطرته وغريزته ، بقلقه وحساسيته المرهفة ، بسرعة قابليته للاستثارة الانفعالية وبهذه الدرجة البسيطة من الحمى التى لازمته طوال حياته غير أنه كلاسيكي بحبه للنظام والاتزان ، وبمحاولة ضبط نفسه انه فى الوقت نفسه ينتمي الى زمنه ولا ينتمي اليه . انه متيقظ لكل ما يحدث حوله ، واسع الثقافة ، حاد الذهن حديثه شائق جذاب ، قاس احيانا فى حكمه على زمنه وعصره ، غير انه يدافع بحرارة عن حرية الفنان . هو يحب ايضا ان ينظر الى الماضى ، وان يقضى ساعات طويلة فى قراءة القدماء ، وربما كان يحلو له ان يعيش فى القرن السادس عشر ، قرن ذروة الفنون الجميلة ، انه بميله الى التأمل والتحامل الذاتى ينتمي الى طائفة كبار مفكرى فرنسا الذين حللوا بعمق الطبيعة البشرية أمثال مونتانى ولاروشفوكو . انه معجب براسين ، بموتزرت ، وبيتهوفن وفولتير . انه فى فنه قريب جدا من ميكل انجلو وفيرونيز وروبنس وذلك بفضل احساسه بالعظمة والروعة ، وحبه للاشكال والالوان الجميلة ، ومحاولته احياء التصوير الحائطى كما فى عهد النهضة . وهو من جهة أخرى رائد الفن الحديث بفضل حساسيته القلقة وتعبيره عن الحركة ولمسات فرشاته الجامحة وجرأته فى تقابل الالوان

اننا بصدد شخصية معقدة تتصارع فيها الاضداد والمتناقضات ، شخصية حوت جميع الاسرار وجميع المواهب كما يقول جول رومان ، شخصية تستعصى على التحليل والتفسير . انأعمال ديلاكورواتفسر عصره أكثر من أن يكون عصره هو الذى يفسره ومنهج تين Taine يبدو بهذا الصدد ناقصا . واذا كانت اعمالهتفسر

شخصيته فان هذا التفسير يظل قاصرا فأعماله هى أكثر من مجرد انعكاس ذاته أو نتيجة اعلاء دوافعه اللاشعورية فالتفسير فى ضوء التحليل النفسى وان كان يلقى بعض الاضواء على الشخصية يميل الى خفض بعض قيمتها بالقول بأن الاثر الفنى ليس سوى اعلاء الليبيدو المعـــاقة غير المشبعة ـ الواقع أنه من المحال الوصول الى تفسير شامل لشخصية ثرية معقدة مثل شـــخصية ديلاكروا .. ان

العبقرية تستعصى على التعريف ، ويمكن أن نقول عن ديلاكروا ما كان يقوله هو عن قيمة اللوحات الفنية : ان قيمة اللوحة لا يمكن التعبير عنها : هى فى الواقع ما يفلت من حدود التعبير الدقيق ، هى ما تضيفه روح الفنان الى الالوان والخطوط لمخاطبة روح المشاهد

ولا يوجد فنان مثل ديلاكروا برع فى محادثة الروح ، سواء فى لوحاته أو فى مذكراته اليومية ، انه كان المصور الشاعر الذى عشق فنه وآلمه عـــدم فهم معاصريه فيما عدا القليل منهم أمثال بوديلير وجوتييه وبلزاك ، ان روح معاصريه لم تتجاوب معه ، ورغم علاقاته بالاوساط الادبية فانه ظل طوال حياته يعانى من شعور العزلة المرير،ولذلك كان يلجأ الى مخاطبة نفسه فى مذكراته اليومية التى بدأها فى عام ١٨٢٢ والتى دون فيها تأملاته الفلسفية وآراءه فى الفنون التشكيلية

تأثير ديلاكروا فى الفن الحديث

ان فن ديلاكروا وان كان يعتبر نهاية عهد فى تاريخ التصوير المنحدر من عصر النهضة فانه من جهة أخرى

يمهد السبيل للمدارس التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . ولكى نقدر مدى تأثيره فى الفن الحديث نبدأ بذكر الخصائص التى تميز اعماله

أولا : ثراء المخيلة وانطلاقها فى الزمان والمكان ،مما أدى الى تنوع الموضوعات التى عالجها . ومن جهة أخرى يجب الاشارة الى الطابع الفكرى الذى يطبع الكثير من أعماله حيث يستخدم الاسلوب الرمزى والتشبيهى . فانه ليس من انصار الفن للفن

ثانيا : ان فن التصوير يفتح أمام الفنان وأمام المتذوق آفاقا جديدة نحو الماضى ، نحو البلاد النائية ، مواطن الشهامة والشجاعة والسحر والالوان الزاهية والاضواء الساطعة ، فالتصوير كالشعر والادب من وسائل الانطلاق والتحرر من كل ما هو رتيب وممل

ثالثا : ان التصوير مصدر سرور ومتعة للعين بفضل اللون وانسجام الالوان وحركة الكتل الملونة

رابعا : يتميز أسلوب ديلاكروا من حيث الصنعة باللمسات العريضة الفياضة ويتغلب اللون على الرسم بمعنى انه لا يحصر اللون داخل خطوط مرسومة بدقة بل هو يرسم باللون مباشرة دون التدقيق فى التفاصيل الصغيرة تاركا للعين عندما تنظر من مسافة مناسبة أن تقوم بادماج التفاصيل فى كتل كثيرة متحركة تحقق بترابطها الديناميكى وحدة اللوحة كلها

وفى ضوء هذه الخصائص نستطيع ان نتبين تأثير ديلاكروا على المدرسة الانطباعية التى اهتمت بتحليل الضوء والتقاط انعكاساته على سطح الاشياء وتأثيره

على الانطباعية الحديثة التى حاولت ان تبـــقى لالوان الطبيعة واقعيتها ونصوعها وذلك باستخدام بقـع من الالوان الاولية غير الممزوجة بحيث يتم المزج فى شـبكية العين ، وقد استخدم ديلاكروا هذا الاسلوب فى تقسيم درجات اللون وفى وضع بقع الالوان المكملة بعضهالبعض جنبا الى جنب بحيث يحدث تجاورها وانعكاس بعضها على بعض لونا جديدا كالاحساس بالاخضر النـــاتج عن وضع بقع زرقاء جنبا الى جنب مع بقع صفراء . وهذا واضح خاصة فى لوحته الشهيرة نساء الجزائر

ولاشك فى أن انطلاق اللون وتمجيده وتفخيمه وعده من أقوى ما يعبر عن الانفعالات ، كان له أكبر الاثر فى تصوير رينوار وفان خوخ وفى بعث حركة الوحشـــيين أمثال ماتيس وديران وفلامنك

ونلاحظ فى بعض اللوحات عدم التزام ديلاكروا بقواعد المنظور التقليدية مما أدى احيانا الى قلب المنظور ، وهذا الاسلوب فى عكس اتجاهات المنظور نشـــــاهده لدى المصورين التكعيبيين أمثال بيكاســـــو وبراك ٠ ولم تفت هذه النقطة نقاد الفن المعاصرين لديلاكروا فقالوا عنه انه لا يتقن الرسم ولا يراعى كما يجب قواعد المنظور

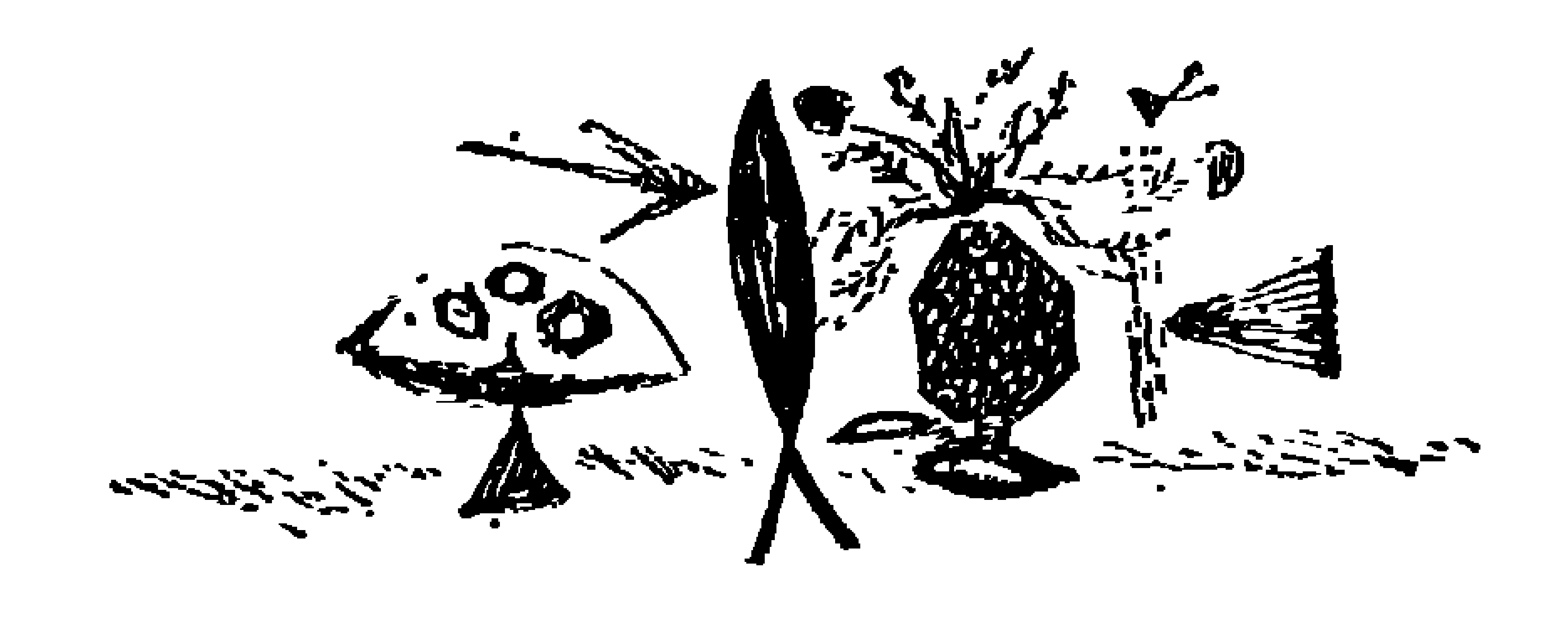
وأخيرا يمكن القول بأن ديلاكروا باحترامه للقيـــم التشيكيلة قبل كل شيء وبدفاعه عن لغة الالوان ولغـــة التكوين والتوزيع للخطوط والسطوح لغة الانســـــجام والتناظر والتقابل قد تنبأ بالفن التجريدى . ومنأقواله المأثورة انه كان ينصح الناظر الى اللوحة بأن يقف بعيدا عنها بحيث يعجز عن تعرف موضوع اللوحة مكتفيـا فى بادىء الامر بأن يشاهد توزيع البقع اللونية فى التكوين العام للوحة ، كما يستمع المتذوق الى سيمفونيـــــــة

الموسيقى البحتة وان يحكم على اللوحـــة من حيث هى قطعة تصوير ملون وان يستجيب للوحة بلغتها التشكيلية أولا ، ولا ضرر طبعا من ان يقترب بعد ذلك لكى يتعرف الموضوع ولكى يستشعر بالاضافة الى الاحساس التشكيلى البحت شتى الانفعالات والعواطف التى يمكن ان تترجم الى لغة الكلام ·· فجمال اللوحة لا يكمن فى ترجمتهـــا الادبية بل فيما تثيره لدى المتذوق الاصيل من انفعال خالص ··

ولوحات ديلاكروا بغض النظر عن موضوعاتها ، تتميز بشاعريتها التشكيلية وبقدرتها على بعث هذا الانفعال الجمالى الخالص · وفى الصفحات التى كتبها بوديلير عن ديلاكروا عام ١٨٥٥ ، يقول الشاعر والناقد الفنى العظيم:

« يبدو أن هذا التصوير يرسل مضمونه النفسى الى بعيد كما يصنع السحرة والمشعوذون · وترجع هـــذه الظاهرة العجيبة الى القدرة على استخدام الالوان ، الى هذا التوافق الكامل بين درجات اللون وقيمه ، الى التناغم ــ القائم من قبل فى عقل الفنان المصور ــ بين اللـــون والموضوع · ويبدو أن هذا اللون ــ وليســـمح لى فى استخدام هذه الحيل اللغوية للتعبير عن أفكار غاية فى الدقة ــ يفكر بذاته مستقلا عن الاشياء التى يكسوها. ثم ان هذه التوافقات الرائعة بين الالوان غالبا ما توحى الينا بتناغمات الميلوديا ، والانطباع الذى تتركه هذه اللوحات فى نفوسنا يكاد يكون انطباعا موسيقيا »

واذا كان ديلاكروا يطلب من اللوحة أن تكون أولا متعة للعين ، فهو يضيف أنها يجب أن تخاطب أيضا الروح حتى تتم المؤانسة بين اللوحة والمتذوق ·· يجب أن تبعث هذا الانفعال الجمالى الخاص بفن التصوير والذى تعجز لغـــة الكلام عن التعبير عنه »



الاتجاهات المعاصرة فى الفنون التشكيلية

التكعيبية

شهد العقد الاول من القـرن العشرين ثلاث حـركات جديدة فى فن التصوير ، الوحشية والتكعيبية والمستقبلية ولكل حركة من هذه الحركات الثلاث دلالة خاصة من حيث معالجة ثلاث نواحى من مقومات اللوحة هى اللون والشكل والحركة ومن حيث تأثيرها فى الحركات التشكيلية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى ..

وقبل التحدث عن هذه الحركات وتمهيـدا لفهمهـا وتقديرها يجدر بنا أن نتناول بالبحث احدى الظـواهر الهامة التى تميز بصفة خاصة الفن المعاصر ، هى ظاهـرة تشويه الشكل ، أو عدم مراعاة الشـبه بين الصورة والنموذج . وقد يعترض البعض على اسـتخدام لفـظ « التشويه » فى مجال الفنون الجميلة بحجة أن التشويه يفيد معنى التقبيح ولكن ليطمئن المعترضون اذ أن الاشوه من النعوت المضادة المعنى فهو القبيح أو المليح ، فقد يكون التشويه اذن اما موضع استنكار أو استحسان ، وقـد

يكون من الوسائل القوية للتعبير الفنى ، بل قد يكون من مقتضيات الفضاء التشكيلى ..

والواقع أن هناك نوعين من التشويه ، تشويه الشكل الظاهرى وهو معروف بالتشويه التعبيرى وتشويه البناء وهو المعروف بالتشويه الجوهرى أو التشريحى . التشويه التعبيرى يحترم القانون الكلاسيكى وقد استخدمه مصورو عصر النهضة فى ايطاليا واسبانيا أمثال رفايللو وبوتشللو وبيرو ديللا فرنشسكا والجريكو ونجده أيضا لدى أنجر فى القرن التاسع عشر . فقد يغير المصور من شكل بعض اجزاء الجسم كالوجه والعنق واليد والاصابع وذلك لتأكيد الاثر التعبيرى أو لابراز الرشاقة ولكن دون القضاء على قواعد الرسم الكلاسيكى ، هو ضرب من اللعب بين الواقع والاشكال المصطنعة المألوفة . أما التشويه الجوهرى أو التشريحى فهو خاص بالفن الحديث المعاصر ، هو نوع من اللعب بين الواقع وبين المقتضيات التى تحتمها عدة عوامل مثل مساحة اللوحة ، أنطلاق خيال الفنان ، أبتكار أشكال جديدة ، الايحاء بفضاءات خيالية ، تحقيق التوازن والربط بين أجزاء اللوحة . اننا نشاهد مثل هـــذه التشويهات الجوهرية فى الشكل فى بعض لوحات ســـيزان وبصفة خاصة لدى ماتيس وبيكاسو وغيرهما من المصـــــورين العصريين ، أى لدى فنانين أرادوا أن يحرروا رؤيتهم من التقاليد القديمة وأن يكتشفوا لغة التصوير الاصلية كما استخدمها مثلا قدماء المصريين بوجه خاص وفنانو الشرق بوجه عام

وما قلناه عن تشويه الشكل يصدق أيضا على تشـــويه اللون . ولنأخذ مثلا الحركة الاولى التى ذكرناها فى مطلع هذا الحديث وهى الحركة الوحشية ، أولى الحركات الفنية

الثورية فى القرن العشرين • ففى عام ١٩٠٥ عرض اثنا عشر مصورا لوحاتهم فى صالون الخريف وكان زعيمهم ماتيس •• فأثار هذا المعرض ضجة استنكار عنيفة فى الاوساط الفنية ـ وازدادت المقاومة عنفا أثناء المعرض الذى أقيم عام ١٩٠٦ فى صالون المسقلين • ولم يطلق هؤلاء المصورون اسم الوحشيين على أنفسهم بل أطلقه أحد النقاد ، فعندما دخل قاعة العرض لمح فى وسط القاعة تمثالا صغيرا منحوتا حسب أسلوب فن النهضة ، فقال « دوناتللو بين الوحوش » لم تحتفظ حركة الوحشيين طويلا بعنفها الاول فاذا ظل ماتيس مخلصا لروحها تحول عنها البعض اما بالعودة الى الاسلوب الكلاسيكى أو

باكتشاف أسلوب شخصي جديد كما أن فرعا جديدا أخذ ينمو فى الحركة المعروفة بالتعبيرية ، خاصة فى ألمانيا وبلجيكا ، حيث تغلب الجانب القصصى أو الانفعالى على الجانب التشكيلى البحت ••

ويمكن تلخيص مبادىء الوحشية فيما يلى : منح المقام الاول للالوان الفاقعة الساخنة الخالصة كما تخرج من الانبوبة، تتساوى القيمة الضوئية فى جميع أنواع اللوحات، بناء الفضاء بواسطة الالوان ، اضاءة السطح المنبسط المفلطح دون تجسيمه بواسطة الظلال ، تبسيط الوسائل وتنقيتها ، تحقيق التوازن التام بين التعبير أى الايحاء الانفعالى والزخرفة أى التنظيم الداخلى وذلك بواسطة التلوين . ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن تغلب الايحاء الانفعالى على الزخرفة والتنغيمات الجزئية أدى الى الحركة التعبيرية التى سبق ذكرها

وبعد عام ١٩٠٧ أخذت حركة الوحشية تخف حدة وتأججا فحلت محلها حركة ثورية جديدة بزعامة بيكاسو

و براك وقد أطلق النقاد على هذه الحركة اسم التكعيبية وذلك على سبيل السخرية والازدراء ، لان اللوحات التى كان يعرضها بيكاسو وبراك تبدو أنها مكونة من مكعبات متداخلة أو مصفوفة الواحد بجانب الاخر . لم يوافق أصحاب هذه الحركة على التسمية التى اطبقت عليهم ، فهم يرفضون أن يعدوا من بين أصحاب النظريات . وبهذا الصدد يقول بيكاسو أننا عندما نصور تبعا لهذا الاسلوب الجديد فأننا لا نرمي الى انشاء التكعيبية بل الى التعبير عما فى انفسنا . والمشكلة الاساسية التى واجهها بيكاسو وبراك تتلخص فى أبتكار وسيلة جديدة لتمثيل الاحجام الملونة على سطح ذى بعدين ، دون الخضوع لمظاهر الواقع المتغيرة العابرة ، انهما على طرفى نقيض مع الانطباعيين . فيجب أن نحدد الرؤية التلقائية الفورية وأن تطرح جانبا التغييرات الجوية العرضية . وتمخضت الحركة التكعيبية عن لغة تشكيلية جديدة تمتزج فيها العناصر الوجدانية والعقلية . فالتكعيبيون يحاولون ان يحددوا الخصائص الثابتة للاشياء وأن يوحوا بثبات الاشياء واستقرارها فى فضاء مغلق دون منظور ودون ظلال واضواء وذلك عن طريق ضرب من التبلور الهندسى أوحى به سيزان من قبل، وموضوعات اللوحات التكعيبية مقصورة على أشياء بسيطة : أشجار ، منازل ، أوان ، أكواب ، ثم بعد ذلك المناضد وبعض الالات الموسيقية ، وكلها أشياء يمكن ردها الى أشكال هندسية ، بل أخذ بيكاسو يتناول الاشخاص بأسلوبه الجديد فمالت المكعبات الى أن تكون مسطحات متداخلة ذات جانبين أحدهما فضاء والاخر مظلل فأصبحت الاشكال مزدوجة المنظور تبدو أحيانا بارزة الى الامام وأحيانا أخرى منسحبة الى الخلف . وبقصد ترك الشكل

يتحدث عن نفسه ، مهما تكن درجة التشتت أو التشويه ، أصبحت الالوان فى المرتبة الثانية وأقتصر بيكاسو وبراك على استخدام لون أو لونين من الالوان الباردة مثل الرمادى والبنى الخفيف . وفى نفس الوقت تغير تكوين اللوحةفبدلا من ان يقف المشاهد بعيدا عنها دعته الى الدخول فيهـا وأن يدور حول الشكل ناظرا اليه من جميع زواياه فى آن واحد . فقد ابتكر التكعيبيون بهذه الطريقة فضاءتشكيليا جديدا بعد محاولة لحلمشكلة الحركة والاستمرار بصورة مبتكرة جديدة . فقد حلت النظرة المتزامنة محل النظرة المتتابعة ، أى حل التآنى محل التتالى كما لو كان المصور يريد ان يلخص فى شكل واحد جميع جوانب الشيء أو كأن المشاهد يدور بسرعة حول الشيء فينطبع أثر أحد الجوانب على شبكية العين ولا يزول حتى يحدث أثر جانب ثان ثم ثالث فتتراكم هذه الاثار وتتجمع وتندمج اللحظات المتتالية فى لحظة واحدة مما يوحي باستمرار الزمن . هذا يفسر لنا بعض اللوحات الغريبة التى تمثل الرأس مجابها والانف جانبيا أو تمثل الوجه جانبيا والعين مجابهة كما فىرسومات قدماء المصريين

يميز بعض مؤرخي الفن الحديث ثلاث مراحل اجتازتها الحركة التكعيبية : المرحلة التجريبية من ١٩٠٧ الى ١٩١٠ ثم المرحلة التحليلية من ١٩١٠ الى ١٩١٢ ، واخيرا المرحلة التأليفية أو التركيبية ، وقد اعترض بيكاسو على استخدام لفظى التحليل والتركيب . فالفنان ليس بعالم ، غرضـه هو ابتكار الاشكال وعندما يتم تصوير الشكل يصبح وحدة قائمةبذاتها تحيا حياتها الخاصة . وكان بيكاسو يكرر قوله المشهور « اننى لا أبحث بل أجد ولا أعرف ما كنت أبحث عنه الا بعد أن أجده » يريد بهذا القول أن يؤكد أنالصدارة

فى الفن ليست للموضوع الخارجى بل لقدرة الفنان على الابداع وعلى خلق أشكال جديدة

ويبدو لى ان التكعيبية ترجحت ، لا بين التحليل والتركيب ، بل بين التجريد والتجسيم ، بين استلهام مخيلة الفنان المبدعة واستلهام الواقع ، بين القيم الشكلية الهندسية البحتة والقيم اللمسية . فالمرحلة المعروفة بالتركيبية تتميز بالعودة الى الواقع وادخال اجزاء من الاشياء فى اللوحة يلصقها ويدمجها فى الصورة كقطعة من الورق أو النسيج أو اجزاء من نشارة الخشب أو حبات الرمل ..

ثم طغى الجانب الحسى على الجانب العقلى فى لوحات التكعيبيين بالعودة الى الالوان بعد عام ١٩١٤ كما نشاهد ذلك فى بعض أعمال بيكاسو ولوحات جوان جرى وديلونى وهذا الانسجام الذى تحقق من جديد بين العنصر الحسى والعنصر العقلى ، بين اللون والشكل ، أكسب اللوحة مزيدا من التنغيم والموسيقى

ان الحركة التكعيبية بوجه عام ، على الرغم من تطرفها ومن محاولاتها الجريئة لقلب الاوضاع المألوفة ، لم تكن حركة عابرة فروحها لا يزال حيا نابضا فى أعمال الفنانين المعاصرين ، بل قد تجاوزت آثار هذه الحركة حدود التصوير الى النحت والى العمارة ، بل الى الحياة اليومية فى شكل الاوانى التى نستخدمها وفى تصميم الموبيليا وفى الزخرفة الداخلية

فالحركة التكعيبية لم تستوح الواقع ولم تستمد الهامها من الحياة اليومية ومع ذلك طبعت الواقع والحياة اليومية بطابعها الخاص لانها لم تكن محاكاة عمياء تستأثرها

المظاهر المألوفة بل كانت حركة ابداعية خلاقة ولهذا السبب شكلت كثيرا من مظاهر الحياة اليومية بشكلها

اما الحركة الثالثة التى سنتحدث عنها الان ـ وهى الحركة المستقبلية ـ فقد سارت على نهج يتعارض تماما مع نهج التكعيبية ولهذا السبب فشلت ولم تترك أثرا يذكر فى عالم فن التصوير . أصحاب هذه الحركة جماعة من الشعراء والمصورين الايطاليين بزعامة الشاعر مارينتى الذى نشر نداءه الملتهب فى عام ١٩٠٩ على صفحات جريدة الفيجارو فى باريس . فهو يقول : « سنتغنى بحب المخاطرة ، سنجد القوة والشجاعة والجرأة والثورة والحب . ان روعة العالم قد ازدادت بجمال جديد هو جمال السرعة . أحرقوا المكتبات ، اغمروا المتاحف بالحياة حتى تطفو على سطحها لوحات الماضى ، أننا نجوم السماء !.

وقد تعاقبت النداءات والتصريحات منادية بأغفال الماضى وبتمجيد المستقبل وبتأليه الحاضر الذى يتميز بالقوة الجبارة والحركة المتفقة والسرعة الجامحة . يجب التخلص من نير بعض الالفاظ التى تفيد معنى الانسجام والذوق السليم ، يجب القضاء على النقد الفنى لانه عقيم ، بل لانه ضار يعرقل سير التقدم

والمستقبليون يستلهمون السرعة والحياة الصاخبة كما تبدو فى المصانع وفى الشوارع المزدحمة بالسيارات والمارة ولكن الوسيلة التى لجأوا اليها لتمثيل الحركة والسرعة وسيلة ساذجة للغاية .. فهم يمثلون الجواد الذى يعدو لا بأربعة أطراف بل بالعشرات وذلك بالاشارة الى الاوضاع المتتالية التى تتخذها أرجل الجواد أثناء جريه . ألم يتأمل هؤلاء المستقبليون فى لوحات جيريكو التى تمثل سباق

الخيل فى أبسوم ، ألم يشاهدوا تمثال روان الرجل الذى يمشى وهو ويوحى بالحركة بصورة فنية رائعة على الرغم من أنه تمثال لا يتحرك

ان خطأ المستقبليين أنهم قدموا النظرية على احساسهم الفنى ، اعتقدوا أن الفن يجب أن يعبر مباشرة عن قطاعات من الحياة وان يكون صورة صادقة عارية عما يدور حولنا . لكن كيف يمكن أن يقوم فن بدون رمز وايحاء ، بدون ايهام وتلبيس . وكيف يمكن أن يحقق الفن رسالته فى هذا الجو الصاخب من النداءات العدوانية الهدامة ؟ نعم أن الحركة المستقبلية كانت صدى وانعكاسا لعصرها ولكنها لم تكن حركة فنية لانها بدأت فى صورة حركة فكرية وظلت محصورة فى دائرة الالفاظ والنظريات . وعند نشوب الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٤ تفرق أتباعها فتحول أحدهم الى الاسلوب التكعيبى وارتد غيره الى الواقعية الاكاديمية بينما حاول ثالث تحقيق مبادىء المستقبلية فى مجال الموسيقى ، فقال بالضوضائية

وان لم يترك المستقبليون تراثا غنيا فانهم أثروا فى حساسية معاصريهم باسترعاء انتباههم آلى مظاهر المدنية الحديثة ، كما أنهم أثروا فى حركة الشعر المرسل ووضعوا بعض البذور التى ستنمو بعد انتهاء الحرب فى الحركة الفوضوية المعروفة بالدادائية والتى تمخضت عن التيار السريالى فى الادب والفنون التشكيلية وهذا ما سنعالجه بالتفصيل ..

السريالية

تناولنا فى حديثنا ثلاث حركات فى فن التصوير ، ظهرت فى بداية القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الاولى : الوحشية والتكعيبية والمستقبلية التى حملت لواء الثورة ضد الواقع المألوف وضد التقاليد الاكاديمية المتحجرة كما انها أعلنت حرية الفنان فى اطلاق نزعته الى الابتكار والتجديد سواء فى الصنعة أو فى اختيار موضوع اللوحة . ولابد أن تتسم كل حركة ثورية فى الفنون والاداب بسمة التطرف والمبالغة .. فمجدت الوحشية الالوان الصارخة واعتبرتها أحسن وسيلة للتعبير عن أحاسيس الفنان الانفعالية والعاطفية ولاطلاق الشحنات الوجدانية التى تتواتر فى أعماق نفسه . وتمخضت الوحشية عما نسميه اليوم بالحركة التعبيرية التى تتناول هذه الجوانب من الحياة التى توحى بالاسى والحزن واليأس . فأعمالها مطبوعة بطابع أنسانى عميق ولها قدرة فائقة على أثارة مشاعر المشاهد وحمله على التجاوب مع مآسى الحياة العسيرة . أما فى الحركة التكعيبية فقد هبطت قيمة الالوان لتفسح المجال للخطوط والمسطحات من حيث هى عناصر للاحجام . فتحليل للحجم ثم تركيب لعناصره بشكل جديد يكاد لا يوحى بالبعد الثالث وأصبح التعبير محصورا فى دائرة القيم التشكيلية البحتة دون تعديتها الى عالم الوجدان والعواطف . وجاء الفن التكعيبى فنا مطبوعا بطابع عقلى تحليلى لا يخلو من الجفاف والصرامة ولما قامت الحرب العالمية الاولى وانتشرت فجائعها وغمرت العالم بسيل من الدماء والدمار اخذت القيم الحضارية

والروحية التى كانت تضىء بآمالها مطلع القرن العشرين تتفكك وتنهار ، كذلك أصيب الايمان بالعلم وبالحضارة الصناعية بضربة قاسية ، هذه الحضارة الصناعية التى أراد المستقبليون تمثيلها وتمجيدها فى لوحاتهم

فكان لابد من أن يحدث رد فعل عنيف ضد القيم العقلية والعلمية التى فضحت الحرب فى قصورها وعجزها عن تحقيق آمال الانسان وارضاء رغباته الروحية العميقة • ودوت صيحة العصيان الاولى فى زيورخ فى سويسرا عام ١٩١٦ اطلقها الشاعر الرومانى ترستان تزارا والمصور هانس ارب وغيرهما من الادباء والفنانين ، صيحة عصيان وتمرد فى وجه التقاليد والنظام الاجتماعى القائم والاساليب السائدة فى الفن والادب • سميت الحركة بالدادائية من كلمة دادا وهى كلمة من لغة الاطفال تشير الى الحصان • وقد اختيرت هذه الكلمة بالصدفة عند فتح القاموس وقراءة أول كلمة فى أعلى الصفحة• والاعتماد على مجرد الصدفة فى تسمية الحركة يرمز الى ارادة أصحاب الحركة والتحرر من كل قيد واطلاق العنان للمخيلة الجامحة وللنزوة العابرة •• فالدادائية حركة تدميرية فوضوية تحارب جميع الاساليب الفنية والادبية القائمة ، ولتطرفها الشامل فانها كانت تحمل فى طياتها العوامل التى لا بد وأن تؤدى الى تدميرها هى بدورها • غير أنها قبل أن تتلاشى فى عام ١٩٢٢ أثارت حركات مماثلة لها فى المانيا وفرنسا والولايات المتحدة وأصدر الدادائيون بعض المجلات لنشر دعوتهم ومن أهم هذه المجلات مجلة الاداب التى أنشأها جماعة من الشعراء على رأسهم بريتون وأراجون وقد أطلقوا اسم الاداب على مجلتهم

استهزاء وتهكما بالاساليب الادبية السائدة

وتمخضت هذه الحركة التدميرية عن حركة بنائيـــة جديدة هي المعروفة بالسريالية ، تناولت أولا الشعر والنثر الفنى ثم انتقلت الى ميدان التصوير والنحت • ولفظ سريالى Surréaliste معناه ما هو فوق الواقع أى ماهو كائن وراء الواقع المألوف العادى ، ما هو كامن وراءالأقنعة العقلية والاجتماعية المتحجرة التى فقدت حيويتها ونزعت عنها كل دلالة شخصية عميقة . وأول من استخدم لفظ سريالى هو الشاعر الفرنسي ابوليفير عندما وصفمسرحية « نديا تيرزياس » بأنها درامة سريالية • ولم تمثل هـذه المسرحية الا مرة واحدة عام ١٩١٧ فى جو صـــاخب من المرح والهرج . ثم شاع استخدام لفظ السريالية عنـدما نشر الشاعر زينون فى عام ١٩٢٤ تصريحـــه الاول عن السريالية ، معلنا أن ينبوع الالهـــام والابداع ليس فى الشعور ولا فى التفكير الارادى الموجه بل فى اللاشعوروفى عالم الاحلام وأن الحركات الالية التلقائية وما تنطوى عليها من تعبير ودلالة هى وحدها المؤدية الى ابتكار معان جديدة واستعارات وتشبيهات غير مألوفة محملة بشحنة كبيرة من الايحاء الشعرى والايهام الفنى بعيداً عن القيـــــود الجمالية والخلقية والتقليدية

وقد تأثرت السريالية بالتحليل النفسى وبنظريته فى الطبيعة الديناميكية للاشعور ، فالشــــاعر السريالى أو المصور السريالى يحاول هو أيضا كالمحلل النفسى الكشف عن النزعات الخفية فى نفسية الانســـــان وتحرير قوى اللاشعور والتعبير عن الحيـــــاة الذاتية التى كبتت تحت ضغط العرف الخلقى والاجتماعى • فالسرياليـة هى فى

الواقع بعث جديد عنيف للحركة الرومانتيكية فى وجه الحضارة الصناعية العملية التى تقوم على مبادىء العقل وتوجيهات المنطق

وتحاول السريالية تمزيق الاحجبة التى تخفى عالم الغيبيات والتقاط المعاني السحرية التى تنطوى عليها الاشكال والاشياء ، الاحجار والازهار ، وهى تغمر الاشباح والتخيلات ، بل الهلوسات والتصورات العجيبة فى جو من الشاعرية والتهلل ، كما انها تستسلم الى المصادفات العشوائية والاتفاقات الفجائية مؤمنة بأن هناك انسجاما وتجاوبا بين الحركات اللاشعورية والانتفاضات اللاارادية وبين التيارات الكونية الخفية والانغام التى تتجاوب الحانها بين الاجرام السماوية . فبينما يحاول العلم أن يسيطر بالعقل على الكون بأسره ترمى السريالية الى الكشف عن كنه الوجود وجوهره بالمخيلة المبدعة الطليقة .

وعندما نقول أن السريالية تناهض الواقع وترنو الى ما يسمو عليه ، هل معنى هذا أن الفن السريالى غير واقعى وانه وليد الابداع المطلق وأن دلالته لا تتجاوز حدود القيم التشكيلية البحتة ؟ ان هذا الحكم لا يصدق على الفن السريالى قدر صدقه على الفن التجريدى ، فهناك نموذج يلهم الفنان السريالى ، وهو نموذج واقعى ، بل أكثر واقعية من أى نموذج نجده على الطبيعة ، لانه نموذج داخلى . هو رؤيا من وحى الفنان نفسه ، من وحى دوافعه ورغباته اللاشعورية . وهذا النموذج الداخلى لا يمكن أن تراه العين التى تحجرت وأصبحت أسيرة المألوف والعادى والتقليدى والواقع ، بل العين التى أصبحت عاجزة عن ادراك جوانب الجدة والغرابة التى لا تزال قائمة فيما هو عادى ومألوف

فالفنان السريالى يدعو الى أعادة تربية العين بتحطيم هذا الحاجز الذى اقامته العادات والتقاليد حتى ينفذ الانسان ببصيرته الى عالم اللاشعور والاحلام ، بل الى عالم الهذيانات والهلوسات وعندئذ تستأصل جذور المألوف والعمـــل الرتيب ويشعر الانسان ـ ولو الى حين ـ بأنه فقد القدرة على التوجه فى المكان والزمان وانه أصـــبح أمام مشهد جديد ، وعندئذ تحدث الصدمة والدهشة والذهول ويتحقق الاحساس الفنى الاصيل

ان الفن السريالى يتوســـط الطـــريق بين التكعيبية والتجريدية ، فالاولى لا تزال تستوحى الواقع الخارجى غير انها تفكك هذا الواقع وتعيد بناءه بصورة جديدة . أمـــا التجريدية فى التصوير فهى تنشد القيم التشكيلية البحتة دون ان ترمز هذه القيم الى أى موضوع خارجى . اللوحة التجريدية ليست سوى سمفونية من الخطوط والمساحات والاشكال والالوان ، هى شبيهة بسمفونية موسيقية بحتة ونعنى ببحتة انها لا تحاكى شيئا ولا توحى بأية فكرة معينة بل هى نظام من الانغام ترتبط وتتجاوب تبعا لنسب معينة واللوحة التجـــريدية ان عبرت عن شىء ، خارج اطارها التشكيلى ، فانها تعبر عن حرية الفنان المطلقة ان يلعب بالقيم التشكيلية كيفما يشاء ، فهى المرحلة الاخيرة لحركة تحرر الفنان من الواقع التى بدأتها المدرسة التكعيبية

فالسريالية باستلهامها النموذج الداخلى الذى يحمـــله الفنان فى أعماق نفسه تتوسط الطـــريق كمـــا بين التكعيبية والتجريدية ، غير أنها تعلو عليهما لان الواقـــع الداخلى أكثر اصالة وغزارة من الواقع الخارجى ولانها لا تقصر دلالة الآية الفنية على القيم التشكيلية البحتـــة . فهناك مضمون انسانى ، وأن كان قريبا مثيرا للدهشـــة

ولكنه مضمون يعبر عن مكنونات نفسية الفنان ويعبرخلال الفنان عن بعض التيارات الفكرية والوجدانية السائدة فى بيئة الفنان الثقافية

وحيث أن المصور السريالى يستلهم نموذجا داخليا ذاتيا فلابد من أن تتنوع الاساليب والاجواء فى لوحات السرياليين . ويمكن تقسيم حركة السريالى الى أربع شعب هى الواقعية السحرية ، الغيبية الكونية ، الرمزية السحرية ، وأخيرا السريالية الرومانتيكية . وفيما يلى اشارة سريعة الى ما تتميز به كل شعبة

استلهمت الشعبة الاولى ، وهى الواقعية السحرية أسلوب مصور ايطالى « كيريكو » سبق الحركةالسريالية بما سماه التصوير الميتافيزيقى . ويبدو أن كيريكو من أنصار التصوير الكلاسيكى فلوحاته تمثل أشخاصا أو حيوانات داخل منظر من العمارات والاعمدة ولكن الجو المسيطر على اللوحة هو جو من السكون الرهيب . ثم يلجأ المصور الى عدة وسائل من الخداع بحيث يشعر المشاهد ان البعد الثالث لا يتجه من الخارج نحو الداخل فحسب ، بل أيضا من الداخل نحو الخارج كأن بعض الاشياء الممثلة فى اللوحة على وشك السقوط خارج اطارها . يسعى المصور ان يكون اكثر صدقا ودقة من الفوتوغرافية ولكننا فى الواقع بصدد فن أصيل لا مجرد محاكاة لان الفنان يحقق بصنعته وبأسلوبه الشخصى أهم أغراض الفن وهو الايهام أى أنه يقدم لنا مشهدا مزدوج الدلالة :دلالةقريبة ودلالة غريبة . فاذا نظرنا الى اللوحة يسبق الى ادراكنا القريب فى حين أن الغريب هو الذى يقصده الفنان ولا يلبث المشاهد بعد لحظة أن يحس بلمسة الغريب في آن

واحد .. ومن أشهر مصورى الواقعية السحرية رينيه ماجريت وبول دلفو البلجيكيان ، والمصور الآنجليزى بول ناش والفرنسى بيير روا والاسبانى سلفادور دالى

أما الشعبة الثانية التى نعتناها بالغيبية الكونية فيمثلها بصفة خاصة الفنان الفرنسى ايف تانجى الذى تدخلنا لوحاته فى عالم غريب شاسع تلوح فى فضائه العميق أشباح وكائنات لا يمكن تشخيصها كأن الفنان يريد أن ينتقل بنا الى عهد الخليقة الاولى عندما كانت فى طورها الجنينى ..

ومع مصورى الشعبة الثالثة وهى الرمزية السحرية ندخل فى عالم يضع سحرا لطيفا وخيالا شعريا حيث ترمز الاشكال الى حقائق لا يعرف سرها سوى الفنان نفسه .

فلوحات بول كلى السويسرى وجوان ميرو الاسبانى تدعو المشاهد الى أن يسترسل فى أحلام لطيفة بعيدا عن الحياة ومآسيها القاسية

ولدينا اخيرا الشعبة الرابعة التى يمثلها الالمانى راكس ارنست والاسبانى سولانا والفرنسى اندريه ماسون وهم بعكس أصحاب الرمزية السحرية يريدون ان يعبروا عن مآسى الحياة ، عن الخوف والقلق ، عن فجائع الحرب ؛ عن الصراع القائم بين الحياة والموت ، بين الحب والبغضاء فالسرياليون الرومانتيكيون يلتقون ، على الرغم من اسلوبهم الخاص ، بالحركة التعبيرية التى سبق ذكرها فى بدء الحديث

أما عملاق الفن الحديث ، بيكاسو ، فانه تأثر بدوره بالحركة السريالية وان لم ينضم اليها رسميا . ومرحلته السريالية لم تدم طويلا وقد بدأها فى عام ١٩٢٦ وانهاها فى

عام ١٩٣٤ عندما نشبت الحرب الاهلية فى بلاده ، وهب ليعرض علينا أجمل مراحل فنه ولكنها مهدت السبيل لمرحلته التعبيرية الرائعة التى توجها بلوحته الخالدة «جرنيكا» التى تمثل ويلات الحرب الاهلية فى وطنه

وخلاصة القول ان التصوير السريالى ليس نزوة عابرة من نزوات الفنان ، بل هو مرآة تعكس احد وجوه حضارتنا العصرية ، القلق الذى يسيطر على قلب الانسان الذى اصبح يجهل مصيره . كما انه وسيلة من وسائل تخفيف هذا القلق بالتعبير عنه بطريقة رمزية . ان الفنان السريالى عندما يسقط على لوحته هذه الاشباح المخيفة يحاول استئناس هذه الاشباح ليعيد الى نفسه المعذبة شيئا من الطمأنينة والامان وليضيء فى جوانب قلبه المظلم وميضا من الامل ..

التجريدية

ان زيارة واحدة لاى معرض دولى أو شبه دولى للتصوير فى الوقت الحاضر يكفى لكى يلاحظ المشاهد أن ميدان التصوير يضم فريقين متعارضين متناهضين :

فريق الفن المشخص المجسم اى الذى يستوحى الطبيعة والواقع الخارجى ويمثل أشخاصا وأشياء يسهل التعرف عليها والذى توحى لوحاته بمعان وعواطف ذات مضمون انشائى • وفريق الفن المجرد الذى يتجنب الاشارة الى أى عنصر تمثيلى أو تصويرى ، الى أى شيء مستمد من الواقع الموضوعى الذى يكون الوسط الذى تدور فيه حياتنا اليومية وحيث يصبح الشكل والمضمون شيئا

واحدا اى نسقا من الخطوط والاشكال ومن المسطحات والبقع الملونة بنظام خاص . والمعركة حامية بين الفريقين: أن انصار التمثيل والتجسيم والتشييء يعلنون أن التصوير فن تمثيلى كالنحت او الشعر ولا يمكن أن يحاكى الموسيقى او العمارة محاكاة تامة والا فقد طابع الذاتية والاستقلال .. فيرد عليهم أنصار الفن المجرد قائلين أن التصوير قد فاز اخيرا باكتشاف لغته الخاصة وهى لغة الخطوط والاشكال والالوان وهو مصر على تطهير هذه اللغة من جميع الشوائب التى تعكر صفاءها ونقاوتها وان الاشارة الى الواقع الخارجي ، الى اشخاص أو مناظر طبيعية أو مشاهد اسطورية أو تاريخية ، أو طبائع صامتة تحول فن التصوير الى وسيلة فى حين أنه يدعى لنفسه الحق بأن يكون هو غاية نفسه . ومفردات هذه اللغة التصويرية البحتة ، أى الخطوط والمسطحات والالوان هى جوهر اللوحة ولبها فى حين أن الموضوع غير التشكيلى أمر ثانوى يمكن الاستغناء عنه دون ان تفقد اللوحة دلالتها الفنية الخالصة بها كلوحة لا كتمثيل لفكرة أو حدث أو قصة ..

فالنزاع عنيف بين الفريقين كأن المشكلة هى حياة أو موت ، وجود او عدم ، ولايمكن ان يكون الحكم الذى سيفصل فى هذا النزاع ما يسمى بالذوق السليم أو بذوق الجمهور . فاذا احتكمنا الى جمهرة المشاهدين فسيصدر الحكم على انصار الفن المجرد بانهم مهرجون عابثون مضللون ، أو على الاقل بأنهم مصابون بما يشبه الفصام الفنى فلجأوا الى عالم غير واقعى فارين من الحياة ومن الاهتمامات الانسانية الراهنة

ولكن مهما تكن قيمة الاعتراضات الموجهة الى الفن

المجرد ، ومهما تكن من جهة اخرى القيمة الجمالية للوحات المجردة فان هناك أمرا واقعيا لا يمكن تجاهله وهو ان الفن التجريدى فن عالمى وان اكثر من خمسين فى المائة من مصورى العالم يمارسون التصوير المجرد .. فتقام له معارض فى باريس ونيويورك ، فى روما وامستردام فى سان باولو ودسلدورف ، فى القاهرة وأثينا وهويدرس فى طوكيو ضمن دروس الخط والرسم ، بل يزاول سرا فيما وراء الستار الحديدى . وليس التصوير المجرد وليد هذه السنوات الاخيرة ، بل يجدر بنا اليوم ان نحتفل بمرور نصف قرن على ظهور اول صورة مجردة لفاسيلى كندنسكى فى ميونخ عام ۱۹۱۰ وعلى ظهور كتابه « الروحية فى الفن » وهو الدعامة الاولى التى قامت عليها الحركة التجريدية ، غير أنها لم تنبع من مصدر واحد ولم تكن من شأن مدرسة منعزلة ، بل نجد فيما بين ۱۹۱۲ ، ۱۹۱٥ انشاء مراكز الفن المجرد فى عدة بلاد فى أوروبا ، فى هولاندا مع موندريان ، فى فرنسا مع ديلونى ، وفى ايطاليا مع مانيللى وفى روسيا مع لاريانوف وماليفتش ، كأن هذه الحركة الثورية الجديدة هى نتيجة حتمية لتطور التصوير وكأن الفن وملابساته الجمالية والفكرية كانت تقتضى ظهور هذه الحركة فى هذه الحقبة ذاتها من الفن . وبعد هذه المرحلة الاولى من نشأته توارى الفن التجريدى ودخل فى مرحلة كمون فى الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين تاركا المجال للتصوير السريالى والتعبيرى ثم نفر الى المقدمة بعد عام ١٩٤٦ واصبح فنا عالميا اله معارضه ومتاحفه ومجلاته الخاصة به ..

وعندما ننعت هذا الفن بأنه مجرد هل نعنى أنه

شبيه بالمعادلات الرياضية وان عناصره لا تختلف عن رموز الجبر وانه ليست هناك أية اشارة ولو بعيدة الى العناصر الطبيعية • هل فعلا أغلق الفنان التجريدى عينيه وأسكت فى فؤاده جميع الاصداء التى ترد على ماتبعثه الطبيعة والواقع الانسانى من مثيرات وايحاءات ؟ كلا والا يكون قد قضى نهائيا على التصوير من حيث هو فن . ربما تكون تسميته بالمجرد غير موفقة لان التصوير التقليدى التمثيلى يعتمد ايضا على التجريد ، لان التفاحة التى يرسمها سيزان ليست بتفاحة تلمس وتؤكل ، هى قبل كل شىء نظام من الخطوط ومن درجات من الالوان منظمة بشكل ما ، واذا كانت صورة تفاحة سيزان توحى بتفاحة حقيقية فهذا الايحاء ليس هو ما يقصده الفنان أولا بل هو أمر عرضى ثانوى . ويجدر بنا ان نذكر هنا تعريف موريس دينى للوحة عند مطلع هذا القرن وقبل ظهور الحركة التجريدية ، يقول دينس ، وهو مصور فنان وناقد فنى لامع وعميق ، أن اللوحة قبل أن تكون جوادا فى ساحة الحرب أو امرأة عارية هى فى جوهرها مساحة مسطحة تغطيها الوان موزعة وفقا لنظام ما فالمصور التجريدى يطبق فى لوحته هذا التعريف بحرفيته

فالفنان التجريدى ليس اذن تجريديا الى الحد الذى نظنه عندما نستعمل لفظ التجريد . والواقع أن هناك فئات متعددة داخل الحركة العامة التى تضم انصار التشكيلية البحتة : التجريديون الخالصون ، وانصار الفن الشبيه بالمجرد Semi-Abstract ثم الهندسيون والفنائيون ، ثم الانطباعيون والتعبيريون ، وأخيرا الفضائيون والموسيقيون • ويمكن تقسيم هذه الفئات المتنوعة الى ثلاث شعب تبعا لانتمائها الى أحد الرواد الثلاثة للفن التجريدى : ديلونى الفرنسى ، وموندريان

الهولندى وكندنسكى الروسى • فانصار ميلونى يمجدون الالوان الخالصة وينشئون تكوينات ديناميكية ورمزية بواسطة ايقاعات دائرية ، ففى لوحاتهم مرونة وانسياب وشحنة حسية قوية . أما اتباع موندريان فالتصوير فى نظرهم هندسة ساكنة استاتيكية تمثلها لوحة موندريان مربع أسود داخل مربع ابيض . فاللوحة عبارة عن نسب منسجمة أو عن تقابلات بين ألوان خالصة وخطوط ومسطحات ، كأن المصور يريد الاشارة الى معادلات رياضية أو الى منحنيات رياضية . فاننا أزاء فن أرادى رزين بارد كله تقشف وزهد ؛ بازاء فن يريد أن يحلق بوثبة واحدة فى عالم المطلق

أما الذين جذبهم فن كندنسكى فانهم لا يعدون التصوير من انتاج الفكر الرياضى او المنطقى ، بل فيضا روحيا ولحنا غنائيا • ان المصور يعبر عن ارتعاشه الفنى التلقائى بواسطة خطوط وبقع ملونة تبدو انها موزعة بالصدفة على سطح اللوحة وانها مزودة بحركة داخلية تنتقل بلطف بين النغيم التشكيلية فتضمها على الرغم من تناثرها العشوائى فى وحدة موسيقية جذابة . وهذه الموسيقية المتحركة هى التى تضفى على اللوحة شحنتها التعبيرية وهذه الشحنة التعبيرية القوية بدورها هى التى تدفع المصور التجريدى الى ان يخرج من برجه العاجى وأن يفتح عينيه موجها نظرته من جديد الى الطبيعة .. والواقع ان انصار كندنسكى يحسون بالمتناقضات التى تتنازع العالم فى هذا العصر الجرىء الذى حطم الذرة والذى تراوده من حين الى اخر ، هذه النزعة الآثمة الى تدمير العالم بعد أن سخر بأقدس القيم الانسانية . اننا مرة اخرى بصدد رومانتيكية جديدة بعد

الرومانتيكية التى انتهت اليها الحركة السريالية وليس فى هذا التطور داخل الفن التجريدى نفسه ممـــا يثير الدهشة لاننا نجد برهانا جديدا على ما ذهب اليـــــه بعض مؤرخى الفن عندما قرروا ان كل حركة فنيـــة لابد وأن تمر بثلاثة أطوار ، وان كل طور يتميز بأسلوب معين وفقا لترتيب واحد : الاسلوب البدائى ، الاســلوب الكلاسيكى والاسلوب الذى يحقق أعلى درجة من التوافق بين الاجزاء أو بين القيم الفنية المختلفة ، كأن يتحقـــق التوافق بين العناصر البنائية والعناصر الزخرفيـــــة . أما فى الطور الثالث فان العناصر الزخرفية تتحـــرر من النظام الذى كانت خاضعة له وتأخذ تنمو وتتكاثرلذاتها الى حد الطغيان على العناصر البنائية

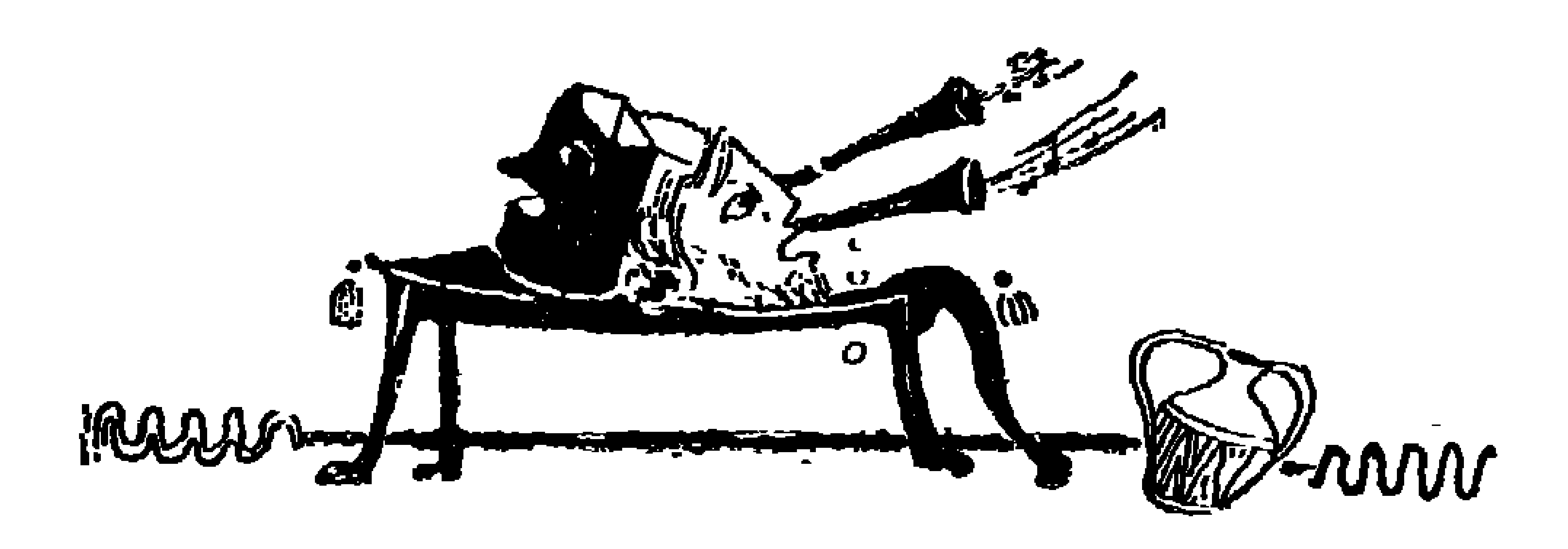
وقد دخل الفن التجريدى الان فى طوره الرومانتيكى، فى طوره الموسيقى الغنائى التعبيرى مما يدفعنـــا الى ان نشبه اللوحة حقا بسمفونية من الالوان . وهذا الاتجاه التعبيرى هو الذى سينقذ الفن التجريدى من المـــأزق الذى كاد يدخل فيه وسيعيد اليه اللمسة التى كـــاد يفقدها فى لوحات التجريديين الهندسيين الفضـــائيين . نعم ان اللوحة التجريدية البحتة ، عندما تكون من عمــل فنان أصيل من شأنها أن تثير فى نفوسنا متعـــة فنيـــة ، غير انها متعة تروى القليل ولا ترضى جميع الرغبـــات الجماليـــة فهى متعة محصـــورة فى أحاسيس عامة من التهدئة والتهيج أو القلق . فالمشـــاهد يريد ان يحلم ، يريد أن تنقله اللوحة من حالته الرتيبة الهادئة الى حالة من الانجذاب والاختطاف والتهلل

ففى كثير من اللوحات التجريدية يكاد يكون من المحال

ان نرى الضرورة التى اقتضت هذه النسب التى توزعت بمقتضاها هذه الاشكال والبقع . فاما ان يكون الفن التجريدى ذاتيا بحتا وعندئذ يصبح لغزا لا يمكن حله أو لغة مغلقة عاجزة أن تؤدى اى رسالة حتى فى دائرة الكتابة التشكيلية البحتة ، واما ان يكون موضوعيا كل الموضوعية - كأن يكون نظاما من المربعات والمثلثات - وعندئذ يستنفذ المشاهد متعته الفنية من اللحظة الاولى..

وهنا تثار مشكلة هامة جديرة بأن تسترعى من يعملون فى حقل الفن والنقد الفنى . هى الفنون الجميلة : الموسيقى والعمارة والنحت والتصوير والشعر اجناس متمايزة بعضها عن بعض أم يمكن ارجاعها الى فن واحد ، هو فن الايقاع والوزن والعدد

ان التصوير التجريدى وكذلك النحت التجريدى والحركة المعروفة بالصوتية والتى تريد أن تجعل من الشعر سلسلة من الاصوات عديمة المعنى ، كل هذا محاولات للاقتراب من الموسيقى الخالصة . وسواء ذهبنا الى ان هذه المحاولات فشلت او لابد ان تفشل ، أو اعتقدنا انها أصابت قسطا من النجاح فانها على كل حال تشهد بقدرة الانسان على ان يتجاوز الحدود التى رسمها لنفسه أو فرضتها الطبيعة عليه ، وسواء ضل طريقه أو اهتدى اليه . وعلى الرغم من صيحات الاستنكار التى كانت تصاحب كل خطوة يخطوها فى عالم المجهول او فى عالم المتناقضات فلا بد من أن يعود من هذه الرحلات الجريئة وهو مزود بحصاد غزير من الالهامات التى يثرى بفضلها عالم الفن وعالم الاحلام وعالم الغزوات الروحية ..



أصل التراجيديا عند اليونان

لا تزال المناقشات تدور بين علماء الادب اليونانى حول اصل التراجيديا ، فى حين ان الاتفاق يكاد يكون تاما بينهم فيما يختص بأصل الكوميديا . أن الموضوع ليس مقصورا على ظهور التراجيديا من الوجهة التاريخية ، بل يتناول ما هو أهم من مجرد التحقيقات التاريخية ، أعنى الدلالة العميقة التى كان ينطوى عليه هذا المشهد الدرامى الذى سمى بالتراجيديا

يقول الرأى السائد بأن التراجيديا تطوير لنوع من الشعر الغنائى المعروف بالـ Dithyrambe والذى كان ينشده الكورس اكراما لاله الخمر باكوس أو ديونيزوس .. وتتميز هذه الاناشيد بطابع الجموح والحماس ، وقد تكون حزينة أو مفرحة ، وهى مصحوبة برقصات سريعة . وكان قائد الكورس يسرد مغامرات الاله وأفراد الكورس يشاركون الاله فى أحزانه وافراحه . ومما هو جدير بالذكر أن المغنين كانوا يرتدون جلود الماعز لكى يشبهوا صغار الالهة المعروفين بالساتير والذين كانوا يرافقون باكوس فى تجولاته ، كما جاء فى اساطير اليونان . والساتير اطرافه السفلى شبيهه بأطراف الماعز ونصفه

الاعلى شبيه بالانسان غير ان اذنيه مدببتان وله قرنـان صغيران . فهو اذن مزيج من الانسان والماعز والنقـوش القديمة تمثله ممسكا بيده كأسا أو مزمارا

واذا عدنا الى أصل كلمة تراجيديا فنجدها مكونة من Trages تيس ومن o de غناء . وفى ضوء هذا الاشتقاق انقسم مؤرخو الادب اليونانى قسمين : فريق يقول ان التراجيديا سميت هكذا لان الاحتفال بعيـد ديونيزوس كان يتضمن تقديم قربان للاله وكانت الذبيحة جدى أو تيس ، ويذهب الفريق الثانى الى أن التراجيديا هى فى الاصل أغان ينشدها مغنون يرتدون جلود الماعز والرأى الثانى هو السائد . والامر الذى يدعم الرأى الثانى هو وجود ما يعرف بالدراما الساتيرية وكـان هـذا النوع من المسرحيات يلقى قبولا كبيرا فى أثينا فى حوالى منتصف القرن الخامس قبل المسيح . والدراما الساتيرية خليط من الملهاة والمأساة . وكما سبق أن ذكرها كانت النقوش تمثل الساتير نصفه الاعلى انسـان ونصـفه الاسفل جدى ، فكان من الطبيعى ان يتجه الظن الى ربط التراجيديا بأناشيد المرتدين جلود الماعز

غير أنه يمكن أن نوجه اعتراضين على هذا التأويل : أولا : ان التصور الشعبى للساتير هـو انه كائن كثير الحركة ، يميل الى المرح والهرج ، وكثيرا ما يكون ثملا من شرب الخمر مندفعا وراء شهواته فهو أبعد مايكون عن معنى المأساة والفاجعة ، هذا المعنى المتضمن أصـلا فى التراجيديا . والاعتراض الثانى هو ان النقوش التى اكتشفت على الاوانى والرسومات التى وجدت على الخزف فى القرنين السادس والخامس لا تمثل الساتير فى شكل الماعز بل فى شكل حصان وتعرف هذه الاشكال بالـ

Silences والرسومات التى تمثل الساتير فى شكل ماعز لم تظهر الا بعد ظهور التراجيديا

وانقاذا للرأى الذى يقول بأن التراجيديا تطوير للاناشيد التى كان ينشدها مغنون يرتدون جلد الماعز ، حاول بعض المفسرين تحويل الحصان الى تيس ، أى تحويل السيلين الى ساتير بالقول بأن السيلين كانوا يتصفون بصفات الساتير كالجموح والمرح والاندفاع الشهوانى

وعلى كل حال ان الذين يربطون بين التراجيديا وبين موكب المغنين المرتدين جلود الماعز لا يفرقون بين اصل التراجيديا واصل الكوميديا . فالكوميديا هى بدون شك مرتبطة بالاحتفالات التى كانت تقام اكراما للاله باكوس ، فبجانب الديثيراب الذى تحول الى التراجيديا حسب الرأى الشائع ، كان يؤلف موكب من جماعة من المهرجين المشاكسين ، ويطلق على هذا الموكب اسم كوموس فالكوميديا هى أناشيد الكوموس

لابد اذن من الفصل بين أعياد باكوس وما يتخللها من اناشيد وقصائد غنائية من جهة ومن تهريج من جهة اخرى وبين التراجيديا ، ومحاولة البحث عن اصل التراجيديا فى مجال اخر لكى نحافظ على الطابع المأسوى الحزين الفاجع الذى يميز التراجيديا عن الاعمال المسرحية الاخرى مثل الدراما الساتيرية والكوميديا والتراجيكوميديا هذه المحاولة قام بها Fermaml Rubert أستاذ الادب اليونانى فى السربون فى بحث له نشر عام ١٩٦٢

يعود روبر الى رأى كان سائدا فى الادب الفرنسى فى القرن السادس عشر مؤداه ان اصل التراجيديا يرجع الى احتفال دينى يقام اكراما للآلهة والموتى من الابطال وكان المحتفلون يقدمون للآلهه ذبيحة من فصيلة الماعز .

فاذا كان المحتفل به الها كانت الذبيحة تيسا أما اذا كانت ألهه كانت الذبيحة عنزه

ولكن ما علاقة هذه الشعائر الدينية بالتراجيديا ؟ الخطوة الاولى للاجابة على هذا السؤال نجدها فى تعليق دونه أحد الشراح القدماء على هامش نص من مسرحية يوربيدس Hécube يقول التعليق أن الكورس عندما يصل الى أوركسترا لكى ينشد النشيد الافتتاحى Pamds يدور حول الاوركسترا فى أتجاه ما ثم يدور فى الاتجاه المضاد الذى يسمى Thymêlé وهذا اللفظ معناه المذبح . والسير الدائرى فى اتجاهين متضادين يذكرنا باللابيرانت أو القصر الذى بناه ملك جزيرة كريت ميتوس وكان مكونا من دهاليز متشعبة بعضها مسدودبحيث أن الزائر يضل طريقه فيعجز عن الخروج منه الا اذا أهتدى بخيط أريان ويصف لنا هوميروس ما كان منقوشا على درع اخيل .. صفوفا من الراقصين ، بعضهم يسيرون فى اتجاه والبعض الاخر فى الاتجاه العكسى . ولا شك فى أن هذه الرقصة هى الرقصة نفسها التى انشأها تيزيه فى جزيرة ديلوس والرقصات التى كانت شائعة فى مناطق أخرى من بلاد اليونان وتعرف برقصة اللابيرانت

وهذه المساحة التى يحدثنا عنها هوميروس اكتشفها رجال الاثار منذ نصف قرن عندما كشفوا عن قصرمينوس فى مدينة كنوسوس . وفى الرسومات « الفريسك » التى تزين جدران غرف القصر ترى هذه المساحة وعلى جانبيها مدرجات تجلس عليها النساء لمشاهدة حركات الراقصين. وقد يكون من الطريف القول بأن المشاهد المسرحية فى العهد اليونانى الكلاسيكى مأخوذة من حفلات الرقص التى كانت تقام فى قصور كريتب من حوالى ١٥٠٠ سنة قبل المسيح ..

ولكن الامر الذى يهمنا هنا هو ان التراجيديا يرجع أصلها الى القصائد الغنائية التى كانت تنشد بمناسبة تقديم القرابين من التيوس . فان التيس منذ أقدم العصور ينظر اليه على أنه حيوان محمل بذنوب وخطايا الناس وان فى ذبحه خلاصا وتطهيرا من هذه الذنوب .. وهذا الاعتقاد ليس خاصا باليونان بل نجده لدى شعوب أخرى في العصور القديمة . وقد يصل الامر فى بعض الحضارات وحتى فى اثينا نفسها ان يحل انسان محل التيس فيصبح هو كبش الفداء . فنحن هنا بصدد شعائر دينيه الغرض منها تطهير القوم من شوائبهم ،من الدنس والرجس .. فيضحى الفرد فى سبيل خلاص أهل المدينة . أليس معنى « كبش الفداء » هو الذى يتجسد امامنافى التراجيديا ، من هو اوديب سوى هذا الانسان المحمل بالدنس والخطيئة والذى يدان على الرغم من براءته . ونزلت به المصائب والفجائع لكى يكفر عن ذنوب الاخرين ويخلص اهل المدينة من الكوارث التى أصابتها. اننا بصدد بطل حلت به لعنة القضاء والقدر ، لا لعنة الآلهة فقط لان الآلهة أنفسهم خاضعون لاحكام القضاء والقدر ..

وخلاصة القول ان أصل التراجيديا يرجع الى فكرة التطهير بتقديم الذبائح تكريما للموتى

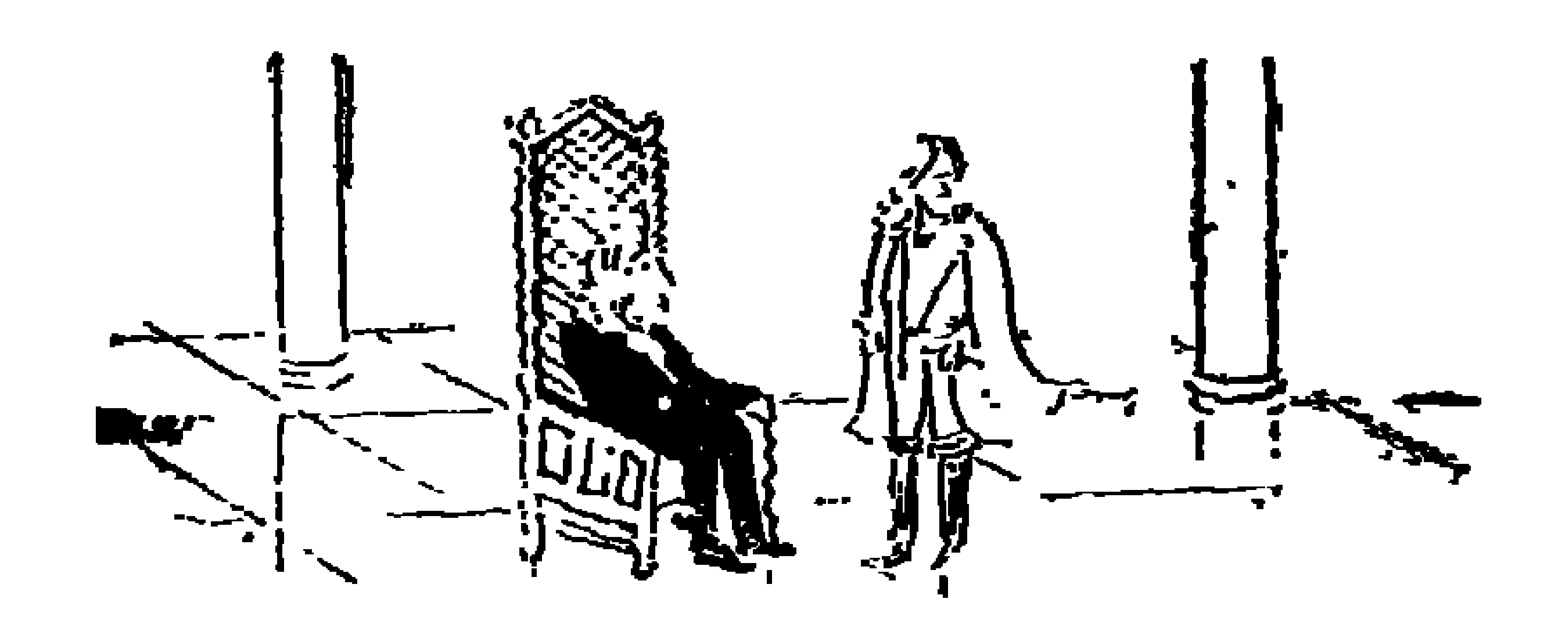
وتذكر النصوص القديمة أن مشاهد التراجيديا لم تكن بمناسبة الاحتفال بأعياد باكوس ، بل كانت تكريما لاحد الابطال كما ورد ذلك فى نص المؤرخ هيرودوت . ثم جاءت الاحتفالات بتمجيد الاله باكوس فأدمجت فيها الطقوس الجنائزية القديمة

ان هذا التفسير يتلاءم اكثر مع روح المأساة من

التفسير الذى يرجع التراجيديا الى رقص جماعة الساتير وما يتخلل هذه الرقصات من تهريج ومرح . فهو يربط بين الرقص التطهيرى حول المذبح وفكرة كبش الفداء ..

ويجب ان نذكر ان مشاهدة التراجيديا يكاد يكون أمرا اجباريا لجميع سكان المدينة وكانت مدرجات المسرح تتسع لحوالى ١٥ الف مشاهد . وفكرة الاجبار توحى باننا بصدد احتفال دينى لا مجرد احتفال ترفيهى . وكانت المشاركة بين الممثلين والمشاهدين مشاركة فعلية عاطفية .. فلم يكن الممثل يتكلم بصوته العادى ، بل كان القاؤه أقرب الى الغناء حينا والى الانين والنحيب حينا آخر كأنه كاهن يؤدى الشعائر الدينية . ومما كان يزيد من روعة الاداء وقوف الممثل على عكازين عاليين ووضع القناع على وجهه وتضخيم حجم جسمه بالملابس السميكة .

هذا هو جو المأساة وفى هذا الجو الرهيب المروع كان يبدو للمشتركين فى أحداث التراجيديا أن حجب السماء قد تمزقت وان الانسان فى سبيله الى أن يرتفع الى مراتب الآلهة أنفسهم ..



المسرح والتحليل النفسى

مقدمة

ان الاتجاه السائد اليوم نحـــو التخصص فى دوائر المعرفة والعلم بل التخصص داخل فرع واحد من فروع علم ما ، يحجب عن نظـرنا حقيقة هامة جوهرية هى أن فروع المعرفة مهما تعددت وتنوعت يمـكن ارجاعها الى عدد قليل من الاصول ان لم يكن الى أصـــل واحد • فالعصارة الحيوية التى تتجمع فى الجذور وتأخذ مجراها فى الجذع هى التى تتوزع فى جميع فروع شجرة المعرفة فى أوراق كل فرع منها وثماره

وعلى الرغم من الاختلافات العرضية التى نشاهدها بين مظاهر الثقافة المتعددة ، بل على الرغم من الاختلافات النوعية بينها فانه فى وسع النظرة الشاملة التأليفية ، التى تظل متمتعة بقدرتها على ادراك أوجه الشـبه من وراء أوجه الاختلاف ، أن تحس بالتجارب الذى يتردد صوته بين العلوم والفنون فى كل عصر من عصور التاريخ الانسانى ••

لننظر مثلا فى الحركات العلمية والادبيـة والفنية التى ظهرت بوضوح فى القرن التاسع عشر . فان الحـركه الرومانتيكية لم تكن مقصورة على الادب بل امتدت الى الفنـون التشكيلية والموسيقى والتاريخ والسـياسة والفلسفة ، بل أيضا الى بعض النظـريات العلمية التى كانت تحاول تفسير الظواهر البيولوجية ، ثم حدث رد فعل فى جميع هذه الميادين ترددت أثاره فى المدرسـة الواقعية والطبيعية فى الادب والتصوير وفى الفلسفة الوضعية ، لاوجست كونت وفى بحوث كلود برنارد لاخضاع الظواهر البيولوجية للضبط التجريبى ، وفى نظرية تين فى تفسير التاريخ وفى النقد الادبى والفنى ، كأن التطـور الذى يحدث فى مختلف مجالات المعرفة والبحث تعبير متعـدد الالوان والنغمات عن تغيير عميق فى جذور الحضـارة والثقافة ، تغيير هو محصلة الصراع الذى يقوم ويحتدم فى بعض الفترات الحرجة بين الامس والغد ، بين القديم والجديد ..

أن النشاط الانسانى فى صوره الفردية أو الجماعيـة على السواء ، تتنازعه قوتان ، احداهما محافظة والاخرى مجددة ، تتمثل الاولى فى الحركات التى أصبحت آليـة تعودية ، فى المتواترات والمتواضعات من الافكار والاراء، فى النظريات الادبية والفنية التى تنعت بالاكاديمية

وان كان لابد من أن يتلقى التلميذ عن معلمه أصـول العلوم والفنون فلا يمكن أن ترتقى المعرفة وتتطـور أساليب البحث والتعبير الا اذا تحرر التلميذ فيما بعد من المتواضعات التى تلقاها وثار عليها وكشف عن أسـاليب فى البحث والتعبير تحمل طابعه الشخصى دون القضـاء تماما على الاساليب الجديدة

والقول بالتجاوب بين شتى العلوم والفنون لا يعنى أنه يحدث لزاما فى وقت واحد وبصورة متوازية تماما ؛ بل العكس هو الصحيح فى معظم الاحيان اذ يسبق فن الفنون الاخرى ويصبح رائدها ثم ينتقل الاثر الى الادب فيلتقى مع تطور الفكر الفلسفى أو العلمى . ومما هو جدير بالبحث أن نكشف السر الذى يجعل فن التصوير بشكل خاص يسبق غيره من الفنون ، والاداب ، بل ينبىء أحيانا بما سيحدث فى النظريات العلمية من تغيير وانقلاب

فقد سبق التصوير الادب فى الحركة الرومانتيكية ، والمدرسة الانطباعية حررت اللوحة من البلاغة الزائفة الجوفاء ومهدت السبيل لكى يسترد فن التصوير لغته الخاصة به ، ويطهرها من شوائبها كما هو الحال اليوم فى الفن التجريدى . وسوف نرى أن المعيار الاساسى للحكم على أى انتاج علمى أو أدبى او فنى هو مدى استخدام اللغة الخاصة بكل مجال من مجالات الثقافة والمناسبة له ، والفن التجريدى الذى ترجع أعماله الاولى الى عام ١٩١٠ يعبر بصورة رمزية عما سيكون عليه عصر تفجير الذرة .. عصر يغالى من جهة فى التجريدالعلمى والرياضى والمنطقى ويغالى من جهة أخرى فى اللامعقول واللامنطقى ..

التجاوب بين المسرح والتحليل النفسى

والقول بالتجاوب الثقافى يصدق بصورة واضحة على الفنون المسرحية والعلوم النفسية وبخاصة على المأساة والتحليل النفسى لسيجموند فرويد . والادلة على ذلك كثيرة سوف نتناول بعضها خلال هذا البحث . ولكن المشكلة الجوهرية التى يجب اثارتها أولا هى طبيعة هذا

التجاوب وأسبابه . هل هو مجرد التقاء بين تيارين من الجهود كان لابد أن يلتقيا كما يلتقى عبقرى بعبقرى اخر فى الكشف عن حقيقة واحدة ، أم هو نتيجة تأثير متبادل بين أعمال ادباء المسرح وبحوث علماء النفس ؟ قد يكون هذا حينا وذاك حينا اخر . وعندئذ تثار مشكلة ثانية ، لا تتصل بموضوع الابداع والخلق كما هو الامر فى المشكلة الاولى ، بل بموضوع النقد واصدار الحكم على قيمة الانتاج المسرحى أو السيكولوجى

وحال الباحث حيال هاتين المشكلتين الرئيسيتين كحال المسافر ليلا فى قلب غابة مظلمة يلاحقه عند كل خطوة يخطوها موكب من الاشباح المشاكسة تجعله يتعثر فى سيره فما ان يتجه فى طريق ما حتى يضطر الى تغيير اتجاهه ليسلك طريقا اخر وهكذا حتى تتلاشى معالم الطرق كلها ويتوقف عن السير اعياء ويأسا ..

لابد اذن من وضع خطة السير اجمالا قبل الشروع فى هذه الرحلة المحفوفة بالاخطار . وأول فكرة تبادرنا هى ان كلا من علم النفس والمسرح يتناول تشريح النفس البشرية وتحليل سلوك الافراد فى مواقف معينة وتصوير شخصيات متنوعة بابراز مجموعة السمات الرئيسية التى تميز كل شخصية عن غيرها من الشخصيات .. وعلى ذلك يكون الموضوع الاول هو البحث فى طبيعة الموقف المسرحى أو الموقف الدرامى والى أى مدى من الصدق والعمق تجسم المواقف الدرامية المشكلات النفسية من حيث هى مواقف تتضمن الوانا من الصراع النفسى والاجتماعى فى علاقة الانسان مع الاخرين ..

قد يقال ان بعض روائع الفن المسرحى وخاصة فى المأساة لا تستلهم النظرة النفسية فى تحليل الشخصيات

والمواقف ، بل هى متأثرة بصور الانسان لعلاقته بالالهة وبالقضاء وبالقدر وبالقوى الغيبية وما اليها . هذا مــا لا يمكن انكاره ، بل يجب ابرازه وتأكيده بقوة لأن صلة المسرح بالتصورات الميثولوجية والدينية والفلسفية لاتقل وثوقا عن صلته بالعلوم النفسية ، بل يمكن القــول بكل اطمئنان ان هذه النظرة الاخيرة هى التى ستوضح لنـا طبيعة المسرح من حيث هو عمــل فنى لا من حيث هو فقط اداة تعليمية أو وسيلة من وسائل الاسقاط والتطهير والتسامى

وهذا هو الموضوع الثانى الــذى يفرض نفسه على الباحث وستقتضى معالجته تحليل لغة المأساة والكشف عما يميزها عن سائر لغات الفنون الاخرى وستمدنا هذه الدراسة بالمعيار الفنى الذى يمكن بمقتضاه الحكم على العمل المسرحى من حيث هو فن

وتؤدى بنا هذه النقطة الاخيرة الى تجلية جـانب هام من جوانب التجــاوب بين التحليل النفسى والمسرح فى القرن العشرين . وسوف نرى كيف أن كثيرا من الاعمال المسرحية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تبــدو لنا اليوم هزيلة وضعيفة لانها نسيت لغــة الفن المسرحى الاصلى وان نهضة هذا الفن فى القرن العشرين ترجع الى اكتشاف لغته مرة ثانية ..

وما يقال عن المسرح يقال كذلك عن العلوم النفســية . أضطر علم النفس فى النصف الثانى من القــرن العشرين الى أن يستعير فى تحليــلاته لغــة علم الكيميــاء مع المدرسة الارتبــاطية العنصرية ثم لغة عــلم وظائف الاعضاء مع المدرسة السلوكية حتى وصل الى مأزق لافتقاره الى لغة الانسان لا من حيث هو بوتقة للتفاعلات الكيميائية

ولا من حيث هو مجمـوعة من الروافع والتروس بل من حيث هو مصير يناضل داخل الشبكات الموقفيه التي تضمه، يناضل نفسه والآخرين لاسترداد حـريته والكشف عن حقيقته • وهذا هو فضل التحليل النفسي الذى حلل سلوك الانسان وكشف عن أعماق النفس البشرية بتحليل لغـة الانسان والاشارة الى ما فيها من نواحي الزيف والتصنع والتقنع حتى يرى الانسان صورته فى مرآة صادقة دون مجامله ولا ممالقة

الموقف الدرامي

لفظ « الموقف » من المصطلحات التى أصبحت مشتركة بين لغة المسرح ولغة علم النفس المعاصر • فى القـرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين كان الانسان فى نظر علماء النفس أقرب الى فكرة مجردة منعزلة منـه الى كائن حي يرغب ويفكر ويريد داخـل شبكة معقدة من المواقف • ولم يتجسم هذا التصـوير الحى للانسان الا بفضل دراسات فرويد من جهة وبحوث علمـاء النفس المنتمين الى المدرسة الجشطليتية فى مجـال علم النفس الاجتماعى أمثال كورت ليفين وتلامذته • هذا بالاضـافه الى اسهام الفينومينولوجية والوجودية فى جعل الانسـان المندمج فى الموقف وحدة لا يمكن تجزئتها

ان العمل المسرحي تجسيم لمواقف واقعية أو مـواقف يمتزج فيها الواقع بالخيال ، مواقف توحى بها الحيـاة اليومية أو تجارب حياة ماضية تبلورت فى الاساطير وفى ذاكرة الانسانية فى مراحلها التاريخية الاولى ولكن بعـد صياغتها فنيا وصبها فى قوالب لغوية مبتكرة ودفعها فى حركة تتابع موجاتها وشحناتها بلا انقطاع خـلال تكوين

العقدة حتى حلها أو تمزيقها أو تفجيرها . وتنشأ الحركة ابتداء من موقف وتتضخم ثم تلتف حول نفسها حينا ثم تنبسط حينا اخر ، منسابة تارة بلطف وهدوء حينا ثم مرة اخرى بقوة وعنف من موقف الى آخر فتتداخل مجالات القوى التى تشد بعضها بعضا جذبا ونفرا ، ثم تندمج فى المجال الاخير حيث تهبط الحركة وتسكن

فالموقف الدرامى يمثل اذن بشكل خاص التوتر القائم بين أشخاص المسرحية فى لحظة ما من لحظات الحركة . هو الصورة البنائية التى يرسمها فى لحظة ما نظام من القوى التى يجسمها ويحركها أو يعانيها أشخاص المسرحية فى هذه اللحظه .. ويقول أيتيين سوريو ان هذه القوى هى بمثابة وظائف درامية بمعنى أن كل قوة لا توجد ولا تعمل الا بعمل النظام الكلى الذى يضمها وهذا النظام الكلى هو الذى فى نهاية الامر يحدد طبيعتها ويجعلها تنشط وفقا لهذه الطبيعة . ولا تعمل هذه القوى داخل المشهد المحصور فى علبة المسرح فحسب بل هى مشدودة الى عالم المسرحية الاكبر الممتد بعيدا فى الزمان والمكان

ويستخلص سوريو من تحليل عدة مواقف مسرحية لما يقرب من مائة مسرحية وست وظائف درامية أساسية . ويذكرنا تحليله للمواقف الدرامية بتحليل كورت ليفين لقوى المجال فى المواقف النفسية الاجتماعية ، أو تحليل فرويد للمواقف الثلاثية وما تتضمنه هذه المواقف من توترات ومن ألوان من الصراع .. وفيما يلى عرض مختصر للوظائف الدرامية الاساسية ..

أولا : قوة دافعة ذات موضوع معين وموجهة تتمثل فى نزعة أو عاطفة تحرك أحد أشخاص المسرحية وترمى الى هدف وتوجه العالم المسرحى الاصغر كما يدور على خشبة

المسرح مكونة بؤرة العـــالم المسرحى الاكبر للمسرحية ، وتتجه النزعة فى اتجاهين رئيسيين متضادين هما الجذب والنفور ، الاقدام والاحجام • ولذلك يمكن ارجاع مختلف القوى المحركة الى قوتين هما الرغبة والخوف

واذا نظرنا شطر التحليل النفسى فاننا نلاحظ أن فرويد عندما يتناول تأويل الاحلام يفسر الحلم بأنه فى آن واحد الخوف من وقوع حوادث الحلم والرغبة فى أن تحدث كما فى حالة الحلم بموت شخص عزيز

ثانيا : الخير أو القيمة التى تتجه نحوها القوة الدافعة، أو بعبارة أدق المثل الشخصى لهذا الخير ولهذه القيمة ، أو ما يجسم القيمه فى العالم المسرحى الاصغر

هـــذا فى حالة ما تكون القيمة جاذبة ، اما فى حالة الخوف من وقوع الشر تصبح القيمة منفرة

ثالثا : الحاصل على القيمة التى تتمناها القوة الدافعة وليس من الضرورى دائما أن يكون الحاصل هو صاحب الرغبة ، فقد نرغب الخير لذاتنا ، كما فى حالة العشـــق أو نرغبه لغيرنا كما فى حالة حب الام لابنهـا أو فى حالة التضحية ••

رابعا : المعارض •• لا يصبح الموقف دراميا الا بوجود عقبة تحول دون الحصول على القيمة المرغوب فيها ، سواء كان النايل صاحب الرغبة أو شخصا آخر • فتكون صورة الموقف كالآتى : نزعة ـ هدف ـ مقاومة ـ نايل • قـــد يكون مصدر المقاومة عقبة مادية أو عقبة معنوية مثـــل المركز الاجتماعى ، أو الرأى العام ، غير أنه يجب أن تكون المقاومة مجسمة فى شخص حى أو فى عدة أشخاص لـكى يصل الموقف الى أقصى درجة من الشدة الدرامية

خامسا : الحكم أو مانح القيمة • هو الذى يملك القدرة على العطاء أو الرفض وقد تكون القيمة أو ممثلها شخصية مستقلة ، قادرة على أن تهب نفسها • غير أن دور المانح لا يكتسب قوته الدرامية الا فى علاقته مع المقاومة التى تبديها القوة الدافعة الموجهه أو مع المعارض وفى هذه الحالة تبرز وظيفة الحكم فى المقدمة

سادسا : العامل المساعد ، أو الشريك الذى قد يكون فى بادىء الامر غريبا عن الموقف الدرامى السائد ثم لسبب من الاسباب يتدخل فى الحركة ليدعم احدى القوى المتصارعة ، مما يؤدى الى تغيير التوازن والى تغيير محصلة القوى فى مجموعها

تلك هى الوظائف الدرامية الرئيسية التى تقوم بتأديتها شخصيات المسرحية والتىاستخلصها سوريو من تحليله لحوالى مائة مسرحية • هى بمثابة مخطوط عام يمكن أن ترجع اليه جميع المواقف الدرامية على اختلاف صورها ومهما تنوعت تفاصيلها وقد نهج سوريو فى هذا البحث الشائق منهج العالم الطبيعى الذى يستقرىء الجزئيات لردها الى أقل عدد ممكن من القوانين العامه • فالفكر لا يمكنه أن يرتقى الى مستوى الفهم والتفسير الا بفضل عمليات الوصف والتصنيف والتجريد والتعميم

ذكرنا أن الوظيفة الدرامية الاولى تتمثل فى قوة دافعة ذات موضوع معين تسعى للاستيلاء عليه أو الهروب منه وأن جميع القوى المحركة على اختلاف صورها تنقسم الى قسمين : قسم يتجه نحو قطب الرغبة ويتركز حوله وقسم يتجه نحو القطب المضاد ويتركز حول الخوف • وفيما يلى أهم هذه القوى الدافعة كما يذكرها سوريو :

أولا : القوى الدافعة التى تندرج تحت مفهوم الرغبة :

الحب بصوره المختلفة : الجنس ، العـــائلى ، حب الصديق لصديقه

التعصب الدينى أو السياسى

الجشع ، البخل ، السعى وراء الثروة ، الترف ، اللذة البيئة الجميلة المراتب الســنية والدرجات الرفيعة ، السلطة

الحسد ، الغيرة

البغض ، الرغبه فى الانتقام

حب الاستطلاع ، العيانى ، الحيوى ، الميتافيزيقى الوطنية

الرغبة فى مهنة معينة

الحاجة الى الراحة ، السلام ، اللوذ ، الخلاص ، الحرية

الحنين الى شىء آخر غير محدد ، الى الوجود فى مـكان إخر غير محدد

الحاجة الى البراءة والطهارة والفضـيلة والغفـران والنسيان

الحاجة الى التحمس والتهلل ، الى النشاط والعمـل أيا كان ، الى الشعور بحياة مليئة غامرة ، الى تحقيـق الذات

ثانيا : اهم القوى الدافعة التى تندرج تحت الخوف والخشيةهى:

الخوف من السقوط فى أهوية الشر

الخوف من الموت ، من الخطيئة ، من تأنيب الضمير ،

من الألم والبؤس ، من القبح والمرض والملل ومن فقدان الحب والعطف

الخوف من اصابة الاهل والغرباء بالشقاء والالم والموت ، والدنس المعنوى والانحطاط

ثم هناك مجموعة الآمال أوالمخاوف المتعلقة بعالم الغيب، بعالم ما وراء الموت

ويتولد الموقف الدرامى عندما تنشط احدى هذه القوى ، ولا يرجع تفاوت درامية الموقف الى نوع القوة الدافعة بل الى درجة تنشيطها وما تمتاز بها من قوة الدفع

الموقف التحليلى النفسى

من اليسير أن نتبين مما سبق وجوه الشبه العديدة بين المواقف الدرامية وما يحتدم فيها من صراع بين الرغبات المتعارضة وما يكشف عنه التحليل النفسي لا فقط من المواقف التي يعانيها الشخص أثناء التحليل والتى تتضمن ألوانا من الصراع العنيف بين شتى الميول والنزعات، بل ما يكشف عنه أيضا لدى أى شخص ليس فى حاجة الى علاج ، من ألوان شتى من الصراع اللاشعورى كما تعبر عنه بصورة رمزية الاحلام وفلتات اللسان وبعض الاخطاء غير المقصودة فى الظاهر وبعض حالات السهو والنسيان

ان العلاقة بين المسرح والتحليل النفسي ليست وليدة هذا العصر وليست بالعلاقة العرضية الجزئية · ان الصلة التى تربط بينهما صلة جوهرية أصيلة ، ويمكن القول أنه لا وجود لمسرح بدون تحليل نفسى ، كما أنه لا وجود لتحليل نفسى بدون مسرح · فى كتابه « اعترافات مؤلف مسرحى » يقص علينا هنرى رينيه لنورمان زيارته

لفرويد فى فينا • وبعد أن دار الحديث حول مسرحيـــة لنورمان « ملتهم الاحلام » وتأثر بعض المسرحيات المعاصرة بالتحليل النفسى ، إتجه فرويد نحو مكتبته وأشـــار الى مؤلفات اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس وشـكسبير وهو يقول :هؤلاء أساتذتى ،وفى أعمالهم كفالتى وضمانى• فدهش لنورمان لاهمية هذا التصريح وتواضعه ، ومن رأيه أن التحليل النفسى يظل أكثر السبل جرأة التى شـــقها الانسان للكشف عن أعماق النفس البشرية وتجليـــــة غوامضها ••

من أبرز سمات التحليل النفسى أنه يقدم لنا عـــــلم النفس فى صياغة درامية وتبدو الشخصية كأنهـا مسرح للصراعات القائمة بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ، بــــين مختلف الاجهزة النفسية ، اللهو ، والانا والانا الاعلى • نعم ان هذه الإجهزة ليست موجودات مستقلة قائمة بذاتهـا ، ولكنها قابلة لأن تأخذ فى أسلوب الاديب صورة شخصيات تحتدم بينها فى سريرة الانسان حرب قاسية ، ان أشباح هذه الحرب الضروس تطوف فى أعمال الادباء واعترافاتهم• ان الفنان المصور ديلاكروا كان يقول لاستنندال : اننامزيج غريب من الاضداد لا يمكن تفسيره ، ان كل شخص يحوى فى باطنه عشرة اشخاص وقد يحدث أحيانا أن يظهر هؤلاء الاشخاص دفعة واحدة

والموقف التحليلى أثناء العلاج قريب الشـــبه بالمواقف الدرامية ، ان على المريض أن يقوم « باخراج » مأســـاته الداخلية ، أن يطارد الاشباح التى تسكنه أن يلمسالصراع القائم بينها وأن يعانى هذا الصراع المرة بعد الاخـــرى ، وأن يستشف خطوط هذا الصراع من خلال الاحــــــلام والتبدلات الرمزية ، من خلال هذه التعبيرات التي تحمل

طابع الفن الطفلى البدائى الساذج . فالحياة الداخلية ليست الا مأساة تدور وقائعها بين عدة شخصيات ، مأساة تبدو في بادىء الامر محملة بأحكام القضاء والقدر القاسية ، مثقلة بغيوم التشاؤم واليأس ، ثم ، مع تقدم العلاج ،لا تلبث هذه الغيوم أن تنقشع ، وبفضل كشف المريض عن حقيقته بمعونة المحلل ، وزيادة استبصاره بالدوافع التى تتنازعه ، واعادة معاناته للمواقف المؤلمة الصادقة التى عاشها من قبل ، تتطور حركة المأساة أثناء التمثيل والامتثال فيتم التطهير ويكتمل الفهم بعد تألم وتأمل ويسترد البطل حريته وانطلاقة ، حرية التعبير والفعل ..

ان المآسى الفردية تنحصر فى عدد قليل من النماذج الثابتة ، هذه النماذج التى تصورها لنا الاساطير القديمة، هذه التصورات الشعرية التى تلخص فى حوادثها وفى تكوين عقدها تجارب الانسانية فى مصارعتها القضاء والقدر والقوى الغيبية الغاشمة القاسية . وليس من الغريب أن أوديب هو فى آن واحد أب المسرح وأبالتحليل النفسى واذا كانت أعمال سوفوكليس لا تزال تثيرعواطف القارىء أو المشاهد فسبب ذلك ، كما يقول فرويد ، هو أن المأساة اليونانية هى مأساة كل منا ، لان كل واحد منا هو أوديب فى صراع داخلى مع القضاء والقدر

ان المسرح المأسوى ، فى تصويره للعلاقة بين الانسان والآلهة ، ارتقى دفعة واحدة الى القمة فى ثلاثية اسخيلوس « الاورستيا » حيث يقبل الالهة فى نهاية الامر أن يشترك الانسان معهم فى اصدار أحكام العدالة ، فكما أن بروشيوس عارض ارادة زوس اله الآلهة ، وسرق النارمن موكب الشمس ليمنحها من جديد للبشر بعد أن حرموا

منها ، فان أورست ، بمعـــاونة أبوللو وأثينا وهما من الآلهة المحدثين ، يغتصب من قدامى الآلهة حق الانسان فى تقرير مصيره ، انه بروشيوس اخر بعد أن حطم أغـلاله ونجا من العذاب الابدى

ان الاورستيا لم تنل بعد قسـطها من التحليـل السيكولوجي كما فازت به مآسى سـوفوكليس . ان من خلال الاسطورة التى يصورها اسخيلوس الشـاعر والتى تمثل الصراع بين الانسان وقضاء الآلهة يحاول اسخيلوس الخبير بخبايا النفس البشرية أن يتتبع نشأة العـواطف وسيرها فى اللاشعور ثم صداها فى الشعور فى صـورة الاضطراب النفسى والقلق . ففى الاورستيا كما يقول بول أرنولد « يمتزج الجـانب الانسـانى بالجانب الآلهى والجهنمى امتزاجا حميما ، ويمتزج التصوير الدقيـق بالتركيبات العقلية ، بالموجودات التى تبعثها المخيلـة الشعرية او الصوفية ، وليس من العجيب ان نشاهد فى هذا العمل طغيان الجانب الصـوفى على الجـانب السيكولوجي وتشويهه» ، اذ ان معرفة اسخيلوس للانسان كانت من قبيل المعرفة الغريزية ، عن طـريق الحدس الصادر عن القلب أكثر منه عن طريق الملاحظة البادرة ..

ان المأساة تكشف بالتدريج عن العقد النفسية المتضمنة فى الاسطورة مثلها فى ذلك مثل العلاج بالتحليل النفسى . انها تقدم لنا مرآة صارمة تدعونا بدون اية رحمـة الى مراجعة انفسنا وفحص ضميرنا دون غش او مجاملة . وكما ان للمأساة تأثيرها فى تحطيم بعض القيود التى تقهر حريتنا ، وفى تطهير انفسنا من اهوائها وانفعالاتها المؤلمة ، فالتحليل النفسى هو أيضا يرمى الى تحريرنا وتطهيرنا من الخداع الذاتى ومن مخاتلات الشـعور ، وذلك بطرد

الاشباح وخفض عدد الشخصيات الباطلة الزائفة التى تتطاحن فى المأساة الداخلية ..

ولا يرجع الاثرالتطهيرى الىتسلسل مواقف المسرحية فحسب ، بل يرجع ايضا الى اللغة الشعرية التىتخلق الجو الملائم للاشتراك فىصميم الحركة الدرامية ومشاركة الابطال فيما يعانونه من آلام وعذاب ، من يأس وأمل . وقد سبق أن ذكرنا ان انحطاط التأليف المسرحى فىالقرن التاسع عشر يرجع الى فقدان لغة المسرح شاعريتهـــا ورمزيتها وقدرتها على الايحاء ، كانت لغة خطابة جوفاء، مجرد طنين عاجز عن أن يكشف عن حقيقة الشخصيات وبالتالى عن أن يبصر المشاهدين بحقيقتهم

ان المسرحية لا ترمى فقط الى حل الصراع القائم بين اشخاصها والى مساعدة المشاهدين على حل صراعهم بل قد تقوم ايضا بمساعدة المؤلف على حل ما يعانيه هو من صراع . غير ان الرابطة التى تربط بين المؤلف وعمـــله المسرحى وجمهور المشاهدين ليست بســـــيطة . ان المسرحية بعد أن يتم تأليفها تنفصل عن مؤلفها وتصبح الى حد كبير ملكا للممثلين وللجمهور ولا يتم خلـــق المسرحية ولا يستكمل وجودها الا بتمثيلها أمام جمهور قادر على التذوق والتجاوب . ولكى يرتقى عمل المؤلف المسرحى الى مستوى الفن لابد من ان يتجـــاوز حدود الاعترافات الذاتية وان تتلاشى الخبرات الشخصية وراء الصياغة الفنية لكى تصبح تعبيرا عميقا صادقا عن حقيقة انسانية عامة وتصبح مواقفها مواقف شاملة كلية ..

ولهذا السبب لا ترقى جميع اعمال المؤلف المسرحى الى مستوى الفن الاصيل فكلما حجبت فردية الكاتب بآلامها وخبراتها الشخصية حقيقة الانسان العميقـــة

الشاملة كان العمل ضعيفا وذا قيمة عابرة . أن صرخة الالم وحدها مهما كان تأثيرها قويا فى تمزيق احشاء المستمع ليست رائعة فنية فى حد ذاتها ، قد تخفف هذه الصرخة من حدة الصراع الداخلى الذى يعانيه الاديب وتطهر نفسه وتصقل ذهنه وتزيد استبصاره عمقا ونفاذا وتهيئة لمخاطبة الاخرين بعد أن كان يكتفى بالمناجاة الفردية ولكنها لكى يتولد عنها عمل فنى خالد لابد من اعادة صياغتها بالتبدل والتلويح والتلميح فى جو من الشعر والسحر والافتتان . .

فالمسرحية الاولى التى يكتبها الاديب الذى تملكه شيطان المسرح كثيرا ما تكون عملية تحليل ذاتى تؤدى الى تخفيف عبء الصراع الداخلى وسنذكر مثلا مقتبسا من اعمال الاديب المسرحى الكبير يوجين أونيل ، منشىء المسرح الامريكى الاصيل والذى التقى فى بعض مسرحياته بفرويد منشىء التحليل النفسى . انى أوثر أن اقول « التقى » بفرويد بدلا من ان اقول « تأثر » بفرويد ، لان أونيل أديب أصيل وشاعر ملهم ومفكر عميق بفضل ما أوتى من نفاذ الحدس ، وله قدرة على استشفاف غوامض النفس البشرية . ان اونيل فى ثلاثيته الرائعة « الحداد يليق بالكترا » لم يستوح فرويد مباشرة بل اسخيلوس نفسه ، وعندما يستخدم الاقنعة فى ثلاث من مسرحياته هى : **« براون الاله الكبير »** و «عازاريضحك» و « فاصل غريب » لكى يبرز التعارض بين شخصية الانسان الاجتماعية وشخصيته الداخلية الحميمة ، انما يستوحى ايضا المسرح القديم . فنفاذ اونيل الى اعماق النفس البشرية ليس مجرد صدى لتأثير فرويد عليه ، بل محصلة خبراته العديدة وتأملاته وهو على فراش

المرض واصطداماته بنفسه وبالآخرين . ان أونيــــل اكتشف من جـديد رسالة الاساطير القديمة فأحياها فى صور حديثة جديدة ولم يعن بأن يترجم الى لغة المسرح تعاليم التحليل النفسي عن العقد واللاشعور ؟ واذا كانت معظم الاعمال المسرحية التى استوحت مباشرة تعـــاليم التحليل النفسى قد ماتت فذلك لانها حصرت نفسها فى دائرة التحليل النفسى من حيث هو علم ولم تتجـاوزه للوصول الى التحليل النفسى من حيث هو خبرة وحدس والهام شعرى (١)

التعبير الذاتى فى التأليف المسرحي وأثره التطهيرى

قلنا أن المسرحيـــة تســـاعد مؤلفها على حـل صراعه الداخلى نفسه واطلاق عبقريته المبدعة . ومن الادلة على ذلك مسرحية أونيل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٣) رحلةالنهارالطويل فىجوف الليل Long day's journey into the night لم تمثل هذه المسرحية ولم تنشر الا بعد وفاة أونيل كما لو كان كتبها لنفســـه ، والواقع انهـــا أدت دورها فى تقوية ذات المؤلف وتدعيم عبقريته . انها منبعثة من تاريخ مراهقته مطابقة بقسوة للواقع المؤلم الذى عاشه الشاب القلق ؛ فكتبها بصورة مباشرة دون أى تبدل او صياغة فنية

منذ عام ١٩١٢ كان اونيل فى أمس الحاجة الى التخلص من عبء ذكرياته المخيفة والى اســـتئناس هذه الذكريات بسردها وانتزاعها من دياجير الليـــل الرهيب ، فتحولت يومياته الى حوار ، وهذا يفسر لنا طرافة هذا العمل وفى الوقت نفسه حدوده من الناحية الفنية

---

(١) ما نقوله هنا عن عـــلاقة الابداع الادبى بالتحليـــل النفسى يصدق ايضا على علاقة التحليـــل النفسى بالنقد الادبى .

فى بيت قديم متداع على شـاطىء البحر بالقرب من نيويورك أربعة اشـخاص يعيشـون فى جو من الحب والصراع معا : الاب ، ممثل عجوز فاشل ، يأكل أحشاءه بخل فظيع . الام ، كانت تعالج من ادمان المخدرات وهى تقاوم بدون ادنى أمل نداء المخـدر .وتريد أن تلجـأ مرة ثانية الى فردوسها المفقود . الاخ الاكبر ، مستهتر ، ثائر على القانون والاخلاق ، عديم الاحساس ، بليد الضمير ، ثم الاخ الصغير ــ وهو يمثل اونيل نفسه ــ مريض مصاب بذات الرئة يحاول بكل قواه ان ينجو من هذا الدمار الذى يهدد أسرته وأن يصون عبقريته وينمى مواهبه الادبية

ولكن ليس فى استطاعة أحد أن يهرب من الليل الذى يزحف من الاعماق ليلفه ويغمره بظلامه ، لا جدوى من مقاومة القضاء والقدر وكل خطوة الى الامام تزيد من عزلتـه الموحشة وكل عمل يحاوله لانقـاذ الذين يحبهم يتحول الى سلاح ضده وكل عاطفة حب تقـابل بالرفض والتعذيب . ليس الجحيم شبحا يهددنا من بعيد ، ان كل واحـد منا يطوى جحيمه بين جـوانبه وفى أعمـاق نفسه . .

ان جـو الاسرة مظلم ، كئيب ، ثقيـل ، خانق ، وكل حركة تدفع شخصيات المسرحية الى الهاوية . ويصـور لنا اونيل هذا السباق الى الدمار بأسلوب واقعى الى حد الهلوسة ، غير ان من يشاهد المسرحية يعجز عن أن يدخل فى جو هذا الموقف المأسوى ، وان يشارك اونيل رؤياه المخيفة مشاركة وجدانية

لم يكن اونيل قد وصل بعد الى السيطرة تماما على ماضيه . كان فى حاجة الى كتابة هذه المسرحية ، الى ان يصرخ صرخته لترويض ذكرياته الجامحة وتنقيتها مما

تحويه من سموم الرعب والعذاب وبكتابة هذه المسرحية قام بما قد يشبه عملية التحليل النفسي الذاتي (١) ، وتحرره من سلطان الماضي المؤلم حرر في الوقت نفسه قدرته على الابداع والخلق ، فبعد أن كان يكتب ويخاطب نفسه ، أصبح قادرا على ان يخاطب الاخرين بفنه وان ينشيء بحق عمله الفني

المسرحية شفاء وتطهير المشاهد

المسرحية الناجحة هي التي تحقق اشتراك الجمهور اشتراكا حيا يتقمص الشخصيات والاتحاد بها ، او بالثورة عليها وهذه الثورة هي أيضا ضرب من ضروب

---

(١) نقول بكل تحفظ بما قد يشبه عملية التحليل النفسي الذاتي » ؟ لانه هل في استطاعة الكاتب ان يحلل نفسه عن طريق اثاره ! انه على الرغم من بعض وجوه الشبه التي ذكرناها بين المواقف الدراميه والمواقف التحليلية هناك فرق جوهري يجب ذكره : التحليل النفسي هو تحليل اللاشعور ، ويقتضي العلاج ان يقول المريض كل شيء والا يقوم بعملية اختيار بين ما سيقوله وما يمتنع عن ذكره ، كما انه من واجب الطبيب المعالج ان يحاول القاء الضوء على كل صغيرة وكبيرة لكي لا تتركز الاداتة في الجانب الذي أغفل ذكره . اما فيما يختص بالكتابة الادبية فان الانشاء الأدبي يقتضي الاختيار والصقل والنقد ، في حين ان اللغه التي يستخدمها المريض أثناء التحليل لغة تشوقها الارتباطات الحرة الطليقه بين المعاني والصور وبالتالي تكون مجردة من كل قيمة فنية . ولهذا السبب قلنا ان مسرحية أونيل على الرغم من طرافتها محدودة من حيث قيمتها الفنية) لانه التقى بأن يحول اعترافاته الى حوار . فكتابة المسرحية بالنسبة الى مؤلفها لا تؤدي الى علاج كامل ، انها تظل الى حد كبير تصوير لاعراضه المرضية وهذه الاعراض هي بمثابة رموز لا يمكن أن يمثلها الا شخص اخر غير المؤلف نفسه . كل ما يطلبه الاديب بكتابة اعترافاته في صورة قصة اومسرحية هو ان يقوم الاخر بتقويه ذات المؤلف ، بأن يقدم له الصفح والعفو وان يجعله يشعر بأنه بريء بفضل ما يثيره لدى القاريء او المشاهد من عطف ومشاركة وجدانية

الاشــتراك والمشـــاركة ويجب أن نذكر مرة اخــرى ان المسرحية ليست النص المكتوب ، ان وجودها لا يكتمل الا بالتمثيل والاخراج والديكور والجمهور وآراء النقاد ان المسرحية تخلق كل ليلة ، ثم تموت ، ثم تبعث من جديد وفى كل ليلة تتغير بعض ملامحها ، وتنجلى بعض محاسنها الكامنة وتظهر بعض دلالاتها الخفية فهى كالكائن الحى تنمو وتتطور ، لان عمادها حضور اشــــخاص بلحمهم ودمهم ، بنبرات اصواتهم وخفقان قلوبهم ، وكل هذا فى جو من الخداع الرائع ، جو الاساطير التى غذت قلب الانسانية فى الماضى ولا تزال تغذيها

ليس من الغــــريب اذن ان تهز مواقف المسرحيــــة المشـــاهدين وان يتغلغل تأثيرها فى الاعمـــاق وان تطلق حركات النفس وتبعث صراعات كانت كامنة وتؤدى الى تفريغ شحناتها المؤلمة فتهدأ النفس وتصفو

وتأثير المسرحية ليس مقصورا على فائدتها الاخلاقية وان نظرية ارسطو فى ان المأساة تطهر النفس من اهوائها لم تؤول دائما التأويل الصحيح . ذهب بعضهم الى ان المسرح قد يكون مصدر شر ، بل انه شر فى ذاته ولا بد من تبريره واقامة شرعيته والتدليل على أن عواقبه حميده تخدم الخير والفضيلة . الواقع ان المسرح لا ينتمى اصلا وفى جوهره من حيث هو عمل شعرى ابداعى الى دائرة الخير والشر ، كما ان المحلل النفسى الاصيل ، الملتزم لتعاليم فرويد ، لا ينظر الى عمله من زاوية الخير والشر ، من زاوية الفضيلة أو الرذيلة ، انه يحاول أن يحرر مريضه من رباقه وأن يدعم ذاته وأن يعيد اليه القـــــــدرة على الاختيار الحر وبذلك يمهد له السبيل للانضمام الى الجماعة البشرية والاشتراك فى نشاطها . المحلل النفسى

يساعد الانسان على الكشف عن حقيقته وعن زيوف اللغة التى يستخدمها وعن حيل اللاشعور وتبريرات الشعور المخدوع لكى يسترد الانسان حريته ويكشف عن حدود قدرته ومدى ضعفه

والفن المسرحى ، كما يرى توشار ، شأنه شأن التحليل النفسي . ان اله الفن المسرحى هو قبل كل شيء اله الانطلاق وتجاوز حدود الذات وتحرير العواطف ان هدف المسرح ان يبين للانسان الى اى حد اقصى يمكن ان يصل اليه الحب والكراهية والغضب والفرح والخوف والقسوة ، ان يجعله يستشعر بامكانياته ، بما يمكن ان يكونه فى عالم متحرر من القيود ، تلك هى الرؤية التى يلتمسها الانسان من المسرح ، رؤية عالم يكشف فيه عن ذاته . اننا هنا بصدد حقيقة سيكولوجية ، حاجة الانسان الى أن يختبر دائما حدوده القصوى ، سواء فى الخير او الشر . وهذه الحاجة ليست الا مظهرا من حاجة اعمق هى الحاجة الى الحرية ، لان ممارسة الحرية هى فى نهاية الامر الشرط الاساسى لتكامل الشخصية

وحيث ان حريتنا محدودة ومراقبة ، فى كثير من ميادين نشاطنا ، فان تصور الفعل الذى يطوف فى احلامنا ، أو امتثاله أو مشاهدته ، كل هذا يقدم لنا التعويض الذى يخفف الى حد ما من الحاح حاجتنا الى الحرية . غير أن التعويض الذى تحصل عليه من قراءة قصة أو مشاهدة فيلم سينمائى لا يؤدى الى التطهير الكامل ، فى حين أن التطهير يصل الى أقصى مداه بفضل مشاهدة المواقف المسرحية التى يحياها حاضرون لهم وجود عيانى ملىء . تلك هى المعجزة التى يحققها الفن المسرحى وهى شبيهة بالمعجزة التى يحققها العلاج بالتحليل النفسى ..



دراســة فسيولوجيــة للأحــلام

ان موضوع الاحلام من الموضوعات التى تثير اهتـــمام العامة والخاصة . فقد تناوله منذ أقدم العصور الفلاسفة والاطباء وعلماء النفس ، فضلا عن المعتقدات الشعبية التى ورد ذكرها فى الاساطير والقصص ، والكتب القديمة فى تفسير الاحلام تذهب جميعها الى ان للاحلام قيمة تنبؤية للكشف عن المستقبل من خير أو شر ، بل كان قدماء الاطباء يعتمدون على معرفة أحلام مرضاهم كوسيلة من وسائل التشخيص ، تشخيص مزاج الشخص وما قد يعترى هذا المزاج من اضطرابات وامراض ، ومن أقرب الامثلة لنا الفصل الذى كتبــه الطبيب العربى الـكبير ابو بكر الرازى فى كتابه « الطب المنصورى » فى فائدة الاحلام فى التشخيص والعلاج

ومهما كانت قيمة التأويلات التى قيلت فى تفسير الاحلام فان النقطة الاساسية التى تسترعى نظرنا هى ان الانسان اعتقد دائما ان للاحلام دلالة وانها تؤدى وظيفة . وقد تعاقبت النظريات حتى جاء فرويد فى مطلع هذا القرن ونشر كتابه فى تفسير الاحــلام فى ضــوء نظرية التحليل

النفسي وبين ان الحلم بوجه عام ارضاء رمزي لرغبات مكبوتة . وهذه الحقيقة أصبحت راسخة لا تقبل الجدل ..

وبعدهذهالدراسة المستفيضة التىقامبهافرويدوتلامذته فى دائرة البحوث النفسية يجب ان تأتى خطوة جديدة لاختبار قيمة التفسير السيكولوجى بالكشف عن الشروط الفسيولوجية التى تشترك مع العوامل السيكولوجية فى احداث وتعيين ظاهرة الاحلام ، والمقصود بالشروط الفسيولوجية تحديد المنطقة الدماغية التى تضبط عملية الاحلام اثناء النوم ومعرفة العوامل البيوكيميائية التى تنشط هذه المنطقة او تجعلها تكف عن العمل ..

وقد بدأت هذه البحوث الفسيولوجية منذ بضع سنوات فقط فى جامعة شيكاجو وجامعة استانفورد بامريكا وقد أنشأت جامعة ليون فى فرنسا معملا خاصا ليقوم فيه الدكتور جوفيه **jawvet** وزوجته بدراسة الميكانيزمات الفسيولوجية للاحلام لدى الانسان والحيوان . وفيما يلى ملخص للنتائج التى توصل اليها العلماء حتى الان

ان وظيفة الاحلام مرتبطة بوظيفة النوم . ومن المعروف أن نشاط الخلايا العصبية فى الدماغ تختلف باختلاف حالات الصحو والنوم ، فى حالة تنشيط الحواس او كفها وبخاصة حاسة البصر ، كما انه يختلف تبعا للصحة والمرض . ونشاط الخلايا العصبية الدماغية المقصود هنا هو النشاط الكهربائى . فمن المعلوم ان كل خلية فى الجسم هى بمثابة مولد للكهرباء . وقد صمم منذ حوالى ثلاثين عاما الدكتور هانس برجر جهازا لالتقاط التيارات الكهربائية التى تولدها الخلايا الدماغية

وتسجيلها . ويعرف هذا الجهاز بالرسام الكهربائى للمخ Electro - encephalographe ويسمح هذا الجهاز بدراسة نشاط مختلف مناطق المخ فى شتى الظروف والحالات من صحة او مرض ، من صحو أو نوم ، وتبعا للمستويات المختلفة للنشاط الحسى والتخيلي والفكرى

وبتسجيل الموجات الكهربائية الدماغيـــة أثناء النوم اكتشف العلماء ان خلال مدة النوم يمر النشــــــاط الكهربائى للمخ بأربعة أو خمسة أطوار يختلف تسجيل نشاطها الكهربائى عن تسجيلات بقية مدة النوم . ويطلق على هذه الاطوار التى تمثل حوالى ٢٠٪ من مدة النوم اسم الاطوار المفارقة Phases parodonales وكل طور مفارق يدوم من خمس دقائق الى أربعين دقيقة . وقد سميت هذه الاطوار بالمفارقة لان النشاط الكهربائى للمخ أثناء هذه الاطوار يختلف عن النشاط أثناء النوم الحقيقى وقد وجد ان الانسان يحلم أثناء هذه الاطوار المفارقة . فكان المجرب عندما يظهر الطور المفارق أثناء النوم يوقظ النــــائم ، ففى ٨٠ ٪ من الحالات كان الشخص يتذكر حلمه بكل دقة ويبدى رغبة شــــديدة فى العودة الى النوم لكى يواصل الحلم الذى انقطع . أما فى الـ ٢٠٪ من الحالات كانت ذكرى الحلم غامضـــة أو منعدمة تماما . يجب أن نذكر هنا ان كل انسان سليم قد ينسى تماما الاحلام التى رآها فى نومه . فعدم تذكر الاحــــلام لايعنى أبدا أن النائم لم يحلم ، مادام نومه الطبيعى قد تخللته فترات من الأطوار المفارقة

وهنا علينا ان نطرح السؤال الاتى : ماذا يحدث لو حرم الشخص من النوم وبالتالى من الاطوار المفارقة أثناء النوم ، لمدة ثلاثة أو أربعة أيام متتالية . قد أجريت هذه

التجربة على متطوعين وكانت النتيجة انهم بداوا يعانون من خدعات بصرية تحولت بالتدريج الى هلوسات . وقد أجرى الدكتور جوفيه فى جامعة ليون تجاربه على القط . استأصل مخ القط دون المساس بالنخاع المستطيل الذى يحوى مراكز التنفس والدورة الدموية ، فظـــل القط فى حالة صحو لمدة عشرة أيام ثم مات . ومعنى هـذا ان وظيفة النوم من الوظائف الحيــوية كالتغذية والتنفس مثلا ..

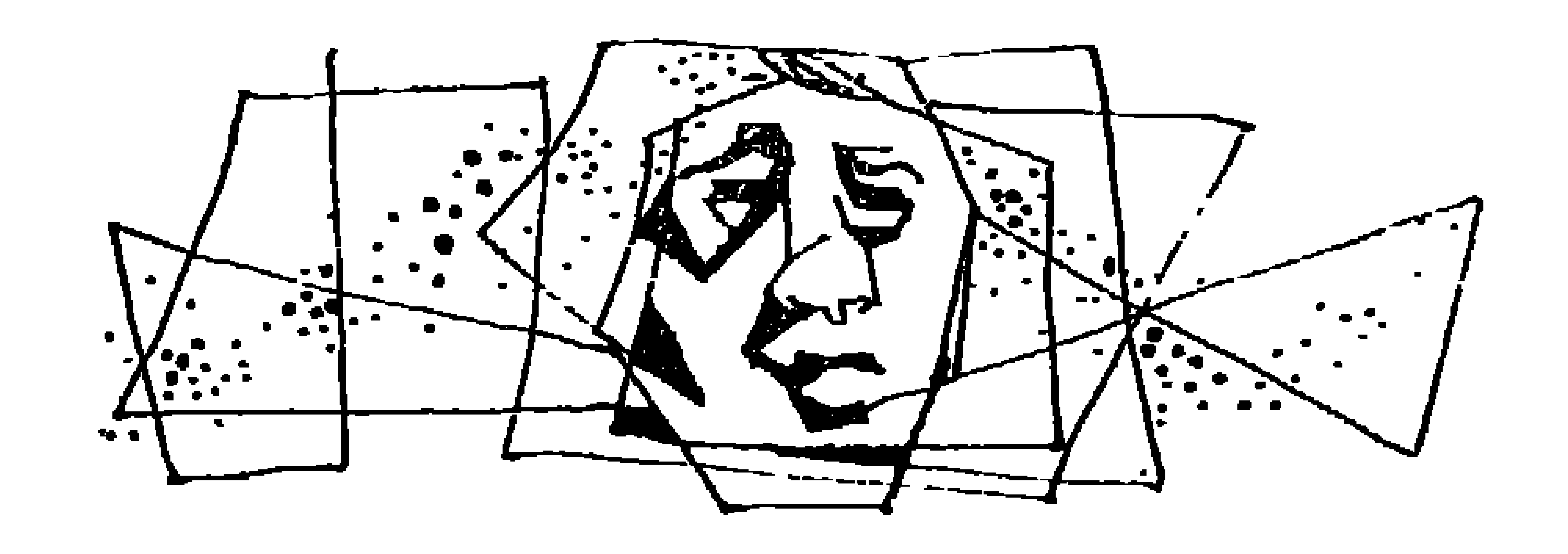
ثم قام الدكتور جوفيه بتجربة ثانية فلم يستأصل اى جزء من الدماغ بل عطل عن طريق التجميد الكهربائى Electrocoagulation منطقة صغيرة فى قنطرة فاردل تعرف بالتكوين الشبكى فلم يحرم القط من النوم ولكن لم تظهر الاطوار المفارقة التى تحدثنا عنهــا والتى تحدث الاحلام أثناءها . ونتيجة لهذه التجربة ظل سلوك القط طبيعيا لمدة أسبوع ثم بدأ يضطرب كأن الحيوان وقع فريسة لهلوســـات مخيفة . فكان يستيقظ فجأة وهو فى حالة اضطراب حركى عنيف وتبدو عليه علامات الخوف والغضب كأنه يواجه عدوا يريد الانقضاض عليه والفرار منه . وأخذت هذه الهلوسات تزيد يوما بعد يوم حتى مات القط من الانهاك ..

وقد لوحظ أن فى حالة الابقاء على جزء صـــغير من التكوين الشبكى لاتستمر حالة الاضطراب بل يعود القط الى سلوكه الطبيعى وتظهر فى نومه الاطوار المفارقة وتزول الهلوسات تماما . والنتيجة التى نستخلصها من هــذه التجربة هى أن الحيوان وبالتالى الانسان فى حاجة الى النوم فحسب ، بل الى وجود الاطوار المفارقة أثناء النوم اى الى الاحلام

فالاحلام اذن تؤدى دورا هاما فى المحافظة على الصحة

الجسمية والعقلية ، هى كما يقول فرويد وسـيلة من وسائل اعادة التوازن النفسى عن طريق الارضاء الصريح أو الرمزى للرغبات المكبوتة أو الرغبـــات التى يمكن ارضاؤها فى حالة الصحو . الاحلام وسيلة من وسـائل التنفيس أو استئناس الشياطين الداخليـــة المختبئة فى اللاشعور ..

ان هذه التجارب التى ذكرناها ـ وهى لاتزال فى بداية الطريق ـ تفتح آفاقا جديدة امام الطبيب وعالم النفس لدراسة وظيفة الاحلام على أسس فسيولوجية دقيقة . وتبقى خطـــوة تالية هى الكشف عن العوامل البيوكيميائية مثل الانزيمات او بعض الافرازات العصبية الهرمونية التى تتحكم فى نشاط التكوين الشبكى فى قنطرة فارول ، وبالتالى تتحكم فى وظيفة الاحلام أثناء النـوم . وقد تؤدى الاكتشافات الجديدة فى هذا المجال الى توفير القدر الكافى من الاحلام لكل شخص حتى لا تغطى الاخيلة والاوهام على حياته الواقعية وعلى وعيه فى محـاولاته للتكيف الناجح مع مطالب الحياة اليومية



حقيقة العلاج النفسي

ان لكل مشكلة علمية طرفين مرتبطين ترابطا مزدوجا : تعاون وتعارض فى آن واحد ، تعاون بين الفكر والواقع يؤدى الى صياغة الحقائق المكتشفة بواسطة مجموعة من المصطلحات ، ثم تجمد المصطلحات فيقوم التعارض بينها وبين ما تحدثه مواصلة البحث العلمى من تغيير فى مضمون المصطلحات . فمن جهة الواقع المعقد الغامض الذى يثير اهتمام العالم ويدفعه الى البحث عن حقيقتـه بشتى وسائل الملاحظة والتجريب ، ومن جهة أخرى مجموعة الاراء والاحكام التى ستكون النظـرية التى ترمى الى تفسيره • والمثل الاعلى فى التفسير العلمى هو تحقيق أكبر قدر ممكن من التطابق بين الوقائع والاحكام التى تفسرها ولابد من صياغة هذه الاحكام صياغة لغوية واضحة بحيث يقل اللبس والغموض . وقد قيل بحق ان العلم هو لغة محكمة الصنع ، ولذلك نجد أن كل علم يعنى عناية خاصة بوضع مصطلحاته وبتعريفها تعريفا شاملا مانعا بقـدر الامكان • غير أن هذا المثل الاعلى يزداد تحقيقـه عسرا كلما ابتعدنا عن ميدان العلوم الرياضـية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية واقتربنا من ميدان العـلوم

الانسانية . فالمصطلح من الناحية اللغوية يظل هو هو فى حين أن مضمونه يتطور ويتغير مع تقدم البحث والنظر وقد يصل هذا التفاوت بين ثبات المصـــطلح من حيث شكله اللغوى وتطور المضمون الى حد التعارض بينهما مما يدفع بعض العلماء الى طرح المصطلح القديم جانبا ووضع مصطلح جديد أكثر ملاءمة مع مجموعة الحقـائق أو الآراء التى وصل اليها العلم فى بحثه . وهذا التفاوت بين المصطلح كما شاع استعماله وبين مضـــمونه العلمى الجديد واضح جدا فى كثير من المشكلات السيكولوجية وخاصة فى مجال علم النفس المرضي والطب النفسى . ولهذا السبب يجب من حين الى آخر اعادة النظر فى بعض المصطلحات الشائعة للوقوف على مدى التطابق بين الاسم والمسمى أو بين الشكل والمضمون

نظرة القدماء الى العلاج النفسى

فما هو المقصود مثلا بعبارة « العلاج النفسى » وهى ترجمة لكلمة « Psychotherapy » فالمدلول القديم لهذا اللفظ هو علاج الامراض بالوسائل النفسية ، سواء أكانت هذه الامراض نفسية أم عضوية ، ثم تطور هذا المدلول حتى أصبح يطلق على علاج الامراض النفسية فقط ، ثم نشاهد اليوم العودة الى المعنى الاصلى وهو العلاج بالوسائل النفسية سواء أكان المرض نفســـيا أم جسميا . ويرجع التغير فى مدلول هذا اللفظ الى تغير نظرتنا الى طبيعة الانسان والى نوع العلاقة القائمة بين النفس والجسم . هل هناك فى طبيعة الانسان قطبـان متميزان بحيث يمكن القول بوجود أمراض نفسية بحتة وأخرى عضوية بحتة ، أم الانسان وحدة متكاملة تتفاعل

مكوناتها بعضها مع بعض باستمرار . واذا ميزنا فى سلوك الانسان سواء أكان سليما أم مريضا بين مجموعتين من الظواهر احداهما جسمية والاخرى نفسية ، فهل يمكن القول بأن واحدة منهما هى الاساسية الجوهرية فى حين أن الاخرى ثانوية عرضية ؟

ولا يتسع المقام لبحث هذه الاراء ومناقشتها ، فهى وثيقة الصلة بالفلسفة ، سواء كانت فلسفة مادية أو روحية ولا يعنى ابعاد المشكلة الفلسفية من دائرة هذا المقال انها غير جديرة بالبحث ، فمن اليسير أن نتبين أن كل اجراء علمى نقوم به بصدد الانسان يتضمن موقفا فلسفيا فيما يختص بطبيعة الانسان وخصائصه ككائن مفكر اجتماعى . فاذا تأملنا فى المعنى الاصلى لعبارة « العلاج النفسى » فاننا نجد أن الطبيب يسلم بوجود عوامل نفسية وجسمية تتفاعل باستمرار فى سلوك الانسان وبأن هذا التفاعل يشاهد فى حالات الصحة والمرض على السواء . فالطبيب الذى يركز اهتمامه فى الانسان المريض ، لا فى مجموعة الاعراض المرضية فحسب ، يعلم علم اليقين ان الروح المعنوية لدى المريض تؤثر فى سير المرض الجسمى وفى درجة مقاومته ، فهو يستخدم تلقائيا الوسائل النفسية لرفع الروح المعنوية وتقويتها فيوجه الى المريض عبارات من شأنها بعث الامل والتفاؤل فى نفسه وتهدئة مخاوفه . وقد يكون التشجيع والايحاء بالتحسن والحث على التفاؤل بشتى الطرق المباشرة وغير المباشرة

ولاشك أن الايحاء يكون اكثر تأثيرا فى الاعراض النفسية منها فى الاعراض الجسمية وقد لا يؤدى مجرد الايحاء الى القضاء على المرض وان أدى فى معظم الاحيان الى تخفيف الاعراض او ازالة بعضها ولو الى حين . ومن

النادر حقا أن تقتصر شكوى المريض على الجانب النفسى فقط ، فحتى فى الحالات التى تقوم فيها العوامل النفسية بالدور الاساسى فى احداث المرض لا تخلو شكوى المريض من الاشارة الى بعض الآلام الجسمية ، وبهذا الصدد يكون من الخطأ القول بأن هذه الالام وهمية ، لانها هى جزء من الخبرة التى يعانيها المريض وهى فى نظره واقعية مادامت تؤثر فى تفكيره وسلوكه . والقول بوهمية بعض الاعراض مثال طيب للاخطاء التى توقعنا فيها بعض الالفاظ عندما نأخذ بمعناها العام السائد . اننا نقابل بين الوهمى والواقعى ، ويدفعنا هذا التقابل دون أن نشعر الى الاعتقاد بأن الوهمى ليس له وجود واقعى وانه عديم الاثر وبالتالى ليس جديرا بالاهتمام والعناية ..

ان الطب القديم فى مجموعه حتى القرن السادس عشر كان يعد الانسان وحدة نفسية وجسمية متكاملة وكان الطبيب يستخدم على السواء الوسائل النفسية والجسمية لعلاج جميع الامراض دون اقامة تفرقة فاصلة بين أمراض نفسية وأمراض جسمية . والطب العربى بصفة خاصة كان متمسكاً بهذه النظرة التكاملية التى كان يوحى بها الواقع الانسانى وتؤيدها الممارسة الطبية . والامثلة على ذلك كثيرة ، وحسبنا أن نشير الى أحد عباقرة الطب وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى عام ٣١٣ هـ صاحب كتاب الحاوى فى الطب ، ومنشىء الطب الاكلينيكى بمعناه الحديث . اننا نقرأ فى كتابه « الطب المنصورى » وقد لخص فيه أهم ما جاء فى كتاب « الحاوى » فصولا تمهيدية تتناول بالبحث الامزجة والاحلام والتأثير المتبادل بين النفس والجسم وتؤكد ضرورة مراعاة هذا التفاعل النفسى الجسمى فى علاج المرض ..

ونجد هذا الاتجاه عينه فى كتاب « كامل الصناعة الطبية » لابن العباس المجوسى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ فانه يوصى الانسان بأن يتجنب الاعراض النفسانية ويلهم نفسه الفرح والسرور . والاعراض النفسانية التى يذكرها ابن العباس هى الغضب ، والهم ، والغم ، والزمع ، والفزع ، والخجل ، بل الفرح ان تجاوز الحد وأدى الى اختلال الفكر . فان هذه الاعراض النفسانية تسبب بعض الامراض مثل حمى الدق والذبول وقرحة السل

وجاء فى كتاب الامام فخر الدين الرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ « السر المكتوم فى مخاطبات النجوم » ما نصه : التجربة والقياس يشهدان بأن التصورات قد تكون مبادىء لحدوث الكيفيات فى الابدان فان الغضب القوى قد يعيد السخونة القوية جدا . حكى أن بعض الملوك عرض له فالج قوى عجز الاطباء عن علاجه فهجم بعض الحذاق منهم عليه على حين غفلة منه مشافها اياه بالشتم العظيم ، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة قوية ليضرب الشاتم فاندفعت تلك المواد بسبب حرارة الغضب وزالت تلك العلة القوية « مخطوط مكتبة برلين رقم ٥٨٨٦ ص ١٤ »

العلاج النفسي في ضوء التحليل النفسي

وقد حدث بعد انتشار فلسفة ديكارت التى تفصل فصلا جوهريا بين النفس والجسم وبعد تقدم العلوم الطبيعية ان قصر الطب اهتمامه على الجانب الجسمى وترك علاج الامراض النفسية التى كان يدخلها فى دائرة المظاهر الوهمية لفئة من الدجالين كانوا يدعون أن لديهم قوة خارقة لعلاج مرض النفس ، فشاعت الشعوذة فى هذا الميدان

(١) الزمع : الجزع والقلق

ونشأت فرق تجمع فى تعاليمها بين بعض النزعات الصوفية المنحرفة وبعض الملاحظات السطحية مما أحاط عالم الامراض النفسية بهالة من الغرابة والغموض وأثار اهتمام الذين يتوقون الى كشف الغيبيات والى الاتصال بالارواح • فنشأت حركة عرفت بالمغناطيسية الحيوانية بزعامة الطبيب النمساوى مسمر ثم جاء ما يعرف حتى اليوم بالتنويم المغنطيسى • وقد بينت البحوث العلمية أن العامل الوحيد القائم وراء هذه المظاهر الغريبة هو الايحاء وأن ما يقال عن تحضير الارواح ليس الا من أثر الايحاء لدى أشخاص يعانون فى جانب من جوانب شخصيتهم شيئا من التفكك والانحراف • فجميع الحالات التى كان يتم فيها الشفاء — وهو دائما شفاء سطحى مؤقت — يمكن تفسيرها علميا بما يحدثه الايحاء من أثر فى نفسية المريض ، ودلالة هذا الشفاء ليست أمرا جديدا بل تدعم الرأى القائل بأثر العوامل النفسية وأثر الالفاظ والتصورات فى نفسية المريض وفى حالته الجسمية

ولما تقدمت البحوث السيكولوجية التجريبية وامتد تطبيق المنهج التجريبى الى مجال الامراض النفسية والعقلية ازداد فهمنا لطبيعة هذه الامراض وأسباب نشأتها

وبينما كان الطب الجسمى يواصل انتصاراته بفضل البحوث العلمية والتحاليل الكيميائية والدراسات التشريحية والفسيولوجية قامت حركة علمية جديدة أدت الى اقامة الطب النفسى على أسس علمية تستند الى بحوث علماء النفس والى الحقائق التى كشفها مؤسس التحليل النفسى سيجموند فرويد • فقد مارس فرويد فى بدء حياته العملية معالجة الامراض النفسية — أو ما يطلق عليها فى لغة العامة الامراض العصبية — بالوسائل العادية

كالعقاقير أو الاشعة فوق البنفسجية ، ثم لم يلبث طويلا حتى أدرك عقم هذه الطرق في العلاج فأخذ يضع أسس العلاج بالتحليل النفسى بواسطة تداعى المعاني غير المقيد وتأويل الاحلام ، وقال بأمراض نفسية المنشأ « بتاتا » لا يمكن معالجتها وشفاؤها الا بالوسائل النفسية • وعندئذ تحدد مفهوم العلاج النفسى فأصبح علاج الامراض النفسية بالوسائل النفسية ، وحذر فرويد المعالج النفسى بأن يوحى بالعلاج الطبى بالعقاقير أثناء العلاج النفسى لانه يرى أن الالتجاء الى العلاج الطبى وسيلة هروبية يستخدمها المريض كيلا يواجه مشكلاته النفسيه محاولا توجيه اهتمام المعالج نحو الاعراض الجسمية التى هى فى نظر المعالج أعراض ثانوية لاحقة ••

وقد أثار التحليل النفسى سيلا من البحوث والمناقشات بين المؤيدين والمعارضين ويجدر بنا أن نقرر هنا أن أثر التحليل النفسى كان عميقا جدا فى مجال العلاج النفسى بل فى مجال الطب العقلى ، كما أنه يدرس فى كليات الطب التى تغلب على دراستها النظرة الجسمية العضوية ، كما أن هذا الاثر لا يقل عمقا وتوغلا فى مجال الدراسات السيكولوجية ، فهناك مجموعة من الحقائق الخاصة باللاشعور وبأثر الدوافع اللاشعورية فى السلوك أصبحت جزءا أساسيا من حقائق علم النفس العام وخاصة فى كل ما يتعلق بالحياة الانفعالية وبتكوين العواطف والاتجاهات وأساليب الاستجابة فى المواقف الاجتماعية • كما أن نظرتنا الى دور خبرات الطفولة فى تشكيل الشخصية قد تغيرت بفضل التحليل النفسى ، فان معنى العقدة النفسية ، حتى اذا عبرنا عنه بأسلوب يختلف عن أسلوب المحللين ، أصبح معنى جوهريا فى فهمنا لنشأة المرض النفسى بل فى فهمنا لكثير من أنماط السلوك • وما يصدق

على معنى العقدة النفسية يصدق على معان أخرى مثل الصراع اللاشعورى والمقاومة والتثبيت والنكوص ، والكبت والاسقاط والاعلاء والتحول وغيرها من حيـــل الدفاع والتمويه والتكيف

فالتحليل النفسى يؤكد وجود أمراض نفسية المنشـــأ والمضمون لا يمكن شفاؤها الا بالوسائل النفســـية التى ابتدعها فرويد والتى حلت محل التنويم المغنطيسى وشتى وسائل الايحاء الاخرى • ان جذور المرض النفسى ترجع الى خبرات الطفولة عندما تصطدم الغرائز وخاصـــة الغريزة الجنسية بالقيود التى يفرضها عليها النظام الاجتماعى ، وان المرض النفسى ليس الا تعبيرا رمزيا للصراعات التى عاناها الطفل فى جو من الغموض والقلق والتوتر ، والتى أدت الى توقف نموه الوجدانى والعاطفى والاجتماعى فى مرحلة من مراحل النمو والى حصر قدر من الطاقة النفسية وتعطيله وراء العقدة النفسية اللاشعورية مما يجعل المريض يسلك فى بعض المواقف المثـــيرة للقلق الذى عاناه فى طفولته المسلك الطفلى عينه الذى كان يواجه به المواقف الصراعية عندما كان طفلا غير ناضج من الناحيتين الفكرية والانفعالية فالمريض النفسى وان كان قد وصل الى النضج الفكرى فى كثير من مواقف الحياة ينقصه النضج الوجدانى والاجتماعى ، ويعود هذا النقص يؤثر بدوره فى تفكيره فهو يدرك التفاوت الكبير بين دلالة المنبه الظاهرية واستجاباته الطفلية الاندفاعية المضطربة لهذا المنبه ولكنه عاجز عن أن يفسر هذا التفاوت

ومهمة المحلل النفسى هى مساعدة المريض على تفسير هذا التفاوت وعلى حل العقدة النفسية التى نشأت عن الصراع بين مقومات الشخصية وتوجيهات التربية ومطالب المجتمع •

فلا بد لحل الصراع من بعثه من عالم النسيان اللاشعورى ، أى من عالم الكبت ، الى عالم الشعور ، ولا بد من أن يعانى المريض من جديد الموقف الانفعالى الذى عاشه فى طفولته والذى أدى الى تكوين العقدة النفسية · وعودة الذكريات المؤلمة يزيد من استبصار المريض ومن فهمه لحالته ، وزيادة الاستبصار تسمح له أن يتمثل الخبرة المؤلمة وان يدمجها فى بناء شخصيته الواعية مما يخفف من وطأتها ويجعلها شيئا مألوفا يمكن السيطرة عليه · ويقوم المعالج النفسى بمساعدة المريض على تمثيل خبرات الطفولة وذلك بتأويلها وابراز دلالتها بالنسبة الى عقلية الطفل غيرالناضجة ودلالتها بالنسبة الى الراشد الذى يكون قد حقق فى مجال التفكير قدرا من النضج يفوق القدر الذى حققه فى مجال الحياة الانفعالية

وعملية التأويل التى يقوم بها المحلل من أدق العمليات ، فعليه أن يلقى الضوء على صراع الاندفاعات التى كانت تتنازع نفسية المريض عندما كان طفلا ، وعلى أساليب المقاومة التى يلجا اليها المريض بطريقة لا شعورية لتعطيل العلاج اذ أن المرض النفسى ضرب من التكيف الشاذ يضمن للمريض قدرا من الكسب المعنوى ، فيجنبه بعض التبعات ويجلب له عطف الاخرين

ثم هناك مرحلة حاسمة أثناء العلاج بالتحليل النفسى ، فلا بد أن تتكون علاقة عاطفية بين المريض والمعالج ، وقد تكون علاقة حب أو كراهية ، غير أن المعالج ليس سوى بديل لشخص اخر قد يكون الاب أو الام أو من قام مقامهما عندما كان المريض طفلا · وليست هذه العلاقة العاطفية الا بعثا لموقف قديم من مواقف الطفولة ، فالمريض يسقط على المعالج ما كان يعانيه من دوافع وجدانية ، سواء كانت

جنسية أو عدوانية ، ازاء الاب والأم ، فالمعالج يؤدى دور المرآة التى تعكس ما يسقط عليها أو دور الستار الذى يخفى وراءه الطرف الاخر من المأساة التى عاناها المريض فى طفولته • فالموقف دقيق جدا بالنسبة الى المريض والمعالج معا ، لان تكوين هذه العلاقة العاطفية بينهما أشبه ما يكون باضرام النار التى كانت خابية تحت الرماد ، فلا بد من اخمادها لا بالاساليب الطفلية التى سبق أن أدت الى تكوين المرض النفسى ، بل بالاساليب الفكرية التى تميز الشخص البالغ الناضج والتى ستؤدى الى حل العقدة وتصفية الجو الوجدانى الذى كان مشحونا بالتناقض والتوتر والقلق..

ويرى التحليل النفسى انه لا بد من أن تحدث هـــذه الازمة العاطفية بين المريض والمعالج لانها الدليل على أن الطاقة الوجدانية التى كانت حبيسة فى العقد اللاشعورية أخذت تنطلق وتتحرر وتصبح قابلة للتصرف بها من جديد فالمعالج ليس سوى القنطرة التى ستسمح لهذه الطاقة التى هى فى سبيلها الى التحرر والانطلاق من أن تنتقل من المريض الى موضوعها الملائم لهـــا ، أى الى شخص من الجنس الاخر هو غير الاب أو الام أو المعالج نفسه

الحالات التى يجدى فيها التحليل النفسى

ان هذه النظرة السريعة الى أهم مراحل العلاج بالتحليل النفسى تكفى لان تبرز صعوبة العلاج والعقبـــات التى تعترض مراحله الجديدة ، وتبين لنا السبب الذى من أجله يستغرق العلاج مئات الجلسات وزمنا طويلا قد يصل الى ثلاث أو أربع سنوات بمعدل أربع أو خمس جلســـات أسبوعية • ولكن على الرغم من هذه الصعوبات يحتفظ

التحليل النفسى بوجه عام بقيمته العلاجية ، سـواء فى صورته الاولى كما وصفها فرويد أو فى صـورته المعدلة • فالحقائق الاساسية التى كشفها التحليـل النفسى لا تزال قائمة غير أن الخبرة التى اكتسبها المحللون منذ نصف قرن سمحت بتحديد الحالات التى يجدى فيها التحليل النفسى تحديدا أدق من ذى قبل وسنكتفى هنا بالاشارة الى أهم هذه الحالات

فالتحليل النفسى لا يزال أحسن وسـيلة لعـلاج المخاوف المرضية والكشف عن الصراعات الكائنـة وراءها ، وذلك لشدة الكبت وعمقه فى المخاوف المرضية ولغموض التعبيرات الرمزيةالبديلة. فالتنويم مثلا لايجدى على الرغم من بعض النتائج المذهلة التى يحققها ، لانهـا نتائج سطحية اذ أن التنويم لا يحقق هدف العـلاج الدينامي الحق الذى يصل وحده الى جـذور الصراعات النفسية اللاشعورية • فكثيراً ما يشاهد فى العـلاج بالتنويم ظهور مخاوف جديدة بدلا من المخاوف التى قضى عليها فى بادئ الأمر . فالتنويم لا يمس جذور المرض

وما دام الشخص الذى يعانى مخاوف مرضية يدرك تماما سخافة هذه المخاوف فالعلاج بالايحـاء لا يجدى البتة ، بل قد يزيد لدى المريض من شعوره بالاثم ومن موقفه العدوانى نحو المعالج وبالتالى يزيد من مقاومته

والغرض الثانى الذى يفيد الى حد كبير من التحليـل النفسى الهستيريا التحولية حيث يعبر المريض تعبـيرا رمزيا عن صراعه النفسى عن طريق تعطيل بعض الوظائف الحسية والحركية . أما فى الحالات الهستيرية الاخـرى مثل الحالات الحادة لفقدان الشهية ، أو فى الحـالات التى يسودها القلق والاضطراب فيجب تهدئة المريض

بشتى الوسائل قبل الشروع فى التحليل النفسى . ولا يجدى التحليل النفسى فى الهستيريا لدى المتقدمين فى السن ، وضعاف العقول ، وفى حالة ما تكون الاعراض الوظيفية فى الهستيريا التحولية هى الوسيلة الوحيدة لدى المريض لحل صراعه النفسى وذلك عندما تكون ظروفه المعيشية مصدرا دائما للاحباط والصد ، ويكون فى الوقت نفسه من المحال تغيير هذه الظروف . وكذلك لا يجدى التحليل النفسى فى بعض حالات النورستانيا والهجاس لدى المريض الذى يشعر بالملل وبتفاهة الحياة ، لانه يجد أن الشكوى من الالام النفسية والجسمية التى يعانيها هى الوسيلة الوحيدة للترفيه عن نفسه ..

والتحليل النفسى هو العلاج الوحيد فى حالات الوسواس والافكار المتسلطة المستحوزة على عقل المريض ولكن بشرط أن يكون العلاج مبكرا أى منذ ظهور الاعراض الاولى وقبل استفحالها . أما فى الحالات المزمنة فالتحليل النفسى عاجز عن الشفاء كما أن الوسائل الاخرى مثل العلاج بالصدمات أو بالعقاقير او بجراحة المخ لا تجدى البتة

وقد قيل بحق أن حالات الوسواس هى بالنسبة الى الامراض النفسية الاخرى بمثابة السرطان بالنسبة الى الامراض الجسمية فالاجراء المجدى الوحيد هو العلاج المبكر جدا بل الوقاية المنظمة

اما فى حالات عصاب القلق او الحالات المشابهة له فانه لابد من القيام بالتشخيص الدقيق ، قبل التوصية بالعلاج بالتحليل النفسى ، وذلك أن القلق قد يصاحب كثيرا من الاضطرابات النفسية والعقلية ولابد من التمييز الدقيق بين الحالات العصابية والحالات الذهانية التى تكون فى طورها الاول .. وكذلك يفيد التحليل النفسى

فى علاج الاضطرابات الجنسية الوظيفيـــــة وكثيرا من الاضطرابات السلوكية الاخرى

يتضح مما سبق أن التحليل النفسي بفضل التجارب التي مر بها ، اتخذ موقفا جديدا يتصف بالحذر وبروح النقد والشك العلمى وهذه الروح كفيلة بأن تضمن تقدمه وتكفل فائدته فى مجال التطبيق والعلاج

توسيع مفهوم العلاج النفسي

استعرضنا فيما سبق المفهوم الاول للعلاج النفسى وهو علاج الامراض بالوسائل النفسية ، سواء أكانت هـــذه الامراض نفسيه أم جسمية ، ثم عرضنا للمفهوم الثـــانى كما وضحه التحليل النفسي وهو العلاج بالوسائل النفسية للامراض النفسية المنشأ والمضمون ، وهـــــذه النظرة تعد الاعراض الجسمية المصاحبة للمرض النفسى مجــرد اضطراب وظيفى يعبر تعبيرا رمزيا عن الصراعات والعقــد النفسية ..

وقد حدث منذ عشرين عاما تطور جديد فى نظـــرتنا الى بعض الامراض الجسمية حيث تكون الاصـــــابة عضوية بالاضافة الى الاضـــــطرابات الوظيفية الاخرى المصاحبة لها . وادى هذا التطور الى نشأة ما يعرف اليوم بالطب السيكوسوماتى ، أى الطب النفسى الجسمى. وهذه التسمية غير موفقة فى الواقع لانها قد توحى بالفصل بين النفس والجسم ، ولكن ماهو جدير بالنظر هو فحوى هذه التسمية . ان الطب الســـــيكوسوماتى يعود الى نظرة القدماء الى الانسان ، فلا تمييز فى الواقع بين جوهر نفسى وجوهر جسمى . ان الحقيقة الواقعية هى الانسان

كما يحس وينتقل ويفكر ويتحرك ويتنفس ويهضـم ،
الانسان من حيث هو مجموعة من الاسـتجابات لشتى
المواقف التى تحيط به ، وكل أستجابة تصدر عن انسان
ما تحمل طابع هذا الانسان وتصـدر عنه من حيث هو
وحدة متكاملة . ويذكرنا موقف انصار هذه المدرسة برأى
ارسطو الذى يقول : ان الانفعال ليس فى النفس ، كما
انه ليس فى الجسم بل هو فى الانسان كله . وما يقـال
عن الانفعال يقال ايضا عن اى وظيفة سواء وسمناها
بالنفسية أو الجسمية . فالانسان يفـكر لا بعقله فقط
بل بعضلاته وبدورته الدموية وبمعدته وبسائر احشائه
.. والانسان لا يتنفس فقط بواسطة رئتية ولا يهضـم
فقط بواسطة معدته ، بل بوجدانه أيضا وبعقله وفكره
وذاكرته ومخيلته وبسائر الوظائف التى اصطلحنا على
نعتها بالنفسية . واذا اردنا ان نميز فى كلامنا بين النفسى
والجسمى فهذا التمييز لا وجود له فى واقع شتى العمليات
التى تكون سلسلتها المتشابكة المتفاعلة سلوك الانسان

وقد خص الطب السيكوسوماتى بالدراسة مجمـوعة
كبيرة من الامراض التى تصيب الجهاز الدورى والتنفسى،
والهضمى والافرازى وخاصة الوظائف العضوية الخاضعة
فى نشاطها للجهاز العصبى السمبتاوى .وفى نشأة الامراض
السيكوسوماتية مثل قرحة المعدة ، وقرحة الاثنى عشر ،
والالتهاب التقيحى للامعاء الغليظة ، وارتفاع ضغط الدم
الاساسى والربو ، وتضخم الغدة الدرقية وبعض الالتهابات
والأمراض الجلدية ، والاضطرابات العضوية الناشـئة
عن الانعصاب ، stress والتى يضمها الطبيب الكندى الدكتور
سلى Selye فيما يسميه بامراض التكيف

وقد بينت التجارب والدراسات الاكلينيكية ان تهيئـة

الشخص للاصابة بهذه الامراض ترجع الى التوتر الناشىء عن الصراعات السلوكية التى يعانيها المريض ، الى حـد عجزه عن ارضاء حاجته الى الحب والعطف والطمأنينة ، وعجزه عن تصريف ما يحتدم فى نفسه من نزعات عدوانية الى التفاوت الكبير بين قدراته الحقيقية ومستوى طموحه . وهذا يفسر لنا هذا القدر الكبير من القلق الذى يصاحب دائما الامراض السيكوسومانية

وما دام الامر كذلك فيما يختص بنشأة هذه الامراض فان العلاج الطبى بالعقاقير ، أو بالراحة قد لا يؤدى الى الشفاء التام ، فلابد عندئذ من الاعتماد على شتى وسائل العلاج النفسى لمساعدة المريض على فهم حالته وتزويده بقدر من الاستبصار ازاء الصراعات النفسية التى يعانيها . وعلى ذلك يمكن القول بأن العلاج النفسى امتدت آثاره العلاجية الى امراض عضوية كان من شأن الطب الجسمى علاجها ..

بل هناك تطور جديد فى مفهوم العلاج النفسى يخرجنا عن دائرة التحليل النفسى المقصور على الموقف الثنـائى المكون من المريض والمعالج . ان موقف المحلل النفسى مطبوع بصفة خاصة بطابع السلبية ، خاصة فيما يتعلق بالبيئـة الاجتماعية التى تضم المريض ومختلف أوجه نشاطه . ولكن أهمية الدور الذى تؤديه البيئة الاجتماعية أخـذت تزداد بروزا مما أدى الى توسيع العلاج النفسى بحيث أخذ يضم العلاج بالعمل والعلاج بالتعبير الفنى ومختلف وسائل التأهيل وتذليل الصعوبات التى تعترض تكيف المريض فى مجتمعه الخاص . فأخذ العلاج النفسى صورة ايجابيـة نشطة فتجاوز حدود العيادة الى مجالات النشاط المدرسى والمهنى والترفيهى وغيرها من صور النشاط الاجتماعى

ولهذا التطور الاخير آثار بالغة بالنسبة الى نظرة الجماعة الى الامراض النفسية والعقلية . فكان المريض يشعر انه الى حد كبير منبوذ من المجتمع ، وكان يخجل من مرضه بعكس المريض بالقلب او بالكبد مثلا . وحتى اليوم وفى كثير من البلاد مستشفيات الامراض العصبية والعقلية أشبه بالسجون منها بدور العلاج . وقد وجد أخيرا ان عزل المريض والنظر اليه نظرة ملؤها الاستغراب والحيطة يؤدى بها الى مضاعفة أعراض مرضه والى القضاء على ما تبقى له من رغبة فى الشفاء وفى العودة الى الحياة الطبيعيه . نعم ان نظام المعاملة داخل مستشفيات الامراض العقلية قد تحسن كثيرا منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما حطمت الاغلال التى كانت تصفدهم ، وقد آن الاوان بعد أن ظفر الطب بمجموعة متنوعة من المهدئات لازالة القضبان وتحطيم الاسوار التى تفصل المريض عن العالم الخارجى ، الاسوار المادية والاسوار المعنوية على السواء ..

ويجدر بنا بهذا الصدد ان نشير الى ما انشىء فى بعض بلاد الغرب من مستشفيات للمرضى الخارجيين فيأتى المريض فى الصباح ويتلقى العلاج وقد يظل فى المستشفى حتى المساء ثم يعود الى منزله تحت رعاية أحد ذويه . ثم هناك هذه التجربة الجميلة التى قامت بها مدينة امستردام منذ عدة سنوات وأدت الى نتائج باهرة . فقد انشأت ادارة الصحة العامة قسما خاصا لتلبية نداء كل مواطن يعانى أزمة نفسية . فبمجرد تلقى الاشارة التليفونية يتوجه طبيب النجدة النفسية الى منزل المريض ويستمع الى شكواه ويدرس حالته فى اطار بيئته العائلية وظروفه الاقتصادية ويوجه اليه النصح والارشاد ويوصى بالعلاج فى المنزل او فى المستشفى اذا اقتضى

الامر . ثم تقوم الاخصائية الاجتماعية الطبية بزيـارة المريض من حين الى آخر وتدوين البيانات الخاصة بسير العلاج . وفائدة هذا النظام ان يسمح بالتشخيص المبكر وبالتالى يضمن قدرا اكبر من نجاح العلاج ، فضلا عن انه يوفر مبالغ كبيرة من المال اذ ان تكاليف تطبيق هذا النظام أقل بكثير من تكاليف علاج عدد متزايد من المرضى العقليين فى المستشفيات . وخلاصة القول ان الاتجاه الجديد الذى يتخذه الان العلاج النفسى وما يصاحبه من وسـائل الوقاية ومن نشر مبادىء الصحة العقليه يحقق التكامل بين العوامل النفسية والجسمية والاجتماعية

تطوير العلاج النفسى

ونود الان ان نلقي نظرة على تطور العلاج النفسى من حيث أساليبه الفنية ومن حيث اسسه العلمية . سبق ان اشرنا الى الزمن الطويل الذى يستغرقه العلاج بالتحليل النفسى والى العقبات التى قد تعترض سيره نحو شفاء المريض . وقد ساهمت تجارب الحرب العالمية الثانية فى تطوير العلاج النفسى ، فالتوتر العنيف الذى يحدثه القتال فى أعصاب المحاربين يزيد من عدد حالات الصـدمات النفسية وحالات الانهيار العصبى ويطلق من عقالها تعبيرات تفسيرية كانت كامنة لدى مجموعة كبيرة من المجندين مما يحد من نطاق تطبيق العلاج بالوسائل التقليدية ، فلا بد من أن يواجه المعالج هذا العدد الضخم من ضحايا الحرب النفسانيين ومن أن يصطنع وسائل جديدة لتقصـير زمن العلاج واختصار المراحل المؤدية الى الشفاء

ومن الوسائل العلاجية التى استحدثت ، سواء تحت

ضغط الحاجة أو بناء على اعتبارات علمية ، نذكر العلاج التخديرى والعلاج النفسي الجماعى . ويرمى العلاج التخديرى الى اضعاف مقاومات المريض وتخفيف الكبت بحيث تنطلق بسهولة الذكريات المؤلمة المنسية ، فتتم بسرعة عملية التفريغ الانفعالى وفى ضوء الذكريات المسترجعة يساعد المعالج المريض فى اكتساب اكبر قدر ممكن من الاستبصار . أما العلاج النفسى الجماعى فيرمى الى الافادة من الاثر الذى تحدثه الجماعة فى افرادها ، ما دام الانسان ينشأ وينمو داخل نطاق الجماعة ومادامت شخصيته تحمل دائما طابع هذه الجماعة . وأخذ العلاج النفسى الجماعى يحتل مكانة كبيرة فى مجال العلاج وهو جدير بالبحث والتطبيق ولا يتسع المقام للتحدث عنه طويلا وحسبنا ان نذكر هنا انه يفيد بصفة خاصة فى علاج الاضطرابات الانفعالية والمشكلات السلوكية المتعلقة بالحياة العائلية والحياة المهنية وكذلك المشكلات الجنسية وحالات ادمان الخمر ..

وللعلاج النفسى الجماعى طرق متنوعة منها الجماعة التعليمية ، والنادى الاجتماعى العلاجى ، والجماعة التقويمية الالهامية ، والعلاج الجماعى العميق وأخيرا العلاج المسرحى او السيكودراما **psychodrama**

ويبدو ان العلاج النفسى الجماعى هو العلاج الذى سيسود فى المستقبل لانه يراعى بصورة واقعية مباشرة اثر العامل الاجتماعى فى تشكيل سلوك الانسان وحبذا لو اهتم أولو الامر فى البلاد العربية بهذا النوع الجديد من العلاج الذى يلائم المجتمعات التى تتجه نحو توثيق العلاقات الجماعية التعاونية . اما فيما يختص بالعلاج النفسى التخديرى فان ما يؤخذ عليه هو ان العقار الكيميائى المستخدم للتخدير يحول دون الادراك الذاتى

الشعورى وقد تختلط الذكريات الحقيقية بالتخيـــلات الوهمية والهلوسات التى قد يثيرها المخدر ، مما يزيد من صعوبة تأويلها . غير أن العلم قد توصل اخيرا الى تركيب عقار جديد يعرف بالحامض الليسرجى

Iysurgie acid diethylamide

ومن مزايا هذا العقار انه يثير الذكريات المكبوتة دون الاقلال من وعى المريض وشعوره . فأنه يحدث نوعا من الازدواج فى الشخصية فيقوم الشعور بمشاهدة اللاشعور وفى امكان المريض أن يصف بدقة مواقفه الطفلية بل ان يحياها بدرجة كبيرة من العقل مما يؤدى الى التفـــريغ الانفعالى ويعجل بالشفاء

اما تطور العلاج النفسى فى السنوات الاخيرة من حيث الاسس العلمية التى يقوم عليها وما يترتب عليها من تغيير فى طريقة اجراء العلاج ومواصلته فانه يرتبط بتعـــدد المدارس التى لا تزال قائمة فى ميدان الدراسات النفسية ؛ وعلى الرغم من ان وجهات النظر المختلفة تزداد تقاربا بفضل الدراسات المقارنة غير أنه من العسير تقريب وجهات النظر الفلسفية التى تكمن وراء كل مدرسة ٠ اذ يجب أن نذكر دائما أن موضوع العلوم النفسية هو الانسان وان مشكلة طبيعة الانسان مشكلة معقدة متعـــددة الوجوه فالانسان كالعقدة المركزية التى تنتشر من حولها خطوط لا نهاية لها بعضها يمتد نحو عالم المادة وبعضها نحو عالم الحياة وغيرها نحو عالم الروح وجميع أوجه النشـاط الانسانى فى المنزل والمدرسة والمعبد والمصنع والمتجــر والشارع ودور اللهو والترفيه تكون شبكة ضخمة بحيث لا يمكن فصل البحوث النفسية عن غيرها من البحــوث العلمية من جهة وعن التأملات الفلسفية والعقائد الدينية من جهة أخرى . بل تجد داخل التحليل النفسى عـــدة

حركات تبتعد قليلاً أو كثيراً عن الحركة الأصـــلية التى أنشأها فرويد ، ووجهات الخلاف لا ترجع الى اعتبارات واقعية بقدر رجوعها الى الاتجاهات الفلسفيـة . ومن أحدث الحركات الفلسفية التى أثرت فى التحليل النفسى الفلسفة الظواهرية والفلسفة الوجودية . وبالطبع يترتب على هذه الاختلافات النظرية اتجاهات متنوعة فى العلاج النفسى وفى طرق اجرائه وفى طبيعة العلاقة بين المعـالج والمريض ..

فبينما تجد المحلل النفسى التقليدى يركز اهتمامه فى اطلاق الذكريات المؤلمة التى كبتت فى الطفولة وفى معالجة العصاب الجديد الذى ينشأ أثناء العلاج عندما يخلـــع المريض عواطفه الطفلية على المعالج ، وهو يلتزم خـلال الجلسات العديدة موقفا سلبيا ويمتنع عن توجيه المريض وارشاده فى حياته العملية نجد فئة اخرى من المعالجين يقررون ان العلاج يجب أن يكون ارشاديا توجيهيا ومركزا حول الذات الشاعرة لا حول اللاشعور ، وحول الواقع الراهن لا حول الماضى ، ويحذرون من تكوين العصـــاب الخلعى او استفحاله ، مؤكدين ضرورة جعل العلاج ايجابيا نشطا بالاشتراك مع المريض والعودة باستمرار الى الواقع الراهن ومشـكلاته وعـــدم الاكتفاء بعملية التحليل بل استكمالها بعملية تأليف وتركيب وتكامل ايجابى موجه . وفى ضوء هذا الرأى الجديد يصبح استلقاء المريض على الفراش فى جو من السكون التام وجلوس المعالج خلفه من الاجراءات التى يجب ابعادها لانها تحصر المريض فى دائرة الطفولة وفى جو خيالى بعيد عن الواقع ، بل على المعالج ان يجلس وجها لوجه أمام مريضه وأن يعـــامله معاملة الصديق لصديقه وأن يحاول الاتحاد به عقليـــا وروحيا ويناقش مشكلته فى جو من التسامح والعطف

والفهم ، رابطا مشكلته بالواقع اليومي الذى يحياه ومحاولا الاتصال ببيئته العائلية بقصد توجيه اقارب المريض للمساهمة الفعالة فى عملية اعادة التكيف الشخصى والاجتماعى فى صورة واقعية حية

تنظيم العلاج النفسي فى البلاد العربية

والآن من واجبنا نحن العرب ان نسأل انفسنا ماذا صنعنا فى مجال العلاج النفسى للافراد والجماعات ، فى ميدان الاسرة والمدرسة والجامعة والمصنع ؟ هل لدينا العدد الكافى من المستشفيات والعيادات السيكولوجية وهل نظام مستشفيات الامراض العصبية والعقلية يلائم مقتضيات العلاج الحديث بشتى صوره ؟ هل أنشأنا مستشفيات للمرضى الخارجيين ؟ ولماذا لا نأخذ بنظام طبيب النجدة النفسية كما هو مطبق فى امستردام مثلا ؟ لاشك اننا نعانى نقصا كبيرا فى مجال تنظيم العلاج النفسى على نطاق عريض ولا أعتقد أن تخلفنا يرجع الى العجز المالى بقدر ما يرجع الى عدم الوعى بضخامة المشكلة والى عدم الايمان بجدوى العلاج النفسى وبضرورة تطبيقه فى المرحلة الاولى لظهور المرض وقبل استفحاله وتحوله الى مرض مزمن . فالخطوة الاولى فى سبيل النهوض بمهام العلاج النفسى لكافة افراد الشعب تهيئة الاذهان وتنويرها والقضاء على استخدام بعض الالفاظ التى تنطوى على التحقير مثل مجنون ومجذوب . يجب أن يفهم الجمهور أن المرض النفسى أو العقلى ليس هو من فعل الجن أو الشياطين او الارواح الشريرة وأن أعمال الشعوذة والسحر واقامة حفلات الزار وتحضير الارواح لا يمكن ان تجدى نفعا فى علاج هذه الامراض وهى ان دلت على شىء فانما تدل على مدى تأخرنا الثقافى وعلى مدى انتشار الخرافات والخزعبلات فى أذهان الناس

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم

علم النفس فى الفن والحياة

بقلم : الدكتور يوسف مراد

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص : ب ٢٤

انجلترا :

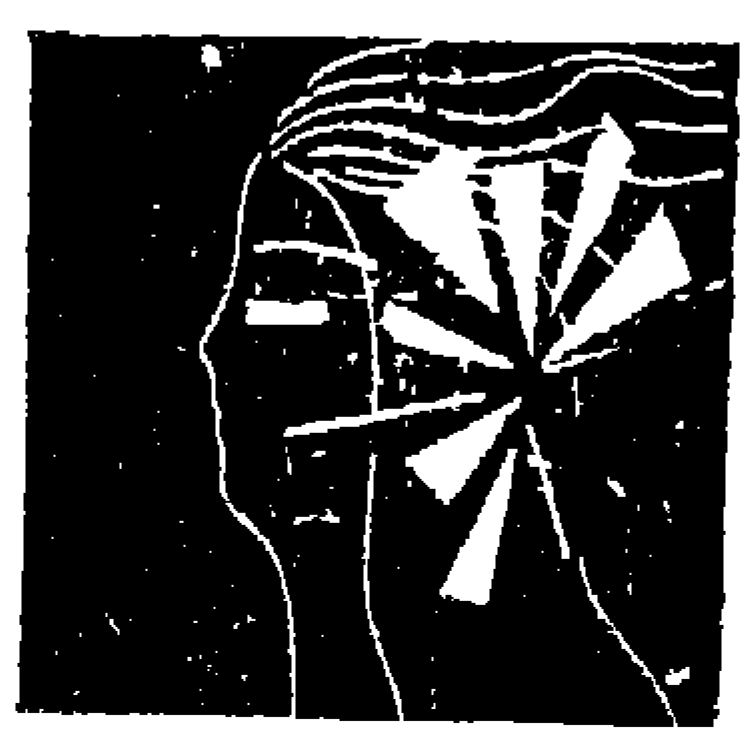
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Atrijari Assharat
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

البرازيل :

Mr. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL



هذا الكتاب

حصيلة سنوات غنية بالبحث والدراسة العلمية الجادة فى مجـــال علم النفس ومجال الفنون ..

ومؤلفه الدكتور يوســـــف مراد استاذ علم النفس السابق بجامعة القاهرة ، من الرواد الاوائل للدراسات النفسيه فى الوطن العربى كله . له كثير من المؤلفات العلمية القيمة ، ويرتبط اسمه باتجاه جديد فى علم النفس هو الاتجاه التكاملى ، الذى ترك أعمق الاثر فى كثير من الدارسين والعلمـاء والادباء والنقـاد العرب . والكتـاب يعرض لدور علم النفس فى تفهم اسرار كثير من الاتجاهات الجـديدة فى الفن التشكيلى الحديث مثـــل التكعيبيه والتجريدية والتأثيرية والتعـــبيرية والسيريالية ، كما يعرض كذلك لبعض جوانب من الفن المسرحى ، ويحـــلل الاتجاهات الجديدة فى عـــلم النفس والعلاج النفسى عامة

والكتاب يجمع بين العمق والبساطة والفائدة والمتعة ..

كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

طريق الثورة اليمنية

الدكتور محمد على الشهارى



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٨ رجب ١٣٨٦ نوفمبر ١٩٦٦

No. 188 Novembre 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

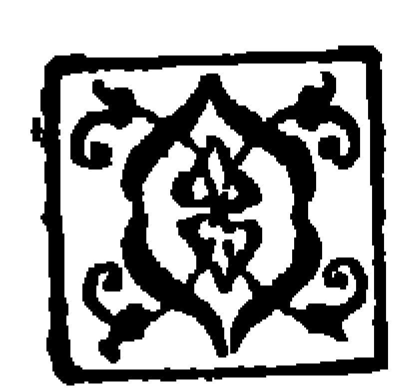
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



ة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان حسن فؤاد

طريق الثورة اليمنية

بقلم
الدكتور محمد على الشهارى

●

دار الهلال

تقديم

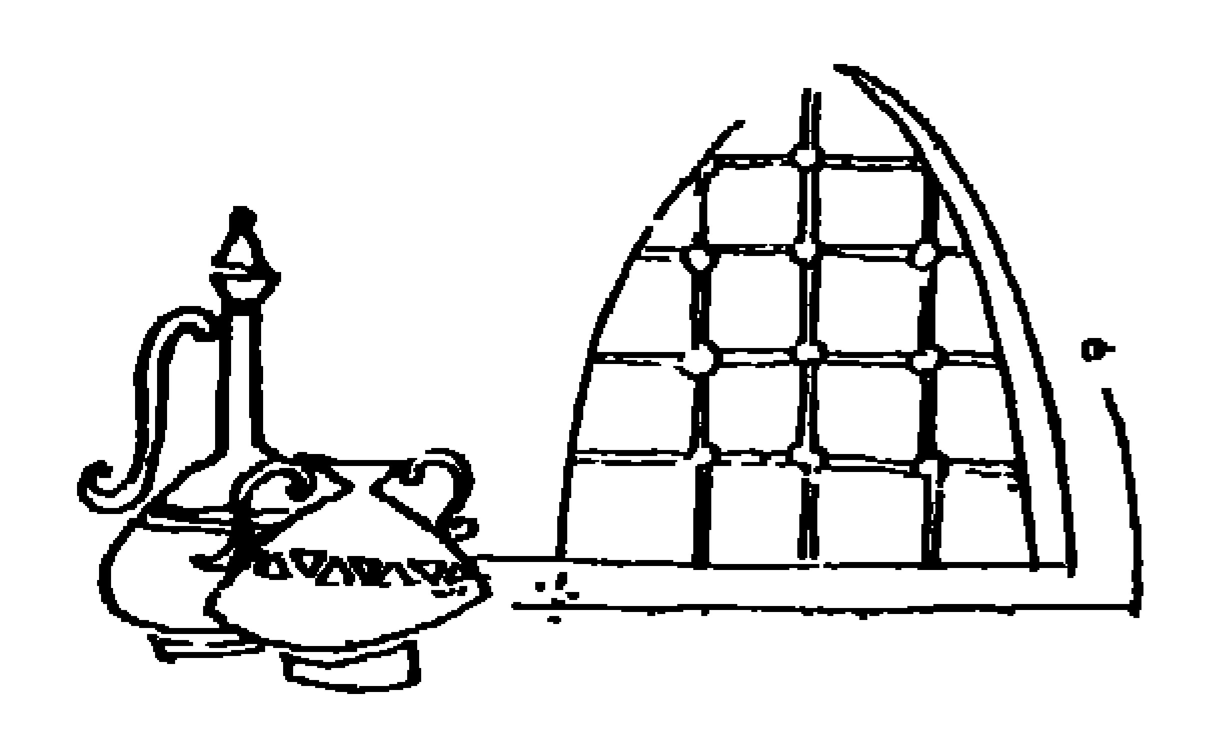
أود فى هذه المقدمة أن أشير الى الاسباب التى دفعتنى الى كتابة هذه الدراسة :

اولها : اقتناعى التام بأن هناك فراغا سياسيا لا حدود له نشأ فى اليمن نتيجة انهيار نظـــام ومذهب الامامة فأصبح من أوجب الواجبات الاتيان ببديل فكرى وبمذهب سياسى علمى وتقدمى يحل محل مذهب الامامةالكهنوتى الرجعى ، ويسد الفراغ الذى تركه ، ويستأصل ماتبقى منه فى اذهان الناس

ثانيها : ان أى ثورة أصيلة وطنية ديمقراطية لهى أحوج ما تكون الى وضع منهــاج ثورى يكشف طريق ســيرها ويقود خطاها ، وينقذها من السير التلقائى والعفوى ومن التخبط العشوائى . فالنظرية الثورية هى دليل العمل الثورى ، والثورات الوطنية الاصيلة ليس من طبيعتهــا أن تخفى عن الشعب أهدافها بحجج دبلوماسية أو خوفا من الرجعية الداخلية والاستعمار . فالشعب صــاحب المصلحة فى الثورة عندما يعى اهداف الثورة يستطيـــع حمايتها . ان الدول العربية المتحررة تسير اليوم على هدى مواثيق وطنية التف من حولها الشعب . وانا اعتقد

عن اقتناع تام ان ما حدث فى اليمن ثورة وان هذه الثورة تتطلب رسم طريقها وشرح اهـدافها ، تتطلب منهاجا وطنيا ..

ثالثها : اننى لا أقصد من تقديم هذه الدراسة الا حفز العناصر الوطنية والثوريةداخل الجهاز الحكومي وخارجه الى التفكير والمبادرة فى وضع منهاج للثورة ، فأنا لا ادعى ان هذه الدراسة التى أقدمها تشكل منهاجا وطنيـا متكامل الملامح والتفاصيل ولكنى أستطيع القـول : انهـا تعكس الطبيعة الموضوعية ، الاجتماعية والتاريخيةللثورة اليمنية ، وتعبر عن الاتجاه الثورى والحقوق المشروعـة لكل قوى الشعب العاملة والوطنيـة ذات المصلحة فى الثورة ، من ضباط ثوريين ، وتجار ثوريين ، ومثقفين ثوريين ، ومن عمال وفلاحين كادحين . ومع ذلك فانى قد سميت هذا العمل « طريق الثورة اليمنية » كمحاولة لرسم اتجاه الثورة اليمنية التاريخى الذى تمليه ظروفها الموضوعية ، وكدعوة الى ضرورة وضـع منهاج وطنى ثورى للجمهورية العربية اليمنية



مدخل تاريخي

ليس من باب الصدفة ولا مما يدخل فى قائمة الظواهر الغريبة أن تتعرض اليمن اليوم بعد اندلاع ثورتها الوطنية المجيدة لكل هذا الحشد الرجعى الاستعمارى الذى يحيط بها منذ أربع سنوات ، وأن تخوض خلال هذه السنوات غمار معركة وطنية لاهبة ضده ، استثارت .. وما تزال تستثير اهتمام العالم كله ، فموقع اليمن الاستراتيجى والجغرافى الفريد ، وخصوبة أرضها وطبيعتها ، ومركزها الحضارى الذى تبوأته بين حضارات العالم القديم كانت وما تزال من العوامل الرئيسية التى اغرت القوى الطامعة فيها وحركت وما تزال تحرك نوازعها اليها

وخريطة اليمن الجغرافية والطبيعية التى عرفت بها اليمن والتى أجمع عليها المؤرخون والجغرافيون العرب والاجانب منذ العهد الرومانى الى العهد التركى تمتد من عمان وعدن فى الشرق والجنوب الى الحدود الجنوبية لنجد والحجاز فى الشمال ، وتشكل عسيرونجرانأطرافها الشمالية ، وضمن حدودها يدخل ميناءا الليث والقنفذة

على البحر الاحمر من جهة الشمال

وكما يتمسك اليمنيون .. الى اليوم .. بحدودبلادهم الجغرافية ويرون فيها اطارا تاريخيا لشخصيتهم الوطنية عبر التاريخ فانهم ينظرون باعتزاز وفخر الى حضارتهم القديمة اللامعة والمجيدة . فهنا على الارض العربية السعيدة نشأت وتطورت فى وقت تاريخى مبكر دول ومؤسسات .. دول حسنة التنظيم، كمملكة معين، وسبأ، وقتبان وحمير ، كما نهضت حضارة عالية معتمدة على مؤسسات للرى مستحدثة كسد مأرب الذى يعد أعجوبة من أعاجيب العهد القديم ، وغيره من السدود العديدة والعظيمة ، ومعتمدة على زراعة جيدة . ويمكن البحث عن أسباب ازدهار هذه الدول الحضارية سواء فى مستوى التطور العالى للزراعة القائمة على الرى المنتظم او فى موقع اليمن المركزى بالنسبة لطرق التجارة العالمية فى التاريخ القديم . فبجانب الانتاج الخاص الذى كانت تصدره اليمن فقد كان تجارها يتعاطون تجارة ترانزيت هائلة ، فمن بين ايدى اليمنيين كانت تخرج تقريبا كل البضائع مابين الهند ، والشرق الاقصى ، والسواحل الافريقية ، والشرق الاوسط ، ومنطقة البحر المتوسط . ولقد كان اليمنيون يعتبرون سادة الطرق البرية والبحرية مابين المحيط الهندى ، والخليج العربى، والبحر الاحمر . ولهذه الاسباب فقد كانت الحضارة اليمنية القديمة احدى الحضارات العالية التطور فى العصر القديم ..

ومنذ هذا الوقت المبكر أثارت الاهمية العالمية للجنوب العربى ، وسطوع الحضارة اليمنية ، وثروة اليمن الخضراء

انتباه ومطامع دول التوسع الاجنبيـــة . ولقد حاولت اخضاع اليمن لنفوذها لتتمكن من السيطرة على الطريق التجارى الى الهند ، ومن الاستقرار على ساحل الخليـج العربى . ولقد فشلت الحملة البحـــرية التى جردها الاسكندر المقدونى على اليمن بقصد اخضاعها ، الا انه مع اقامة حكم البطالسة فى مصر وعلى شرق البحر الابيض المتوسط فى القرن الثالث قبل الميلاد كسر احتكار التجار السبأيين للتجارة ، وسقطت التجارة السبأية مع ذلك، وهاجر الكثير من اليمنيين الى خارج بلادهم ، ولقد كانت تلك هى الضربة الاولى التى مهدت لانهيار الحضارةاليمنية القديمة ، اذ انه بعد ذلك وقعت طرق التجارة اليمنيــة تحت اشراف الرومان الذين احتلوا مصر فى عام ٣٠ قبل الميلاد . وعلى الرغم من فشل حمـــلة ايليوس جالوس لاحتلال اليمن فان الرومان قدتمكنوا منذ عام ٢٤ ميلادية من تثبيت أقدامهم فى عدن بينما اندفعت سفنهم التجارية عبر البحر الاحمر الى المحيط الهندى . وفى عام ٥٢٥ ميلادية احتلت حملة أثيوبيـــة قوية اليمن ، واسقطت الدولة الحميرية الاخيرة . وخلال الحـكم الحبشى الذى استمر الى عام ٥٧٥ ميلادية تهدم سد مأرب ، وانهارت معالم الحضارة اليمنية ، وبدات مرحلة ركود التطـور بالنسبة للقوى الانتاجية فى البلاد

ومنذ ذلك الحين تدفقت على اليمن عدة موجات من الغزو . وفى عام ٥٧٥ وقعت البلاد تحت الحكم الفارسى، الا انه بعد وقت قصير اعتنق اليمنيون الاسلام طواعية لانهم رأوا فيه فرصة للتحرر من الحكم الفارسى

الا ان اعتناق اليمنيين للاسلام لم يساعد على احـلال السلام والاستقرار فى بلادهم . فاليمنيـون الذين خلفوا

وراءهم حضارة عالية التطور لم يرغبوا فى أن يحكموا من شمال الجزيرة وهو الجزء الذى لم يبلغ شأو بلادهم فى سلم الحضارة والتطور الاجتماعى ، وابوا الخضوع للخلفاء المسلمين من قريش ، وظلوا يكافحون حتى حصلوا على استقلالهم الذاتى

وكانت صلة اليمن بالخلافة شكلية تقريبا . وغالبا ما كانت دول اليمن فيما بعد تتمتع باستقلال كامل عن الخلافة فى ادارة شئونها

الا ان الاستقلال عن الخلافة لم يساعد على قيام دولة يمنية موحدة على كل أرض اليمن الا فى فترات متقطعة واستثنائية . وكانت الظاهرة المسيطرة والمميزة لتاريخ اليمن منذ أن استقل آل زياد بحكم اليمن استقلالا ذاتيا عام ٨١٩ م أيام الخليفة العباسى المأمون هى ظاهرة التمزق الاقطاعى ، والصراع الطائفى ، والنزاع المذهبى ، ولقد ظلت هذه الظاهرة قائمة حتى القرن العشرين . وكانت الدويلات اليمنية التى نشأت منذ هذا التاريخ نتاج صراع مرير وطويل بين أمراء الاقطاع والطوائف والمذاهب المختلفة . واصطبغ تاريخ اليمن خلال هذه الحقبة الوسيطة من التاريخ بصبغة دموية قانية . واثناء هذه الحقبة الطويلة والمظلمة ازدادت قوى الانتاج تدهورا وانحطاطا ، وقل الانتاج الزراعى ، وطمست الرمال أراضى كانت صالحة للزراعة ، واختفت بعض المهن الحرفية ، ومما زاد الامر تفاقما الحروب التى دارت بين اليمنيين وبين حكام المماليك والايوبيين

ومع ظهور العصر الحديث أصبحت اليمن من جديد بسبب وضعها الجغرافى المتميز هدفا مقصودا لحملات التوسع الاستعمارية للبرتغاليين ، والهولنديين ،

والفرنسيين ، والاتراك ، والانجليز . وقد تميــز تاريخ اليمن فى العصر الحديث بأنه كان تاريخ كفاح مرير ومتصل ضد هؤلاء الغزاة . ولقد كان أخطر وأشرس أعداء اليمن الخارجيين هم البريطانيون ، والاتراك العثمانيون

ولقد استمر صراع بريطانيا الاستعمارية من أجــل السيطرة على شواطىء اليمن الجنوبية ٣٠٠ عام . وقد بدأ فى ارتباط تام مع محاولاتها الاولى لبسط نفــوذها على الهند فى بداية القرن السابع عشر

وكان هناك عاملان رئيسيــان وراء مطامع بريطانيــا التوسعية وهما الوضع الجغرافى ، والعســكرى الخاص لجنوب اليمن كهمــزة وصل بين بلدان البحــر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، والمحيط الهنـــدى ، وكذلك الارباح الطائلة التى كان يبشر بها البن اليمنى ، بن المخــاء

وكان ميناء تصدير البن المخاء ، وميناء عدن الهدفين الاستراتيجيين اللذين سعت وراءهمابجشعأطماعالتوسع البريطانية . الا ان بريطانيا لم تستطع تحقيق مطامعها هذه خلال قرنين كاملين وبالذات نتيجة للمنافسة الفرنسية الجادة . .

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاســع عشر بدأت مرحلة جديدة من سياسة بريطانيا ازاء جنوب اليمن ، فلقد دفعت الثــورة الصناعيــة البورجــوازية البريطانية الى الاستيلاء على أقاليم جديدة ، وافتتــاح أسواق جديدة لفيض بضائعها التى انتجتها الصنــاعة الرأسمالية . وكانت الهند هى الموقع الرئيسى للاستغلال البريطانى ، فبثرواتها أمكن أن تنطلق الثورة الصناعية فى بريطانيا بحجم كبير كما حق عليها أن تصبح المورد الهام للقطن الى مصـــانع النسيج البريطانيــة . وازاء هذه

المشاريع البعيدة للبورجوازية البريطانية اكتسب ساحل جنوب اليمن اهمية فائقة بسبب وضعه الجغرافى الوسيط وكمحطة ترانزيت للبضائع البريطانية ، وقبل كل شىء لصلاحيته كقاعدة بحرية للاسطول البريطانى لحماية الهند ، ولا سيما بعد أن أصبحت حملة نابليون بونابرت تهدد جديا المكانة المتميزة لبريطانيا سواء فى البحر الاحمر أو المحيط الهندى . وتصديا للحملة الفرنسية الى مصر أسرعت بريطانيا الى ارسال أسطول حربى عام ١٧٩٩ الى البحر الاحمر لاحتلال جزيرة بريم اليمنية التى تقع فى منتصف باب المندب ، وأعلنت قائدالاسطول «كوميسارا سياسيا للبحر الاحمر » . وفى غمرة الصراع العنى واللاهب على سواحل اليمن الجنوبية تمكنت عام ١٨٠٢ من عقد اتفاقية مع سلطان لحج حصلت بمقتضاها على امتيازات تجارية ، وبواسطتها أمكن لها وضع اقدامهاعلى عدن . وقد شكلت هذه الاتفاقية حجر الزاوية لبناء وتوسيع النفوذ والمكانة البريطانية على طريق الهند وبعد ست سنوات فقط من توقيع الاتفاقية أشار اللورد فالنسا الى أهمية عدن بأنها « جبل طارق الشرق » . وعندما عزمت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا ابتداء من عام ١٨٣٣ على احتلال كل السواحل اليمنية أدركت بريطانيا أن مصالحها تواجه تهديدا خطيرا . ولقد عبر عن هذه المخاوف رئيس وزراء بريطانيا حينذاك اللورد بالمرستون حين قال : « اننا لا نرى سببا يبرر احلال ملك عربى محل تركيا فى السيطرة على طريق الهند » . ونظرا لان مصالح بريطانيا وتركيا كانت متفقة فى هذا الوقت حيث أن سلطة محمد على باشا أخذت تنتقص من

نفوذهما معا فقد أتيح لبريطانيا أن تحصل على فرمان من الباب العالى الذى كان يدعى تبعيــة اليمن الشرعية له يعطيها حق استعمال ميناء عدن فى خدمة أسـطولها البحرى . غير أن هذا الفرمان لم يكن كافيا لتحقيــق مطامعها التوسعية الاستعمارية فى عدن حيث ان الميناء كان تابعا عمليا لسلطان لحج . ولم تلبث ان أعلنت نواياها العدوانية ازاء عدن بصراحة ودون موارية ، وقد عبر عن ذلك بجلاء حاكم بومباى البريطانى السير روبرت جراند: « ان تأسيس خطوطنا البحرية فى البحر الاحمر ، وتكوين أسطول صغير من البواخر المسلحة تجعل من الضرورى ايجاد محطة تابعة لنا على ساحل بلاد العرب كمـا هى الحال فى الخليج الفارسى ، ثم ان الاهانة التى ألحقهـا سلطان عدن بنا تجعلنى لا أشك لحظة فى شدة حاجتنا الى امتلاك عدن » ــ وهو يقصد بالاهانة نهب سفينة هنـدية جنحت قرب ميناء عدن

وهكذا سقطت عدن فى يد الكابتن هنس فى ١٩ ينـاير عام ١٨٣٩ بعد مقاومة مستميتة من قبل سكانها اليمنيين الذين كانت تنقصهم وسائل الدفاع عنها . وفى العام التالى انسحب الجيش المصرى من اليمن تحت ضغط بريطانيـا وحلفائها . وبذلك انتفى خطر أن يقوم الجيش المصرى بعمل مضاد ضد بريطانيا فى الجنوب العربى ، وأصبحت السلطة الاستعمارية تملك يدا حرة فى هذا الجزء الهام من بلاد العرب . وبعد قليل من احتلال عدن اكتشف جنود الراسمالية الاستعمارية أن احتلال عدن لن يكون بمثـابة نزهة مريحة ، ففى وجههم اشتعلت مقاومة عنيدة قامت بها قبائل المنطقة ولم تتوقف الا عام ١٨٤٩ . واذا كانت هذه المقاومة قد انتهت بالفشل نتيجة اسلحتها الرديئـة فقد أثبتت قبائل الجنوب اليمنيـة بكفاحها الباسـل

ضد السلطة الاستعمارية المعتدية مدى تعلق الشعب بارادته الحرة المستقلة

وبعد استتباب الامر لها أعلنت بريطانيا عام ١٨٥٠ عدن ـ نقطة الارتكاز الطبيعية والفريدة للمحيط العربي ـ الافريقي ـ الاسيوي ـ الهندي ـ ميناء حرا . ولقد ازدادت اهمية هذا الاجراء اكثر بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وبينما جلب تطور وضع عدن هذا فوائد عظيمة للتجارة العالمية وللبورجوازية البريطانية فانه قد أثر تأثيرا بالغا على اقتصاد اليمن . لقد بدأ ميناء عدن يجتذب كل المواصلات من الارض الخلفية اليه . وفقد ميناء المخاء أهميته كميناء للتصدير ، ومحطة ترانزيت وطمسته الرمال ، وتراجعت التجارة في ميناء الحديدة خطوات بعيدة الى الوراء ، وأصبحت عدن في المقدمة

ولتأمين قاعدة الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن وخلق منطقة عازلة بينها وبين القبائل سعت بريطانيا بالضغط والاغراء الى شراء المنطقة المحيطة بعدن من جهة الشمال ، وبذلك أقامت من حول ميناء وقاعدة عدن حلقة واقية ، وحمتها ضد أي هجمات محتملة تأتي عن طريق البر والبحر من قبل قبائل اليمن الجنوبية أو من الاتراك أو أي قوة اخرى

ان تركيا التي لم ترفع دعوى السيادة الشرعية عن اليمن رغم ان جيوشها قد طردت منها عام ١٦٣٨ بعد حوالي مائة عام من الاحتلال ادركت الان وبعد انسحاب الجيش المصري من اليمن ان مطامع بريطانيا ومثلها مطامع أوساط تجارية ايطالية تتجه لاحتلال موقع لها في المنطقة الساحلية من تهامة اليمن . من هنا فانها قد بادرت الى ارسال حملة عسكرية عن طريق الحجاز بقيادة

توفيق باشا استولت بها على تهامة اليمن

وكما ضاعف افتتاح قناة السويس من أهمية اليمن لديها فانه قد سهل لها ارسال حملات عسكرية لاخضاعها نهائيا . وفى عام ١٨٧٢ تمكن الغزاة الاتراك من بسط سلطانهم على صنعاء وعلى الهضبة الوسطى من اليمن من عسير الى تعز . وللحفاظ على سلطتها الاستبدادية والاستعمارية خصت اليمن بجيش كامل هو الجيش السابع ، وسنت نظاما للضرائب فى غاية القسوة والشراسة، واقامت ادارة ذات طابع عسكرى حاد أرهبت بها حياة الناس . وفى وقت قصير نهبت ثروات اليمن ، وساءت حياة الفلاحين اكثر فأكثر وكما لم يحدث من قبل نتيجة مصادرة أقواتهم بالقوة لتموين جيش الاحتلال التركى وعمت كل فئات المجتمع حالة من السخط العام والجارف ازاء اجراءات التعسف والقهر العثمانى

وما كادت سلطات الاحتلال التركية تستقر فى صنعاء حتى رفعت مطالبها فى السيادة على جنوب اليمن بما فى ذلك عدن . وعدا سلطان لحج الذى أصبح العميل الاكبر للاستعمار البريطانى فى الجنوب فان جميع سلاطين ومشايخ المنطقة كانوا مستعدين للوقوف الى جانب الاتراك ضد القوات البريطانية

وقد سهل هذا الوضع الملائم للاتراك أن يندفعوا عام ١٨٧٢ صوب لحج ويبلغوا عاصمتها الحوطة وفجأة توقف الهجوم التركى دون أبواب عدن . ان السبب فى ذلك لا يعود الى الهجوم المضاد الذى قام به ٣٥٠ جنديا بريطانيا ، وانما يعود اكثر الى التناقضات الداخلية التى كانت تهز المملكة العثمانية حتى النخاع ، والى النفوذ المتصاعد للقوى الكبرى الرأسمالية داخل القسطنطينية،

وازاء تضعضع احوالها الداخلية لم تسمح تركيا لنفسها بأن تدخل فى كفاح مسلح حاسم مع انجلترا من أجل جنوب اليمن ، واكتفت لذلك بمركزها الذى حصلت عليه فى شمال اليمن

وبعد أن اضطرت تركيا الى سحب قواتها الى الشمال سعت بريطانيا الى القضاء على دعاواها السياسية فى الجنوب . ولهذا الغرض دعا المقيم البريطانى سلاطين وامراء ومشايخ المنطقة الى عدن ، واطلق لهم مدافع التحية ، وقدم لهم الهدايا ، ووعدهم بمساعدات شهرية ، ومساعدات مالية سنوية ، وضيافات فى عدن مع كل زيارة لها ، ومقابل ذلك قيدهم « بمعاهدات الحماية » ! بهذه الطريقة الخبيثة للتوسع غير المباشر والتى لم تخل من الخديعة والضغط حققت بريطانيا انتصارها السريع ووسعت نطاق نفوذها على جنوب اليمن كله . وقد عقدت أول معاهدة حماية مع جزيرة سقطرة عام ١٨٨٦ . وحتى عام ١٩٠٣ وجدت سلطنات وامارات ومشيخات جنوب اليمن نفسها تحت سلطة « الحماية البريطانية »

وبعد مفاوضات متقطعة وطويلة مع السلطات التركية فى اليمن تمكنت بريطانيا الاستعمارية عام ١٩٠٥ بمقتضى بروتوكول خاص مع الاتراك من تحديد خط الحدود بين منطقة النفوذ البريطانى والعثمانى . وحسب هذا الاتفاق فان خط الحدود يمتد من الساحل الجنوبى لجزيرة الشيخ السعيد قرب باب المندب الى وادى بنا شرقى مدينة قعطبة ، وبذلك تكون تركيا قد تنازلت عن النواحى التسع اليمنية ـ اى المحميات الغربية ـ لصالح بريطانيا . وما لبث « الرجل المريض » الذى أضعفته أكثر حروب البلقان والانتفاضات الوطنية فى شمال اليمن ان تنازل عام ١٩١٤.

عن كل مطالبه وحقوقه فى حضرموت . بذلك تمكنت سلطات الاستعمار البريطاني فى عدن من بسط وتدعيم نفوذها على جميع انحاء جنوب اليمن « حضرموت والنواحى التسع » بينما كان شمال اليمن ما يزال واقعا تحت نير الاحتلال التركى للمملكة العثمانية ..

غير ان الشعب اليمنى الذى تعلم كيف يذيقها الهزائم ، ويحيل اليمن الى شعلة من اللهب لا يطفىء الاتراك جانبا منها حتى يتوهج الجانب الاخر فى حركة نضالية مستمرة ودؤبة مالبث أن هب فى وجه الاحتلال التركى غداة احتلاله صنعاء . ولقد بدأت كفاح التحرير قبائل الجبل الزيدية التى لم تعترف للسلطان العثمانى قط بحق السيادة عليها ، ولم تصدق دعاواه فى انه «حامى حمى الحرمين » وخليفة الاسلام والمدافع عنه . وحتى عام ١٩٠٤ تمكنت القوات التركية بفضل النجدات التركية المتتابعة من اخضاع كل التحركات التى تصدت لها . الا ان حركة « الجهاد » عرفت فى هذا العام صعودا وانطلاقا لم تبلغ مداه من قبل وخلال هذه الانتفاضة الواسعة الحاسمة دحر الاتراك من جميع مواقعهم تقريبا ، واحتل المحاربون اليمنيون صنعاء . وفى شهاره لقى جيش الاحتلال التركى هزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل ، وفقد الاتراك خلالها خمسين لواء حربيا . ولقد كان هذا النصر العظيم لحركة التحرير اليمنية نقطة تحول بعيدة المدى . أثرت ليس فقط على وضع الامبراطورية العثمانية داخل اليمن ، وأنما اثرت ايضا على المشاريع التوسعية لحليفتها الاستعمارية المانيا القيصرية ..

فبينما كانت بريطانيا من عدن وفرنسا من جيبوتى

وكذلك أيطاليا من ارتريا تتابع هزائم الاتراك برضـــا ، على الاقل لانها ــ ولو الى حد معين ــ تشكل شرطا ملائما للسير فى تحقيق مطامعها التوسعية الخاصة فان الامبريالية الالمانية على عكس ذلك كانت تدعم تركيا وتدرب جيشها وحملاتها المتجددة التى كانت تقذف بها الى اليمن . ذلك لان تركيا كانت قد اخذت تتحول الى شبه مستعمرة المانية سواء من الناحية الاقتصادية او العسكرية ، ولان المـانيا كانت تهيء نفسها لان تكون الوريث الشرعى والوحيـــد « للرجل المريض » فى البسفور

لذلك وانسجاما مع « سياسة خط حـديد بغـداد » ، « وسياسة الاندفاع نحو الشرق » فقد كانت اليمن احدى مجالات التوسع الهامة بالنسبة لالمانيا . ومن خلال دعمها وتعـــاونها مع المحتلين الاتراك كانت تأمل المانيا فى فرض مشاريعها التوسعية الخاصة فى اليمن

ومقابل الطلب الذى تقدم به الباب العالى بأن يقوم « بنك المانيا » بانشاء خط حديدى من الحديدة الى صنعاء لتسهيل سرعة مرور الحملات التركية الى الهضبة طلبت المانيا القيصرية السماح لها باقامة قاعدة بحرية لاسطولها فى الحديدة أو المخاء ، ومحطة فحم للتموين من أجل اقامة المشروع « ولتنظيم علاقاتنا بشرق آسيا »

غير أن كفاح التحرير المظفر للشعب اليمنى ، وبالذات خلال عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، قد أحبط مشاريع المانيـا التوسعية فى اليمن ، وكبح من جماح أحلامها الاستعمارية التوسعية وان لم يضطرها الى التخلى عنها نهائيا

وكما هبت طائفة الزيديين الى الكفاح ضـد الاحتلال التركي فقد تبعتها اليه طائفة الشوافع . فمن عســير وتهامة انطلقت عام ١٩١١ موجة جديدة من الكفـــاح

التحررى قام بهاالشوافع بقيادة محمـد على الأدريسى ؛ وبلغت من عنفها واندفاعها أن عاصمة عسـير « ابهـا » ذات الموقع الحصـين أصبحت تحت رحمة المحـاربين اليمنيين الذين طوقوها من كل جانب وعزلوها عن كل مدد .. وفى نفس الوقت كانت صنعاء تعانى حصارا شـديدا ضربته من حولها قبائل الزيدية فور قيامها بأنتفاضة عامة شملت الهضبة كلها . ان تنسيق الكفاح بين الطـائفتين الرئيسيتين فى اليمن ،وشنهما معا كفاحا مسلحا مشتركا ضد الاحتلال التركى قد سجل فى الواقع درجة عالية من الكفاح الثورى للشعب اليمنى من اجل انتزاع حريتـه واستقلاله وللقضاء النهائى على الاضطهاد الاسـتعمارى للامبراطورية العثمانية

ولقد برهنت الانتصارات العسكرية العديدة التى حققتها الحركة الانتفاضية الشاملة للشعب اليمنى بطائفتيه على ان تحطيم الحكم التركى واقامة دولة يمنيـة موحـدة مستقلة على انقاضه كان من الناحية الموضـوعية أمرا ممكنا فى هذا الوقت . غـير أن طمـوح محمـد على الادريسى الى اقامة امارة خاصة به فى جزء من اليمن قد أدى الى تصدع جبهة الكفاح الموحد ، وحال دون الوصول الى النصر النهائى . هكذا انكسرت حدة الكفاح الثورى ، وتراجعت أمواجه ، وكما ذهب الامام يحيى عام ١٩١١ الى « دعان » لعقد اتفاقيـة مع الاتراك اكتفى فيهـا باعطائه الاستقلال الذاتى على شمال شرق اليمن استند محمـد على الادريسى على الاستعمار الايطالى الذى كان يرى فى تهامة اليمن « الارض الخلفية » لمسـتعمرته أرتيريا . وبمساعدته وتدخله العسكرى المباشر تمكن الادريسى عام ١٩١٢ من اقامة اساس لأمارته فى منطقة صبيا ــ أبو عريش بعسير تهامه

أن استقراء تاريخ اليمن الحديث وبالذات منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر الى ثلاثينيات القرن العشرين يكشف بقوة ان اتجاه التطور التاريخى والكفاح المستمر الشعب اليمنى ضد اعدائه الداخليين والخارجيين كان منصبا من الناحية الموضوعية على غاية رئيسية ، الا وهى: القضاء على الحكم التركى ، الدفاع ضد الاستعمار البريطانى ، وضد حلفائه من سلاطين وأمراء الجزيرة العربية ، التغلب على التمزق الاقطاعى وعلى بقايا المجتمع العشائرى ، وخلق دولة يمنية موحدة مستقلة : ولقد كانت هذه العملية التاريخية منسجمة مع تيار التطور العام داخل الوطن العربى وخارجه ، وذات دلالة تاريخية وتقدمية كبرى

غير أن حركة التطور التاريخى الموضوعية لا تسير عادة فى خط مستقيم ، وانما قد تتعرج وتأخذ انحناءات عدة فى كثير من الاحيان ، وقد تتعثر وتصيبها النكسات أحيانا أخرى ، ولكنها رغم ذلك ومن خلال ذلك تتحرك باستمرار ولو ببطء شديد نحو غايتها الموضوعية . ان هذه الحقيقة العلمية تنطبق أيضا على حركة التاريخ اليمنى الحديث ..

ولقد أظهرت الحرب العالمية الاولى بقوة وجلاء الاهمية الخاصة لليمن بالنسبة للمجموعتين الامبرياليتين المتصارعتين ، وقد كانت أهداف الحلفاء الحربية هى تحطيم المملكة العثمانية وتحويل اقاليمها غير التركية الى مناطق أستعمارية تابعة لبريطانيا وفرنسا وايطاليا . وقد أكدت بريطانيا العظمى « أحقيتها الخاصة » فى التسلط ليس على جنوب اليمن فحسب ، وانما على شماله أيضا .. وعزمت الامبريالية الايطالية على اعطاء خط توسعها

التقليدى فى البحر الاحمر قاعدة على الساحل الغربى لليمن ، كما أن فرنسا كانت مهتمة بتحقيق مطالبها القديمة على جزيرة الشيخ سعيد بجوار باب المندب . غير أن أهداف ألمانيا الحربية فى هذه المنطقة كانت أوسع من ذلك بكثير ، فاستمرارا ثابتا لسياسة خط حديد بغداد والاندفاع نحو الشرق كانت القوى العسكرية والاحتكارية الالمانية تنوى اخضاع جميع أراضي الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك اليمن لديكتاتوريتها الرأسمالية

لهذا السبب فقد أيدت العسكرية الالمانية مشروع الهجوم التركى لانتزاع عدن من الانجليز والقضاء على مركزهم المتميز فى جنوب اليمن باعتبار أن السيطرة على عدن تتيح امكانية التحكم فى البحر الاحمر والمحيط الهندى وقطع خط الاتصال بين الهند ، واستراليا ، وجميع مستعمرات بريطانيا الاخرى وتمكن من الزحف بحرا الى قناة السويس فى الشمال وفى اتجاه الساحل الافريقى ، للبحر الاحمر

غير أن الهجوم التركى أوقف بفضل نجدة عسكرية من قناة السويس ـ فى منطقة الشيخ عثمان قبل الوصول الى عدن ، وتراجع الى لحج حيث رابطت القوات التركية الى نهاية الحرب . وأدركت المانيا وتركيا أن بلوغ عدن يتطلب قوى كبيرة . وفورا أعد مشروع هجوم تركى ـ المانى على عدن تقوم به حملة تركية مصحوبة ببعثة المانية مجهزة باللاسلكى . الا أن هذه الحملة التى تحركت من فلسطين على الخط الحديدى الحجازى ما كادت تبلغ المدينة حتى عاجلها الشريف حسين الذى استحثته بريطانيا لبدء الانتفاضة وحاصرتها قواته هناك . وبفشل هذه الحملة فشلت

كل محاولات تهديد عدن عن طريق اقامة قاعدة غواصات المانية بجوار الساحل اليمنى ، وتلغيم باب المندب بواسطة بواخر المانية ، وبقيت عدن تحت سيطرة الانجليز ..

لم يكن انهيار المملكة العثمانية والحكم الاستعمارى التركى بفعل الضربات المدمرة لقوى الحلفاء الامبرياليين فقط ، وانما بالدرجة الاولى نتاج التركيب الاقتصادى والاجتماعى القديم والمهلهل للمملكة العثمانية ، ونتاج الضعف الذى كان قد لحق بها بفعل حركات التحرر والمقاومة للحكم التركى داخل اليمن وفى الجزيرة العربية وغيرهما من الاقاليم الى حد أن التأييد الفعال لهـا من قبل المانيا لم يحل دون انهيارها وتمزقها . وبانهيارها انهارت أيضا مشاريع المانيا التوسعية فى اليمن وفى غيرها من مناطق المملكة العثمانية

ومع نهاية الحرب احتلت القوات الانجليزية الحديدة، ومكنت حليفها الادريسى ، الذى كان قد عقد معها خلال الحرب معاهدتى حماية وصداقة ، من توسيع امارته حتى بلغت حدودها ميناء القنفذة شمالا وميناء اللحية جنوبا ، وما لبثت أن سلمته عام ١٩٢١ ميناء الحديدة فى محاولة منها لمنع قيام دولة يمنية موحدة مستقلة على ارض ولاية اليمن التركية سابقا . غير أن جهود بريطانيا المستمرة فى الحفاظ على امارة الادارسة لم تستطع ان تقاوم حركة التوحيد اليمنية . وبموت مؤسس الامارة عام ١٩٢٣ ، ونشوب النزاع على العرش بين العائلة الادريسية سنحت الفرصة التاريخية لاكتساح الامارة الادريسية ، فخلال عام ١٩٢٤ ــ ١٩٢٥ صفى الجيش اليمنى حكم الادارسة من تهامة اليمن الجنوبية ابتداء من باجل والحديدة

فى الجنوب الى ميدى وحرض فى الشمال وحصرهم داخل عسير تهامة . وبهذا العمل التـــاريخى أخذت الدولة اليمنية ، ليس فقط امتدادها الضرورى الطبيعى والجغرافى فى اتجاه البحر الاحمر ، وانما أخذت أيضا شكلها الاقليمى الحالى . وكما كان انتزاع الجزء الجنـــوبى والهام من الامارة الادريسية ضربة حاسمة للاستعمار البريطـــانى فقد كان بمثابة خيبة أمل قاتلة لاحلام ابن ســـعود التوسعية تجاه اليمن . ان الكفاح التاريخى للشعب اليمنى من اجل اقامة قاعدة اقليمية ، وأرضية واسعة لدولتـه اليمنية قد اصطدم عام ١٩٢٦ وجها لوجـه مع عدوين قويين وخطيرين هما بريطانيا العظمى وحليفها ابن سعود

فلقد أدركت سلطات الاحتلال البريطانى فى هذا العـام خطورة هذه العملية التاريخية ولجأت حالا الى استخدام القوة المسلحة وبشكل مركز ، ودحرت الحاميات اليمنية من بعض المناطق التى كانت قد انتزعتها منها فى جنوب اليمن المحتل ، وأوقفت تقدم الجيش اليمنى نهائيـــا ، وفى نفس الوقت شجعت ابن سعود على التصـــــدى للجيش اليمنى وايقاف تقدمه صوب عسير

***

وتمتد مطامع الوهابيين التوسعية فى اليمن الى مطـلع القرن التاسع عشر حيث تمكنوا فى هذا الوقت لفترات متقطعة من احتلال عسير وتهامة اليمن . وقد كانت الامارة الادريسية منذ نشوئها مطمع الوهابيين كما كانت مطمع الشريف حسين . وعندما حاول الاخير تحريك انتفاضة بقيادة أمير عسير السراة الحسن بن عائض ضـد محمد على الادريسي لجأ هذا الى ابن سعود طالبا نجدته . وبذلك جاءت فرصة عبد العزيز آل سعود التى كان ينتظرها ، فبقمعه لحركة ابن عائض وسيطرته على عســـير السراة

يكون قد حصل على المركز الملائم الذى يستطيع منه التحكم فى مجرى الاحداث داخل الجزيرة ، من حيث يستطيع أن يقطع على الامام يحيى امكانية التقدم فى اتجاه عسير ومن حيث يتمكن من عزل ومحاصرة الشريف حسين داخل الحجاز ، وقد كانت عسير السراة بالنسبة له قاعدة الانطلاق للتوسع فى اتجاه تهامة اليمن فى الغرب والزحف نحو الشرق الى نجران وأحد مفاتيح الحجاز

فورا أرسل ابن سعود نجله فيصل ، الملك الحالى ، الى محمد على الادريسى . وفى جيزان عاصمة الامارة عقد الجانبان فى ٣١ أغسطس عام ١٩٢٠ ما أسمى « بمعاهدة الصداقة » ، وبمقتضاها تنازل الادريسى — ربما دون شعور منه بأنه يرتكب خيانة وطنية — عن عسير السراة لسلطان نجد الاقطاعى وعدو اليمن عبد العزيز آل سعود ، كما تنازل عن نجران التى لم يصل نفوذه اليها قط ، بل وتنازل عن منطقتى سحار وبنى جماعة من لواء صعده رغم انهما كانتا تحت الادارة المباشرة للحكومة اليمنية . وكان هدف الادريسى من التصرف فى الاراضى اليمنية التى كان يعتبر غريبا عليها — ذلك لان عائلته الادريسية ليست من أصل يمنى وانما هاجرت الى اليمن من مراكش فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر — هو أن يدفع بابن سعود فى صراع مباشر مع الامام يحيى ، ويوسع النزاع بينه وبين الشريف حسين الذى كان يهدده على الابواب حتى يستطيع هو الخلاص من الكماشة ويستقر على ما تبقى من عرش امارته

غير ان الحاكم الفعلى لعسير السراه الحسن بن عائض لم يعترف بهذا التنازل ولم يعتبره شرعيا ودخل فى معارك طاحنة ضد حملات الاخضاع السعودية التى استمرت

من مايو عام ١٩٢١ الى النصف الثانى من عام ١٩٢٣ ، والتى كان على رأس احداها الامير فيصل . وسقطت عسير السراة يد ابن سعود ..

وباستيلاء الوهابيين على عسير السراة أصبحت البقية الباقية من الامارة الادريسية تحت تهديدهم المباشر ..

وعندما بلغ الجيش اليمنى خلال عملية التصفية للامارة الادريسية الحدود الجنوبية لعسير تهامة كان ابن سعود قد اتم تصفية الحكم الهاشمى فى الحجاز ، وأصبح بذلك يطوق الإمارة الادريسية من الشرق والشمال ويستعد لبسط نفوذه عليها . وردا على هجوم الجيش اليمني وبتشجيع وحث من بريطانيا ساعد عبد العزيز من جهة على ازاحة على بن محمد الادريسى من عرش الامارة ، وتولية عمه الحسن المعروف بارتباطه اكثر بالبريطانيين ومن جهة أخرى أرسل فصائله لاحتلال ميناء البرك شمال الامارة بينما تقدمت فصائل أخرى فى فبراير عام ١٩٢٦ جهة جيزان ، وصبيا ، وابو عريش لتعمل جنبا الى جنب مع اتباع الادريسى على صد هجوم الجيش اليمنى ، واعادته من ابو عريش داخل عسير الى مركزه الرئيسى فى حرض

وكما أوقفت بريطانيا فى هذا العام زحف الجيش اليمنى فى اتجاه الجنوب أوقف ابن سعود فى نفس الوقت زحفه فى اتجاه الشمال فى تعاون وثيق بين الجانبين لمنع توسيع قاعدة وأرضية الدولة اليمنية . وكما استغل السلطان الوهابى ضعف محمد على الادريسى ففرض عليه توقيع معاهدة تنازل بمقتضاها عن عسير السراة فقد استغل ضعف اخيه الحسن بن على الادريسى وفرض

عليه فى ٢١ اكتوبر عام ١٩٢٦ توقيع معاهدة تضع أمارته تحت « الحماية » السعودية . وحفاظا على عرشهمـــا المنهار وتمسكا بالسلطة الزائفة قبل الاثنان أن يضـــعا نفسيهما ويضعا الارض اليمنية معهمـــــا تحت تحكم وسيطرة ابن سعود ..

ولتبرير هذه الخطوة اعلن سلطان نجد والحجاز أنه لايقصد منها اكثر من « ابقاء عسير مستقلة كدولة وسط بيننا وبين اليمن لتجنب نشوب الحرب » ولا يريد بها اكثر من أن تكون هناك « فى عسير حكومة يمنية محايدة بين حكومة الامام يحيى وحكومتنا »

غير أن هذا الزعم لم يدم طويلا فما لبث ابن سعود أن تدخل فى الشئون الداخلية للامارة الادريسية حيث عين « مندوبا ساميا » سعوديا اتخذ من جيزان مقرا له ، كما عين أمراء سعوديين على القضوات ، وموظفين منهـم للجمارك ، بينما وضع الادريسى الذى لم يعد يملك اكثر من لقب امام وأمير عسير فى الظلال . هكذا أخذ عبـــد العزيز يتصرف فى الامارة الادريسية ليس كحام وانمـا كمحتل . ولاعطاء هذا الواقع صبغة شرعية أصــــدر الحاكم الوهابى مرسوما بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٣٠ أعلن فيه أن ادارة اقليم عسير تهامة أصبحت من اختصاصه هو ، وبذلك فقد الادريسى سيادته الاسمية بعد سلطته الشرعية واصبحت عسير تهامة احدى ملحقـــات نجـد والحجاز تحت ادارة أمير سعودى هو فهد بن زعـير . وبمقتضى المرسوم الملكى الذى اعلن قيام « المملكة العربية السعودية » بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ أصبحت عسير تهامة مثل عسير السراة جزءا من مملكة الملك عبد العزيز آل سعود

غير ان أهالى عسير اليمنيين لم يذعنوا لهذه الاجراءات التعسفية « فعبد العزيز لم يفتح بلادنا بالسيف حتى نقبل الخضوع له » كما قال فيما بعد الحسن الادريسى الذى لم يتصور فى البداية أن تصل الامور الى هذا الحد وأن يفقد حتى لقبه الدينى . وفى ٤ نوفمبر عام ١٩٣٢ هبت انتفاضة قوية ضد الاحتلال السعودى بقيادة الحسن الادريسى نفسه . وبعد نصف سنة من المقاومة تمكنت الفصائل السعودية من اخضاع حركة انتفاضية بطولية تعد من حلقات الكفاح الثورى للشعب اليمنى ضد محاولات الغزو التوسعية فى أراضيه. ان ما يشد الانتباه بقوة هو موقف الامام يحيى غير المبرر من الانتفاضة

فلقد كانت عسير كلها بسهلها وجبلها مستعدة ،نتيجة الاضطهاد السعودى ، لأن تقف وقفة رجل واحد مع الامام يحيى لو انه اشترك فى حرب تحرير عسير . وكان الادارسة لاول مرة فى تاريخهم مستعدين للعمل معه فى حرب شاملة من أجل انتزاع عسير من قبضة الوهابيين غير أن تردد الامام يحيى وجبنه ألزماه موقف المتفرج « رغم أنها ــ أى الحرب ــ كانت تدور على أرض يمنية » كما قال ابنه الامير أحمد آنذاك ، لقد كان موقف الامام هذا بمثابة مساعدة غير مباشرة لابن سعود للقضاء على هبة عسير الشعبية

وعلى عكس بريطانيا فإن ايطاليا منذ البداية لم ترتح الى تغلغل ابن سعود فى عسير ، وكانت علاقة ايطاليا بالادارسة قد بدأت فى القاهرة منذ عام ١٩٠٥ ؛ ففى هذا العام تمت اتصالات مباشرة بين محمد على الادريسى الذى كان مايزال يدرس فى الازهر وبين المفوضية الايطالية ، وخلالها حرض الايطاليون الادريسى

على القيام بعمل ضد الاتراك ووعدوه بالدعم والمساعدة ، وكان غرضهم من ذلك تحقيق مطامعهم الخاصة فى الساحل اليمني ، والقضاء على النفوذ التركى الذى يقف حجر عثرة فى طريقهم . وقد استمرت علاقة ايطاليا بالادريسى قائمة الى ما قبل الحرب العالمية الاولى اذ انه مع مطلع الحرب أصبح فى جانب الدولة الاقوى،بريطانيا . ورغم أن ايطاليا أرسلت بعثة خاصة الى الحسن بن على الادريسى عام ١٩٢٦ مصحوبة بالهدايا حاولت اقناعه بالتفاهم مع الامام يحيى ، والوقوف ضد محاولة ابن سعود بسط سلطانه عليه الا أن الحسن آثر البقاء فى جبهة أصدقائه البريطانيين والسعوديين

وتعود علاقة ايطاليا بالامام يحيى الى عام ١٩٢٣ . فباستيلاء الفاشيين على السلطة فى ايطاليا أخذوا بحرارة أشد فى متابعة خط سياستهم التقليدية بتوسيع نفوذهم من ساحل البحر الاحمر الغربى الى ساحله الشرقى . ولتحقيق هذا الغرض تظاهروا بالعطف على مطالب الامام فى أن يكون سيد اليمن كلها من عسير الى عدن . وفى عام ١٩٢٦ تمكنوا من عقد معاهدة معه وبالفعل قدموا اسلحة لليمن واقاموا مصنعا للذخيرة فى نفس العام ، ومحطة لاسلكى ، وأرسلوا بعثة طبية وأخذوا يدربون يمنيين على الطيران الحربى والمدنى .. الا انهم مقابل ذلك حصلوا على حق احتكار تجارة البن اليمنى ، وعلى مكانة خاصة فى بيع بضائعهم الى اليمن ، واحتكروا بيع البترول الى اليمن لخمس سنوات وشكلوا لهذا الفرض « الشركة العربية الايطالية » . واشتروا ناسا مهمين فى بلاط الامام . ولم يحصل الايطاليون على فوائد اقتصادية فقط ، وانما أصبح لهم نفوذ معين على الامام . وقد أحدث

هذا النفوذ الايطالى جزعا شديدا فى لنــــدن ، وخافت بريطانيا أن تتمكن أيطاليا الفاشية من الحصــول عــلى قاعدة فى باب المندب من حيث تستطيع فى حالة الحرب أن تقطع وتحاصر الطريق البحرى الى الهنـــد ، وتهدد مكانة بريطانيا فى خليج عدن والمحيط الهندى . غير انه مالبث أن اتضح ان أيطاليا لا تملك الرغبة أو القـــــوة لتصنع من الامام حاكما على اليمن كلها ، وان كل مايهمها هو الحصول على موطىء قدم لها داخل اليمن المستقلة ، وتحقيق أطماعها التوسعية الخاصة فيها خلال منافستها مع بريطانيا

وبعد عامين فقط من توقيع المعاهدة الايطالية واليمنية قررت بريطانيا القيام بهجوم بربرى مضاد ضد الدولة اليمنية ، ووضعت مشروعات لتقسيمها وضم الجـــزء الشافعى منها الى محمياتها فى الجنوب . ففى عام ١٩٢٨ شنت قوى الاستعمار ـ مجردة من الحياء والانسانية ـ هجوما جويا ، وبريا ، وبحريا على اليمن ، وفى الوقت الذى كانت فيه طائراتها تقذف المدن والقرى اليمنية دون تفريق بين الاهداف العسكرية ، وغير العسكرية ، تقدمت قواتها التى جندتها عن طريق سلطان لحج ، والتى جمعتها من الهند ، وكينيا ، ومن العراق والخليج العربى فى اتجـاه الشمال ، بينما تقدمت بواخرها فى البحر الاحمر بقصد احتلال الحديدة ، وخلال عمليات الهجوم الجوى المتوحش قصفت القطيبى ، والضالع وقعطبـة ، وتعز ، ويريم ، وذمار ، وآب ، والنـــــادرة ، وماويه ، والعـــدين ، والميزة ، وحيس ، والمخا وركزت هجومها بشكل خاص على المركزين الرئيسيين للجيش اليمنى ، قطعبة ، والضالع . وفى قعطبة وحدها قتل أكثر من ١٤٠ امرأة وطفلا . وعلى صنعاء أيضا حلقت طائرات استكشاف بريطانية . وعم

السخط والجزع اليمن كما لم يحدث ذات يوم ، وغادر السكان الآمنون والذين أصبحوا تحت التهديد المباشر بيوتهم ولاذوا بكهوف الجبال

وازاء الهجوم الجوى والبرى المركز اضطرت الحاميات اليمنية الى الانسحاب من كل السلطنات والامارات . والمشيخات التى كانت قد انتزعتها من الاستعمار البريطانى ، كالضالع ، والقطيبى وشعيب ، والعواذل ، وأخلت كل المواقع التي كانت تسيطر عليها فى الجنوب مثل السليك ، والطغوة ، والثوبة والردوع ، والمجباة . والمركولة ، والدمنة

غير أن سياسة « فرق تسد » ومشروع بريطانيا الخطير فى فصم وحدة شمال اليمن وتقسيمه ، وتحريك الشوافع ضد الزيود ، هذه السياسة التىلم تتراجععن الكشفعنها صراحة وعلانية فى منشوراتها التى كانت تلقيها طائراتها على الاهالى قد فشلت فشلا ذريعا . بل بالعكس فان القصف الجوى الذى لم يفرق بين زيدى وشافعى أصاب الجميع بالدمار ، ولم يتحرك الشوافع لطرد « الحاميات الزيدية » من أراضيهم كما كانت تأمل بريطانيا ، وشعر الجميع انهم يواجهون عدوا واحدا هو الاستعمار البريطانى الغاشم . وعدا قبيلة الزرانيق فى تهامة التى استجابت للتحريض البريطانى فان جميع قبائل الشوافع قد أحبطت بموقفها الصلب خطط التقسيم الاستعمارية

فى هذا الوقت الذى كانت بريطانيا الاستعمارية وايطاليا الفاشية قد عزمتا فيهمعا على «ابتلاع» شمال اليمن إطل وجه جديد من الشرق لا تحركه نوازع استعمارية ، وكل ما يطمع فيه هو مد يد الصداقة النبيلة ، وتقديم المساعدة النزيهة ، وكان هذا الوجه الجديد هو الاتحاد

السوفييتى ، الدولة الاشتراكية الاولى والوحيدة فى العالم ..

وقد تكللت العلاقات التى بدأت بين اليمن والاتحاد السوفييتى منذ عام ١٩٢٦ عن طريق البعثة السوفييتية التى كانت موجودة انذاك فى جدة بتوقيع معاهدة الصداقة والتجارة فى مطلع نوفمبر عام ١٩٢٨ . وفى صنعاء استقرت بعثة تجارية سوفييتية ، وبدأت البواخر السوفييتية تحمل الى الحديدة البترول ، وبضائع أخرى زراعية وصناعية بأثمان زهيدة ، عرضت فى طول البلاد وعرضها ، واستقرت الاسعار التى كانت قد ارتفعت عاليا ، وتحرر السوق اليمنى من الاحتكار الايطالى ، وتحررت البلاد من ضغطه الاقتصادى ، وكسر احتكار ايطاليا للتجارة الداخلية والخارجية . وأيد الاتحاد السوفييتى استقلال وسيادة الدولة اليمنية ، وأظهر عطفه على حق الشعب اليمنى فى الوحدة . وفى الوقت الذى قوت فيه المعاهدة اليمنية ـ السوفييتية موقف اليمن ، وساعدتها على التخلص من عملية « التطويق » الاستعمارية والفاشية ، فانها كانت انذارا موجها الى عنوان المستعمرين والفاشيين باحترام سيادة واستقلال اليمن .. وكما مزقت هذه المعاهدة الحصار الاقتصادى والسياسى الذى كان غلاة الاستعمار والفاشية قد ضربوه من حول اليمن فانها ثبتت فى نفس الوقت مكانة اليمن الاقتصادية ـ والدولية

واذا كانت بريطانيا العظمى قد تمكنت عام ١٩٢٨ عن طريق الهجوم العسكرى وبأسلحة البطش والعدوان من رد الجيش اليمنى الى ما وراء خط الحدود التركى ـ الانجليزى الذى لم تعترف به الحكومة اليمنية قط ،فان

بالها لم يهدأ ، وبدا أنه لن يهدأ الا بعد أعتراف الحكومة اليمنية به كأمر واقع فرضته القوة الغاشمة . وهكذا أتيح لبريطانيا بعد مفاوضات طويلة توقيع معاهدة مع الامام عام ١٩٣٤ انتزعت بها اعترافه بالامر الواقع ، ومقابل ذلك اعترفت بدولة اليمن . وقبل توقيعها انسحبت الفصائل اليمنية من بعض القرى التى كانت ما تزال ترابط فيها خلف خط الحدود التركى ـ الانجليزى وبالذات من شمال سلطنة العواذل ، ويافع ، وامارة الضالع . غير أن بريطانيا لم تستطع الحصول على اعتراف الحكومة اليمنية بهذا الخط ، أو الزامها بتخطيط الحدود من جديد ، حيث أن المادة الثالثة من المعاهدة نصت على أن « يؤجل البت فى مسألة الحدود اليمنية الى أن تتم مفاوضات تجرى بينهما قبل انتهاء المعاهدة » التى حددت مدتها بأربعين عاما

وعلى الرغم من عدم الاعتراف بخط الحدود التركى ـ الانجليزى فقد عبرت المعاهدة عن انهيارالمقاومةللاستعمار البريطانى ، وعن استسلام الامام يحيى أمامه ، ورضوخه لشروطه ..

لقد انطفأت شعلة الكفاح فى الجنوب ، غير أنها ظلت مستعرة فى الشمال . فبعد مفاوضات طويلة مع ابن سعود ابتدأت منذ عام ١٩٢٦ حول نجران وعسير رفض خلالها ابن سعود بعناد وتعنت مطالب اليمن الشرعية فيهما أخذت نذر الحرب بين البلدين تلوح فى الافق . وعندما حاول ابن سعود بسط سلطانه على نجران التى فشلت فى اخضاعها كل حملاته العسكرية التى أرسلها ضدها منذ عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٣٢ كان الرد الوحيد هو تقديم الجيش اليمنى عليها فى مايو ١٩٣٣ ،

وقطع الطريق على محاولاته التوسعية الجديدة . فى نفس الوقت أخذ الادارسة الذين كانوا قد فروا الى داخل اليمن يشجعون ويحرضون الامام يحيى على العمل السريع من أجل استعادة المناطق اليمنية السليبة فى عسير ، ووعدوه بدعم ومناصرة أتباعهم له . فورا تقدمت قوة أخرى صوب جبال عسير تهامة يصحبها عبد الوهاب الادريسى ، وسيطرت مؤيدة بأهالى المنطقة من أتباع الادارسة على مجموعة جبال « ساق الغراب » فى عسير تهامة . وبالاستيلاء على نجران وجبال عسير تهامة ، وجدت الحاميات السعودية نفسها شبه مطوقة ، وتوشك أن تقع تحت التهديد المباشر

كان ابن سعود قد استعد للصدام ، واجتلب لهذا الغرض أسلحة حديثة ، وسيارات نقل بمساعدة البنك الهولندى فى الحجاز ، وشركة ستاندرد أويل ، وفورد . ولعب مبعوث المخابرات البريطانية الخطير ومستشار ابن سعود جون فيلبى الذى كان قد تنبأ بحتمية اندلاع الحرب بين اليمن والسعودية دورا بارزا فى هذا السبيل. وقدمت بريطانيا له معظم أسلحته الحديثة. ومن الرصاص وحده زودته الحكومة البريطانية من أكتوبر ١٩٣٣ الى ابريل ١٩٣٤ بمليونى طلقة ، بينما احتجزت فى هذا الوقت فى عدن ٨٠٠٠ بندقية مع ذخيرتها كانت اليمن قد اشترتها من ايطاليا . لقد أرادت قوى الاستعمار البريطانى ببيع الاسلحة وسيارات النقل لابن سعود ليس تحقيق أرباح اقتصادية فقط ، وانما أرادت تهيئة الملك الوهابى بذلك وبغير ذلك من وسائل الدعم لان يعلن حربا توسعية ضد اليمن تكسب منها فوائد اقتصادية وسياسية . هكذا أعلن ابن سعود الحرب على اليمن فى

٢٢ مارس ١٩٣٤ ليس بسبب النزاع على نجران وعسير فحسب ، وانما من أجل الاستيلاء على الارض اليمنيـــة كلها • وانقسمت حملة الغزو السعودية الى ثلاثة جيوش ، جيش بقيادة الامير سعود بن عبد العزيز ، ومهمتـــه الزحف صوب صعدة والسيطرة على الهضبة الوسطى الى صنعاء ، وجيش بقيادة الامير فيصل بن عبد العزيز ، وقد كلف باستعادة جبال عسيرتهامة والتقدم على تهامة اليمن فى اتجاه الحديدة ، وجيش بقيادة الامير خالد بن محمـد آل سعود وهدفه السيطرة على نجران

وعلى الرغم من أن الجيش اليمنى لم يكن يملك عـــدا بعض الاسلحة التى حصل عليها من ايطاليا الا أســلحته القديمة التى بقيت منذ العهد التركى والمكونة من البنادق والمدافع الجبلية فأنه قد أظهر فى القتال شـجاعة نادرة ، وتفوقا عظيما ، ففى منطقتى نجـران ، وصـــعدة لقيت القوات السعودية هزائم منكرة • وفى حرض تهامة لم تجد الجيش الوهابى حتى المصفحات والدبابات ، وظل الجيش اليمنى بعد معارك ملحمية هو المسيطر على الموقف

ومع أنه لم تحدث معركة حاسمة لا على الجبهة الشرقية فى نجران وصعدة ولا على الجبهة الغــــربية فى حرض وميدى تنهى القتال لصالح أى من الفـــريقين فان الامام يحيى فجأة أمر قواته فى حرض وميدى « بعدم الدفاع عن مراكزهم » ، وفى نفس الوقت أبرق الى ابن سعود يدعوه الى ايقاف الحرب ، ويقول له فى تخاذل وضعف : « يكفى ما كان • » غير أن هذا الموقف المتخاذل لم يزد عبد العزيز الا اصرارا ، وقوة ، وفى رده على الامام أكد له أن الحرب لن تتوقف حتى ينسحب الجيش اليمنى من نجـــران ، وجبال عسير تهامة • وفعلا سحب الامام قواته ليس من

نجران فحسب ، وانما أيضا من جميع أنحاء تهامة أى من عبس شمالا الى ميناء الطائف ، وباجل جنـــوبا ، وهى المنطقة التى كانت تابعة للادارســـة ، وأصبحت منذ عام ١٩٢٥ تابعة لدولة اليمن ، والتى ظل ابن سعود يطالب بها منذ أن تم له ضم الامارة الادريسية فى عسير ، عند ذلك أعلن الامام أنه لا يعتبر نفسه فى حالة حرب مع ابن سعود ٠ ولم يكف هذا كله لاقناع ابن سعود بايقـــاف الحرب ، ولم يستطع اقناعه بذلك أيضا الوفد الاسـلامى الذى قدم الى الحجاز مما أثبت بشكل قاطع أن غرضـــه من اعلان الحرب ليس النزاع على نجران وعسير ، وانمـا بالدرجة الاولى الحاق اليمن بمملكته الوهابية ، وهـــكذا تقدمت فرقة فيصل فى تهامة الى أن بلغت الحديدة دون مقاومة ، ودون طلقة رصاص واحدة

ولكن لماذا سحب الامام جيشه من نجران وتهـــامة مع أنه لم يهزم فى موقعة قـــط ؟ لقد علل الامام ذلك بأنه حرصا على عدم « اراقة دماء المسلمين ، وحتى « لا تدمـر أملاكهم » ولكى لا يتيح استمرار الحرب تدخـل القوى الاجنبية التى هى « أقوى منـــا ومن أخينا عبد العزيز » والتى « تطمح فى بلاد العرب » ، «« ولقد أخلينا تهامة مع احتفاظنا بكل حقوقنا فيها ٠ »

الا أن السبب الحقيقى وراء ذلك الى جانب خوف الامام وجبنه هو حسبان ان جيش اليمن الجبلى ، والذى تعود أساسا على حروب الجبال لن يستطيع المقاومة طـويلا فى صحارى نجران وتهامة ضد الجيش السعودى الذى كان مزودا بأسلحة ميدان حديثة خفيفة وثقيلة ٠ كما وضـح منذ بداية الحرب أن حكم الامام المتعصب قد أدى الى أن قبائل الاسماعيليين فى نجران وقبائل الشوافع فى تهامة

قد انتقلوا الى صف ابن سعود مما منحه قوة اضـــافية ، ووضع الجيش اليمنى عمليا بين نارين . ولم يبق هنـاك الا طريق واحد هو سحب الجيش الى الجبل ، وتركيـزه في المواقع الجبلية الاستراتيجية والهامة من حيث يستطيع تحت ظروف ملائمة أكثر مواصلة الحـــرب بنجــاح ، واستدراج الفصائل الوهابية الى الوهاد التى لا تستطيع الخروج منها

بعد انسحاب الجيش اليمنى من تهامة مباشرة ، وقبل بلوغ فيصل الحديدة ظهرت أمام الميناء بواخر بريطانية ، وايطالية ، وفرنسية . لقد قصدت بريطانيا الاســتعمارية من ارسال سفنها الى الحديدة منع القوى الاجنبية الاخرى من التدخل فى الحرب ، ولا سيما بعد أن تراءى لها أن اليمن أصبحت مهددة بالسقوط فى يد صـــــديقها ابن سعود . وايطاليا الفاشية التى ظلت تعتبر سواحـــل اليمن الغربية « أرضا خلفية » لمســـتعمرتها اريتريا ، والتى من أجل الحصول على موطىء قدم لها فيها حاولت اكتساب الامام ، لم تكن مســـتعدة ، وبالذات فى هذا الوقت العصيب الذى بدا فيه أن مصير اليمن أصــبح على كف القدر للتخلى عن أحلامها القديمة . وبما أن بريطانيا قد اختارت ابن سعود لتحقيق مطامعها عن طريقه ، فان قرعة ايطاليـــا قد رست على الامام يحيى . وفرنسا التى ظلت ترفع ودون انقطـاع مطالب مزعومة على جـزيرة الشيخ سعيد أصبحت الان أكثر من أى وقت مضى مهتمة بتحقيق هذه المطالب ، وكان من مصلحتها على الاقـل أن تبعد خطر احتلالها عن طريق أى قوة أجنبية أخرى

وعندما دخل فيصل بن عبـــد العزيز الحديدة فى ٦ مايو ١٩٣٤ اعتقد الكثيرون خارج اليمن ممن فاتهم الامام

بظروف الحرب فى الجزيرة العربية ان الملك ابن سعود يقف الان على الذروة العليا من انتصار خاطف وعظيم ، وانه أقرب ما يكون لان يصبح سيد وقيصر الجزيرة العربية غير المنازع والوحيد ، والمعترف به

الا أن المرحلة الثانية والصعبة من سير الحرب مرحلة الحرب الجبليه بكل مصاعبها ومخاطرها التى لا تقهر كانت في الواقع ما تزال فى بدايتها

لم يحاول ابن سعود الزج بفيصل فى مغامرة حربيه خطيرة بأقحامه عبر الجبال صوب صنعاء • وأصبح عبد العزيز « حذرا مما لا يتفق مع ماضيه » كما كتب جون فيلبى : ولقد أصبح ابن سعود حذرا لانه أدرك جيدا أن حربا جبليه بين القبائل اليمنية المحاربة ذات التجارب الكثيرة فى حروب الجبال وبين رجال فيصل من الاخوان لا تعنى الا ارتكاب « حماقة » فقط ، ولا تعنى الا اسلامهم الى التهلكة ، وضياع كل سمعته التى اكتسبها خلال حروبه مع أمراء شمال الجزيرة

وعلى أى حال فقد علق عبد العزيز آماله على سعود الذى كلف باحتلال الهضبة عن طريق الشمال • غير أن حظ سعود كان سيئا للغاية ، فلقد أوقف تقدم فرقته نهائيا • وفى اليوم الثانى فقط من دخول فيصل الحديدة دارت بين جيشه والجيش اليمنى أقسى وأعنف المعارك فى باقم ، ويباد ، والنقع ، والشطبة ، وعلس من لواء صعدة . وقد اشتركت فى هذه المعارك قبائل من صعدة وسحار ، وبنى جماعة ، وغيرها من القبائل اليمنية • وقد استمر الهجوم العاصف والعام الذى شنه الجيش والشعب اليمنى يومين كاملين من سبعة الى ثمانية مايو ، وأمامه تمزقت صفوف الجيش السعودى ، وانسحبت

في ذعر وبغير نظام وفى مقدمتها سعود مخـــلفة وراءها البنادق ، والمداقـ والخيام ، والجمال ، وسيارات النقل، و٢٠٠٠ سعودى بين قتيل وجريح

وبهذه المعركة الحاسمة طوح بالجيش السعودى الى خارج لواء صعدة الى صحارى نجران ، وأعيد الاتصـال المباشر بين قوات صعدة ، والقوات العاملة والمنتصرة فى جبال عسير تهامة ،وكادت قوات فيصل تعزل عن السعودية وتحصر داخل تهامة اليمن وبينما كان مشروع تطويقها قيد البحث أعلنت الهدنة. لقد كان انتقال الجيش اليمنى من مركز الدفاع الى مركز الهجوم هو الذى حـــول سير الحرب ، ولقد كانت هزيمة جيش سعود فى صعدة هى التى أقنعت المغامرين فى السعودية بعـــدم جـــدوى استمرارها ، وباستحالة تحقيق أى انتصار على الشـعب اليمنى ، وبالتالى أقنعتهم بايقافها • ولقـــد أدركوا أن التقدم فى جبال اليمن لا يعنى الا التقدم نحو موت مؤكد ، فالسير فى الهضبة ليس كالسير على الشاطىء الذى دخلته القوات السعودية دون كفاح ، ودون جهد ، ودون طلقة رصاص واحدة

كذلك أدرك ابن سعود أن البقاء فى تهـــامة يعنى استمرار الحرب ، ويعنى خلق جيش احتلال نظامى غير الاخوان البدو يستطيع حماية ظهره من هجمات الجيش اليمنى الذى يشكل الجبل كله غطاء حاميا له ، وخندقا ملائما لاستمرار نضاله ، وبدون مساعدة بريطانيـــا العسكرية والاقتصادية لا يســـتطيع ابن سعود توفير متطلبات هذا الجيش . غير أن بريطانيـا الاستعمـارية ليست اليد الوحيدة المطلقة التى تملك أن تصنع ما تشاء، ولقد وجدت فى ايطاليـا الفاشية ، وفرنســا الامبريالية

منافسين خطيرين • لقد كان مصير تهامة أشبه بحبـــل تتجاذبه الدول الاستعمارية الثلاث

ونظرا لان الدول الثلاث لم تســـتطع ان تتفق على كيفية تقســـيم « الغنيمـــة » وليأس ابن ســـعود المطلق فى امكان تحقيقه نصر على اليمن مال سهم الاحداث فى اتجاه الصلح بعد الهدنة • فمن جهة نصحت بريطانيا صديقها عبد العزيز بايقاف الاعمال الحربية ، ومن جهة أخرى أدرك الجانب اليمنى والسعودى معا أنه ليس فى امكانه تسجيل نصر حاسم ونهائى ضد الاخر • وهـــكذا فضل عبد العزيز أن يقنع بأن يجعل تهامة مادة للمساومة، أن ينسحب من تهامة مقابل أن تسحب الحكومة اليمنيـة جيشها من جبال عسير السراة ، وأن تتنازل عن عســير بجزأيها وعن نجران وأن تسلم الادارسة لابن سعود . وهكذا كان ، وتم الصلح وعقدت اتفاقية الطائف فى ١٩ مايو ١٩٣٤

فى ميدان الحرب لم يكن هناك غالب ولا مغلوب • ومع ذلك فقد سجلت اتفاقية الطائف مع الســـعودية هزيمة سياسية بالنسبة لليمن . فعـــلى الرغم من ان الامام لم يتخل نهائيا عن نجران وعسير ، فان الاتفاقية قد اعترفت ببقائها تحت الحكم السعودى لمدة عشرين عاما تتم قبـل انقضائها بستة شهور مفاوضات أخرى لتعديلها ، تمـاما كما سمح بمقتضى معاهدة صنعاء قبل ذلك بشهور باحتلال جنوب اليمن حتى تجرى مفاوضات أخرى قبل انقضـــاء مدة المعاهدة

لقد كان عام ١٩٣٤ عام انهيار المقاومة ازاء الاستعمار البريطانى ، والتوسع السعودى • لقد عبرت كلتـــا المعاهدتين عن الاستسلام لمطالب بريطانيا فى الجنـوب ،

ولمطالب ابن سعود فى الشمال ، فى جيزان ونجــران .
وكان عام ١٩٣٤ عام توقف حركة اليمن التاريخيه من أجل وحدة الارض اليمنيه ، وعام تقارب الحكام اليمنيين مع الاستعمار البريطانى ومع الحكم السعودى ، ولقــد كشف هذا العام أنه رغم الكفاح المستمر ، والتضحيـات الغالية التى قدمها الشعب اليمنى من أجــل تحقيق وحدة الارض اليمنية فان الجهاز الحاكم الذى كان يسيطر عليه لم يكن يملك المقومات أو الشروط التى تســاعد على تحقيق هذه المهمة التاريخية .فنتيجة للتركيب الاقتصادى والاجتماعى المتخلف الذى قامت عليه دولة الائمة لم يكن فى امكان الشعب اليمنى أن يصل بكفاحه الى نهــاية النصر ،والى خلق وحدة وطنه . انفشل ايجاد دولةيمنية موحدة لا يعود فقط الى قوة بريطانيا وحليفها ابن سعود اللذين اعترضا هذه المسيرة التاريخية وانما يعود بالدرجة الاولى الى طابع الدولة التى وقف على رأسها الائمة. فمملكة الائمة الرجعية بنظامها الاقطاعى ، الطائفى ، العنصرى لم تكن تستطيع أن تفرض وحدة الوطن اليمنى بحرب تحرير ثورية . ولقد كانت القوى العسكرية التى وضــعت فى فى الميدان ضد بريطانيا وابن سعود تتشكل من طائفــة واحدة فقط ، هى طائفة الزيديين . فلا الشــافعيون ولا الاسماعيليون داخل مملكة الامام أو خارجهــا كانوا مناصرين لحركة الكفاح ضد بريطانيا أو ابن ســعود ، لسبب واحد وهو أنهم لم يقبلوا بامام طائفى ، عنصرى ، متعصب يحكمهم ، أو يوجه نضالهم . ولقد كان نظــام الضرائب البالغ القسوة ، واستخدام الجنود عند جبــاية الضرائب ، ونظام الرهائن الخالى من الشفقة ، وما عــدا ذلك من المعالم الرجعية لدولة الائمة من الاسباب العميقة

التى حالت بين الشوافع والاسماعيليين فى عسيرونجران وفى جنوب اليمن ، وبين التحمس لقضية وحدة الوطن اليمنى ..

لقد أثبتت سنوات الكفاح المضنى والمرير ان مهمة تحرير الارض اليمنية من الحكم الاجنبى تتطلب أولا التحرر من الحكم الرجعى الداخلى، وأن رفع الظلم الداخلى، والاضطهاد الطبقى ، والطائفى ، والعنصرى مقدمة لازمة لرفع الظلم الخارجى ، والاضطهاد الاجنبى ، وأن تحرير الانسان اليمنى هو الخطوة الاولى لاطلاق قواه وطاقاته من أجل تحرير وطنه . ولقد أكد نضال الشعب اليمنى أن حرب تحرير وطنية ثورية ناجحة تتوقف أولا على خلق جهاز حكم متحرر وطنى ثورى يستطيع أن يعبىء الشعب كله وراءه ، ويقنعه بقيادته له

ولقد جاءت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ لتفتتح هذا العهد ، عهد تحرير المواطن اليمنى توطئة لتحرير أرضه من الاستعمار البريطانى ، والتسلط السعودى . فالثورة اليمنية التى اسقطت مملكة الائمة الرجعية ، وأعلنت قيام جمهورية وطنية متحررة تشكل انذارا ثوريا حازما للاستعمار البريطانى ، والرجعية السعودية ، وبنشوبها توفر الشرط الحاسم لانطلاق حركة التحرير الوطنية اليمنية ، وفشل كل المخططات الاستعمارية

ولقد ادرك الاستعمار البريطانى وأدركت الرجعية السعودية اتجاه الثورة اليمنية التاريخى ، ومهمتها العظمى التى وضعها التاريخ اليمنى على عاتقها ، ثأرا للماضى ، وانتصارا للمستقبل ، ولهذا فانهما قد شنا ضدها حرب تدخل رجعية استعمارية سافرة

ولم يكن اندفاع بريطانيا المسعور ضد الثورة اليمنية

دفاعا عن عرش الرجعية الذى سقط فى صنعاء بقدر ما كان دفاعا عن برجها الاستعمارى فى عدن . كما لم يكن هجوم الرجعية السعودية المحموم ضد الجمهورية اليمنية استمرارا لتدخلها ضد انتفاضات الشعب اليمنى كما حدث عام ١٩٤٨ .. ومحاولة لاعادة الحياة الى نظام دفن فى اليمن وانما بالدرجة الاولى دفاعا عن نظام شبيه له اهتزت قواعده بفعل الثورة فى شمال الجزيرة ، ولم تعد تملك طغمة الرجعية فى الرياض امكانية شن حرب توسعية علنية بقصد الالحاق كما كانت تصنع فى الماضى ، وأصبح كل ما تملكه هو تجنيد المرتزقة والرجعيين من داخل اليمن ومن خارجها ودفعهم الى مغامرات مجنونة حمقاء . على أن ما يشجع الرجعية السعودية اليوم على الاستمرار فى سياستها التقليدية ، سياسة عداء اليمن ، وشعب اليمن ، والتدخل دائما فى أموره الداخلية ، ومحاولة فرض مطامعها وسياستها عليه هو الاستعمار الامريكى ، الذى ادرك بدوره ان قواعده الاستعمارية فى الظهران ، ونفوذه السياسى والعسكرى فى الرياض ، ومصالحه البترولية فى الجزيرة العربية قد دنت ساعة التخلص منها بقيام ثورة اليمن التحررية التى اشاعت فى طول الجزيرة وعرضها زوحا ثورية جديدة ، وعهدا ثوريا متأججا

ولقد وضع التاريخ على شعب اليمن الثائر فى الشمال والجنوب مهمة مواصلة كفاحه التاريخى الملىء بالتضحيات ، والانتقال به الى مرحلة تحقيق الامل ، مرحلة اسقاط الحكم الاستعمارى فى الجنوب بعد أن تم له اسقاط الحكم الرجعى فى الشمال ، مرحلة تحرير الاراضى السليبة فى نجران وعسير وتحطيم عرش العمالة والرجعية فى الرياض ، مرحلة خلق دولة يمنية ، موحدة

مستقلة ، وطنية ديموقراطية • وليس أوان تحقيق ذلك ببعيد ، ذلك لانه تحت هدير حركة التحرر الوطنية العربية العارمة وتحت ضربات الثورة العربية الشاملة ، سوف ينطوى علم الاستعمار فى عدن ، وترتفع مكانه راية الحرية ، راية الجمهورية العربية اليمنية ، وسوف تندحر طغمة الرجعية السعودية ، وتضىء مشاعل الثورة فى الرياض كما أضاءت فى صنعاء

تلك حتمية تاريخية يفرضها التطور ، وقانون موضوعى لا يملك مقاومته حتى الاستعمار والرجعية ، وتيار تقدمى يسير فى اتجاه التاريخ الصاعد دائما الى الامام

وبعـــد :

فهل هى مجرد صدفة تاريخيـــة ان تبرر حكومة الاستعمار البريطانى فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ضرورة احتلالها لعدن بوجود جيش مصرى على سواحل اليمن يهدد طريق التجارة الى الهند ، وان تبرر اليوم عدم اعترافها بالجمهورية اليمنيـة بوجود جيش مصرى فى اراضيها ؟!

وهل هى مجرد صدفة غريبة ان تكتل بريطانيا كل قوى حلفائها الغربيين فى محور واحد فى النصف الاول من القرن التاسع عشر من أجل ارغام الجيش المصرى على الانسحاب من اليمن ومن غيرها من الاراضى العربية الاخرى وتحصره داخل حدود مصر ، وان تكتل اليوم كل قوى حلفائها الغربيين فى جبهة واحدة من أجل ارغامه على الانسحاب من اليمن كمقدمة لحصره داخل حدود مصر

ذلك ليس صدفة وانما هو استمرار تاريخى ومنطقى لسياسة الاستعمار البريطانى الكلاسـيكية . واذا كان

الجيش المصرى قد دخل اليمن فى القرن التاسع عشر وفى مصر حكم اقطاعى ، فانه لم يدخلها اليوم بقصد الفتح والتوسع الاقطاعى ، وانما دخلها استجابة لرغبة ودعوة جمهورية اليمن ، ودخلها وفى مصر حكم عربى ثورى يقود حركة الامة العربية كلها الى الحرية ، والاشتراكية والوحدة . واذا كان الاستعمار البريطانى قد استطاع ان يفرض على الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر الخروج من اليمن نظرا لان القوى المتحكمةفى العالم أنذاك كانت هى قوى الاستعمار ، ولان حكام مصر حينئذ لم يكونوا يملكون تقديم نموذج جديد لمجتمع جديد يقنعون به الشعوب العربية الاخرى ، فان الذى سيخرج هذه المرة من اليمن هو الاستعمار البريطانى لان حركة التاريخ فى العصر الحاضر قد دارت على الاستعمار نفسه ، ولانه لم يعد المتحكم والمسير لاقدار البشر ، ولان فى مصر اليوم نظام حكم جديد يمثل مستقبل الامة العربية كلها ، ويرمز الى امالها فى الحرية والتقدم ، ويملك ان يجهز جيش تحرير كامل لمواجهة الرجعية والاستعمار فى شمال اليمن ، وفى جنوبه ، ولمواجهة الصهيونية فى فلسطين

وبسيطرة الثورة العربية على مضيق باب المندب بعد سيطرتها على قناة السويس تكون قد ملكت القدرة على تحويل البحر الاحمر من بحيرة انجليزية الى بحيرة عربية، وعلى خنق القواعد والمصالح الاستعمارية فى الشرق العربى وضرب استراتيجية ومصالح الاستعمار شرقى السويس ..

الباب الأول

* لمحة عامة
* فساد نظام الامامة
* التركيب الاجتماعى والاقتصادى
* دور الجمهورية العربية المتحدة
* الدلالة الوطنية للثورة

لمحة عامـــة

كل ثورة من الثورات فى أى بقعة من بقاع الارض لابد ان تكون امامها أهداف معينة تسعى الى تحقيقها واضحة كانت هذه الاهداف او غامضة ، مكتوبة فى سطور أو محفوظة فى الصدور ، ولم تكن حركة المعارضة اليمنية للحكم الامامى منذ نشوئها فى مطلع الثلاثينيات استثناء من هذه القاعدة العامة . فقد كانت لديها أهداف عامة كثيرة بعضها واضـــــح ، والبعض الاخر غامض ، وقد اشتمل برنامج الاحرار على الاهداف الخمسة التاليـــة :

مقاومة الاستبداد ، واقامة حكم الشورى ، البحث عن الشخصية القيادية ، والاندماج بالامة العربية وسعادة الشعب ..

الا أن احد اهداف الاحرار الرئيســـية كان مايزال يصاحبه الكثير من الغموض ، فحركة المعارضة لم تدع الى الغاء نظام الامامة الملكية من أساســه باعتباره بؤرة الفساد ومركز تجمعه

وهكذا كان من أسباب فشل انتفاضة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٥ م وجود امامين على رأسهما من نفس العائلات الحاكمة حيث لم ير الشعب فى كلتا الحركتين الا جانبهما الظاهر .وهو التطاحن والنزاع على العـــرش بين الاسر

الحاكمة . الا ان هاتين الحركتين لم تضعفا وتضعضعا العائلة المالكة فقط ، بل انهما طرحتا أمام الشعب أهدافا اكثر وضوحا وجلاء ، الا وهو ضرورة القضاء على النظام الامام الملكي واقامة النظام الجمهوري الشوروي مكانه .

وما ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ التي اسقطت النظام الامامي الملكي واعلنت الجمهورية العربية اليمنية الا امتدادا للاعمال الكفاحية والانتفاضات الثورة السابقة والدؤوبة التي استمرت ثلاثين عاما ، والا تتويجا لها وتعبيرا جليا عن وضوح الرؤية الثورية وعن تحديد الهدف ..

ضرورة وضع منهاج للثورة

لقد كان من الاهداف التي قامت عليها الثورة :
القضاء على الملكية وأعوانها من الرجعية ..
اقامة النظام الجمهوري ..
ايجاد جيش وطني ..
اقامة تنظيم شعبي ..
تحقيق الوحدة الوطنية والعربية
تحقيق العدالة الاجتماعية ..

ورغم ما لهذه الاهداف من أهمية عظمى الا أنها تتطلب الان صياغة موسعة متطورة . ان هذه الاهداف الكبيرة تشكل معالم على الطريق . ويجب الانطلاق منها عند وضع منهاج متكامل جذري للتغيير الثوري تلتزم به الثورة وتسير على هداه ، منهاج يحدد أيديولوجية الثورة وطابعها السياسي وطبيعة النظام الجديد الذي تريد اقامته ، منهاج يبرز افضلية النظام الجمهوري على

النظام الملكى المسقط ، ويشخص التركيب الاقتصادى والاجتمـــــاعى المتخلف بغرض هدمه واحلال تركيب اقتصادى واجتماعى متقدم مكانه . اذ ان الثورة لا يمكن أن تسمى ثورة بالمعنى العلمى للكلمة بمجرد خلعها ملك أو قلبها لعرش ، انها تشترط ضرب القاعدة الاقتصادية للنظام القديم ،وهدم البناء الفوقى الايديولوجى والسياسى الذى قام عليها ، انها عملية تاريخية تتحول بها العلاقات الانتاجية والاجتماعية تحولا كيفيا ، وتقلب بها الاوضاع السياسية والثقافية السابقة رأسا على عقب . ان المنهاج يتكفل برسم افاق عملية التغيير هذه وبتحـديد القوى الثورية المحركة لها والمعوقة . واكثر من ذلك فان المنهاج يتولى تعيين سياسة الدولة على النطاق العربى والدولى، وموقف الشعب اليمنى من قضية الوحدة العربية وقضية النضال الوطنى التحررى ضد الاستعمار . ان المنهاج هو دليل العمل وبوصلة الثورة الهادية . انه الميثـــاق الوطنى للتنظيم الشعبى ، ولكل جمـــــاهير الشعب المناضلة ، تلتزم به وتطبقه ، وبتجربتها فى العمل الوطنى تغنيه وتخصبه وتعمقه وتطوره ..

الثورة ذروة تقاليد الشعب الثورية

ان اليمنيين لا يشعرون بالاعتزاز والفخر بأنهم صناع حضارة قديمة عريقة عرفت فى التاريخ بأنها احــدى حضارات العالم القديم الشهيرة فحسب ، وانما لانهم اشتهروا ايضا فى التاريخ الحديث بروحهم النضـــالية المتفانية فى مقــاومة الغزاة الاجانب الذين تدافعوا على شواطىء اليمن ــ منذ القرن الخـــامس عشر يريدون بسط سلطانهم عليها ليضــمنوا بذلك التحكم فى طريق

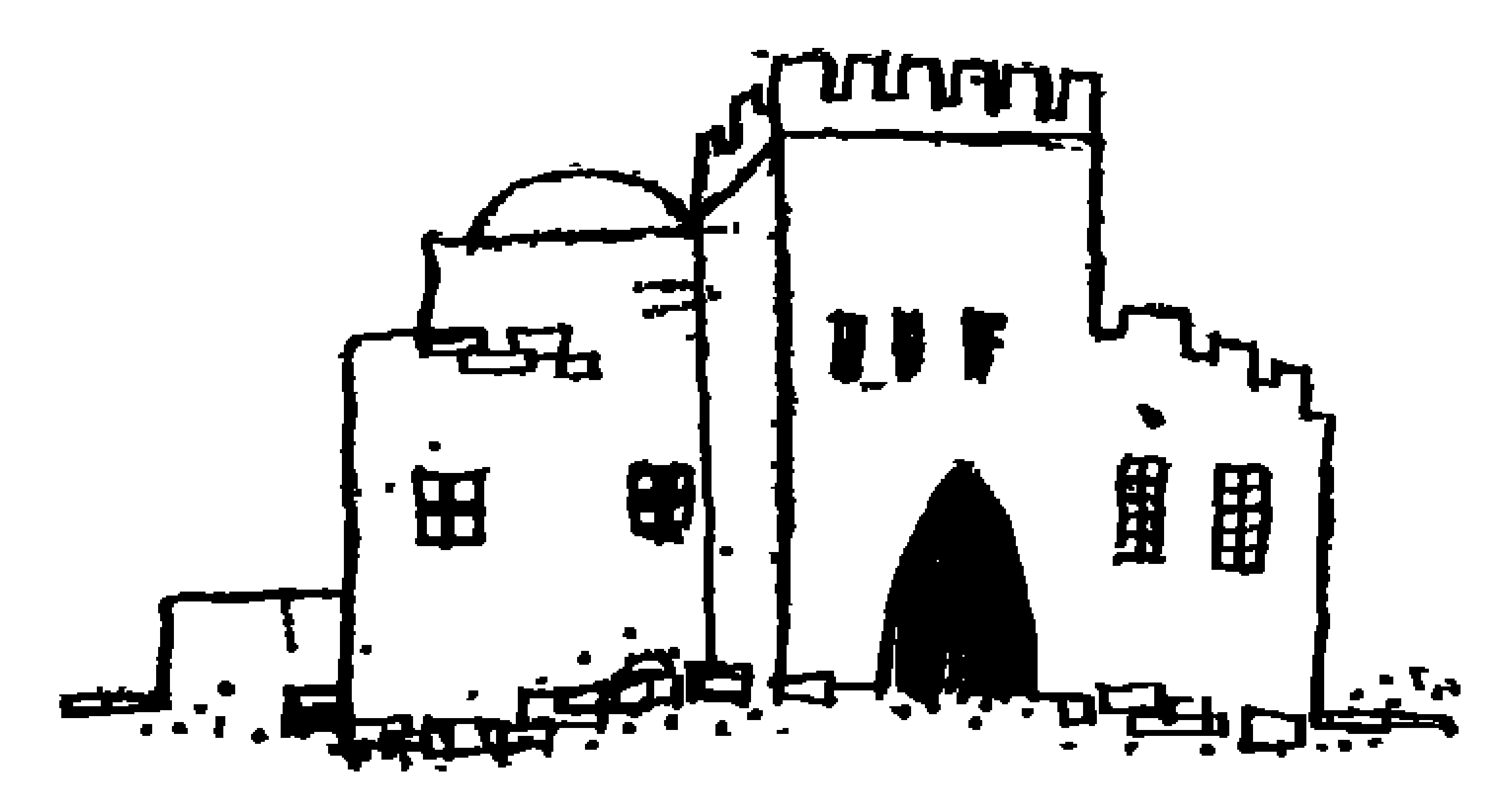
الهند ويقبضوا على شريان التجارة بين الغرب والشرق وعلى عنق البحر الاحمر فى باب المندب وليحتكروا تجارة البن اليمنى الذى اسال ظهوره فى هذا الوقت لعـــاب القوى الطامعة

فعلى صخرة مقاومة شعبنا تحطمت محاولات الغزو التى قام بها البرتغاليون والهولنديون والفرنســيون . ولقد كان الاتراك والانجليز اشرس هذه القوى الغازية . وان الحرب الطاحنة التى دارت رحاها على قمم اليمن الشماء وعلى سهوله البطحاء بين المحـــاربين اليمنيين والجيوش التركية الجرارة فى الغزوة التركية الاولى والتى خرج منها اليمنيون منتصرين بينما بقيت الشـــعوب العربية والاسلامية وغيرها من الشـــعوب رازحة تحت الحكم العثمانى لهى من التقاليد الثورية الخاصة بشعبنا والتى نعتز بها أشد الاعتزاز ، وان الحروب الضـارية التى اشتعلت بين المحاربين اليمنيين والجيــوش التركية ــ الغازية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى نهـاية الحرب العالمية الاولى والتى كان الجبل والسهل مسرحـا لها والتى تحولت بهـــا اليمن ــ الى مقبرة للاتراك ، لهى من المآثر التاريخية العظمى التى تروى عن اليمن ــ والتى ستبقى ابد الدهر مفخرة لليمنيين واهزوجة انتصارهم فى ملاحم المستقبل القادمة . لقد تمكن شعبنا بنضـاله الرائع ان يقيم بعد الحرب العالمية الاولى فى الهضـــبة الوسطى من اليمن ــ وعلى الشريط الساحلى المطل على البحر الاحمر اساسا لدولة يمنية موحدة مستقلة

ان محاولات توسيع نطاق هذه الدولة بحيث تشمل كل أراضى اليمن التى تمتـــد فى الجنوب حتى عدن وحضرموت وتمتد فى الشمال حتى عسير ونجران قد

منيت عام ١٩٣٤ م بهزيمة سياسية ساحقة

ان السبب فى ذلك لايعود فقط الى القـــوة المتفوقة للاستعمار البريطانى وحليفه ابن سعود اللذين وقفا سويا فى وجه الشعب اليمنى ـ وانما يعود أيضا الى طبيعـة النظام السياسي المتخلف والرجعى للدولة اليمنية . ان عام ١٩٣٤ م ، الذى استسلم فيه الامام يحيى امام بريطانيا وابن سعود ، وعقد معهمـــا فيه معاهدتين ـ استسلاميتين تنازل بمقتضى احداهما عن جنوب اليمن لتحكمه بريطانيا اربعين عاما ، وتنازل بمقتضى الثـانية عن عسير ونجران ليحكمهما ابن سعود عشرين عاما ، ان هذا العام يشكل ساعة ميلاد حركة المعارضة اليمنيـــة لحكم الامام يحيى ، حيث ان هذا العام قد كشف ضعف الدولة اليمنية والجيش اليمنى وفشل حركة توحيـد اليمن ، وانحطاط النظام الامامى ورجعيته . وكانت حركة المعارضة استمرارا للروح الثورية لدى الشعب اليمنى وتعبيرا عنها ، وبعد كفاحات مريرة وأعمال بطولية قدمها شعبنا امكن له الظفر بحريته باندلاع ثورته المجيدة ، فى ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢ م . وهكذا فان الثورة اليمنية لاتشكل استمرارا لتقاليد شعبنا اليمنى الثورية فقط وانما تعتبر أيضا قمة اعماله الكفاحية وتقف فى الذروة العلياء منها



فســاد نظام الإمامــة

على الرغم مما يبدو نظريا من أن مذهب الامامة الزيدى لا يبيح الوراثة المطلقة للعرش الا أن الواقع التــاريخى قد برهن على أن الامامة قد تحولت الى ملك وراثى مطلق عضوض . وبذلك نقضت احدى المقومات الشرعية للحكم الاسلامى الصحيح . ان نظام الامامة الزيدى لم يضعه زيد بن على كما قد يتوارد على الاذهان وانما الذى صاغه واكمل صياغته القاسم الرسى ومن تلاه من الائمة من آل بيته . وهكذا بدأ نظام الامانة كتكريس للحــكم وكوراثة مطلقة للعرش فى أسرة واحدة هى أسرة القاسم الرسى التى ينحدر منها بيت حميد الدين . وليس ادل على ذلك من أن هذه الاسرة انفردت بحكم اليمن منــذ القرن العاشر حتى القرن العشرين حيث لم تخرج السلطة من يدها الا نادرا . لقــد وضعت للامامة شروط عدة ولكنها اما متناقضة ، او لم تتحقق . ان احــد شروط الامامة هو ان يكون الامام ورعا تقيا ، الا ان هذا الشرط ينقضه حكم اخر يقول : بجواز امامة المفضول مع وجود الافضل . كما أن نظام الامامة قد حــرم على من ليس بهاشمى تولى رئاسة الدولة . ومع أن هذا الشرط يتناقض

والديموقراطية فانه رغم حيفه لم يتحقق أيضا ، حيث أن أسرة الرسى هي التى استأثرت بالحكم دون غـــيرها من الهاشميين • وأكثر من ذلك فان هذا الشرط قد أبطل في عهد الامام يحيى تماما حيث سمح يحيى لابنه الاكبر أحمد أن يدعو نفسه وليا للعهد ومكن له من تهيئة نفسه لخلافته بمختلف الوسائل والسبل، وقام نظام الامامة على التعصب الطائفى حيث لم يفرض على الشافعيين والاسماعيليين أن يكونوا محكومين فقط ، بل واعتبرهم كفار تأويل وأباح نهب أموالهم

ومن هنا اهتم الامام يحيى في أن يكون جيشه من طائفة واحدة فقط من أجل نهب الطائفتين الاخريـــين وابتزاز أموالهما عن طريق الجنود والضرائب الباهظة . وفـرض نظام الامامة على اتباعه السمع والطاعة واعتبر من خرج على الامام لظلمه أو استبداده فاسقا باغيا فاجرا .وكرس نظام الامامه السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية في شخص واحد هو الامام ووضع في يده السلطة الدينية والدنيوية ، فالامام هو كل شيء ويعمل كل شيء • ولهذا السبب فان الامام يحيى ومن بعده احمد لم يهتما بانشاء جهاز سياسي واداري للدولة . لقد أعطى نظام الامامة الامام سلطة دولية غير محدودة من أجل اقامة حكم مطلق فردى كهنوتي • ان نظام الامامة الذى كرس في شـخص الحاكم كل وظائف الدولة قد بدأ باعتباره وسيلة لتجسيد الدولة في شخص الامام . ولم يستطع الامام يحيى ومن بعده احمد ممارسة هذه السلطة الا بواسطة نظام الرهائن هذه الظاهرة الفريدة في استرقاق الناس ، والا عن طريق القمع الوحشي للانتفاضات القبلية . وهكذا تميزت دولة الامامة بانها حكم اقطاعى كهنوتى ، حكم ارستقراطى فريد

ى نوعه ، حكم إستبدادى أرستقراطى فردى مطلق وطغيان مسلح .. ان هـــذا النـوع من الحـــكم الوحشى يتنافى مع الروح الديمقراطية للاسلام التى جعلت الامر شــــورى بين الناس ، ومع تقـــاليد الشعب اليمنى الديموقراطية، ألم تقل ملكة اليمن ـ فى العصور القديمة ـ « ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون » ان حكم الامامة الشرس تنكره شرائع الارض والسماء

اليمن فى ظل العزلة والجمود السياسى

كان شمال اليمن اول بلد عربى يحقق استقلاله السياسى الكامل بعد الحرب العالمية الاولى وفور انسحاب الاتراك من اليمن . وكان اليمنيون الذين خاضوا الحروب الوطنية التحريرية ضد الاتراك ثم ضـــد الانجليز والذين قامت الدولة اليمنية على اكتفاهم يأملون فى أن يكون الاستقلال عاملا فى انتقال بلادهم من التخلف والركود والتأخر الى التقدم والرقى والحضارة ، وان يكون نقطة انطلاق الى تحقيق مطامحهم العادلة . ولقد كان فى امكان اليمن ان تسير فى نفس الطريق الذى سارت فيه اليابان مثلا والذى اصبحت بالسير فيه بلدا يضاهى الدول الاوربية ذات الحضارة المتطورة ، ان الامر لم يكن أصعب مما كان عليه فى اليابان ولو أن حكومة اليمن سارت بالبلاد فى هـــذا الطريق لاصبحت اليمن ذات وزن سياسى عالمى . كان فى امكان حكام اليمن من الائمة ان يدخلوا حتى بعض الاصلاح والتجديد على حياة اليمن وأن يأخذوا ولو ببعض الشىء من منجزات الحضارة الحديثة . ولكن الذى حدث هو العكس تماما ، لقد ضرب الامام يحيى نطاقا رهيبـــا من العزلة على اليمن وكان هدفه من ذلك أن يبقى الشعب اليمنى بعيدا

عن سير التاريخ معزولا عن التفاعل مع العالم المتحضر وبمنأى عن التطور العاصف فى القرن العشرين ، وعن التحولات التاريخية الكبرى التى تجرى فيه ، وعن الكفاح الوطنى والمعادى للحكم المطلق فى الشعوب العربية ، وعن مراكز الالتهاب لحركة التحرر الوطنية العربية . كان هدف يحيى من العزلة ان يحتبس الشعب اليمنى فى سجن معتم من القرون الوسطى ، وان يفرض عليه منطق السمع والطاعة ، وان يضرب عليه الذلة والمسكنة . لقد كانت العزلة الخانقة التى ضربت من حول اليمن تعبر عن جمود الائمة السياسى ، وفقدان قدرتهم على التفاعل مع الحياة، وعن رجعيتهم وتخلفهم . وهكذا فان ركود التطور الذى بدأ فى اليمن قبل ١٥٠٠ سنة مع انهيار الحضارة اليمنية القديمة استمر فى عهد الامامين يحيى وأحمد قائما بل وازدادت مرافق الحياة فى عهدهما تدهورا وانحطاطا وبقيت اليمن كما فى السابق تعيش فى القرن العشرين ، ولكنها تحيا حياتها الاولى فى القرن السادس الميلادى وأصاب حياة اليمن شلل عام ، ومزق عصب الحركة فيها وظلت تغط فى نوم عميق خلف جدار العزلة الرهيب، وعلى رأسها سيف الجلاد يضطرها الى الامعان فى النوم ، بينما جلبة الحياة وحركتها الصاخبة من حولها تصك مسامعها. وكانت نتيجة هذه السياسة التدميرية هذه اللوحة السوداء :

لم ينشأ فى اليمن جهاز ادارى حديث للدولة، وحلت سلطة الامام المطلقة محل سلطة الشعب ولم يكن فى البلاد نظام صحى أو تعليمى ، ولم توجد مؤسسات صناعية أو زراعية او منشآت للرى ، وبقيت اليمن فى ثقافتها وزراعتها ومستواها الاجتماعى وفى جميع مرافق حياتها تعيش فى أكثر مراحل القرون الوسطى تخلفا . وبسبب من فقدان

وسائل الري، ونتيجة للضرائب العالية حدثت المجاعات وعم الفقر في اليمن . وعندما اكتسحت احدى المجاعات صنعاء قال الامام يحيى كلمته المشئومة : « من مات فهو شهيد، ومن عاش فهو عتيق » واصبحت سياسة تفقير الشعب منهجا له ، الم يقل : « من كان فقيرا ظل منشغلا برغيفه اليومي بحيث لا يجد وقتا للاهتمام بالسياسة » وفرض الائمة سياسة التجهيل ازاء الشعب حيث أصروا على عدم ادخال المناهج الحديثة في التدريس وعلى عدم اقامة المدارس الحديثة وكانوا — بهذا على أي حال — منطقيين مع انفسهم ، اذ ان ادخال العلم الحديث الى اليمن يعني القضاء على المدرسة القديمة التي لا يعلم فيها غير مذهب الامامة ومنطقها في السمع والطاعة للامام . وفرض الأئمة على الشعب ان يبقى في حالة من المرض لا يقوى معها على الحركة وبهذا أرادوا قتل الحياة فيه . ومنذ ان اعتلت أسرة بيت حميد الدين العرش اهتمت بجمع الاموال ومصادرة ممتلكات الناس متعللة بهذا السبب او ذلك . وهكذا أصبحت العائلة المالكة من أقوى الاسر الاقطاعية

في البلاد ، فنشأ ما سمي « الاملاك السعيدة » و« الصوافي » وكان الأئمة يقشعرون من ادخال الآلات الميكانيكية الحديثة في الزراعة ، كانوا يخشون ان تؤدي الحضارة الميكانيكية الى تفجير الاساس الذي قامت عليه دولتهم ، لم يكن الامام يرغب باعتباره اقطاعيا وحاميا للاقطاع ولعلاقات الانتاج الاقطاعية في تغيير أسلوب الانتاج القائم . وعندما اقترح عليه بعض المفكرين وكان من ضمنهم ابنه محمد ادخال الوسائل الميكانيكية الى الزراعة ، وحفر الآبار لري الاراضي أجاب : اننا لا نريد فتح هذا الباب اننا نخشى ان يعرف اليمنيون وبالذات ذوو الاملاك منهم ذلك وان يستفيدوا من هذه الوسائل الحديثة ، وحينئذ سيرتفع سعر الاراضي.

وفى هذه الحالة لن نستطيع شراء أراضي جديدة لأولادنا وتوسيع أملاكنا ، ان ادخال الالات الحديثة الى الزراعة كان سيؤدي الى انشاء بذور لعلاقات جديدة ذات طابع رأسمالي وهــــذا ما رفضه الامام بوعي أو بغير وعي • الا أن شيئا واحدا مؤكدا وهو أن الائمة كانوا – من أجل الحفاظ على حكمهم المطلق – مهتمين جدا بالا يتغير التركيب الاقتصادى والاجتماعى الاقطاعى القبلي ..

ففى ظل هذه العلاقات الاقطاعية القبلية فقط يستطيع الامام أن يمارس سلطته المطلقة . ان الحضارة الحديثــة والتقدم لم يكونا فحسب فى حالة تناقض حاد مع هــذه العلاقات ، بل كانا يشكلان أيضا خطرا جادا على حــكم الامام الاقطاعى . وتحت هذه الظروف الاقطاعية القاسية لم يكن ممكنا نشوء طبقات جديدة . ونتيجة لفقدان نظام مالي ملائم وما يتعلق به من مؤسسات ، ولعدم وجــود مواصلات حديثة ، ولاحتكار العائلة المالكة لشئون التجارة استحال أيضا نشوء رأسمالية تجارية . ولهذا فقد اضطر التجار الصغار الى الهجرة الى عدن وغيرها من البلدان تماما كما اضطر الكثير من الفلاحين الى مغادرة وطنهم نتيجة للتنافيذ والضرائب العالية والاستغلال البشــــع . وحتى الفن الحرفى الذى اشتهرت به اليمن أخــــذ يتدهور حتى أصبح فى حالة موات . واضطهد الائمة بلا رحمة وبــكل الوسائل البربرية طموح اليمنيين الى الثقافة والعلم والتقدم ومارسوا ضد الشعب سياسة استبدادية ظالمة

نفوذ الاستعمار القديم والاستعمار الجديد

كانت رجعية المملكة المتوكلية اليمنية ذات فائدة كبرى بالنسبة للاستعمار البريطانى أتاحت له أن يثبت مواقعه

وأن يمارس سلطانا مباشرا على جنوب اليمن المحتل بعد ان تخلى عنه الامام يحيى . ولم يكن السلاطين والامراء والمشايخ الاقطاعيون فى جنوب اليمن هم الركائز الرجعية الداخلية للحكم الاستعماري فحسب بل كان الحكم المتوكلى الرجعى الاقطاعى فى الشمال أحد أسباب بقائه ايضا . ومن ناحية اخرى فان الاحتكارات البريطانية لم تخضع جنوب اليمن المحتل لديكتاتوريتها الاقتصادية فقط بل واخضعت ايضا شمال اليمن

وكما تحول جنوب اليمن الى مستعمرة تحول شماله نتيجة لفقدان المؤسسات والبنوك والموانى الى شبه مستعمرة تابعة من الوجهة الاقتصادية للاستعمار البريطانى .. واكثر من ذلك فان هذا التحكم الاقتصادى فى البلاد قد انعكس ايضا على المستوى السياسى ومارست بريطانيا نفوذا سياسيا معينا على الامامين يحيى واحمد وأثرت على سيادة الدولة ومست استقلالها . وقد تجلى ذلك مثلا خلال الحرب العالمية الثانية حيث املت بريطانيا على الامام يحيى السياسة التى تريدها . وفى عهد الامام احمد اخذ البلاط الملكى يتحول بالتدريج الى مسرح للنفوذ الاستعمارى واخذ النفوذ الأمريكى يكتسح النفوذ البريطانى وبدا أن الاستعمار الجديد يسعى حثيثا فى فرض نفسه فى شمال اليمن خلال صراعه وتنافسه مع الاستعمار القديم ، واصبح للاستعمار الامريكى عملاء مهمون يحتلون اماكن حساسة فى جهاز الدولة . وما كان اعطاء الولايات المتحدة الامريكية امتياز التنقيب عن البترول فى اليمن الا احد مظاهر تغلغل الاستعمار الجديد فى البلاد . وكاد الحكم فى اليمن يتحول الى حكم مزدوج بين الامامة الاقطاعية والاستعمار الجديد

التركيب الاجتماعي والاقتصادي

يمكن اعادة نشوء المجتمع الاقطاعي في اليمن الى الفترة التي انهارت فيها الحضارة اليمنية القديمة ذات التطور العالي والى الفترة التي قضي فيها على الدولة الحميرية نتيجة الاحتلال الحبشي عام ٥٢٥ م فلقد قاد هذا الاحتلال البغيض الى انقراض القوى المنتجة ، وفي عهده تهدم سد مأرب نهائيا ..

ان عام ٥٢٥ م يشكل نهاية حقبة تاريخية ، وبداية حقبة تاريخية أخرى، يشكل نهاية الدولة اليمنية والحضارة اليمنية والعربية السعيدة واليمن الخضراء ، وبداية عهد ركود التطور ونشوء علاقات اجتماعية جديدة ذات طابع اقطاعي . وهكذا اخذ المجتمع الاقطاعي يتكون في اليمن منذ هذا التاريخ

ولقد ساهم الائمة خلال حكمهم في توسيع وتدعيم الاوضاع الاقطاعية . واكثر من ذلك فانهم كانوا يبتزون أملاك الناس في اليمن الاسفل ويصادرون قراهم ويمنحونها هبة ومكافأة لقوادهم المشايخ من القبائل الشمالية بحجة أن هؤلاء افتتحوا هذه المناطق أو أخمدوا اعمال المتمردين فيها الخارجين على طاعة الأئمة . أن كلمة « النقائل »

التى تطلق حتى اليوم على بعض القبائل التى استوطنت مناطق فى اليمن الاسفل والتى قدمت مع مشايخهـا من الشمال ليست فى الاصل الا وصفا لاولئك المشايخ الشماليين الذين أقطعهم الأئمة أراضى وقرى فى الجنوب مقـابل خدماتهم واخلاصهم ، وهذا لايعنى ان كل الجماعات التى نزحت من الشمال الى الجنوب قد جاءت بقصد اخماد حركات المتمردين على الامام، فقد هرب الكثير منهم نتيجة الاضطهاد التركى الذى كان مركزا فى الشمال . ان جوهر المجتمع اليمنى فى القرن العشرين لم يتغير عما كان عليـه قبل مئات السنين . ان الدولة اليمنية التى اقيمت على انقاض الحكم التركى فى هذا القرن لم تستطع ان تتخطى هذه المرحلة الاقطاعية واحتفظت من حيث الاساس بجميع سماتها . فلقد فرضت مملكة الأئمة على الفـلاحين ان يقوموا بأعمال السخرة بأدواتهم الخاصة مثل شق الطرق واقامة المبانى التابعة للحكومة وموظفيها وهكذا دواليك. ومن المعروف أن هذا النوع من اعمال السخرة كان سائدا فى المراحل المتخلفة للعهود الاقطاعية . وكان نظام الضرائب القاسى وانتزاع الضرائب العالية عن طريق التنافيذ يمثل أشرس شكل من أشكال الحكم الاقطاعى والاسـتغلال والاضطهاد الطبقى . ولان الفلاحين فى كثير من الحالات لم يكونوا قادرين على دفع الضرائب العالية فانهم كانوا مرغمين على بيع أراضيهم لكبار الاقطاعيين لكى يسددوا الديـون المتراكمة عليهم من الضرائب وبهذا كانوا يتحـولون الى فلاحين فقراء لا أرض لهم . وفى هذه الحالة كان عليهـم أما ان يعملوا فى ارض الاقطاعى او يهجروا بلادهم للبحث عن مجال آخر للعيش لهم ولعائلاتهم ومن أجـل تسديد الديون المتبقية عليهم . ومن الجدير بالذكر ان الائمـة

طبقوا أيضا فى اليمن نظام « الالتزام » ، الذى كان يطبقه الاتراك فى ممالكهم بما فيها اليمن فيما يختص بجباية الضرائب . وبمقتضى ذلك كان الشيخ يلتزم بدفع مقدار معين من الضرائب عن منطقته . وكانت الحكومة تضع أحيانا جنودا تحت تصرفه لارغام الفلاحين على دفع الضرائب التى يقسمها عليهم ، وبهذا كان الشيخ يستطيع التخلص من تسليم الضريبة المفروضة عليه حيث كان يوزعها على الفلاحين ويجبيها منهم . ومن ناحية أخرى كان المشايخ الاقطاعيون يعاملون من قبل الحكومة معاملة خاصة ، فقد كانوا متحررين من كل الاجراءات التعسفية التى كانت تتبع ازاء الفلاحين . وأكثر من ذلك فان الحكومة لم تكن تحدد مقدار الضرائب التى ينبغى عليهم دفعها ، وكانت تتركها أمانة لديهم ، وبهذا كان المشايخ الاقطاعيون يحددون مقدار الضريبة بأنفسهم ويدفعونها متى شاءوا

ان هذين الشكلين المتبعين فى جباية الضرائب لا يشيران فقط الى الامتيازات الخاصة التى كان الاقطاعيون يتمتعون بها بل والى واقع انهم كانوا مع الحكومة يمارسون سياسة الاستغلال والاضطهاد ازاء الفلاحين . ان هذه الحقيقة لا يمكن الا أن تقود الى استنتاج واحد ، الا وهو انه كان يوجد فى مملكة الأئمة طبقتان اثنتان : طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين ، وان الامر هنا يتعلق بمجتمع اقطاعى ..

ولكن كيف كانت علاقة الفلاحين بالاقطاعيين وفى أى شكل كانت ، وأى مكان كان يحتله الفلاحون والاقطاعيون فى الانتاج الاجماعى ؟ وكيف كانت علاقة الفريقين فيما يتعلق بوسائل الانتاج ؟ وأى دور لعب كل منهما فى عملية الانتاج وفى تنظيم العمل ؟ وما مقدار نصيب كل منهما فى

الثروة الاجتماعية وما نوعه ؟

تلك أسئلة هامة لا بد من الاجابة عليها لمعرفة اى نوع من الاقطاع كان سائدا فى مملكة اليمن المسقطة • ويمكن ايجاز اشكال الاقطاعية فى اليمن فى الاتى :

١ ـ لا يمكن الحديث عن وجود نظام القنانة الاقطاعى كما عرفته شعوب اخرى . كان هناك فلاحون شبه اقنان لايستطيع الاقطاعى بيعهم او ضربهم . كان الاقطاعى يزرع اراضيه عن طريق فلاحين شبه اقنان وكانت بيوت هؤلاء الفلاحين والبذور وأدوات الحرث والمواشى العاملة ملكا للاقطاعى ، ولم يكن الفلاح شبه القن يحصل على أكثر من ملء بطنه • ومن هنا كان يوصف ب « الشارح »

وكان الاقطاعى يمنح الفلاحين شبه الاقنان قطعا من الارض للاستثمار تحت شروط استعبادية وكان الجزء الخاص للفلاح يشكل الشرط الضرورى للعناية بأرض الاقطاعى بقوى عمله . وكان وقت عمل الفلاح شبه القن يقسم الى وقت عمل ضرورى ووقت عمل زائد ، وفى وقت العمل الضرورى كان ينتج الفلاح ذلك الانتاج الضرورى من أجل وجوده ووجود عائلته ومن أجل صيانة واصلاح وسائل الانتاج . وفى وقت العمل الزائد كان ينتج على أرض الاقطاعى ذلك الانتاج الزائد الذى كان الاقطاعى يختص به . وكانت وسائل الانتاج كآلات الحرث والمواشى ، المستخدمة فى الانتاج والبذور ملكا للاقطاعى كما هو الامر فى الحالة السابقة . وكان الفلاح شبه القن يوصف بـ « المترعوى » أى انه لا يملك أرضا خاصة به

هناك شكل ثالث من أشكال شبه القنانة يتمثل فى واقع أن الاقطاعى كان يعطى الفلاح شبه القن ارضا

بالايجار وكان بيت الفلاح شبه القن ووسائل الانتاج والبذور ملكا للاقطاعى تماما كما هو الامر فى الحالتين السابقتين .. وكان الانتاج الزائد الذى ينتجه الفلاح شبه القن فى أراضى الاقطاعى والذى كان الاقطاعى يتملكه يشكل ثلاثة أرباع مجموع الغلة . وفى هذه الحالة كان الاقطاعى يدفع الضرائب

ونظرا لان نصيب الفلاح شبه القن من الغله كان قليلا ولم يكن يكفى غالبا حتى للحفاظ على وجوده ووجود عائلته فانه كان مضطرا للحصول على وسائل عيشه من الاقطاعى فى شكل ديون . ان ذلك كان يقوى من شدة تبعيته للاقطاعى

ان هذه الاشكال من أشكال الاقطاعية كانت موجودة فى منطقة زبيد بشكل خاص

الا ان حالة واحدة فى تهامه كانت تسترعى الانتباه ، فالشيخ الاقطاعى الاكبر فى تهامه هادىء هيج كان يزرع أراضيه ليس بواسطة الفلاحين شبه الاقنان فقط بل وبواسطة عبيده الذين كان يستطيع قتلهم وضربهم . الا أن هذا الشكل ليس أكثر من أثر من اثار عبودية سحيقة ونادرا ما يوجد فى مكان آخر من البلاد

٢ ـ ان الشكل الرئيسى والغالب للاقطاع فى اليمن كان يتمثل فى ان الاقطاعيين كانوا يقسمون أراضيهم قطعا ويؤجرونها للفلاحين وكان الفلاحون ملزمين بزراعة أراضى المالك المستأجرة بأدواتهم ومواشيهم الخاصة . وكان مقدار الاجر يبلغ نصف الغلة غالبا ، بينما كانت الضرائب تخصم من كمية الغلة

وكان المالك يستطيع ان يحصل على ثلثى الغلة اذا ما دفع الى الحكومة الضرائب وكان فى امكان الفلاح

أيضا ان يحتفظ بالثلثين اذا ما قدم للحكومة الضرائب من جانبه على أساس أن يدفع الثلث الاخر للمالك فى شكل ايجار . وفى بعض الاحيان عندما يكون انتـــــاج الارض شحيحا بحيث يبذل الفلاح طاقة انتاجية كبـرى وجهدا عمليا شديدا كان المالك يحصل على ربع الغلة ، فى هذه الحالة بالذات كان الفلاح حرا نسبيا . ومن هنا

نشأ وصف الفلاح بـ « الشريك » ان هذا الشكل العام من أشكال الاقطاعية كان ينطبق أيضا بشكل محدود على اراضى العائلة المالكة ، وعلى الاوقاف حيث يكون نصيب الفلاح من الانتاج متعلقا بالظروف السائدة فى كل منطقة على حدة ..

والى هذا الشكل من أشـــكال الاقطاع يمكن ان نرد أيضا ما يسمى بـ « علاقة الضمان » فبمقتضى هــذا الشكل الاقطاعى كان المالك يعطى الفلاحين أرضـــــا للاستثمار بالايجار على أساس مقدار معين من الغلة محدد سابقا ولوقت معين أما سنة او سنتين او اكثر ومن هنا كان الفلاح يوصف ب « متقبل » . والارض التى تبقى

فى حوزة المالك والتى لا تشكل الا جزءا من أملاكه كانت تفلح بواسطة « شقاه » أى عمال ، حين البذار ووقت الحصاد ، وكان اجر « الشاقى » يتراوح بين ربع ريال وثلاثة من ثمانية من الريال مع وجبة واحدة فى اليوم . وكانت « الصوافى » التابعة للعـــــائلة المالكة والاوقاف التابعة للحكومة تزرع من قبل أجراء زراعيين غالبا

ان كل هذه الاشكال تظهر جليا استغلال الفلاحين من قبل الاقطاعيين وأصحاب الاملاك

ومن هذه الاشكال مجتمعة يمكن استنتاج تعريف عام ، الا وهو ان المجتمع اليمنى كان يقوم على أساس علاقات

الانتاج للمجتمع الاقطاعى ، وعلى أساس ملكية الاقطاعيين للارض والزراعة وعلى أساس تبعية المنتجين ذات الاشكال المتنوعة للاقطاعيين

لم تكن طبقة الاقطاعيين كلا وحدا . فقد كانوا يقسمون الى اقطاعيين كبار ومتوسطين وصغار • فهنـــــاك حيث الاراضى الخصبة الواسعة مثل تهامة ولواء أب وتعـــز أمكن نشوء اقطاعيـــات كبـــيرة • وكان هادى هيج يملك أكبر الاقطاعيــــات فى اليمن كلها ولهــــذا كان اكبر اقطاعى فى البلاد . ومن هنا فان الامـــام يحيى

منذ تم انتزاع تهامه من يد الادارسة عام خمسة وعشرين وتسع مائة والف « ١٩٢٥ م » عينه عاملا على منطقته الزهرة ، ومنحه امتيازات اقتصادية وسياســـية فكان الحاكم الحقيقى فى هذه المنطقة . وكان ميناء اللحية تحت تصرفه يستغله فى الاستيراد والتصدير . كذلك كان يوجد فى تهامه وتعز واب اقطاعيون كبار ففى سردود مثـــلا بلغت مساحة الملكية الاقطاعية لفرد واحد ٥٠٠٠ هكتار

كانت العائلة المالكة تعد من فئة الاقطاعيين الكبار ، وكانت اراضيها منتشرة فى لواء تعز واب وتهامه والجوف وفى الشمال والشرق . وتقدر الصوافى والاوقاف بعشرة فى المائة من الاراضى المنزرعة . وتقدر الاراضى التابعـة للاقطاعيين الكبار والمتوسطين فى تهامة بأربعين فى المائة.

ان الاقطاعيين الكبار والمتوسطين والصغار فى تهامه والذين يقدرون بعشرة فى المائة من مجموع السكان يملكون معظم الاراضى المنزرعة فى تهامه . وحوالى خمسين فى المـائة من الاراضى المنزرعة فى لواء اب وتعز والهضبة الوسطى تعد ملكا للاقطاعيين

يمكن تقسيم الفلاحين الى اغنياء ومتوسطين وصـــغار

وفقراء ..ان الملكية المتوسطة والصغيرة الفلاحيــة هى الشكل الغالب فى البلاد . ويبلغ عدد الفلاحين الفقراء حوالى عشرة فى المائة من مجموع الفلاحين ، ان الفلاحين جميعهم كانوا يشكلون السلم الذى يقف عليه الاقطاعيون .. وقد كانوا من ناحية خاضعين لجبروت الاقطاعيين ،

ومن ناحية اخرى كانوا واقعين تحت رحمة الســلطة العليا ، سلطة الاقطاعى الكبير وممثل النظـام الاقطـاعى الا وهو الامام . وتحت هذه الظروف كان الفلاحـــون طبقة مضطهدة مســتغلة ، ومحرومة من الحقـــوق السياسية ..

ومع أن الامام كان حاميا وممثلا للنظام الاقطـــاعى فانه لم يكن يعتمد فى حكمه الا عــلى فئــة معينة من الاقطاعيين الذين كانوا نوابا له على الالوية او عمـــالا على القضوات والذين كانت تتشكل منهم الحكومة والجهـــاز البيروقراطى وقواد الجيش ، وتلك هى الفئة الكهنوتيــة الاقطاعية المشكلة من حفنة من السادة والقضاة الزيديين المتشبعين بنظام الامامة الرجعى ..

بهذه الطريقة عمق الامام يحيى ومن بعده احمــد التفرقة الطائفية والعنصرية فى البلاد

الا أن هذه السياسة الغبية اصبحت أحد اســباب نهاية الحكم الامامى ، اذ ان خصوم الامـــام السياسيين اصبحوا يمتدون على جبهة واسعة عريضة لا تشـــمل طائفة الشوافع والاسماعيليين فقط ، بل وقطـــاعا واسعا من الزيديين والهاشميين . وأكثر من ذلك فان طبقة الاقطاع عدا الفئة العليا منها ـ السابقة الذكر ـ وعدا بعض رؤســاء القبائل المرتبطين بقوة اجنبية وجـــدت نفسها أيضا فى المعارضة بقطع النظر عن انتسابهـــا

الطائفى والعرفى . ولهذا فان هذه الطبقـــة قد آزرت الثورة نسبيا وايدت القضاء على نظام الامامه ورحبت بأقامة النظام الجمهورى مكانها

التركيب الطائفى والفئوى

لفهم المشـــكلة الاجتمــاعية اكــثر فانه من الضرورى التعــرف ليس على التركيب الطبقى فحسب وانما على التركيب الطائفى ، والفئوى . فكمــا أن المجتمع اليمنى ينقسم الى طبقتين رئيسيتين : هما طبقة الاقطاع المستغلة وطبقة الفلاحين المستغلة ، فانه ينقسم أيضــا من ناحية الاعتقـــــاد المذهبى الى ثلاث طوائف ، طائفة الزيديين ، وطائفة الشوافع ، وطائفة الاسماعيليين ، وحسب تقديرات قديمة فان عدد الزيود يبلغ ٥٥ فى المائة من سكان البلاد ، ويبلغ عدد الشوافع حوالى ٤٥ فى المــائة من الســكان ، بينما يقدر عدد الاسماعيليين بحوالى ٥٠٠٠٠ شخص . ويسكن الزيود فى الهضبة الوسطى من اليمن ، ويستقر الشـــوافع في جنوب البـــلاد وغربهـــا فى حين يقطن الاسماعيليون فى منطقة حراز غرب صنعاء . وعلى مدى التاريخ لم يعترف لا الشــوافع ولا الاسماعيليون بالامام كقائد سياسى لهم ، لانه لم يكن زعيمهم الروحى . ولهـذا فان الامام لم يعتمد فى حكمه حتى على الاقطاعيين منهم ، وكان جهاز الدولة يتشكل من الاسر الاقطاعية الزيدية ، واذا جاز التشبيه فان الكنيسة الاقطاعية ممثلة فى رجال الدين الزيديين ذوى الاملاك الاقطاعية كانت هى الحاكمة مع الامام ، بالاضافة الى العائلات الاقطاعية من السادة التى كانت تشكل الاساسى الكنسى الاقطاعى للحكم ، فلم تكن طبقة الاقطاع تمارس الحكم مبــاشرة وانما تمارسه

عنها الفئة الاقطاعية العليا من رجال الدين الزيود سادة وقضاة ، وهى الفئة التى كانت تتمتع بامتيازات دينية وطائفية ، واجتماعية واقتصادية ، وسياسية . ان هذه المكانة المتميزة ، والسـلطة الخاصـة التى كرست فى يد الكنيسـة الاقطاعية الزيدية قد بررها نظـام الامامة الذى يشكل القـاعدة الايديولوجية والسـياسية لملكة الائمة المسقطة

غير أنه بقطع النظر عن العدد المحـدود من العـائلات الاقطاعية ذات النسب الهاشـمى ، فان السـادة كانـوا يتمتعون باحترام خاص بين السكان اليمنيين سواء كانوا زيديين أو شوافع . وقد اكتسبوا هذا الاحترام نظرا لانهم كانوا ايضا معروفين بأنهم حملة التعاليم الدينية ومرجع القبائل والافراد فى حل الخلافات بينهم ولاسيما فى تلك الاوقات التى لم تكن فيها سلطة مركزية تتولى البت فى حل هذه الخلافات والمشاكل . لهذه الاسـباب فأن فئة السادة كانت تحظى بمكانة خاصة فى المجتمع اليمنى . غير ان هذه المكانة مرتبطة بوجود العلاقات الاقطاعيـة المتخلفـة وما ينجم عنهـا من تخلف عام ، وستختفى هذه المكانة الخاصة مع اختفاء هذه العلاقات ، ونشوء علاقات جديدة مكانها بقيم شعبية ديمقراطية

كذلك فان فئة القضاة كانت تحتل المكانة الثـانية بعد فئة السـادة بحكم مشاركتها فى حمل تعاليم الدين ، وحل مشـاكل الجماعات والافراد . وبالتطور الاجتماعى والثقافى تختفى كذلك مكانتهم المتميزة

هناك فئات اجتماعية أخرى داخل المجتمع اليمنى . وتشكل قبائل البدو احدى هذه الفئات ، فهذه القبـائل التى تقطن فى السهل الشرقى من حول مأرب ، وفى شماله

ما تزال تحتفظ من حيث الاساس بالسمات العامةلعادات البدو وطرق حياتهم . غير أن وضعهم يختلف بوضوح عن وضع بدو نجد . فبعد قيام دولة اليمن على انقاض الحكم التركي وبعد اخضاعهم للسلطة فى صنعاء كانوا مضطرين لايقاف غاراتهم وغزواتهم ضد القبائل الاخرى ولأن يكتفوا بالاشتغال بتربية ورعى جمالهم ومواشيهم ، وبزراعة قطع الاراضي الصغيرة التى تجود بها الصحراء بالذرة ، والحبوب الاخرى ، وبالذات فى أوقات الأمطار ، وبنقل الملح من جبل صافر الواقع شرقى مأرب الى انحاء مختلفة من البلاد على ظهور قوافلهم ، وتحويله الى مادة للاتجار يشترون بثمنها وسائل عيش اخرى . وكغيرهم من القبائل كانوا مضطرين بعد قيام دولة الائمة وبعد الحد من نفوذهم القبلى لان يقدموا رهائن للامام كدليل على السمع والطاعة . اكثر من ذلك فقد كانعليهم أيضا أن يدفعوا ضرائب . ولقد كانت قبائل البدو تسكن فى القرى المبنية من الطين أو الحجارة ، وفى بقايا حصون ومدن قديمة مهدمة ، وفى الخيام . وما تزال تحتفظ هذه القبائل بطباع وتقاليد بدوية قوية . فهم ما يزالون يحتقرون الى هذا القدر أو ذاك المزارعين من الفلاحين ، وأهل المدن ، أى ذلك القطاع من السكان الذين أصبحوا مستقرين فى الارض ، ومستقرين فى المدن، ولقد كانوا يتوجهون حسب العرف القبلى القديم أكثر مما يتوجهون حسب التعاليم الزيدية التى أراد الامام تطبيقها عليهم أيضا

من هذا العرض يتضح انه لم يكن هناك فى اليمن رعاة مواشي خلص ، ولا رحالة خلص ، وانه لم تعد هناكغارات نهب أو اغتصاب وهى التى تشكل بالنسبة للبدو المصدر

الرئيسى للكسب والارتزاق ، ولم يعد الناس يسكنون كلهم فى خيام • ولا يعود هذا التطور فى طريقه حياة القبائل البدوية الى قيام الدولة اليمنية الحديثة فحسب وانما الى واقع أنه هنا فى السهل الشرقى من اليمن وفى شماله قامت حضارة يمنية قديمة احتفظت بآثارها وبقاياها على مدى التاريخ . أن الاستنتاج الذى يخرج به المرء من استعراض أوضاع قبائل البدو هو انه لايوجد الا القليل منهم ممن يعتبرون بدوا ورحالة بكامل السمات، أما الغالبية فهم شبه بدو ، شبه مستقرين ، شبه رحالة، وهم يحتفظون فى نفس الوقت بتقاليد وطباع بدوية قوية

ويمكن اعتبار ذوى الحرف اليدوية وذوى المهن الاخرى فئتين اجتماعيتين أخريين ، فهنا تسود ظروف مهنية خاصة ، وعلاقات اجتماعية مقفلة • وقد كانت الحرف اليدوية والمهن الاخرى وراثية ، وفنها ينتقل من الاب الى ابنه ، فكل الذين يمارسون مهنة واحدة يشكلون جماعة تشبه فى أوضاعها المقفلة ، أوضاع الطوائف الاجتماعية التى عرفت فى القرون الوسطى الى حد انه لا يسمح بالتزاوج بين أبناء أصحاب المهن المختلفة ، فمثلا لا يستطيع جزار أن يتزوج ابنة خياط . غير أن جميع أصحاب الحرف اليدوية أو المهن الاخرى ما يزالون محتقرين من وجهة نظر البدو ، والفلاحين ، وسكان المدن من الموظفين . وتتشكل فئة الحرفيين من صاغة الفضة والنحاس والسلاح «الجنابى مثلا » ومن النجارين، والنساجين ، وتشمل فئة المهن الاخرى الجزارين ، والدباغين ، والحلاقين والحجامين وغيرهم . وقد كانت هذه الفئة ادنى مرتبة من مرتبة فئة أصحاب الحرف اليدوية والسؤال هو لماذا وكيف نشأ مثل هذا الترتيب •

ولماذا كانت كلتا الفئتين فى موضع محتقر بالنسبة للسكان اليمنيين عامة وما هو المقياس الاجتماعى لذلك ؟

وقد اثارت هذه الظاهرة اهتمام مؤلف ايطـالى ، وفى تفسيرها كتب : « لا توجد هناك قوانين لتنظيم العلاقات الفردية بين الافراد ضمن جماعة طائفة واحـــدة ، كمـا لا توجد مثل هذه القوانين لتنظيم علاقات كل طائفة مع الاخرى ، كلها عائدة الى تقاليد قديمة ، أو انها تعود على أحسن قول الى ضمير كل فرد ، والى أنها اقتناع مقدس بلغ مرحلة النضج نتيجة عادات متأصلة وعميقة فى البشر . ووضعية الامور هذه قديمة ، أقدم أيضا من الاسلام فى بلاد العرب ، ويبدو كذلك أن المرء يستطيع أن يعيد أصلها الى المرحلة السبأية ، وذلك يعنى أن هذا هو الشـــكل الاقدم للنظام الفئوى القائم الذى استطاع أن يبقى خلال مئات السنين . » غير أن هذا التعليل ذاتى لم يســـتطع أن يكتشف الاساس الموضوعى والحقيقى لهذه الظاهرة . وفى الكتابات العربية يقرأ المرء كثيرا بأن : «العرب يحتقرون كل من يشتغل بالصناعة « الحرف اليدويه » .. ولهذا تعير العرب الحكاك أو الصائغ . ولكن العـــرب « تعظم صاحب التجارة والغـزو ، والابالة أى رعاية الابل . » غير ان السؤال يبقى مع ذلك دون جواب ، اذ ما السبب فى احتقار الحرفيين ، واحترام التجـــار ورعاة الابل ؟ وتكتسب المسألة أهمية أكبر عندما يضع المرء نصب عينيه واقـع أن الحرفيين يمثـلون قوة انتـاجية كبرى بحيث لا يوجد أى تعادل بينهم وبين التجار ورعاة الابل

ويبدو لى أن الاحتقار ينجم ضد الحرفيين لانهم يمثلون لحظة جديدة فى علاقات الانتـاج وبداية لنشـــوء نظـام اجتماعى جديد ـ نتيجة للانقسام الثانى للعمل الاجتماعى

ـ (مزارعين ـ حرفيين) . وذلك ينطبق على الفلاحين الذين كانوا يحتقرون من قبل البدو نظرا لانه تسود هنا العلاقة (رعاة ابل ـ مزارعين) نتيجة للانقسام الاول للعمل الاجتماعى . وكما ان المزارع بالنسبة للبدوى الذى يعيش طراز حياة مختلف يعتبر غريبا ولهذا محتقرا أصبح الحرفى الان غريبا ومحتقرا كذلك من قبل الفلاحين وغيرهم من السكان الذين يعيشون تحت شروط انتاج أخرى ، والتصورات التى تكون لدى هذه الجماعات الثلاث (رعاة الابل ، المزارعين ، الحرفيين) عن نفسها وعن بعضها البعض تعكس فى الواقع أسلوب الانتاج الخاص بكل منها . ويحتقر أسلوب الانتاج الخاص بهذه الجماعة أو تلك من قبل أى من هذه الجماعات لسبب واحد فقط وهو أنها لم تألفه بقطع النظر عما اذا كان أكثر انتاجية أم لا . وفى ظل أسلوب الانتاج ذى العلاقات الانتاجية الاقطاعية أصبح العمل الحرفى يشكل عنصرا محركيا فى الانتاج وبدأ يدخل فى تناقض مع علاقات الانتاج القديمة غير المتحركة . ذلك يجب أن يكون هو السبب فى أن الحرفيين كانوا يحتقرون من قبل المزارعين وغيرهم من السكان ولو لم يكن هؤلاء على وعى بدوافع هذا الاحتقار .

وكان الحرفيون يحترمون أكثر من أصحاب المهن الاخرى كالجزارين والحجامين والدباغين والحلاقين نظرا لانهم كانوا يقدمون عملا مبدعا ، وانجازا يخدم المجتمع كثيرا ويعطيه قوة انتاج جديدة ، ويطلقه فى طريق التطور الاقتصادى والاجتماعى .

ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للجزارين والحجامين والحلاقين الذين لم يكونوا يشبعون غير الحاجات الذاتية

للاشخاص ، والتقدير المتفاوت ازاء كل جماعة مهنية لم يكن ينبع من وعى الافراد بقدر ما كان ينبع من الضرورة الاجتماعية

وفى اليمن توجد أيضا فئة محتقرة جدا من قبـــل السكان ، وهى فئة الاخدام . وليس هناك رأى موحـــد حول أصلهم ، فهناك مؤلفون يمثلون الرأى القائل بأنهـــم خليط من عنصر حبشى فارسى تضاعف عدد أفراده عـــن طريق النيجر والعبيد القادمين من افريقيا ، أو أنهم خليط من الاحباش والعرب . وقبل البحث عن أصل الاخـــدام ينبغى تصوير وضعهم الاقتصادى والاجتماعى حتى يمكن استخلاص النتائج منه . فالاخدام الذين يتميزون عـــن العرب اليمنيين بلونهم الاسود لا يسمح لهم لا بامتـــلاك الارض ولا بالعمل على أرض الملاك الزراعيين كعمـــال اجراء . ونادرا ما يجوز لهم تعاطى تجارة محلية بدائية ، وأن يكونوا حلاقين ، أو جزارين او طباخى لحوم او قهوة فى الاسواق الاسبوعية المحلية . وهم يعملون احيـــانا كحجامين ، وختانين ، وغالبا مايخدمون كحمالين أو عمال موانىء او يمارسون خدمة ممتهنة

ولانه لم يكن هنـــاك مصـــدر ثابت للعيش فقـــد كان الاخدام يتنقلون من مكان الى آخر سعيا وراء الرزق ، وكانوا مضطرين لتوفيره للالتجاء الى السرقة ، اذ لم يكن الاجر الذى يتقاضونه مقابل القيام بخدمات بدائية كافيا للحفاظ على حياتهم الخاصة ، ومن هنا كان وضـــعهم شديد الصعوبة . فقط فى مناسبات كالاعياد كان يجوز لهم اللعب على دفوفهم لاطراب العرب وهم يرقصون . ولم يسمح للاخدام بالسكنى فى مدن وقرى العرب ، وانما كانوا يقيمون فى أحياء خاصة معزولة

لم يكن الاخدام عبيدا ، وانما هم أناس أحرار ، غير ان العبيد كانوا يعاملون من قبل العرب اليمنيين معاملة أرق من معاملة الاخدام ، ويقدرون أكثر منهم ..

والآن كيف يمكن تعليل هذا الواقع ؟ ليس بسبب لونهم الاسود كان الاخدام موضع احتقار عميق من العرب ذلك لان العبيد كان لهم نفس اللون ، وفي بعض الاحوال كان لونهم أشد سوادا من لون الاخدام ، ومع ذلك كانت لهم منزلة أعلا فى المجتمع اليمنى عن منزلة الاخدام على الرغم من أن هؤلاء كانوا أحرارا . فلماذا يعيش الاخدام فى اليمن عيشة « المنبوذين » ؟ يبدو لى ان السبب في ذلك لا يعود الى الاخدام الحاليين ، وانما الى اجدادهم القدامى من الاحباش الذين احتلوا اليمن قبل الاسلام وساهموا بقدر كبير فى طمس الحضارة اليمنية القديمة ، والذين اساءوا معاملة اليمنيين ايضا . من ذلك تتضح ايضا الكراهية الشديدة التى تملكت اليمنيين عندما أتيح لهم بمساعدة الفرس التطويح بهم من اليمن عام ٥٧٥ م . لم يفتك اليمنيون بالاحباش فقط ، وانما عاملوا الذين بقوا فى اليمن انتقاما منهم باحتقار ، وجعلهم سيف بن ذى يزد « فى قلة وذلة واتخذهم خولا » ، وقد استمرت كراهية اليمنيين واشتدت أكثر عندما حاول الاحباش الذين بقوا فى اليمن وأطلق عليهم اسم « النجاحيين » - لاستيلاء على السلطة فى اليمن بين عام ١٠٢١ - ١٠٦٠ وبين عام ١٠٨٠ - ١١٣٧ ، ولهذا الغرض استقدموا نجدات من أثيوبيا ..

فالاحباش الذين لم يظهروا الا كمحتلين وغزاة لم يكسبوا الا حقد وكراهية اليمنيين وعلى الرغم من أنهم بقوا فى اليمن مئات السنين وكان منهم النبلاء فى بعض

الفترات فان اليمنيين لم يكونوا ينظرون اليهم الا كعناصر غريبة ، ولم يستطيعوا أن يضربوا بجـــذورهم فى باطن الارض اليمنية

ان الحالة الرديئة التى يعيشها الاخدام اليوم والذين هم ليسوا الا من سلالة الاحباش الذين بقوا فى اليمـن يمكن اعادتها الى هذا الواقع التاريخى . غير أنـــــه لا الاخدام ولا اليمنيون يعون اليوم السبب الحقيقى فى أن الاخدام يحيون حياة تعسة فى اليمن ، وفى أنهم موضع احتقار العرب اليمنيين . لقد انتقلت روح الـــكراهية والاحتقار للاخدام من جيل يمنى الى آخر . وظلت عادة عميقة ومتأصلة فى نفوس السكان اليمنيين . وذلـــك هو السبب العميق فى أن الاخدام يعيشـــون اليوم على هامش النظام الاجتماعى والحياة فى اليمن

ان هذا الوضع المحزن لا يمكن ان يتغير الا بالتدريج، وبالذات عندما يبدأ تصنيع البلاد ، والا عندما يســاهم الاخدام الذين يشكلون فى الواقع قاعدة تحتية للطبقـة العاملة كاحدى قوى الانتاج فى الانتـاج الصناعى وفى تطوير اليمن .. مشاركة بعضهم اليوم فى أعمـــال الموانىء ببشر بامكانية تغيير وضعهم الاقتصـــــــادى والاجتماعى ، وبالتالى يحتم تغيير نظرة الناس الاخلاقيـة اليهم ، وبرفعهم الى مستوى أن يكونوا احدى القـــوى الاجتماعية المساهمة فى بناء مجتمع يمنى جديد يتمتـع جميع ابنائه بالحقوق المدنية والوطنية الديمقراطية ..

وكان اقتناء العبيد فى مملكة اليمن المسقطة مباحا ، ذلك لان الامام يحيى لم يوقع الاتفاقيات الدولية المعقودة عام ١٩٢١ وعام ١٩٣٣ حول منع الاتجار بالبشر. والعبيد الذين كان يؤتى بهم الى اليمن للبيع كانوا ينحــدرون

بالدرجة الاولى من وسط أفريقيا ، وكانوا يهـــربون فى جماعات عبر البحر الاحمر الى اليمن والى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية . غير أنه لم تكن فى اليمن سوق عامة للنخاسة . وكان بيع وشراء العبيد يتم بهدوء فى أوساط الاقطاعيين والمشايخ ، وبصورة خاصة مشايخ تهامة . وكان الامام شخصيا يقتنى مجموعة من العبيد . غير أن ملكية العبيد لا تعنى انه كان هناك نظام استعبادى فى اليمن . فالعبودية كمرحلة تطور اجتماعية كانت موجودة فى اليمن قبل الاسلام ، وان اتخذت سمات خاصة هنا. وعدا العبيد الذين كان يملكهم الشيخ الاكبر هادى هيج فان العبيد الذين كانوا موجودين فى مملكة الائمة المسقطة لم يكونوا يشكلون قاعدة للانتاج المادى . فقد كانوا مساعدين وحاشية لسادتهم أكثر منهم مادة اقتصادية للاستغلال ، وكانوا يصحبون سادتهم المشايخ والامراء لاظهار الابهة كما كانوا مسئولين عن حماية سادتهم من التعرض لأى خطر . والعبيد الذين كانوا يحظون بمكانة خاصة لدى سادتهم كانوا مخلصين لمالكيهم بالطبع . « فالامير عنبر » وهو أحد عبيد الامام يحيى كثيرا ماجنب سيده وعائلته الكثير من الاخطار . ان هذا النوع من العبودية البيتية التى تسود فيها علاقة الارتباط بالسيد والتى تختلف عن العبودية الاجتماعية التى تتميز بوجود علاقة من العداء والصراع الطبقى بين السادة والعبيد قد شلت روح التطلع الى الحرية لدى العبيد فى اليمن ، وافقدتهم الاحساس باضطهاد سادتهم لهم ، وفصلتهم عن حلفائهم الطبيعيين ، وبالاخص الفلاحين المرتبطين والمستغلين من قبل المشايخ الاقطاعيين . على أنه بعد قيام الثورة اليمنية ألغيت تجارة الرق نهائيا فى اليمن ومحيت وصمة

من وصمات العهد البائد الذى كان يبيح الاتجار بالناس
على أن الفئة التى كانت محتقرة بعمق وبالاجماع من قبل كل السكان هى فئة اليهود اليمنيين . اذ لم يسمح لهم بالسكنى الا فى احياء معزولة خاصة ، ولم يسمح لبيوتهم ان ترتفع أكثر من طابقين ، كما لم يجز لهم امتلاك الاراضى وفى الحالات النادرة التى كانوا يمتلكون فيها كانت أراضيهم تزرع من قبل العرب اليمنيين وكان يحرم عليهم ركوب الخيول ، ولا يحق لهم غير استخدام الحمير ، كما لا يحق لهم حمل السلاح .. وكان عليهم ، تمييزا لانفسهم انزال السوالف من حول اصداغهم ، وكان من الواجب عليهم دفع الجزية مقابل حمايتهم كذميين ، ولم يكن احتقار اليهود وكراهيتهم تعود فقط الى اعتناقهم دينا آخر غير الدين الاسلامى وانما أيضا لان اليهود كانوا يحتكرون مع الامام تجارة البلاد . كل تجارة البلاد تقريبا كانت فى أيديهم من بيع الملابس القديمة الى استيراد الملابس اليابانية الجاهزة من عدن بحيث انه كان يوجد فى صنعاء مليونيرات من التجار اليهود . وقد كان نظام الضرائب ملائما بالنسبة لهم فبينما كان يتحتم على التاجر اليمنى أن يدفع ضرائب تناسب دخله فان ماكان يدفعه أغنى تاجر يهودى يقارب ماكان يدفعه أفقر يمنى . ولم تكن فى أيدى اليهود التجارة فحسب ، وانما معظم الاعمال الحرفية ، فكل صاغة السلاح ، والنحاس والفضة ، والذهب ، وكل محترفى التجارة ، والنسيج ، وصانعى الاحزمة ، والشالات ، والجلود ، والجزم ، وكذلك اسطوات البناء ، كانوا كلهم تقريبا من اليهود ..

وبعد اخراج اليهود من اليمن على اثر نكبة فلسطين

أصبحت تجارة اليمن حكرا على العائلة المالكة ووكيلها المليونير على محمد الجبلى ، مما عاق نشوء برجوازية تجارية متطورة فى البلاد

وعدا التجار اليمنيين الكبار الذين استقروا فى عدن وتطورت تجارتهم هناك فان التجار المحليين داخل البلاد لم يستطيعوا أن يكونوا رؤوس اموال ترفعهم من منزلة التجار الصغار

من هنا فان البرجوازية التجارية الصغيرة ولا سيما العناصر الواعية منها لمصلحتها والطموحه سياسيا ، والساعية الى كسر احتكار الامام للتجارة ، والى تطوير رأسمالها فى حرية ودون خوف ، قد لعبت دورا مرموقا فى التحضير للثورة ، وفى ادخال السلاح وجمع المال لتفجيرها ، وكانت العنصر المساعد للضباط من اجل اشعالها ، ومن هنا يصبح طابع الثورة الاجتماعى مفهوما والاساس الطبقى لقيامها متوافرا ولو فى شكل أولى

أن تغيير التركيب الطائفى ـ والفئوى ، والقضاء على روح الاستعلاء الطائفى والعنصرى والفئوى، وخلق روح وطنية ديمقراطية ، وايجاد امكانيات حقيقية لانطلاق قوى انتاجية جديدة وعلاقات انتاج متفتحة ، وتفتح آفاق رحبة للنمو والتطور الزراعى ، والتجارى والصناعى ، ونشوء مفاهيم وقيم اخلاقية متطورة ، كل ذلك متوقف على القضاء على التركيب الطبقى الحالى .. على تغيير التركيب الاقتصادى والاجتماعى الراهن .. متوقف على تغيير علاقات الانتاج الاقطاعية وعلى القضاء على الملكية الاقطاعية .. على المجتمع الاقطاعى بكل ملامحه القبلية والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية ..

الثورة والثورة المضادة

في الـ ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢ م اندلعت الثورة اليمنية التى انتظرها الشعب طويلا وكافح من أجلها ثلاثين عاما ، وسقط جدار العزلة الرهيب الى الأبد ، وخرجت اليمن من عالم النسيان الى عالم الوجود ان الانفجار الثورى الذى حدث يوم ٢٦ من سبتمبر قد قفز باليمن الى مركز الاحداث العالمية

ان الثورة اليمنية تشكل فصلا حاسما فى تاريخ الكفاح البطولى للشعب اليمنى ولا يمكن . مقارنتها بالانتفاضات التى لا تحصى والتلقائية التى حدثت فى الماضى ضد الطغيان الداخلى والخارجى .. انها قفزة تاريخية كاملة وتحول سياسى نوعى وجذرى فى تاريخ اليمن كله

ولهذا فقد هبت فى وجه الثورة اليمنية ثورة مضادة، وتحولت اليمن الى مسرح حرب اهلية طاحنة ضروس بين القديم والجديد ، بين قوى التقدم وقوى التأخر بين انصار الجمهورية والثورية وانصار الامامة والرجعية ، بين قوى وعت حركة التاريخ والتطور وقوى ما تزال غارقة فى ظلام الجهل والبداوة ، بين قوى تطاب المستقبل وقوى تتمسك بالماضى . لقد آزرت الثورة الاغلبية الساحقة من الشعب اليمنى ولم تقف ضدها سوى القوى المرتزقة التى تدافع عن الامامة ليس لتعلقها بها بقدر ما دافعت عنها لحصولها منها على المكسب الرخيص والغنيمة . لقد اوحى الامام المخلوع الى بعض القبائل بأنه فى امكانها أن تشن الغارات على المدن وتستبيحها كما كان يفعل أبوه من قبل ، وأكثر من ذلك

فانه وضع فى ايديها السلاح وملأ جيوبها بالذهب والفضة التى زودته بها قوى اجنبية ، واندفعت هذه القــوى المرتزقة تحارب الثورة فى عمى وجهل

من الثورة المضادة الى الحرب الاستعمارية

لو كان الصراع الذى دار فى اليمن قد اقتصر عــلى الموالين للجمهورية والموالين للأمامة لهان الامر ولكان فى الامكان ان تمتص قوى الثورة المضادة فى أمد من الزمن غير طــويل ، غير أن الحـــرب الاهليـــه فى اليمن طال أمـــدها نتيجة للمـــدد والتحريض الخـــارجى الذى قدمته وقامت به الرجعية العربية المـــدعمة من الاستعمار • وعندما تدخلت القوى الاستعمارية علنا وعلى رأسها الاستعمار البريطانى والامريكى جنبا الى جنب مع الرجعية العربية بالسلاح والمال ، والخبراء العسكريين والمرتزقة الاجانب الذين كانوا يحاربون فى الفـــرقة الأجنبية فى الجزائر تطورت هـــذه الحرب الى حـــرب استعمارية ضد اليمن وضد الثورة اليمنية حيث اجتمع عليها خصوم اقوياء تمتد جبهتهم من اقصى شمال الجزيرة الى اقصى جنوبها ، وضرب حزام نارى على اليمن وبدأت عمليات الغزو المسلحة وتدفقت أســـلحة حلف الاطلسى وجنوب شرقى آسيا والحلف المركزى وحتى أســـلحة الصهيونية ، ووزعت على المتمردين ، وملئت جيـــوبهم بالاموال وفتحت الجبهات على الجمهورية اليمنية الفتيـة من صعدة وحرض فى الشمال ومن الجوف ومأرب وحريب بيحان من الشرق ونظمت حركات التمرد على طول الهضبة الوسطى • وهكذا تجـــلى أن الاســـتعمار يريد اغراق الجمهورية اليمنية والثورة فى طوفان من الدم

دور الجمهورية العربية المتحدة

كل ثورة من الثورات الوطنية واجهت تدخل المستعمرين ومؤامراتهم بهذا الشكل أو ذاك وكل ثورة من هذه الثورات تلقت المساعدة الخارجية النزيهة لمواجهة الدول الاستعمارية والرجعية . حدث ذلك بالنسبة للثورة المصرية والثورة العراقية وغيرهما من الثورات الوطنية . ولكن لم يواجه بلد من البلدان العربية التى قامت بالثورة مثل ذلك التدخل الاستعمارى السافر الذى تعرضت له الثورة اليمنية منذ أيامها الاولى . وتحت تلك الظروف الحربية البالغة الصعوبة التى واجهتها الجمهورية العربية اليمنية ما كان لها أن تواجه حربا شاملة متعددة الجبهات بقواها وحدها وهى ما تزال وليدة وكان لا بد من سند عربى للثورة يقابل السندالاستعمارى والرجعى الخارجى لانصار الثورة المضادة ، كان لا بد أن تتضافر قوى التحرر العربية للانتصار للثورة اليمنية ولالحاق الهزيمة بقوى الرجعية والاستعمار . ولقد لبت الجمهورية العربية المتحدة الشقيقة ولبى رئيسها الشهم المقدام نداء الثوارفى اليمن ،وأرسلت فى البدء قوات رمزية وعندما اتسع نطاق الحرب قذف الى جبال اليمن ووديانها بحوالى سبعين ألفا من الرجال الاشداء حيث دارت المعارك الطاحنة التى استمرت خلال الاعوام الثلاثة الماضية . وها هى الحرب تنتهى بانتصار قوى الثورة العرابية ، وبهزيمة

الاستعمار والرجعية ، ان الدور الذى لعبته الجمهورية العربية المتحدة في حرب اليمن لا يشكل فقط صدا لعدوان خارجى على أرض بلد شقيق ، وتمكينا له من ممارسة حقه في التحرر ، وانما هو أكثر من ذلك أول صدام فعلى وفي أعنف وأروع صورة بين قوى الثورة العربية من جهة وبين قوى الاستعمار العالمى الذى يصر على تعطيل حركة الثورةوالقومية العربية من جهة اخرى ..ولقد أثبتت الجمهورية العربية المتحدة باشتراكها المباشروالفعال فى معركة اليمن أنها قاعدة الثورة العربية التى تستند اليها كل ثورة عربية تحررية بثقة واطمئنان وأنها طليعة الثورة العربية التى تهب لنجدة ودعم كل حركة ثورية عربية بكل قوتها . ان الدور التاريخى الذى نهضت به الجمهورية العربية المتحدة فى مؤازرتها للثورة اليمنية لا تقتصر آثاره على دعم ثورة اليمن وانما هو يمتد ليشمل حركة التحرير الوطنى فى جنوب اليمن المحتل ، وتتضح أبعاده الواسعة أكثر فى زعزعته لانظمة الحكم الرجعية والاستعمارية فى جزيرة الاحتكارات والبترول وفى احداثه يقظة وطنية عامة على نطاق الجزيرة كلها

الثورة اليمنية والموقف الدولى

وكما وقف الى جانب الرجعية اليمنية كل قوىالرجعية والاستعمار فى العالم فقد وقف الى جانب الثورة اليمنية كل قوى التحرر والتقدم فيه ، وهكذا انشطر العالم ازاء الثورة اليمنية الى قسمين : الشرق مع الثورة اليمنية والغرب ضدها ، حركة التحرر الوطنى فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية مع الثورة ، والرجعية العالمية ضدها ، الدول المتحررة مع الجمهورية ، والدول الخاضعة للنفوذ الاستعمارى أو المرتبطة بالاحلاف العسكرية العدوانية

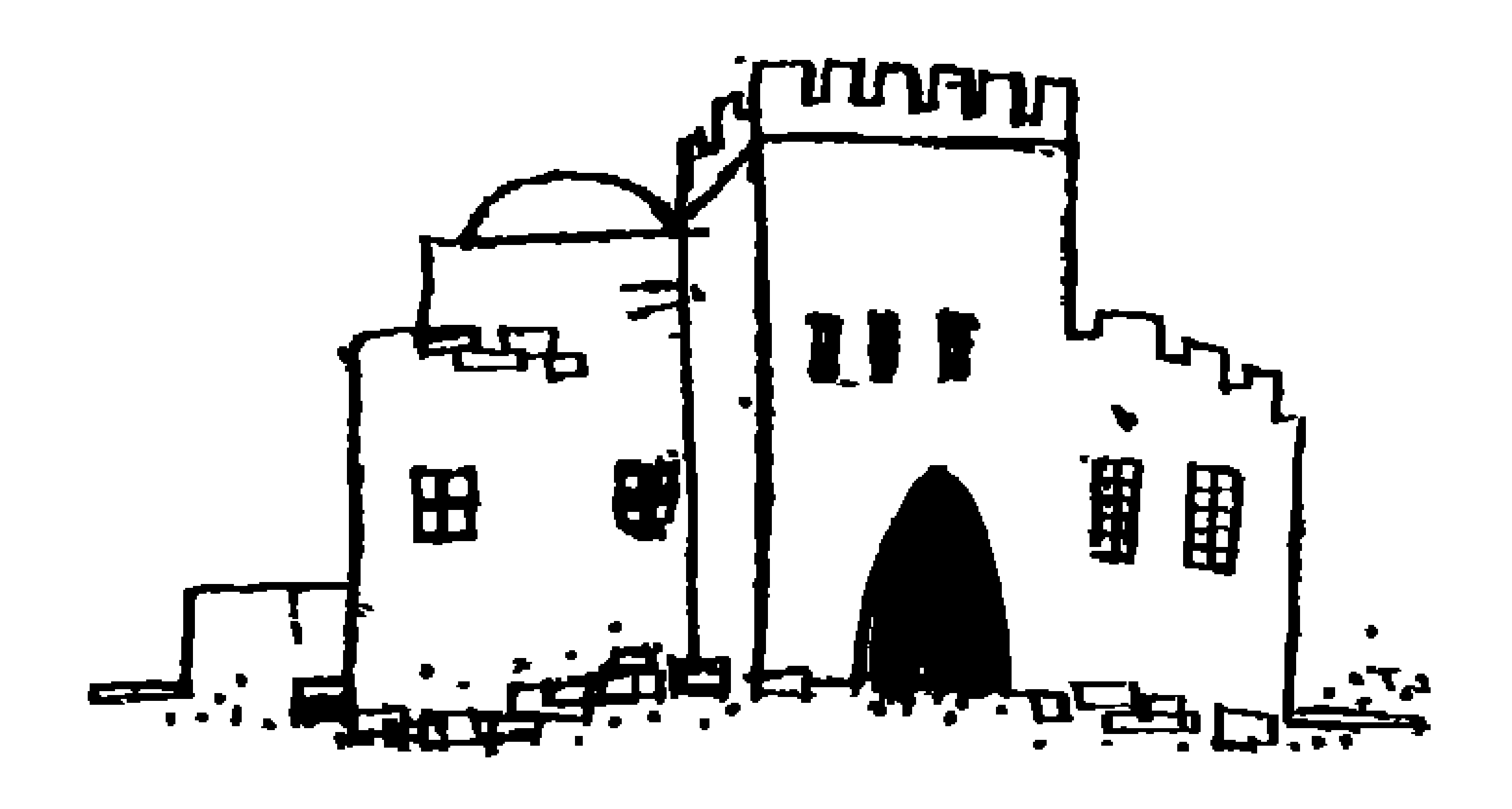
ضدها ، وكما قدم الاستعمار والرجعية العالمية السلاح والمؤازرة للثورة المضادة ، فقد قدمت الدول الصديقة والمتحررة السلاح والمؤازرة للثورة • وهكذا فان الصدام المسلح الذى دار على أرض اليمن وتخومه كان صداما ذا دلالة عالمية ، صداما بين قوى التحرر والتقدم وبين قوى الرجعية والتأخر • ان هذا الواقع السياسى قد أكسب الثورة اليمنية وزنا دوليا

الدلالة التاريخية والتقدمية للثورة

ان الدلالة التاريخية التقدمية للثورة اليمنية لا تتمثل فى اسقاط نظام ملكى واقامة نظام جمهورى فحسب ، ولكن أيضا فى الغاء نظام الامامة الطائفى المتعصب ، والاوتقراطى الفردى ، والاسرى الارستقراطى • لقد كان نظام الامامة فى اليمن نشازا بين أنظمة الحكم الاسلامية لتفرده بهذه الصفات البشعة • لقد تساقطت كل الممالك اليمنية التى قامت على أساس مذهبى مثل ممالك الشوافع، والقرامطة والفاطميين والخوارج ، والاسماعيليين ، الا مملكة الائمة فانها ظلت تحتفظ بنشاطها وعنفوانها حتى القرن العشرين • من هنا ندرك أن اسقاط نظام الامامة العتيق يعد عملا تاريخيا عظيما ، وقفزة تقدمية كبرى ، لقد سقط بقيام الثورة اليمنية الحكم المطلق والتمييز الاسرى ، والتحكم الطائفى ، واجتز رأس الاقطاع ،وباندلاع الثورة اليمنية انهار سور العزلة العتيد الذى حال بين اليمن وبين التأثر والتفاعل مع أحداث وتيارات العالم العربى الوطنية العاصفة ، كما وضعت الثورة اليمنية نهاية للجمود السياسى ، والحكم المحافظ والاستبداد الاقطاعى ••

على أن الدلالة التاريخية التقدمية للثورة اليمنية لا

تقف عند هذا الحد ، انها ما تزال ابعد من ذلك مدى ..
ان الثورة اليمنية تشكل ساعة ميلاد تاريخية جـــديدة لليمن ، ولمجد وحضارة اليمن . فمنذ الاحتلال الحبشى لليمن فى القرن السادس الميلادى الذى ساهم فى وضع نهاية تامة للحضارة اليمنية دخلت مرحلة جـــديدة فى تاريخ اليمن هى مرحلة ركود التطور ، ان كل انظمة الحكم التى اختلفت على اليمن منذ هذا الحين حتى النصف الثانى من القرن العشرين كانت اما أنظمة حكم اقطاعية طائفيه محلية ، او انظمة حكم اقطاعية اجنبية ، وكلها لم تساهم فى دفع اليمن خطوة واحدة الى الامام . ان الذى حدث هــو العكس ، فالحروب الاهلية ذات الصبغة المـــذهبية التى اشتعلت بين الطوائف والتى كان يقودها الامراء الاقطاعيون من اجل التفرد بحكم اليمن ، او الحروب التى اندلعت بين اليمنيين من جهة وبين الغزاة الاجانب من جهة اخرى ، ان كل ذلك قد ساعد على ازدياد التدهور الاقتصادى واستمرار ركود التطور مرحلة اطول . لهذا يمكننا القول انه باندلاع الثورة اليمنية اقفلت مرحلة الركود هذه الى الابد وفتحت مرحلة جديدة ، مرحلة انعطاف تاريخى تقدمى ، مرحلـــة تحول ثورى وطنى ، مرحلة انطلاق القوى المنتجة ومرحلة الازدهار الاقتصادى



الدلالة الوطنية للثورة

ان لانتصار الثورة اليمنية أهمية خاصة بالنسبة لجنوب اليمن المحتل ، فرغم انها قامت من حيث الاساس ضد حكم الامامة المطلق فى الشمال ، الا أن دلالتها الوطنية تتسع على نطاق اليمن كله . ولهذا فانه ليس من الصدفة ان جماهير شعبنا فى اليمن المحتل استقبلتها بحماس منقطع النظير ، وتدافعت منها آلاف المتطوعين لنصرتها وارساء دعائمها ..

وكما فتحت الثورة طريق التطور التاريخى الواسع لليمن ، فانها فتحت طريق الوحدة الوطنية وحدة الارض اليمنية .. وكما سبق فان المحاولات التى قام بها الحكم الامامى الاقطاعى فى اليمن من اجل توحيد البلاد قد باءت بالفشل الذريع . ان من اسباب ذلك واقع ان حركة التوحيد هذه كان يقودها امام متعصب مكروه لدى سكان الجنوب اليمنى ، ولدى سكان عسير ونجران . ولهذا فانهم لم يتجاوبوا معه قط بل قاوموا حركته ، وبسقوط حكم الامامة المتعصب واعلان الجمهورية اليمنية انفتح الطريق رحبا امام الوحدة اليمنية وتوافرت الشروط التاريخية اللازمة لخوض معركة تحرير وطنية ضد الاستعمار

البريطاني ، ومن اجل توحيد الارض اليمنية واقامة دولة يمنية وطنية موحدة مستقلة . ان قيام الثورة في الشمال قد أعطى الحركة الوطنية في جنوب اليمن دفعة قوية الى الامام ، وانتقل بها الى مستوى ثوري اعلى · وليس ما هو اقوى دلالة على ذلك من قيام المظاهرات العمالية على نحو لم تعرفه المنطقة من قبل ضد الاستعمار البريطاني في عدن ، ومن نشوب انتفاضة الحواشب وردفان ، والضالع ودثينة واحدة بعد الاخرى منذ ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، وانتشـــار الكفاح المسلح في جميع انحاء الجنوب ، وفي عدن نفسها قاعدة الاستعمار · وهل هناك ما هو ابلغ دلالة على النهوض الثوري لحركة التحرر الوطني في جنوب اليمن نتيجـــة لانفجار الثورة اليمنية من واقع ان لجنة تصفية الاستعمار التابعة للامم المتحدة قد ارسلت لجنة خاصـــة لتقصى الحقائق غير مرة ومن واقع ان الامم المتحدة قد اتخـــذت قرارات بناء على تقرير اللجنه تطالب فيها بريطانيا بسحب قاعدتها العسكرية من عدن وبمنح جنوب اليمن حـــريته واستقلاله، والسماح باجراء انتخابات عامة تحت اشراف الامم المتحدة لهذا الغرض ، ومن اضطرار بريطانيا الى اعلان أنها ستنسحب من عدن خلال عام ١٩٦٨ ·

منذ اندلاع الثورة اليمنية، وكنتيجة مباشرة لها ، اخذ مركز الثقل لحركة التحرر الوطنية العربية ينتقل الى هذا الركن الجنوبي من بلاد العرب ، الى جنـــوب اليمن حيث فتحت جبهة مفاجئة على الاستعمار والرجعية تمتد على نطاق اليمن كله وحيث اجتذبت المعركة كل قوى التحرر العربية ، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة ، وحيث انتقل الاستعمار البريطاني من مركز الهجوم على الثورة اليمنيـــة الى مركز الدفاع عن وجوده ، وحيث أخذت الامواج الثورية لحركة

التحرر الوطنية العربية تحاصر قاعدة الاستعمار البريطانى فى عدن التى اعدها لتكون ثالث قاعدة له فى العالم يهدد منها الجمهورية اليمنية ويحمى منها مصالحه البترولية فى جنوب الجزيرة وعلى الخليج العربى ويوجهها لتكون رأس رمح مشروع ضد شرق افريقيا ، ولتكون حلقة رئيسية فى سلسلة القواعد العسكرية العدوانية فى العالم ،واحدى مراكز التوتر الدولى وبؤرة لتهديد السلم العالمى

لقد وجهت الثورة اليمنية نيرانها على برج الاستعمار فى عدن ، ولسوف تشهد السنين القادمة معركة العرب الحاسمة والفاصلة مع الاستعمار البريطانى فىهذهالزاوية البعيدة من بلاد العرب ، فى جنوب اليمن . ولقد فتحت الثورة اليمنية عهد الثورات فى جزيرة التثاؤب والخمول جزيرة الاقطاع والبترول . لقد ارسلت الثورة اشعاعاتها المتوقدة الى كافة انحاء الجزيرة . ومنذ الآن يمكن القول ان حركة التحرر الوطنى فى شبه الجزيرة العربية قــد ازدادت ثقة بنفسها ويقينا بانتصارها

الدلالة الديمقراطية للثورة

ان دلالة الثورة الديمقراطية تتجلى فى ان الثورة قــد اسقطت فئه الاقطاع العليا الكهنوتيه الارســتقراطية المسيطرة سياسيا وعلى راسهاالامام وصادرت املاكهاواملاك الاسرة المـالكة . كما ان الثورة اقامت مكان الحكم الملكى المطلق النظام الجمهورى ، وأصبح كل يمنى له الحق فى أن يرشح نفسه بمقتضى هذا النظام لرئاسةالجمهورية. واكثر من ذلك فان مبدأ الشعب مصدر السلطات قد اعترفت به الثورة عندما نص دستورها على حــق الشعب ــ عند توافر ظروف سياسية ملائمة ــ فى اقامة مجلس للشورى

يضم ممثلين من الشعب يشرفون على الاداة الحكومية ويوجهون سياستها الداخلية والخارجية ويحاسبون الوزراء ان اخطأوا ، ويعزلونهم من كراسي الحكم ان انحرفوا وحادوا عن نهج الثورة • وفوق هذا كله فان الثورة دعت الى تكوين تنظيم شعبي يتمتع فيه المواطنون بحقوقهم الوطنية الديمقراطية ، ويمارسون فيه النقد والنقد الذاتى ، ويتخذون منه منبرا شعبيا لاسماع الحكومة اصواتهم ولتوجيهها . وفى التنظيم الشعبى تتمثل القيادة الفكرية والسياسية والتنظيمية للثورة ، وهو يقودها فى مراحل تطورها اللاحقة ويطور منهاجها الوطنى ، ويعبىء الجماهير الشعبية لصيانة الجمهورية وحماية الاستقلال ومن اجل التمتع بالحريات الديمقراطية . وفوق هذا وذاك فان دستور الدولة قد نص على ان اليمن جمهورية ديمقراطية وفى ذلك اعتراف قانونى دستورى بحقوق الشعب الديمقراطية

الدلالة الوحدوية للثورة اليمنية

منذ نكسة الانفصال عام ١٩٦١ م اخذ المد الرجعي والاستعمارى يجتاح المشرق العربى ويتقدم ليحاصر قلعة الثورة العربية ، الجمهورية العربية المتحدة. وبفضل وحدة مصر وسورية خيل للاستعمار والرجعية العربية انه لن تقوم للوحدة العربية بعد ذلك قائمة ، وانه لم تبق الا شهور معدودات حتى يتم الاستيلاء على قلعة العروبة الشامخة منطلق الثورة العربية ، والداعية لوحدتها وتحررها ،مصر، غير ان حسابات الاستعمار ومخططات الرجعية العربية تساقطت واحدة بعد الاخرى بالانفجار الثورى على ارض اليمن • وفجأة وجد المستعمرون والرجعيون انفسهم

وقد اسقط فى ايديهم ، واخذ المد الثورى يكتسح المد الرجعى الاستعمارى ، ودحر الاستعمار والرجعية من مركز الهجوم الى مركز الدفاع . بالثورة اليمنية تغير الوضع السياسي فى المحيط العربى تغيرا كليا . وبعد بضعة اشهر فقط من اندلاع الثورة اليمنية سقط حكم الديكتاتورية الفردية فى بغداد وانهار حكم الانفصال فى دمشق . تلك هى الدلالة العربية الوحدوية للثورة اليمنية. ومن جديد اخذت حركة الوحدة العربية تفرض نفسها على الرجعية والاستعمار اشد قوة وأشد اقداما . ولما عقدت العراق اتفاقية للتنسيق المشترك واتفاقية القيادة السياسية الموحدة كخطوة اولى فى سبيل الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة عقدت الجمهورية العربية اليمنية مثل هذه الاتفاقية معها . وتبلور محور عربى قومى من حول القاهرة يدعو الى الوحدة العربية الشاملة

الثورة اليمنية بين ثورات التحرر الوطنى

الى جانب الطابع الخاص الذى تتميز به الثورة اليمنية نتيجة للاوضاع التاريخية والاجتماعية الخاصة التى تتفرد بها اليمن فان لها سمة عامة تجمعها بثورات التحرير الوطنية الديمقراطية . لقد اندلعت الثورة اليمنية فى حقبة تاريخية اخذت فيها الانظمة الاستعمارية ، والانظمة الاقطاعية تنهار تحت ضربات حركات التحرير الوطنى ، واخذت الجبهة المعادية للاستعمار القديم والاستعمار الجديد والاقطاع والراسمالية تتسع وتمتد لتشمل دول المعسكر الاشتراكى ، والدول الوطنية السائرة فى طريق التطور غير الراسمالى وفى طريق التطور الاشتراكى ، والقوى الديمقراطية فى معسكر الاستعمار نفسه . ولهذا يمكن

وصف هذه الحقبة التاريخية بأنها حقبه انهيار الاستعمار والاقطاع ، حقبة انتصار ثورات التحـــرير الوطنيـــة الديمقراطية ، وحقبة الانتقال من الرأســـــمالية الى الاشتراكية . واندلعت الثورة اليمنية فى وقت اخـــذت فيه حركة التحرير الوطنى العربية تحطم انظمة الحكـــم الاستعمارية والاقطاعية والرأسمالية ، وتتخطى بنجـــاح مرحلة التطور الوطنى الديمقراطى لتنتقل الى مرحلة بناء الاشتراكية الديمقراطية . تحت هذه الظروف الدوليـــة والعربية التقدمية انفجرت الثورة اليمنية . ان هـــــذه الظروف العامة لم تساعد على نجاح الثورة اليمنية فقط ، وانما ساهمت أيضا بشكل مباشر وغير مباشر فى تكييف مسيرة الثورة وفى تحديد طابعها السياسى . ان جـوهـــر العصر الذى نشبت فيه الثورة اليمنية قـــد مارس اثره على سير الثورة فى مرحلتها الحربية والسياسـية الاولى وسيمارس اثره على ســـيرها فى مرحلتها الاجتمـــاعية والاقتصاديه التالية

ان القانون التاريخى العام الذى يتحكم ويكيف الى حد بعيد طابع وجوهر ثورات التحرير الوطنية الديمقراطيـــة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية هو نفس القانون العام الذى يسرى اثره ايضا على الثورة اليمنية . أن هناك قاسما مشتركا عاما بين كل ثورات التحـــرير الوطنيــــة ، أن المحتوى العام لهذه الثورات واحد والاطار التاريخى الذى تتحـــرك فيه واحد . ان ثورات التحـــرير الوطنيـــة الديمقراطية فى هذه القارات الثلاث بما فيها الثورات العربية ــ استهدفت فى نضالها خلع الاستعمار والقضـــــاء على الاقطاع ، واقامة دول وطنيـــه متحـــررة سياسيا ، ومستقلة اقتصاديا ، كما اخذت تنمى اقتصادها الوطنى

حسب خطط علمية تمكن الدولة من اقامة قطاع عام فى الصناعة والزراعه ، وانتهجت طريق التعاون النزيه والمثمر مع الدول الصديقة ، وسارت فى طريق التطـــور الوطنى الديمقراطى وفى طريق التطور غير الراسمالى ، ثم فى طريق الاشتراكيه ، ورفعت شعار النضال ضد الاستعمار القديم والاستعمار الجديد وضد الاحلاف والقواعد العســـكريه العدوانية . ان للثورة اليمنية سمة عامة.. تجمعهابثورات التحرير الوطنية الديمقراطية هذه . فهى قد قامت من حيث الاساس ومن الناحية الموضوعية ضـــد النظـــام الاقطاعى المرتبط عمليا بوجود الاستعمار . وبقضاء الثورة اليمنية على النظام الملكى واعلانها للنظام الجمهورى تكون قد قطعت خطوة سياسية حاسمة فى اتجاه القضاء التـام على الاوضاع الاقطاعية .. ويخوضها نضالا ثوريا مسلحا استمر ثلاث سنين ضد قوى الرجعية والاســـــتعمار ، وبتصديها للاستعمار البريطانى واتجاهها الى تحرير الجنوب اليمنى من نفوذه وتوحيد الوطن اليمنى ، وبرفعها شعار مكافحة الاســـتعمار والاحـــلاف والقواعد العســـكرية العدوانية وبانتهاجها سياسة الحياد الايجابى والتعايش السلمى وبدعمها لنشاط الامم المتحدة ودول بانـــدونج والدول الافريقية ودول عدم الانحياز وبسعيها الى تصفية الاستعمار ومقاومة الحرب والدفاع عن الســـلم : بذلك كله تكون الثورة اليمنية قد اتخذت لها موقعـــا هاما فى جبهة التحرير الوطنية الديمقراطية التى تمتد على نطاق آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية

وبالثورة اليمنية انفصلت اليمن عن نطاق الدول الرجعية العربية والتحقت بالدول العربيـــة المتحـــررة والتزمت النهج الثورى الذى تسير عليه ، واصبحت تشكل مع هذه

الدول محور وارضية الثورة العربية التي عليها ومن حولها في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية هو نفس القانون العام سينهض بناء الوحدة العربية المتحرر الشامخ

ومن أجل تحرير اقتصاد البلاد من التبعية الاستعمارية ومن اجل ايجاد اقتصاد وطني ناهض سلكت الثورة طريق التعاون الاقتصادي مع الجمهورية العربية المتحدة ، وطريق اخذ المساعدات والقروض النزيهة من الدول الصديقة ..

كما اصبحت الاملاك المصادرة من العائلة المالكة المسقطة ومن حلفائها الرجعيين تشكل نواة للقطاع العام في الزراعة

ان هذه الملامح التي برزت حتى الان ، تظهر جليا طابع الثورة اليمنية الوطني التحرري الديمقراطي وهي تشير بما لا يدع مجالا للشك الى انتساب الثورة اليمنية الى ثورات التحرر العربية خصوصا والى ثورات التحرير الوطنية الديمقراطية بشكل عام

ومع ذلك فان الثورة اليمنية لم تعبر بعد عن محتواها الوطني الديمقراطي تعبيرا كاملا . فأمام الثورة اليمنية مرحلة جديدة كاملة لتبرز هذا المحتوى على نحو تام . أمام الثورة اليمنية مهام شاقة كالقضاء على التركيب الاقطاعي القبلي واحداث ثورة زراعية في البلاد واقامة التعاونيات ، كما ان امامها مهمة ايجاد نهضة ، صناعية ، واقتصاد وطني متحرر ، وتوسيع القطاع العام في الزراعة عن طريق استصلاح اراضي جديدة ، واقامة القطاع العام في الصناعة عن طريق استثمار ايرادات الدولة والقروض والمساعدات العربية والاجنبية ، ووضع برامج واتخاذ اجراءات ثورية لا تضمن النمو الاقتصادي فقط ، وانما تضمن ايضا سير البلاد في طريق التطور غير الرأسمالي

كذلك فان امام الثورة قضية احداث ثورة ثقافية عامة في البلاد وانشاء الجيش الوطني الضارب الذى يستطيع ان يحمى الاستقلال الوطني وخلق تنظيم شعبى يجمع قوى الشعب العامل وطلائعه الثورية ، يستطيع أن يحرس سير الثورة ويتكفل بدفعها في طريق التطور الوطنى ، كما ان امام الثورة مسئولية مواصله النضال ضد الرجعية المتربصة وضد الاستعمار البريطاني حتى يتحرر جنوب اليمن منه وتوحد الارض اليمنية كذلك فان الثورة مدعوة للاستمرار في حمل علم النضال ضد الاستعمار القديم ، والاستعمار الجديد ، والاحلاف والقواعد العسكرية العدوانية وفي رفع راية الوحدة العربية عاليا حتى تتحقق وحدة الوطن العربى ، وتطهر الارض العربية من الاستعمار والصهيونية ..

وبرغم الصعاب الهائله فانه ليس هناك ما يدعو للشك في قدرة الثورة اليمنية على اجتياز هذه المرحلة بنجاح

والى جانب السمة العامه التى تجمع الثورة اليمنية بثورات التحرر الوطنية الديمقراطية فان لها سمات خاصة تتميز بها عن هذه الثورات ، فالثورة اليمنية لم تقم تحت قيادة حزب او احزاب سياسية منظمة ، ولم تنهض بها طبقة برجوازية وطنية ناضجة ثورية . وهذه هى الخاصة الاولى للثورة

فلقد فجرت الثورة فئة من الضباط الثوريين بالتعاون مع ممثلى البرجوازية التجارية الصغيرة الطامحة كما ساند الثورة الشباب المتحمس وطبقات المجتمع الاخرى وكان معظم الفلاحين عدا المضللين منهم من القبائل يشكلون جيش الثورة المحارب والاحتياطى وسندها الجماهيرى

ولكن ضعف البرجوازية الصغيرة ، وعدم وجود جيش

حديث قوى وعدم تهيئة طبقة الفلاحين والجماهير الشعبية الاخرى تهيئة ثورية يشكل الخاصة الثانية للثورة

ان اندلاع الثورة اليمنية فى مجتمع قبلى مسلح ، فى مجتمع يكاد يكون كل افراده جيشا مجهزا مستعدا للقتال وللوثوب ضد بعضه البعض ما لم تكن هناك قضية تجمع صفوفه وتوحد عمله ، وان نشوب الثورة فى مجتمع كان جزء منه مايزال مخدوعا بالامامة ومستعدا لهذا السبب نفسه وبسبب من تقاليده البدوية والقبلية المتأخرة، ودفاعا عن طراز حياته المتخلف ، ومن اجل الحصول على الغنيمة والسلاح لان يقف ضد الثورة ، ان ذلك يشكل الخاصه الثالثه للثورة . ان اندلاع الثورة اليمنية فى قلب الجزيرة العربية حيث تلتقى وتتصادم مصالح الاستعمار القديم والجديد وحيث يسود حكم الاقطاع والاستعمار المزدوج ، حيث يقع اكبر احتياطى للبترول على الارض ، وحيث توجد ثالث قاعدة استعمارية بريطانية فى العالم وهى عدن وحيث الموقع الاستراتيجى ذو الاهمية العالمية بعد السويس وهو باب المندب . ان اندلاع الثورة تحت مثل هذه الظروف الفريدة قد ألب كل القوى الاستعمارية والرجعية على الثورة اليمنية ودفعها الى التدخل المباشر وغير المباشر بشكل لم يسبق له مثيل مع اى ثورة وطنيه ، ان ذلك ايضا يشكل الخاصة الرابعة للثورة

ان تدخل الجمهورية العربية المتحدة بجيشها المسلح لصد هجمات الاستعمار والرجعية ، وللدفاع عن الثورة اليمنية يشكل الخاصة الخامسة للثورة

ان الثورة اليمنية بسبب من طابعها البرجوازى الصغير ومن احتضان جماهير الشعب لها من فلاحين وعمال ومثقفين ثوريين ، وبحكم التقائها الثورى مع الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية الاخرى ، التى تسير فى

طريق الاشتراكية تستطيع ان تنتقل مباشرة من المجتمع القبلى ـ الاقطاعى ، الى المجتمع غير الرأسمالى ، ان ذلك يشكل الخاصة السادسة للثورة

ان سير الثورة اليمنية فى طريق التطور غير الراسمالى لن يكون عن طريق التأميم نظرا لعدم وجود ملكية رأسمالية احتكارية خاصة ، وانما سيكون بالدرجة الاولى عن طريق خلق القطاع العام من الاساس على نطاق الصناعة والزراعة. وتلك هى الخاصة السابعة للثورة

ان كلّ ذلك يبين بشكل قاطع الموقع الخاص الذى تحتله الثورة اليمنية بين ثورات التحرر الوطنية الديمقراطية داخل الوطن العربى وخارجه



الباب الثانى

* ماذا بعد الحرب الثورية ؟
* تغيير ثورى جذرى
* مجلس الشورى والديمقراطية
* التنظيم الشعبى
* آفاق المستقبل

ماذا بعد الحرب الثورية ؟

لقد ادرك الاستعمار وادركت الرجعية الدلالات العميقة التى حملتها الثورة اليمنية معها وتصورا أيضا نتائجها البعيدة المدى ليس على مستقبل الجزيرة العربية فقط بل وعلى حركة التحرر العربى بمجملها • لقد كان الاستعمار والرجعية يتصوران أن يحدث أى شىء فى الوطن العربى الا أن تنفجر ثورة فى بلد منهك ضعيف مغرق فى التخلف والتأخر كاليمن ، وكان خطأ الاستعمار والرجعية انهما لم يدركا ان هذه الظواهر السلبية نفسها هى وقود الثورة وعوامل اندلاعها . وعندما فوجىء الاستعمار والرجعية بالثورة اليمنية وتصورا نتائجها المفزعة على مصيرهما فى المنطقة العربية قررا جرها وهى ما تزال وليدة الى معارك حربيه طاحنه تستنزف قوتها وتستنفذ امكانيات المقاومة فيها وتمتص طاقتها الذاتية • كان هدفهما ان يجهضا الثورة فى المعارك ويفرغا كل حيويتها وعنفوانها فتنتهى الثورة وتتلاشى

وحقا استطاع الاستعمار والرجعية ان يشغلا الثورة

اليمنية لثلاث سنوات تقريبا عن حركة البناء ، وعن السير في عملية التغيير الثوري لحياة المجتمع • غير انهما لم ينجحا بفضل نجدة الجمهورية العربية المتحدة الشقيقة وهمة رئيسها في القضاء على الثورة

والآن وبعد النصر الساحق على الاستعمار والرجعية في ميادين القتال وعلى الجبهة العسكرية فماذا بعد الحرب الثورية ؟

خلال الثلاث سنوات الماضية كان كل شيء من أجل الجبهة . اما اليوم فيجب ان يكون كل شيء من أجل البناء . ان القضاء النهائي على الاستعمار والرجعية لن يكون على الجبهة وانما في معركة البناء الداخلي

ولهذا سيحاول الاستعمار وستحاول الرجعية الهاءنا عن هذا الهدف بتدبير المؤامرات وبخلق العراقيل ، وبوضع اللغم تحت عجلة حركة البناء . وفي الوقت الذي ينبغي علينا ان نكون فيه متسلحين باليقظة الشعبية التامة، ومستعدين لاحباط المؤامرات ووأدها في مهدها فورا وباكتساح كل العراقيل ، وتنظيف الطريق من الالغام، علينا ان نركز جل اهتمامنا على ميدان البناء والتغيير الثوري. ولأمد طويل سيبقى التناقض الرئيسي قائما بين الشعب من جهة وبين الاستعمار والرجعية من جهة اخرى ، غير ان اسلوب مواجهة العدو واسلحة مقاومته ستختلف ، لن يكون النضال ضده على الجبهة وبنيران المدافع فقط، وانما أيضا وبالدرجة الاولى عن طريق العمل الايجابي من أجل تغيير الواقع الفاسد ، وبدون ذلك تبقى التربة صالحة لتفريخ المؤامرات وحبك الدسائس ضد الثورة . لابد من هدم البناء القديم حتى القواعد ، فهو عش الاستعمار والرجعية ، وعلى انقاضه ينبغي ان يقام صرح الجديد • ان خلف الواقع القديم تكمن عناصر التخلف ذات المصلحة

الرجعية وهى مستعدة فى اللحظة المناسبة لان تمد يدها للتعاون مع الاستعمار من أجل البطش بالثورة

لقد سبقنا الرئيس العربى عبد الناصر فى اكتشاف هذه الحقيقة الهامة عندما كتب فى الميثاق ملخصا تجربة الحرب الوطنية ضد قوى العدوان الثلاثى حيث يقول « ان السؤال الذى طرح نفسه تلقائيا غداة النصر العظيم فى السويس هو :

لمن هذه الارادة الحرة التى استخلصها الشعب المصرى من قلب المعركة الرهيبة ؟

وكان الرد التاريخى الذى لا رد غير هو أن هذه الارادة لا يمكن ان تكون لغير الشعب ، ولا يمكن ان تعمل لغير تحقيق أهدافه . ان الشعوب لا تستخلص ارادتها من قبضة الغاصب لكى تضعها فى متاحف التاريخ ، وانما تستخلص الشعوب ارادتها وتدعمها بكل طاقاتها الوطنية لتجعل منها السلطة القادرة على تحقيق مطالبها

***

ان هذه المرحلة من النضال هى اخطر المراحل فى تجارب الامم « انها النقطة التى انتكست بعدها حركات شعبية كانت تبشر بالامل فى نتائج باهرة ، ولكنها نسيت نفسها بعد اول انتصار لها ضد الضغط الخارجى وتوهمت خطأ أن أهدافها الثورية تحققت ومن ثم تركت الواقع كما هو دون تغيير ناسية ان عناصر الاستغلال الداخلى متصلة عن قرب مع قوى الضغط الخارجى ، فان الصلة بينهما والتعاون تفرضهما ظروف تبادل المنافع والمصالح على حساب الجماهير »

ضرورة حسم الصراع بين الجناح الثورى واليمينى

لم تكن مشكلة الثورة اليمنية التى واجهتها منذ الايام الاولى لقيامها تتمثل فى الثورة المضادة السافرة التى هبت فى وجهها فحسب ، وانما كانت تتمثل أيضا فى عملية التخريب الداخلية لقوى اليمين التى اضعفت قـواها ، وزعزعت قاعدتها الجماهيرية ، وبثت الشحناء بين قادتها، فأثرت بذلك على قدرة مقاومتها للثورة المضادة ، وحالت دون مواجهة اعدائها بما ينبغى من الحزم والشدة ، وكادت تعطل سيرها ، وتنحرف بها فى اتجاه مضاد تماما

فلقد ظهر بعد قيام الثورة بأيام ان هناك اتجـاهين سياسيين .. اتجاها ثوريا ، واتجاها اصلاحيا ، وكان يمثل الاتجاه الاول تلك القوى التى قامت الثـورة على أكتافها والتى شكلت قيادتها ، بينما كان يمثل الاتجاه الثانى زعماء المعارضة التقليدية التى لم يكن لها نصيب فى تفجير الثورة أو كانت على علم باحتمال نشوبها ولم تشترك فى اشعالها ، أو سـاهمت فى قيـامها ولكن بدور ثانوى

وكان يمكن أن يلعب زعماء المعارضة التقليدية دورا بارزا ورئيسيا فى تثبيت الثورة ، وتوفير اسباب الاستقرار لها كشرط لازم للسير بها فى طريق البناء والتطوير،وكان يمكن أن يرشحهم هذا الدور لان يحتـلوا مكانة جديرة فى تاريخ الثورة ، غير انه بسبب من عوامل نفسية وفكرية

وسياسية ركز زعماء المعارضة التقليدية كل نشـاطهم وتجاربهم ومراسهم السياسى فى اتجاه يخالف اتجاه الثورة الوطني والقومى ، ويخالف أتجاهها الاجتماعى والتاريخى

ويمكن ايجاز الاسباب والعوامل والملامح التى شـكلت الاتجاه اليمينى فى النقاط الآتية :

١ ـ ان « عقدة نفسية » تحكمت فى سلوك قيـادة المعارضة التقليدية منذ قيام الثورة والى اليوم ، وتتمثل هذه العقدة فى شعور قيادة المعارضة القديمة بأن الثورة قامت دون ان يكون لها شرف الاسهام فيها ، فكشفت للناس مدى تخلف نشاطها السياسى الكلاسيكى مما جعلها تنظر بعين الحسد أو عدم الرضاء ازاء أولئك الذين تخطوها وهم دونها فى «المقام والسمعة» وتقدموا حركة الشعب اليمنى من اجل الخلاص من ظلام القرون الوسطى ليعلنوا فجأة يوم ٢٦ سبتمبر سقوط الملكية والامامة وقيام الثورة والجمهورية مما أكسبهم احترام العالم كله ، ووضعهم فى صف ثوار القرن العشرين الوطنيين

٢ ـ ان زعامة المعارضة القديمة كانت اصلاحية ، ولم تكن ثورية ، وكان كل ما تطمع فيه ادخال بعض الاصلاحات والتجديد والتحسين على حيـاة اليمن الاجتماعيـة والسياسية ، ولو فى ظل النظام السياسى والاقتصـادى القديم ، ولو فى ظل الامامة والملكية ، وهى قد حاولت ذلك عن طريق الامير احمد قبل ان يصبح اماما ، وسعت اليه عن طريق عبد الله الوزير ممثل احدى الاسر الارستقراطية الاقطاعية ، ومن اجل ذلك وضعت على رأسه تاج الامامة والملك ، واخيرا استقر رأيها على محمد البدر الذى أملت فيه ان يكون خيراً من والده وجده ، والذى ربطتهـا به صلات متنوعة ٠ وكان الاسلوب السياسى الذى اعتمدته

قيادة المعارضة القديمة هو ضرب الاسر بعضها ببعض وصولا الى غرضها ، والمناورة السياسية ، والعمل وراءالكواليس، ومع « خاصة » الناس . ولم تكن تثق فى الشعب ولا فى قدرته على صنع عمل « سياسى » أو تاريخى

ولهذا فقد كان قيام الثورة واعلان الجمهورية على انقاض الملكية والامامة عملا فاق احلامها ومطامحها ، ولم يترك لها الا مكانة متواضعة فى سجل الكفاح الوطنى من أجل التحرر من الاستبداد والطغيان .

٣ ـ ان قيادة المعارضة التقليدية كانت تهتم أساسا بانهاء حكم « العدنانيين » على « القحطانيين » ، وبأنهاء حكم « الزيود » على « الشوافع » ، ولكنها لم تعرف طريقة الوصول الى ذلك لانها لم تعرف أن التحكم الطائفى والعنصرى ليس الا ظاهرة سياسية تنبع من طبيعة الوضع والحكم الاقطاعى ، وبدلا من معالجة العصبية الطائفية والعنصرية أخذت تغذيها وتزيدها أشتعالا نتيجة فقدانها للرؤية السياسية الواضحة

٤ ـ ان المعارضة القديمة ولو كانت قاعدتها الجماهيرية تتشكل من فئة التجار اليمنيين داخل اليمن وخارجها والتى كانت لها تطلعات ثورية الا أن زعماءها البارزين كانوا ينحدرون من أسر اقطاعية فى الاصل او من عناصر اقطاعية تطورت وأصبحت ذات مصالح بورجوازية مرتبطة بمصالح وأفكار البورجوازية الغربية ، أو عناصر دينية ذات رؤية ضبابية عائمة تختلط فى ذهنها أفكار قبلية ، واقطاعية، ووطنية مضطربة

من هنا فان زعماء المعارضة القديمة البارزين لم يكن من سياستهم تغيير الوضع القبلى ـ الاقطاعى ، وان لم يكونوا ضد التطور فى اتجاه رأسمالى فى نفس الوقت، كما

لم يرحبوا باتباع مواقف وطنية أزاء الاستعمار البريطانى الذى يحتل ثلثى الارض اليمنية فى الجنوب ، ولا أزاء الاستعمار بشكل عام

٥ ـ وكعناصر اصلاحية لم يرتح زعماء المعارضة التقليدية الى تصفية أقطاب العهد البائد ، ولا الى أسلوب المواجهة السياسية العنيفة والمواجهة العسكرية للتدخل السياسى والعسكرى ضد الثورة اليمنية من قبل الرجعية السعودية والاستعمار البريطانى ، ولا الى التضحية « بأبنائنا » فى « حرب نحن فى غنى عنها » ويمكن تلافيها « بالمفاوضات السلمية » ، فنحن « طلاب اصلاح لادعاة حرب » على حسب قولهم

٦ ـ ان زعماء المعارضة القديمة منافسة منهم للضباط « الاغرار » على السلطة استندوا على رؤساء القبائل ومشايخ الاقطاع الذين هم «جبال اليمن الرواسى» وأقطابها وأقيالها » ، فالضباط لا يصلحون ان يكونوا اكثر من «عكفة» او حرس فى خدمة « اصحاب السياسة» و«اعيان ووجهاء البلاد » و «عقلائها واولى الحل والعقد فيها» ؛ وفوق ذلك فالضباط ومعهم «حفنة من التجار» ليسوا الا «عملاء» لمصر استخدمتهم للقيام بثورة ضد الامام بسبب « قصيدته الشعرية » ضد الوحدة ، واستخدمتهم للانتقام لعبد الناصر بعد النكسة التى حدثت له ولسياسته وسمعته فى سوريا • هكذا يتكلم الزعماء التقليديون بصراحة ..

٧ ـ ان زعماء المعارضة رأوا انه اذا كانت الثورة اليمنية أو « المهزلة اليمنية » هى « تجسيد صارخ للانتهازية الدولية» فانه لا ينبغى ان تبقى ارض اليمن وابناء اليمن ضحية لصراع دولى ، ونهبا لصراع قديم حديث بين «الاسرة المصرية والاسرة السعودية » وبين الزعامة الناصرية

والزعامة السعودية . وهكذا يفلسفون الصراع فى اليمن

٨ ـ ان المهمة التي ينبغي أن يتصدى لها العقلاء ـ من وجهة نظر المعارضة ـ هى كيفية انهاء الحرب الخارجية المحتدمة بين الاطراف غير اليمنية والتى اتخذت ـ لسوء الحظ ـ من اليمن ميدانا لها ، ومن « افتعال » الثـورة تبريرا لنشوبها ، والوحيدون الذين يستطيعون النهوض بهذه المهمة هم « المحبون للسلام » من زعماء المعارضة ، وهم مستعدون لطلب السلام من السعودية نفسها ، بالحج الى مقامها ، ولو بارسال وفد من المشايخ « المخلصين » ان استحال ذهاب الزعماء ، وتوقيع « اتفاقية الطائف » مع ممثلى الملكية المسقطة ، يتم التنازل بمقتضاها عن النظام الجمهورى ويتفق فيها على أن تكون اليمن « دولة اسلامية »

اذ ان ما يهم ليس هو « شكل » النظام ، وانما المهم هو اعادة « السلام الى ربوع اليمن » وانهاء التدخل المصرى فى شئونها ، واحياء « الكيان اليمنى » الذى سحقه التسلط والاستعمار الناصرى • على هذا النحو العجيب يفـكرون ويتصرفون

٩ ـ ان ما تطلبه المعارضة هو اعطاؤها الفرصـة الصلاحية الكاملة للتفاوض مع « الاطراف المعنية » من أجل اقرار السـلام • وهى قادرة حينئـذ على ذلك ، فستقول لاتباع بيت حميد الدين : لماذا تختصم نحن واياكم ، منكم أمير ومنا وزير ، والحكم شورى بين الجميع وستقول للسعوديين اتفقوا مع المصريين على أى شيء ، المهم خروج قواتهم من اليمن ، وبعدئذ سترون أن سياستنا لا تختلف عن سياستكم ، فكما أنكم تصادقون الامريكان وتستخرجون بواسـطتهم ثروات بلادكـم فكذلك نحن أصدقاء لهم ، ويهمنا ، أن يستخرجوا

ثروات بلادنا ونتطور كما تطورتم ، كذلك فنحن أصدقاء للبريطانيين ، ونسعى الى خلق علاقات من « حسن الجوار معهم » ومع « اخواننا سلاطين » وأمراء اتحاد الجنوب العربى ، ونحن نستنكر تعكير صفو العلاقات معهم الذى يسببه وجود المصريين فى اليمن ، وايجادهم بعض العملاء والمرتزقة فى جبهة تحرير الجنوب اليمنى المحتل » ! هكذا فعلا يتكلم زعماء المعارضةالقديمة دون خوف ..

تلك هى الاسباب والعوامل ، والافكار ، والسياسات التى تشكل خط زعماء المعارضة فى اليمن ، والتى وضعتهم فى موقف معارضة لخط الثورة اليمنية أشد من موقف معارضتهم لحكم بيت حميد الدين

ولقد دأب زعماء المعارضة القديمة على خلق اتجاه يمينى يدين لهم بالولاء ويدعم خطهم السياسى ، ولهذا الغرض قاموا بعملية تهييج واسعة النطاق لرؤساء القبائل ومشايخ الاقطاع ، وقاموا باتصالات سياسية متنوعةمع كل القوى الاستعمارية ، وسعوا الى تمزيق وحدة الضباط ، وأغروا عناصر منهم كانوا يريدون لها الموت ، ولكن لغرض سياسى مؤقت ضموها الى صفوفهم وركزوا هجومهم على عناصر الثورة الرئيسية والاستراتيجية والتى لم يفلت زمام الثورة من قيادتها بعد . وكانت مؤتمرات عمران ، وخمر ، والجند وتمرد أغسطس الاخير أبلغ وأعنف وأقوى تجسيد لتحركات الجناح اليمينى بزعامة عناصر المعارضة القديمة ضد خطة الثورة اليمنية ، وضد قيادتها ، ومن أجل الاستيلاء على زمامها واسقاط ممثليها البارزين ، ومن أجل اقامة حكم رجعى ـ اقطاعى مكانها يفتح ابواب اليمن للشركات الامريكية

ولجميع الاحتكارات الاستعمارية بغية « تطوير وانهاض اليمن » وسيرا على « النهج الرشيد » للحكم السعودى!!

على ان مما يدعو للعجب أن الجناح اليمينى استطاع ان يضم الى صفوفه ليس فقط بعض العناصر التى كان يعاديها من الضباط ، وانما أيضا عناصر مثقفة تدعى انها يسارية ، وانها تحمل أفكار الماركسية ، وافكار البعث

على ان ذلك كان يعود فى غالب الامر الى عدم وضوح الرؤية السياسية لدى هؤلاء الشباب والى التأثر بالافكار والنزعات الاقليمية

وعلى عكس الاتجاه اليمينى كانت العناصر التى تحملت عبء تفجير الثورة اليمنية ترى أن المهمة التى أنجزتها بدافع وطنى خالص مهمة تاريخية كبرى لابد أن تواجهها مشاكل صعبة وكثيرة ، ولابد ان تحاربها الرجعية المحلية، والعربية ، كما لابد ان يحاربها الاستعمار ، وعلى رأسه الاستعمار البريطانى وانه ليس فى الامكان كسب ولاء الرجعية والاستعمار الا على حساب تصفية الثورة والتراجع عنها • وادراكا منها بأن قيام ثورة فى قلب الجزيرة العربية حيث يسود حكم ملوك وأمراء الرجعية ، وأسيادهم المستعمرين ، واستهداء منها بتجارب الانتفاضات الثورية السابقة التى أخمدتها الرجعية المحلية بالتعاون مع الرجعية العربية رأت ضرورة التعاون الوثيق مع الجمهورية العربية المتحدة لضمان نجاح الثورة ، وضمان استمرارها وتطورها

على ان العناصر الثورية نظرا لنقص خبرتها السياسية ولحسن النية والطيبة لم تتنبه الى خطورة زعماء حركة المعارضة القدماء ، ولم تكتشف نواياهم وأهدافهم البعيدة بسهولة ، فمكنت لهم من السلطة ، وأفسحت لهم

المجال للنشاط العام ، ولتكوين اتجاه سياسى ضدها وفى ظلها . وأكثر من ذلك فان العناصر الثـــورية انخدعت فى هؤلاء .. بحكم ماضيهم فى المعارضة وأخذت تسمع آراءهم باهتمام ؛ مما مكنهم من تمزيق وحدة الضباط ، وتمــزيق وحدة العناصر الثورية التى تولت عبء الثورة

وبينما كان الاتجاه اليمينى ينمو ويقوى كان الاتجـــاه الثورى يضوى ويضعف ، وبينما كانت وحـــدة القوى المحافظة المصلحية والسياسية تشتـــد وتتبلور كانت وحدة القوى الثورية تتراخى وتبهت ، وكاد الامر يفلت من أيديها جميعا ، وكادت تقع فريسة للقوى اليمينية

وعلى عكس عناصر اليمــين الذى كان ينشط وسط القبائل قبعت العناصر الثورية فى بروجها معتمدة على دعم الجمهورية العربية المتحدة للثورة ، وواثقة من مؤازرتهـا لها وهى التى فجرت الثورة ، وبدلا من أن تنـــزل الى الجماهير تشرح لها أهدافها وأهداف الثورة ، وتكون لها قاعدة شعبية تحميها وتحمى الثـــورة قنعت بدورها فى تفجير الثورة وركنت اليه ، وعزلت نفسهـــا عن الشعب رغم عطفه عليها

على أن الصراع اللاهب الذى شنته قوى اليمين المتحجر ضد وجوه الثورة لم يبق بغير أثر ، لقد كان له رد فعل ايجابى لدى هؤلاء ولو بعد حين ، فأخذوا يجمعون شملهم ، كنقطة بداية لجمع الشعب من حولهم ، ولمواجهة الاتجاه اليمينى بحزم . كذلك فان طبيعة الصراع وجوهر الخلاف أخذ يتضح امام الشعب أكثر فأكثر ، وأخذت عواطفــه تميل بجاذبية اشد فى اتجاه القوى التى تمثله ، وتمثل مصالحه ومستقبله ، فى اتجاه العنـــاصر الثـــورية قائدة وصانعة الثورة

ولقد أصبح الخط الثورى جليا وواضحا كما لم يكن ذات يوم ، وأصبح الاتجاه الثورى يجمع قوى واسعة من الضباط الثوار ، والمثقفين الثوريين والتجار الوطنيين ، والعمال والفلاحين ، والجنود

ومع ذلك فان القوى ذات المصلحة فى الثورة لم تصبح بعد واعية لذاتها بما فيه الكفاية ، ولم تصبح بعد واعية لمصلحتها ولدورها السياسى والتاريخى كما ينبغى

غير ان طليعتها الواعية ، وقيادتها الثورية تملك أن تعلمها وتربى لديها الوعى السياسى ، وتتعهدها بالتثقيف الدائب والمستمر

وبمقدار ماينتصر الجناح الثورى فى صراعه ضد الجناح اليمينى يتفجر الوعى السياسى لدى الجماهير بغزارة أشد . وبالسرعة التى يحسم بها معاركه معه تكون سرعة تفتح هذا الوعى لدى الشعب

ان استمرار الثورة وتطورها متوقف على سحق الجناح اليمينى ومتابعة ركائزه وجذوره الاقتصادية والسياسية والادارية والاجتماعية والثقافية

وسحق الجناح اليمينى لا يعنى ابادته جسديا وان كانت ظروف الكفاح والثورة ونوع المقاومة التى تبديها العناصر الرجعية تستدعى العنف أحيانا . غير أن سحق الاتجاه اليمينى تتمثل اساسا فى اخراجه من السلطة أولا ، وفى تحطيم القاعدة الاقتصادية التى يستند اليها ثانيا ، وفى عزله عن الحياة السياسية أخيرا

تلك خطوة لازمة لكى تسير الثورة اليمنية فى اتجاهها الوطنى والقومى ، وفى اتجاهها الاجتماعى والتاريخى

ضرورة خلق جهاز سياسى وادارى ثورى

مع اندلاع الثورة وخلال مرحلتها الاولى ، مرحلة النضال من أجل القضاء على الحكم المطلق الاستبدادى ، وتحطيم مقاومته ومرحلة الدفاع عن الثورة ضد هجمات الاستعمار والرجعية الملكية ، مرحلة التصدى للثورة المضادة والحاق الهزيمة بها ، خلال هذه المرحلة يمكن أن تتعاون كل طبقات المجتمع بما فيها قطاع كبير من طبقة الاقطاع

ولكن ماتكاد هذه المرحلة توشك على الانتهاء . وتبدأ المرحلة الثانية ، مرحلة التغيير الاجتماعى وقلب التركيب الاقتصادي والاجتماعى المتخلف ، مرحلة القضاء على النظام الاقطاعى ــ القبلى ، وعلى علاقات الانتاج الاقطاعية الاستغلالية وعلى العصبية القبلية ، مرحلة هدم البناء الفوقى الايديولوجى والسياسى ذى الطابع الاقطاعى ،هدم العقلية الاقطاعية ــ القبلية ، واسلوب التفكير الاقطاعى ــ القبلى ــ مرحلة ايجاد نظام اقتصادى ــ واجتماعى جديد، وعلاقات انتاج متطورة ، وتفكير سياسى متفتح ، وقيم ومفاهيم ثورية ، ما تكاد هذه المرحلة تبدأ حتى تقف طبقة الاقطاع بدافع من مصالحها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ضد السير فى هذه المرحلة ، ضد التقدم الى الامام . وهكذا بينما تكون طبقة الاقطاع قد لعبت فى المرحلة الاولى دورا تقدميا نسبيا ، فانها تلعب فى المرحلة الثانية دورا رجعيا خالصا

ان طبقة الاقطاع الرجعية تجد لها عادة ممثلين سياسيين وأيديولوجيين من الساسة والمثقفين والضباط وحتى من

بعض رجال الدين الذين بوعى أو بغير وعى يتخذون مواقعها ويدافعون عن مصالحها ويتبنون مفاهيمها ويسعون الى تجميلها وتزيينها وتحبيذها

ومن أجل القضاء على الاوضاع الاقطاعية الرجعية وتنفيذ مهام المرحلة الثانية فى الثورة لابد أن ينفصم التحالف السابق مع الاقطاع وممثليه ليحل مكانه التحالف بين قوى الشعب العاملة والثورية الممثلة فى الرأسمالية الصغيرة التجارية الناهضة ، والمثقفين الثوريين ،والضباط الثوريين ، والفلاحين والعمال

ان انجاز هذه المهام لن يتم دفعة واحدة ، انها مهام مرحلة كاملة ، ولكن لتأمين طريق الوصول اليها وضمان تحقيقها لابد من القيام بخطوة سياسية ضرورية وحاسمة لابد من تصفية الجهاز السياسى والادارى ليس من العناصر البيروقراطية المشبوهة بولائها للحكم الملكى فقط بل ومن العناصر الرجعية الاقطاعية وممثليها السياسيين والايديولوجيين ، لابد من القيام بعملية تطهير لجهاز الحكم . ان ذلك يشكل مفتاح المرحلة الثورية القادمة . فمن أجل مواصلة السير بالثورة لابد من خلق الجهاز السياسى والادارى الثورى . وبدون خلق هذا الجهاز لا يمكن السير خطوة ثورية واحدة الى الامام ، لابد أن يخلص جهاز الحكم للقوى الثورية وحدها ، القوى ذات المصلحة فى استمرار الثورة . ان استخلاص السلطة السياسية لقوى الشعب العاملة والثورية يشكل الشرط السياسى الحاسم للدخول الى مرحلة التغيير الثورية . وبدون أن تصفو آلة الدولة للقوى الثورية ليس فى الامكان مجرد تصور القيام بأية خطوة لتغيير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية الفاسدة وابدالها بأوضاع أخرى تقدمية .

واكثر من ذلك فانه مالم يقض علـى سـلطة المشـايخ الاوتوقراطية على القبائل التى كان الامام يحيى قد حد من نفوذها والتى اخذت الان تحل مكان سلطة الامام المطلقة ، ما لم ترفع يد الاقطاعيين عن التحكم فى الفلاحين وفى جهاز الدولة ، مالم تحصل الدولة على ولاء القبائل مباشرة بدلا من استجداء هذا الولاء عن طريق المشايخ مقابل تألف قلوبهم بالأموال ، مالم تنفذ سلطة الدولة الى الشعب مباشرة متخطية سلطة المشايخ الاوتوقراطية وقائمة على انقاضها ، ما لم يقض على الفوضى الادارية الناشئة من تعدد وتناقض السلطات ، مالم تبن سلطة مركزية مباشرة مهابة ، فانه ليس فى الامكان الحديث عن جهاز دولة عصرى حديث ، بله الحديث عن جهاز دولة ثورى ، وعن جهاز قيادى ثورى

واذا فان الخطوة السياسية الاولى العاجلة والملحة هى انشاء جهاز سياسى وادارى منظم حديث مركزى ثورى يستطيع حماية الثورة من مؤامرات الرجعية فى الداخـل والخارج ، واحباط مخططات الاستعمار الانتقـامية والتآمرية ، ويضمن اقتحام الثورة مرحلتها الثانية ، مرحلة التغيير الشامل لاوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعيـة والثقافية

ولكى يستطيع هذا الجهاز الثورى أن يمارس سلطتـه لابد من خلق الجيش الوطنى القوى . ان هذا الجيش هو درع الدولة الثورى ، ويدها التى تبطش بها ، والفرقـة الصدامية التى تقتحم بها مرحلة التغيير الثورية

تغيير ثوري جذري

ان أهم ماينبغي أن تتسلح به ثورة من الثورات هو الصدق الثوري في مواجهة المشكلة الاجتماعية ، والاقدام بشجاعة من أجل حلها . ولا تسمى الثورة ثورة بدون تغيير الوضع الاجتماعي القائم وابداله بوضع اجتماعي تقدمي جديد . ان الثورة ليست مجرد العنف ، او سفك الدم ، أو الاستيلاء على الحكم . ان ذلك قد يسمى وثبة او انتفاضة او انقلابا ، والثورة ليست حتى مجرد الاطاحة بالنظام الملكي واستبداله بنظام جمهوري رغم ما لهذا العمل من أهمية كبرى . ان الثورة عملية تغيير ثورية جذرية لحياة المجتمع ، تحدث نقلة تاريخية كاملة فيه وتحوله من نظام اجتماعي متأخر الى نظام اجتماعي متقدم ، من تركيب اقتصادي منحط الى تركيب اقتصادي متقدم ، من علاقات انتاج متأخرة الى علاقات انتاج جديدة مختلفة عنها اختلافا كليا . قال الرئيس جمال عبد الناصر ، الذي اقتحم من قبلنا طريق الثورة متحدثا في الميثاق عن خبرة ثورية : « والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي أرغمت عليه الامة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال . فان

وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على أن تطوى مسافة التخلف الذى طال مداه بين الامم العربية وبين غيرها من الامم السابقة فى التقدم . ولا بد والامر كذلك من مواجهة جذرية للامور تكفل تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للامة لتحمل هذه المسئولية » ويقول فى مكان آخر : «ان الثورة لم تحدث ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن الطريق اليها قد فتح على مصراعيه تلك الليلة العظيمة

« ان الثورة عمل ايجابى يستهدف اقامة أوضاع جديدة »

ان المجتمع اليمنى الذى طال تخلفه عن الحضارة لا يمكن الارتفاع به من وضعه المخجل هذا عن طريق الاصلاح والترميم والترقيع ومداراة ذوى المصالح ومساومتهم خوفا من تركهم لصف الثورة وانضمامهم الى صف الرجعية والاستعمار . ان السير فى هذا الطريق الاصلاح سيؤدى الى انتكاسة ماحقة للثورة ، وسيسلمها الى طبقة الاقطاع . قال الرئيس العربى عبد الناصر فى الميثاق موضحا أسباب فشل ثورة عام ١٩١٩م « ان القيادات الثورية اغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الاراضى أساسا للاحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة » وعلى ذلك فانه ينبغى نبذ الروح الاصلاحية والتشبع بروح الثورة فى مواجهة حل القضية الاجتماعية . ان منطق الاصلاحيين هو منطق ذوى المصالح وليس منطق الثوار . قال الرئيس عبد الناصر فى الميثاق عن تجربة فى العمل الثورى : « ان المنطق التقليدى فى مثل الظروف التى واجهها نضال الشعب المصرى كان يغرى

بطريق المساومات ، والحلول الوسط والتفكير الاصلاحي الصادر عن العطاء والتبرع . لقد كان ذلك بالمنطق التقليدي هو المكمن الوحيد في مواجهة السيطرة الخارجية المعتدية والسيطرة الداخلية المستغلة وفي غيبة تنظيم سياسي مستعد ، وبدون نظرية كاملة للعمل

ولكن ارادة الثورة في الشعب المصري وصدقها تحدت هذا المنطق التقليدي وجابهته بتفجير طاقات مليئة بامكانيات العمل المبدع الرائع » ويقول في مكان آخر :

« لقد كان يمكن أن يتحول الحدث الكبير الذي جرى ليلة ٢٣ يوليو الى مجرد تغيير للوزارة القائمة أو لنظام الحكم »

وكان يمكن أن يتحول من ناحية ، ديكتاتورية تضيف الى التجارب الفاشلة تجربة اخرى فاشلة لكن اصالة الوعي الثوري وقوته سيطرت على اتجاهات الامور ومنحت جميع العناصر الوطنية ادراكا لدورها في توجيه النضال الوطني كذلك ففي هذه الفترة الدقيقة تمرد الوعي الثوري الاصيل على منطق دعاة الاصلاح واختار طريق الثورة الشاملة

ان احتياجات الوطن لم تكن تكتفي بترميم البناء القديم المتداعي وصلبه بقوائم تسنده واعادة طلائه وانما كانت احتياجات الوطن تتطلب بناء جديدا ثابت الاساس . . صلبا شامخا

ولقد كانت أكبر حجة ضد منطق دعاة الاصلاح أن البناء القديم انهار أنقاضا وركاما في مواجهة التجربة الجديدة

ينبغي ان نتحدث بصراحة كافية . ان قطاعا محددا

من طبقة الاقطاع قد وقف الى جانب الثورة اليمنية ضد الاستعمار والرجعية . ان هذا الموقف يستحق التقدير لو كان فى امكان طبقة الاقطاع الا تقف ضد اجـــراءات الثورة فى ضرورة ادخال اصلاح زراعى ، وفى تحديد الملكية ووضع حد للاستغلال الاقطاعى. ان الذين يحاولون مقاومة اتجاه الثورة هذا سيكشفون عن مخططهــــــم السياسى وسيثبتون انهم لم يشتركوا فى الحرب الا من اجل مصالحهم الطبقية الضيقة . وفى هذه الحالة فانهم سيتركون جانب الثورة لانها اخذت تمس مصـــــالحهم لينضموا الى جانب الرجعية والاستعمار . ان ذلك قــد يحدث فى اليمن كما حدث فى بلدان اخرى ، وليس هناك ضمانة دون حدوثه ولقد كان خروج ما أسمى بالجمهوريين المنشقين على الثورة والجمهورية نذيرا ودليلا على احتمال خروج طبقة الاقطاع على الثورة . وعلى الثـورة ان تكون يقظــة حازمة فى مواجهــة من يخــرجون عليهـــــا ؛ ويعارضون اجراءاتها الثورية ، ويفضــلون التعــامل مع الاستعمار على التنازل عن مصالحهـــم الانانية ، قال الرئيس عبـد الناصر فى الميثــاق : « ان الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار استطاع أن يشل فاعليات طبقات من المجتمع القديم كانت قادرة على خداعه بالتظـــــاهر باشتراكها فى حرب الاستعمار ، بينما هى فى الواقع متصلة فى مصالحها به . ان حرب التحرير التى كان يمكن بالمفهوم التقليدى أن تحتاج الى وحدة جميع الطبقــات فى الوطن حققت انتصارها فى الواقع حين حمت نفســها من ضربة خائنة فى الظهر . ان الشعب المصرى خاض معـــــركة التحرير ضد الاستعمار ، ولم تخدعه المظاهر ، وحــرص طول المعركة على أن يعزل عن صفوفه كــل الذين ترتبط

مع الاستعمار مصالحهم فى مواصلة الاستغلال »

وفى مكان آخر يكشف الرئيس العربى طبيعة الرجعية أكثر حين يقول . « ان الرجعية تملك وسائل المقاومة . . تملك سلطة الدولة ، فاذا انتزعت منها لجأت الى سلطة المال ، فاذا انتزع منها لجأت الى حليفها الطبيعى وهو الاستعمار .. »

ان الاسلام الذى يستوحى فى تشريعه مصلحة الجماعة يؤيد تحديد الملكية « وأول مبدأ يقرره الاسلام ـ بجوار حق الملكية ـ أن الفرد أشبه شىء بالوكيل فى هذا المال عن الجماعة . وان حيازته له انما هى وظيفة أكثر منها امتلاكا ، وان المال فى عمومه انما هو حق للجماعة ، والجماعة مستخلفة فيه عن الذى لا مالك لشىء سواه » ذلك هو رأى الاسلام فى الملكية . ويقول القائد العربى فى الميثاق : « لقد كانت جميع الاديان ذات رسالة تقدمية ، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الارض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين ، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم . ان جوهر الاديان يؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية ، بل ان أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان

ان كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الاعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر ، ولا يرضى الدين بطبقية تورث الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم .. »

وباعتبارنا دولة اسلامية لابد لنا ان نخضع لهذا المنطق فى هذه المسألة الهامة ، والذين يقفون ضد تطبيق الدولة لهذه الشريعة الاسلامية باعتبارها

مسئولة امام الله وامام الشعب ، وامام التاريخ فانهم يكونون قد خرجوا على الله وعلى الجماعة وتحدوا شريعة الله ونظمه واصطدموا بأغلبية الشعب

فقط أولئك المشايخ الذين يضحون بأنانيتهم ،وينكرون ذواتهم ، ويتنازلون عن مصالحهم الضيقة لصالح الشعب يمكن اعتبارهم ثوارا . ومقابل مصالحهم الاقطاعيـــة ، ومقابل انفصالهم عن طبقتهم الاقطاعية يمكن أن يكسبوا احترام الشعب ، ويمكن أن يحصلوا على مكاسب مادية وسياسية وأدبية ومعنوية اكثر بكثير مما تنـــازلوا عنـــه كتعويض وتقدير لهم للمثل الاعلى الذى ضربوه

ان الجماهير الشعبية التى تشكل أغلبية الشعب هى التى آزرت الثورة دون تحفظ ودون مطمع آخـــر عدا تحقيق مطالبها العادلة . ان الفلاحين من القبائل هم جيش الثورة الشعبى ، ودفاعهم عن الثورة منحهـــم الحق فى الحصول على حق الحياة ، فى الحصـــول على الارض . وهم لم يؤيدوا الثورة الا من اجل رفع الظلم الاجتماعى عنهم . انهم ما يزالون حتى الآن عبيد الارض ، أن معظم الاراضى التى يزرعونها ليســـــت ملكا لهم ، انها ملك الاقطاعيين الكبار أو المتوسطين أو الصغار ، انهم ليسوا اكثر من اجراء ، وفضلا عما فى هذا من الحيف والامتهان للكرامة البشرية فانه استغلال اقطاعى لا يجوز بقاؤه : لقد تحرر الفلاحون نسبيا من الضرائب الجـــائره ومن الاضطهاد السياسى للحكومات الســـابقة ، غير أنهم لم يتحرروا بعد من تبعيتهم للمالك صاحب الأرض . وما لم تقم الثورة بحل هذه المشكلة الاجتماعية فانها ستفقد قاعدتها الشعبية ، وهم جمهور الفلاحين . قال الرئيس

عبد الناصر فى الميثاق محللا اخطـــاء ثوار عام ١٩١٩ فى مصر :

« ان المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها ،ولكن القيادات التى تصدت فى مقدمة الموجة الثورية عام ١٩١٩ باغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثورى لم تستطع أن تتبين بوضوح ان الثورة لا تحقق غاياتهــا بالنسبة للشعب الا اذا مدت اندفاعها الى مابعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال ووصلت الى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية . »

ان الوضع الاقطاعى الحالى فى اليمن قـــديم عتيق ، وجامد غير متحرك ، وبدون تغييره لن يكون فى امكاننا احداث ثورة زراعية فى البلاد . ان الكثــير من مشـــاكل اليمن متوقف على ضرب التركيب الاقتصادى الحالى المغرق فى التخلف ، ومالم يتحرر الانسان اليمنى اقتصاديا ، مالم يتحرر من عبودية الارض ومالم تصبح الارض تابعة له بدلا من ان يظل هو تابعا لها فانه ليس فى الامكان الحديث اطلاقا عن وجود حرية سياسية حقيقية . ان محك الثورة اليمنية ومقياس ثوريتها هو كيفية مواجهتها لهذه القضية الاجتماعية ، واكثر من ذلك فان مايحكم عليها كثورة هو تغييرها للعلاقات الاقتصادية الحالية القائمة فى الزراعة . وما لم تقدم الثورة على حل هذه المسألة فانها تفقـد صفتها كثورة ، بل وتحكم على نفسها بالفشل

يقول ذو التجربة الرئيس عبد النـــاصر فى الميثاق :
« أن هذه الحركات الشعبية تسلم نفسهـــــا بعد ذلك للواجهات الدستورية الخادعة وتتصور بذلك أن الحـرية السياسية استوفت حقوقها لكن هذه الحركات الشعبية تكتشف دائما وبعد فوات الاوان فى كثير من الاحيان انها

بقصورها عن التغيير الثورى فى معناه الاقتصادى سلبت الحرية السياسية ضمانها الحقيقى ولم تترك لنفسها منها غير مجرد واجهة هشة لا تلبث أن تتحطم وتنهار بفعل التناقض بينها وبين الحقيقة الوطنية »

ان خلق قيم اخلاقية جديدة ، وثقافة ثورية ، ووعى شعبى ، ويقظة وطنية ، وتفتح على المستقبل واقبال على الحياة المنتجة المثمرة كل ذلك متوقف على خلق علاقات اجتماعية جديدة لا مجال فيها للاضطهاد والاستغلال الطبقى من قبل ملاك الارض ازاء الفلاحين

يقول رائد العروبة فى الميثاق : « ان الشعب المصرى تحت ظروف هذه المعارك الثورية المتشابكة المتداخلة كان مصرا على أن يستخلص للمجتمع الجديد الذى يتطلع اليه علاقات جديدة تقوم عليها قيم اخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة »

ان ما نحتاج اليه للقيام بعملية التغيير الاجتماعى هذه هو الوفاء لمنطق الثورة والطليعة الثورية وارادة التغيير الثورية والاقتناع بسلامة ما نقدم عليه والفهم التاريخى لهذه المشكلة المزمنة والالتزام بشرعة السماء فى هذا السبيل ، والتطلع الى النتائج العظيمة التى حققتها شعوب اخرى سبقتنا الى معالجة مثل هذه المسألة الزراعية التى يتوقف على حلها انتعاش غالبية الشعب اليمنى

يتحدث الرئيس العربى فى الميثاق عن أدوات التغيير الثورية قائلا : « لكن العمل العظيم الذى تمكن الشعب المصرى من انجازه بالثورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعددة يصنع حتى بمقاييس الثورات العالمية تجربة ثورية جديدة. ان هذا العمل العظيم تحقق بفضل عدة ضمانات تمكن

النضال الشعبى من توفيرها

اولا ــ ارادة تغيير ثورى ترفض أى قيد أو حد لحقوق الجماهير ومطالبها

ثانيا ــ طليعة ثورية مكنتها ارادة التغيير الثورى من سلطة الدولة لتحويلها من خدمة المصالح القائمة الى خدمة المصالح صاحبة الحق الطبيعى والشرعى وهى مصالح الجماهير ..

ثالثا ــ وعى عميق بالتاريخ واثره على الانسان المعاصر من ناحية ، ومن ناحية اخرى لقدرة هذا الانسان بدوره على التأثير فى التاريخ

رابعا ــ فكر مفتوح على التجارب الانسانية يأخذ منها ويعطيها ، لا يبعد عنها بالتعصب ، ولا يصد نفسه عنها بالعقد

خامسا ــ ايمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسان فى كل زمان ومكان

ان مايمكن الجزم به بيقين علمى انه ما لم يجر اصلاح زراعى فى البلاد فان الدولة ستخضع لتوجيه الاقوياء فى البلد . وهم الاقطاعيون . وستصبح الدولة دولتهم لا دولة الشعب بفلاحيه وعماله وتجاره ومثقفيه . وستكف الثورة حينئذ عن أن تكون ثورة . ان الذى يقرر طابع الدولة السياسى هو طابع اقتصاد البلاد ، وتركيب المجتمع الاقتصادى ــ والاجتماعى . فان كان هذا الاقتصاد وهذا التركيب الاقتصادى ــ الاجتماعى يقوم على الملكية الاقطاعية والاستغلال الاقطاعى فان الدولة حينئذ تكون دولة الاقطاعيين لا محالة ، وان كان طابع اقتصاد البلاد يقوم على الملكية الرأسمالية وعلى الاستغلال الراسمالى

فان الدولة حينئذ تكون دولة الرأسماليين ، وهكذا دواليك

يقول محطم الاقطاع والرأسمالية فى مصر فى الميثاق الوطنى عن علم بالامور : « انه من الحقائق البديهية التى لا تقبل الجدل ان النظام السياسى فى بلد من البلدان ليس الا انعكاسا مباشرا للاوضاع السائدة فيه ، وتعبيرا دقيقا للمصالح المتحكمة فى هذه الاوضاع الاقتصادية فان كان الاقطاع هو القوة الاقتصادية التى تسود بلدا من البلدان فمن المحقق ان الحرية السياسية فى هذا البلد لا يمكن ان تكون غير حرية الاقطاع . انه يتحكم فى المصالح الاقتصادية، ويعين الشكل السياسى للدولة ، ويفرضه خدمة لمصالحه . وكذلك الحال عندما تكون القوة الاقتصادية لرأس المال المستغل ! »

ان ضرب العلاقات الاقتصادية الجامدة فى اليمن والقائمة على الاستغلال الاقطاعى ،وان توزيع الارض على الفلاحين لا يستجيب لمنطق العدالة والحق الشرعى لجماهير الفلاحين فى ثروة وطنهم فقط ، وانما يفتح ايضا طريق الثورة الزراعية المعتمدة على استعمال الالات الحديثة فى الحرث والحصاد ، وعلى تقديم الخبرة الفنية من قبل الدولة ، والقائمة على انشاء التعاونيات الزراعية . ان تحديد الملكية وتوزيع الفائض منها على جمهور الفلاحين لا يقضى على الفقر والبطالة فقط ، وانما يضاعف أيضا القدرة الانتاجية لدى الفلاحين وينمى الدخل القومى ، ويخلق قوة شرائية أكبر ، ويحقق الديمقراطية على نطاق الزراعة . ان الثورة الزراعية تتطلب أيضا استصلاح الاراضى البور الواسعة فى اليمن ، وتوزيع البعض منها على الفلاحين المعدمين والحاق البعض الاخر بالقطاع العام

أن القضاء على العلاقات الاقطاعية الاستغلالية ، وشن الثورة الزراعية يشكلان مفتاح النهضة الاقتصـــادية فى البلاد . وستعود اليمن حينئذ خضراء كما كانت وسيختفى الفقر . واذا لكى لا تفرغ الثورة من محتواها الثورى ، ولكى لا تفقد الرؤية الواضحة فى ضباب المعـــارك ولكى نضمن ولاء الشعب الذى يكون الفلاحون غالبيته العظمى علينا أن نرفع شعار الثورة الاول فى معركة البناء الجديدة وخلال عملية التغيير الثورية ، الا وهو : « الارض لمن يفلحها »

امكانية تخطى مرحلة الرأسمالية

ان القضاء على النظام الاقطاعى لا يعنى أن اليمن ستدخل بالضرورة مرحلة النظام الرأسمالى ، ان الطبقة الرأسمالية غير موجودة فى اليمن . وعدا الطاقم الاعلى من البرجوازية التجارية الصغيرة الذى يلعب دور الوسيط بين السوق الداخلية وبين الاحتكارات الاستعمارية فان البورجوازية اليمنية الناشئة لا خطر منها . أن هذا الطاقم الاعلى من البرجوازية اليمنية حتى ولو لم يكن تحت تصرفه رأس مال كبير فانه اخذ يمثل فى اليمن دور الكومبرادور «الرأسماليين الوسطاء » . أن عدد هذا الطاقم الاعلى من البرجـوازية الصغيرة محدود جدا ، وميله الى أن يلعب دور الوسيط بين الرأسمال الاحتكارى وبين المستهلكين فى داخل اليمن لم يصبح بعد اتجاها متكامل الملامـــح . ومع ذلك فانه لا ينبغى التقليل من خطورة هذا الاتجـاه . ان الشركات التابعة للدول الاستعمارية تستطيع مثلا عن طريق كسب الوكلاء العموميين من الوسطاء التجاريين اليمنيين وعن

طريق العمولة التى تقدم اليهم مقابل عمالتهم وعن طريق توكيلهم لبيع نوع من السلع التى تورد اليهم يمكن أن يصبحوا مخلب قط للدول الاستعمارية وذيلا تابعا لرؤوس أموالها ، واداة لادخال نفوذها الى اليمن . ولهذا ينبغى محاربة هذا الاتجاه منذ الان قبل أن يستشرى ويصبح خطرا تتطلب مقاومته جهدا اكبر

واذا استثنينا هذا الجزء الاعلى من البرجوازية الصغيرة فانه يمكن القول ان فئة البرجوازية التجارية الصغيرة تلعب اليوم فى حياة البلاد دورا اقتصاديا هاما يتمثل فى فتح المتاجر واقامة المبانى ودور السينما والمسارح وانشاء الشركات الوطنية وغير ذلك ، فهى لهذا تقوم بعمل ايجابى فى حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . أن فئة التجار الصغيرة تعتبر لهذا كله تقدمية الاتجاه ثورية النفس ، وينبغى علينا أن نشجعها ونوفر لها كل المساعدات الكفيلة بتنشيط عملها ومضاعفة سرعته ويجب احترام راسمالها الخاص والمساعدة على تنميته ، بل ومن واجب الدولة ان تدفع البرجوازية التجارية الصغيرة الى استثمار رؤوس أموالها فى المشاريع الانتاجية الصناعية والزراعية ، اذ ان البرجوازية الصغيرة بسبب من عنف الاوضاع الاقطاعية ماتزال حتى الآن غير منتجة ، ولم تساهم بعد فى خلق أسلوب للانتاج جديد وعلاقات انتاجية واقتصادية واجتماعية جديدة . ان نشاطها الاقتصادى مايزال مقصورا على الاستيراد والتصدير ، وهو دور سلبى غير ايجابى ، وهو لذلك ما يزال يمثل شكلا اقتصاديا متخلفا بالنسبة لعملية التصنيع والانتاج الصناعى . ومع ذلك فان البرجوازية الصغيرة مهيأة لان تقوم بدور هام وضرورى فى عملية الانتاج الصناعية نتيجة تراكم رأسمالها

واكثر من ذلك فانه ينبغى ان يعود جميع اليمنيين

المهاجرين الى وطنهم واستثمار رءوس أموالهم فيه ولا بد أن توفر الدولة لهم كافة الضمانات التى من شأنها أن تساعد على ازدياد رؤوس أموالهم لصالح تعمير البلاد وتطويرها اقتصاديا

ومع ذلك ونظرا لضعف الرأسمال اليمنى الخاص وعدم قدرته على النهوض بالمشاريع الانتاجية الكبرى والطويلة الاجل وذات الانتاج الواسع والثقيل فانه ليس فى الامكان تصور نشوء نظام رأسمالى فى البلاد كما عرفته بلدان أخرى . ان القطاع الخاص لا يستطيع أن يحدث نهضة صناعية فى اليمن بجهده وحده ، انه قادر فقط على النهوض بالمشاريع الخفيفة والمساهمة فى المشاريع المتوسطة

اما التنقيب من ثروات البلاد الطبيعية واستغلال معادنها وتصنيعها بمقاييس واسعة ، وشق الطرق فيها واقامة منشآت الرى والمطارات والموانى ، ومكننة الزراعة، واستصلاح اراضى جديدة وما عدا ذلك من المشاريع الانتاجية الكبرى فانها مهام ستلقى على كل كاهل الدولة وستكون من اختصاص القطاع العام .

وبغير انشاء القطاع العام فى الصناعة والزراعة عن طريق توفير المدخرات واستغلال القروض الخارجية لهذا الغرض فانه لايمكن تصور القضاء على التخلف فى اليمن واحداث نهضة اقتصادية فيه

ومعنى ذلك أن على الدولة أن تضع خطة اقتصادية شاملة لتنمية البلاد ومتابعة التطور الاقتصادى فيها ومن أجل تقدم سريع ورخاء عاجل

ان القطاع العام القائم على التخطيط هو الذى سيحكم تطور البلاد الاقتصادى ، ويوجه القطاع الخاص ،ويعين مجال نشاطه ويراقبه ضمن الخطة العامة للتنمية

الاقتصادية ، وهو الذى سيساعد على سير البلاد فى طريق التطور غير الرأسمالى . وبذلك يمكن لليمن أن تتخطى حقبة تاريخية كاملة هى مرحلة الرأسمالية ، وللوصول الى هذا الهدف العظيم لابد من اتخاذ اجراءات مصاحبة لذلك ، لابد من تحرير السوق اليمنية من التبعية الاقتصادية للاحتكارات البريطانية ، لابد من تحريرها من سيطرة ميناء عدن عليها ، ولابد من الحيلولة دون ربط الاقتصاد الوطنى بعجلة أى دولة استعمارية اخرى من أجل ايجاد اقتصاد وطنى مستقل تماما . وذلك يعنى ايضا عدم السماح بادخال الشركات الاستعمارية الى البلاد . فمن أجل خلق القطاع العام فى الصناعة تستطيع الدولة أن تستغل المواد الخام الطبيعية والثروات المعدنية عن طريق أخذ القروض النزيهة واستقدام الخبراء من الدول الشقيقة والصديقة ، وان تنفذ المشاريع الانتاجية تحت ادارتها وبذلك تقفل الباب نهائيا فى وجه الشركات الاستعمارية وتلاعبها وحيلها ودسائسها ومؤامراتها . ولليمن كما للدول العربية المتحررة تجربة هامة مفيدة فى هذا الصدد مع الشركات الاستعمارية

ان القطاع العام التابع للدولة والمتحرر من كل نفوذ أجنبى لا يخلق القاعدة الاساسية للنهضة الاقتصادية ولا يوفر الاستقلال الاقتصادى فقط ، بل ويخلق الشروط الاقتصادية للسير فى طريق التطور غير الرأسمالى . فى البلدان التى وجدت فيها طبقة رأسمالية متطورة نسبيا أمكن السير فى طريق التطور غير الرأسمالى بالقيام بحملة من التأميم . اما فى اليمن حيث لا توجد مثل هذه الطبقة وحيث امكانيات نموها محدودة نظرا لتأخر نشوئها ولقلة رأسمالها ولطبيعة الفترة التاريخية التى أخذت تنمو فيها فان الاساس الذى سيتكون منه وسيستند اليه القطاع

العام والذى يمكن الانطلاق منه فى طريق التطور غير الرأسمالى لن يكون التأميم ، وانما بالدرجة الاولى خلق قاعدة اقتصادية واقتصاد وطنى عن طريق الدولة خلقا من الاساس . ولهذا فقد يتأخر لحاق اليمن بالدول العربية التى قطعت طريق التطور غير الرأسمالى

يقول قائد الثورة العربية محددا دور الرأسمال الخاص فى البلدان المتخلفة :

« ان رأس المال فى تطوره الطبيعى فى البلاد التى ارغمت على التخلف لم يعد قادرا على أن يقود الانطلاق الاقتصادى فى زمن نمت فيه الاحتكارات الرأسمالية الكبرى فى البلدان المتقدمة اعتمادا على استغلال موارد الثروة فى المستعمرات ..

« أن نمو الاحتكارات العالمية الضخم لم يترك الا سبيلين للرأسمالية المحلية فى البلاد المتطلعة الى التقدم:

أولها — أنها لم تعد قادرة على المنافسة الا من وراء أسوار الحمايات الجمركية العالية التى تدفعها الجماهير ..

وثانيهما — أن الامل الوحيد لها فى النمو هو أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية ، وتقتفى أثرها ، وتتحول الى ذيل لها ، وتجر أوطانها الى هذه الهاوية الخطيرة ..

ومن ناحية أخرى فان اتساع مسافة التخلف فى العالم بين السابقين ، وبين الذين يحاولون اللحاق بهم لم تعد تسمح بأن يترك منهاج التقدم للجهود الفردية العفوية التى لا يحركها غير دافع الربح الانانى

ان هذه الجهود بالتأكيد لم تعد قادرة على مواجهة

التحدى ، ان مواجهة التحدى لا يمكن أن تتم الا بثلاثة شروط :

١ ــ وضع كل خبرات العلم الحديث فى خدمة استثمار هذه المدخرات

٢ ــ تجميع المدخرات الوطنية

٣ ــ وضع تخطيط شامل لعملية الانتاج

ثم يدعو الرائد العربى من أجل النهوض الاقتصادى السريع ومن أجل السير فى طريق التطور غير الرأسمالى الى أمرين :

« أولهما ــ خلق قطاع عام وقادر يقود التقدم فى جميع المجالات ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية

ثانيهما ــ وجود قطاع خاص يشارك فى التنمية فى اطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال . على أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين مسيطرة عليهما معا . »

ليس هناك ما يدعو للشك فى أن اليمن فى ظل الثورة لن تسير فى غير هذا الطريق التاريخى ، طريق التطور غير الرأسمالى . ان ظروف اليمن الداخلية والظروف العربية المحيطة والمؤثرة بطبيعتها التقدمية على اتجاه

التطور فى اليمن ، وطبيعة الحقبة التاريخية المعاشة ، تلك كلها عوامل تصنع امكانية تخطى مرحلة الرأسمالية فى اليمن ، وتحتم ضرورة السير فى طريق التطور غير الرأسمالى

مجلس الشورى والديموقراطية

سبقت الاشارة فى مكان سابق الى أن الثورة أسقطت نظام الحكم المطلق وأعادت للصيغة الاسلامية المتعلقة بالحكم اعتبارها والداعية الى أن يكون الامر شورى بين الناس ، كما حملت الثورة معها مبدأ « الشعب مصدر السلطات »

وقد نص الدستور على حق الشعب اليمنى فى انتخاب ممثلين عنه فى مجلس الشورى غير أن انتخاب مثل هذا المجلس لا ينبغى أن يكون مجرد استمرار شكلى لمجالس الشورى فى الدولة اليمنية القديمة ، أو مجرد احياء لتقليد ايجابى فى تاريخ الشعب اليمنى ، بل ينبغى أن يكون تجربة ديمقراطية أكبر وأضخم بحكم طبيعة العصر الذى نعيش فيه . واذا كانت مجالس الرأى القديمة لم تكن تضم سوى كبار القوم وذوى الجاه والسلطان فان مجلس الشورى فى عهد الثورة اليمنية الحديثة ينبغى أن يضم جماهير الشعب العريضة التى حرمت من كل حق ديمقراطى

ان الديمقراطية السياسية التى تنبثق عن الثورات

تلعب دوراً هاما فى افساح الطريق أمام الثورة لاحداث تغيير اجتماعى واقتصادى فى المجتمع . ومع ذلك فانه يمكن التأكيد بقوة أن الديمقراطية على النطاق السياسى تظل ناقصة مالم تتحقق على النطاق الاجتماعى اولا . فما لم تتغير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الحالية ، ويحصل الفلاح على الارض ، ويحصل جميع المواطنين على حق العمل والعلم فان الديمقراطية السياسية تظل اطارا يفتقد المضمون

لذلك فان عملية اصلاح اجتماعية واقتصادية ينبغى أن تسبق انتخاب اى مجلس للشورى حتى لا يصبح مثل هذا المجلس فى حالة انتخابه فى ظروف القوى الاجتماعية القائمة حجر عثرة فى طريق أى اجراء أو تغيير ثورى يمس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الحالية

يقول القائد العربى فى الميثاق موضحا العلاقة بين الديمقراطية السياسية والاجتماعية :

« ان حرية رغيف الخبز ضمان لابد منه لحريةتذكرة الانتخابات .. »

وفى مكان آخرمن الميثاق يشرح هذه العلاقة بالتفصيل ويشير الى الشروط التى يمكن بتوافرها ايجاد الديمقراطية بمعناها السياسى والاجتماعى :

« أولا ــ ان الديمقراطية السياسية لا يمكن أنتنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية

ان المواطن لا تكون له حرية التصويت فى الانتخابات الا اذا توافرت له ضمانات ثلاث :

ان يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره

أن تكون له فرصة متكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية

أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته

بهذه الضمانات الثلاث يملك المواطن حـــــريته السياسية ، ويستطيع أن يشارك بصوته فى تشكيل سلطة الدولة التى يرتضى حكمها

ثانيا ـ أن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة من الطبقات ، ان الديمقراطية حتى بمعناها الحرفى هى سلطة الشعب . سلطة مجمـــوع الشعب وسيادته .. »

وبالنسبة لليمن فان أى تمثيل فى الظروف الحـــالية سيحول دون وضع أى خطة سياســـية ، وينسف كل تخطيط ثورى ، ويقضى على كل احتمالات الثورة ، وأى انتخابات مهما كانت نزيهة ودقيقة وتحت الاشراف الكامل فانها لن تأتى الا بوجوه الرجعيـــة من مشايخ الاقطـاع وممثليهم السياسيين والفكريين

ان اقامة مجلس للشـــورى فى ظل الظروف الحالية لا يعنى الا تجميع الرجعية فى أخطر مؤسسات الدولة ، والا اعطاءها مؤسسة تشريعية ، ومنبرا تمثيليا شعبيا تكتسب به حصانة البقاء وتقاوم منه سير الثورة الى الامام وتصدر من خلاله قرارات تشريعية تتحكم بمقتضاها فى جهاز الدولة ، وتعين وتقيل بها الحكومة ، وتمكنها من مصادمة قيـادة الثورة الى آخر ذلك من الاحتمـالات الخطيرة ..

ان اقامة مجلس للشورى مسألة لم ينضج أوانها بعد ، وينبغى التمهيد لها بتحقيق اجراءات ديمقراطية أوليـــة

على النطاق الاجتماعى والاقتصادى والثقافى عن طريــق تغيير التركيب الاقتصادى والاجتماعى الحالى بطابعــــه الاقطاعى القبلى ، وعن طريـــق بث الوعى السيــــاسى والديمقراطى من خلال معاهد التعليم ومؤسسات الاعلام

بذلك يهيأ المناخ الصالح لضمان صحة وســـــلامة وثورية اى تمثيل شعبى



التنظيم الشعبي

ان شدة القهر والاضطهاد والكبت السياسي الذيمارسه الائمة ضد الشعب لم تتح امكانية نشوء تنظيمات سياسية في البلاد ٠ وان كانت قد أوجدت حركة معارضة اتخذت من عدن والقاهرة مراكز أساسية لنشاطها

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظهرت المعارضةاشبه ما تكون بحزب سياسي ، الا ان هذا الحزب لافتقاده مقومات الحزب الكاملة من برنامج سياسي واضح ، ولائحة داخلية ، ونظام للعضوية وللانضباط الحزبي ، وماعدا ذلك اخذ يتمزق بفعل هذا كله من الداخل ، وتعصف به الاحداث السياسية المتلاحقة التي حولته الى جماعات صغيرة مختلفة الاتجاه والرأي

وهكذا انفجرت الثورة اليمنية بقوة الضغط الهائلة ، وبارادة التغيير المستبسلة للشعب اليمني دون تنظيم سياسي قادر على مواجهة تبعات الثورة ومشاكلها، ودون منهاج سياسي يقود خطى الثورة في خضم المشاكل المزمنة والمعقدة

لهذا تبرز قضية ايجاد تنظيم سياسي في البلاد بمنهاج

للعمل الثورى باعتبارها قضية الثورة التى يتوقف عليها سيرها فى طريق التغيير الاجتماعى والاقتصادى الشامل والواعى . ان أهمية التنظيم الشعبى تكمن فى انه سيكون الجهاز السياسى المنظم الذى يتولى عملية تحريك الدفع الثورى ، ومتابعة التقدم به الى الامام ، والذى يستطيع أن يتحسس مطالب الجماهير عن كثب ، ويعبر عنها بنقلها الى الاجهزة التنفيذية ، ويتعاون معها على حلها. والتنظيم الشعبى يسبغى أن يكون خاصا بالجماهير الشعبية ذات المصلحة فى الثورة من فلاحين ومثقفين وتجار ، وجنود

وعن فهم وتجربة تحدث القائد العربى فى الميثاق قائلا :

« ان التنظيمات الشعبية السياسية التى تقوم بالانتخاب الحر المباشر لابد لها ان تمثل بحق وبعدل القوى المكونة للاغلبية ، وهى القوى التى طال استغلالها، والتى هى صاحبة مصلحة عميقة فى الثورة ، كما أنها الطبيعة الوعاء الذى يختزن طاقات ثورية دافعة وعميقة بفعل معاناتها للحرمان • ان ذلك فضلا عما فيه من حق وعدل باعتباره تمثيلا للاغلبية ضمان أكيد لقوة الدفع الثورى نابعة من مصادرها الطبيعية »

ان خلق تنظيم شعبى فى اليمن يقتضى ايجاد تعاونيات للفلاحين ، ومنظمة عامة للشباب ، واتحادا عاما لنقابات العمال ، واتحادا عاما للفلاحين ، واتحادا عاما للموظفين والمعلمين وهكذا دواليك

ان هذه التنظيمات تشكل روافد تصب فى التنظيم الشعبى ، واجنحة جانبية له . ان كل فرد من المواطنين سيتمكن من الانتساب الى التنظيم الشعبى عن طريق

الوحدة الاساسية التى يتبعها ويتم تشكيلها فى منطقــة عمــله

ان ضرورة خلق القواعد الشعبية المنظمة التى منهــا يتشكل الجهاز الكلى للتنظيم الشعبى تتمثل فى انهــا أسهل طريق لايجاد التنظيم فى عموم اليمن ،ولان كل قاعدة من هذه القواعد تكون أقدر على معرفة المشاكل الخاصة بها ولانها ستشكل همزة الوصل بين قاعدة التنظيم وقمته

ان الوصول الى فهم سليم وحلول سليمة لمشــاكل الجماهير لن يتم على النحو الافضل الا عن طريق القواعد الشعبية المنظمة . وفضلا عن ذلك فان هذا هو الطريق الديمقراطى الذى نضمن به حقوق الجماهير فى نقل وحل مشاكلها ، ومشاركتها فى توجيه وقيادة العمــل الوطنى بمجموعه ، وتهيئة الفرص أمامها لانضــاج عناصر قيادية تتقدم لأخذ أماكنها فى القمة

يقول قائد الثورة العربية فى الميثاق :

« ان التنظيمات الشعبية ، وخصوصــا التنظيمات التعاونية تستطيع أن تقوم بدور مؤثر فعال فى التمكين للديمقراطية السليمة .. ان هذه التنظيمات لابد ان تكون قوى متقدمة فى ميادين العمل الوطنى الديمقراطى ، وان نمو الحركة التعاونية والنقابية معين لا ينضب للقيادات الواعية التي تلمس بأصابعها مباشرة اعصاب الجماهير ، وتشعر بقوة نبضها »

ان البلدان المتقدمة التى عرفت الصراع الحاد بين طبقاتها ذات المصالح المتناقضة قد عرفت النظام الحزبى حيث يمثل كل حزب مصلحة هذه الطبقة او تلك

ان اليمن كبلد متخلف زراعيا وصناعيا ، وكشــعب

اضطهدت كل طبقاته وفئاته باستثناء طبقة الاقطاعيين لا يتحمل النظام الحزبي

وليس صدفة ان كثيرا من البلدان المتخلفة قد تنكبت السير في هذا الطريق وأخذت بنظام الحزب الواحد ، أو التنظيم الشعبي الموحد الذي يجمع كل الجماهير الشعبية التي كانت مضطهدة من أجل تعبئتها مجتمعة للقضاء على التخلف المزمن ، ومن أجل التصدي لمشاكل التنمية والتطوير ، ومواجهة الرجعية والاستعمار

ان الذي يجمع بين هذه الطبقات الشعبية والفئات الوطنية ليس واقع أنها كلها كانت مضطهدة فقط ، وانما أيضا التقاؤها الموضوعي على هدف عام مشترك

ان ذلك لا ينفي وجود تناقضات بين هذه الطبقات والفئات غير ان هذه التناقضات تعتبر ثانوية وغير رئيسية على الاقل لمرحلة ، وفي الامكان حلها سلميا من خلال النضال المشترك وبالتدريج ، بل وفي الامكان الحيلولة دون اشتداد هذه التناقضات ، وكسر حدتها باجراءات ثورية في اللحظة المناسبة

ان الشعوب العربية المتحررة لم تأخذ بنظام التنظيم الشعبي الواحد ، أو الحزب الواحد من باب الصدفة أو تنفيذا لارادة عليا . ان ذلك في الواقع حصيلة طبيعية لتجارب النضال السياسي والحزبي لعشرات السنين ، وانعكاس لطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان ، وضرورة سياسية لحل المهام السياسية الكبرى التي يطرحها النضال العربي في التحرر من الاستعمار والرجعية والاقطاعية ، ومن أجل السير في طريق التطور الوطني الديمقراطي وطريق التطور غير الراسمالي ، والانتقال الى الاشتراكية

ان الشعارات الرئيسية التى تلخص مستقبل النضال العربى كله ، الا وهى التحرر الوطنى ، والاشـــتراكية الديمقراطية ، والوحدة القومية لايمكن أن ينهض بها فى كل بلد عربى على حدة الا تنظيم شعبى شامل لكل قـــوى الشعب الوطنية الوحدوية الاشـــــتراكية ، ولا يمكن ان تنهض بها الا حركة عربية واحدة تجمع كل التنظيمات الشعبية العربية المؤمنة بالتحرر والاشتراكية والوحدة

وبالنسبة لليمن فانه من الطبيعى والحتمى ان ينهض فيها تنظيم شعبى واحد يجمع كل قوى الشعب الوطنية والشعبية والتقدمية ، وفى أطاره يمكن ممارسة النقـــد والنقد الذاتى ، والتمتع بكافة الحقوق الوطنية الديمقراطية من نقد الاخطاء فى جهاز الحكم وتوجيهه الى الوقوف ضد تسلل الرجعية الى الحكم أو التنظيم الشعبى نفسه

ان تحريك الجماهير للعمل الثورى يتطلب تبصـــير هذه الجماهير بمصالحها وحقوقها ، واستثــارة هممها لتحقيق هذه المصالح وهذه الحقوق . ان الثورة حـــق الجماهير ، وواجب الجماهير ليس هو الحفاظ على هـــذا الحق فحسب ، بل وترجمته الى منجزات مادية وروحية تحقق سعادتها

لهذا ينبغى الابتعاد عن الاسلوب الميتافيزيقى والديماجوجى فى الدعاية للثورة وعن أسلوب اثارة حماس الجماهير على غير طائل ، أن قيمة مثل هذا الاسلوب وقتية ، ولا تخلف فى أذهان الجماهير الا رؤى شاحبة غامضة .. ان ربط الجماهير الشعبية بالثورة لا يكون عن طريق شد معنوياتها الى الثورة فحسب ، وانما أيضا عن طريق تلبية حاجاتهـا المادية بالثورة . واذا ما وعت الجماهير مصـــلحتها فى الثورة أصبحت قوتها الدافعة التى لا تغلب ولا تضلل .

واذا ما انقشعت من أمامها السحب ووضحت أمامها الرؤية ، وعرفت حركة التاريخ واتجاه التطور وارتبط نضالها اليومى بأهداف المستقبل فانها ستتمكن حينئذ من تخطى كل العقبات وصنع المعجزات

والجماهير الشعبية هى صانعة التاريخ وصانعة الابطال وقيمة البطل تكمن فى أنه فهم حركة المجتمع ووضع نفسه على قيادتها ، وفهم احتياجات الجماهير وتقدمها لتحقيقها

لذلك ينبغى أن تكون أهداف الثورة واضحة كل الوضوح أمام الشعب ، والشعب يملك من الطاقات الثورية ما يمكنه من تحقيقها

وعلى التنظيم الشعبى أن يعزل من صفوفه أولئك الذين قد يتسللون اليه ، ويتسلمون مراكز قيادية فيه ، ويحاولون تسخيره لاهدافهم الطبقية ، ومصالحهم الضيقة ، والذين قد يتصورون ان فى امكانهم تحويل الثورة الى امتياز خاص بهم أو يأملون أن يكونوا ورثة العهد البائد

ان على الجماهير أن تكون يقظة ازاء هؤلاء وأن تقصيهم من ميدان العمل الوطنى فور تكشف نشاطهم المعادى او المخرب للثورة ، أو المستهدف تحويلها عن طريقها الثورى

وهذه الدراسة تحاول ان توضح أهداف الثورة وترسم نهجها الوطنى مسترشدة فى ذلك بطبيعة الثورة الاجتماعية والسياسية . انها محاولة لاستبصار طريق الثورة موضوعة للمناقشة وقابلة للنقد والتطوير والتعميق ، انها دعوة لوضع منهاج وطنى للثورة

وأى منهاج او ميثاق وطنى مهما روعى فيه أن يكون معبرا عن مطالب الجماهير وعن أيديولوجيتها الثورية فانه بانتقاله الى ميدان التطبيق العملى بين يدى الجماهير

ووضعه تحت ممارستها يزداد عمقا وخصوبة ، وتكسبه الجماهير ذخيرة جديدة من تجاربها المفيدة

ومهمة واضعي النظريات السياسية أن يقوموا بجمع واستقراء تجارب الجماهير الجزئية والمتنوعة في محاولة لتعميمها واضافتها الى المنهاج الوطني

فالمنهاج او الميثاق الوطني نظرة سياسية متفتحة على حقل التجربة تستمد منها اضافات نظرية ، وعمقا وأبعادا جديدة باستمرار

وهذه الدراسة التي نقدمها هنا لا تستوعب غير حقبة تاريخية بعينها وهي مرحلة انتقال المجتمع اليمني من مجتمع اقطاعي ـ قبلي الى مجتمع يسير في طريق التطور الوطني الديمقراطي غير الرأسمالي ، فهي تحاول أن ترسم سبيل الثورة اليمنية خلال فترة الانتقال الواقعة مابين الاقطاعية والاشتراكية ، وهي أشبه ما تكون بجسر نظري للثورة يمتد الى المستقبل عبر مرحلة ركود التطور الاقطاعية الى مرحلة الانطلاق الوطنية الديمقراطية

وعلى ضوء المنهاج الوطني وتحت قيادة تنظيم شعبي يعيه ويجسده ويطبقه يستطيع الشعب اليمني أن يقطع مرحلة الانتقال التاريخية ، من المجتمع الاقطاعي الراكد الجامد الى المجتمع المتحرر والمزدهر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا

الطائفية والعنصرية ظاهرة اقطاعية

الطائفية والعنصرية ظاهرة ملازمة للمجتمع الطبقي القائم على الاستغلال ، ايا كان نوع هذا المجتمع الطبقي ،

ولا تختفي الطائفية والعنصرية نهائيا في أي بلدمن البلدان الا بالقضاء على الوضع الطبقي الذي نشأت في حضنه ، وظاهرتا الطائفية والعنصرية في اليمن نشأتا مع نشوء المجتمع الاقطاعي وفي احضانه

فعندما دخل الدين الاسلامي ، دين التوحيد الى اليمن كان الناس قد انقسموا الى طبقات ، وكان المجتمع الاقطاعي قد أخذ يتكون ، ومدارس الاجتهاد الاسلامية التي نشأت في الجزيرة العربية وفي غيرها من الاقطار العربية لقيت أتباعها في كل مكان ، غير ان الامور لم تقف عند حد الخلاف الفقهي النظري ، بل تطورت الى نزاع طائفي ، فاتباع هذه المدرسة الفقهية او تلك أصبحوا يشكلون طائفة اسلامية لا تدين بغير تعاليم مدرستها واجتهاداتها

وقد كان حظ اليمن من هذا النزاع الطائفي كبيرا ، فالامراء الاقطاعيون الذين كانوا يختصمون فيما بينهم على حكم اليمن والذين أخذوا بتعاليم هذه المدرسة او تلك صبغوا صراعهم السياسي من أجل الحكم بصبغة مذهبية طائفية ، وظهروا كما لو كانوا يجاهدون من أجل تعاليم الدين الصحيحة . وهكذا أصبحت اليمن مسرحا لحروب أهلية طاحنة ذات صبغة طائفية مذهبية يقودها أمراء اقطاعيون بغرض الانفراد بحكم اليمن

من هنا فان الصراع المذهبي كان يعكس في واقع الامر صراعا سياسيا بين أمراء الاقطاع ، كان صراعا مذهبيا في الظاهر ، وصراعا سياسيا في الواقع . وأصبح اتباع كل طائفة أشبه بجيش يقوده هذا الامير الاقطاعي أو ذاك للوصول به الى الحكم

واصطبغ تاريخ اليمن الاسلامي بصبغة دامية محزنة نتيجة الحروب الاهلية ـ الطائفية اشباعا لمطامع أمراء

الاقطاع المتصارعين . تحت هذه الظروف السياسية وفى أحضان المجتمع الاقطاعي اليمنى نشأت ظاهرة الطائفيةفى اليمن ، فهى لهذا ظاهرة اقطاعية وليدة الصراع بين الامراء الاقطاعيين وليست وليدة الدين .. فالدين الاسلامى كما جاء به محمد النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا للتوحيد فى كل شيء . غير أنه منذ خرج من شمال الجزيرة الى مجتمعات كانت قد انقسمت الى طبقات وشرعت تتكون فيها ظروف اقطاعية كاليمن أخذ يتفرع الى مدارس فقهية، ولم يعد المسلمون يشكلون كما في عهد الخلافة الاول اتباع عقيدة واحدة فقط ، بل أيضا اتباع طوائف متعددة ، كالشوافع ، والخوارج ، والاسماعيليين وغيرها

اما اليمن فقد كان حظها أكبر من هذه الطوائف حيث نشأت فيها بالاضافة الى الطوائف السابقة الذكر طائفة الزيود ..

واذا فنشوء الطوائف لا يعود الى الدين الاسلامى فى ذاته ، فهو قد دعا الى وحدة المعتقد ، وانما يعود الى ظروف طبقية واجتماعية وسياسية ، الا وهى الظروف الاقطاعية التى أخذت تتكون تاريخيا فى العالم العربى والاسلامى بعد ظهور الاسلام

وعلى ذلك فالنزاع الطائفى لم يكن فى الواقع الا نزاعا اقطاعيا ، والتعاليم المذهبية المتناقضة - بقطع النظر عن طقوس العبادة - لم تكن الا انعكاسا للمصالح الاقطاعية المتناقضة . لقد لبست أهداف الامراء الاقطاعيين السياسيين ثوبا من التعاليم المذهبية

كذلك فان النزاع العنصرى بين القحطانية والعدنانية الذى لم تعرفه اليمن وحدها ، بل انتشر فى اقطار اخرى من العالم الاسلامى لم يكن هو ايضا الا صورة للنزاع القائم بين

امراء الاقطاع من أجل الحكم

فالقائد القادم من شمال الجزيرة العربية الى دمشق أو بغداد أو المغرب كان يستثير فى أبناء شمال الجزيرة روح العدنانية من أجل مساندته فى الوصول الى الحكم

والقائد اليمنى القادم من جنوب الجزيرة العربيـــة الى هذه الاقطار العربية الانفة الذكر أو غيرها كان يستثير فى اليمنيين روح القحطانية من اجل تقوية مركزه فى الصراع السياسى ومن أجل بلوغ السلطة . وليس هنـــاك بلد عربى أو اسلامى الا وعانى من هذا النزاع العنصرى بهـذا القدر أو ذاك . لقد كان نزاع القحطانية والعدنانية العنصرى يخفى صراعا سياسيا على الحكم بين أمراء الاقطاع . ولم يكن النزاع العنصرى الا ثوبا شفافا لحقيقة اجتماعيـــة وسياسية هى النزاع على السلطة . لقد كانت العنصرية هى الاخرى ظاهرة اقطاعية ، وليدة المجتمع الاقطاعى فى اليمن وخارج اليمن

وقد أخذت روح الطائفية والعنصرية تختفى من الاقطار العربية الاخرى لتحل محلها روح الوطنية ، وروح النضال ضد الاستعمار التركى والاستعمار الغربى والرجعيـــة العربية المتعاونة معه

أما فى اليمن فقد كانت حركة النضال ضد الاحتـــلال العثمانى مقسمة حسب الوضع الطائفى ، والتجــــزئة الاقطاعية

وأكثر من ذلك فان النزاع بين الامامين الاقطاعيين ، الامام يحيى حميد الدين ، والامام محمد على الادريسى بسبب تهامة اليمن قد اكتسب طابعا طائفيا . وفوق هذا كله فقد أقام الامام يحيى دولته على أساس طائفى عنصرى

ونظرا لان شمال اليمن لم يبتل بالاستعمار الغربى الذى بليت به الشعوب العربية الاخرى فقد تأخر نشوء روح وطنية فيه تحل محل الروح الطائفية والعنصرية . وفى ظل الحكم الاقطاعى الطائفى العنصرى ، وخلف جدار العزلة الرهيب لم يكن الناس يجترون ويتنفسون غير سموم الطائفية والعنصرية

وهكذا فان دولة الائمة قد ساهمت بقسط كبير فى تثبيت النظام الطائفى العنصرى وفى اشاعة روح طائفية عنصرية فى اليمن

غير أن الثورة اليمنية قد وجهت ضربة ساحقة الى نظام الامامة ، وقضت بذلك على التحكم الطائفى العنصرى الذى كان يمارسه الأئمة ، وساوى الدستور اليمنى بين المواطنين جميعا فى الحقوق والواجبات

تلك خطوة سياسية هامة فى طريق القضاء على الطائفية والعنصرية فى اليمن . الا ان القضاء النهائى على هذا الواقع لن يتم الا بالقضاء على الوضع الاقطاعى الذى اوجد هذه الظاهرة . وطالما ظل التركيب الاقتصادى والاجتماعى الحالى بطابعه الاقطاعى ـ القبلى فان ظاهرة الطائفية والعنصرية ستبقى قائمة

ان ضرب طبقة الاقطاع التي تتشكل من زيديين ، وشوافع ، واسماعيليين وقحطانيين وعدنانيين سيظهر جليا ان الامر يتعلق بثورة وطنية لا تفرق بين أحد بسبب نسبه أو مذهبه ، وأن المقياس الذى تأخذ به هو التفريق بين طبقة مستغلة وطبقة غير مستغلة ، بين فلاح فقير وشيخ اقطاعى ، بين الشعب العامل والاقطاع الطفيلي

ان أحداث ثورة زراعية تغير طابع العلاقات بين الناس

سيظهر ان هناك مصلحة مشتركة بين الفلاحين جميعهم فى السهل والجبل ، فى الشمال والجنوب ، وأن هناك وحدة معنوية تجمعهم جميعا ، بينما سيظهر أن الخصم الذى يستحق العداء هو الشيخ الاقطاعى الذى يأبى التنازل عن امتيازاته لصالح الشعب

كذلك فان اقامة مشاريع زراعية وصناعية تجتذب الناس من كل مكان فى اليمن ، ويعملون فيها سويا كفيلة بانشاء وتنمية علاقات جديدة تختفى فيها الطائفية والعنصرية تماما

فالعمال اليمنيون فى مصافى البترول فى عدن ، وفى القاعدة العسكرية البريطانية مثلا ، والذين ينتسبون الى هذه الطائفة أو تلك والى هذا العنصر أو ذاك قد نشأت بينهم علاقات جديدة حلت محل التعصب للطائفة أو العنصر ، علاقات من التضامن الطبقى، والمصلحة المشتركة، والكفاح المشترك ، والاخوة المتبادلة ، كما أن اقامة تنظيم شعبى يجمع كل المواطنين الثوريين من فلاحين ، وعمال وتجار ومثقفين كفيل بأن يصبح بوتقة وطنية تنصهر فيها الطائفية والعنصرية وتتشكل وتنضج فيها الوحدة الوطنية

وبالاضافة الى ذلك فان التوعية الوطنية والشعبية : وانطلاق الحركة الديمقراطية الثورية ستلعب دوراهامافى القضاء على مشاعر التعصب الطائفى والعنصرى

وخلال العمل من أجل انجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، وخلال عملية التغيير الثورية ستتلاشى نهائيا بقايا الطائفية والعنصرية وستنمو وتتصلب وحدة الشعب الوطنية

ذلك قانون اجتماعى لابد ان يفرض نفسه فى اليمن كما فرض نفسه فى غيرها من البلدان

التنظيم الشعبي ظاهرة تاريخية جديدة

ربما كان طرح قضية التنظيم الشعبى ومعالجتها من قبل المثقفين من الامور الملحة والراهنة ، ليس لان قضية التظيم الشعبى تعد قضية الساعة بالنسبة لثورتنا اليمنية فحسب وانما لان هذه المسألة تسحب نفسها أيضا على مستقبل النضال السياسى العربى ، بل وتمتد لتشـــمل الدول الوطنية حديثة الاستقلال

ان الاتجاه الى اقامة تنظيم شعبى واحـــد أمر لم تمله رغبات فرد أو أفراد فى فرض ديكتاتورية الحزب الواحد واذا كان ذلك جائزا بالنسبة للبلدان التى عرفت النظــام الفاشيستى فان ذلك غير وارد بالنسبة للبلدان النامية الحديثة التى لا تبرر ظروفها الاقتصادية والاجتماعية ظهور مثل هذا النظام

لقد ظهر النظام الحزبى أساسا فى الدول الصناعيـــة المتطورة حيث نشأت طبقات رأسمالية قوية ، ومعهــــا نشأت طبقات عمالية قوية أيضا • ومن هنا تكونت أحزاب سياسية منظمة تنظيما عاليا تمثل الطبقات الرأسمالية ، أو الطبقات العاملة ، وأكثر من ذلك ، فقد عرفت هـــذه البلدان أكثر من حزب واحد للطبقة الواحدة ، حيث كانت هذه الاحزاب تمثل مصالح هذه الفئة أو تلك من الطبقات الرأسمالية أو العمالية ، ففى أمريكا مثلا يوجد الحزب الديمقراطي والحزب الجمهورى ، وكلاهما يمثل الطبقـة الرأسمالية الاحتكارية ، الا أن الحزب الديمقــــراطى يمثل مصالح قطاع من هذه الطبقة ، وهو القطاع اليمينى ، بينما يمثل الحزب الجمهورى ذلك القطاع اليمينى المتطرف

كما أننا نشاهد فى بريطانيا حزب العمال ، والحـــزب الشيوعى ، وكلاهما يقول انه يمثل الطبقة العاملة الا أن قيادة حزب العمال تمثل فى واقع الامر الجزء الاعـــلى الارســـتقراطى و «المتبرجز» من الطبقة العاملة والذى تجمعه بالرأسمالية ، وبالاستعمار وبالذات الاستعمار الجديد مصالح مزدوجة وقوية .

وخلال الصراع السياسى الذى شنته الطبقات العاملة بدعم من جماهير الفلاحين وغيرهم من فئات الشعب الكادحة ضد البرجوازية الحاكمة والمتسلطة استطاعت الطبقــات العمالية وغيرها من الجماهير الشـــعبية أن تكون أحزابا سياسية تمثل مصالحها وتنظم نشاطها السياسى ، فنشــأ نتيجة لذلك ما نسميه اليوم بالنظام الحزبى كتعبير عن الديمقراطية البرجوازية

الا أن الديمقراطية البرجوازية كثيرا ما كانت تتعرض لازمات سياسية فى فترات التسلط الفاشى حين كانت تجمح الفئات العليا اليمينية المتطرفة من البرجوازية الاحتكارية نتيجة أزمات الرأسمالية العامة ونتيجة صراعها المتوحش على الاسواق العالمية فتطلق العنان لديكتاتوريتهـــا وتلغى المؤسسات الديمقراطية والاحزاب السياسية المعارضـــة ، وتشيع الارهاب الدموى الطبقى والعنصرى فى الداخــل وتنساق وراء مطامحها التوسعية ، ومغامراتها الجنونيــة فى الخارج

***

من هذه المقدمة السريعة واللازمة عن النظام الحزبى ، والديمقراطية البورجوازية يتضح جليا أن هاتين الظاهرتين المتلازمتين كانتا نتاج وضع طبقى رأسمالى متطور ، نتاج وجود طبقات رأسمالية وعمالية قوية ، ونتاج تناقض حاد

بين مصالح الطبقات الرأسمالية من جهة ، ومصالح الطبقات العاملة من جهة أخرى • وفى مثل هذا الوضع كان من الطبيعى أن تقوم سياسة وايديولوجية الطبقة العاملة على أساس اسقاط حكم ديكتاتورية الرأسمالية الاحتكارية المستغلة ، واقامة حكم ديكتاتورية البروليتاريا محله • وقد نجحت الطبقة العاملة فعلا فى بعض البلدان المتطورة صناعيا وأقامت على أنقاض ديكتاتورية الرأسمالية ديكتاتورية البروليتاريا

عند هذه النقطة من الحديث يمكن التوقف لطرح السؤال التالى :

هل النظام الحزبى هو الشكل الصالح للعمل السياسى الديمقراطى بالنسبة للبلدان النامية ؟

ان الاجابة على هذا السؤال بالنفى أو بالايجاب قد تبدو محرجة فى البداية ، غير أن استعراض الوضع التاريخى ، والحالة الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية للبلدان النامية كفيل بتحديد الاجابة الصحيحة •

لقد وجدت الشعوب الاسيوية والافريقية ، والامريكية اللاتينية نفسها منذ القرن التاسع عشر وقد تحولت الى مستعمرات أو شبه مستعمرات أو تابعة • وخلال السيطرة الاستعمارية عليها لم يكن فى الامكان نشوء برجوازية قوية فى بلدانها ، وبالتالى لم يكن فى الامكان نشوء طبقات عاملة قوية ، ذلك لان هذه البلدان لم تكن أكثر من أسواق لبيع المنتجات الاستعمارية ، ومواد خام طبيعية ، وقوى عمل بشرية رخيصة للدول الاستعمارية المتسلطة

من هنا انخرطت كل طبقات الشعب بما فيها البورجوازية الوطنية الاخذة فى النشوء فى تيار النضال الوطنى ضد السلطة الاستعمارية • ورغم المواقف المتذبذبة والمتراخية

التى كانت تبديها أحيانا بورجوازية المناطق المستعمرة خلال النضال ، ولاسيما الجزء الكومبرادورى منها ، الا أنهـــا كانت من حيث الاساس تلعب دورا وطنيا هاما ، بخلاف طبقة الاقطاع التى كانت غالبا مرتبطة بالحكم الاستعمارى . وبحكم الوضع الطبقى والرأسمالى الناشىء وبحكم التفاعل مع الاوضاع الحزبية داخل بلدان الدول الاستعمارية أمكن نشوء أحزاب مختلفة فى المناطق المستعمرة . الا انه نظرا لوقوع كل الطبقات والاحزاب تحت نير القهر الاستعمارى ونظرا لان التناقضات بين هذه الطبقات والاحزاب كانت ما تزال ثانوية بينما تظاهر التناقض الرئيسى والعدائى بين كل هذه القوى المضطهدة من جهة ، وبين دولة الاضطهاد الاستعمارية من جهة أخرى فقد شكلت طبقات الشـــعب المستعبدة حلفا وطنيا فيما بينها ، كمـــا دخلت الاحزاب المناضلة فى جبهة وطنية واحدة بهدف شن كفاح حـازم للاطاحة بالحكم الاستعمارى . وفى بعض المستعمرات أمكن أيضا أن تنخرط كل قوى الشعب الوطنية داخل تنظيم عام بما فى ذلك القوى اليسارية كما حدث مثلا بالنسبة لحزب المؤتمر الهندى تحت قيادة نهرو ، وكما حـــدث بالنسبة للجبهة الوطنية « الناســـاكوم » تحت زعامة سوكارنو . لقد خلقت ظروف القهر الاستعمارى حركة تحرير وطنية عامة متحدة ، وساعدت ــ دون قصـــد ــ على اندماج قواها الثورية فى جبهة وطنيـــة ، او فى مؤتمر وطنى ..

غير أن هذه الوحدة الوطنيـــة تفككت على أثر زوال السيطرة الاستعمارية المباشرة وبعد الظفر بالاستقلال . وفى بعض البلدان وبالذات فى تلك التى كانت قد نشأت فيها طبقة بورجوازية قوية نسبيا أمكن للبورجوازية استلام السلطة كما حدث فى الهند مثلا ولم تعد تهتم بغير اقصاء

كل نفوذ لقوى اليسار عليها • وفى بلدان أخرى حيث نشأت طبقة عسكرية رجعية تدعم البورجوازية المنحلة انتكست الوحدة الوطنية والجبهة الوطنية انتكاسة أشد كما حدث ذلك أخيرا فى أندونيسيا • غير أن هذه الانتكاسات مرهونة بظروفها وموقوتة ، ولا تحول على المدى البعيد أو القريب دون حدوث نهوض ثورى جديد ، ودون قيام جبهة وطنية ، أو اتحاد ثورى لقوى الشعب الثورية بما فيها ذلك الجزء الثورى من البورجوازية الصغيرة والوطنية ..

أما هناك حيث كانت البورجوازية ضعيفة نسبيا وحيث شكل الفلاحون والعمال عمود الحركة الوطنية وقيادتها فقد أمكن نشوء جبهة وطنية واحدة دامت حتى بعد الاستقلال وأمكن أن يقوم تحت رايتها حكم وطنى ديمقراطى سرعان ما تطور الى حكم اشتراكى كما حدث مثلا فى الصين الشعبية ،وكوريا وفيتنام الديمقراطية .ورغم ان الحكم الاشتراكى هنا قد قام تحت علم ديكتاتورية البروليتاريا الا أن قاعدته الجماهيرية قد تشكلت أساسا من الفلاحين ، وهذا هو الجديد الذى قدمته الحركة الثورية فى الصين الشعبية ، وفيتنام وكوريا الديمقراطيتين كانعكاس لواقع ظروفها الداخلية وكتعبير عن واقع أنها كانت تسودها نفس الاوضاع العامة التى تسود فى بلدان الشرق الزراعية المتخلفة ..

وذلك هو الفارق الذى يميز تجربة الحكم الديمقراطى والاشتراكى فى الصين الشعبية وفيتنام الديمقراطية وكوريا الديمقراطية عن تجربة الحكم الديمقراطى والاشتراكى فى روسيا وأوروبا الشرقية حيث كانت الطبقة العاملة في هذه البلدان تشكل عمود الحركة

الديمقراطية والاشتراكية نظرا للتطور الصناعى النسبى فيها ولوجود طبقة عاملة أكثر قوة ، وتمركزا ، وتجربة ، وتنظيما ..

لقد نشأ النظام الحزبى فعلا فى كثير من البلدان المتخلفة التى وقعت تحت الحكم الاستعمارى تأثرا بالاوضاع الحزبية فى البلدان الاستعمارية ، وتعبيرا عن وجود طبقات رأسمالية وعمالية ناشئة فى البلدان المستعمرة ، الا أن هذه الظاهرة ذات الاصل الاوربى والغربى لا تعكس فى الواقع عمقا تاريخيا أو اجتماعيا بالنسبة للبلدان الزراعية المتخلفة ولا تشكل ظاهرة تاريخية أصيلة تعبر عن أبعاد واقعها ، ذلك لأنها لا تستند الى واقع اقتصادى واجتماعى يضاهى الواقع الاقتصادى والاجتماعى الغربى بطابعه الصناعى والرأسمالى المتطور والذى يشكل خلفيتها وقاعدتها التى نمت وتطورت عليها • ان ظاهرة النظام الحزبى فى الدول الحديثة أخذت تفسح المجال لظاهرة جديدة أكثر اصالة وصحية وأكثر تعبيرا عن الظروف الموضوعية الخاصة وأكثر صلاحية واستجابة لمتطلبات النضال الوطنى والديمقراطى ، ألا وهى ظاهرة التنظيم السياسى الواحد لكل قوى الشعب الثورية • وبمقدار ما يتلاشى حكم البورجوازية المحلية لصالح حكم الجبهة الوطنية يتلاشي بالتالى وبالتدريج النظام الحزبى ، اذ أن حكم الجبهة الوطنية الذى يتضمن فى نفس الوقت وجود أحزاب متآلفة سيفسح المجال لعملية تاريخية ينصهر خلالها هذا التآلف الحزبى مشكلا فى آخر الامر تنظيما شعبيا واحدا ، أو حزبا شعبيا واحدا ..

ان مثال كوبا التى سقط فيها حكم الاستعمار ، وسقط معه فيها حكم الفئة العميلة من البورجوازية المحلية وحكم

الاقطاع قد برهن ، ليس فقط ، على امكانية تخطى النظام الحزبى ، وايجاد حكم الجبهة الوطنية ، وخلق وضع وطنى ديمقراطى تحت لوائها ، بل وعلى امكانية انصهار كل القوى الثورية وحتى الحزبية منها ضمن بوتقة واحدة ، ضمن حزب ثورى واحد يجر وراءه جماهير عريضة ، ويسير بها وبالبلاد فى طريق تصفية الوضع الرأسمالى الباهت ، وفى طريق اقامة صروح الاشتراكية

ان نشوء تنظيمات شعبية واحدة فى غينيا ومالى وتنزانيا مثلا تستقطب كل قوى الشعب الوطنية بهدف القضاء على التركيب القبلى شبه الاقطاعى ، وللتصدى للاستعمار والاستعمار الجديد ومن أجل السير فى طريق اقامة حكم وطنى ديمقراطى ، وطموحا الى المضى فى طريق بناء الاشتراكية ليقدم دليلا اخر على عدم وجود أرضية خصبة ، أو مناخ طبيعى لبقاء ووجود النظام الحزبى فى القارة الافريقية ..

ان سلوك القارة الافريقية لطريق النضال الوطنى كفيل بأن يصهر بلهبه كل القوى ، ويذيب كل الكتل الثورية فى وحدة نضالية ، وفى جبهة وطنية ، وفى تيار وتنظيم شعبى واحد ، يقودها على طريق التطور الوطنى الديمقراطى وعلى طريق التقدم الاجتماعى . ان نفس التطور فى هذا الاتجاه التاريخى يفرض نفسه ، وربما بفعالية أشد على القارة الاسيوية ، أو على تلك البلدان التى ما تزال تناضل بدأب من أجل تصفية بقايا السلطة الاستعمارية ، والاقطاعية ، وحلفائهما من البورجوازية الكومبرادورية ، ومن أجل اقامة حكم وطنى ديمقراطى

من هذا العرض العام والموجز يمكن لنا أن نستخلص النتائج الآتية :

١ ـ ان ظاهرة التنظيم الشعبي الواحد ظاهرة تاريخية جديدة تخص البلدان النامية وحدها حيث تسود أوضاع طبقية ، وتركيب اقتصادي واجتماعي مختلف كما وكيفا عن أوضاع وتركيب البلدان الرأسمالية التي بلغت مرحلة الاستعمار

٢ ـ ان هذه الظاهرة السياسية والتنظيمية انعكاس للتركيب الطبقي الخاص في البلدان النامية حيث أن العلاقات الزراعية هي العنصر السائد ، وحيث يشكل الفلاحون نتيجة لذلك أوسع وأعرض طبقات المجتمع ، وحيث لم تصل التناقضات بين الطبقة الرأسمالية الناشئة وبين الطبقة العاملة الوليدة الحد الذي بلغته في البلدان الصناعية والرأسمالية المتطورة ، وحيث نسبة القوى بين طبقات الشعب وفئاته الثورية وبين الجزء الاعلى من البرجوازية الاحتكارية والكومبرادورية تميل لصالح القوى الثورية التي تجمعها مصالح مشتركة ، وتوحدها مهمة موضوعية مشتركة

٣ ـ ان جماهير التنظيم السياسي المهيأة موضوعيا وذاتيا للانخراط فيه والتي تجمعها ضمن اطاره مصالح عامة مشتركة هم طبقة الفلاحين والعمال ، وفئة المثقفين الثوريين ، والبورجوازية الصغيرة ، والجناح اليساري والمتوسط من البرجوازية الوطنية . وبالتالي فان هذا التنظيم يستثني بحكم مهمته الموضوعية والتاريخية طبقة الاقطاع ، والبورجوازية اليمينية والاحتكارية والكومبرادورية ، ويجعل من أهدافه العملية القضاء على هذه القوى الرجعية

٤ ـ أن ظاهرة التنظيم الشعبي ما تزال في حالة جنينية ، وفي مرحلة الاختمار والتكون ، وهي كأي ظاهرة اجتماعية

أخرى تمر بمرحلة نشوء ونمو وتطور . ويمكن العثور على جذورها التاريخية فى حقبة النضال الوطنى المشترك الذى سبق عهد الاستقلال ، حيث التحمت فى هـذه الحقبة الوطنية كل القوى الثورية فى جبهة وطنية واحـدة أو فى مؤتمر وطنى واحد ، وتطور هذه الظاهرة عملية تاريخية لم تستكمل مداها بعد

٥ ـ ان التنظيم الشعبى باعتباره تجمعا لقوى الشعب الثورية فى الدول الوطنية حديثة الاستقلال يختلف عن تلك التجمعات أو الجبهات الوطنية التى نشأت فى أوربا خلال الازمات والحروب لمهمة مؤقتة ومحدودة كدرء خطر فاشى ماحق انتهت بعد زواله ، وانما هو حشد وتنظيم لقوى وطنية وديمقراطية من أجل تحقيق مهام استراتيجية بعيدة المدى تتمثل فى انجاز واستكمال الاستقلال السياسى والاقتصادى ، وفى القضاء على الاوضاع القبلية والاقطاعية ، وعلى أوساط البورجوازية الاحتكارية والكومبرادورية ، وفى سلوك طريق التطـور الوطنى الديمقراطى وطريق التطور غير الرأسمالى

٦ ـ أن التنظيم السياسى فى مرحلة عليا من مراحـل تطوره يستلزم اعادة النظر فى بعض تركيباته ونوعياته ، يستلزم صقل بنيته العضوية ، وفرز بعض عنـاصرها المستهلكة والتى لا تستطيع السير الى نهاية الطريق ، ويستلزم تطوير وتعميق أيديولوجيته

٧ ـ أن هذا التنظيم فور استكماله طريق التطـور الوطنى الديمقراطى ودخوله بهـذا البلد أو ذاك مرحلة الانتقال الى الاشتراكية يتطلب ايجاد قيادة سياسية من النوع الاشتراكى الخالص تمثل تحالف العمال والفلاحين داخل التنظيم وتمثل مصالحهما العميقة فى الاشـتراكية ،

وتكفل دراسة وتطبيق قوانين وأساليب التطور الاشتراكى

٨ ـ أنه اذا جاز الا تبنى الاشتراكية فى بعض البلدان المتطورة صناعيا ، رأسماليا وطبقيا الا تحت علم ديكتاتورية البروليتاريا . فان التنظيم الشعبى فى الدول حديثة الاستقلال بقيادته الاشتراكية والعلمية يقدم البديل الذى يمكن به بناء الاشتراكية

٩ ـ أن ظاهرة التنظيم الشعبى كما انها وليدة عوامل داخلية تتمثل فى مجموعه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الخاصة بالبلدان النامية فانها كذلك أيضا نتاج عوامل خارجية عامة أملتها الحقبة التاريخية التى وصل اليها التطور العالمى ، فبلوغ الرأسمالية فى البلدان المتطورة مرحلة الشيخوخة ، مرحلة الاستعمار ، وانهيار النظام الاستعمارى منذ الحرب العالمية الثانية بمقاييس سريعة ، ونهوض نظام اشتراكى عالمى ، واستحالة قيام رأسمالية متطورة فى الدول حديثة الاستقلال ، وضعف وانحلال بعض قطاعات البورجوازية فى البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة ، ونهوض وتطور حركة التحرير الوطنية واتجاه قطاعات واسعة منها الى تبنى مفاهيم الاشتراكية ، وسير العالم فى طريق الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، كل ذلك يشكل المناخ التاريخى الملائم الذى ولدت فى ظله ظاهرة التنظيم الشعبى الواحد لكل قوى الشعب الثورية كصيغة سياسية وتنظيمية تكفل السير بالبلدان النامية فى طريق التطور الوطنى الديمقراطى وفى طريق الاشتراكية

***

والان ما مدى بروز هذه الظاهرة فى بلداننا العربية باعتبارها تنتسب الى الدول النامية حديثة الاستقلال ؟

ليس هناك شك فى أن ملامح هذه الظاهرة هى أوضح وأبرز ما تكون فى بقعتنا العربية التى تخطت اشعاعاتها ومثلها وتجاربها الثورية آسيا وافريقيا الى أمريكا اللاتينية

فبعد الصراعات الحزبية والمريرة بين القوى الوطنية العربية ، ونتيجة للاحتكاك والتفاعل الحاد فيما بينها ، وحصيلة لفترة سياسية من الاختلاف على مفاهيم الوحدة والاشتراكية ، ومن الانقسامات داخل الحزب الواحد ، ومن تمزق التنظيمات الواحدة الى حلقات ، وبفعل الهجوم الاستعمارى على كل القوى التقدمية مستغلا خلافها وتمزقها ونتيجة لبروز التناقض الرئيسى والعدائى بينها مجتمعة من جهة ، وبين القوى الرجعية والاستعمارية مجتمعة من جهة أخرى ، وبفضل وضوح مفاهيم وشعارات الامةالعربية فى الحرية والاشتراكية والوحدة أمكن التفاهم واللقاء أخيرا بين فصائل حركة الثورة العربية ، وظهرت حتمية توحيد القوى التقدمية العربية على النطاق الوطنى والقومى معا

لقد أدركت القوى الثورية العربية كلها أن خطر الصهيونية الداهم والمتفاقم لا تتأتى مواجهته وهى منعزلة عن بعضها ومتفرقة ، كما أدركت أن أخطبوط الاستعمار الذى يلف الوطن العربى ، ويطوق حتى الدول العربية المتحررة فيه لا يمكن سحقه بدون اتحاد كل القوى الثورية ضده ، ولمست أكثر من ذلك أن الرجعية العربية المتحالفة مع الاستعمار والتى تجمعها مع الصهيونية كراهيتها الشديدة لحركة الثورة العربية ليس من السهل التصدى لها بينما جبهة القوى التقدمية منقسمة على نفسها ، واتضح لها فوق ذلك كله أن الرجعية العربية بقيادة الرجعية السعودية قد أخذت تحشد الانظمة الرجعية فى الشرق الاوسط كله فى جبهة واحدة ومن أجل اقامة حلف

رجعى استعمارى تحت ستار الدين وباسم محاربة الالحاد والشيوعية ، وبناء على مخطط استعمارى مدروس تناصره الصهيونية فى محاوله منها لتوجيه ضربات انتحارية لكل القوى والانظمة الثورية المتحررة فى الوطن العربى فى الوقت الذى ظلت فيه تدعو ـ الهاء منها لهـــذه القوى والانظمة الثورية عن نشاطها المحموم ضدها ـ الى ضرورة التمسك بسياسة مؤتمرات القمة وميثاق التضـــامن العربى ..

لقد أضحت قضية وحدة القوى الثورية العربية قضية حياة أو موت ، قضيه دفاع عن النفس ، وعن كيان الثورة العربية ، ومن أجل ضمان بقائها واستمرارها وتطورها .

من هنا يمكن لنا فهم المغزى البعيد لموقف رائد الثورة العربية الملهم الرئيس جمال عبد النـــاصر حين أوقف مؤتمرات القمة العربيـــة ودعا الى وحـــدة العمـــل الثورى العربى ، ووحدة القوى التقدمية العربية ، وحين أكد على ضرورة العمل الدائب من أجل تصفية خلافاتهـا الثانوية تحقيقا لهذه الوحدة ومن أجل مواجهة قوى الرجعية والاستعمار ، والصهيونية وانجاز مهام الثورة العربيـــة الكبرى فى التحرر الوطنى ، والوحدة القومية ،والاشتراكية الديمقراطية ..

فما هو الشكل الذى اتخذته أو يمكن أن تتخذه وحدة القوى التقدمية العربيـــة ؟ ان وحدة القوى الثورية العربية على النطاق القومى تتطلب أولا وحدتهـــا على النطاق الوطنى . فهل تحققت مثل هـــذه الوحدة أو تحقق نموذج لها فى أى من الاقطار العربية وفى أى شكل من الاشكال ؟

ان الاجابة على هـــذا التساؤل قدمتــه فى الواقع

الجمهورية العربية المتحدة فى شـــكل الاتحاد العربى الاشتراكى ..

ان أهمية هذا الشكل التنظيمى تتمثل فى أنه كان أول تنظيم عربى رائد لقوى الشعب الثورية تخطت به الجمهورية العربية المتحدة مرحلة النظام الحزبى ، ونظام الجبهـة المؤتلفة ، وانتقلت به مباشرة عبر الحكم الوطنى الديمقراطى الى مرحلة أكثر تطورا وتقدما ، مرحلة السير فى طريق بناء الاشتراكيه.

ولضمان نجاح هذه المسيرة الجديدة شرعت القيـادة الثورية فى تشكيل حزب أوجهاز سياسى داخل الاتحـاد الاشتراكى العربى من عناصر اشتراكية خالصة تتوفر فيها روح الثورة الاشتراكية ، والعلم بقوانينها وأســاليب تطبيقها

وبذلك أصبح الاتحاد الاشتراكى العربى ممثلا فى قاعدته العريضة لتحالف جماهير الشـعب الغفيرة والثورية من فلاحين ، ومثقفين ، وجنود ، ورأسمالية وطنية بينمـا تمثل فى قمته العليا ، فى جهازه الســياسى الاعلى وفى الاجهزة التمثيلية المنبثقة عنه تحالف العمال والفــلاحين بغالبية مالهما من مقاعد بحكم مصــلحتهما العميقــة والطبيعية فى الاشتراكية ، وبحكم صلاحيتهما للنهوض بدورهما التاريخى والطبيعى فى قيادة الثورة الاشتراكية

وتبرز الدلالة الديمقراطيـــة والتقدمية للاتحـــاد الاشتراكى العربى أكثر فى واقع أن الشيوعيين المصريين أدركوا ذلك ، وأدركـــوا فوق ذلك ضرورة حل حزبهم الشيوعى الذى كان قد انقسم الى أحزاب وكتل مختلفة وأخذوا ينتسبون الى التنظيم الشعبى الجديد بشــكل فردى ، ويمارسون فى اطاره ومن خلاله مـــع غيرهم من

القوى الاشتراكية والشعبية الاخرى حقوقهم الديمقراطية وواجباتهم بالمساهمة فى دفع البلاد فى طريق التقـــدم الاشتراكي فى ظل مبادىء الميثاق والقيم الاساسية للثورة والولاء الكامل لقيادته

من ذلك كله يتضح أن الاتحاد الاشتراكى العربى فى الجمهورية العربية المتحدة بوضعه الحـــالى وقابليـــه تفتحه وتطوره المقبل يعتبر أنضج واعمق تجربة سياسية وتنظيمية ليس بالنسبة للدول العربية فقط وانما بالنسبة لمجموع الدول الوطنية حديثة الاستقلال فى آسيا وأفريقيا، ويعتبر مثلا رائدا بالنسبة لهذه الدول ، ودلالة قوية على الامكانيات الواسعة لنمو وتطور وتكامل ظاهرة التنظيم الشعبى فى البلدان الوطنية الحديثة كظاهرة ســياسية وتنظيمية جديدة

والتنظيم السياسى فى الجمهورية العربيـــة المتحدة بقاعدته الشعبية الواسعة ، وقيادته الاشتراكية الواعية ، وميثاقه الوطنى والعلمى ، وبقابليته للتفتح والتطور أكثر فكريا وتنظيميا يقدم فى الواقع كل الشروط السياسية ، والتنظيمية ، والفكرية اللازمة للانتقـــال من مرحلة الرأسمالية الى الاشتراكية دون حاجة الى ديكتـــاتورية البروليتاريا

ولقـــد كان حزب جبهة التحرير الجزائرية ممثلا بكل القوى الوطنية الديمقراطية والاشـــتراكية التى انخرطت فيه ، وبميثاقه الوطنى والعلمى يمثـــل تجربة سياسية وتنظيمية وفكرية بالغـــة الاهمية والروعة استطاعت بها الجزائر اقامة دولة ديمقراطية وطنيـــة تقدمية بل والسير خطوات فى طريق التقدم الاشتراكى

والثورة الجزائرية تتمتع بحيوية وحرارة تكفل لهـــا

مواجهة كل المشاكل التى تواجهها وصــــهر كل أعراض الخلافات الداخلية فى صفوفها

ان الاتجاه الى اقامة تنظيم شعبى يضم كل القــوى القومية والتقدمية أصبح من قضايا الساعة بالنسبــة للعراق . ولقد كان من الطبيعى أن تكون خطوات العراق فى هــذا الاتجــاه بطيئة وثقيلة نظرا لتقاليده الحزبية القوية نسبيا ، وللصراع المرير الذى نشب بين قــواه الوطنية ولروح الحذر والتحفظ بين فصــائله الثورية ، والنشاط المحموم لقوى الرجعية والاستعمار ، ومحاولاتها المستمرة ابقاء الصدع قائما والجرح داميا بين أجنحــة الحركة الوطنية الديمقراطية هناك .

غير أن سقوط حكومة البزاز واستلام السلطة من قبل حكومة ساعية أكثر الى تحقيق الوحدة الوطنية والديمقراطية بين العرب واخوانهم الاكراد ، ومنفتحــة أكثر على الخط الوطنى والقومى وعاطفــة أكثر على الاتجــاه الديمقراطى والاشتراكى ، وراغبة أكثر فى أفســاح المجال للقوى القومية والتقدمية لاقامة تنظيم شــعبى ولتفاعل حى مع تجربة الاتحاد الاشتراكى فى ج.ع.م ، ومتمسكة أكثر بالقيادة السياسية الموحدة ، ان كل ذلك يخلق الشروط الملائمة لقيام ونمو وتطور تنظيم سياسى فى العراق يستوعب ولو بالتــدريج كل قواه الوطنية ، والقومية ، والاشتراكية ، ويكفل دفع العراق فى طريق التطــور الوطنى الديمقراطى ، وفى طريق التقــدم الاشتراكى

وفى سوريا اليوم حيث تتسلم السلطة فيها حكومة تقدمية نشطة تحطم قواعد الرجعية وعناصر الانفصال ، وتشيع فى أنحاء سوريا جوا مشبعا بالروح الثورية العالية ، وتتجه

بها صوب التعاون مع القوى الثورية فى الداخل ، ومع القوى الثورية على النطاق العربى تتفتح امكانيات خصبة وواسعة لقيام جبهة وطنية تقدمية تجمع كل القوى الثورية ، على أساس من الايمان بوحدة الثورة العربية وأسسها الاشتراكية

***

ويبدو أنه فى بلد كسوريا عرف بتقاليد حزبية متطورة ويحكم بواسطة حزب واحد هو حزب البعث ، ان الشكل الانسب لتوحيد قواه الثورية فى المرحلة الحالية هو انخراط جميع الاحزاب والمنظمات والشخصيات التقدمية فى جبهة وطنية واحدة من أجل اقامة حكم الجبهة الوطنية المؤتلفة ولتقدم سوريا بنجاح فى طريق الاشتراكية ..

ان انكشاف وجود عناصر متآمرة عميلة للاستعمار والرجعية فى صفوف حزب البعث، وأقدام الجناح اليسارى فى الحزب على تصفيتها وتطهير صفوفه منها ، وقبوله بالتعاون مع قوى وحدوية واشتراكية من خارج صفوفه لهو بداية مشجعة للسير فى طريق بناء جبهة وطنية تقدمية تمهد لبناء وتحالف شعبى ينبثق عنه تنظيم واحد لكل القوى الثورية التقدمية .

ان تخلى حزب البعث عن صفة « الحزب القائد » ووضع قواه بحجمها الطبيعى فى مكانها الطبيعى لا يسهل فقط امكانية خلق جبهة وطنية تقدمية ، وانما يساعد أيضا ويشجع على تحويل هذه الجبهة الى تحالف شعبى تذوب فيه وفى حرارة الثقة المتبادلة والكفاح المشترك تدريجيا كل التنظيمات المقفلة والضيقة، وتتفتح بفضله مغاليق الحزبية موسعة الرحاب لقيام اتحاد اشتراكى عربى

ولقيام حزب أو جهاز سياسى قائد لهذا الاتحاد من أكفأ وأخلص وأنضج العناصر الاشتراكية

وبسير سوريا فى هذا الطريق تكون قـــد خلقت كل مقومات الوحدة معها واستفادت من تجارب الماضى وشجعت كل القوى الثـــورية فى الوطن العربى للسير فى هذا الطريق

ان قضية وحدة القوى الثورية قد أخـــذت تفرض نفسها ليس فى الدول العربية المتحررة فقط ، وانما أيضا فى تلك الدول العربية التى ما تزال قواها الوطنية تكافح من أجل خلق حكم وطنى ديمقراطى متحرر

ان انخراط هذه القـــوى فى بلد كلبنان ضمن جبهة وطنية تضم الاحزاب والهيئات والشخصيات القوميـــة والوطنية والتقدمية لمثل مبشر باحتمالات قيام مثل هذه الجبهة فى أقطار عربية أخرى كالمغرب والســودان حيث تتوافر شروط موضوعية وذاتية لذلك

***

ان قيام جبهة وطنية فى الاقطار العربية التى قد نشأت فيهـــا أنظمة حزبية تقدمية يبدو وكأنه الشكل الانسب والخطوة الملائمة للدخول فى عمليات تفاعل نفســـية وسياسية وتنظيمية ينبثق عنها على المـــدى القريب أو البعيد تنظيم شعبى موحد أو اتحاد اشتراكى عربى يجمع كل القوى الثورية داخل كل قطر عربى .

أما هناك حيث لم تنشأ بعد نتيجة التخلف والوضع الاقطاعى ــ القبلى المتأخر أحزاب أو تقاليد حزبية كما هو الحال بالنسبة للجمهورية العربية اليمنية فان الشـكل السياسي الملائم والوحيد لتجميع القوى الثورية هـــو

التنظيم الشعبى الواحد وليس الجبهة الوطنيـــة التى تتضمن وجود أحزاب وتنظيمات قائمة

ان قيام مثل هذا التنظيم فى وطننا الجمهـــورى قد حتمته ظروف بلادنا الداخلية ، وحتمته أيضـــا طبيعة المستوى المتقدم الذى وصل اليه النضـــــال فى الوطن العربى وعلى النطاق الدولى

ان التركيب الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن لايحتمل قيام نظام حزبى ، ولن يساعد مثل هذا النظـــام لو وجد فرضا على دفع حركة الثورة الى أمام . ان قيام تنظيم سياسى واحد هو الامكانية الوحيدة لحشـــد وتعبئة وتنظيم وقيادة جماهير الشـــعب اليمنى خلف ثورته ومن أجل الحفاظ عليهـــــا ، والســـير بها فى طريق التطور والتقدم . ان التنظيم الشعبى الذى كانت الثورة قد دعت الى انشائه يستجيب لمتطلبات العمل الوطنى الثورى ويســـاعد على اذابة رواسب التعصب العنصرى والطائفى ، ويخلق وحدة وطنية وثورية فى البلاد والتنظيم الشعبى بطبيعة مهمته وكما سبق القول لا يعنى تجميع كل السكان دون تمييز فى صعيد واحد ، فهو لايتسع الا لقوى الشعب الثورية ذات المصلحة فى الثورة، ويستبعد كل القوى القديمة التى تتعارض مصـــالحها الطبقية مع طبيعة مهمته التاريخيـــة . ان طبقة المشايخ الاقطاعيين ورؤســـاء القبائل والعشائر هى من هـــذه القوى القديمة . كذلك فان التنظيم الشعبى لا يســمح ولا ينبغى أن يسمح بتســـلل عملاء الاستعمار والرجعية اليه منعا لتخريبها له من الداخل . ان قوى الشـــعب المدعوة موضوعيا للدخول فى هذا التنظيم ، والثورية بحكم مصالحهم وتطلعاتها وان لم تع ذاتها بعد ، ولم تع دورها

التاريخي والتي ينبغى أن يتشكل منها التركيب العضوى لهذا التنظيم تتمثل فى الفـلاحين ، والعمال ، والمثقفين ، والرأسمالية الصـــغيرة • ان الجنـــود الذين ينحدرون أساسا من طبقة الفلاحين يشكلون احدى القوى الثوريه التي ينبغى أن يضمها هذا التنظيم ، وأن اتخذ انتسابها إليه طابعا خاصا . ان مهمة التنظيم الشـعبي التاريخية هي التي تفرض أى الطبقـات والفئات ينبغى أن تنتسب أو تنضم اليه ، وتتمثل هذه المهمة فى ضرورة القضـــاء على التركيب الاقتصـــادي والاجتماعى المتخلف ، وفى التغلب على الوضع القبلي الاقطاعى ، وعلى عـــلاقات الاستغلال الانتاجية ذات الطابع الاقطاعي ، وعلى العصبية القبلية والطائفية والعنصرية ، وتبعية القبيلة للشـــيخ ، وعلى العلاقات القبليه والعشائرية المتخلفة وعلى مجمـــل ملامح النظام الاقطاعى ، وتتمثل هذه المهمة أيضا فى تحرير الفـلاح من عبوديته للارض ، من تبعيته للاقطاعى ، وفى احـــداث ثورة زراعية ، وفى ادخال وســـائل الزراعة الحديثـــة الى الريف ، فى تطبيق الديمقراطية على نطاق الزراعة ، فى أجراء اصلاح زراعى ، كذلك تتمثل هـــذه المهمة فى تحرير الاقتصاد اليمنى والســـوق اليمنى من تبعيته للاحتكارات الاستعمارية البريطانية وفى أيجـــاد اقتصاد وطنى ناهض مستقل عن طريق أقامة المشـــاريع الزراعية والصناعية بواسطة الدولة من أجل اقامة قطاع عام على نطاق الزراعة والصناعة ، وعن طريق تشـــجيع الرأسمال المحلي ودفعه الى توظيف اســـــتثماراته فى مشـــاريع انتاجية ، كما تمتد مهمة التنظيم الى حـــد تعطيل الدور والنشـــاط الذى يقوم به الطاقم الاعلى من البورجوازية التجارية الصغيرة محاولة منها لربط الاقتصاد

اليمني باستمرار بعجلة الاحتكارات الاستعمارية ، وتتمثل مهمته في السير باليمن في طريق التطور الوطني الديمقراطي، وفي طريق التطور غير الرأسمالي ، كما انه يواجه مسئوليه الاسهام في النضال الوطني من أجل تحرير الجنوب اليمنى المحتل من سيطرة الاستعمار البريطاني ، ومن أجل تحقيق وحدة الوطن اليمنى ، وكمنظمه وطنيـــة يضطلع التنظيم أيضا بمسئولية الكفاح ضد الاستعمار والاستعمار الجديد والصهيونية والرجعيـــــة العربية ويسعى الى التعاون مع التنظيمات الشـعبية العربية من أجل تحقيق أهداف الامة العربية فى الحرية السياسية ، والوحـدة القومية ، والتقدم الاجتماعى

***

ان قيام التنظيمات الشعبية فى كل قطر عربى متحرر، وفى كل قطر عربى على الاطلاق هو فى الواقع خطوة حاسمة فى اتجاه أقامة تنظيم شعبى عربى عام ، أو اتحاد أشتراكى عربى شــــامل يتكون منها جميعا ، ويشكل كل تنظيم منها داخل كل قطر عربى فروعا محلية له ، وان نشـــوء أجهزة ســـياسية مدربة ومجربة ، واعية وقيادية على رأس كل تنظيم فى كل قطر عربى هو فى الواقع أيضا شرط أولى ومقدمة لازمة لقيام حزب عربى أو جهاز ســياسى مركزى يتولى القيادة العامة للتنظيم الشعبى العربى أو الاتحاد الاشتراكى العربى على النطاق القومى كله

***

ان السير فى هذا الطريق عملية تاريخية ســتواجه الكثير من الصعاب ، ولكن السير فيها قد بدأ بالفعل ، وهى عملية تاريخية تتضافر كل العوامل الذاتيـــة والموضوعية على انضاجها واستكمالها .

فأنتساب كل القوى الثورية العربية الى أمة عربيـــة واحدة ، وايمانها كلها بأهدافها العامة والكبرى فى الحرية والاشتراكية والوحدة ، ونضالها المستمر والواعى من أجل تحقيقها يشكل الشروط الذاتية لهذه العمليه

كذلك فأن حتمية انتصـــار حركة التحرير الوطنية الديمقراطية على الاستعمار والرجعية والاقطاعيين فى كل قطر عربى ، وحتمية تحقيق الوحـدة العربية تعبيرا عن وجود الامة العربية القومى ، وحتمية الحل الاشـــتراكى على النطاق العربى كله استجابة لحركة التقدم الاجتماعى ولحاجة الجماهير العربية الكادحة الى السعادة والرخاء ، كل ذلك يشكل العوامل الموضوعية للسير فى هذا الاتجاه التاريخى ، اتجاه اقامة تنظيم سياسى شامل وموحـــد لجماهير الشـعب العربى كله تحت قيادة حزب أو جهاز سياسى مركزى ديمقراطى من أجـل أقامة مجتمع ودولة عربية موحدة مستقلة ، ناهضـــة متطورة ، اشتراكية ديمقراطية

***

ويوم يتكامل وجود مثل هذا التنظيم ســتقدم الامة العربية للعالم أجمع أنضج وأروع وأوسع تجربة سياسية تنظيمية وديمقراطية لا تؤكد فحسب ميلاد ظاهـــرة تاريخية جديدة أكثر تفتحا وتطورا على صـعيد التنظيم السياسى فى البلدان الحديثة الاستقلال ، وانمـــا ستعبر بذلك أيضا عن مدى المســاهمة الاصيلة والعظيمة لهذه البلدان فى دفع حركة التقدم التاريخى والانســانى الى الامام ..

الوحدة العربية واتفاقية التنسيق المشترك

ان نشوء وتطور الامم عملية اجتماعية تاريخية تحكمها قوانين اجتماعية خاصة ، ولا تشكل مجموعة من السكان أمة واحدة الا بتوافر مقوماتها القومية ، كما أن بروز الامة في شكل ظاهرة تاريخية مكتملة الملامح مرتبط بنضوج هذه المقومات • ان مرحلة النضج هذه مرتبطة هي الاخرى بظهور المجتمع الصناعي ذى السوق الواحدة حيث ترتفع الحواجز الجمركية ، والحدود الاقليمية ، ويمتزج الناس مع بعضهم البعض ، ويحدث النهوض القومي العـــام على انقاض التجزئة الاقطاعية ، والتركيب القبلي الاقطـاعي ، وحيث تبرز ظواهر مصاحبة كالنهوض اللغوى والثقافى ، واليقظة الوطنية ، ويتجلى الطابع القومى الخاص للامـــة والمتمثل فى نفسيتها المشتركة أو فى اقتصادها المشترك أو فيما عدا ذلك من المظاهر

وعملية نشوء وتطور الامة العربية لا تشذ عن هـــذه القاعدة العامة ، فالعرب الذين يسكنون ما بين المحيـــط والخليج نشأت وتطورت مقوماتهم القومية خلال عمليـــة تاريخية طويلة فأصبحت لهم أرض مشتركة ، وتاريـــخ مشترك ، وأمجاد تاريخية مشتركة ، ولغـــة مشتركة ، وثقافة مشتركة ونفسية مشتركة ، وتقاليد مشـــتركة ، واقتصاد يسير نحو التكامل عن طريق السوق العـــربية المشتركة والاتفاقات الاقتصادية المشتركة

ان أبرز مقومات الامة العربية والذى يشكل طابعهـــا القومى الخاص ، ومثار اعتزازها ورابطتها المعنوية الوثيقة هو أمجادهم التاريخية المشتركة

ان هذه الشروط القومية التى نشأت وتطورت تاريخيا

أخذت فى النضوج باقتحام المجتمع العربى مرحلة التصنيع ، وباشتعال حركة التحرير الوطنية العربية ضد الاستعمار والرجعية الاقطاعية المتعاونة معه ، وبالنضال المشترك من أجل القضاء على أنظمة الحكم الاستعمارية الرجعية ، والغاء الحواجز الاقليمية والتجزئة الاقطاعية ، وبانبعاث الفكر الوطنى القومى ، والنهوض اللغوى والثقافى ، وانتشار الوعى الثورى السياسى والاجتماعى. ويمكن متابعة الجذور التاريخية للقومية العربية فى الحقبة التى نشأت فيها دولة عربية كبرى بعد ظهور الاسلام ..

غير أن ظهور حركة الوحدة العربية كاتجاه سياسى يرمى الى توحيد البلدان العربية قد ارتبط بنشوء البورجوازية التجارية الصغيرة فى سورية ولبنان التى كانت تقلقها الحدود المصطنعة التى أقامها الاحتلال العثمانى بين أقطار سورية الكبرى . ولهذا فقد كانت حركة الوحدة العربية منذ بروزها فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر مرتبطة بالنضال ضد السيطرة الاجنبية المتمثلة فى الحكم العثمانى ، ثم فى الحكم الفرنسى ، والانجليزى ، ومستهدفة الحصول على الاستقلال السياسى وتحقيق الوحدة . وقد تطور مدلول الوحدة العربية من هذا التاريخ ، وأصبح لا يعنى وحدة سورية الكبرى ، أو سورية والعراق فقط ، وانما يعنى وحدة الوطن العربى كله من المحيط الى الخليج

ولقد أججت نكبة فلسطين الشعور القومى ، وقوت الاحساس بضرورة الوحدة . وأصبحت قضية الوحدة العربية منذ معركة السويس المحور السياسى الرئيسى الذى يستقطب من حوله كل القضايا السياسية الاخرى فى الوطن العربى ، حيث أن الانتصار العظيم فى معركة

السويس ، وما تلا ذلك من تهديد لسورية من قبل تركيا وحلف الاطلسى قد طرح قضية الوحدة العربية لاول مرة بعنف وقوة كدرع لا بد منه لمواجهة الدول الاستعمارية وربيبتها اسرائيل

وفى مثل هذه الفترة المبكرة نسبيا من ميلاد وظهـــور قضية الوحدة العربية لم تكن أذهان كل القوى الوطنيـة قد تمثلت مفهوما لها مجمعا عليه ، وذلك يشكل أحـــد العوامل فى الصراع السياسى الذى اشتعل بينها • الا أن تجربة الوحدة الثنـــائية بين مصر وســــورية ، ونكبة الانفصال قد قدما ذخيرة خصبة لقضية الوحدة ، وأغنياها بتجربة وخبرة عظيمتين لا تستطيع أن تقــــدمها ندوات النقاش السياسى ولو طالت عشرات الســنين • وكان من أول الناس اهتماما بتلخيص العبرة من هذه التجربة هو الرئيس جمـــال عبــد الناصر حيث عبر عن ذلك فى الميثاق مشيرا الى أنه خلال النضال من أجل الوحدة العربية ستعبر هذه عن نفسها فى أشكال عدة من الوحدة الجزئية الى الوحدة الدستورية الكاملة • ان التطوير الخلاق الذى قدمه الرئيس جمـــال عبـد الناصر لمفهوم الوحـــــدة والذى هو موضع اجماع كل الوطنيين والتقدميين العرب يتمثل فى قوله بأن للوحدة مضمونا سياسيا ومضـمونا اجتماعيا ، يتخذ شكل الوحدة السياســـية ، والحرية السياسية وتحقيق الاشتراكية لمجتمع عربى موحد

ان ربط حركة التوحيد القومى ربطا مباشرا وعضــويا باشاعة الحرية الديمقراطية للقوى الوطنية والشــعبية وبالنضال من أجل الاشتراكية فى وقت واحد قد ســاعد على ايجاد أرضية فكرية واسعة لوحدة كل القوى الثورية والتقدمية فى الوطن العربى التى يتوقف على وحدتهـــــا

تحقيق واقامة المجتمع والدولة العربية الموحدة الديموقراطية الاشتراكية

ففي ظروف العالم الحاضرة لا يمكن أن يكون للوحدة العربية مضمون اقطاعي أو رأسمالى ، أو تحقق بقيادة الاقطاع أو البرجوازية كما حدث مثلا بالنسبة للامم الاوربية التى لم تحقق وحدتها القومية قبل القرن العشرين الا على هذا الاساس

ففي القرن العشرين حيث تتسع الرقعة العالمية للانظمة الاشتراكية ، وتقوض حركة التحرير الوطنى العالمية دعائم الاستعمار ، وتنفصل بلدان كانت مستعمرة من نظام التبعية الامبريالية لتسير فى طريق التطور غير الرأسمالى برزت حركة الوحدة العربية باعتبارها حركة معادية للاستعمار ، والاقطاع ، والنظام الرأسمالى ، فهى لذلك تحمل طابعا وطنيا ديمقراطيا ، وتندمج بحركة التحرر الوطنى العربية ، وبالتيار الاشتراكي وتكون مع هذين الرافدين حركة تاريخية تستهدف اقامة دولة عربية موحدة اشتراكية ديموقراطية

ونتيجة لانتصاراتها الوطنية فى معركة السويس ، ولسبقها فى مضمار تحقيق التغيير والتقدم الاجتماعى عن طريق تحطيم تحالف الاقطاع والرأسمالية ، واقتحام طريق التطور الوطنى الديموقراطى ، والسير عبر مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وضعت الجمهورية العربية المتحدة نفسها فى مركز القيادة لحركة الوحدة العربية

وتشكل اتفاقية القيادة السياسية الموحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية خطوة هامة على طريق الوحدة العربية .

وكما تعتبر اتفاقية التنسيق المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية اليمنية استجابة وتحقيقا لمبدأ قومي فأنها تقدم احدى الضمانات الرئيسية والحاسمة لانتقال الثورة اليمنية الى مرحلة التغيير الاجتماعي ، وقلب التركيب الاقتصادي الاجتماعي في اليمن بطابعه المزدوج الاقطاعي القبلي ، واقامة علاقات انتاجية جديدة تساعد على دفع اليمن في طريق التطور الوطني الديمقراطي ، وفي طريق التطور غير الرأسمالي

وتقدم اتفاقية التنسيق الاطار القومي الذي يكفل صيانة واستمرار الثورة اليمنية ، وتقدمها على الطريق الوطني والاجتماعي الذي تسير فيه الثورة العربية

ونظرا لتخلف اليمن الاجتماعي والاقتصادي فان هذه الاتفاقية ستساعد على تعجيل عملية التقدم الاجتماعي والاقتصادي عن طريق الاستفادة من المنجزات والخبرات الثورية التي حققتها الجمهورية العربية المتحدة في هذا المضمار

وتسهم الاتفاقية بتطبيقها في تنمية وانضاج الشروط الموضوعية والذاتية للثورة اليمنية ، وفي توسيع الارضية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تنهض عليها الثورة ، وفي تحريكها بقوة الثورة العربية كلها في اتجاهها التاريخي المحتوم ، اتجاه التحرر الوطني ، والحرية الاجتماعية والاشتراكية الديمقراطية

آفـــاق المســـتقبل

تعد الثورة اليمنية أحدى الثورات العربية الحـديثة فى القرن العشرين ، بها أطل الشعب اليمني على العالم المعاصر من انصع الافاق ، وبفضلها قفز دفعة واحدة من القرن السادس الميلادى الى النصف الثـــانى من القرن العشرين ، وعن طريقها قام بنصيبه بجدارة فى كفـاح التحرير الوطنى الذى يجتاح عالم اليوم فاحتل بذلك مكانة مستحقة بين شعوب العالم الثالث المشتعل بالثورة

واذا كان قد تأخر نشوب الثورة اليمنية بعض الوقت نتيجة لاوضاع اليمن المعقـــدة فأنها قد نشبت فى فترة تاريخية حاسمة تتميز بتفوق قوى الثورة والتقدم على قوى الرجعية والاستعمار سواء على النطاق العالمى أو على النطاق العربى

وتكفل هذه الظروف المواتية استمرار الثورة اليمنية وتحقيقها فى فترة قصيرة نقلة اجتماعية وتاريخية فى حياة الشعب اليمنى بالاستفادة من منجزات التقدم من حيث بلغت . وبمقياس التقدم الثورى المعاصر المدعم بالخبرة العلمية والاجتماعية للثورة العربية والشعوب الصـديقة تستطيع الثورة اليمنية أن تقطع فى بضع سنوات مسافات من التطور لم تقطعها غيرها من الشعوب المتخلفة الا خلال عشرات السنين من الحكم الاستعمارى

وبالاعتماد أولا وقبل كل شيء على الشعب ، وباطلاق قواه المبدعة ، وتفجير طاقاته الحيه تستطيع الثورة أن تتقـدم الى المسـتقبل فى ثقة واطمئنان صانعة مجتمعا وطنيا ديمقراطيا ينهض على أنقـاض المجتمع الاقطاعى القبـلى الذى خلفه العهد البائد ومنطلقة باليمن فى ركب التحرر العربى ، وفى مضمار الحرية والاشـتراكية والوحدة ..



فهرس

الباب الاول

الباب الثانى

كتب هلال صدرت سنة ١٩٦٥ و ١٩٦٦

رقم الكتاب		
١٦٦	محمد رسول الحرية	: عبد الرحمن الشرقاوى
١٦٧	البحث عن شيكسبير	: د. لويس عوض
١٦٨	اسرائيليات	: أحمد بهاء الدين
١٦٩	حقائق الاسلام وأباطيل خصومه	: عباس محمود العقاد
١٧٠	مختارات من برنارد شو فى النقد والسياسة	: د. عمر مكاوى
١٧١	أساطير الحب والجمال عند الاغريق	: درينى خشبة
١٧٢	عشرة أدباء يتحدثون	: فؤاد دوارة
١٧٣ ١٧٤	مذكرات شارلى شابلن ج١ ، ج٢	: صلاح حافظ
١٧٥	كتابات لم تنشر	: د. محمد مندور
١٧٦	ثورة الزنوج فى أمريكا	: د. عبد الملك عودة
١٧٧	معارك فكرية	: محمود أمين العالم
١٧٨	أبو ذر الغفارى	: عبدالحميدجودة السحار
١٧٩	دليل المتفرج الذكى الى المسرح	: ألفريد فرج

رقم الكتاب		
١٨٠	رسائل نهرو الى انديرا :	أحمد بهاء الدين
١٨١	على هامش الغفران	: د. لويس عوض
١٨٢	اول ثورة على الاقطاع	: محمد العزب موسى
١٨٣	الاشتراكية والفن	: أسعد حليم
١٨٤	الجبرتى وكفاح الشعب	: محمود الشرقاوى
١٨٥	دراسات فى الحب	: يوسف الشارونى
١٨٦	الغناء المصرى	: كمال النجمى
١٨٧	علم النفس فى الفن والحياة	: د. يوسف مراد

كتاب الهلال القادم :

ما يقال عن الاسلام

بقلم
عباس محمود العقاد

يصدر فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٦٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص : ب ٢٤

انجلترا :

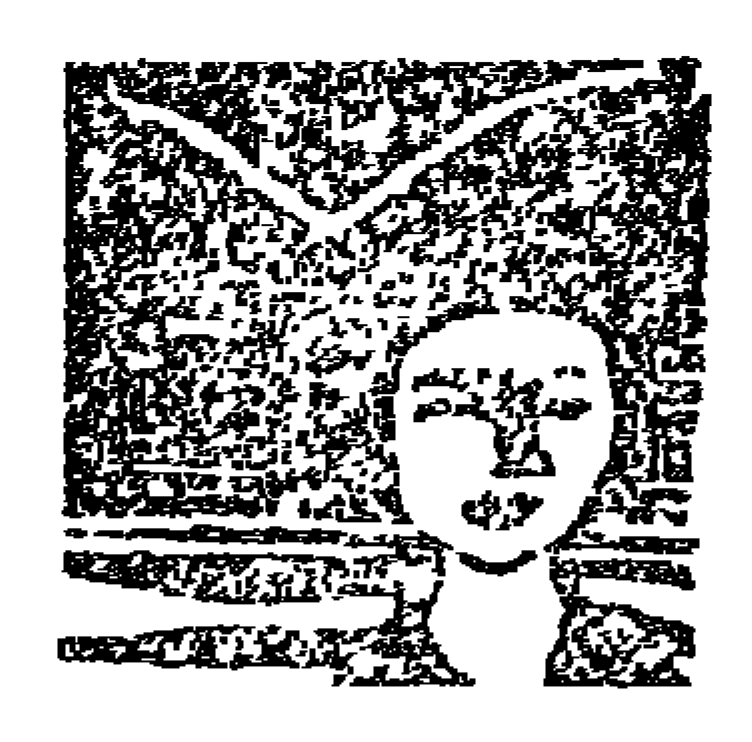
ARABIO PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Atrijari Assharat
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

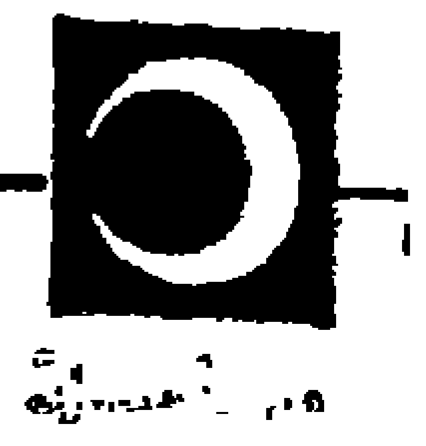
البرازيل :

Mr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL



اول كتاب علمي مبسط عن الثورةاليمنيه . يعرض بطريقة شيقـه ، للمقدمات التاريخية للثورة ، ويحلل الطبيعه الاجتماعيه الخاصه للمجتمع اليمنى ، ويتنـاول بجـرأةوحرارةالمشـاكل السياسيـة والاجتماعيـه والاقتصادية ، التي تواجـه الثوره اليمنيه ويقترح لها حلولا ملائمـة ، وينتهي الى تقديم خطه عمل سياسيوتنظيمي لها،لتحقيق اهداف الشعب اليمني في اطار الاهـداف والمبـادىءالعامة للثورة العربية الشاملة

والدكتور محمد علي الشـهاريمؤلف الكتاب مفكر يمني ثائر ، عاش احداث الثورة ، وشارك فيها ،فجاء كتابه هذا خلاصة صادقة لتجربتـه الحية ..



كتاب الهلال ١٢ قرشا

ما يقال عن الإسلام

عباس محمود العقاد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٩ شعبان ١٣٨٦ ديسمبر ١٩٦٦

No. 189 Decembre 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

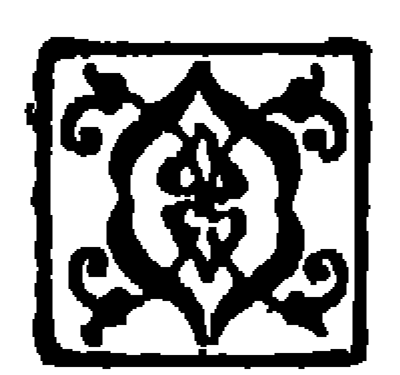
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنان هبة عنايت

عباس محمود العقاد

ما يقال عن الإسلام

دار الهلال

تقديم

كثرت بعد الحرب العالمية الثانية كتابات الغربيين في موضوع الأمم والعقائد التى كان لها شأن فى مضطرب الافكار والنزعات بين المعسكرين المتقاتلين ، ثم كان لها شأن مثل هذا الشأن فى ميادين التنافس بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وبخاصة ما كان منها مرتبطا بالدواعى النفسية التى تمليها العقائد الدينية على أنصار الفريقين ..

واستتبعت كثرة الكتابة فى هذا الموضوع كثرة الكتابة فى موضوع الاسلام والأمم الاسلامية ، لأن الاسلام دين ونظام اجتماعي ،وله بهاتين الصفتين علاقة بماينتشراليوم من المذاهب العامة فى شئون السياسة والاجتماع

وكتاب الغرب — حين يكتبون عن الاسلام يتفاوتون فى قيمة الكتابة ، ولكن تفاوتهم على حسب البواعث والنيات اضعاف تفاوتهم على حسب الدراية والمعرفة ، لأنهم طوائف مختلفة لا تتفق فى الوجهة ولا فى الخلق ولا فى الاستعداد ..

فمنهم المبشرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطرارا واختيارا بباعث من التعصب وباعث من حكم الصناعة أو الحرفة ، لأن التبشير عندهم منفعة يعيشون عليها ويحرصون عليها حرصهم على القوت والجاه

وممن يكتبون عن الاسلام من الغربيين اناس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ويصطنعون لغة الدعاية تارة ولغة الدهان أو « الدبلوماسية » تارة أخرى

ويكتب عن الاسلام فى الغرب طلاب المعرفة من المستشرقين الذين نشأوا فى العصر الحديث بمعزل عن

دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية ، ولكنه مشوب بالقصـــور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة أخرى وليس هو من أبنائها ولا هو من الادباء فى لغته التى نشأ عليها ، وبعضهم لا رأى له فى أدب بلاده لانه لم يشتغل به ولم يتأهب له بعدته من الذوق والفطنة التى تؤهله للتخصص فيه ، فليست معرفته بالعربية عدة كافية له فى تقـدير الأدب العربى ، لأنه يعرف لغته ـ لغة الام كمـا يقال ـ ولا معول على رأيه فى أدبها بين قومه

ويكتب عن الاسلام فى الغرب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين فى بلادهم ، فهم يتطلبون محاسنه ويقابلون بها مساوىء السلطة التى يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الاسلام ويهتدى الى محاسنه السمحة ، وان لم يدن به ولم يكن على دين غيره

***

ومن حقنا ـ بل واجبنا ـ أن نعرف ما يقال عنا ، وأن نعرف كل قول من تلك الاقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه ، لاننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا ، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به عن هوى وجهالة ، وعن دراية وحسن نية

وفى الصفحات التالية مجموعة من المقالات عن الكتب التى الفها كتاب الغرب من شتى وجهات النظر التى أشرنا اليها أو من أكثرها شيوعا واعتبارا فى العصر الحديث ، لخصناها وعقبنا عليها وناقشنا منها ما يحتاج الى المناقشة ، وجمعناها فى هذه الصفحات نبتغى بها المزيد من التعريف بالاسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه ، ولعلهـا تغنى ولو بعض الغنى فى سداد هذه الطلبة المتجددة عند اخواننا القراء فى الأمم الاسلامية

عبـاس محمود العقاد

ماذا يقولون ؟ بل كيف يقولون ؟

نعرض فى هذا الكتاب لاشتات من الكتب الحديثة التى يؤلفها الغربيون عن الاسلام والأمم الاسلامية ، ونرى فيها اختلافا بين الصواب والخطأ أو الصدق والكذب أو حسن النية وسوئها ، يصح أن نخرج منه بنتيجة عامة كالميزان لآراء القوم نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال أو لموضوع المقال ، وفيما نقدم من الملاحظات على الكتب التى نعرض لها مادة كافية لتحرير هذا الميزان والانتفاع به فى تقويم الآراء واصحاب الآراء ، كلما وقفنا على مؤلف جديد لهم فيما يتحدثون به عن الدين الاسلامى أوعن الامم الاسلامية ..

وأهم ما يهم فى هذه الاشتات المتفرقة من المؤلفات هو محك الاخلاص فى كتابتها .. فمن هم المخلصون منهم؟ ولماذا يخلصون ؟ ..

كل ما اطلعنا عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة فى العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان : طلاب المعرفة، وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا انهم طلاب الحقيقة فى عالم العلم وفى عالم الضمير

أن العلماء المتجردين للبحث العلمى عندهم يتحررون جهدهم من الأهواء النفسية التى تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه ، ومنهم من يقرر مذهبا له فلا يفرق بين

المشاهدات التي تؤيد مذهبه والمشاهدات التي تنقضه أو تشكك فيه أو تذره معلقا بين النقض والتأييد ،فينتهى الى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله ان المذهب حتى الآن ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك فى جملة المشاهدات .. وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الاسلام

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها وغلب عليهم الايمان بأن الشرق هو مصدر الأديان وان الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم اليه فى الزمن الحديث كما كانوا يرجعون اليه فى الزمن القديم

واذا كان من هؤلاء من وقعت الجفوة بينه وبين رؤساء دينه فالغالب عليه فى كتابته من الاسلام ان تصطبغ اقواله عنه وعن تاريخ الأمم الاسلامية بحماسة بينة تشبه حماسة المؤمن بدينه وان لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين بالعقائد الاسلامية أو مبلغ الانتساب الى الاسلام ، ومن هؤلاء الكاتب الأسبانى « بلاسكو أبانيز » الذى قال فى كتابه « تحت ظلال الكنيسة » مالا يزيد عليه المسلم شيئا من فضائل التاريخ الأندلسى ، ويشبهه « جوزيف مكاب » باللغة الانجليزية فى مقارناته بين التواريخ الأوربية والتواريخ الاسلامية ، فلا يكاد يقارن بين شيئين تشتمل عليهما هذه التواريخ الا كان الرجحان بينهما للكفة الاسلامية ، مع الاطناب من ناحية والتنديد من الناحية الأخرى

وفيما عدا طلاب العلم وطلاب العقيدة يندر الاخلاص فى مؤلفات القوم حيثما عرضوا للمسلمين أو عرضوا لما اعتقدوه أو تعودوه ، ولكنهم فى قلة الاخلاص أو سوء النية

انواع ودرجات ..

فهناك المتعصبون للغرب - وطنيا أو جنسيا - كما يتعصب الريفي الساذج لكل شيء في قريته على كل شيء في قرية سواه ، وأكثر ما يظهر هذا التعصب فيما يكتبونه عن المسلمين العرب لأنهم اذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا ان يقولوا انهم من السلالة الآرية التي ينتمي اليها الاوربيون ، واستطاعوا أن يزعموا - مثلا - أن الاسلام قد أخذ التصوف من الفرس وأخذ الحكمة من الهند وتلقى فلسفة الكلام عن اليونان مما نقله النساطرة وسائر المترجمين ، وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم - بل في خدمة لغتهم - على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يلج الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لأنه تبشير رسول « يهودي سامي » كما يقولون عن السيد المسيح وبعضهم ينشيء لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر يتبعها أصحاب العبادات ، ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين انفسهم ، لأنهم لم يحرروا عقولهم من العبادات الشرقية او لانهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة في الأنساب وفي الاخلاق .. !

هذه طائفة من ذوي النيات السيئة بين كتاب الغرب يؤلفون عن المسلمين عامة وعن المسلمين العرب على التخصيص ، ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية في السياسة والاجتماع

وطائفة أخرى هي طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون الى هدم المجتمعات القائمة ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض « الاصلاح الاجتماعي » الذي يلغي « الروحيات » ويستبدل بها « الماديات » في كل مطلب من مطالب

الحياة الدنيا ، ولا حياة غيرها لانسان

ونصيب الاسلام عند هؤلاء الماديين الملحدين اوفر الانصبة وأولاها بالتقديم في خطة الهدم والتشويه ، لان المسيحية لا تزاحم مذهبهم الاجتماعي بمذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية ، ولكن الاسلام يقيم المجتمع على نظامه ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاسه ويحيط بشئون الدين والدنيا فى حياة الآحاد وحياة الجماعات ، ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم الى انكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة فى عداوتهم للاسلام جماعة « المؤمنين المحترفين » سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها الى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء فى البلاد الاوربية والامريكية . فهؤلاء أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين على الصورة التى تذكى عند القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والغفلة ، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم ولمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ، ولا يندر أن يكون المبشر ملحداً بالدين كله ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن الحاده أو قال عن الاسلام قولة حق وانصاف تمحو عداوة الاعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التبشيرية فى بلاد المسلمين ، فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه ..

وينبغي أن نفرق بين هؤلاء « المؤمنين المحترفين » وبين المؤمنين المصدقين برسالتهم عند النظر الى أقوال المبشرين فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية

بعاطفته فنظر الى الاشياء على غير وجهها وأخطأ الحكم عليها غير متعمد أن يخطىء أو يصر على خطئه وربمالاحت له فضيلة من فضائل الدين الذى ينكره أو من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رأيه فى عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله فى زعمه . وكذلك فسر المبشرون الأقدمون فضائل الديانات التى وجدوا عليها أبناءالامريكتينالوسطى والجنوبية يوم ذهبوا اليها بعد كشف العالم القديمبقليل، فقد شهدوا بفضائلهم فى بعض عقائدهم وشهدوا بصحة تلك الفضائل على مذهبهم ، ولكنهم قالوا انها دسيسة من الشيطان أدخلها على عقول أولئك الامريكيين الاصلاءليزين لهم ضلالتهم ويزيف عليهم أباطيلهم ، ولا يخطرن لنا أن هذا الزمن قد ولى وانقضى بتأويلاته وتخريجاته التىيأباها العقل ويرفضها المنطق السليم ففى عصرنا هذا سمحت سيدة أوربية لعقلها أن يغض من فضائل رجل كالمهاتما غاندى الهندى فلم تنكر عليه تلك الفضائل ولم تجرؤ على ازدرائها عند أبناء أمتها ، ولكنها قالت انها صفات عارضة فى روح غير ناجية ولا عالية ومن هنا ـ كما قالت ـ لم تظهر لروح غاندى مسحة من السماحة على وجهه .. فلحقت به الدمامة وحومت على محياه .. ! ولعل المبشر المثقف فى هذا العصر لا يرجع الى تأويلات الأقدمين ولا يزعم أن فضائل الدين الذى ينكره دسيسة من كيد الشيطان ، ولكنه يقول كما قالت تلك السيدة انها صفات عارضة لا تتغلغل فى أعماق الروح ولا تحس سيماها فى الوجوه ..

على أن الاخلاص فى الايمان بدين من الأديان عصمة ولا ريب من التلفيق المتعمد والكذب المقصود . فاذا كتب

المبشر المؤمن بدينه عن الاسلام والمسلمين فانما يـكتب الحقيقة كما يراها وتتمثل له فى هواه ثم ينم عليه جهله وينكشف للقارىء مصدر خطئه وبواعث انحرافه، ويختلف أمر المبشرين المحترفين فيما يلفقونه على الاديان التى ينكرونها ويتجردون ــ على زعمهم ــ لهداية أصحابها . . فان هؤلاء المبشرين المحترفين مهرة فى فنون الدعاية مـدربون على تمويه الواقع وتلبيس الحق بالباطل ، فلا يشق على عقولهم ولا على ضمائرهم ان يعرضوا أحوال الامم على الصورة التى تنفر الناس منها ولا سيما المتعصبين المستعـدين للنفرة والراغبين فى اختلاقها ، ولا نبالغ فى التقدير اذا قلنا أن تسعة أعشار المبشرين المحترفين فى العصر الحـاضر من هذا القبيل ..

طائفة أخرى يشوب كتابتها الغرض كلما تحـدثت عن البلاد الاسلامية كما يشوبها الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون الى سماع أخباره ويحبـون أن توافق ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه ، ومعظم المتحدثين على هذا الاسلوب يسوقون احاديثهم الى قراء ألف ليلة ورباعيات الخيام ورحلات الرواد فى القرون الوسطى، فلا يحبون أن يسمعوا خبرا يألفونه ويشبه ما تعودوه، وهواهم كله الى الاحاديث الشرقية التى تعرض لهم شرقا فى الواقع كالشرق الذى قرءوا عنه فى أساطير الخيال . وقد رأينا

بعض كتاب الغرائب فى هذا القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم انه نزل بضيافة شيخ فى الستين له فى مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة وله من الابنـاء والبنات ماليس يحصيه، ورأينا غيره يزعم أنه زار فى العواصم الاسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسرارى لا يهتدين فى الطريق بغير دليل من الخصيان ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين

يثوبون شيئا فشيئا الى الاعتدال فى رواية أخبارهم وأعاجيبهم بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه اللوحة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة ولم تبق للمغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملئونها بالاعاجيب والمدهشات عن المسلمين والشرقيين وهى زاوية التاريخ والقصور الاثرية التى يعمرونها بأبطال العصور الغابرة ويلحقون بهم أحيانا أبطال العصر الحاضر فيما يؤلفونه عنهم من قصص البيوت والخدور ...

وأخطر المغرضين جميعا طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ماليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين ، وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار

ويهون خطب الصهيونية الساخرة فى دعايتها السياسية أو العنصرية فان الغربيين يعرفون أكاذيب هؤلاء الصهيونيين ولا يساعدهم من يساعدهم هناك جهلا بما يفترون على ضحاياهم أجمعين ، وانما يساعدونهم لان خطر الاسلام عليهم أكبر من خطر الصهيونية وما يماثلها من الاخطار العنصرية ، ولعلهم فى الغرب لم يسلموا من دعاية صهيونية تجاربهم وتفترى عليهم فى مسائل الدين ومسائل السياسة كلما بدا للصهيونية العالمية مأرب عند هذا البلد أو ذاك ، فاذا أعلن الصهيونيون حملاتهم مصرحين بأسمائهم فلا ثقة بما يروجون ولا ضير على المسلمين منهم ولا غير المسلمين

لكن الدعاية المقنعة اخطر ما يستطيعه هؤلاء الصهيونيون ، والحملات التى يشنونها فى أرجاء العالم بأسماء غيرهم هى فى الواقع سلاحهم الذى يعولون عليه ، لان جمهرة القراء يصغون اليها ولا يتهمون قائليها بل لا يشعرون بداع الى الاتهام فى اكثر الاحيان .

وقد عرف الصهيونيون فى عصرنا هذا مواطن القوة

التى تسخرها الدعاية فاستولوا على الكثير من أدواتها وبرعوا فى تسخيرها واخفاء مراميها . فهم يملكون شركات الاعلان فتحسب الصحف الكبيرة قبل الصغيرة حسابهم ولا تتورع عن خدمتهم او السكوت عنهم على الاقل وكتمان سيئاتهم ومآربهم .. اذ أن الصحف الكبيرة – خاصة – أحوج الى الاعلانات لكثرة تكاليفها تبعا لكثرة صفحاتها فلا تكاد أثمانها تفى بتكاليف الورق فضلا عن تكاليف التحرير لولا موارد الاعلانات

ويملك الصهيونيون دور النشر فيحسب المؤلفون حسابهم كما يحسب الصحفيون . وقد يتبرع المؤلف بمرضاتهم ونشر دعايتهم تمهيدا لقبول كتبه ، واذاعتها بالترويج والتقريظ وخلق « الجو » الصالح للاهتمام بها واللغط حولها ، ولا تقصر وسائلهم أحيانا عن ترشيحها لاكبر الجوائز العالمية من قبيل جائزة نوبل بالسويد وجائزة بولتايزر بالولايات المتحدة . لان نوبل نفسه يهودى ولجان التحكيم فى الولايات المتحدة لا تخلو من اليهود أو من يسيطر عليهم اليهود بوسائل الاعلان والترويج ..

ويملك الصهيونيون أسهما وافرة فى شركات الصور المتحركة وينتسب اليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح واللوحة البيضاء .. والى جانب هذه الوسائل الفنية او المالية وسائلهم وراء الستار – وأمام الستار – بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الاصوات فى مواسم الانتخابات ، وليس استخدامهم لوسائل الجمال فى هذه المعارك وما اليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

والمغرضون فى خدمة الاستعمار قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية ان لم تزد عليها فى بعض الاحوال ، اذ هى قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة

للسياسة والتبشير مجتمعات

الا ان الاستعمار فى هذا العصر يقترن به الترياق على الرغم منه ، وأوله ترياق النزاع عليه بين المستعمرين

فاذا جاءت الفرية من جانب المستعمر الفرنسى لم يبخل عليه المستعمر الانجليزى بالتفنيد والتجريح ، مزاحمة له واحباطا لمسعاه ، واذا اختلفت برامج السياسة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ففى مجال الخلاف متسع لظهور الفرض المستور ان لم يكن فيه متسع لانصاف الامة المفترى عليها وتصحيح الاباطيل التى يروجونها عنها ..

وقيام المعارضين للاستعمار فى كل دولة من دوله المشهورة ضمان لتفنيد دعاواه أو للكشف عن خباياه ، فلا تخلو دولة من دول الاستعمار الكبرى من أحزاب تعارض الاستعمار ، اشفاقا من مغارم الضريبة ومجازر الحرب وغارات الهجوم والدفاع ، وزهدا فى مغانمه التى يستأثر بها الرعاة ولا نصيب للرعية منها غير الخسارة والشقاء ..

وعلى قدر سموم الاستعمار يكثر الترياق لكل سم من هذه السموم ..

فالرغبة فى كسب مودة الضعفاء أقوى اليوم من الرغبة فى احتلال بلادهم واستغلال مرافقهم ، لان فوائد الاحتلال تنقص ، ومغارمه تزداد ، ولان الحروب اليوم حروب عالمية تمتد الى كل ركن من أركان العالم المعمور فلا تؤمن العاقبة اثناء القتال اذا فوجىء المقاتلون بالمقاومة الحربية أو الاقتصادية فى ركن منها ، كائنا ما كان شأنه من الضعف والانزواء

وليس من المنتظر ولا من المعقول ان يتصدى المستعمرون لاعلان الحقائق المشرفة لضحاياهم الاولين

وضحاياهم الباقين تحت نيرهم ، وهم غير قليلين . ولكن المستعمرين خلقاء أن يعلموا ان معرفة الحقيقة عن الامم المطموع فيها أجدى عليهم فى معاملاتهم معها من كتمان الحقيقة وتضليل الاذهان عنها اذ كانوا يخدعون انفسهم ويضللون أبناء بلادهم اذا وضعوا لهم تلك الامم المطموع فيها على غير حقيقتها ، فيخسرون لا محالة كما يخسر التاجر الذى يجهل أحوال « زبائنه » من الغنى والفقر ، والامانة والغش ، والوفاء والمطال ، وما دامت القوة الغاصبة سلاحا مغلولا فى ايدى الغاصبين فلا مناص لهم من معاملة الناس كما هم فى الواقع بدلا من التعويل على قهرهم وارغامهم وقلة المبالاة بما يجهلونه من شئونهم وأخلاقهم كما كانوايفعلون يوم كان الحكم كله للعنف والاذلال

ان سموم الدعاية الاستعمارية باقية وستبقى الى حين، ولكنها اليوم سموم يقترن كل منها بترياقه ، ولا تفعل عقاربها ما تفعله أمصالها بين ضحاياها ، بل لا يأمن المستعمر نفسه من جرائر تلك السموم

والنتيجة التى نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الاسلام والمسلمين فى عصرنا — هى تمييز المخلصين وغير المخلصين ، وحصر البواعث التى تدفع غير المخلصين الى الجهل بالحقيقة واخفائها اذا عرفوها ..

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة ، وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية والمتعصبون للدين عن ايمان أو عن غش واحتراف ، وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار

ويعوزنا نحن الشرقيين المفترى عليهم أن نحسن الوزن بهذا الميزان لنفهم ما يقال كما ينبغى أن يفهم ، ولكنها نتيجة سلبية قصاراها أن ننفى ما يقال ، فألزم لنا من هذه النتيجة السلبية ان نقول نحن ما يثبت وما يدفع ما يقال ..

الإسلام والعصر الحديث

تأليف الدكتورة اليس ليختنستادتر

Islam and the modern age by Ilse lictenstadter

مؤلفة هذا الكتاب « الاسلام والعصر الحديث » سيدة ألمانية درست العلوم العربية والاسلامية فى جامعة فرانكفورت ثم فى جامعة لندن وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرق الادنى والشرق الاوسط وزارت ايران والباكستان وعنيت عناية خاصة بالمقابلة بين مذاهب السنة ومذاهب الشيعة ودعوات الاجتهاد والتجديد ، كما استطاعت أن تفهمها أو تتلقاها من مصادرها التى عرفتها أثناء اقامتها بالمدن الاسلامية

وخطتها فى دراسة موضوعاتها هى الخطة الغالبة على المؤلفين المعاصرين من الغربيين حين يكتبون عن الدين الإسلامي او عن الامم الاسلامية من وجهة دينية . فان هؤلاء المؤلفين يتجنبون أسلوب الاستخفاف الذى اشتهر به كتاب القرن التاسع عشر ترفعا منهم عن علاج موضوعات الاسلام على خطة المساواة بينها وبين موضوعات العقائد أو المعارف التى تشيع بين الغربيين ، واعتزازا منهم بسيطرة الحاكم الذى يتحدث عن محكوميه ورعاياه ومن هم عنده فى طبقة المحكومين والرعايا ، وتعصبا منهم لعقيدة يؤمنون بحروفها ومعانيها كما يؤمنون ببطلان

العقائد التى تخالفها

فالمؤلفون المعاصرون يتجنبون ذلك الاسلوب لأنه أسلوب زمن مضى بأسبابه ودواعيه ، وليس أقلها ولا أهونها أن سيطرة الامس قد ذهبت بذهابه وأن العصبية قد تزعزعت بعد الرسوخ وترددت بعد المضاء ، وأن العالم الاسلامى قد أثبت له وجودا ـ سياسيا وثقافياً ـ يقدره أصحاب الرأى ويعرفونه فلا يتجاهلونه فى كتاباتهم عنه ووصفهم لحاضره وماضيه

والدكتورة صاحبة كتاب « الاسلام والعصر الحديث » تنهج هذا النهج وتعرض لشئون العالم الاسلامى والديانة الاسلامية بما ينبغى من الادب والرعايه وتجتهد غاية اجتهادها فى تحقيق مسائل البحث وادراكها على الوجه الصحيح . ولكنها كغيرها من مؤلفى الغرب قد تفهم أكثر هذه الشئون بما تحدثه من الصدى وتثيره من اللغط . دوائر المستشرقين ، وقلما تفهم حركات التجديد بفهمها للحقائق التى تدور عليها أو بفهمها لحقائق الرأى عند المحافظين أو حقائق الرأى عند أصحاب الدعوة الى الجديد ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الذين يحسبون من دعاة التجديد مقلدين يتحذلقون بمزاعم المستشرقين فيثيرون بها من اللغط ما ليس له علاقة بالدين ولا بالاصلاح ، وانما هو تقليد كتقليد المتعالمين بما يجهلون . يصل حديثه الى المشتغلين بالمسائل الاسلامية فى الغرب فيحسون صداه ولا يسبرون غوره أو يدركون مداه

ويظهر أن معرفة الكاتبة بالبلاد الاسلامية فى أواسط آسيا أوسع وأوفى من معرفتها بغيرها من بلاد العالم الاسلامى ، لأنها لم تعول على المصادر العربية كما عولت على مصادر اللغات الاوروبية واستعانت بمن يعرفها أو ينقلها اليها . ومنهم صاحب المقدمة ظفر الله خان الذى

يعرفه المصريون ..

على ان الفكرة التى لاحظتها الكاتبة فى جملة آرائها تقوم على أساس صحيح يرتضيه المسلم وان لم يذهب مذهب الكاتبة فى تفصيل تلك الآراء والاشارة الى أغراضها ومقاصدها ، فهى تقرر أن المسلم العصرى يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت اليها علوم زمنه ، وأن دعاة الاصلاح لم يعسر عليهم أن يجدوا السند القوى من القرآن لكل ما دعوا اليه من جديد ، وكل ما انتقدوه من تقليد ، وأن مزية القرآن — فى عقيدة المسلم — أنه متمم للكتب السماوية يوافقها فى أصول الايمان ولكنه يختلف عنها فى صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضى مع مضى عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها . وكل ما يراد به الدوام ينبغى أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان ..

وللكاتبة فى توضيح هذه الفكرة أسلوب يقتبس من أساليب التصوف كما يقتبس من أساليب الفلسفة الدينية ، فهى تقول فى فصلها عن أسس الاسلام : « انه من الضرورى لادراك عمل القرآن من حيث هو كتاب دينى وكتاب اجتماعى أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسا لأداة الحكم المعقدة التى تعالج مشكلات المجتمع الحديث . فان النبى يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الاله فى كماله الالهى وبين خليقته التى يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الانسان ، وأن واجب الانسان ان يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الالهى وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه

جماعة أنسانية تتحرى أعمق الأوامر الالهية والزمها وهى أوامر العــدل للجميع والرحمــة بالضعيف والرفق والاحسان : وتلك هى الوسائل التى يضعها الله فى يـد الانسان لتحقيق نجاته ، فهو من ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره .. »

وترى الكاتبة ـ بحق ـ أن رد الفعل الأول للثقافة العصرية أن المصلحين المجددين من أئمة الاســلام رحبوا بالعلم الحديث وانبروا لاثبات الموافقة بينه وبين حقائق القرآن الكونية وشرائعه الاجتماعية ، وكان دور التنبيه فى هذه الحركة من عمل السيد جمال الدين ودور التعليم من عمل صاحبه ومريده الاستاذ الامام محمد عبده ومن خلفوه من تلاميذه المقربين

قالت : « ان المسلمين ارادوا مطلبا أكثر من مجـرد النهضة السياسية ، اذ كانت رسالة الاسلام الدينيــة تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التى جاءت فى ذيول العلم الحديث . وكانت دعوة الافغانى الى نهضة الاسلام الروحية ميراثا تسلمه محمد عبده ، وبرهانا فى هذه العصور الاخيرة على اشتباك المســائل السياسية والمسائل الدينية فى الديانة الاسلامية . وقد كان محمد عبده أقرب أعوان الافغانى خــلال الايام التى قضياها منفيين بباريس ، فأصدرا صحيفتهما المشــهورة باسم العروة الوثقى لسان حال الأفغانى فى الدعوة الى الوحدة كما يدل اسمها المقتبس من القرآن ، وأدرك محمد عبده بعد بحثه فى أسباب انتشار الشكوك بين شــباب المسلمين أن العقيدة الدينية تتطلب اعادة التوجيه كى لاتنفصم العروة الوثقى بين المسلم وضـــميره ، ورأى الاستاذ أن العلم لا يناقض الاسلام بل ينفع المسلم لتعزيز ايمانه وتثبيت يقينه ، وأن القرآن اذا فهم على وجهه كان

هو والعلم كلاهما عونا لصاحبه على الفهم والايمـــان ، واجتهد فى تفسيره لآيات القرآن أن يوفق بينهـــا وبين كشوف العلم لظواهر الطبيعة ، وقصد الى اثبات المطابقة بين هذه الكشوف وما تقدم به الوحى القديم لا اختـلاف بينهما الا أن الكشوف الحديثة تقرير دراسى مفصل لمـــا تمليه البصيرة الهادية ، فاذا كان العلم قد أثبت حقائقه بالتجارب أو المعادلات الرياضية فالنبى قد تلقاها بالوحى من عند الله العليم بكل شىء وأفضى بها الى النـــاس فى رسالة النبوة الرفيعة وآياتها البليغة »

واستطردت من شرح دعوة الأستاذ الامام الى المقابلة بينها وبين دعاة التجديد من أتباع العقائد الكتابية فقالت : ان شهادة الانصاف لهذا الامام الأزهرى تقتضينا أن نعلم أن طريقته لم تكن أغرب من طرائق اللاهوتيين المؤمنين بالتوراة والانجيل حين ذهبوا يتتبعون كشوف أشـــور وبابل ليثبتوا أنها جاءت مؤيدة لأنباء العهدين القـديم والجديد ، وأن أقوالهما عن الظواهر الكونية تقبل التأويل الذى يوفق بين العلم والايمان

ويحلو للكاتبة كما يحلو لكتاب الغرب جميعا ان يقرنوا بين يقظة المسلمين ونهضتهم لاصلاح مجتمعاتهم وبين أثر الحضارة الاوروبية وتقاليدها الاجتماعية ، ولكنها أقرب الى العناية بما يهم المرأة على الخصوص من شئون الزواج والاسرة وأولها قضية تعدد الزوجات

تقول : « انه من الامثلة التى طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذى يبيح تعدد الزوجات • فليس فى البلاد الاسلامية ـ ما عدا البلاد التركية ـ قانون يحرم هـــذا النظام بحكم القضاء العام أو القضاء الخـــاص بالاحـوال الشخصية والمحاكمات الشرعية ، فلا يزال تعدد الزوجات عملا مشروعا فى ج٠ع٠م والباكستان وايران والعراق

وأندونيسية وأن العرف ليتجه ـ بتأثير القدوة الغربيــة وتأثير متاعب تعدد الزوجات ـ الى النفور منه ، ويزداد هذا النفور مع الزمن فينظر المسلم المعاصر الى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلط هذه النظرة بشيء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر فى الطبقــة الوضيعة ، وأن المصلحين ليجدون السند الاقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة فى آيات الكتاب ،اذ تدل الكلمات الاخيرة من الآية المشهورة فى السورة الرابعــة على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة »

وقد تكون الكاتبة غير بعيدة عن ايحاء طبيعتها الانثوية حين تفرد للجهاد فى الاسلام بحثا خاصا تفسره فيــه تفسيرا يزيل بعض الشـــبهات التى ترد على خواطر الغربيين كلما ذكروا كلمة « الجهاد » وفهموا منها أنهـا شريعة توجب على المسلم أن يقاتل غير المسلمين ويناصبهم العداء لاكراههم على الدخول فى الاسلام ..

قالت فى شرحها لقواعد الاســـلام : « ان النظرية الاسلامية فى القرون الوسطى تقسم العالم الى قسمين : دار الاسلام ، ودار الحرب ، ودار الاسلام تشمل البلاد التى انبسط عليها سلطان الاسلام عقيدة وحكما . ودار الحرب تشمل البلاد التى يصح من الوجهـــة النظرية فتحها للاسلام ولو بالسيف اذا اقتضى الحال ، ولهذين الاصطلاحين شــأن فى مبادىء السياسة الاســـلامية والعلاقات الدولية وينبغى ـ لسوء فهمهما بالمعنى الصحيح الذى ينطويان عليه ـ أن يبحثا ببعض التفصيل

« ان كلمة « الجهاد » مشتقة من جذر فى اللغة يعنى الجهد أو المشقة ويمكن ان يصدق على الدراسة الفقهية وعلى تطبيق الشريعة وتنفيذ الاحكام ، اذ يسمى الفقيه أو القاضى الى هذه الايام بالمجتهد أى الباحث الذى يتوفر

على المعرفة جادا فى بحثه ، وقد أمر القرآن بجهاد الكفار ولم يعين الجهود التى تعمل لذلك ، وقد استثنى الاكراه فى الدين بنص الآية القرآنية . ولكن الجهاد اكتسب فى أيام الفتوح الظافرة بعد وفاة النبى معنى القتال بما يفيد أن الحرب فى هذه الحالة مقدسة تشهر فى سبيل نصر الله وتعظيمه ، وكاد أن يحسب ركنا من أركان الايمان المفروضة على كل مسلم . ومن الوجهة النظرية تعد دار الحرب خاضعة لحكم الفتح ولكن خلفاء الاسلام وسلاطينه عقدوا المحالفات واتفقوا على عهود السلم والمودة والمعاملات التجارية مع الأمراء من غير المسلمين على الاقل منذ عهد هارون الرشيد وشرلمان

« وقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة فى اخضاع البلاد التى لا تدين بالاسلام للسيطرة الاسلامية ، اذ ان القتال لم يكن له كل هذا العمل فى انتشار الفتوح حتى فى ابان القرن الأول بعد الدعوة ، وانما تم معظم هذه الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح ، ووردت فى هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملة بالمرهقة ، فليست فكرة النار والحديد بالفكرة الصحيحة التى يؤيدها الواقع ، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبى أن نسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلوا فى تجسيم أثر الأكراه فى الدعوة الاسلامية اذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الاسلام والسيف وانما كان تخييرا بين الاسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى البلاد الانجليزية على عهد الملكة « اليصابات »

« بل نحن نجد أن الوثنيين من اهل البلاد المفتوحة لم

يعرضوا على السيف على قول الفقهاء المسلمين ، وهم أكثر الداخلين فى الاسلام عددا خلال القرون التالية ، وهم أصدق برهان على الخطة العمليــة التى لم تدر دائمــا للرأى وفاقا أى بصيغته النظرية »

وتمضى المؤلفة على هذا النحو فى تفسير معنى الجهاد قولا وعملا الى العصر الحاضر اذ يفهم من بعض تطبيقاته على أنه عمل واجب لاسترداد كل أرض مغصوبة أخرج فيها المسلمون من ديارهم عنوة وبغيا ، وهو بهذه المثابة دفاع محتوم

***

وانتهت المؤلفة الى الكلام على « الدولة الاسلامية » فى العصر الحديث فأشارت الى اعتقاد بعض الغربيين أن الاسلام لا يصلح لاقامة دولة تســاس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية ، وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقالت : ان تاريخ الحكم الاسلامى يدحض هذه الظنون ، وأن مفكرى الاسلام فى جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية واخرجوا لأممهم مذاهب فى السياسة والولاية تسمو الى الطبقــة العليا ، وقد اشتهر منهم اثنان هما ابن خلدون المتوفى « سنة ١٤٠٦ ميلادية » والفارابى الذى سبقه ببضــع قرون . وتقول الكاتبة ان الفارابى رجع بآرائه عن الحكومة والدولة الى أسس اغريقية ، أو أسس قائمــة على الافلاطونية الحديثة ، ولكن الفيلسوفين المســلمين لم ينحرفا عن قواعد الاسلام فى وصف الحكومة ، وان كان كل منهما يصف المجتمع الاسلامى كما عهده بين أقوام زمانه ..

والفصل الاخير من الكتاب يلملم أطراف البحث ليضع العالم الاسلامى والعالم الغربى وجهــا لوجه فى موقف

المقابلة وموقف الحاجة الى الفهم المتبادل والمعـــاونة الانسانية.وتذكر المؤلفة طائفة من الغربيين يرونأن المسلم العصرى يحاول أن يجارى العصر ولكنه يغمض عينيه عن المناقضات التى تحول بينه وبين مجاراة عصره مع تسليمه السابق بصواب كل حكم من أحكام دينه وصلاح كل حالة من أحوال ذلك الدين لدواعى الزمن الحاضر ، ودواعى الازمنة التى تتلوه . ولا ينتظر ان تجرى على منواله .
وتعود ، فتذكر صعوبة الموقف من وجهة النظر الاسلامية مع سوء الظن بمقاصد الغرب وقلة الثقة بمزايا الحضارة الغربية ، وعندها ان التفاهم لا يأتى من جانبواحد ، وأن الصعوبة من هنا تقابلها صعوبة من هناك ، وكلتاهما عصية على التذليل ما لم تكن عند الفريقين رغبة صادقة وأمـل قوى فى امكانه

وتتم الكتاب بهذه الاسطر القليلة التى عبرت بهـا المؤلفة عن نتيجة الواقع وأمنية المستقبل فى وقت واحد، فقالت : « ان محاولة التوفيق والملاءمة بين الظروف فى هذه الدنيا العصرية المستحكمة آخذة لا تزال فى مجراها الى غايتها من جانب الشرق ومن جانب الغــرب ، وأن الغرب ينظر وهو يقنع بالمراقبة وقلمـا يقترح الحـلول وأن عمل على رفع العوائق من حين الى حين ، وعليه كيفما كانت الحال أن يحاذر الاســـتخفاف أو التعرض بوحى الطمع والاثرة لجهود الشرق فيما يعالجه من السعى الى غايته لتقدير مكانه بين صفوف الانسانية دون أن يفقـد كيانه أو يفرط فى وجدانه »

الاسلام والثقافة الافريقية

من تصانيف العصر النافعة كتب مخصصة لتسجيل

مظاهر الثقافة يوشك أن تنحصر فى الارقام والخرائط مع بعض التعليقات التى توضح بالكلام أغراض الرسوم والاحصاءات ، وهى رسوم تمثل النسب المتقـــابلة فى توزيع اللغات والعقائد والفنون والنظم الاجتماعيـــة ، وتقرن أحيانا بالخرائط الجغرافية أو يكتفى فيها بجداول الاحصاء وعلامات النسب البيانية ، وقلما تشتمل هذه التصانيف على آراء خاصة لمؤلفيها او على الاصـــح لجـامعيها ومبوبيها ، بل هى تترك للقـارىء أن يبحث لنفسه ويراجع ما شاء على حسب قصده ، ويبنى مايعن له من الاراء على بحوثه ومراجعاته

والقارة الافريقية أوفر القارات الخمس حظا من هذه التصانيف ، وبخاصة فى هذه السنة الستين بحسـاب التقويم الميلادى ، لانهم أطلقوا عليها اسم « سنة الفصل فى القارة القديمة » لاتخاذها فى كثير من أقطار القـارة حدا فاصلا لتوقيت مواعيد الانتقال من نظام الانتـــداب الى نظام الحـكم الذاتى أو الاستقـــلال او الحقـوق الدستورية ..

ولا يخفى على القارىء من النظرة العاجلة فى هـــذه الكتب مبلغ الاهتمام بالاسلام ومصيره فى القارة القديمة، وما يتبين للباحث من عوامل الثبات او عوامل المزاحمة التى تنازعه الغلبة على مقاليد الثقافة الروحية والفكرية

وفى هذا المقال نعرض بعض الامثلة لتلك التسجيلات مقتبسة من مصادر مختلفة أشهرها وأحدثها كتـــاب « الاستمرار والتغـــير فى الثقافات الافريقيـــة (1) من مطبوعات جامعة شيكاجو وشركائها فى البلاد الانجليزية»

وأثر اللغة أول الاثار التى يدركها الاحصاء وتظهـــر فيها الفوارق بين موضع وموضع ، من البلاد التى تتكلم

(1) Continuity and Change in African Cultures

العربية الى البلاد التى تتكلم بلهجات متعـددة من الألسنة الزنجية ، ففى هذه البلاد تسرى الكلمات العربية بمخارجها الاصيلة أو المحرفة بين قبائل السود حينما اتصلت بالمسلمين ، ولو لم يدخل أهلها فى الديانة الاسلامية ..

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة أن ابناء القارة يتكلمون بنحو سبعمائة لهجة ليس بينها غير اربع صالحات للكتابة بحروف أبجدية ، أولها العربية ثم الامهرية الحبشية ثم لغة (تماشق) البربرية ثم لغة (فاى) فى ليبيريا ، وهذه احدى العقبات الكبرى امام المرسلين المبشرين الذين يفتحون المدارس لتعليم الافريقيين ، فانهم يلقون المصاعب الكثيرة لاقناع الافريقيين بتعلم اللغات الاوربية ويلقون اكثر من هذه المصاعب فى نشر التعليم باللهجات الافريقية، ولكن هذه العقبات تتراجع امام اللغة العربية التي يتكلمها فى القارة نحو سبعين مليونا ولا يتعسر على من يريدون نشرها ويبذلون الجهد فى تعليمها أن يجعلوها لغة الثقافة العامة ، لو انهم توفروا على تعميم المدارس كما يتوفر المرسلون المبشرون على تعميم مدارس التبشير

ويفهم من الاحصاءات ايضا ان الاسلام سريع الانتشار ولكن العلم به « سطحى » بين قبائل القارة الاصلاء ، ومن آثاره (الحضارية) حتى فى البلاد التى لا تدين به أن كهانها يتشبهون بشيوخ المسلمين فى أزيائهم وان القبائل التى تهتم بمحاربة السحر والساحرات من أهل «النيجر» يشتركون مع المسلمين فى استخدام الذرائع التى يحسبونها ناجعة فى ابطال السحر والمكائد السحرية وربما اختلط الامر فلا يدري الباحث أي الفريقين يقتدى بالآخر فى استخدام الرقى والتعاويذ

وقد لوحظ ان الشبان من قبائل (الموسى) Mossi

أقرب الى اقتباس العقائد الاسلامية ، ويعودون الى أهلهم من بلاد (النيجر) مسلمين متحمسين فى الدعوة الى عقيدتهم الجديدة ، ثم يقول مؤلفو الكتاب ان هؤلاء الشبان أصغر سنا من أن يسمع لهم بين قومهم ، ولكنهم اذا طال مقامهم بين القبائل الاسلامية وعادوا الى أهلهم بعد مجاوزة الشباب تفتر حماستهم ويقنعون بما يعتقدونه بينهم وبين أنفسهم ولا يكترثون لاقناع الاخرين بما اكتسبوه من شعائر وأخلاق

ويرجع فضل العناية بالأبنية وتزيينها بافريقية الغربية الى الحضارة الاسلامية التى تأصلت فى الشمال وسرت منه الى الغرب والجنوب « فان تأثير فن العمارة فى شمال افريقية ظاهر على أنحاء الصحراء الى المغرب ، حيث تزدان مساكن الوجهاء بالرسوم الهندسية » ... وقد يرجع كثير من الفضل الى الاقتداء بالمسلمين فى اتخاذ الملابس حيث لا تستدعيها ضرورات الجو والحاجة ،ويتبع ذلك فضل الاهتمام بصناعات النسيج والحياكة وما اليها

وتدل البقايا والاثار على قدم صناعة المعادن من الذهب والفضة والشبه فى أقطار القارة ، ولكن العرب هم الذين توسعوا فى كشف المناجم بعد وصولهم الى افريقية الشرقية ، وتمكنوا من استخراج المقادير الوافرة وتصديرها الى العالم الاسلامى كله فترة بعد فترة من القرون الوسطى ..

ويذكر المؤلفون أثر العرب وأثر الاوربيين والامريكيين فى حياة الفنون الافريقية ، فيلاحظون أن سريان الذوق الفنى من قبل العرب لم يهدد كيان الفنون الوطنية بالزوال ولم يطمس معالمها التى تحفظ وجودها وتميزها من الفنون الطارئة عليها ، ولكن القدوة بالاوربيين والأمريكيين أوشكت أن تذهب بالمزايا « المشخصة »

للروح الافريقية وكادت أن تمحو معالمها جميعا لولا انتباه المسئولين الى هذا الخطر البالغ من الوجهة « الأثنولوجية» ـ أى وجهة علم الاجناس ـ واسراعهم الى تدارك البقية الباقية بانشاء المعاهد والجامعات التى يتعـــاون فيها الاجانب والوطنيون على حفظ قواعد الفنون ، وابرازها فى صورتها العصرية ، دون الاخلال بمعانيها التاريخيـة وسماتها القومية ..

والموسيقى احدى الفنون الجميلة التى انتفعت بدخول المسلمين الى القارة فى كل جانب من جوانبهـا ، « وقد عرف أثر الموسيقى العربية ـ كما يقول المؤلفون ـوتكرر الاعتراف به كرة بعد كرة ، الا انه لم يلق من الدراسـة الوافية ما يحيط بجميع نواحيه ، فلا محل للخـلاف فى تغلغل هذا الاثر بين أبناء افريقيةالصحراوية ، ولا بين أبناء غانة وشواطئها ، ولا بين أبنـاء السودان الشرقى وجهات الصومال ولكنه أثر غير واضـــح ولا مفسر الى الجنوب من تلك الاقاليم ، وان يكن ولا شـــك قويا فى الشاطىء الشمالى والاقاليم الوسطى »

ويكثر المؤلفون من بيان المصطلحات الفنية وتطبيقها على الانغام والاصوات ، فى موسيقى القبائل على تفاوت درجاتها من الحضارة والتهذيب ، ولكنهـم يذكرون أن (الايقاع الحار) ، يقل بين القبائل كلما توشجت علاقاتها بالمسلمين ، ويعنون بالايقاع الحار تلك الحركات العنيفة التى يتتابع فيها الدق والقفز ويوشـــك الرقص الذى يصاحبهـــا أن يـكون تخبطا عارما ، كتخبط المصروع والمخبول ، ويضاف الى هذا الاثر المهذب الملطف للذوق والشعور اثر مثله فى أصوات الغناء وتعبيرات الالفاظ ، فلا يصعب على السامع تمييـــز الاغانى التى ينشدها الزنوج المغرقون فى الهمجية من أغانى الزنوج الذين دانوا

بالاسلام أو اتصلوا بالمسلمين ولو لم يدخلوا فى الديانة الاسلامية ، فان الايقاع « الحار » يندر بين أبناء القبائل التى فارقت همجيتها واقتربت من مواطن العرب المسلمين ..

ويشير الكتاب الى فعل التبشير فى تغيير الثقافة ، فيعزو نجاحه حيث نجح الى تنظيم المدرسة والاشراف على التعليم ، ويقول : « ان جماعات المرسلين ذات شأن فى بلاد النيجر وفى غيرها من البلاد الافريقية ، ولا يحسب لها هذا الشأن لانها جاءت الى أهل البلاد بعقائد جديدة وشعائر مستحدثة وحسب ، بل يقوم شأنها بصفة خاصة على ولايتها لمعظم أعمال التدريس ، ولا يبدو أن هناك شيئا فريدا فيما صنعه المرسلون ببلاد قبيلة (الايبو) قياسا الى سائر القبائل النيجيرية وان كانت قد بدأت متأخرة بعد ابتدائها فى الجنوب الغربى ، أما فى شمال نيجيريا فلم يتسع قط عمل المرسلين لقيام النفوذ الاسلامى هناك ، وانه لواسع الاثر الى الجنوب سعته الى الشرق والغرب الجنوبيين »

***

وتسلم الاحصاءات أحيانا بالجوانب الاخلاقية والاجتماعية التى ترتبط بها رعاية الانساب والاعراض ، فيفهم منها أنها تغيرت كثيرا أو قليلا على قدر اتصالها بالديانتين الاسلامية والمسيحية ، ولكن هذا التغيير لم ينتزع جذور الخرافات القديمة ولم يبطل ايمان القوم بالسحرة والارواح وأنواع المحظورات التى قدستها التقاليد من أقدم عصور التاريخ المجهول ، وهى بين جوانب القارة الافريقية توغل فى القدم الى ماقبل الاف السنين ولم تنصرم بعد فى أرجاء منها تكتنفها ظلمات المجهول الى اليوم ، وربما تسربت هذه الخرافات الى

شعائر الاسلام والمسيحية واعتبرها القوم مجالا منفصلا عن مجال العبادة والايمان ، فهم يقتدون فيها بسحرتهم وشيوخهم ولا يبتغون فيها الهداية من الشيخ أو القسيس ..

***

ونحن نختم هذا المقال وبين أيدينا بريد الغرب من الصحف والمجلات التى تفرد بعض أبوابها للمسائل الدينية ، نفتح احداها على باب الدين فنقرأ فيها عنوان « الغزوة لصيد الارواح » ويسمى الكاتب هذه الغزوة باسمها فى اللغة السواحلية وهو اسم « السفرة » من السفر باللغة العربية .. ويطلقونه على حملات الصيد التى تخرج الى الغابات والقفار مزودة بعدتها الكاملة لاصطياد الفيلة والسباع

أما هذه الغزوة لاصطياد الارواح Safari for Souls فقائدها هو الواعظ الانجيلى المشهور بيلى جراهام وغايتها الطواف بالقارة والنزول بست عشرة مدينة من مدنها المشهورة خلال ستة اسابيع يلتقى فيها بالجموع التى تخف الى استقباله أو يدفعها حكامها الى محافله واجتماعاته ، ويصطحب فى ركابه مترجمين من الوطنيين والاجانب يتكلمون لغات القبائل ويستطيعون ان ينقلوا منها ما يستمعونه من لسانه على أثر القائه . وقد بدأ الواعظ غزوته وهو يقول للصحف (أن سنة ١٩٦٠ ربما كانت أهم سنة فى تاريخ هذه القارة) .ونقلت الصحيفة طرفا من خطابه الاول فكان مثالا جليا لخطة هذا الواعظ القدير فى سياسة التبشير ، لانه بدأه باسم السيد المسيح الذى قال عنه انه ليس بأبيض ولا أسود ، ولكنه حمل الى القارة الافريقية وهو طفل صغير للنجاة به من مظالم الملك هيرود ، ثم انحى على الانسان « ذى الريالين » يعنى

به ظاهرا ذلك الانسان المادى الذى لا يساوى أكثر من ريالات معدودة اذا قدرت قيمته بثمن لحمه وعظمه فى أسواق الابدان ، ويعنى به من طرف بعيد أن قيمة الاسود بتقويم الروح أغلى من أثمان اصحاب الريالات ، ومن ثمن الانسان ذى الريالين !

وستعقب هذه الغزوة غزوات على مثالها كما يظهر من البرنامج المرسوم لسنة الفصل – سنة ١٩٦٠ – فى تقدير الساسة والمرسلين ، وليس لنا أن نلوم غازيا من هؤلاء الغزاة على اجتهاده فى دعوته وتدبيره لنجاح مقصده ، بل ليس لنا أن نلوم أوربيا او امريكيا لانه يحاول أن يعرف عن افريقيــة والافريقيــين ما يتعلمه منه الأفريقيــون ، ويكسب به من طريق الآخرة ما فاته من طريق الدنيا الحاضرة ... ولكننا نرجو ان نلحق بهم فى هذا المجال ، وأن نحفظ للقارة التى تؤوينا ذمار الوطن المستقبل الآمن على فكره وضميره أن يتمــاد فى أذيال الواغلين عليه ، ليصطبغ بغير صبغته فى الحياتين ، ويخلص من فتــح الديار ، الى فتح الضمائر والافكار

الله فى العقيدة الاسلامية

وفى أقوال علماء المقارنة بين الأديان

علم « المقارنة بين الاديان » يسمى علما مع الحيطـة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء لانه من المعارف التى يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة كاختــلافهم فى العقيدة الدينية وفى النظر اليها

فمن علمائه من يؤمن بعقيدة يصدقها ولا يصدق غيرها، فهو يبتدىء البحث بحكم قاطع على العقائد الاخرى يجزم

بتكذيبها قبل الموازنة العلمية بين ادلة التصـديق وأدلة التـكذيب ..

ومن علمائه من يؤمن بعقيدته ويؤمن بصدق العقائد الاخرى فى أوقاتها ومناسباتها ، ويرجع بالخطأ والنقص فيها الى انتهاء زمانها او الى عوامل التشويه والتبديل التى طرأت عليها ، فهذا العالم يواجه البحث مفتـوح العينين مستعدا لقبول الحسنة والسيئة ولكنه يرتبط بنتيجة سابقة لا يسمح للمقدمات أن تذهب به الى نتيجة غيرها ..

ومن علماء المقارنة بين الأديان من يؤمن بالغيب ويؤمن بالاله ، ولكنه يحكم على الاديان كأنها أعمال انسانية تقاس بمقاييس النظر الى الرسل والانبيـــاء والى التابعين لهم من الأمم والجماعات أو الآحاد . فهو يحفظ لموضــوع البحث حرمته وقداسته ويقبل التفصيلات بعد ذلك أو يرفضـــها على حسب أسـانيدها الانسانيـة وظروفها الواقعية ، فيعالجها تارة بمقاييس الغيب المجهول وتارة أخرى بمقاييس الواقع المشهود التى تتردد بين الانبـــاء والأفكار ..

ومن علماء المقارنة بين الاديان من ينكر الأديان أصــلا ولكنه يؤمن بصلاحها لسياسة الامم وتعزية النفوس ، ومنهم من ينكرها أصلا وينكر فائدتها وصلاحها ، بل يرى انها خدعة مقصودة وغير مقصودة يخترعها الرؤســـاء وتمالئهم على اختراعها البديهة الشـــعبية فلا تســتحق بعد فوات الخدعة غير التفنيد والتجريح

وهؤلاء المنكرون جميعا يبحثون العقيدة غير معتقدين ، فيخفى عليهم جوهر العقيدة فى صميمه ولا يتأتى لهم أن يحكموا على شىء يجهلونه أو احساس لا يشعرون به حكما يصدر عن فهم وأع وادراك محيط ، فانهم كمن يحـكم

على الكائن الحي بعد وصوله الى مائدة التشريح مفقود الحياة ، فلا يخلو حكمهم من النقص الذى يتعرض له كل حكم على مجهول غير محسوس به على وجهه الذى يتم به وجوده فى عالم العمل والحياة

ومن أولئك الباحثين من يقارب موضوعه كما يقارب الشاعر موضوع ملحمة تاريخية يؤمن بحدوثها ايماناً لا شك فيه ولكنه يتصوره كما يتصور ملاحم البطولة بين المجاز والخيال والواقع ، فلا يعرضها ليقول للقارىء هل يؤمن بها أو يرفضها ولكنه يعرضها ليشهد القارىء مافيها من بواعث الروعة والجمال ، وما تحدثه فى الخواطر من دواعى الشعور والتأثير،وهؤلاء الباحثون يقرأ لهم القارىء فلا يحاسبهم بحساب الدين ولا بحساب العلم ، وانما يحاسبهم بحساب الاسلوب أو بحساب العرض الفنى ، ولا يعطيهم من العناية فوق هذا المقدار

من هؤلاء الأخيرين الاستاذ أستاس هايدون Eustace Haydon صاحب كتاب « تراجم الارباب » Biography of The Gods

وقد كان أستاذا لعلم تاريخ الاديان بجامعة شيكاغو عند تأليف هذا الكتاب ، ويظهر أسلوبه وموضوعه من عنوانه القصصى ، لانه يتكلم عن حياة الاله المعبود كأنها ترجمة تبدأ بظهور الديانة التى تدعو اليه وتتقدم بين النشأة والشباب والبقاء أو الزوال على حسب مصير الديانة من الشيوع والانتشار أو من الخمول والتبدل والانقراض

وفى هذا الكتاب تتابعت تراجم أرباب الديانات المجوسية والصينية واليابانية ، ثم انتهى الكتاب بالكلام على « الله » بعد الكلام على « يهوا » كما يصفه كتاب العهد القديم ، فكانت فاتحة الكلام على الاله فى العقيدة الاسلامية أن الاعتقاد به غير مستعار من ديانات الامم الاخرى ، وأن الدعوة الى الايمان بالله كان يمكن أن تظهر

حيث ظهرت ولو لم تدخل الجزيرة العربية عبـــــادة من خارجها ، لان وحدانية الله فى الاسلام لم يسبقها مثيــل لها فى صفة الوحدانية التى لا هوادة فيها ولا فى غيرها من جملة الصفات المستفادة من أسماء الله الحسنى

ولا حاجة الى بيان الخلاف بين المفهوم من صفات الله فى عقيدة المؤمن المسلم وبين المفهوم من هذه الصفات فى هذا الكتاب ، ولكن المؤمن المسلم لاينتظر من غير المسلمين ولا من الكاتبين بهذا الاسلوب الذى يسوق الدراسـات مساق القصة فكرة عن « الله » هى أقرب الى «الاحترام» من فكرة الله فى كتاب تراجم الارباب

ان « الله » الذى يدين به المسلمون لم يخذلهم فى حياة البادية ولم يتركهم فى حياة الحضارة الممتزجة من بقايا الدول الفارسية والبيزنطية التى انتقل اليها المسلمون بعد انتشار الاسلام فى الاقطار الآسيوية والأفريقيـة ، وقد وصل الى أبعد اقطار العالم المعمور فى هذه القارات قبل انتهاء المائة الثانية من تاريخ قيام الدعوة المحمدية

وفى خلال هذه الرحلات المتباعدة لقى المسلمون عقيدة الفلسفة اليونانية القديمة ، وسمعوا بالله يسميه أرسطو السبب الاول ، وتقول الافلاطونية الحديثة انه يكل تدبير العالم الارضى الى فيض بعد فيض من خلائقه العليا حتى ينتهى الى ما دون فلك القمر فيتصل بعالم الفساد على بعد ويمهل عباده على الارض الى حين ، ريثما تعـــود عقولهم الهيولانية الى الاتصال ـ بعد الجهاد ـ بالعقــل الاول مصدر هذه الفيوضات

ولو أن معبودا آخر فهم المفكرون من عباده أنه لا يعدو أن يكون « سببا أول » أو علة رياضـية بعيـدة عن هذه الحياة الانسانية لما بقيت لعبادته بقية فى عقول قراء العلم والفلسفة ، ولاصابه ما أصاب المعبودات المهجـورة من

(الانيميا) القاتلة للارباب الباطلة على حد تعبير الكتاب

ولكن الفلسفة اليونانية لم تزعزع عقيدة المسلم المفكر فى (الله) بل استطاع الضمير الاسلامي أن يخرج لتلك الفلسفة اندادا لها من المفكرين على طريقة الامام الغزالى : « براس فيلسوف ، وقلب ناسك » أو على طريقة الامام الاشعرى : بتسليم صاحب البحث ، وبحث صاحب التسليم ». فخرج الايمان بالله وصفاته المتعددة سليما ، منزه الوحدانية بعيداً من شبهات الفلاسفة واتباع الزندقة المثنوية

ويتخلل الكتاب خلط كثير يمتزج بالسخافة أحيانا كلما حاول تصوير الظروف الطبيعية والاجتماعية ، التى يفسر بها ثبات المسلم على الايمان باله أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ولكنه يعود حيناً بعد حين الى عناصر قوية تكمن فى ذلك الايمان وتهيىء له أسباب النجاة من الشكوك والبدع التى لاتسوقها تقلبات الزمن وعوارض الاحتكاك بالحضارات الاجنبية ، وهذه العناصر القوية هى التى أنجدته مرة أخرى بعد محنة الفلسفة اليونانية عندما واجهته العصور المتأخرة بمحنة كبرى لا تذكر محنة الفلسفة اليونانية بالقياس اليها ، ففى هذه العصور المتأخرة استطاع الضمير الاسلامى أن يخرج للمحنة الجديدة أندادا لها من المفكرين المؤمنين خلفاء الغزالى والاشعرى وورثة الحكمة والتصوف وأعلام المحافظة والاصلاح ، « وأعظمهم الامام المصرى الشيخ محمد عبده » فانه حفظ العقيدة الموروثة دون أن يمس بها وجدد الايمان باله الاسلام السرمدي بلا أول ولا آخر ، فردا لا مثيل له فى قدرته وكماله ، حيا عالما مريدا سميعا متكلما بصيرا ، يخيل الى من ينظر الى هذه الصفات لاول وهلة أنها حكاية جامدة من بقايا الماضى ، لولا أن الشيخ

محمد عبده ينفض عن الدين ما علق به من جمود القدرية ويقرر نصيب الانسان من التبعة وواجبه فى صلاح العالم معتمدا على عون الله له في اقامة النظام الاجتماعى الصالح ، والقيم الاخلاقية الملائمة لذلك النظام »

ومن متاعب علماء المقارنة بين الاديان ممن يعولون أولا وآخرا على طبيعة الأرض والسكان فى تعليل العقائد أن يعللوا هذه القوة ـ قوة العقيدة الالهية فى الاسلام ـ بعلة طبيعية يتواضعون عليها ويطبقونها على سائر العقائد ، اذا كان المسلمون قد انتشروا فى بقاع كثيرة بين أمم مختلفة فى أزمنة متفاوتة فلا تصلح العلل المتفرقة بين هذه البقاع والأزمنة لتعليل عقيدة واحدة ، ولا معنى للتفسير اذا اشتركت جميع هذه العلل فى أثر واحد ..

ولكنهم ـ على وضوح الخطأ فى الاستناد الى سبب طبيعى واحد لتفسير هذه الظواهر المتعددة ـ يتلاقون عند وجهة يكررونها على نحو متشابه ، ولا يقع الخلاف فيها كثيرا بين مدارسهم المتناقضة ، ومنها المدارس التى تعطى الاديان حقها من أدب الرعاية والاحترام والمدارس التى تستخف بأسبابها ونتائجها ، ولا تتكلف لها ماينبغى لموضوعها من التثبت والامعان في المراجعة والتحقيق

تلك الوجهة الواحدة هى غلبة العوامل « الجسدية » على عقائد الديانة الاسلامية ، وبرهان هذه الفلسفة الحسية عندهم هو الاعتماد على السيف فى نشر الدعوة وأوصاف النعيم السماوى فى الدار الآخرة

وقد يكفى لاسقاط هذا الرأى ما ألمعنا اليه من استحالة تفسير العوامل المتناقضة بعلة طبيعية واحدة ، أو يكفى لاسقاطه احصاء المسلمين والمقابلة بين عددهم فى البلاد التى فتحت بالسيف ، والبلاد التى لم تحارب المسلمين ولم يحاربوها ، أو احصاء عدد الداخلين فى الاسلام على

أثر الفتح وعدد الداخلين فيه مختارين بعد ذلك بعصور متطاولة . ولكننا نكتب هذا المقال بين معالم شهر رمضان ونقنع منه بصفة واحدة تدل على حكم الاسلام فى مسائل الحس وواجب المسلم نحوها ، ولا تحتاج الى دلالة أخرى لتقرير موقف الاسلام بين الحياه الروحيـه ، والحيـاة الجسدية ، وتلك الصفة هى تخصيص شهر كامل من شهور السنة ، تقوم فيه حياة المسلم خلال هذا الشهر على حكم شهوات الحس واخضـاعها للارادة فى أقوى مطالب الجسد من طعام ومتاع ، وهى فريضة تعلم المسلم واجبه فى سائر أيام حياته ، وتلهمه أنه صاحب ضمير يملك زمام نفسه ويأخذ من الحس بما يشاء الانسـان العاقل المريد ..

وكل فريضة من فرائض الاسلام هى فى الواقع صورة أخرى من صـورة هـذه الرياضـة العـامة فى جميـع أوقات الحياة . فالمسلم لا يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ليكون (مخلوقا حسيا) مستغرقا فى مطالبه الجسدية ، ولا تجب عليه الزكاة لانه (مخلوق حسى) ينقاد لمطامع النفس وشهوات الجسـد ، وليس الحج بواجب عليه لانه (مخلوق حسى) يستسلم للدعة ويطمئن الى الراحة ويحجم عن مشقة السفر وبذل المال والتضحية بشىء منه وهو مرتحل أو مقيم ، بل هو لا يشهد بوحدانية الله ليشرك معبودا آخر مع الله يتمثل فى عبادة الدنيا والاستسلام لغوايتها على وجه من الوجوه

انما العقيدة الالهية فى الاسلام عقيدة حسية روحية كما ينبغى أن تكون كل عقيدة يؤمن بها كائن حى عاقل له جسد وروح ..

والله خالق الحياتين ومانح السعادتين فى الدارين ، فلا ينبغى أن يكون قوام عبادته مسخ الجسد وازدراء

الدنيا ، ولا أن يكون قوام عبادته تسليم الدنيا للشيطان والابتعاد منها كأنها من عمل عدو لله وليست من عمـل الله ولا من نعمه التى ارتضاها لعباده بتدبيره وهـداه

ونختم هذا المقال كما بدأناه فنعيد فى ختامه أن علم (المقارنة بين الاديان) يسمى علما مع الحيطة ... لانه معارف شخصية يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة ، ولكننا نعيده لنضيف اليه شاهدا من الشواهد «المحسوسة» على وجوب الحيطة فى تناول آراء الباحثين فى هــــذا العلم ، فان بها لنقصا يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الاسلام ، فلا مناص من تغييرها أو تغيير التـاريخ الثابت الذى لا ينكرونه اذا عادوا اليه بالتمحيص النزيه ..

اذا صدق علم المقارنة بين الاديان على أسس الاسباب الطبيعية التى تفهمها مدرسـة التعليـل الطبيعى وجب أن يكون اعتقاد المسلم بالله كالاعتقاد (بشيخ عربى) كبير تضاعفت قواه الحسيه على النسبه التى تكون بين رئيس قبيلة وبين رئيس الخلائق جميعـــا ، وصاحب الامر والنهى فى السماوات والارضين ..

ولكن علم المقارنة بين الاديان لا يصدق الحكم فى هذه القضية ، لان « الله » فى عقيدة المسلم ينسخ آداب الشيخ العربى القديم وأولها العصبية وايثار الآل والبنين . وأين يجد الباحثون أثرا من آثار الشـيخ العـربى فى معبـود سرمدى لم يلد ولم يولد ولا فضل لاحد من العالمين عنده بغير التقوى ، وليس يحب العدوان والمعتـدين ولا يأمر بغير البر والاحسان

فان دليل المقارنين بين الاديان ليتخبط فى طريق مضلة لا تهديه الى شيخ ولا الى شىء لانه يولى وجهه الى قبلة

غير القبلة وعلى سبيل غير السبيل فاذا أدار وجهه عنها فأينما يول فثم وجه الله

أديان الدعوة

من التقسيمات المتواترة عند علماء المقارنة بين الملل والعقائد تقسيم الاديان فى العالم الى أديان دعوة ، وأديان « مقفلة » أو محصورة في بيئة خاصة ، وأكبر أديان الدعوة عندهم فى العصر الحاضر ثلاثة : البوذية والمسيحية والاسلام ، وأولها تنحصر الدعوة اليه فى التلمذة ؛ ومصاحبة المريدين للائمة والرؤساء فى الهياكل والصوامع ودور العبادة ..

ظهرت فى العهد الاخير طبعة جديدة من كتاب « المطالعات فى الاديان العالمية » وجملتها أحد عشر دينا هى : الهندوكية والشنتية واليهودية ، والزردشتية أو المجوسية ، والطاوية ، والكنفوشية، والجانية ، والبوذية، والمسيحية والاسلام ، والسيخية . ويقول الكتاب فى التمهيد للديانة الشنتية Shintocism وهى ديانة أهل اليابان : « اننا رأينا فى ختام الفصل السابق أن الهندوكية هى الديانة القومية العنصرية للهنود ، وأنها تخصهم وحدهم وتخص بلادهم وحدها ، وليس لها مؤسس معين معروف ، بل ترجع نشأتها الى ما قبل التاريخ ، فلنعلم أن الشنتية هى من هذا القبيل ديانة أهل اليابان ، فهى مقصورة على اليابانيين لا يعرف لها مؤسس معين منذ نشأتها قبل التاريخ ، وكلتا الديانتين لا عناية لها بالدعوة الى الدخول فيها ، فكل منهما تعبير طبيعى لشعب خاص، وجزء من ثقافة اجتماعية لا تتقبل الغرباء »

ويعود الكتاب فيقول تمهيدا للكتابة عن الديانة اليهودية : « ان ديانة اليهود أيضا ذات ارتباط بشعب

معين كما يؤخذ من تسميتها باليهودية أو العبرية ، وهى لهذا تشبه الهندوكية والشنتية فى أنها ديانة مقفلة أي ليست من ديانات الدعوة ، وانما تختلف بأن الهندوكية والشنتية كلتاهما ديانة شعب مستقر فى وطنه منذ عهد بعيد . وأن اليهود تعرضوا للشتات غير مرة ، فوقعوا فى أسر مصر وبابل وفقدوا وطنهم بعد أن استولى العاهل الرومانى (تيتوس) على أورشليم سنة سبعين للميلاد »

ولما عرض الكتاب للدين الاسلامى قال انه دين دعوة وانه لا يزال ينتشر فى القارة الافريقية وبين الشعوب المتأخرة . ولكنه لم يحاول أن يبحث عن حقيقة الفارق بين اديان الدعوة والاديان المقفلة التى لا تعنى بادخال الغرباء فى ملتها .. الا فارقا واحدا ذكره غير مرة وهو الفارق بين الدين الذى يعبر عن بيئة محدودة والدين الذى يسرى الايمان به الى أقطار لا تحدها المواضع الجغرافية أو الروابط العنصرية

على أن الفارق الاصيل ظاهر ، بل مفرط فى الظهور . حتى ليكفى فى تلخيصه بضعة سطور ، غنية عن الافاضة فى الشروح والاكثار من الاسانيد

ان ديانات الدعوة مفهومة فى حالة واحدة وهى حالة الايمان بالضمير الانسانى واستعداد الانسان فى مختلف البلدان والاجناس للايمان بالتوحيد ، ولا يتأتى أن ينتشر دين دعوة يعم الناس جميعا قبل أن يفهم الناس أن الدين هداية يتقبلها كل من له عقل يعى ، وضمير يميز بين الخير والشر ، وبين العمل الصالح والعمل الطالح بمعزل عن الحدود الجغرافية وحدود العنصر والنسب وأصول الاسلاف ..

فالدين عند أصحاب الملل التى تدعو اليه عقيدة انسانية تقوم على التوحيد وليس بصبغة محلية محدودة،

ولا بفريضة سياسية تمليها السلطة الحاكمة ، ويخضع لها الرعايا المحكومين

هذا الفارق فى تطور الانسانية واضح جدا لو شاء علماء المقارنة بين الاديان أن يستوضحوه . ولكنهم لا يشاءون ولا يحبون أن يشاءوا مختارين ، لان النتيجة المحتومة لو نظروا الى هذا الفارق أن يرفعوا الاسلام الى القمة العليا بين العقائد الدينية ، وأن يمتنع عليهم تعليل انتشاره بموافقته للشعوب المتأخرة كما يقولون كلما عرضوا لمسألة الدعوة والشيوع

فالاسلام قد جاء بعد أن بلغوا من التطور فى فهم الدين بعد التمييز بين هداية الضمير وبين فواصل الامكنة والانساب ، فعرفوا أن « الحق الالهى » محصول روحانى وليس بالمحصول الارضى الذى يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع

وآية الاعجاز فى هذا « التطور » أن يطلع على العالم من بلاد العصبيات والانساب ، وأن تكون له آيات بينات فى الايمان بالعقيدة الالهية ، والايمان بالنبوة ، والايمان بضمير الانسان ..

فالله فى الاسلام هو « رب العالمين » يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح

والنبى فى الاسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال، وليس هو بالمنجم الذى يكشف الطوالع والاسرار ، ولا بصاحب الخوارق والاعاجيب التى تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز

والانسان فى الاسلام مخلوق عاقل ذو ضمير مسئول يحاسب على عمله ولا تلحق به جريرة قبل مولده ، وبعد انقضاء حياته ..

ولا حاجة الى الاطالة فى المقابلة بين الاديان ليعلم المطلع عليها من قريب ان هدف العقيده فى الله وفى النبوه وفى الضمير الانسانى هى غاية التقدم الذى ارتقى اليه الناس، بعد الديانات الجغرافية ، والديانات العنصرية ، والديانات التى تنحصر فى بيئة ضيقة ، أو واسعة ، ولكنها لا تحيط بجميع بنى الانسان

ولم يتهيأ بنو آدم وحواء لهـذه المرتبـة من مراتب الايمان الا بعد أطوار بعيدة يعجب لها العقل الانسانى كلما نظر اليها اليوم . كما يعجب لكل ماض درج عليه الاولون وطال بهم عهده . وهو فى رأيهم الان لم يكن ليحتمل البقاء بضع سنين لو حكموا عليه يومئذ كما يحكمون عليه الان

فقد خطر لبعض بنى آدم قديما أنهم وحدهم أصحاب الحظوة عنـد الله وأن أضـعاف أضعافهم من بنى آدم الاخرين ملعونون محرومون !

وقد خطر لبعض بنى آدم قديما أنهم ضائعون صالحين أو غير صالحين ، وأنهم كتب عليهم الموت لانهم هالكون ولانهم يولدون ..

وقد كانت الاديان يومئذ لا تحتمل الدعـوة ولا معنى للدعوة عند أصحابها لان الدعوة انما تكون للهداية الممكنة وللضمير الذى يقدر عليها ولا تكون مع « الاحتـكار » والاستئثار ، فى حدود ترسمها الجبـال والبحـار ، أو ترسمها سجلات الانساب والاثار ..

وها هنا مفترق الطريق التى سلكها الاسلام بالعـالم الانسانى وكان من أجل هذا دين دعوة تهـدى الى ذلك الطريق ..

ويتصل بأمر الدعوة كل مبحث يتناول عدد المسلمين فى العالم وتاريخ الدعوة الى الاسلام فى الازمنة الماضية وفى الزمن الحاضر ، كما يتصل بأمر الدعوة كل مبحث

يتناول صلاح الاسلام للشيوع والاقنــاع وما ينتظر من زيادة عدد المسلمين فى المستقبل بمختلف الوسائل التى تنتشر بها الاديان فى سائر الازمان

ولا يخفى على قارىء يطلع على هذه المباحث أن يلاحظ نفور أصحاب الاحصـــاءات من زيادة عـــدد المسلمين واسراعهم الى قبول التقديرات التى تزيد فى عدد أبنـــاء الملل من غير المســـلمين مع تحفظهم الشديد فى قبـــول التقديرات التى تكثر من عدد الداخلين فى الاسلام قديما وحديثا ، ولا يشذون عن هذه القاعدة الا اذا تعمـــدوا التهويل والتنبيه الى خطر انتشـــار الاسلام بوسـائل التبشير والضغط السياسى أو الاقتصادى حيث يستطاع الاعتماد على هذه الوسائل بغير التجـاء الى المجـــاهرة بالعدوان ..

وقد قرأنا فى مطلع القرن العشرين أن عـــدة المسلمين فى العالم مائة مليون ، وقيـــل فى بعض الاحصـــاءات المتأخرة أن عدد المسلمين فى الصـــين لا يزيد على عشرة ملايين ، ويقول الكتاب الذى نحن بصدده أن عددهم نحو ثلثمائة مليون ، ولكنه لا ينزل بعدد البوذيين عن خمسمائة وعشرين مليونا مع صعوبة التفرقة فى الاحصاءات العامة بين الطوائف البرهمية وبين البـــوذية فى الصين والتبت واليابان وبين البوذية على تعـــدد فروعهـــا فى الهنـــد الشمالية والهند الجنوبية

وممن لاحظ تلك الاخطاء المتعمدة فى احصاء المسلمين الامير شكيب أرسلان صاحب التعليقات على كتاب حاضر العالم الاسلامى فقال فى باب احصاء المسلمين : « .. أما مسلمو الصين فلا تزال الاقوال متضاربة فى عددهم . فمن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليـــونا ومنهم من يحزرهم بأكثر من ذلك بكثير ، وفى هذه الايام لما وقعت

الفتنة بين الصين واليابان من أجـل منشـورية أبرقت الجمعية الاسلامية فى الصين الى أوربا بتلغراف احتجاج قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليونا من مسلمي الصين ، ثم ورد تلغراف من طوكيو يرد على مسلمى الصين زاعما أنهم خمسة عشر مليونا لا خمسون مليونا ، وفيه أن فى منشورية مليونين من المسلمين ينزعون الى تحرير منشورية ، ومما لا شك فيه أن التلغراف اليابانى بخس مسلمى الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان »

ثم قال : « ولقد حزرنا عدد المسلمين فى العالم فى مجلتنا الامة العربية التي نصدرها أنا وسعادة أخي احسان بك الجابرى فى جنيف .. وذلك بنحو من ثلثمـائة وثلاثين مليونا . هذا على تقدير ان مسلمى الصين عشرون مليونا فقط . اما اذا ثبت انهم خمسون مليونا فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة . وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليونا ، سورية ٣ ملايين وفلسطـين وشرق الاردن مليون ، والعراق ثلاثة ملايين ونصف ، وتركيا أربعة عشر مليونا ، وايران عشرة ملايين ، وأفغانستان تسعة ملايين ، والهند الانجليزية ثمانية وسبعون مليونا ، والصـين عشرون مليونا ، وسيام نصف مليون ، والروسـية الاسيوية خمسة وعشرون مليونا فهذه ٢٧٦ مليونا فى آسيا والروسية الاوربية قازان والقريم أربعة ملايين ، ولتوانيا وبولونيا عشرون ألف نسمة ويوغسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفا ، والمجر ثلاثة الاف ، ورومانيـا مائتان وخمسون ألفا ، وبلغارية نصف مليون ، وبلاد اليونان مائة ألف ، وألبانيا تسعمائة ألف ، فهذه سبعة ملايين وثلاثة وعشرون ألفا

« ومصر والسودان ثمانيـة عشر مليونا ، وطرابلس سبعمائة ألف ، وتونس مليونان ، والجزائر خمسة ملايين

ومراكش ثمانية ملايين ، والصحراء الكبرى ثلاثة ملايين ، والحبشة ثلاثة ملايين ، والغالا والصومال ستة ملايين ، وشرقي افريقيا — زنجبار وسواحلها ودار السلام — ستة ملايين ، والكونغو والاوغندة مليون ، والاداموا والكمرون مليونان ، وغينيا وفوتاجلون مليون ، والسنغال مليون ، وسلطنة سوكوتو خمسة ملايين ، وبرنو خمسة ملايين ، ووادای خمسة ملايين وكانم مائة ألف فهذه ثلاثة وثمانون مليونا فى افريقية ، والمستعمرات الهولندية أربعة وستون مليونا ، والفيليبين مليونان — فهذه ستة وستون مليونا في البحر المحيط الباسفيك . فيكون جملة المسلمين ثلاثمائة وثلاثة وعشرين ألفا وثلاثين مليونا . اما ان صح ان المسلمين فى الصين خمسون مليونا فيكون الجميع ثلثمائة وثلاثة وستين مليونا ، هذا بالتقريب » ..

ومن المحقق بعد مراجعة هذه التقديرات أن العدد الذى أثبته الامير شكيب أرسلان فى تعليقاته ينقص عن العدد الصحيح بكثير لان المقارنة بين تقديراته عند كتابة تعليقاته وبين الواقع فى الوقت الحاضر ممكنة على وجه الرجحان ان لم نقل على وجه اليقين . فالمسلمون فى الباكستان والهند يزيدون على مائة مليون ، والمسلمون فى أندونيسية وسائر البلاد التى كانت تابعة لهولندة يقاربون هذا العدد ، وفى وادى النيل مايزيد على ثلاثين مليونا عدا غيرهم من المتوسطين بين الوادى وشواطىء البحر الاحمر ، وابناء البلاد العربية فى القارة الاسيوية يزيدون اليوم على ذلك التقدير بنحو عشرة ملايين ، فلا مبالغة اذا قدرنا عدد المسلمين اليوم فى العالم بأربعمائة وخمسين مليونا وايقنا على الدوام بأن عددهم يزيد فى كل حقبة على كل تقدير أوربى يذيعه الساسة والباحثون في شئون الدعوات الدينية وان زيادة هذا العدد مستمرة

يقابلها أولئك الساسة والباحثون بالحذر ويذكرونهـــا منذرين لاقوامهم بما يستفزهم الى الحيطة ومقاومة هذا الازدياد المستمر حيث تستطاع المقـــاومة فى الخفاء وفى العلانية ان لم يكن لهم بد منها

ونرجع الى أديان الدعوة لنقول ان الاحصاءات الحديثة تحصرها فى ثلاثة اديان كبرى : وهى البوذية وعدة أتباعها على قولهم خمسمائة وعشرون مليونا ، والمسيحية وعدة اتباعها خمسمائة مليون . والاسلام ويختلفون فى عــدة اتباعه بين ثلثمائة مليون على التقدير الاقل واربعمـــائة مليون أو يزيدون على التقدير الراجــح الموافق لاحدث الاحصاءات ..

أما البوذية فلا ننظر اليها بكثير ولا قليل من الحذر ، لان دعوتها محصورة فيها لتحويل أتباعهـــا من النحل البرهمية الاخرى بوسائل التعليم التى قلما يبلغ متناولها الالوف فضلا عن الملايين ، ولم يحدث فى تاريخها القريب انها حولت اليها أناسا من أبناء الديانات الكبرى بل حدث أحيانا كثيرة ان أتباعها يتحولون عنها الى الاســلام او المسيحية او الجانية التى تلغى تعدد الطبقات وتناسب التفكير العصرى فى أطوار السياسة والاجتماع وفى العلاقات الدولية بين الشعوب والاقوام .

أما نظرة الحـــــذر فهى ديدن المشتغلين بالتبشـير والاستعمار كلما نظروا الى شيوع الدعوة الاسلاميـــة وسهولة انتشارها بالاقنــاع والقدوة مع اطـراد عــدد المسلمين فى الزيادة بازدياد النسل من حقبة الى حقبة : كما يرى من الفارق بين عدد المسلمين فى أواخر القـرن التاسع عشر وعددهم فى منتصف هذا القرن العشرين ..

واذا خصصنا المبشرين والمستعمرين بالذكر فى نظرتهم الى أديان الدعوة والى الدين الاســــــلامى منها على

التخصيص فلا ينبغى أن ننسى أولئك الباحثين فى حقائق الدعوات الدينية على التعميم ، فانهم لو أخلصوا البحث للعلم والحقيقة لما فاتهم عند المقابلة بين أديان الدعوة والاديان المقفلة المحدودة أن يقرروا النتيجة العلمية التى يخلصون اليها من مباحثهم جلية واضحة لا تخفى على طالبها ، ولكنهم لا يطلبونها ولا يستريحون اليها ، لانها تبشرهم أن انتقال الاديان من الملل العنصرية الى ملل الدعوة ظاهرة تدل على الانتقال من العقائد الجغرافية المحلية الى عقائد الضمير الانسانى وعقائد التنزيه والتوحيد ، وان الاسلام قد ارتفع بالضمير والتوحيد الى أعلى مرتقاهما بما يهدى اليه فى العقيدة الالهية وفى رسالة النبوة وفى الايمان برشد الضمير الانسانى الذى يسأل عن عمله ولا يحمل وازرة غير وزره ، وليس فهم التطور فى اديان الدعوة على هذا الوجه مطلبا يسعى اليه من يريدون ان يعللوا شيوع الاسلام فلا يستريحون الى علة غير مايزعمونه فى موافقته للامم المتخلفة ، ولولا أنها علة تريحهم وتلائمهم لكان أقرب منها الى مشاهدات الحس — فضلا عن تفكير العقل — ان الاسلام حقيق بالانتشار والاقناع لأنه خاتمة التطور فى أديان الدعوة وفى أحوال العالم الانسانى بعد أن بلغ الى مرحلة الوحدة الانسانية ومرتبة الهداية المطلقة المتحررة من حدود الاقاليم والانساب

الشرق الأوسط فى العصر الاسلامى

لمؤلفه سدنى فيشر Sydney Fisher

كتاب فى نحو سبعمائة صفحة ، موضوعه تاريخ بلاد الشرق الاوسط وتاريخ العوامل الفعالة التى يرجع اليها تطور الشعوب والحوادث فى هذه البلاد ، وأولها الاسلام ومؤلف الكتاب هو الدكتور سدنى فيشر أستاذ التاريخ بجامعة (أهيو) الامريكية وصاحب الدراسات المتعددة فى شئون البلاد الشرقية التى يدين الاكثرون من ابنائها بالديانة الاسلامية

ويدل أسلوبه فى عرض الاراء والوقائع على تورع عن العصبية واجتناب للتشهير . فهو يروى ما يفهمه من المصادر المتناقضة ويحاول أن يجردها من نزعات الاهواء ودسائس الاحقاد المذهبية والقومية ، واذا وقع فى الخطأ المتواتر فانما يقع فيه لانه فى حكم الحقائق المجمع عليها بين المؤرخين ، فلا ينساق الى الخطأ حبا لترديده ومرضاة لشهوة من شهوات الحفيظة فى نفسه ، ومعظم أخطائه من قبيل المطاوعة لحركة التواتر المطبق الذى يحتاج الى الجهد الجهيد لمقاومته ، وربما شق عليه هذا الجهد الجهيد فلم يتكلف له ما هو أهله من الصبر والدأب والارتفاع بالتاريخ فوق حجاب الحوائل التى تغطى

ما وراءها من الاسانيد البينة ، وانها لبينة جدا لو استطاع الناظر الى تلك الحوائل أن يتخذ له منفذا منها الى الحقيقة ..

يقول فى كلامه على صفة الاله : ان الوحدانية المنزهة هى اجل مطالب الايمان عند النبى عليه السلام ،ويوصف الاله مع الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران

ولا يستطرد المؤلف الى شرح الصفات الالهية قبل ان يقول : أن توكيد صفات البأس والجبروت فى كتاب الاسلام انما تقدم فى اوائل الدعوة التى واجه بها النبى جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكى المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة ، ولكن المسلم يعلم من صفات الله انه واسع الرحمة ، وانه اقرب الى الانسان من حبل وريده ، وانه هو نور السموات والارض ، وهى الصفة التى بثت عقائد « الصوفية » بين المسلمين وكان لها أبعد الاثر فى اجتذاب العقول الى معانيه الخفية

ويقول المؤلف كما يقول غيره من كتاب العصر الغربيين: ان القرآن « صوت حى » يروع فؤاد العربى وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه الى الاعتراف ببلاغة القرآن .. اعتمادا على أثره البليغ فى قلوب قرائه وسامعيه ، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع ..

وبعد بيان مجمل عن بلاغة القرآن وأحكامه وعباداته يضيف المؤلف بيانا آخر فى مثل هذا الاجمال عن الفضائل الاسلامية التى احتواها الكتاب فيقول ما فحواه : انه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وان الفضائل التى يحث عليها المسلمين من

أجمل الفضائل وأرجحها فى موازين الاخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب فى نواهيه كما تتجلى فى أوامره فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدى ولا أن يستسلم للترف والرذيلة ثم يختم كلماته قائلا : « اننا اذا نظرنا الى مجال الاسلام الواسع فى شئون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية لم يكن فى وسع أحد الا أن يعتبر محمدا ــ عليه السلام ــ نبيا مفلحا جدا ومصلحا موفقا ، لانه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلىء فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة والفحشاء ، ويعامل فيها الارامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع ، فاذا بمحمد ــ عليه السلام ــ وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية الى الله والى سبل الخلاص وغير مقاييس الاخلاق والاداب فى أرجاء البلاد العربية »

***

الا أن الخطأ المتواتر يتسلل الى هذا الكتاب ،والى سائر الكتب التى فى موضوعه . من مجاراة العرف واحجام العقول عن اختراق الحجب المتكاثفة مع الزمن حتى لا يحسب أحد أنه بحاجة الى اختراقها ، ولعله لا يرتاب فى قدرته على اختراقها لو أنه قد خطر له أنها تستر وراءها ما هو حقيق بالنفاذ اليه

وشفيع المؤلف فى هذا الكسل ، أو هذا الاستسلام العقلى ، أنه ينساق الى تلك الاخطاء المتواترة فى كلامه على المسيحية وعلى الاسلام بغير تفرقة بين ديانته التى يؤمن بها والديانة التى يفهمها من مصادره الغربية أو مصادرها الشرقية الميسرة للغربيين

يقول بعد الاشارة الى بعض المشابهات بين آيات

القرآن وآيات الزبور على حسب فهمـــه « والواقع أن اليهودية وفرعيها المنبثقين منها ـ المسيحية والاسلام ـ مشتركات فى كثير من الامور وان كان معظم التشـــابه فى العبارة دون الجوهر والمعنى »

هذا الخطأ المتواتر هو الذى يعنينا فى هذا المقـال من موضوعات ذلك الكتاب ، لأنه واجب التصحيح ، وسهل التصـــحيح ، مع اطباقه على أذهان المؤرخين الغربيين ذلك الاطباق الذى يوشك ان يشل تلك الاذهـــان عن الحركة المهيأة لها فى غير هذا الموضع

وأساس الخطأ كله أعتقادهم ان اليهود هم مصـــدر العقائد الدينية التى أحتوتها التوراة ، وانهم هم الذين تلقوا وحيها لأول مرة من أنبيائهم غير مسبوقين اليهـــا فيما سلف .. وقد سلف قبلهم ، وفى عهـــود أنبيائهم ، كثير من الرسالات والعقائد مذكورة او ملحوظـــة فى القرآن الكريم وليس لها ذكر فى أسفار التوراة ..

والامر لا يحتاج الى عناء لاظهار وجوه الخطأ فيـــه ، فان مراجعة التوراة أيسر مراجعة ترينا ان اليهودتلقوا أهم العقائد الكونية واهم التعاليم الشرعية ممن تقـدم أنبياءهم فى الزمن ، بل من الشعوب التى عاشوا بينهـــا وكان فيها أناس من أتباع الرسل الاقدمين

فالى أى نبى من أنبياء بنى أسرائيل يسند اليهـــود عقائدهم فى سفر التكوين وهو جماع عقائدهم الكونية ؟

ان التوراة الباقية اليوم تبتدىء بسفر التكـوين ولا تسنده الى أحد من أنبياء بنى أسرائيل ، ولا حـــاجة بعد ذلك الى القول بأن عقائده سابقة للنبوءات الاسرائيلية وان اليهود تعلموه من حيث يستطيع كل من شـــاء ان يتعلمه أو ينقله عن مصادره الاولى ، سواء كانت من وحى

الانبياء الاسبقين أو من تراث الشعوب الموروث عن الأسلاف ..

وتأتى أسفار الشريعة بعد سفر التكوين وليس منها ما هو مسند الى نبى قبل موسى عليه السلام ، ولكننا نقرأ فى هذه الاسفار ان الكليم كان يتعلم التبليغ من نبى عربى تسميه التوراة يثرون ، فيقول الاصحاح الرابع من سفر الخروج انه : « رجع الى يثرون وقال له : أنا اذهب وارجع الى أخوتى فى مصر »

ويقول الاصحاح الثانى عشر ان يثرون كان يصلى ببنى اسرائيل فى عهد موسى ومنهم أخوة هرون : « وان يثرون أخذ محرقة وذبائح لله وجاء هرون وجميع شيوخ اسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمى موسى أمام الله » .. فقد كان يثرون ـ اذن ـ يقرب القرابين ، ويقيم الشعائر ويدعو الله بدعائه الذى دان به قبل بعثة الكليم ، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ اسرائيل وصفوة الشعب الاسرائيلى أجمعين ..

فأعجب العجب بعد ذلك ان يقرأ المؤرخون هذا فى كتب التوراة ثم يلج بهم الاصرار على أصالة اليهودية . واعتبار المسيحية والاسلام فرعين من هذه الشجرة لاينبتان على غير جذورها ، وهى كما رأينا فرع من أصل قديم بل من عدة أصول

على أننا نرجع الى العقائد الاسلامية فلا نرى بينها عقيدة واحدة تتفرع على عقائد اليهود ، كما دانوا بها من قبل ويدينون بها الى هذه الايام

وليس أبعد من الفارق بين العقائد الاسلامية والعقائد اليهودية كما تناقلوها عن التوراة والتلمود فى كل أصل من أصول الايمان : عن الله أو عن النبوة أو عن الحساب والعقاب ..

ان الله عند بنى اسرائيل اله قبيلة واحدة يختصها بحظوته ، ولكن الله فى الاسلام هو اله الخلق أجمعين لا يفضل أحدا منهم على أحد بغير التقوى والصلاح

وان النبوة عند بنى اسرائيل صناعة خوارق وكشف عن الخفايا والمفقودات ، ولكن النبوة فى الاسلام رسالة هداية وتعليم ، وبلاغ الى العقل والضمير ، يقنع الناس بالبينات والآيات ولا يجعل الاقناع موكولا الى التهويل بالخوارق والمعجزات

وان الحساب عند بنى اسرائيل يأخذ الابناء بذنب الآباء ويلحق الجزاء بالخلف البعيد انتقاما من جنايات الاجداد والاسلاف ، ولكن الحساب فى الاسلام لا يأخذ انسانا بجريرة انسان ولا تزر وازرة وزر أخرى

وليس فى الاسلام سلطان للمعبد وكهانه على العباد الذين يصلون اليه فى كل مكان تحت السماء ويعلمون انهم أينما كانوا فثم وجه الله ، ولكن « الهيكل » فى اليهودية هو الذى يتقبل القربان من عباده فلا يحسب لهم قربان بغير وساطة الكهان والاحبار

فكيف تكون هذه العقائد فرعا على تلك الشجرة وهى تخالفها تلك المخالفة فى أصول الديانة وحقائق الايمان بالربوبية والنبوة وموازين الحساب والتكليف وحرمات العبادة والتقديس ؟!

ان جاز التشبيه بالاصول والفروع فقد يجوز أن يقال ان الاسلام شجرة اخرى تحمل الثمرات التى حملتها اليهودية بعد تهذيب وتجويد ، وان ثمرات الشجرة الاسلامية لا تحملها تلك الشجرة ، ولا يتأتى ان تحل فيها محل الفروع من الجذور

ولكن لا يجوز ان يقال ان اليهودية كانت جذرا أصيلا

للعقائد الاسلامية ولو كانت هى المصدر الوحيد للعقائد المشتركة بين الديانتين ، فاذا علمنا انها قد تفرعت على ما تقدمها ولم تكن جذرا لمـا تلاها فلا ندرى ماهو وجه التأصيل هنا والتفريع بأى معنى من معانى الاصـول او معانى الفروع

وهذه هى طبيعة الاخطاء المتواترة فى بقائها واطباقها على العقول ، وهى كذلك طبيعتها فى سهولة الاهتداء الى موضع الشبهة منها اذا اعيدت الى طبقتهـا الاولى ، ولا داعية الى الامعان فى العودة الى ماهو ابعد من الصفحات الاولى فى اسفار التوراة

ان المؤرخ الغربى ، وهو على اعتقاده الدينى ، لايطالب بايمان المسلم فيما اعتقد من ربوبية أو نبوة او تكليف ، ولكنه مطالب عند البحث فى التطور الطبيعى ان يمسـك عليه عقله وان يترفع به عن قبول الباطل البين فى جلائل المسائل ، وهى مسألة العقيدة والايمان

وليس من الحلال فى شرعة العقل ، كائنا ما كان دين العاقل ، ان يقيم الشجرة الباسقة على منبت الفـرع المبتور

الشرق الأدنى الاسلامى

أشرفت على تنسيق هذا الكتاب وتوزيع موضوعاته جامعة « تورنتو » بكندا ، وأصدرته ملحقا لمجلتهاالربعية، أى التى تصدر أربع مرات فى السنة ، وعمدت فى كتابته الى ثمانية من علماء الاسلاميات يحاضرون طلبة الجامعات فى مسائل الشرق الاسلامية ، ومنهم سير هاملتون جب المستشرق المعروف وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة،

والأستاذ فيضي الذى كان سفيرا للهند بالقاهرة ووكيلا لجامعة جامو وكشمير ، والاستاذ مانجو رئيس القسم التركى بدار الاذاعة البريطانى ، والاستاذ بكنجهام عميد الدراسات الاسلامية بجامعة مانشستر ، والأستاذ نيازى بركيز عضو معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل، والاستاذ سافور الذى يحاضر طلاب جامعة لندن باللغة الفارسية فى الشئون الافريقية والشرقية . والاستاذ ويكنز مؤلف كتاب « ابن سينا العالم والفيلسوف » والاستاذ كاشا بجامعة أدنبره

ومن بحوث هذه المجموعة بحث تكلم فيه الدكتور فيضي عن جوهر التعاليم الاسلامية كما بسطها الشاعر الفيلسوف محمد اقبال والوزير العالم ابو الكلام آزاد ، وخلاصة هذا البحث ان رسالة محمد اقبال تقوم على احياء سنن الاسلام « الفعال » واجتناب الصوفية « السلبية » التى شاعت بين المسلمين فى عصور التخلف والجمود ، وان حكمة الاسلام جميعا تتلخص فى « الفاتحة » كما فسرها ابو الكلام آزاد ، لانها خلاصة الايمان بالربوبية والهداية والادب القويم والتبعة التى يناط بها الثواب والعقاب فى يوم الدين

وبحث آخر من بحوث المجموعة يعرض للدعوة الغربية فى الامة التركية ويشرح الفرق بين المتطرفين فى حركة « الاستغراب » وبين القائلين باقتباس الحضارة الغربية مع الترفق والاعتدال ، ويكاد الباحث ان يرد هذا الفرق الى مدلول كلمة « ملة » عند الحزبين فانها تشمل معنى الدين عند المتحفظين فى اقتباس الحضارة الغربية ولا تفيد غير معنى الوطن او الامة عند أنصار « التغرب » المطلق من القيود والتحفظ والاعتدال

ويلى ذلك بحثان عن الادب التركى الحديث ولاسيما

أدب القصة ؛ وعن الادب الفارسى الحديث ولا سيما أدب الشعر ، ويقترن به بحث آخر عن البلاد الفارسية عامة منذ اعلان الدستور وقيام الحكومة النيابية

وقد خصصت مجلة الجامعة بحثا من هذه البحوث للادب العربى الحديث ، انتهى كاتبه الى المسائل الدينية التى توفر عليها بعض الادباء المحدثين ، فكان من رأيه انها تدل على تجدد الثقة بالنفس بين كتاب العرب المسلمين، وليست لها صبغة الشعائر والعبادات

أما البحث الشامل للوجهة العامة بين أطراف الشرق العربى الاسلامى من جميع نواحيه فهو الموضوع الذى قدمت به المجموعة وعهد به الى السير هاملتون جب فوفاه حقه من الدراسة العلمية مع التزام الحيدة الواجبة فى المسائل السياسية ، وتنجلى هذه الحيدة من تعليق الكاتب على آراء الساسة الغربيين وجلة المفكرين الاجتماعيين التى يصورون بها « حالة » الشرق الاسلامى بعد استقلال شعوبه عن سيطرة الدول الغربية ثم يبنون عليها تقديرهم لمصير هذا الشرق كما يتصورونه أو يتمثلونه

فالسير هاملتون جب يرى ان الساسة الغربيين يعتبرون هذه الحالة حالة فراغ ينتظر الامتلاء Vacuum كأنهم يحسبون أن خروج دولة من احد الاقطار الشرقية يتبعه دخول دولة اخرى او يظل ذلك القطر « فارغا » لا يستطيع ابناؤه أن يملأوه بنظام يعوضه من النظام الاوربى المفقود ..

ومما يدعو الساسة الغربيين الى هذا التفكير شيوع الاعتقاد بين مراقبى الاحوال فى البلاد الشرقية بانقضاء العهد الذى كان الاسلام فيه « قوة فعالة » فى تكوين النظم الاجتماعية والسياسية ، باعتباره « قسطاسا » مرعيا فى الشعائر المعمول بها والفرائض المتبعة والعادات

السارية فى شئون المعيشة اليومية
يقول السير هاملتون : ان هذا التفكير لا يطابق الواقع، لان المسلم هو المسلم فى راى نفسه وليس هو المسلم على صبغة يصبغه بها الاجانب عنه حسبما يتصورونه من شعائره وفرائضه وعاداته ، ولا يصح أن نفهم ان المسلمين ابتعدوا عن حظيرة الاسلام وهم انفسهم يشعرون بأنهم مسلمون يغارون على العقيدة ويريدون البقاء فى حظيرة هذه العقيدة

يقول : وليس بين البلاد الاسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة فى الاستغراب أو « التغرب » باستثناء البلاد التركية ، ولكن البلاد التركية أيضا لاتعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التى أعربت عنها منذ عشرين سنة، وفيما عدا هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينقمون على مساوىء العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساوىء ولا يعلقوا آمالهم فى الاصلاح بمشابهة الغرب والاقتداء بأممه فى جملة أحوالها

وقد تابع الكاتب مراحل التطور منذ مائة وخمسين سنة فقال أن الامم الاسلامية ــ منذ ثلاثة اجيال ــ مرت بمرحلتين قبل المرحلة الاخيرة ، وهى المرحلة الحاضرة
فالصدمة الاولى زعزعت دعائم التقاليد الغابرة ، فانقضت المرحلة الاولى بانقضائها وخلفتها مرحلة النظم الغربية المستعارة ، الى أن ظهر فشلها فانقضت هى أيضا بانقضاء عهد الاموال الاجنبية ..
واليوم يعود الشرق الاسلامى الى موارده ويقيم مجتمعاته على الاسس التى تنجح المشروعات الشعبية فى اقامتها وتدعيمها ، ولا غنى عن خبرة الصناعة والادارة ومعونة المثقفين والمستنيرين لتوطيد المشروعات الشعبية
فالمجتمع الجديد مجتمع غير المجتمع الذى استقرزمنا

فى أيدى حكام القرن الثامن عشر ، وغير المجتمع الذى استقر زمنا بمعونة « رأس المال » من الخارج وحاول القائمون به أن يؤسسوه على قواعد النظم الاوربية الحديثة . ويتميز هذا المجتمع الجديد بظهور قوة اجتماعية غير قوة السادة حكام القرن الثامن عشر وغير قوة خلفائهم الذين حاولوا ان ينقلوا الى الشرق نظم الغرب وأنماطه الحكومية ..

هذه القوة الجديدة لا تنزع الى التخلص من ديانتها كما تفهمها وتشعر بها على الرغم من ظنون الاجانب الذين يقيسون غيرة المسلم بمقياس الشعائر و «الطقوس» المرعية ، فاذا استدعى العصر الحاضر تغييرا فى مبادىء المجتمع فانما هو التغيير الضرورى الذى تفرضه طبيعة العصر ويؤدى اليه اشتراك خبراء الصناعة والاقتصاد، والتعاون بين هؤلاء الخبراء وبين المستنيرين السكفاة لتوجيه الاعمال والاضطلاع بمطالب الحياة الحديثة ، ويختتم السير هاملتون جب بحثه الموجز بهذه العبارة التى نترجمها بحروفها :

قال : « اننى لا أرى أية علامة فى الشرق الاوسط على احتمال قريب لقيام دولة شيوعية .. أو قيام دولة ديمقراطية من طراز أية دولة غربية ، ولابد لكل هيئة من هيئات الحكم فى العالم العربى يراد لها الاستقرار المعقول أن تجمع بين ارضاء الشعور العربى والشعور الاسلامى فى وقت واحد »

الاسلام فى افريقية الشرقية

الف هذا الكتيب الدكتور ليندون هاريس ، وهو علم من اعلام التبشير فى القارة الافريقية ، وقصره على البحث

فى احوال الاسلام والمسلمين بين أهل زنجبار وبمباوتنجنيقا وما جاورها من بلاد السواحل الافريقية ، وجمع فيـه معلومات متفرقة يتحرى فى بعضها الدقة العلمية والمطابقة للمشاهدات الواقعة ، لانه يريد بهـا اطلاع العاملين فى التبشير على حقيقة الموقف للاستعداد لها بما يصلح لها من العدة الكافية والوسيلة المجدية ، ولا يملك فى بعضهـا الآخر أن يتجرد من آرائه وأهوائه كلما تعـرض لشرح العقائد الاسلامية وتفسير الحوادث التـاريخية ومآثر المسلمين فى العالم كله وفى تلك البلاد على التخصيص ، فهو فيما عرض له من هـذه الامور مصطبغ بصبغته التبشيرية على الرغم منه أو باختياره ورضـاه ، مطاوعة لغايته وهواه ..

بدأ معلوماته باقتباس كلمة الحكيم الانجليزى صمويل جونسون التي يقول فيها : « ان المسيحية والاسلام فى عالم العقيدة هما الديانتان الجديرتان بالعناية ، وكل ماعداهما فهو بربرية » ..

وعقب على هذه الكلمة فقال : ان وصف البربرية شديد بالنسبة الى الديانات الاخرى التى كشفت حقائقها بعد عصر الدكتور جونسون ولكنه استرسل فى وصف الاسلام ليقول : انه الديانة الوحيدة التى تعد على الدوام « تحديا » او مناجزة لجهود التبشـير والمبشرين ، ثم مضى يسرد المعلومات التى تطابق الواقع احيانا وتناقضه احيـانا ونجتزىء منها بالمهم من وجهة النظر الاسلاميـة فى السطور التالية ..

يقول الدكتور ليندون هاريس ـ بعد ذلك التمهيد ـ بصريح العبارة : ان جهود التبشير بين المسلمين فى افريقية الشرقية عقيمة لا تؤذن بالنجاح القريب ولا بالنجـاح المضمون ، وان نتيجتها كلها الى اليوم عدم (Nil)

ولا يرجى ان تتغير هذه الحالة بغير جهود متواصلة يطول بها المطال ..

ويخرج من هذه النتيجة بتقرير الواقع الممكن من اعمال التبشير ، وهو توجيه الجهود الى ابناء البلاد الافريقيين الوثنيين ، فان الجهود فى هذه الوجهة لا تذهب سدى ولا يزال الامل فى نجـاحها مفتح الابواب لمن يحسنون الوصول اليها ، وان كانت هذه الابواب مفتحة للمبشرين وللعاملين على نشر الدعوة الدينية من المسلمين ، ومفتحة كذلك للمسلمين الذين يستميلون الوطنيين الى ديانتهم بغير دعوة منتظمة

ويذكر الدكتور ليندون عقبات الدعوتين بين القبائل الوطنية التى تحكم على الغرباء بالسمعة العامة بين سابقة ولاحقة ..

فالمسلمون يشيع عنهم ـ او يشاع عنهم ـ انهم هم وحدهم المسئولون عن اعمال النخاسة فى العصور الماضية ، ولا يذكر المؤلف شيئا عن النخاسة فى افريقية الغربية ، وهى تدل بآثارها على الفارق بين النخاسة المنسوبة الى تجار العرب وغيرهم من الاسيويين ، وبين النخاسة الاوربية الامريكية التى نقلت السود الى العالم الجديد ، وعدتهم الان هناك لا تقل عن ستة عشر مليونا من الرجال والنساء ، وهم أضعاف الارقاء السود الذين نقلوا من بلادهم الاسيوية فى عدة قرون ..

اما التبشير المسيحى فالدكتور ليندون يقول عن السمة العامة التى تعوقه : ان الوطنيين يقـرنون بين الرجـل الأبيض والمستعمر وبين ديانته وديانة المبشرين ، وان جماعات التبشير تحسن صنعا اذا اتخذت فى السياسـة مسلكا يعزل فكرة التبشير عن فكرة الاستعمار فى عقول أبناء البلاد أصلا .

ويرى المؤلف من اعمال الدعوتين أن القرآن الكريم ترجم الى اللغة السواحلية ترجمتين : احداهما بقلم كاتون ديل المبشر (سنة ١٩٢٣) لم يقبل عليها أحد من الوثنيين وكاد أن ينفرد المسلمون باقتنائها ، وان كانوا لايعولون عليها ..

والترجمة الاخرى نقلها «الاحمديون» الهنودوحشوها بالبحوث الفقهية (اللاهوتية) التى لا يطيقها أبناء البلاد الاصلاء ، ويرتضيها المسلمون أهل السنة من قراءالكتاب باللغة العربية ..

ويتطرف المؤلف فى هذا السياق الى الشيع الاسلامية فيروي كلمة للشاعر محمد اقبال ينعى فيها على المسلمين فى بلاده انهم أصبحوا كالبراهمة فى تعدد الشيع والنزعات ..

ومن المشاهدات التى يرددها المؤلف أن أثر المسلمين فى بلاد العرب الجنوبية اظهر من أثر اخوانهم الذين ينتمون الى سائر الاقطار الآسيوية ، ويستدل على ذلك بعدد الافريقيين الذين يقبلون على مساجد هؤلاء وهؤلاء، وبالصلات الاجتماعية التى تنعقد بين كل من الفريقين وبين الافريقيين السواحليين وغير السواحليين الذين يدينون بالاسلام ، فان أبناء البلاد الاصلاء يأنسون الى الجالية العربية عندهم منذ عهد بعيد

ولا يحاول المؤلف أن يطمس الفارق بين أثر العرب وأثر الأوربيين الاسبقين الى استعمار افريقية الشرقية ؛ فانه يقرر ان البرتغاليين قضوا فيها نحو مائتى سنه لم يتركوا بعدها اثرا من آثار الحضارة النافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذى حل على أيديهم بالمعاهد والمعابد الاسلامية ، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخربون وينهبون حتى استغاث السواحليون بالامام سعيد صاحب

عمان ، وهو والد سعيد الاول .. أول سلطان تولى من هذه الاسرة حكم زنجبار ..

أما العرب الذين انتقلوا الى السواحل فانهم نقلوا اليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة وطبعوها بطابعهم فى كثير من أحوال المعيشة

ويتساءل المؤلف عن المستقبل فيقول : ماذا عند العرب يعطونه الافريقيين بعد اليوم وماذا عند الاوربيين ؟

ثم يجيب قائلا : ان الاوربيين يعطون المدارس والمستشفيات والمرافق العصرية ويرجحون على العرب بمدارسهم التى تعد الطالب الوطنى لاعمال الحياة العامة والخاصة فى العصر الحديث ، ولكن المدارس العربية ينحصر عملها فى تحفيظ القرآن وتعليم الهجاء والمطالعة الاولية ولا تصحب هذه المدارس ـ أو المكاتب ـ أعمال أخرى من قبيل أعمال الخدمة الاجتماعية التى ينشئها الغربيون ، الا قليلا من المعونة يقوم بها أهل الخير هنا وهناك من قبيل الصدقة والاحسان

يقول : « أن الاقبال على التعليم الحديث وفقا للبرامج الاوربية يقبل عليه المسيحيون والمسلمون على السواء ، وقد كان المسيحيون يدخلون أبناءهم مدارس المبشرين ويؤثر المسلمون لاسباب دينيةأن يعلموا أبناءهم فى المدارس الحكومية ، ولكن هذه المدارس مبعثرة متباعدة بين أطراف البلاد الداخلية ، واكثر التعليم على البرنامج الغربى تتولاه مدارس التبشير »

ثم يقول : « الا أن مدارس السواحل الاسلامية التى تشرف عليها الحكومة تقارن بأفضل المدارس التى يديرها المبشرون ، ويقبل عليها أبناء الهنود والعرب ، مع اتجاه الرغبة أخيرا الى نشر التعليم العصرى وقيام الطائفة الاسماعيلية على الاكثر ببناء المدارس لنشر هذا التعليم،

وقد تم بناء نحو خمسين مدرسة على البرنامج الحديث منها ثلاث مدارس ثانوية نشأت كلها بعد الحرب العالمية الثانية »

ويوازن المؤلف بين الوسائل فيرى أن وسائل الاسلام اقل من وسائل المبشرين ، ولكنه قدم لذلك بتردده فى الحكم على المستقبل فقال : « انه ليس فى الوسع أن ينبىء أحد بمصير الامور فى بلاد تتوالى فيها المفاجآت على غير انتظار ، فلا يبعد أن يميل رقاص الساعة كرة أخرى الى جانب الاسلام ، لانه عامل من العوامل الحاضرة أبدا فى هذه البلاد »

وعند المؤلف أن المؤثرات المعنوية تتقابل فى نفوس المسلمين فتعطيهم من جانب عوضا مما تسلبهم من الجانب الاخر ، ولا يلبث المسلم أن يستكين شعورا منه بالفارق بينه وبين الغربيين فى الزمن الحديث حتى تثوب اليه العزة فخرا بماضى الاسلام العريق ، وأن هذا الفخر — كما يقول المؤلف — لعامل مهم جدا فى هذا الموقع من بلاد العالم ، اذ ليس للافريقى تاريخ يذكره ويفخر به قبل أجيال معدودات ..

ويخلص المؤلف من ذكريات الماضى ونبوءات المستقبل الى خطة يرى أنها كفيلة باتمام جهود المبشرين الاوربيين التى يعجزون عنها فى موقف المقابلة بين التراث الاسلامى العريق والتراث الافريقى الحديث ، فان المبشر الأوربى قليل الجدوى فى هذا المجال ، ولكن جدواه القريبة انما تنتظر من المبشرين أبناء البلاد الاصلاء الذين تحولوا عن عقائدهم الاولى على أيدى بعثات التبشير منذ سنين . فانهم أحرى أن يقابلوا الدعوة الاسلامية بشعورهم الوطنى الدينى ، فيؤدون هنا عملا لا ينتظر من المبشرين البيض ..

قال : « ان ابن القبيلة الافريقى يلمح نظافة المسلم شخصا وبزة كما يلمح المكانة التى يكسبها بأدب (الحشمة) الاجتماعية وتتعلق مكانة الرجل الافريقى بهذه الحشمة المصطلح عليها ، وهى مكانة ذات شأن يعيش الناس على مرأى بعضهم من بعض فى حيزهم المحدود ، فلا جرم أن يعتز المسلم بهذه الحشمة فوق اعتزازه بكل شىء ، لانها مقياس خلقه وحياته ، وبها يستدعى المناظرة ومحاولة التشبه به من أبناء البلاد الاصلاء »

ثم ختم الرسالة ملحا على التنبيه الى « المناجزة المتحدية » من قبل الاسلام ، مهيبا بأنصار التبشير الغربيين أن يضاعفوا العون الذى لا غنى للتبشير عنه لبلوغ الغاية منه .. « فليس فى وسع البعوث التبشيرية أن تعهد للمبشرين من أبناء افريقية الاصلاء دعوة اخوانهم المسلمين ، ولكنها بغير هؤلاء لا يرجى لها نجاح »

خطأ المقارنين لا خطأ المقارنة

تصدر باللغة الانجليزية مجلة كبيرة تسمى « تاريخ اليوم » History Today تختار أصحاب الشهرة بالمباحث التاريخية للكتابة فى المبحث الذى تفرغوا له وتوفروا عليه وتعرض المناسبة للكلام عنه تعليقا على حادث مشهور من حوادث العصر الحاضر ، وقد كانت قضية فلسطين احدى المناسبات التى دعت هذه المجلة الى اقتراح الكتابة فى تاريخ الخليفة عمر رضى الله عنه ، فندبت لكتابة هذا التاريخ الاستاذ سوندرز Saunders المحاضر الاول لدروس التاريخ بجامعة كانتربرى بزيلاندة الجديدة ، ونشرت له فى عددى شهر مارس وشهر ابريل الماضيين مبحثا مطولا فى هذا الموضوع بعنوان « الخليفة

عمر المستعمر العربى ! » يخرج منه القارىء بنتيجة من اغرب النتائج عن الدعوة المحمدية والدولة الاسلامية : فحواها أن دخول الاسلام الى فلسطين انما كان مصادفة كمصادفات الضرورات السياسية أو العسكرية ، وأن نبى الاسلام ، صلوات الله عليه ، لم يكن يفكر قط فى الدعوة الى دينه خارج الجزيرة العربية ، وأن الخليفة عمر بن الخطاب هو ناشر هذه الدعوة ، وموجه الاسلام الى العالم بوحى من ضرورات السياسة ، بدأ لخلفاء النبى بعد فتنة الردة وقلق الخلفاء على المسلمين أن يبقوا فى حدود الجزيرة العربية بغير شاغل يصرفهم عن منازعاتها وعن مشكلات الساعة التى تتولد بين قبائلها وشعوبها

***

ويقول الاستاذ سوندرز فى أول مقاله المطول : « ما من دليل واف يدل على أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ كان يتصور الاسلام دينا عالميا لجميع الناس ، أو يتصور أنه أرسل لهداية شعب من الشعوب غير شعبه العربى ، وليست قصة رسائله الى الامبراطور هرقل وشاه فارس وملك الحبشة وغيرهم من الرؤساء للدخول فى دينه بالقصة التى تقوم على أساس »

ثم يقول : « ولا شك أن محمداً لم يفكر فى فتح العالم وانما أعتقد أن واجبه الاول أن يمهد لابناء أمته أسباب الايمان بدينه ، فاذا صدوه عن دعوته فواجبه اذن أن يقابل القوة بالقوة »

ويرى الاستاذ الخبير باللغة العربية وتاريخ الاسلام : « ان كلمة ـ أمير ـ باللغة العربية تعنى أولا امارة الجيش ، وان تحويل لقب عمر من خليفة رسول الله الى أمير المؤمنين كان على ما يظهر فاتحة عصر الفتوح ، اذ يصبح

الخليفة قائدا أول للامبراطورية التى أخذت فى الاتساع .. »

وبعد هذه المقدمات يسترسل المؤرخ فى تفصيل هذه الفكرة فيستند فى قواعدها الى مصدرين بارزين : هما الامير كايتانى الايطالى والمبشر الفرنسى المتعصب بيرلامنس الذى خلق قصة الثالوث المتسلط على دولة الاسلام الاولى من أبى بكر وعمر وأبى عبيدة !

***

ولا حاجة الى الاطالة فى بيان جهل المؤرخ بالموضوع الذى تصدى له وحسبته المجلة المتخصصة للتاريخ فى العصر الحاضر أهلا للاعتماد عليه دون غيره فى هذه المسائل الاسلامية . فان هذا المؤرخ لم يكن مطالبا بقراءة شىء عن الدعوة المحمدية غير ما وصفت به هذه الدعوة فى كتاب الاسلام الاول ، فانه يعلم من القرآن فى كل وصف للدعوة المحمدية أن محمدا عليه السلام كان رسول رب العالمين الى جميع العالمين : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وأن رب الناس وملك الناس : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. »

ففى كل آية من آيات الدعوة المحمدية غنى للمؤرخ المحقق عن الرجوع الى اسناد كاسناد كايتانى ولامنس ، وعن اصطناع « الدقة العلمية » فى استقصاء أخبار الرسائل النبوية الى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشى ، ولو ثبت له بعد ذلك الاستقصاء أنهم لم يوجدوا فى زمانهم ولم تبلغهم رسالة من رسول .. فمن جهل رسالة القرآن كلها فالعجب أن ينتظر الخبر اليقين من قرطاس مطوى فى بيزنطة أو فى غيرها يحتمل الشك والانكار

ان ضخامة الخطأ مع سهولة العلم بالصواب خليقة أن

تفتح باب الاتهام فى سلامة المقصد قبل الاتهام فى سلامة التفكير ، واذا كانت القضية قضية فلسطين فما أكثر الشبهات التى تحوم حول كل تاريخ يتصل بتاريخها الحديث ، وما أكثر الدفائن والخبايا التى يستخرجونها من أعماق الزمن المجهول لتزييف الحاضر المعلوم !

يجوز أن يكون المقصد من ذلك « التحقيق العلمى » أن يعلم أبناء العصر أن دخول الاسلام الى فلسطين انما كان بعض الطوارىء العارضة التى لم يقصد اليها نبى الاسلام الا انقيادا لمطمع عاجل من مطامع الاستعمار

***

يجوز هذا ويعززه أن عدد شهر مارس الذى ظهر فيه المقال الاول عن « الخليفة المستعمر ! » قد تحلت صفحته الاولى بصورة النبى « موسى واضع الشريعة » ودارت أخباره كلها على « تأصيل » علاقة العبريين بفلسطين من عهد ابراهيم الخليل ، ثم على تسويغ هذه العلاقة بهجرة العبريين من مظالم وادى النيل الى أرض الميعاد !

يجوز هذا ، ويدل مع هذا على « عمق أغوار » الدعاية التى تحيط بهذه القضية ، ولا تتورع عن تسخير العلم والتاريخ لتأصيل الدعوى حول جذورها من وراء السياسة والتبشير

وعلينا عند النظر فى أقوال هؤلاء المؤرخين للاسلام ان نرقب مقاصدهم ، ومظان الشبهة فى آرائهم ودعاواهم ، لان النيات والأعمال بمنزلة واحدة فى قضايا الاسلام العصرية ، حيثما اشتبكت بمساعى الدول والحكومات

ولكن الشبهة الغالبة فى مجال البحث الدينى انما هى تلك الشبهة التى تملك عقولهم ونياتهم ولا يملكونها أو يملكون القصد والاختيار فيها ، وانما ترد عليهم تلك الشبهة الغالبة من قبل هذه الدراسات الحديثة التى

أولعت بعضهم « بالمقارنة بين الاديان » فذهبوا ـ مخلصين ـ فى التماس وجوه الشبه بينها حيث يوجد الشبه وحيث تنقطع كل لمحة من ملامح المشابهة من قريب أو بعيد

وأخطر هذه المشابهات والشبهات على عشاق المقارنة ـ أن المراجعة « السطحية » تقارب عندهم بين تواريخ الانبياء الكبار فى نشر دعوتهم أثناء حياتهم وبعد انتهائهم من أداء رسالتهم . فقضى موسى عليه السلام قبل أن يدخل أرض الميعاد ، وقام بولس الرسول بالعبء الاكبر فى نشر المسيحية بعد ختام رسالة السيد المسيح ، وهكذا ينبغى فى تقديرهم أن يكون عمر بن الخطاب هو ناشر الاسلام ومؤسس شريعته بعد النبى وصاحبه الصديق

***

والخطأ ـ كما قلنا فى عنوان المقال ـ انما هو خطأ المقارنين وليس بخطأ المقارنة بين الاديان على اطلاقها ، أو خطأ المقارنة بين نشر المسيحية ونشر الاسلام على الخصوص ..

ومرجع الخطأ فى تقدير المقارنين انهم نظروا الى الحركات الظاهرة ولم ينظروا الى أسبابها الاولى فى طبيعة كل من هذه الدعوات وفى سيرة كل من أصحاب الديانات الذين اشتركوا فى ابلاغها الى الناس ، على نهج لم يتفق بين رسولين ولا بين رسالتين

فمن الحركات الظاهرة ان الرسول بولس كان فى مبدأ سيرته أشد الاعداء على المسيحية ثم آمن بها فكان أكبر الناشرين لها خارج بلادها ، ويشبه هذا أن عمر بن الخطاب كان عدوا للاسلام ثم انتصر به الاسلام فى موطنه وانتصر به بعد ذلك فى مواطن الفرس والروم

فالمقابلة ـ اذن ـ تامة بين الدعوتين ، وبين الرجلين

ولكنها ـ عند الرجوع الى الاسباب الاولى ـ مقارنة مبتورة تبتدىء بعد منتصف الطريق ، وتنسى وجوه الاختلاف وهى ـ عند البحث عنها ـ اظهر من جميع هذه المشابهات ..

فالسيد المسيح لم يجاوز في نشر دعوته مدى أربع سنوات ، ولم يبلغ هذا المدى فى رأى بعض المؤرخين ..

والنبى محمد عليه السلام قضى نحو عشرين سنة ولم يبق بقية لاحد من أصحابه يتمم رسالته أو يعلم المسلمين ركنا من أركان الدين لم يحفظوه من آيات القرآن ومن سنة رسوله ..

***

وقد كان النبى عليه السلام يدعو العرب وغير العرب الى الدخول فى دينه ، وكان يخاطب بنى اسرائيل برسالته، كما كان يخاطب بها المهاجرين والانصار من ابناء قومه ، وكان رسولا من الاميين الى الاميين والى جميع العالمين كما علم منه أهل الكتاب والمشركون فى مكة وفى المدينة، وفى كل مكان بلغت اليه الدعوة من الجزيرة العربية وما وراءها ، وليس جواب المقوقس له ولا زواجه عليه السلام من السيدة مارية القبطية بالخبر الذى يتوقف على تحقيقات « لامنس » ومن استمع اليه

اما بولس الرسول فقد خاطب الاميين لانه يئس من خطاب بنى اسرائيل ، وقد روى بولس وغيره عن السيد المسيح أنه بعث « لهداية خراف بيت اسرائيل الضالة » وأن الخبز الذى يحتاج اليه ابناء البيت حرام أن يطرح أمام الكلاب ، وقد ضرب المثل فى الاناجيل بالوليمة التي اعرض عنها المدعوون اليها فأمر السيد عبيده بدعوة الغرباء الى البيت حتى يمتلىء ولا يبقى فيه

مكان لمن دعاهم فلم يستجيبوا الدعاء

ولم يكن فى وسع بولس الرسول أن يدعو اليــونان والرومان الى المسيحية ليقول لهم : ان السيد المسيح قد بعث لخلاص بنى اسرائيل منهم ، وان الامم الاخرى لايحق لها أن تطمع فى الخلاص بهذه الرسالة وهو يدعوهم اليها، فلم تكن لبولس الرسول من قبلة يلجأ اليها غير هــذه القبلة ، ولم تكن خطة الخليفة الثــانى ولا الخليفــة الاول تجديدا لهذه الخطة أو وجها من وجوه المقارنة بين نشر الدعوة العالمية فى الاسلام ونشر تلك الدعوة من قبل في المسيحية ، وانما تقع المقارنة هنا للمقابلة بين حالتين متناقضتين . اذ كانت دعوة بولس للامم بديلا من دعوة بنى اسرائيل المعرضين عنها ، وكانت قبلة بيت المقدس فى الاسلام أول قبلة أقيمت عليها الصلاة الجامعــة ، ثم استقامت هذه القبلة على البيت الذى يستقبله أهــل المشرق والمغرب من أمم « العالمين » .

***

واذا انتهينا من هذه المقارنات الى المجال الذى اختاره « مؤرخو العصر» لتحقيقاتهم« العلمية » فقد نعلمــ اذنـ ان دخول الاسلام الى فلسطين لم يكن فلتة من فلتات المصادفة العشواء ، ولكنه كان نتيجة منتظرة لمقــدمات مقررة ، وجوابا من القدر على عناد بنى اسرائيل ووفاء لوعد الله خليله ابراهيم ، مع ابناء له غير أبنــائه الذين تنكروا لكل نبى من ذريته الصــالحه ، من قبل موسى وهارون الى ما بعد عيسى والحواريين

الإسلام في التاريخ الحديث

ألف هذا الكتاب ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة مونتريال ، وقد أقام زمنا فى مدينة لاهور بالباكستان وساح فى بلاد الشرق الاوسط وبعض البلاد الاسلامية فى القارتين الاسيوية والافريقية، وتغلب عليه أحيانا نزعة يسارية تتراءى من خلال تفسيراته المادية ، ولكنه يجامل الشعور الاسلامى مجاملة الرجل الذى ترتبط أعماله بالمسلمين من حين الى حين ، ويتجنب المسائل الشائكة من وراء المنازعات الطائفية أو السياسية مكتفيا من المعلومات بما يشبه الاحصاء والشواهد « الرسمية »

وقد اشتمل كتابه على فصول مسهبة عن الهند والباكستان وتركيا والبلاد العربية وعرض لبعض الامم الاسلامية الاخرى عرضا موجزا على قدر اتصاله بها وعلمه بأحوالها ، وأفرد جزءا من دراسته لمصر بالكلام على مجلة الازهر وعن رسالتها الدينية ورسالة «العلماء» على الاجمال ، ومهد للبحث كله ببعض الملاحظات العامة التى لابد منها فى رأيه للحكم الصحيح على وجهة التفكير الاسلامى ونظرة المسلمين الى وقائع الحاضر وآمال المستقبل ، ولم يخطىء فى الكثير من هذه الملاحظات وان كان قد أحاطها بشىء من الاغراب يوهم القارىء

الاوربى ان هناك أمرا غير طبيعى فى « النفسية » الاسلامية عند المقابلة بينها وبين المؤثرات الدينية فى غير المسلمين ..

يقول انه ما من دين استطاع أن يوحى الى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم فى غير تكلف ولا اصطناع ، وان الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانا فيعتبر المسلم العربى آداب المروءة قبل الاسلام قدوة للاخلاق والعادات ، ويشترك العربى فى هذا الفخر ولو لم يكن من المسلمين ، فيعنى بالتاريخ العربى قبل الاسلام وبعد الاسلام عناية النسب الاصيل ، كما صنع جرجى زيدان وفيليب حتى وغيرهما من مؤرخى العرب المسيحيين ، ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الانسان مسلما باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين

وبين المسلم المعاصر وسائر المعاصرين من الغربيين فارق عميق فى النظر الى العالم والى المستقبل ، فان الامريكى مثلا يواجه المستقبل بتجارب العصر الحاضر ويغلب القيمة العملية الواقعية على قيم العاطفة والخيال فى تقديره للاشياء وعلاقاته مع الناس ، ولكن المسلم على خلاف ذلك ينظر الى المستقبل ليقيمه على أساس من الماضى المجدد ، ويسعى الى الغد ولا يفوته أبدا أن يلتفت الى الامس البعيد ، وان لم يكن من الجامدين الكارهين للتقدم ومسايرة الزمن على ما تقتضيه مطالب الحضارة الحديثة

ويقرر المؤلف أن جنوح المسلم الى مسايرة الحضارة الحديثة لا يزال مصحوبا بكثير من التحفظ والحذر فى علاقته بأصحاب هذه الحضارة ، فانه لا ينسى أن دول الحضارة الاوربية هى التى أخضعته لسيطرتها منذ

أواسط القرن الماضي واقتحمت بلاده عليه في الوقت الذي ثار فيه على حكوماته الوطنية طلبا للاصلاح والاخذ بأسباب تلك الحضارة التي أرادها خالصة من شوائب الاستعمار ، بريئة مما يناقض الدين

قال : وان المسلم ليحس أن الاوربي يفرق في المعاملة بينه وبين أصحاب الديانات الاخرى ولو لم يكونوا من المسيحيين ، وأن هذه التفرقة تظهر من الاوربي حيث ينبغي أن تختفي جميع الفوارق في معاملة الانسان للانسان . فقد لوحظ أن مستشفيات الصليب الاحمر كانت تهمل الجرحى المسلمين أثناء حملة فلسطين وتميز عليهم جرحى اليهود ، ويحدث هذا في المستشفى الواحد بغير مبالاة ولا محاولة للاعتذار من هذا التمييز

ويعتقد المؤلف أن الغربي لا يفهم الاسلام حق فهمه الا اذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة ، فليس التفكير بنافع شيئا ان لم يكن مصحوبا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الاسلامي الحديث

ويستعير المؤلف اسم المعتذرين Apologetics لرواد النهضة الاسلامية الحديثة لانهم — كما يرى — يسلكون المسلك الذي جرى عليه الاباء المسيحيون في صدر الدعوة المسيحية للرد على الفلاسفة والمفكرين الذين اشتهروا يومئذ باسم المعرفيين وأرادوا أن يجعلوا مذهب المعرفة ديانة تقابل الديانة المسيحية وتتغلب عليها في مجال البحث عن الحقيقة الدنيوية والحقيقة الاخروية ..

وقد كان المعتذرون قديما يردون على المعرفيين باثبات العقائد الدينية من الوجهة العلمية أو وجهة المنطق

ومباحث ما وراء الطبيعة ، فلما شعر المسلمون بصدمة العلوم الحديثة كان مسلك الرواد الاوائل من طلائع نهضتهم كمسلك أولئك المتـدرين ، وكان همهم الاول حقبة طويلة أن يثبتوا سبق العرب والمسلمين الى كشف الحقائق العلمية واستعداد العقيدة الاسلامية لقبول الحقائق العلمية التى تسفر عنها مباحث العلماء العصريين ..

وأضاف الى ذلك قائلا : انه يرى كما يرى الاستاذ (جب) المستشرق المشهور ان مستقبل الاسلام فى هذه الحركة وفى غيرها من حركات الدفاع يستقر حيث استقر ماضيه من قبل بين أيدى حراسه الاوائل وهم طائفة العلماء ..

ثم يستطرد الى الكلام على مجلة الازهر لانها خط من خطوط هذا الدفاع يرسمه المعهد الاسلامى الذى يضم اليه العدد الاكبر من علماء الاسلام

قال ان هذه المجلة ظهرت أولا باسم نور الاسلام ، وظهرت منها الاعداد الاولى بهذا الاسم ، ثم سميت من عددها السادس باسم مجلة الازهر (١٣٤٩ هجرية و ١٩٣٠ ميلادية) وقام على تحريرها العالم الأزهرى الشيخ الخضر حسين ، ثم أسندت رئاسة تحريرها الى المجدد العصرى Modernist الاستاذ محمد فريد وجدى . ولم يزل يشرف على تحريرها الى سنة ١٩٥٤ ، وقد ذكر المؤلف أنه اتخذ المجلة موضوعا لدراسته التى قدمها الى جامعة برنستون سنة ١٩٤٨ باسم « مجلة الازهر ـ عرض ونقد ـ » ولم ينقطع عن مراجعتها بعد ذلك الى حين اصداره لكتابه الاخير باسم الاسلام فى التاريخ الحديث ..

ويقول الكاتب انه لا ينظر الى الاراء الخاصة التى

تنشرها المجلة للعلماء ، ولغير العلماء الا من زاوية واحدة، وهي الزاوية التي تشير الى اتجاه عام يتقبله المسلمون كافة أو تتقبله جمهــــرة منهم على التعميم ، ورأيه فى الاستاذ الخضر أنه يمثل المدرسة السلفية بمنهج الدفاع عن الاسلام ، وأن الاستاذ فريد وجدى مجــدد عصرى لا تزال طريقته فى التجديد على قواعد المعرفة الحديثـة مقبولة عند أنصار التجديد ، وان يكن بعض آرائه منظورا اليه اليوم كأنه تفكير فات أوانه وظهر بعده ما هو أوفق منه لزمنه ، ولا اختلاف بين الاستاذ وجـــدى ولا بين السلفيين او المجددين المتأخرين فى رأى واحد يتفقــون عليه : وهو أن العلم الحديث لا ينقض حقائق الاسلام ، وأن القليل منه عند المتعلمين المتعجلين هو الذى يغريهم بالانصراف عن العقيدة الدينية ولكنهم لا ينصرفون عنها ، بل يزدادون ايمانا بها ، مع التوسع فى العلم الحـديث ، والتوسع فى العلم بالدين

ويقول صاحب الكتاب فى مقابلته بين منهج الشـيخ الخضر ومنهج الاستاذ وجدى ان أولهما يعتبر الاسـلام وحيا تاما قد تنزل على صورته الكاملة منذ عصر الرسالة المحمدية ، فلا اضافة اليه ولا زيادة عليــه ولا تحوير فيه ، وانما الايمان بالاسلام هو الذى يحتمــل القوة والضعف كما يحتمل زيادة المعرفة أو النقص فيها ، أو يحتمل المراجعة من عصر الى عصر لتفقد الآثار العصرية فيه . وليس الاستاذ الخضر كما يرى المؤلف من أنصــار الحنين الى الماضى ، بل هو من أنصار الدعوة التى لا زمان لها لانها صالحة لكل زمان ، ومهما تتجدد مذاهب المعرفة فالمسلم يسلم أمره الى ارادة الله كلما هدته معارفه الى فهم تلك الارادة الالهية بالدرس أو بالالهام . وقــد تساوى فى نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين

فى الحاجة الى التصحيح والاصلاح : وهما ــ على تعبير المؤلف ــ طرف اليسار من المتعلمين الذين جاوزوا حدود الاسلام ، وطرف اليمين من الجامدين وأتبـــاع الطرق الصوفية الذين ضيقوا حدوده عليهم وان لم يجاوزوه

أما الاستاذ وجدى فخطته فى الاصلاح تتجه قبل كل شىء الى احياء الشعور الروحانى فى ضمير الرجـــل العصرى ، لانه يرى أن الفكرة المادية طغت على العقــول فلم تسلم منها العقائد ولا الاخلاق ، وأن مشكلة الانسان العصرى مشكلة أخلاقية نفسانية تستدعى من المصــلح أن ينهض بأمثلته العليا فى معيشته الدينية والدنيـــوية معا ليعود به الى حظيرة المثل الروحانية ، وهى الخليقــة بعد ذلك أن ترده الى شعائر الدين ونصوص الـــكتاب والسنة النبوية ..

وليس المقام بمتسع هنا لشرح التعليقات التى عقب بها المؤلف على أحوال الاسلام فى الباكستان والهند والبلاد التركية والايرانية وسائر الامم الاسلامية ، ولكن تعليقاته التى أجملناها عن مصر نموذج حسن للتعرف بمقصـــده من البحث ، وتقديره للحركات الاسلامية بين تلك الامم ــ وزبدتها أن الحضارة الغربية قد أزعجت أمم الاســلام فنهضوا للدفاع عن عقيدتهم فى وجهها ، وشعروا بأنهم يعيشون فى عالم غير عالمهم معها ، وأنهم ليقبلون هـــذه الحضارة أو يرفضونها ولكن القليل منهم هو الذى يؤثر ترك الاسلام للسير مع الحضارة الاوربية فى ركابها ، وانما يتفقون ــ معظمهم ــ على صبغ الحضارة بصبغتهم ونقلها الى عالم جديد لا ينفصلون فيه عن عالمهم القــديم ، ولم يظهر بعد كيف يكون هذا العالم المنظور ولا كيف تكون العلاقة بينه وبين العالم الغربى على اختلاف مناحيه ، وكل ما هو واضح ــ اليوم ــ ولا حاجة به الى المزيد

من الايضاح أن دعاة الحضارة الاوربية يفقـــدون عطف العالم الاسلامى اذا حاولوا أن يعاملوه غدا كما عاملوه أمس معاملة السيد العليم للجاهل التابع ، اذ لا سبيل الى التفاهم على غير أساس المساواة

افريقية الجديدة

ألف هذا الكتاب باسم (أفريقية الجـديدة) صحفى امريكى يكتب عن الرحلات بأسلوب الصحافة فيمـا تتعرض له من موضوعات الاستطلاع العلمى أو السياسى: وهى موضوعات ــ عند الصحافة العصرية ــ موفورة المادة من الاحصاءات والمراجع التاريخية والسياسـية ، يستعان عليها أحيانا بتوفير أدوات الرحلة السريعة بمزاياها ونقائصها التى تجتمع فى شىء واحد : وهــو السرعة أو العجلة ..

فالرحالة الصحفى قد تزود لتأليف هذا الكتاب بزاد ضخم من الاحصاءات المجهزة ، والمراجع الموجزة ،وتذاكر السفر الحاضرة على كل مطية من المطايا الميسـورة فى القارة الافريقية ، وهى تنتظم أنواع المطايا من قبـل الطوفان الى السنة الاخيرة بعد منتصف القرن العشرين ثم دون محصوله سريعا فى اعداد العدة ، وسريعـا فى استخلاص النتائج منها . فوضع بين يدى القارىء كتابا يغنيه فى مثل هذا الغرض للاحاطة السريعة بأحـوال القارة الافريقية فى لمحات معدودات ، ولكنها تستند وراءها الى مستودع غير قليل من مراجع الوقائع والارقام

ولقد كان شأن الاسلام فى مقدمة الشئون الافريقيةالتى عنى بها المؤلف حيث ترتبط بالعلاقات الوطنية (المحلية) أو حيث ترتبط بالعالم الواسع كلما اتصلت بجهة من جهاته،

وكلامه عن الاسلام فى القارة الافريقية هو الذى يعنينامن هذا المقال ..

ان المؤلف يردد الحقيقة المقررة عن عراقة تاريخ الاسلام فى القارة وعمق أثره بين قبائلها وشعوبها ،ويزيد على المؤلفين السابقين أحيانا أنه يبحث عن عراقة الاسماء فى المواقع التى يخيل الى الكثير أنها « محض وثنية » أو « محض جاهلية افريقية » ..

ومن ذلك أنه يتعقب الروايات المنقولة عن أصل كلمة (بورنو) أو (بورنيو) فيقول أنها على غير الظاهرمن نطقها الافريقى قد ترجع الى كلمتين عربيتين وهما (بحر نوح) سقط منهما لفظ الحائين لان الحاء لاتنطق فى كثير من اللهجات الحامية فأصبحت (برنو) واطلقت على موقعها لاعتقاد شاع بين العرب الاولين هناك عن علاقة بحيرة (شاد) بطوفان نوح

ويرى المؤلف أن الاسلام أعرق وأثبت فى القارة من أن تعوقه عن الانطلاق فى أرجائها عوائق التبشير اوالمقاومة السياسية : « فان المسيحية لم تفلح قط فى مقاومة الاسلام بالقارة ، وانما كان العائق الوحيد الذى حال بين دين النبى وبين الانتشار فيها هو عائق ـ التسى تسى ـ أو ذبابة مرض النوم . اذ كان الاسلام ينتشر دائما على أيدى فرسان الصحراء وكان الخيل عرضة للاصابة بأذى تلك الذبابة وليس لها عمل غالب فى أقاليم الغابات .»

ومن جملة « التسجيلات » الاحصائية او العيانية التى راقبها المؤلف يخرج القارىء ببيان موجز عن مشكلات المسلمين فى بلاد القارة التى بلغت استقلالها أخيرا أو لا تزال فى طريق الجهاد لبلوغ ذلك الاستقلال

ومن هذه المشكلات أن الحماسة للعقيدة الاسلامية

يشوبها احيانا جهل المسلمين البدائيين بفرائض تلك العقيدة واحتفاظهم بالكثير من أساطير الوثنية الاولى التى توارثوها عن جاهليتهم القريبة ، ولكنه يسوى بين القبائل الاسلامية والقبائل المسيحية ، التى تحولت عن جاهليتها بدعوة البعوث المسيحية ، فان هؤلاء وهؤلاء معا يأخذون من الدين الجديد بالقشور ولا يتعمقون فيه الى جوهره وروحه .وقد يشاهد الافريقى المسيحى فى الاقاليم التى تجاور القبائل الاسلامية وهو يلبس التعاويذ القرآنية و «الاحجبة» الموصوفة فى طب المشايخ والفقهاء .. كما يشاهد الافريقي المسلم وهو يشرب الخمر ليعطى المرح حقه فى المواسم الدينية

ومن المشكلات الافريقية التى تعم المسلمين وغير المسلمين أن لهجات الخطاب بين القبائل تختلف فى القطر الواحد حتى تعد بالمئات ، وان التفاهم بينها انما يتأتى بلغة « تعليمية » يتلقونها من طريق الدعوة الدينية ،وهى بين دعوة تسرى من جانب المبشرين أو تسرى الان كما سرت من قبل على أيدى السكان المسلمين

ويذكر المؤلف أن المسلمين ربما تخلفوا عن جيرانهم الوطنيين فى بعض الاقاليم لانهم قاطعوا المدارس العصرية يوم كانت تابعة كلها لبعوث التبشير ، فلم يتخرج منهم فى تلك المدارس غير قليل من الموظفين الصالحين لاعمال الدواوين ..

وقد أغلقت مئات من هذه المدارس فى أعالى النيل وأواسط القارة ، ولم يخلفها عدد يضارع هذا العدد من المدارس الاسلامية أو الوطنية المنفصلة عن ادارة التبشير ..

ولا يكتم المؤلف أنه لقى فى بعض تلك البلاد أناسا (محليين) يجهرون بالسخط على حكوماتهم ويتساءلون

عن الدول الامريكية والاوربية : هل لهم أن يتطلعوا الى معونتها السياسية فى مقاومتهم لجيرانهم المسلمين ؟ !

قال : وانهم ليعربون عن أسفهم علانية كلما قيل لهم ان الدول لا تنوى أن تتعرض لهذه الشئون .. ثم يقولون : انه لا أمل اذن فى غير معونة السماء !

وكلام المؤلف عن الاقاليم الاسلامية التى يراقبها جيرانها بين شواطىء البحر الاحمر ووادى النيل جدير بالتأمل وطول النظر ، لانه (غير مفهوم) على حقيقته ، وغير معلوم بتفصيلاته فيما ينقل الينا عن أخبار تلك البلاد ..

ويروى المؤلف أحاديث الزعماء المسلمين حيث يشيع الاسلام بين الملايين من السكان ، فينقل عنهم أنهم صريحون فى المجاهرة بنفورهم من الخضوع لغير ابناء دينهم ، ولكنه يعقب على ذلك فى بعض المواضع فيقول : ان هؤلاء الزعماء على تدينهم ومشاركة الملايين لهم فى الدين ليس لهم أتباع سياسيون بمقدار عدد المشاركين لهم فى الدين

ومن ملاحظات المؤلف على مسلمى الصحراء أنهم (محافظون متشددون) ينظرون بشىء من الريبة الى مسلمى الحواضر ولا ينتظرون أن يتلقوا منهم الهداية الروحية ، لاعتقادهم أنهم مسلمون متفرنجون ، أو مسلمون غير أرثوذكسيين

وقد أشار المؤلف الى احتيال الفرنسيين على تعليم هؤلاء (الصحراويين) فى غير المدارس النظامية التى يعرضون عنها ويستريبون بها ، فانهم أبدعوا فى الصحراء نظاما بدويا يناسبها ويستهوى اليه أبناءها ، وهو نظام المدارس المتنقلة كأنها ضرب من قوافل التعليم

وقد أومأ المؤلف الى خطة التفرقة بين العرب والبربر فى المغرب الاقصى ، واستطرد منها الى الالمام بآثارها

السياسية والاجتماعية فى السنوات الاخيرة

ويرى المؤلف أن من أسباب قوة الاسلام بين قبائل (الهوسا) الى الجنوب من بلاد المغرب الاقصى ان الشعائر الاسلامية قد اصبحت عندهم « طريقة حياة » مع الايمان بعقائدها الروحية ، وقلما ينجح المبشرون فى المزج بين التدين وأساليب المعيشة اليومية

وقد أومأ المؤلف كذلك الى نشاط الطائفة الاسماعيلية فى افريقية الشرقية ، وافريقية الغربية ، وقال ان واحدا من دعاتها فى (سيراليون) يقدر عـــدد الوثنيين الذين تحولوا الى الاسلام على يديه بخمسة آلاف

وقد تحدث المؤلف عن اقبال المســلمين الافريقيين على تعلم دروس الدين فى الجامع الازهر ، فقال ان أكثر من مائة وسبعين شابا صوماليا كانوا يتعلمون فى مصر سنة ١٩٥٧ ، وأن الجامع الازهر والمعاهد الاخرى تجتذب اليها المزيد من أولئك الطلاب عاما بعد عام

ولا نختم تلخيص هذا الكتاب دون أن نشير الى موضعين فيه يستحقان من القارىء المسلم كل عناية بالتوسع فيهما والاعتماد على النفس فى استقصاء أخبارهما ، بنجوة من المصادر الاجنبية التى لا تخلو من قلة الاهتمام ان خلت من سوء النية • وهذان الموضعان هما موضع « تسجيلاته وتبليغاته » عن تاريخ الاسلام فى جوار الحبشة ، وموضع « تسجيلاته وتبليغاته » عن مساعى الصهيونية فى القارة الافريقية ، فان المؤلف يطوى الاحاديث عن هذا الموضوع طيــا لا يتسع للصراحة والبيــان الوافى ، وان تكن أيسر الصراحة كافية للعلم بما وراء النيات ، او العلم بمحاولات الصهيونية المتشعبة للانتفــاع باشارة التعصـــب بين الافريقيين المسلمين وغير المسلمين

الدين والسياسة فى باكستان

كانت تصفية الاستعمار شغلانا جديدا للباحثين فى علم السياسة أو علم الدولة والحكومة ، وهـــو العلم الذى يبحث فى تكوين الدول وفى العناصر الاجتماعيـــة التى تهيىء مجتمعا من المجتمعات لاقامة الدولة أو الحكومـــة المستقلة فيه ..

وقد زال الاستعمار عن بلاد كثيرة كان بعضها خليطا من الشعوب والاجناس والعقائد واللغات والمصـــــالح الاقتصادية والمواقع الجغرافية ، بغير رابطة تجمعها الى وحدة مشتركة غير سيطرة الدولة المستعمرة عليهاجميعا بسلطان القوة والسطوة ، فلما ارتفعت عنها هذه السيطرة تفرقت فاشتغلت كل منها بسببه من أسباب الاستقلال، وتجدد البحث العلمى فى عناصر الوحدة التى تصلحلقيام الدولة المستقرة في وطن من الاوطان

هل هى وحدة الجنس والعنصر ؟ نعم . قد تكون هذه الوحدة قوام الدولة ولكنها قد تتم فى بلاد ولا تتم فى بلاد أخرى توافرت لها معالم الدولة المستقلة ، كالبلاد السويسرية التى ينتمى سكانها الى أمم الجرمان والطليان والفرنسيين ويتكلمون اللغات الثلاث ، ويدينون بمذاهب مختلفة من المسيحية

هل هى وحدة المصلحة المشتركة ؟ نعم ايضا ، ولكن البلاد قد تتولاها حكومة واحدة وهى فى قطر من أقطارها زراعية ، وفى القطر الآخر صناعية ، وفيما بينهما أو فى جوارهما تجارية تتعارض مصالحها المتفرقة فى هـــذه المرافق ثم تجمعها فوق ذلك مصلحة أعم منها وأدعى الى الوفاق والاتحاد ، كالولايات المتحدة وبعض الجمهوريات الامريكية أو الاوربية

هل هى الوحدة الجغرافية أو الوحدة التاريخية ؟ نعم أيضا ولكن مع الاستثناء الواضح فى كثير من الحالات ، فان « باكستان » تنقسم الى قسمين بينهما مئات الاميال ، والجزر البريطانية وحدة جغرافية متقاربة ولكنها أشتات من المواضى والتواريخ والسلالات البشرية .

هل هى وحدة الدين ؟

لقد سئل هذا السؤال ، وهم علماء السياسة بالاجابة عليه بالنفى وكادوا ينسبون مطالبة المسلمين من أهل الهند بالاستقلال الى شذوذ (الرجعية الاسلامية) لولا أن حركة الاستقلال فى الهند كانت مقرونة بظهور اسم اسرائيل فى معترك السياسة الدولية ، فتعذر على العلماء (المنصفين) أن يتهموا اسرائيل بالرجعية الدينية كما شاءوا أن يتهموا بها طلاب الاستقلال من أبناء باكستان ، وتعذر عليهم من الجهة الاخرى أن يفرقوا بين الوحدتين فى المصطلحات العلمية ، فسمحوا بالعامل الدينى مع العوامل الاخرى التى تهيىء البلاد لوحدة الدولة أو وحدة الحكومة ..

ولقد كان مؤسس العلم السياسى ابن خلدون يفطن لهذه العوامل ولا ينسى منها عامل الدين فى مقدمته الوافية حيث يقول عند الكلام على قوة الدين وقوة العصبية : «ان الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها .. وان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم ، وهم مستميتون عليه ، وأهل الدولة التى هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل .. »

ولكن الباحثين العصريين الذين يذكرون كلام ابن خلدون

ولا يهملونه فى هذا الصدد يستشهدون به ثم يعرضون عنه لانه لم يعمل على « تطوير » هذه الفكرة وادماجها في أبواب التقسيم العلمية ، وهكذا صنع الاستاذ ليونارد بايندر : **Binder** صاحب الكتاب الذى نراجعه فى هذا المقال واسمه : « الدين والشئون السياسية فى باكستان:

Religion and politics in Pakistan

ان الاستاذ (بايندر) مؤلف الكتاب عضو فى قسم الدراسات السياسية المتخصصة لمسائل الشرق الاوسط والشرق الادنى . وله مباحث يجريها فى البلاد المصرية من قبل معهد روكفلر ، ويظهر من تعليقاته على آراء المختلفين من أصحاب البرامج السياسية والدينية فى الامم الاسلامية أنه يجتهد فى الحيدة بينها غاية اجتهاده ، فلا يتورط فى العصبية على النحو الذى ينساق اليه خدام التبشير والاستعمار

يرجع المؤلف الى موقف المسلمين فى الهند من الدولة البريطانية ومن الحضارة الغربية على التعميم ، فيلاحظ الحقيقة التاريخية المتفق عليها ، وهى يقظة المسلمين للدفاع عن كيانهم على أثر الاحتكاك بالسياسة البريطانية ومظاهر الحضارة الحديثة التى كان لها جانباها من الاثر الحسن والاثر السيىء فى التعليم والعادات الاجتماعية

فاجتمعت كلمة الدعاة المسلمين على وجوب التبديل والاصلاح ، واختلفوا فى المنهج على حسب اختلافهم فى تعليل أسباب الضعف التى أصابت العالم الاسلامى بأسره ، ومنه المسلمون الهنديون

فالذين عللوا ضعف المسلمين باعراضهم عن العلوم الحديثة طلبوا الاصلاح من طريق العمل الحثيث على مجاراة الاوربيين فى حضارتهم وضاعفوا السعى الى هذه الغاية بعد شعورهم بغلبة مواطنيهم عليهم ، لانهم اقبلوا

على التعليم الاوربى فكثر منهم المرشحون لوظائف الدولة والاعمال العامة ..

والذين عللوا ضعف المسلمين باعراضهم عن آداب دينهم وابتعادهم عن منهج السلف فى اخلاقهم ومسالكهم طلبوا الاصلاح من طريق حركة (الاحياء) وهى حركة التجديد الاسلامى بالعودة الى سنن المسلمين الاولين ، وقصروا جهودهم فى احياء الماضى على تجديد تاريخ السلف الاسلامى دون السلف القريب الذى ارتبط بتاريخ دول المغول ..

وقد عصم هذه الحرية أن تكون رجعة الى الوراء .. ان طلاب الاحياء انما طلبوا الرجوع الى الاصول الاولى بغير استثناء او تمييز بين المراجع الا أن يقضى به الاجتهاد فى التوفيق بين السنة المختارة والضرورة العصرية، فوجب على أصحاب هذه الدعوة — اذن — أن ينبذوا التقليد ويعتمدوا على الاجتهاد فى اتباع السنة التى يهديهم اليها التفكير المستقل والنظر فى مطالب الزمن ودواعى المصلحة الحاضرة ، وكادت هذه الدعوة المستقلة ان تقارب بين الفريقين المتعارضين ، وهما فريق التعليم الحديث وفريق الاحياء على سنة السلف مع الاجتهاد فى الاختيار والاستقلال بالتفكير ، لان هذا الاستقلال خليق ان يعصم الحركة من جمود التقليد الاعمى وكراهة التجديد اصرارا على القديم بغير تبديل

ولما ووجهت الباكستان بالمشكلة الاقتصادية كان فريق من دعاة الاصلاح يجنح الى نظام سماه بالديمقراطية الاسلامية وترجمه المؤلف الى الانجليزية بكلمة الديمقراطية الالهية .. Theo-democracy

وكان فريق آخر ، وعلى راسه لياقت على خان ، يدعو الى الاشتراكية الاسلامية ، ويقول فى تصريحاته السياسية

انه لا يعرف (ازما) يدين به غير الازم الذى يلحق باشتراكية الاسلام ، ويعنى بالازم هذه الحروف الاجنبية ism التى تلحق بأسماء المذاهب عند الغربيين ، فلا مذهب له فى السياسة ولا فى الاجتماع غير مذهب الاشتراكية على حسب عقائد الاسلام ، وفسر كلمة الدولة الاسلامية بقوله : انها (هى الدولة التى سلمت من المنازعات الداخلية حيث يجزى كل انسان بعمله ولا يحتمل بقاء الطفيليين، وان الواجب الاول على الحكومة الاسلامية أن تبطل كل ضرب من ضروب الاستغلال والتسخير).

قال المؤلف : ولكن دعوة لياقت خان كانت تبدو احيانا كأنها دعوة الى شيء يخالف الفهم المعتاد للاشتراكية كما يخالف الفهم المعتاد للاسلام ، وخلاصة هذا المذهب انه يسعى الى توفير القوت والكساء والمأوى والعلاج والتعليم لعامة الفقراء ، ومن الصعب فى رأى المؤلف أن نذكر نظاما من النظم الاقتصادية لا يزعم ان هذا المسعى غرض مباشر أو غير مباشر من أغراضه المقصودة

ويمضى المؤلف فيقول أن السند الاسلامى للنظام الاشتراكى يقوم على فريضة الزكاة ، وواجب الصدقات واحكام المواريث وتحريم الربا وحماية الملكية ، واعتبار الدولة مسئولة عن توفير أسباب المعيشة لجميع رعاياها، ومن ذلك فى صدر الاسلام فريضة الارزاق التى كان الخليفة عمر بن الخطاب يفرضها لبعض المستحقين

وعقب المؤلف قائلا : ان ما سماه لياقت خان اشتراكية اسلامية لا يعدو أن يكون مزيجا من نظام رأس المال ثم الضمان الاجتماعى ثم (الله) .. وان هذه الفكرة الغامضة قد استندت الى ركن يؤيدها من (ضرورة الرأسمالية الحكومية) وهى ضرورة محسوسة حيث تتأخر الصناعة فى البلاد كما هى الحال فى باكستان ، ولم يغفل الداعون

الى الاصلاح الاجتماعى على هذه القواعد عما يستتبعه من « الاجراءات الادارية » عند التطبيق ، ولكنهم نظروا اليها نظرتهم الى صعوبة تعالج فى الطريق ولا تستدعى تقرير مبدأ سابق كفرض الادخار الجبرى أو الاستيلاء او الغاء المصارف وما اليها

وأشار المؤلف فى ختام الكتاب الى طائفة من فقراء الطبقة الوسطى بين أبناء الباكستان تميل الى اقامة « وطنية باكستانية » منعزلة عن الصبغة الدينية ، وهو اتجاه لا يستطيع الحكم على نتائجه منذ الآن ، ويتوقف التطور الديمقراطى فى البلاد ، آخر الامر ، على تقدم الاصلاح الاقتصادى وانتشار التعليم معا على خطوة واحدة ، وبذلك يصبح النظام الاسلامى بذاته مصدرا مستقلا فى عوامله السياسية

افريقية التى لا تقبل التصديق

بعد خمسة قرون من بدء اهتمام الغربيين بالرحلة الى الشرق ، أصبحت كتابة هذه الرحلات مذاهب متفرقة . واصبح كل مذهب منها ذا طرائق مختلفة ، على حسب كتابها وأغراضهم منها ، أو قدرتهم على كتابتها ..

وقد التقينا على هذه الصفحات بكثير من المذاهب وكثير من هؤلاء الكتاب وأولهم واسبقهم أصحاب مذهب الاغراب الذين يجتذبون قراءهم برواية الأعاجيب والخوارق المجهولة ، ويحسبون انهم مطالبون باعطاء أولئك القراء صورة يدهشون لها بديلا من كل صورة يألفونها فى بلادهم ولو عمدوا الى المبالغة والاختلاق

ومن هؤلاء الرحالين اناس مطبوعون على تشويه كل

صورة يلقونها فى البلاد الشرقية والبلاد الاسلامية على التخصيص ، وقد تبدو لهم مشوهة منكرة وهى لا تشويه ولا نكر فيها ، ولكنهم يكرهون الاعتراف بالحسنات بينهم وبين انفسهم فيحيلونها الى سيئات توافق ما عندهم من سوء الظن وسوء الدخيلة ، وقد يعترفون بالحسنة ولكنهم يقصدون تشويهها لاعتقادهم أنه أقرب الى هوى قرائهم وأوفق لخدمة التبشير أو الاستغلال وهم يعملون لحسابه

ولقد رأينا بعض هؤلاء الرحالين يصدقون فى النقل والوصف لانهم يتحرون الدقة الجغرافية والتاريخية . ويعلمون ان هذه الدقة أنفع لهم وأجدى على قرائهم وأوطانهم ، اذ كان تضليل هذه الاوطان عن فهم الواقع على جليته تفويتا لهم عن سبل المنفعة التى يسلكها من يواجهون الحقيقة بغير تضليل

ولا يندر بين الرحالين ممن يصدقون النقل والوصف ان يكون منهم من يصدرون عن عاطفة حسنة تعطفهم نحو البلاد الشرقية ويبعثها فيهم أنهم ناقمون على ولاة الامر فى بلادهم ثائرون على سلطان رؤساء الدين فيها، معتقدون أن اطلاع اخوانهم على حسنات الشرق وسيلة اخرى من وسائل الاطلاع على سيئات المسئولين فى بلادهم عن عيوبها وأوزارها

وربما اضيف الى أولئك وهؤلاء فى الزمن الاخير جماعة الباحثين العلميين الذين يعلمون أن الطريق الى الشرق مفتوح امام الكثيرين من طلاب السياحة والاستطلاع ويحذرون على سمعتهم « العلمية » من الخلط والتزيد فى الامور التى يتناقلها الناس وتتواتر انباؤها مع أحاديث البرق والاذاعة ولا يصعب على قاصد التحقيق ان يهتدى الى وجه الصواب فيها

وكنا نحسب ان مذهب هؤلاء الباحثين العلميين قد غلب على جماعات الرحالين فى الزمن الاخير فضاقت على المغربين مذاهب الاغراب واستغنى قراؤهم عن غرائبهم بالجديد من اخبار البلاد التى تكفل لقارئها الجدة والطرافة وان لم تكفل له الدهشة ومباينة المألوف كل المباينة

ولكن الظاهر من متابعة الرحلات الاخيرة أن طريقة الاغراب لم تنقطع بعد ، وانها عند بعض الكتاب ضرورة لا يملكون اختيارهم فيها ، وهى على حال من اثنتين فى أكثر الاحايين : ضرورة المزاج الشعرى الذى يضفى على الواقع تزويق الخيال ولو كان من مشاهد وطنه ومألف بصره وسمعه ، وضرورة العجز عن كتابة مايشوق القارىء ويطيب له بغير تهويل او تحريف أو مبالغة فى عرض الصحيح من كل مألوف مطروق

ولا بد ان يكون صاحب الكتاب الذى بين أيدينا واحدا من هؤلاء المغربين توافر له السببان : سبب التزويق الشعرى وسبب العجز عن التشويق بغير خبر غريب لايقبل التصديق . لانه جعل عنوان كتابه (افريقية التى لا تقبل التصديق Incredible Africa ليروى فيه مالا يصدقه القارىء ويلقى الذنب على القارة وابنائها ولا يلقيه على قلمه ولا على القراء

ولعله لو استطاع أن يجتذب قراءه بأسلوب غير هذا الاسلوب لما ارتضاه للكتابة عن عقائد المسلمين فى مراكش وهى أقرب الى معظم الاوربيين من معظم البلاد الاوربية، وسياحهم فيها أكثر من سياحهم فى بعض ربوعها

روى عن أحد الفرنسيين فى طنجة انه قال له ولصحبه: « ان طنجة عصرية بالقياس الى بعض مدن الاقطار الداخلية . ولنضرب مثلا ببلدة فاس .. فاننى لم أكد أفرغ من مطالعة كتاب ظهر خلال القرن الرابع عشر

ووصفها كما كانت فى تلك الحقبة ، ولم تتغير اليوم عادات أهلها التى وصفها فى كتابه ، فلو طبع الكتاب وعليه تاريخ هذه السنة لعده القارىء من تصانيف آخر ساعة»

« وعلى اثر تناول القهوة بعد الغداء قالت لى فتاة انجليزية : اننى سمعت ذلك الرجل يقول عن طنجة انها عصرية متمدنة ·· أنظر الى هذا ·· ورفعت ذيلها لترينا ساقيها وهما مسودتان مزرقتان من اثر الضربات عليهما

« ومضت الفتاة تقول : اننى كنت التقط بعض الصور فى القصبة ولم تكن غير صور عادية للبيوت والطرقات وفيها بطبيعة الحال أناس من عابرى الطريق ، فأخذ النسوة فى الصياح وأقبل الرجال والاطفال الصغار فأوسعونى ضربا ورفسا بالاقدام .. »

قال المؤلف معقبا على حديث الفتاة : « .. انها الخرافة القديمة ، فانهم يعتقدون أن آلة التصوير تلتقط أرواحهم مع أشباحهم ... وقد كاد أحدهم أن يحطم مصورتى حين جئت الى مراكش لاول مرة لانه حسب اننى التقطت صورته ، ولم أكن قد فعلت وان كان هو موقنا أن الصورة هناك وأصر على ردها اليه ، فلم يسعنى الا أن أجاريه على وهمه وأخذت أزمزم وأدمدم وأردد بعض الكلمات التى لا معنى لها ، ثم استخرجت روحا متخيلة من الحقيبة وناولته اياها ، فتناولها ومضى فى طريقه وهو يلفظ باللغة العربية المتواترة : خنزير يهلك على قبر جلك .. »

واسترسل الكاتب قائلا : « ان خرافة التقاط المصورة للارواح مع الاشباح شائعة فى أرجاء العالم . ولكن الامر فى بلاد المسلمين يداخله عامل آخر من عوامل كراهة التصوير ، فليس فى الفن الاسلامى المشروع صور للخلائق الادمية ، وانما يسمح هذا الفن بتمثيل الرسوم الهندسية ليس الا ، لان القرآن يحرم تمثيل الانسان لكون الاله

الاعلى نفسه غير منظور ، ولا ينبغى للانسان أن يظهر والله الذى خلقه غير ظاهر • وشرحت ذلك للفتاة فلم تقنع بهذا التفسير وأجابتنى قائلة انها ترى صور السلطان فى كل مكان ، وعلى رأس البواب فى هذا الفندق واحدة منها..
فقال الفرنسى الذى حدثنا من قبل : ان السلطان مستثنى من هذا التحريم ؛ لانه نصف اله ، ولا تسرى عليه الاحكام التى تسرى على سائر المخلوقات .. »

ان عنوان « القارة التى لا تقبل التصديق » ليس بالتعويذة التى تحمى المؤلف من الشك الكبير فيما رواه، وهبه شهد فى طنجة ما لم نشهده معه فأين هو كلام القرآن الذى يحرم على الانسان أن يظهر والله غير ظاهر ؟ واين هو المسلم الذى يطيق أن يسمع بتأليه حاكم أو تشبيهه بالاله وهو يتلو فى الكتاب أن نبيه صلوات الله عليه بشر لا يميزه عن غيره من أبناء آدم وحواء الا انه بشر يوحى اليه ؟ وكيف يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يفهم أن تمثيل الانسان مستكثر عليه ولكن هذا التمثيل الظاهر لا يستكثر على الحيوان والجماد ؟

ان افريقية التى لا تقبل التصديق هى افريقية على صفحات هذا الكتاب وليست افريقية كما خلقها الله ظاهرة للاعين قبل أن تظهر مصورة على الخرائط أو على الصفائح الشمسية ، وليست القصة التى نقلناها هنا غير مثل واحد من أمثلة شتى رويت عن البلاد الاسلامية وسائر البلاد المعروفة من اقطارها ، وقد يكون شفيعا للكاتب أنه سلك هذا المسلك للتهويل على ولده بما يستغربه من عظمة مراكش بالامس كما سلكه للتهويل عليه وعلى عامة القراء بغرائب العقائد والعادات فيها اليوم ..

فان ابنه كان يسأله عن المراكشيين : هل هم مستوحشون ؟ فيقول له : انهم ان لم يكونوا متمدنين حق

التمدن فهم الذين علموا الاوربيين المدنية قبل حين
وتصيح به زوجته : لا تبلبل دماغ الغلام يا صاح ، فيدفع هذا البلبال عن دماغها ودماغ وليدها ووليده بصفحة وافية يشرح فيها فضل العرب على حضارة الغرب ، بعد زوال الحضارة من ربوع اليونان والرومان

المسلمون السود فى أمريكا

The Black Muslims In America

فى هذا الكتاب بيان واف عن حركة جدية فى مقدمة الحركات الاسلامية المعاصرة بالقارة الشمالية من بلاد العالم الجديد ، منذ سنة (١٩٣٠ م) الى اليوم

ومؤلف الكتاب قس من الامريكيين السود يسمى اريك لنكولن ينتمى الى الطائفة المسيحية التى تعرف باسم المنهجيين أو الميثوديين Methodists ويدرس الفلسفة الاجتماعية باحدى كليات « أتلانتا » ويكاد يتخصص للدراسات التى تتعلق بمذاهب السود فى القارتين الامريكتين ..

وقد دلت طريقته فى وصف حركة الدعوة الاسلامية بين السود الامريكيين على عناية بالصدق فى تحرى الوقائع والبحث عن مصادر الاخبار ، فهو — فيما عدا بعض العقائد التى ينسبها الى السود المسلمين ونستبعد أن يدين بها أحد ينتسب الى الاسلام — لم يذكر خبرا من الاخبار التاريخية يثير الريبة فى نية التحقيق عنده أو يكلف القارىء تصديق مالا يقبل التصديق من دخائل تلك الحركة ..

ولا غرابة فى حرص الدكتور أريك لنكولن على تحقيق اخباره عن حركة كبيرة من حركات أبناء قومه فى بلاده،

لانه لا يستطيع أن يتنكر لشعوره بالقرابة الحميمة بينه وبين من يكتب عنهم وان نشأ على عقيدة غير عقيدتهم ، وربما كان انتسابه الى طائفة مسيحية كالطائفة «الميثودية» سببا آخر من أسباب الصدق فى وصف عيوب المجتمع الغربى وتسويغ الشكاية التى يشكوها الناقمون على تلك العيوب ومنهم السود الامريكيون ، فان الطائفة الميثودية انما نشأت وانتشرت بعض الانتشار فى القرن الماضى لانها دعوة صارمة الى اصلاح تلك العيوب وتبديل العادات والتقاليد التى من أجلها تبرمت طائفة السود بالحياة الاجتماعية بين البيض فى القارة الامريكية ، وقد يكون فى بيان تلك العيوب على حقيقتها شىء من الاعتذار عن اخفاق الدكتور أريك لنكولن وزملائه السود فى تبشير أبناء قومه بمذهبهم المسيحى ، لانه يقول ويستشهد على قوله بكلام المؤرخ الكبير « توينبى » ان السود شعروا بخيبة الرجاء حين دانوا بمذهب من المذاهب المسيحية ثم وجدوا أن وحدة الدين لم تغن عنهم شيئا لدفع المهانة عنهم ولا لحمايتهم من ظلم التفرقة بينهم وبين البيض فى معاملاتهم وعلاقاتهم الشخصية أو الاجتماعية

ويتراءى من بين السطور اعتذار آخر عن اخفاق المبشرين السود فى ضم أبناء قومهم الى زمرتهم . فان مؤلف الكتاب يلاحظ أن رؤساء الكنائس يترفعون عن قبول الشذاذ والوضعاء وذوى الشبهات بين أتباع كنائسهم ، فى حين أن الدعوة الاسلامية قد أسفرت عن نجاحها التام فى اصلاح هؤلاء المنبوذين بعد امتزاجهم بأبناء البيئة الاسلامية ، وقد يكون توكيد هذا النجاح عذرا للدكتور أريك لنكولن وزملائه من ذلك الاخفاق الذى يمنون به كلما حاولوا أن يصفوا صنيع الدعاة المسلمين الذين يرحبون بمن يستجيبون لدعوتهم وينشئونهم نشأة

أخرى كما يقول المؤلف بغير مواربة فى شـهادته لمؤسسى الدعوة الاسلامية الاولين ولمن خلفهم على هداية أتبـاعهم المؤمنين ، فلا يخفى المؤلف اعجابه باقتدار أولئك الدعاة على تعويد أتباعهم ، بعد فترة وجيزة ، أن يستقيموا على حياة العفة والورع وان كانوا قبل ذلك من مدمنى السكر ومقارفى الشـهوات وملتمسى الكسب من أنواع المحرمات والموبقات ..

ويشهد المؤلف لمؤسس الدعوة (فراج محمد) أو فراج محمد على بحسن تدبيره لامر الدعوة وتنظيم برنامجهـا واتباع الخطة التى تجدى فى التوجيه وصيانة الحركة على سوائها ما ليست تجديه خطة أخرى فى مكانهـا ، ومن آثار هذه الخطة المنتظمة أن أتباعه بلغوا بعد سنوات نحو مائة ألف (وقد يزيدون) وأنهم أقاموا لهم بين الولايات الشمالية نحو سبعين مسجدا وزاوية للعبادة عدا المدارس والمكاتب وأندية الاجتماع والمحاضرة .. ومن دلائل تدبيره أنه كان يخفى عدد أتباعه ويتجنب الخوض بهم فى غمار الانتخابات ويوصى أتباعه بمثل ذلك الى أن يحين الوقت لاستخدام أصواتهم على الوجه المقدور فى ترجيـح فريق على فريق من الخصوم السياسيين.

ويحيط المؤلف امام الدعوة بجو من الغرابة يلائم جو « الغيب » الذى يأتى من قبله رسل الدعوات ، فقد حضر الى « ديترويت » حوالى سـنة (١٩٣٠ م) ولم يحفـل بحضوره أحد قبل بضعة شهور ، لانه كان يحترف بيع الملابس والمنسوجات ولم يلفت اليه الانظار الا بعد افتتاحه البيت الاول للوعظ والصلاة ، فلما التفت اليه ولاة الامر ومستطلعو الاخبار بحثوا عن أصله والمكان الذى أقبـل منه فلم يهتدوا من أمره قط الى يقين ، وبلغ من اضطراب الظنون حول حقيقته أن بعضهم ينميه الى مكة وبعضهم

ينميه الى فلسطين ، ويقـــول أناس انه من الأفريقيين التابعين للدولة التركية ، ويقـــول غيرهم انه من رســـل النـــازيين الى أمريكا لاثارة رعاياها المتمردين عليها ، بل زعم بعضهم انه من دعاة السياسة اليابانية ، كمـــا زعم آخرون أنه من دعاة السياسة الروسية ، ولولا أن تنظيم الحركة كان أقوى واثبت من أن تســـتمال الى خـــدمة الدعايات لحقت فيه شبهات القائلين انه داعية من أولئك الدعاة الدوليين مستتر عن الانظار بستار القومية والدين، ولكن الرأى المحقق الذى انتهى اليه البـــاحثون عنه أنه « مبشر مسلم » شديد العصبية لدينه ، مع مغالاة تنسب اليه فى مزج الدعوة الدينية بالدعوة العنصرية الى تغليب الرجل الاســـود على ســـلطان « الرجل الابيض » خلافا للعنصرية النازية التى حاول بعضهم أن يحسبه من أذنابها

ولمـــا احتجب عن مقر الدعـــوة بمدينة ديترويت وما حولها كان احتجـــابه أغرب من ظهـــوره وأدعى الى اثارة الظنون واضطراب الاقاويل فانه أناب عنه أكـــبر مريديه السيد « محمد ايليا » ثم انزوى عن الانظار ولم يرجع من غيبته تلك الى هذه الســـاعة ، وقيل عن أســـباب احتجابه : انه ينتظر ساعته الموعودة ، وقال كثيرون انه ذهب ضحية لمكائد أعدائه الدينيين أو السياسيين ، ولم يستبعد فريق من أبناء الاقليم أنه اغتيل وأن اغتياله كان على يد ناس من أتباعه المنشـــقين عليه ، لانه كان يجرد حملته السياسية لعداوة الرجل الابيض ولا يوصى أتباعه بالولاء للدولة القائمة فى البلاد ، وانشقت عليه فئة من أتباعه أشفقوا من تعريض الحركة كلها لبطش الدولة باسم القـــانون فخالفوه وجـــهروا بولائهم للسلطة الدنيوية مع احتفاظهم برسالتهم الدينية والثقافية ، والى بعض هؤلاء المنشقين يعزى اغتياله على قول أناس من شيعته وأناس

من مخالفيه ..

وكل ما ينسبه مؤلف الكتاب الى هذه الدعوة يدخل فى باب الاحتمال المقبول الا ما يرويه عن شيعة قليلة اعتقدت فيه أنه اله تجسد لينقذ خلائقه المظلومين ، وأنه ظهر بالجسد على صورة انسان من السود لانه أراد أن يطهر الارض من فساد الرجل الابيض ويسلمها لايدى السود من ضحايا ذلك الفساد

فنحن نستبعد أن يشيع هذا الاعتقاد بين أناس يقرءون القرآن ويعرفون طرفا من سيرة النبى عليه السلام ، ولكننا لا نستبعد الغلو فى الحملة على الرجل الابيض وما يتبعه من الغلو فى تقدير رسالة الرجل الاسود الذى يضطلع باصلاح فساده وازالة سلطانه . فان مؤسس الدعوة بمدينة « ديترويت » قد عول على النخوة القومية ولم يكن له مناص من التعويل عليها للارتفاع بنفوس اتباعه الى مقام الكرامة التى تأبى الخنوع لاصحاب السلطان وتطمح الى الوقوف منهم موقف المصلحين المعلمين ، فليس قصاراه من الاقناع أن يقنع سامعيه بمشابهة السادة فى بلادهم وبين مظاهر سلطانهم واعتزازهم ، بل هو يناديهم ليصلحوا حيث فسد أولئك السادة ، ويملكوا زمام الولاية حيث كانوا من قبل مملوكين مسخرين ..

ووافقت هذه الدعوة « المحلية » دعوة أخرى عالمية من قبل الاسيويين والافريقيين ، لم يكن لها شعار منذ قيامها مع حركات الاستقلال غير الثورة على دعوى الرجل الابيض فى حق السيادة على الامم الصفراء والسمراء أو الامم غير البيضاء على الاجمال ، ولم ينس امام الدعوة أن الاسلام لا يقوم على كراهة جنس من الاجناس ولا على التفرقة بين الشعوب والالوان ، ولكنه كان يقول : انها

« كراهية تولدت من الكراهية » وان عداوة السودللبيض فرع من أصل عريق فيمـا حوله ، وهو عـداوة البيض للسود . فاذا تقدم الزمن بدعوة « ديترويت » الى ما وراء هذه البواعث « المحلية » أو الموقوتة لم يكن عسيرا على المؤمنين بها أن يصونوا لها تلك الغيرة التى استمدتها من النخوة القومية ليستقيموا بها النهج القويم من الغيرة « الاسلامية » أو الغيرة الالهية ..

ويرى القارىء أن حديث المؤلف عن الاقليـات حديث يغلب عليه الصدق والانصاف ، ومنه حديثه عن المسلمين السود ، وهم أقلية دينية ، بين أقلية قومية ، من السود المتنصرين أو الوثنيين ..

ولعل مرد هـذا الى أن مؤلف هذا الكتـاب ـ القس الامريكى الاسود الدكتور أريك لنكولن ـ من أتباع الكنيسة المنهجية Methodist التى تعتبر ـ هى نفسها ـ قلة صغيرة بين الكنائس الغربية ، تقوم برسالة مجددة كرسالة الثورة على التقاليد وعلى البدع المستحدثة فى وقت واحد

وقد جنح بالمؤلف موضعه هذا بين الاقليات المتداخلة الى الصدق فى تصوير أحوالها وشرح أزمانهـا وبسط أسباب الشكاية من جانبها ، وهو ـ فى جمـلة آرائه وعواطفه ـ أقرب الى تسويغ مواقف الاقليات بازاء الكثرة الغالبة بين الامم البيضاء ، لانه يرى أن الأقلية من مبدئها لا توجد ولا تدوم ولا تتسـاند للدفاع عن حقوقهـا والتمرد على مظالمها ما لم تكن هناك حقوق مهـدرة ومظالم منكرة واتفاق على الشعور بالخطر والتذمر من الضم ، تخلقه الحاجة الى التضامن حيث لا غنى عنـه ولا مناص منه ، لانه الوسيلة الوحيدة لحفظ البقـاء واجتناب الفناء ..

وليس أعلم من هذا المؤلف بأحـوال الاقليـات على

اختلافها لأنه ينتمي الى أكثر من (أقلية) واحدة بين السود والبيض ، فضلا عن قلة القساوسة السود بين زملائهم البيض ، وقلة هؤلاء القساوسة جميعا على مذهب الكنيسة (المنهجية) بين رجال الدين من أتباع الكنائس الكبرى ..

والقارىء يدرك من المقارنات الكثيرة بين أحوال الاقليات ان السود المسلمين فى موقف خاص مع الامريكيين السود والبيض على السواء ، وان هذا الموقف قد يعرضهم للحرج بينهم وبين أنفسهم اذا أرادوا (تصحيح الوضع) من الوجهة الاجتماعية التى ترتبط بأحكام القانون و (ظروف) السياسة القومية ، ومن حولها السياسة العالمية ..

فاليهود ـ مثلا ـ قلة فى الولايات المتحدة ، لان عدتهم على أكثر تقدير لا تزيد على خمسة ملايين ، ولكنهم لا يشعرون بالحيرة التى تشعر بها الاقليات الوطنية اذا اضطرتهم النفرة بينهم وبين المسيحيين البيض الى اجتناب الاندية والمجامع المشتركة ومواضع المزاحمة الملحوظة فى الحياة العامة ، لانهم أصحاب ثقافة دينية وتربية فكرية تجمعهم معا عند الحاجة اليها ويعتصمون بها فى عزلتهم المختارة او عزلتهم الاضطرارية ، وكثير منهم من يختلط بأبناء الاكثرية اختلاطا تصعب التفرقة فيه ، لانه اختلاط فى المصالح والاعمال.

اما الامريكى الاسود فليست له عصمة ثقافية يأوى اليها اذا اضطرته النفرة منه الى اعتزال المجتمع الابيض لانه عالة فى ثقافته العصرية على أولئك الذين يعتزلونه ويدفعونه على الرغم منه الى الاعتزال ، فهو يتعلم منهم ويدين أحيانا بدينهم ، وملاذه من التفكير ومن الآداب الاجتماعية يعود به الى مجتمع بدائى فى غير القارة الامريكية

وليس له قوام اجتماعي في بلاد هذه القارة

وهنا تنشأ بين الاقليات حالة خاصة لا تشبه حالة الاقلية اليهودية ولا حالة الاقلية الزنجية ، وهي حالة السود المسلمين ..

ان هؤلاء السود المسلمين يعرفون لهم ملاذا ثقافيا يعتصمون به اذا نفروا من البيئة الاجتماعية البيضاء أو نفرت منهم هذه البيئة ، لانهم يجدون في المجتمع الاسلامي ثقافة روحية تعوضهم عن ثقافةالاكثريةالغالبة، ويعتمدون على هذا المجتمع لايواء اللاجئين اليه من أبناء جلدتهم الذين يتقبلهم المجتمع ولا يرفضهم كما ترفضهم الكنائس المسيحية ، وقد تبين – مما سلف – ان المجتمع الاسلامي لا يضيق باللاجئين به من نفايات المجتمع الامريكي الموصومين بوصمات العار والرذيلة ، لان هؤلاء اللاجئين لا يلبثون أن يشعروا بالتعاطف الصادق بينهم وبين اخوانهم ممن سبقوهم الى الاسلام ، فلا يطول بهم الامد أن يقلعوا عن عادات السوء التي وصمتهم في حياتهم الاولى ، ويتوب الاكثرون منهم من رذائل المقامرة والمعاقرة ومقارفة الاوزار

فاذا استطاع المسلم الاسود أن يعتصم بمجتمعه الاسلامي فماذا يكون موقفه في هذه الحالة من المجتمع الاكبر : مجتمع الامة الامريكية ، أو الدولة الامريكية في أوسع نطاق ؟ ..

لقد كان زعيم الدعوة الاسلامية في الولايات المتحدة يستنهض السود بنخوة القومية والعصبية للاستقلال بعقائدهم وعواطفهم عن الاكثرية البيض

فهل تمضي الاقلية الاسلامية على هذه الخطةفتعتزل الامة التي تعيش بينها اعتزال الاعداء وترفض الولاء « القانوني » للوطن الذي تنتمي اليه ؟

ان هذه الخطة احرجت كثيرا من زعماء المسلمين السود ومكنت منهم خصومهم الدينيين والسياسيين ، فحاربوهم باسم القانون واستعانوا عليهم بتهمة الخيانة الوطنية ، وأوشكوا أن يتذرعوا بهذه التهمة لحرمانهم من حقوق المساواة فى الانتخاب ووظائف الحكومة ، فنهض من هؤلاء الزعماء المسلمين أناس يحمون أبناء دينهم من جرائم الاتهام بخيانة الوطن ويعتبرون الدعوة الى الاسلام دعوة مفتوحة للبيض والسود على السواء ، ولا يرون للدعوة الآن نفعا كبيرا فى قصرها على استثارة (العصبية) الجنسية واعتبارها ثورة على البيض فى الدين وفى الوطن وفى آداب الاجتماع

وهؤلاء الزعماء الكفاة يتوسلون بتغيير الوجهة على هذا النحو الى غاية أخرى أصعب مراما من الاولى . وهى الاعتراف بالاسلام مذهبا من المذاهب الدينية الرسمية فى دستور الولايات المتحدة ، وهو مطلب كبير غير مطلب الحرية الدينية ، لمن يشاء من السود أو البيض أن يدين بالاسلام ، فليس فى نصوص القوانين ما يمنع احدا أن يتحول عن عقيدته المسيحية الى العقيدة الاسلامية، ولكن المشكلة (الواقعية) تبدأ حين يتصل الامر بحكم من أحكام القانون تتعارض فيه الحقوق واجراءات القضاء، وبخاصة مسائل الزواج والميراث

فماذا يكون الحكم فى قضية تلجأ فيها زوجة من زوجتين الى المحكمة للمطالبة بحصتها فى الميراث ؟ وماذا يكون الحكم فى قضية يتنازع الخصوم فيها على المسائل الشرعية التى لا تنص عليها قوانين الدول الاوربية أو الامريكية؟

عند الاعتراف بالاسلام مذهبا رسميا من مذاهب الدولة يجوز أن تكون لهذه القضايا وجهات نظر مستقلة يحتكم اليها المختلفون ، وهذه هى الوجهة التى يتجه

اليها زعماء الدعوة الاسلامية ، ويعتبرونها حقا من حقوق المواطن الامريكي ينبغي أن يعترف به الدستور والقانون

ولا يخفى ان القانون الامريكي يحرم تعدد الزوجات، ويحرم المذاهب المسيحية التي أعتمدت في اباحة تعدد الزوجات على نصوص العهد القديم ، ومنها مذهب المورمون .. ولكن المشكلة تزول من ناحيتها القضائية اذا بطل الاحتكام فيها الى محاكم البلاد وتراضى الطرفان على حلها بينهما أو على اختيار الحكم الذى يفصل فيها، ولو لم يكن هذا الحكم مفوضا فى وظيفته من جانب الدولة بالنظر فى هذه الامور

وقد عهدنا من مؤلف الكتاب أنه لا يكشف عن نية صريحة فى مقاومة الدعوة الاسلامية ، ولكنه صريح كل الصراحة فى بيان المواقف التى توجب هذه المقاومة أو تيسرها لمن يريدها

ويبدو من بين السطور أن تحويل الدعوة الاسلامية من حركة مقصورة على السود الى حركة تفتح ذراعيها للسود والبيض من الامريكيين وغير الامريكيين ، هى موضع الاهتمام الكبير فى دوائر التبشير ، لان المبشر الاسلامى من الامريكيين السود يعاون الدعوة الى الاسلام فى بلاده كلما اتجهت هذه الدعوة الى أبناء البلاد جميعا من قبل المسلمين الآسيويين والافريقيين ، وهم اليوم فى امريكا طليعة ناجحة قد يتبعها غدا مدد كبير ، وأدعى من ذلك الى اهتمام دوائر التبشير ان المسلم الامريكى الاسود يزاحم البعوث التبشيرية مزاحمة شديدة فى القارة الافريقية بعد استقلال شعوبها عن سلطان الدول الغربية، وينتظر ان يكون — فى تقدير المبشرين قبل غيرهم — أوفر نصيبا من النجاح والقبول من اخوانهم السود فى تلك البعوث التبشيرية ، وأشد ما يكون الاهتمام بهذه المسألة

فى هذه الايام ، فاننا نفتح الصحف التى تعنى بها عندهم فلا نكاد نطلع على صحيفة منها تخلو من أخبار (ترقية) المبشرين السود الى كراسي الاساقفة ، بل المطارنة ، من رجال الكنيستين الكاثوليكيةوالبروتستنتية المقيمينبالديار الافريقية او الراحلين اليها من ديار العالم الجديد ، ويزداد عدد هؤلاء الاساقفة والمطارنة كل يوم فى البلاد التى يكثر فيها المسلمون

دور الاسلام فى مستقبل القارة الافريقية

للاسلام حصة بارزة ـ لا تزال ـ فى كل كتاب حديث يصدر من المطابع الاوربية أو الامريكيةعنالقارةالافريقية. وقد تنوعت موضوعات هذه الكتب على الزمن وتنوعت معها وجهة البحث فى المسائل الاسلامية

ففىالفترة الاولى منذ ابتداء العناية بهذه القارة قبل نحو السنوات العشر كانت الموضوعات كلها ـأو أكثرهاـ متجهة الى الاحصاء وجمع المعلومات العامة عن السكان وموارد الرزق وينابيع الثروة وتقسيماتالمواقعوتسجيل الظواهر الجغرافية والاستعمارية ، وكأنما كان المؤلفون يفكرون فى الناحية التى يستفيد منها المسيطرون من الخارج وهم يديرون حكومات البلاد أو يملكون أزمة الحكم ووسائل السيطرة والاستغلال فيها

فلما تقررت فى الاذهان فكرة الاستقلالالوطنىأصبحت ارادة الافريقيين بين حاكمين ومحكومين هي الناحية التى تتجه اليها أنظار المؤلفين ، واصبحت ارادة الاجنبى تبعا للارادة الوطنية فى تحصيل المعلومات والتعليق عليهابعد قيام الحكومات المستقلة وتركيز السلطان فيهاعلىالعوامل النفسية والاجتماعية التى ترجع الى أبناء البلاد أولا ثم

ترجع بعد ذلك لمن يحسن فهمها والانتفاع بهامن أصحاب السياسات الاجنبية

وقد اسفر هذا التنويع فى موضوعات التأليف عن وجهتين من وجهات البحث المخصص للمسائل الاسلامية ، وهما :

أولا : دور الاسلام المنتظر فى اقامة نظم الحكم بعد استقلال الامم الافريقية

ثانيا : معنى انتشار الاسلام قديما وحديثا بين الافريقيين باعتباره حركة من حركات التاريخ ، والاستطراد من ذلك الى استطلاع مصير هذه الحركة بين حركات الحضارة أو الحضارات العصرية

وفى أكثر من بحث هام يميل المؤلفون الى ترجيح فرص الاسلام على فرص العقائد الاخرى – دينية كانت أو اجتماعية – فى توجيه دفة الحكم واتخاذ السند الموافق للأنظمة الادارية او الدستورية التى يختارها الافريقيون حيثما توقف الامر على تقاليد المسلمين أو قواعد الاسلام كما يفهمونها هناك

ففى كتاب افريقية الاستوائية ، وهو كتاب ضخم فى مجلدين تزيد صفحاتهما على مائة وألف صفحة يقول الاستاذ جورج كمبل **Kimble** رئيس قسم الجغرافية بجامعة انديانا – « أنه من المشكوك فيه ان تكون الانظمة الغربية القائمة على النفاذ والجد ، ملائمة لمطالب الثقافة فى بيئة يغلب فيها أن يكون السبق للماكر لا للسريع ، والفوز فى المعركة للخفيف فى العمل لا للقوى فى الخلق ، حيث لا معنى لكلمة الفساد والرشوة لان كل خدمة تعطى تتبعها فائدة تؤخذ ، ويسود الشك على العموم فى جدوى المطابقة بين النظم المحلية والنظم الغربية ، ولا يخلو مكان من فكرة الحيدة بين الكتلتين الغربية والشرقية ، اذ يعتقدون

أن الامة يستحيل ان تحكم نفسها اذا هي كانت متعلقة بأخلاق الامم الاخرى ولغاتها وعقائدها ، ولا يقتصر النفور هنا على كرامة السير على المنهاج الغربي ، بل يتعداه الى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الافريقي والظروف الافريقية ، مع تفضيل الاسلام — لتسليمه بمواطن الضعف الانساني واغضائه عن فوارق الالوان — على المسيحية بما تدعو اليه من الدقة وما تشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة ، فضلا عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة والعلم بأنها تكون في موضعها صحيحة مألوفة كلما تسربلت بسربالها الفضفاض الذي لا يضيق حتى يشبه كسوة الشغل في المصنع وهي على هذا — تصر على التشبث ببعض القيم التي احتواها النظام الاجتماعي القديم بروابطه العائلية وشعائره المتبعة واجراءاته القضائية وسائر فنونه التي لا يعلى عليها ويكاد الرجل الابيض نفسه ألا يرتفع الى أوجها »

يقول المؤلف ذلك في الصفحة الـ (٤٣٦) من المجلد الثاني ، ولكنه يقرر في الصفحة الـ (٢٧٦) من المجلد نفسه كلاما ينقض هذا الكلام في فحواه اذ يقول : انه على نقيض الحالة بالنسبة الى المسيحية يشاهد « أن الاسلام كان له أثر ضعيف في الوطنية الافريقية وهو مع ضعفه الشديد سلبي لا ايجاب فيه ، لان المثال المميز للحكومة الاسلامية ، كما يقول جورج كاربنتر انما هو مثال الحكم الشخصي المطلق مستندا الي ولاء الجماهير قائما على قواعد الدين ، وعلى الخوف والرهبة ، وسلطان الحكم العسكري ، ولا ملاءمة بين هذا المثال وبين تركيب النظام الاداري المتشابك وتعدد الكفايات الفنية التي تتطلبها الاعمال المنوعة في الامم العصرية ، اذ ليس في وسع هذا المثال

أن يخلق ولاء للوطن يرتفع به فوق منـــــازعات العقيـدة والافكار المختلفة ، ولا ان يهيىء المجال لنشأة الزعمـــاء المنتظرين وضمان الامان للاكفاء من الموظفين »

ويرد هذا البحث فى كتاب ضخم آخر عن شبهجزيرة «سيراليون» يقع فى أكثر من سبعمائة صفحة ويقول مؤلفه كريستوفر فايف **CristopherFyfe** فى متفرقاته : « ان تعاليم البعوث التبشيرية المسيحية على خـــلاف تعاليم الاسلام ـ تهدم الاستقلال الذاتى فى الافريقى وتعطـــل تصرفه المطبوع ، والحل الذى يقترحه بلايدين **Blyden** هو اقامة جامعة خاصة بافريقية الغربية تسند فيهـــا وظائف التعليم الى افريقيين من نصـــــفى الكرة ومعهم افريقيون مسلمون من داخل القارة لتنشئة الطلاب على سليقتهم والابتعاد بهم عن محاكاة المثل الغربية »

اما البحوث التى تعرض لتفسير معنى انتشار الاسلام فى القارة الافريقية باعتباره حركة من حركات الامم فى التاريخ العالمى فهذه أمثلة منها :

يرى باتين **Batten** فى سلسلة كتبه ، عن أواسط افريقية أن انتشار الاسلام بين الافريقيين ـ اذا روجعت أسبابه جميعا ـ انما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشـــار حضارة انسانية ممتازة لم تكن فى العـــالم حضـــارة تضارعها أو تقوى على مغالبتها ، وان وصول الاسلام الى القارة الافريقية كان ملازما لوصوله الى القارة الاوربيـــة نفسها وامتداده الى الاقطار البعيدة من القارة الآسيوية وقد كان امتياز حضارته سببا كافيا لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذى يصل اليه العربى المطبوع على الترحل والسياحة ، ويعينه على مطاوعة هذه النزعة أنه أقتبس كل ما يقتبس من اليونان والامم القـــديمة من علوم الجغرافية والفلك وزاد عليها حب الكشف الذى

سرى الى جميع المسلمين مع سريان الشوق الى زيارة مكة ومعاهد الاسلام الاولى . « وبينما كان الاوربيون يعولون على السحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ويحسنون الانتفاع بكثير من العقاقير ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الاطباء فى علاج بعض الامراض الى هذه الايام »

ومثل هذه الحضارة لا سبيل الى حصرها فى بقعة محدودة من العالم ، مع اقدام العربى على احتمال الجهد والخطر ورغبته فى الرحلة والارتياد . فانتشار الاسلام انما هو فى حقيقته انتشار حضارة جديرة بالانتشار وهو حركة من حركات التوسع « الاممى » تبعثها دواعى النشاط التى تمهدها المعرفة ، وتشحذها العقيدة التى تسود الدنيا ، لانها لا تبالى ان تقتحمها ولا تكترث لفراقها

ومن أحدث المؤلفات عن افريقية تاريخ موجز للقارة ألفه كاتبان لهما خبرة حسنة بالشرق من طريق الدراسة ومن طريق السياحة والمعاشرة ، وهما رولاند أوليفر وجون فاج Fage وهما يفصلان بين دور الفتح الاسلامي ودور التغلغل الاسلامى الى مجاهل القارة الافريقية ، فان الاسلام لم يسلك طريقه الى ما وراء الصحراء الا بعد زوال دولته الكبرى فى المغرب ، ولكن الشعوب الافريقية الى الشمال لم تكن لتجتاز الصحراء التى لم تجاوزها قبل ذلك لولا دفعة من الحضارة يعززها ايمان العقيدة .. « وان الفترة بين سنتى (٨٠٠ و ١٣٠٠ ميلادية) هى الفترة التى ازدهرت فيها حضارة للاسلام لم تشتمل حضارة أخرى على مثل ما اشتملت عليه من ثمرات الفكر والفن والعلم والسياسة ، وهى كذلك فترة نمت فيها دول من أهم دول القارة الافريقية ، اذ قامت شعوب البربر بدور تاريخى كبير فى العالم

الغربى والبلاد الآسيوية القريبة ، وقامت من خلفها الى جنوب الصحراء ممالك من أعظم الدول التى كان للاسلام هناك شأن فى اقامتها »

وكأنما ابتدأت مرحلة الامتداد الى داخل القارة الافريقية فى تقدير المؤلفين ، بعد انتهاء مرحلة الاستقرار فى شمال افريقية وجنوب أوربة ، على أثر انحلال الدول الاسلامية القوية فى كلتا القارتين

ويتخطى جاك بولن **Bulin** مراحل الماضى فى كتابه عن « دور العرب فى افريقية » ليسأل عن دور الاسلام فى المستقبل القريب بين القوى التى يمكن ان تعمل فى توجيه القارة ، وهى قوة التبشير وقوة السياسة الدولية وقوة الوطنية غير الاسلامية

ويقول المؤلف ـ وهو صحفى فرنسوى يعرف العربية والانجليزية ـ ان الكنائس تتغاضى عن الاسلام ولا تشتد فى مقاومته لانها لا تنزله منزلة العدو الاول مع ماتحذره من خطر الشيوعية ، ولهذا لم تعقب صحيفة الفاتيكان بشىء على البيان الصريح الذى أعلن فيه شيخ الازهر فى مستهل سنة ١٩٦١ وجوب محاربة البعثات التبشيرية لانها أداة من اخطر ادوات الاستعمار ، ولا يلوح من مسلك الوطنيين الافريقيين غير المسلمين ان الدول الغربية التى كانت تستعمر بلادهم ستلقى منهم عونا فى السياسة التى قد تتبعها لمقاومة الاسلام ، فما لم يأت المستقبل بنبأ جديد عن علاقات الوطنيين الافريقيين بهذه القوى المتقابلة فهناك دور هام للعرب او للاسلام فى القارة الافريقية يحسب له حسابه الكبير فى توجيه مستقبلها القريب

وهذا جواب معلق على سؤال المؤلف عن المصير ، ولكنه يخرج بجوابه المعلق من تردد الشك والابهام الى

بعض الوضوح حين يشير تلك الاشارة الى الدورالاسلامى
المحتمل ، لان الفريق الاكبر من الباحثين يحجمون عن
الجواب النافع اذا قابلوا بين العدة التى استعد بهاالاسلام
أمس للايغال فى قلب القارة الافريقية وبين عدته التى قد
يستعد بها اليوم للثبات والمزيد من التقـــدم ، ولا يبدو
على أكثرهم أنه ينتظر من القارىء جوابا الى الايجـــاب
اذا سألوا عن القوة الكامنة فى المسلمين : هل هى كفـــؤ
لرسالتها الجديدة فى القارة الافريقية ؟!

تأثير الإسلام فى العبادة اليهودية

- ١ -

هذا اسم كتاب ألفه نفتالى فيدر Naphtali Wieder باللغة العبرية ونشرته مكتبة الشرق والغرب بأكسفورد وجعلت عنوانه بالانجليزية :

Islamic Infltences on the jewish Worship

وعنوان الكتاب يغرى بهذا السؤال : كيف يكون هذا التأثير واليهودية سابقة للاسلام ؟

وقد يتعرض القارىء المسلم أيضا لهذا الاغراء .. لأن تقدم اليهودية فى تاريخ الدعوة يخيل الى الكثيرين ان السابق فى التاريخ اولى بالتأثير فيما يليه ، أو يسبقه الى الشعائر التى يتشابهان فيها

وهذا الخاطر « العرضى » هو مصدر تلك « الاشاعة » التى راجت فى الغرب وكادت أن تثبت عندهم ثبوت المقررات العلمية ، فقال بعضهم : ان الاسلام نسخة مفصحة من اليهودية ، وزاد آخرون فقالوا : بل نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية ! ولم يبرأ من هذه العجلة رجل فى طبقة الدكتور « شويتزر » فى الثقافة والخلق ، كان من واجبه أن يعصم عقله أمام الاشاعة الرائجة ، وأن كل قول لا يستند الى البحث ولا يستند

البحث فيه الى الدليل فهو حديث من أحاديث الاشاعات ان لم نقل أحاديث الخرافات

والبحث الذى كان من الواجب أن يستقصيه « الباحث » المقارن بين اليهودية والاسلام انما يقوم على دراسة الموضوع والامة لا على دراسة الرقم التاريخى وحده والوقوف لديه بعيدا من موضوعه ومن أهله

ولا يتم هذا البحث الا اذا تناول اصالة اليهود فيما نقلوه من العقائد والاخبار ، ثم تناول السبق عامة ولم يتناوله فى ناحية واحدة من نواحيه ، وتناول جوهر الدين ولم يقنع منه بأسماء العناوين

واليهود ليسوا بالاصلاء فيما تدينوا به من العقائد ونقلوه من الاخبار ، لانهم لم يعرفوا اكثر هذه العقائد والاخبار قبل عهد عبوديتهم فى بابل ، وكل ما كان مفتوح الباب لليهود فيما بين النهرين فقد كان مفتوح الباب أيضا لعرب الجزيرتين : جزيرة الدجلة والفرات وما يليها من أرجاء الجزيرة العربية

والسبق الى النبوة عامة لم يثبت لليهود ، بل ثبت من كتب اليهود أنفسهم أن أنبياءهم الاول تلقوا علم الدين وشعائر العبادة من «ملكي صادق» وبلعام وايوب ويثرون .. ويثرون — كما جاء فى العهد القديم — هو الذى علم موسى عليه السلام علم التبليغ واقامة الشريعة ، وهو الذى امه وام قومه لصلاة القربان .. وفى تاريخ العرب من أخبار الانبياء ما ليس فى تاريخ اليهود ، ومنهم صالح وهود وذو الكفل عليهم السلام ، وكلمة « النبى » نفسها لم تكن معروفة عند اليهود قبل دخولهم أرض كنعان ، وانما كانوا يسمون النبى بالرائى ورجل الرب على رواية العهد القديم

أما المقارنة فى جوهر الدين فالمعول فيها على المقارنة بين

الفكرة التى توحيها الديانة فى العقائد الجوهرية : وهى عقيدة الاله وعقيدة النبوة وعقيدة التكليف

والمقارنة بين هذه العقائد فى الديانتين الاسلامية واليهودية هى بالايجاز مقارنة بين « يهوا » والاله الواحد الصمد رب العالمين ، ومقارنة بين نبى التنجيم والخوارق وبين نبي الهداية والبلاغ المبين ، ومقارنة بين الحساب على سنة المحاباة والاختصاص بالحظوة وبين حساب العمل والنية واستقلال الانسان بما كسب وبما أراد ..

ولم يعرف النوع الانسانى دينا رفع هذه العقائد الى سماء من التنزيه والرشد والصدق فوق تلك السماء العليا التى ارتفع اليها الاسلام

فاذا كلف الباحث عقله أن ينظر الى السبق التاريخى نظرة الانصاف فليس لليهودية سبق على الاسلام ، وقد يكون السبق على خلاف ذلك للمسلمين على اليهود ؛ كلما نظرنا الى أهل الدين فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث ..

ولقد بدأ البحث على هذا الاساس فثبت الثبوت الذى لاشك فيه أن اليهود تعلموا من المسلمين فى لغتهم وأدبهم وحكمتهم ، وأن المسلمين لم يأخذوا من اليهود شيئا غير تلك « الاسرائيليات » التى تناقلها الجهلاء وافلح المصلحون — او كادوا أن يفلحوا — أخيرا فى تطهير العقول منها والرجوع بها الى الجادة الاسلامية فى نظائرها من شعائر الدعوة المحمدية

فلم تكن للغة العبرية قواعد أو بلاغة قبل القرن العاشر للميلاد ، وهو القرن الذى تعلم فيه « الربانى سعديا جاءون » ثقافة العرب بمصر ووضع أول كتاب للقواعد العبرية وقواعد الفصاحة فيها ، وتلاه (الربانى آودنيم بن تميم البابلى) فألف كتابه بالعبرية مقرونة

بالعربية ، مفسرة بشواهدها وأمثالها

ولم يكن فى اللغة العبرية فن للعروض فتعلم اليهود هذا الفن من العرب بالاندلس ومصر ونظموا فى لغتهم وفى لغتنا على الاوزان العربية

وكان فيلسوفهم موسى بن ميمون ـ تلميذ فلاسفة المسلمين فى المغرب ـ أول من كتب عندهم فى حكمة (التوحيد) واستثنى المسلمين من الامم التى تنهى التوراة عن التعود بعاداتهم ، لانهم مؤمنون يعبدون الاله الاحد ولا يشركون به الها آخر ..

وكتاب اليوم يتقدم بالبحث خطوة أخرى فيقابل بين عبادات اليهود قبل اتصالهم بالمسلمين وعباداتهم بعد هذا الاتصال ببضعة أجيال ، فيثبت المؤلف أن القدوة بالمسلمين عادت باليهود الى احياء السنن التى هجروها من عباداتهم الاولى وعلمتهم سننا أخرى لم يعلموها ، ومنها شعائر فى صميم العبادة كشعائر الوضوء والغسل ونظام الصلاة الجامعة وغيرها من الصلوات

وينقل المؤلف نصوص التلمود التى لم يرد فيها ذكر للوضوء أكثر من غسل اليدين ، ثم ينقل وصايا الائمة المتأخرين ووصايا الشعراء الذين تبعوهم بنظم القصيد لترغيب الشعب فى هذه النظافة المستحبة ، واشهرهم (مناحيم دى لونزان) الذى قال فى بعض شعره : (تطهر من رجس المتاع ووقائع الليل الجسدية ولا يكن العرب والليبيون والليديون اكثر منك طهارة وهم يغسلون ايديهم وأرجلهم ورءوسهم بالماء وفى الفجر وظهرا وعشية ، وكذلك ليلا حين يشتد البرد ويسقط الثلج)

ولما ثار الرجعيون من رجال الدين اليهود ثورتهم على هذه البدع المستحدثة سرت الثورة الى الشعب فى هذه المرة فقال الرئيس فنحاس بن مشولم شيخ الطائفة

بالاسكندرية : (هب الناس من جميع الانحاء قـــائلين : نحن لا نحتمل أقوالكم التي ينقض بعضها بعضا ، لانكم تحلون ما تشاءون وتحرمون ما تشاءون ، أليست هناك تقاليد اثرت عن أسلافنا ومن تقدمونا تحرم على الاسرائيلى الصلاة وهو بحال الجنابة حتى يغتسل فى الحمام أو يتطهر فى البحر وبنظف نفسه ؟ فكيف تجيزون الصلاة ودخول الكنيس وتلاوة التوراة دون اغتسال ؟.. اذا كان الدين كذلك فنحن ذاهبون لنرفع أمرنا الى القضاء ؟ !)

والقضاء هنا هو القضاء الاسلامى فى غير الشئون الملية التى يتولاها رئيس الطائفة ، مما يدل على اعتبار قضاة الشرع المسلمين مرجعا للشعب ورجال الدين فى هـذه الامور ..

وقد سئل موسى بن ميمون كثيرا فى هذا الخلاف فكان يقول انه لا يرى فى كتب السلف الاولين ما يوجب غسل الجنابة ، ولكنه يغتسل بحكم العادة حيث عاش ونشأ فى بلاد المسلمين

وتغنينا أقوال الاحبار بأقلامهم وألسنتهم عن بيان أطوار الرقى الاجتماعى والخلقى الذى سرى الى عبادات القوم وعاداتهم بعد الاقتداء بأدب الصلاة الجامعة عند المسلمين فى المغرب والمشرق ، فمؤلف الكتاب العبرى ينقـــل عن الربانى الفيلسوف موسى بن ميمون أنه فصل علة الوصية التى دعا فيها الى الغاء صلاة الهمس فى المعابد الاسرائيلية فقال :

« ان الذى دعا الى هذا النظام هو انصراف الشعب الى النظر أمامه أثناء الصلاة ، فيتحدث كل منهم الى جاره او يخرج من الصف والكاهن يتلو تسبيحاته وتبريكاته على قبر جدوى ، اذ ليس هناك من يســتمع اليه ، واذا رأى الشعب الاحداث من المتعلمين وغيرهم يتجـــاذبون

أطراف الحديث ، ويبصقون ويسلكون أثناء الصلاة سلوك من لا يشتركون فيها ــ يفعل مثلهم ويدخل فى روعهم أن الصلاة مقصورة على ما يهمس به الكاهن ولا يسمعونه .. »

ويقول ابن ميمون فى موضع آخر : (وان الامام اذا عاد الى الصلاة بصوت مرتفع نرى كل من فرغ من صلاته يستدير ليثرثر مع رفيقه ويناجيه فى خاصة أمره ، ويحول وجهه عن الشرق ويبصق ويتشبه به الاحداث فيفعلون فعله ، ويظنون ان ما قاله الامام لايعتمد عليه أو عليهم ، ومن ثم يخرج جميع الاحداث وهم لم ينجزوا واجبهم وببطل الغرض الذى من أجله يرتل الامام صلاته .. وفى الحق لا يصلى الجمهور فى همس أبدا بل يصلى الجميع بعد الامام صلاة واحدة فى قدسية وخشوع، وكل من يعرف الصلاة يصلى معه فى همس والاحداث يسمعون ويركعون جميعهم مع الامام ، والشعب كله متجه الى الهيكل ينجز كل منهم فريضة وييسر الامر على مايرام ويمتنع التكرار الطويل ويزول تدنيس اسم الله ، وقد شاع بين الامم ان اليهود يبصقون ويثرثرون فى صلاتهم لأنهم يشاهدون ذلك أينما رأوهم يؤدون الصلاة ، وهذا هو الصحيح على الاكثر ، كما أرى ، لما ذكرت من اسباب)

قال المؤلف : (ولما كان الميمونى قد نظر الى الحالة فى الكنيس من خلال مرآة المسلمين وكان يخشى مما تقوله الشعوب فقد رأى نفسه يوصى ويعمل عمله للقضاء على هذه الحالة) . وكانت خير وسيلة للقضاء عليها فى تقديره أن يسلك قومه فى صلواتهم الجامعة مسلك المسلمين ، بعد الاقتداء بهم فى فرائض الوضوء والتطهر ورعاية أدب المسجد من جميع الوجوه

ومن الكلام على الوضوء والصلاة يستطرد المؤلف الى

الكلام على سائر الفرائض وعلى العقائد الروحانية التى لا تدخل فى باب الشعائر الحسية

- ٢ -

فالآداب الصوفية فى الأغلب الاعم آداب فردية يستقل فيها كل عابد متصوف بطريقته فى السلوك الدينى أو الدنيوى كاستقلاله فيها بما يؤثره من نوافل العبادة وتفسيرات النصوص والمعتقدات التى يجوز فيهاالاجتهاد بالرأى لاهل الاجتهاد ، فاذا وجدت الجماعات الصوفية فانما توجد من قبيل الاخوة التى تنتمى الى أب روحى واحد ، ويشترك فيها التابعون جميعا فى اتباع الشيخ والاقتداء بمسلكه ومنهج تفكيره وتفسيره : وهو على جميع حالاته منهج اختصاص يستقل به فرد متبوع او طائفة تابعة ولم يعهد فيه من قبل ، ولا ننتظر أن يعهد فيه من بعد ، أن يكون منهج عموم يشيع بين جميع الناس شيوع الايمان بالعقائد والفرائض التى لا محل فيها للاجتهاد بالرأى والاستقلال بالعبادة

فاذا أراد المؤرخ أن يبحث عن سريان التصوف من أتباع ديانة الى اتباع ديانة أخرى فانما سبيله فى هذا البحث أن يتعرف الصوفية المنتقلة من نحلة الى نحلة فى سيرة علم واحد من أعلامها البارزين أو أقوال مفكر واحد من ائمة الفكر بين أبنائها المجتهدين ، وربما كان المفكر الدينى الذى ينهج فى النسك منهجا لم يسبقه اليه احد من ابناء ملته أعظم استقلالا بالرأى ممن يبتدع ذلك المنهج لنفسه من غير سابقة ، لان التغلب على العصبية المذهبية والتحيز القومى أحوج الى الاستقلال من ابتداع رأى لا مقاومة فيه ولا حاجة به الى التغلب على معارضيه أو منكريه

وقد أراد مؤلف هذا الكتاب — عن تأثير الاسلام فى اليهودية — أن يتتبع أثر التصوف الاسلامى فى اليهودية ،

فاختار لذلك سيرة متقدمة من سير الائمة الصوفيين الذين لم يسبقوا الى منهجهم بين ابناء عقيدتهم ، والذين عرفت لهم صلة بالثقافة الاسلامية وأثرت عنهم أقوال منقولة عن العربية ولم تكن لها سابقة فى اللغة العبرية ، وقد بدأ المؤلف كتابه ببيان الآداب الاسلامية التى دعا اليها الامام اليهودى الحكيم موسى بن ميمون ، ثم لخص الشعائر التى قررها ابنه ابراهيم من بعده فى الوضوء وفى الصلاة الجامعة وهى السجود والركوع واستقبال القبلة والاصطفاف وبسط اليدين ، وانتقل من الشعائر « البدنية » الى الشعائر الصوفية الروحية فكانت خلاصة بحثه فيها « ان النسك الشرقى نتاج مدرسة ابراهيم الميمونى وزميله الحبر ابراهيم الحسيد ، وجذوره مستمدة من البيئة الاسلامية ومتأثرة بالمتصوفة المسلمين »

وتساءل : من هو الحبر ابراهيم الحسيد ؟ فقال ان كتاب (كفاية العابدين) لابراهيم الميمونى هو مصدر الاخبار التى نعرفها عن ذلك الناسك الذى يكتنف الغموض سيرته. والذى يقول عنه الميمونى انه أخوه فى سبيل الله ، ومما يلفت النظر فى هذا التعريف كثير من العبارات التى نقلت عن المسلمين وهى الاخوة فى سبيل الله ، وتسمية الله برب العالمين ، وتسمية المسالك الصوفية بالحالات والمقامات ، والاقتداء بالامام الغزالى فى تعريف المتصوفة كما عرفهم فى كتابه (المنقذ من الضلال) بأنهم هم الذين يسيرون فى طريق الله ، واشارة الميمونى الى الحسيد حيث يقول : « سيدنا وحبرنا ابراهيم الحسيد ابن أبى الربيع كرم الله وجهه » وأشباه ذلك من الصيغ التى اقتبسها الحكيم اليهودى من أقوال المسلمين

ويتخلل وصف الامام الحق كلام يؤخذ منه أن أناسا من أبناء الطريق الاسرائيليين كانوا يلبسون الصوف

ويعكفون على الصوامع ويتسمون بالفقراء ، لان الكاتب يفرق بين المتصوف الحق وبين المتصوفين الادعياء فيقول: أن التصوف لا يكون بلبس الصوف ولا بملازمة الصوامع ولا باتخاذ أزياء الفقراء ولكنه طهارة وزهد واخبات الى الله

وينتهى المؤلف من تلخيص هذه التعريفات الى قوله : « فى الختام يتضح التأثير الصوفى أيضا فى تنويه الميمونى بالبكاء التعبدى ، فان غزارة الدموع علامة يتميز بها الصوفى العظيم . وقد سمى الزهاد الاوائل فى الاسلام بالبكائين ، وان البكاء كما قال الميمون هو غاية فى التهيؤ للصلاة ، وبفضله تلقى صلاة المصلى قبولا حسنا ..

ولولا الثورة الصاخبة التى اثارتها شيعة الجمود على هذا التجديد « الاجنبى » كما وصفوه لتعذرت الشواهد التاريخية التى يستدل بها على انتفاع اليهود بالقدوة الاسلامية فى كل اصلاح من هذا القبيل ادخله حكماؤهم على آداب الدين وشعائر العبادة عند القوم ، ولكان من الممكن ان يقال أن الامة اليهودية أخذت بهذا الاصلاح على سنة الانبياء الاولين ممن جاءوا — فى رواية العهد القديم وفى رواية التلمود — ببعض الوصايا التى أحيتها الديانة الاسلامية ، ولكن هذا الاصلاح لم يمض بسلام بين القوم فى حينه ، ولم يلبث أكثرهم ومعهم أناس من قادتهم أن قابلوه بالانكار الشديد مقابلتهم للبدع الدخيلة التى تفسد العقيدة وتبدل السنن وتخالف أمر الاله الذى نهاهم عن التعود بعادات الامم كما جاء فى التوراة

وكان المصلحون منهم يوافقونهم على تحريم التعود بعادات الامم وانكار البدع التى يدخلها المقلدون للشعوب الاخرى على جوهر الدين ، ولكنهم يقولون ان عادات المسلمين هى عادات الشريعة الموسوية فى لبابها وان بنى

اسرائيل هم الذين خالفوا تلك الشريعة الموسوية وهجروها ولا يعقل أن تنهى التوراة عن اعادة الأمة الاسرائيلية الى سنن أنبيائها لمجرد ظهور هذه السنن فى أمم أخرى تتبع من أوامر الاله ما لم تتبعه أمة التوراة ، ويقول المؤلف نقلا عن الحكيم الميمونى : « ان حبرنا يرفض البتة ادعاء محاكاة الامم أو القرائين ، لأنه لا وجه لتحريم العادات الاسرائيلية القديمة التى اختفت من اليهودية اثناء النفى .. واذا شئنا ان نحرم الامور التى دانت بها الامم الاخرى فاننا سنضطر الى التخلى عن كثير من وصايا التوراة كالصلاة والزكاة اللتين أصبحتا من أركان الاسلام .. واذا ادعى أحدهم أن فى هذا ما يوجب المنع رددنا عليه بأن النصارى أيضا يستقبلون جهة أورشليم فى صلاتهم فليس من أجل هذا يحرم علينا استقبال جهة القدس فى صلاتنا ... وهو ـ رأى الحبر الميمون ـ يوجه هذا الرد الى معارضيه من الأحبار المقيمين فى أقطار النصارى ، وهو نفسه الحكم فيما يختص بمحاكاة القرائين ، فان اتباع خطاهم لا يجوز ، ولكن فى البدع الحديثة لا فى الامور التى لها أصولها وجذورها فى شريعة اسرائيل »

ولم ينفرد الاحبار المقيمون فى الاقطار المسيحية بمعارضة هذا الاصلاح بل كان له معارضون متشددون بين كبار أحبار المشرق ومنهم هوديا الناسى من آل الناسى بدمشق وهو الحبر الذى كان الميمونى يرد عليه حيث قال : « لست أخشى هذه الاباطيل ، فماذا يمكن أن يقال عنى ؟ هل أفرطت فى اخافة الجمهور من سلطان أحد غير الله ؟ هل جرت فى الحكم ؟ هل قبلت الرشوة ؟ هل ابتغيت الربح ؟ هل أقسمت باطلا؟انهم لا يستطيعون أن يقرفونى بشىء من هذه التهم ، اللهم الا أننى مثابر على عبادة رب اسرائيل تبارك اسمه بكل قلبى وروحى ، واننى أطيل

الركوع والسجود ،وبمثل هذا يتحدثون عني ،ولا أخفيه»
على أن دعوة الحكيم الميموني لم تلبث أن شاعت بين الطوائف اليهودية بالمشرق والمغرب حتى استجاب لها أناس من أحبار اليهودية في نبتهـــا الاول وهو أرض فلسطين ، ومن حافظ على تقاليده الموروثة فانما كان تأويله لذلك انه يجرى على سنة تغيير الروح وابقاء الجسم ، ويقول المؤلف انه « اذا كان نساك فلسطين أنفسهم قد استمروا يستمسكون بصورة اكفاء الوجه التقليدى ، فان أحبار فرنسا الذين أكبروا الحبر ابراهيم الميموني ـ وهم المقيمون في مدينة عكا قد اتبعوا نظامه ، وهو ما نفهمه من بضعة سطور بقيت لنا في احدى صفحات كتاب الجنيزة جاء فيها ان المقيمين اليوم في عكا ،حفظهم الله ،وهم الحبر يوسف بن الحبر ستاتيا والحبر يهودا والحبر صمويل ـ هؤلاء يركعون ويسجدون على وجوههم وليس جانبا بل على ركبهم وجباههم على الارض .. »
وفيما أوردناه من هذا الكتاب كفاية لما أردناه من تفنيد خرافة القائلين بأن الاسلام شعبة من اليهودية ، او أن الاسلام مدين لها بشعائره وأحكامه
فالواقع ان اليهودية بعد الاسلام قد اســـتفادت من آدابه وشعائره ، كما استفادت من ثقافته في علـــم الاصول وفي نحو اللغة وعروضها وأوزان شعرها
وأما قبل الاسلام فمصادر اليهودية في المسائل المتفق عليها هي مصادر الاسلام من الديانات التي سبقتهما بين النهرين وعنها أخذ اليهود عقائدهم التي لم يعرفوها قبل منفاهم الى العراق ، فاذا اختلفت اليهودية والاســـلام فالفضل للاسلام في الارتقاء بالعقيدة الالهية التي جعلهـا اليهود مشيخة قبيلة ، وفي عقيدة النبوة التي جعـلوها ضربا من التنجيم ، وفي المسئولية الانسانية التي جعلوها ضربا من محاباة العصبية الجهلاء لغير سبب ولا فضيلة

تطور الفكر السياسى فى الإسلام

كتاب حديث من مطبوعات أواخر سنة ١٩٦٢ طبعته هيئةفان نوسترانند Van Nostrand لدراسةالعلوم السياسية بمطابعها فى الولايات المتحدة والبلاد الانجليزية ، وعنوانه العام (الحكومات والسياسة بالشرق الاوسط فى القرن العشرين) وموضوعه البحث فى تطور نظام الحكم فى البلاد الاسلامية التي يطلق عليها اسم الشرق الاوسط مع بعض التوسع ، وأشهرها مصر وتركيا ولبنان وسورية والعراق والجزيرة العربية وايران ، ومؤلفه هـ ٠ب ٠ شرابى أستاذ مساعد لتدريس علم التاريخ بجامعة (جورجتاون) ولا نعلم عنه شيئا غير ما جاءنى تعريفه بقلم الناشرين لكتابه ، وخلاصته انه تعلم بالجامعة الامريكية فى بيروت وأتم دراسته بجامعة شيكاغو وتخرج منهاسنة ١٩٤٨ ثم نال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة بعد خمس سنوات

على أن الظاهر من طريقته فى الكتابة عن الموضوعات الاسلامية انه يجرى فيها على نهج الاكثرين من المستشرقين، وطريقتهم الغالبة عليهم أنهم لا يزنون الموضوع الواحد بميزان واحد فيما يتعلق بالاسلام وبالامم الاسلامية وفيما يتعلق بغير الاسلام وغير المسلمين ، فهم ينظرون ــ أبدا ــ نظرة جانبية الى المسائل الاسلامية ، ولا يعممون النظر على

قاعدة واحدة الى هذه المسائل والى نظائرها فى البلاد الاوربية والامريكية ، وعندهم — دائما — ان مسائل الاسلام موسومة بالغرابة والمخالفة لما عداها من المسائل العالمية ، فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداء من النظرة الاولى ، ولا يحسبون ان التعليل العلمى يتسع لتفسير الاسلاميات وغير الاسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل ، وقد تسربت طريقتهم هذه فى التأليف الى عقول قرائهم وتلاميذهم من الشرقيين المسلمين وغير المسلمين ، فكلهم يبتدىء البحث بالتفرقة بين ما يبحثه من شئون الاسلام وما يبحثه من أمثالها فى التاريخ القديم أو التاريخ الحديث من شئون الامم الشرقية والغربية الاخرى ، وكلهم يخص الاسلام بمنظار (خاص) من أول نظرة ، ولا يحمل ذلك المنظار نفسه حين يتحول بالنظر الى سواه ..

واظهر ما يظهر ذلك فيما كتبه المؤلف عن تطور الفكر الاسلامى قديما وحديثا الى أواسط القرن العشرين، فانه يجعل الاسلام فى تقديراته مطالبا بأحد أمرين مستحيلين: أحدهما أن ينص فى عقائده من مبدأ الامر على احكام غير دينية تتبع فى نظام الحكومة ، فهو اذن دين وغير دين ، وعقيدة وشىء مخالف للعقيدة ، وذلك أغرب ما يخطر على البال بالنسبة الى الدين خاصة وبالنسبة الى كل نظام من انظمة الشرائع والدساتير على التعميم

والامر الآخر أن يتنزل الدين الاسلامى بنصوص قواعده مصحوبة بنصوص تعديلاتها وتطبيقاتها التى تغنى المسلمين عن التصرف فيها على حسب المصالح والضرورات فيحصل التعديل والتصرف قبل أوان الحاجة اليه، ويصح من ثم أن يقول المؤلف ومن على رأيه ان التشريع الحكومى فى الاسلام غير متحجر وغير مخالف للسنن المعهودة فى

غيره من التشريعات .. :

ومثل هذا « التصرف » ايضا غير ممكن ، بل غير معقول، فانما المعقول دون غيره أن توضع القواعد الدينية وتوضع الرخصة فى تعديلها على حسب شروطها ومناسباتها .. أما أن يتنزل الدين بنصوص قواعده ونصوص تعديلاتها معا فذلك مالم يحصل قط فى شرع دينى ولا فى شرع موضوع ..

قال المؤلف فى الصفحة الحادية عشرة بعنوان الشريعة: « اذا دققنا فى القول لم نجد فى الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات ، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الاسلامية بحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر .. ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الاسلامية ، أو الدولة الاسلامية، بسمات أربع هى :

١ ـ أن الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبى دستورها الوحيد

٢ ـ وأن كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شرعا غيره

٣ ـ أن وظيفة دستور الحكومة وشكلها وأحكامها أبدية ، ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان

٤ ـ أن الغاية من الحكومة هى اقامة الدين وتنفيذ كلمات الله ..

قال : « ويتضح من هذا أن الشريعة ـ وهى جملة الاوامر الالهية ـ ليست قانونا بالمعنى المفهوم من القانون فى العصر الحديث ولكنها قضايا معصومة ترسم للمسلم

أحكام سلوكه فى حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفى الاسرة والبيت »

وليس يعنينا فى هذا المقام ان نناقش تصوير المؤلف لحقيقة الاسلام ، ولكننا نقلناه بحرفه لنسأل : وهل للدستور أو للقانون على الاساس الصحيح فى كل صورة من صوره قاعدة تخالف هذه القاعدة فى جملتها ؟

وهل يصل المؤلف ببحثه يوما الى دستور « وضعى » قويم بدأ العمل به فى أمته بجميع تفصيلاته وتعديلاته دفعة واحدة ؟ وهل فى دساتير العالم دستور لم يقم على قواعد ثابتة لا تتغير مهما تتغير بعد وضعها نصوص المواد والقوانين المتفرعة عليها ؟

ان أقدم الامم الديمقراطية عملا بالحكم النيابى هى الامة البريطانية ، ودستورها فى أساسه قواعد لا تقبل التغيير وأن تغيرت المواد التى لم تكتب بتفصيلاتها حتى اليوم . ومن هذه القواعد حرية الفرد ، وحرية الاعتقاد، وحرمة المنزل ، ومبدأ النيابة ، وتقرير الضريبة ، ومبدأ المسئولية الوزارية ومبدأ السيادة البرلمانية فى وضع القوانين ، ومبدأ سريان القوانين فى جميع الاوقات واشتراط الموافقة على وقفها أو تعليقها على حسب الطوارىء والضرورات ، فهل يكون الدستور الصالح كذلك ولا غرابة فيه ، ثم تكون الغرابة كل الغرابة فى دستور الاسلام ؟

وبين أيدينا الساعة خبر عن دستور دولة عصرية يصح أن يقال فيه انه من أخبار آخر ساعة ، لانه مكتوب على رأس سنة ١٩٦٣ فى تقويم يسمى بتقويم « أيطاليه » وهى دولة عرفت الحكم « الثيوقراطى » أو الدينى ، وعرفت حكم الملوك والامراء ، وعرفت الحكم الدكتاتورى ، وهى تعرف اليوم نظام الحكم الديمقراطى ومن أحزابه حزب

يسمي بالحزب المسيحى ، وخلاصة نظامها السياسى كما جاء فى الصفحة الاولى من التقويم لسنة١٩٦٣ « أنه قائم على أسس التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، مع احترام الحرية الديمقراطية واستقرار العملة والمشاركة الكريمة فى الدفاع عن العالم الحر وتشجيع الدعوة الى الوحدة الاوربية والتعايش السلمى بين أمم العالم »

وليس مع هذه المبادىء نص واحد من نصـــــوص الدستور المكتوب أو نصوص قوانين المعاملة والعقوبات، فماذا فى هذا التعريف بأسس الحكم فى هذه الدولة، أو فى الدولة البريطانية ، يتعذر نقله الى التعريف بدستور الاسلام ؟ ..

اننا لا نغير حرفا من نظام الحكومة الاسلامية اذا قلنا على هذا المنوال :

ان قواعد الحكم كلها منصوص عليها فى آيات القرآن الحكيم ..

ان الامام يتولى الحكم بالبيعة

ان الاسلام يوجب على المسلمين ان تكون فيهم أمةتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ومنها « أهل الـذكر » الذين يسألون عن أحكام الذكر الحكيم

ان السيادة التشريعية موزعة بين الامام واهل الذكر واجماع الامة ، أو ما هو فى حكم الاجماع

ان احكام الشريعة الاسلامية تنفذ فى كل زمن وفى كل مكان ، ولا يعلق تنفيذها أو يؤجل الا وفاقا لســيادة التشريع ..

ان الفرد حر مسئول ..

ان مصلحة الامة أساس فى تطبيق الشريعة وفى وضع الاحكام التى لم تذكر بتفصيلاتها وعوارضها فى آيات الكتاب ..

ان المجتمع الاسلامى ينكر احتكار الثروة ويحرم الربح بغير عمل ويقرر من ثروة الامة كلهـــــا حصة للعجزة والمحرومين ..

ان الحدود الجنائية لا تعطل ابدا الا لعلة واضـــحة من علل الضرورات والشبهات

ان هذه الضرورات والشبهات مرجعها كله الى حـــق السيادة المطلق ، وهو حق الامام الراعى واهل الذكـــر والراى المتفق عليه بين جمهرة الرعية

فهل فى هذا الوصف قيد شعرة من الانحـــراف عن حقيقة الدستور الاسلامى ؟

وهل هو على هذا الوصف بدعة فى الدساتير التى تصلح للتطبيق وينتظم عليها أمر الجماعات الانسانية ؟

ان المستشرقين وتلاميذهم ، واصـــــح من ذلك ان « المستغربين » وأتباعهم من الشرقيين هم الذين يبتدئون بالاستغراب ــ اصـــــلا ــ فى كل بحث من بحوثهـم الاسلامية ..

وأن هؤلاء لا يكلفون أنفسهم أن يبتـــدئوا بالبحث فى شئون الاسلام « غير مستغربين » ولا مفرقين بين نظرة ونظرة وميزان وميزان ، ولـــكنهم لو تكلفوا ذلك فى كل ما بحثوه لعلموا ان الغرابة هنا حاصلة ولكنها فى طريقتهم وفى اتجاه عقولهم أو نيات ضمائرهم وليس فى الاســلام شيء من الغرابة ، الا ما استغربه المستشرقون وتلاميذهم من الشرقيين !

الجهاد فى الدين الاسلامى

بعد متابعة الكتب التى تؤلف عن الاسلام فى الغرب خلصت لى وسيلة من وسائل الاختبار السريع للنيـــة الحسنة والفهم الحسن عند مؤلفيها ، وهى النظرة العاجلة الى مجمل آرائهم حول مسألة الجهاد فى الدين الاسلامى ، فانها هى المسألة التى شاعت على السماع بين غـــير المسلمين ففهموا منها ان شريعة السيف وشريعة الاسلام شىء واحد ، وقد يكون لهم بعض العذر اذا نظرنا الى أناس من المسلمين كادوا يحسبون أن انتشار الاسلام بالسيف حقيقة تاريخية مفروغ منها ، وقد أشرنا فى مقدمة كتابنا عن « عبقرية محمد » الى واحد من هؤلاء كان يتحدث عن بطولة النبى عليه السلام فاذا هو لا يفهم منهـــا الا أنها بطولة سيف وقتال ، وان النظرة العابرة الى البلاد الاسلامية لتكفى لتقرير وقائع التاريخ فى هذه المسألة . وخلاصتها : أن أكثر البلاد عدد مسلمين هى أقل البـــلاد غزوات اسلامية ، وان المسلمين لم يحاربوا قط فى صدر الدعوة الا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعـــوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان ، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركى الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم .. وقبل غزو فارس بزمن طويل كان كسرى يبعث بعوثه فى طلب صاحب الدعوة الاسلامية حيا أو ميتا ، لانه خاطبه داعيا الى الاسلام

وبمتنع حسن النية فى الكتابة عن الاسلام بين الغربيين ، وبخاصة بين الذين يثورون منهم على رؤسائهم الدينيين ويجتهدون فى تصغيرهم الى جانب غيرهم من أتبـــاع

الديانات الاخرى ، فمن هؤلاء من يجتهد في تصغير خصومه ولكنهم يحتاجون ــ مع حسن النية ــ الى حسن الفهم والنفاذ الى حقائق التاريخ لتصحيح الاقاويل التى شاعت على السماع عن فريضة الجهاد فى الاسلام ، فان الذين لم يحسنوا فهم هذه الحقائق يحسبون ــ مخلصين ــ أن الاسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة ، ويعدون هــــذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية او بين الفـــرائض الانسانية التى قررتها دساتير الاخلاق فى أمور العقائد على الاجمال ، وحقيقة الامر أن الاساس الاخلاقى الذى قامت عليه فريضة الجهاد ــ فضلا عن الاساس الديني ــ يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم

فماذا تقول شريعة الاخلاق فى الواجب على الانســـان نحو عرضه ؟ ان الاسلام لا يقول شيئا غير الذى يقـوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد فى سبيل وطنه وكرامته وعرضه ، ويعيبون عليه ان سالم من يقاتلونه فى سبيل حريته وحرية بلاده، وليس بالدين الصالح للايمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحرية فى الوطن والمعاش

من نوادر المؤلفين الغربيين الذين جمعوا بين حســـن النية وحسن الفهم فى مســـألة الجهاد توماس كارليـــل الحكيم الايقوسى الذى يسميه نقاد الغرب بنبى الكتاب . . فهو ينتهى بزعم الزاعمين أن الاسلام قد انتشر بالسيف الى الغاية من السخف والغثاثة ، ولا يرتضى أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ ، فانه اضعف من ان يحسب من الاكاذيب التى تحتاج الى تصحيح ، وهو اظهر بطلانا من أن يبطل بالمناقشة ، لان القائل به سواء ومن يقـول ان رجلا واحدا حمل سيفه وخرج الى جميع مخالفيـه

ليبعث فيهم الخوف من سيفه ـ وحده ـ ويسوقهم كرها الى اعتقاد ما ينكرون ، فيعتقدونه ويثبتون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين !

وأول كتاب حديث قرأنا فيه تفسيرا «سلميا» لاخلاق المسلمين التى يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب الذى اخترناه ليكون موضوع مقال اليوم عما يقال فى الاسلام ، وعنوانه « دولة الباكستان » لمؤلفه (البروفيسور شبروك ليامز) صاحب الدراسات الواسعة فى شئون الشرق الاوسط وشئون الهند والباكستان ، فقد سبقه كثيرون من كتاب اللغات الاوربية الاخرى الى تعليل حركات المسلمين فى الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هناك من غير المسلمين ، فكانت خلاصة تعليلاتهم لتلك الحركات جميعا انها وليدة التعصب الدينى أو وليدة الروح العدوانية التى انفردوا بها بين أبناء وطنهم ، ولكن مؤلف هذا الكتاب : (Rushbrook Williams يعلل هذه الحركات للمرة الاولى بين ابناء لغته وعقيدته بأنها وليدة البحث : « لا عن وطن يستطيع فيه المسلم ان ينطلق من قيود المستغلين وحسب بل هى وليدة السعى الى اقامة بلاد تسود فيها آداب الاسلام ، وتمنع فيها ظلم الاغنياء للفقراء . ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعى التى يتعلمونها من سماحة الشريعة »

ويقول عن « تقاليد » الاسلام : « ان هذه التقاليد تشمل مبادىء المساواة بين الارواح الانسانية أمام الله وتقرر أواصر الاخوة العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر أو اللون ، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين وبذل الحياة نفسها فى سبيل الصراط المستقيم .. ومعاملتهم ـ من ثم ـ للبلاد الاخرى لا تجعلهم حريصين

على الغلو فى اثبات وجودهم والتصلب فى املاء تقاليدهم الحرفية او الوقوف موقف الاحجام والاعتذار »

ووصف ما يشعر به جمهور المسلمين من ابناء الهند او يفهمونه بداهة من معنى الدولة فقال ان التفصيلات السياسية لم تشغل أذهانهم : «ولكنهم تطلعوا الى سياسة تسود فيها آداب العقيدة الاسلامية وتقوم على العدل الاجتماعى والحكم السمح الرفيق وتستجيب لحاجات الشعب وضروراته ، وتحمى الفقير من قسوة المستغلين وتتكفل باقرار قواعد الحكم كما تعين على التقدم الاقتصادى .. وان يكن من الحق ان شعور الجماهير من هذه الوجهة غلبت عليه البواعث الدينية من الناحية الاجتماعية اوفر من ناحيتها المذهبية .. »

وأطال المؤلف الكلام على النظريات السياسية الاسلامية التى تقابل ما يسمى « بالايديولوجى » فى اصطلاح المذاهب الاجتماعية أو السياسية فقال ما فحواه : ان تلك النظريات لا تعارض نظاما من الانظمة الدستورية فى الامم الديمقراطية اختلاف هذه الانظمة فى أساليب الادارة وتوزيع السلطة على طريقة الجمهوريات الرئاسية او النيابية ، وان الحاكم لا يملك ان يستأثر بالسلطة على أى وجه من الوجوه مستندا الى نصوص القرآن

وقد يعتبر كلام المؤلف عن علاقة الدين بالوطن أبلغ رد على الذين جعلوا الاسلام « مسئولا » عن اعتبار المشاركة فى العقيدة سببا من أسباب اقامة الدول ، لانه لم ينس فى بحوثه المختلفة ان دعوى اسرائيل لم تقم على أساس غير أساس المشاركة فى العقيدة ، وهى على هذا موضع العطف والتأييد ممن يعلنون شريعة الديمقراطية ويحسبون رعاية المسلمين لاعتبارات الدين « تعصبا » مقصورا على المسلمين

بطولة صلاح الدين

الاستاذ « هاملتون جيب » مستشرق معـــروف فى البلاد العربية ، يكتب فى الادب والتاريخ وفى الشئون الاجتماعية المتصلة بهما ويتسم بين زملائه المستشرقين بسمة الاتزان وتقدير التبعة ، واجتناب المساس بالشعور فيما يبحثه من المسائل التى تختلف فيها الآراء وتمتزج بالعقائد الدينية ، وقد عرف فى بلاده وفى البلاد العربية باسمه الثانى أو لقبه المشهور « جب » قبل الانعـــام عليه برتبة الفروسية أو الرتبة التى تؤهل صاحبهـــا للقب من ألقاب النبلاء ، وهو لقب السيد أو «السـير» باللغة الانجليزية . فأصبح يذكر ــ بعد اللقب ــ باسمه الاول مع اسم أبيه على حسب التقاليد المرعية عنـدهم فى تسمية أصحاب الرتب والالقاب ، فهو يذكر الآن باسم هاملتون جيب ، ويكاد الذين يقرءون هذا الاسم فىالشرق أن يشكل عليهم الامر فيحسبوه كاتبا آخر غـير الكاتب المعروف بينهم منذ سنين

وقد كان الانعام بالالقاب على الادباء والفنانين معهودا فى البلاد الانجليزية فى القرون الماضية ولا سيما القـــرن الثامن عشر وما يليه ، فأنعم بها على الشعراء والمؤرخين والممثلين والمصورين من جميع الطبقات ، ولكن نسبـــة الانعام عليهم تزداد فى السنوات الاخيرة ، وبخاصـــة فى السنوات التى أعقبت ظهور حزب العمال ، وكان منهم ثلاثة من حملة الاقلام المعروفين فى الشرق هم : توينبى المؤرخ ، وسمرست موم القصاص ، وجيب المستشرق ،

وكلهم من طبقة غير الطبقة التى تسمى عندهم طبقة الاعيان، او النبلاء ..

ولا محل للمقارنة بين موم وجيب فى الموضوعات التى يكتبان فيها ، لان موضوع احدهما القصة وموضوع الآخر الاستشراق ، ولكن المقارنة بين توينبى وجيب مما يستدعيه النظر فى كتابة كل منهما عن التاريخ الشرقى والاسلامى على الخصوص ، فان توينبى يحسن عرض الحوادث ويقصر غاية التقصير فى فهم « الشخصيات » ولا سيما شخصيات البطولة والعظمة ، ومن قصوره عن ذلك أنه ظن أن أبا سفيان وقومه بنى أمية غلبوا النبى عليه السلام فى ميدان السياسة واستخلصوا الملك من بيت بنى هاشم ومن آل النبى أجمعين .. ولم يفهم الموقف برمته منذ قام بالامر الخليفتان :الصديق والفاروق ومنذ نهى النبى عليه السلام عن العصبية وعن وراثة الانبياء ، ولا يستطيع أحد يفهم طبائع العظمة ، أن يضع محمدا عليه السلام فى ميزان المقدرة العقلية والنفسية ويضع أمامه أبا سفيان أو أبناءه ثم يحكم لهؤلاء بالرجحان فى طبيعة من هذه الطبائع على أى اعتبار ، ولكن تقدير « الشخصيات » والحوادث معا يستوفى حقه فى كتابة « جيب » فلا يغفل عن الفوارق بين دلائل العظمة والبطولة فى قادة التاريخ الاسلامى ولا يفوته أن يرجع بهذه الفوارق الى أسبابها « الواقعية » التى تحتوى أحيانا طرفا من الاسباب « النفسانية » كما كشفت عنها دراسات علم النفس الحديث

والبطولة — كما لا يخفى — تهول عقول الناس فيجمعونها كلها فى نوع واحد من الاعجاب والتعظيم ، ومقتضى الاعجاب والتعظيم عند أكثر الناس أن يكون البطل فى الذروة من كل خلق انسانى معظم محبوب ، فهو مثل

فى الشجاعة ومثل فى الكرم ومثل فى الدهاء ومثل فى كل ما يمتاز به النخبة الممتازون .. أما الناقد التاريخى فينبغى أن يكون له ميزان أصح وأعدل من هذا الميزان، فلا يلغى التاريخ اعجابنا بالبطولة والابطال ، ولكنه يجعل هذا الاعجاب حكما بأسباب ولا يتركه حكما « غيابيا » بغير أسباب وبغير مبالاة باحضار « البطل » فى مقام الوزن والتقدير ، أو مقام التمييز بين بطل وبطل وبين نوع من العظمة وسائر أنواعها التى ينتسب اليها العظماء ، على اختلاف الميادين والاعمال

بل ينبغى للتاريخ ان يقسم البطولة الى انواع واقدار، فليس كل بطل مخلوقا على مثال أقرانه من الابطال،وليس كل بطل قرنا لكل عظيم موصوف بصفات البطولة .. بل ليس كل عظيم معدودا من الابطال ، لان العظمة قدتعوزها خاصة البطولة فى الصميم : وهى خاصة الايمان بالمثل الاعلى والفداء ومغالبة النفس فى هوى من أهوائها الغلابة المطاعة ، وأعمها وأشيعها هوى الشهوات وهوى «الانانية» فى حدودها المحصورة التى لا تتعدى صاحبها فى مطالبة وأمانيه ..

وما أعيد نشره للاستاذ هاملتون جيب بعد الانقسام عليه كلام له عن البطل الاسلامى الكبير صلاح الدين الايوبى بطل الحروب الصليبية الذى كثرت المقارنة بينه وبين أبطال هذه الحروب من قادة الامم الغربية

فلا شك عند المستشرق الحكيم فى بطولة صلاح الدين ولا فى عظمة هذه البطولة ولا فى استحقاقه للشهرة التى ذاعت عنه وحوله بين أبناء الغرب والشرق على السواء ، ولكنها بطولة تقوم على تمحيص الاعمال والغايات ولاتقوم على الشهرة العامة والصفات المجملة ، أو هى بطولة من نوع مقدور بأسبابه حتى بين البطولات العسكرية التى هى

وحدها مجال متسع لانواع من البطولات المختلفة ،كبطولة القيادة وبطولة التعبئة وبطولة الحركة السريعة وبطولة الهجوم او بطولة الدفاع

وصلاح الدين كان بطلا منتصرا فى اكثر مواقعه وميادينه ، ولكن بطولته فى القدرة والتعبئة أكبر وابرزمن بطولته فى فن القيادة وتوجيه الجيوش في ابان المعمعة ، فانه فى هذا المجال لم يكن مستجمعا لثقة العسكريين المحترفين من حوله ، ولم تكن مخالفتهم اياه بالامر النادر في بعض الظروف المحرجة وان تبين فيما بعد انهم مخطئون وانه كان على صواب

والتعبئة الروحية كانت فى مقدمة فنون التعبئة التى اتقنها بطل الحروب الصليبية ، فان هذه التعبئة الروحية كانت ألزم له من سائر فنون التعبئة العسكرية فى جميع القوى وابتعاث الغيرة وكبح عوامل الاثرة بين أتباعه ومنافسيه ، ولكن التعبئة العسكرية لم تكن فى بابها أمرا يسيرا يستطيعه كل من تصدى له من المجاهدين الغيورين ، لان تسيير جيش من أمم الشرق الاوسط بين العرب والاكراد والترك والرعايا الموالين للعباسيين ومواطنيهم الموالين للفاطميين ، وتكوين هذا الجيش من اجناد تختلف بواعثهم الى الاشتراك فى الحرب الصليبية وتختلف أوقاتهم التى يستعدون فيها للمشاركة فى كل ميدان وكل هجمة أو مدافعة تأتى على استعداد أو على حين غرة . كل أولئك فن من فنون التعبئة العسكرية لا يقدر عليه كل قائد ولا يقدم عليه كل فارس ، ولو كان أعلم بالفروسية من صلاح الدين ..

وقد جاء فى ابن الاثير أن ضابطا من الموصل رأى صلاح الدين وهو يعان على ركوب فرسه فقال ما معناه : انظر الى العواقب يا من يعينه على ركوب فرسه أمير من آل

سلجوق ومن سلالة الاتابك زنكى ! !

ولكن هذا الفارس الذى كان بين قواده من هـو أخبر منه بفنون الفروسية لم يكن فى زمانه كله من هو أقدر منه على جمع القوى وتأليف الشعاب واختيـار الزمن والموقع الذى يصلح للهجوم او يصلح للدفاع

ولقد كان صلاح الدين حصيفا ذكيا عليما بطـبائع الناس ، ولكنه لا يوصف بالمكر والـدهاء ولا يحسب من دهاة الساسة المعدودين فى تاريخ الاسـلام ، وكان وفاؤه بالوعد مضرب المثل فى معسكر الفرنجة ومعسكر الاسلام ، ولكنه لو لم يكن حسن الظن بالناس لما تورط فى بعض وعوده التى أضطره الوفاء الى المحافظة عليها، لانه كان يأبى الغدر وينتظر من غيره مثـل هذا الاباء ، فيصدق ظنه فى حين وتخيب ظنونه فى احيان ، ولكنـه كان يملك القدرة على تدارك الخطأ بعد وقوعه ، لفرط ايمانه بحقه وحق القضية التى تصدى لها ووقف جهوده عليها

ومن عادة الناس ان ينظروا الى اكبر اعمال البطـل وأدلها على القدرة والكفاية فيحسبوا انها هى المقصـد الذى تحراه من جميع اعماله وهى الغاية الاولى والاخيرة من جميع جهوده وتدبيراته . ولا خلاف على ان العمل الاكبر الذى تصدى له صلاح الدين وافلح فى انجازه هو صد الجيوش الصليبية والتغلب عـلى امراء الصليبيين وقادتهم فى ميادين الحرب والسياسة ، ولكنه من الخطأ أن يقال انه هو العمل الذى توخاه وانصرف اليه بتدبيره وسعيه من بداءة حياته ، فانما كان شاغله الاكبر قبـل كل شاغل عناه ان يدعم الدولة الاسلامية المتصدعةويقتلع جذور الفساد والشقاق من دواوينها ومعاهد ادارتها ، وقد كان صلاح الدين (الادارى) المدير هو صلاح الدين الحق فى رأى نفسه ورأى المتعقبين لمساعيه ودواعى اعماله،

ويزداد حفه فى الاكبار والاعجاب كلما لوحظ من مساعيه المتتابعة ان أغراض الطموح ومطامع النفس لم تسيطر عليه ولم تصرفه عن غايته الشاملة من تدعيم الدولة العباسية وتغليب اسباب الالفة بين أجزائها على اسباب التفرقة والانقسام ، وهو على علو همته واعتداده بكفايته لم يطمع فى كل ما كان يستطيعه من السلطان ولا فى كل ما كان ميسورا له بقوته العسكرية وثروته المالية وعلاقاته بأرباب القوة والثراء فى الولايات الاخرى

وآية البطولة فى صلاح الدين انه غلب نفسه كثيرا كما غلب أعداءه من الفرنجة والمسلمين ، وانه حكم نفسه كثيرا قبل ان يحكم رعاياه من المطيعين له او المتمردين عليه . .

وقد كانت هذه النظرة الواقعية الى كنه العظمة التى اتصف بها هذا البطل العظيم وليدة الاطلاع الواسع على مصادر اعماله ومصادر تاريخ عصره ومصادر الاقوال التى نسبت الى المتصلين به ممن عاملوه فى ميادين سياسته وحروبه ، ومن بين هؤلاء من يخالفونه فى الدين ومن هم على دينه وعلى مذهبه السنى ولكنهم يتعصبون لامراء الموصل المحنقين عليه ، او على مذهب الشيعة ولكنهم يمحضونه الثناء لان غيرتهم الاسلامية غلبت على كراهيتهم للرجل الذى قضى على دولة الفاطميين

ونرى من مراجعة الطرائق التاريخية التى يتبعها المستشرقون ان طريقة « جيب » فى تمييز « انواع البطولة » بين من كتب عنهم من قادة المسلمين هى المثل المختار لمن ينصف البطولة حيث كانت ويبنى انصافه على الاسباب والاعمال ، وعلى وجوه التمييز بين دواعى الاعجاب والتعظيم ، ويعينه على ذلك اطلاع واسع وقدرة على العلم بما يأخذ به وما يدعه مما يطلع عليه ..

رسالة السيد المسيح

بعث السيد المسيح فى ارض فلسطين من الشرق الادنى ، ولكن أتباع المسيحية فى القارة الاوربية وفى العالم الجديد الذى تشعب منها يزيدون على عشرات أمثال عدد المسيحيين فى ارض فلسطين وفى القارة الآسيوية بجملتها ، وهذه ظاهرة من الظواهر البارزة فى علم المقارنة بين الاديان ، نبحث فيها فينكشف لنا سر عظيم من أسرار الدعوات الدينية والرسالات الروحية، وينكشف لنا معه سر عظيم من أسرار الحكمة الالهية فى تقسيم المقادير بين عباد الله ، وتعليم الاقوياء والضعفاء عظة من العظات التى ينتفع بها من وعاها ، وقد ينتفع بها أقوياء هذا الزمن وضعفاؤه ، وهم يتأملون مواقع العبرة فى مقادير التاريخ الحديث

كان اقليم الجليل من ارض فلسطين أضعف الاقاليم الخاضعة للدولة الرومانية الكبرى وفيه ــ دون غيره فى أملاكها الواسعة ــ نشأت الدعوة الروحية فقضت على سلطان المادة الغاشمة فى صورتها الدميمة التى يسميها التاريخ باسم الدولة الرومانية على شفا الهبوط والانحلال ــ يقول تعالى فى القرآن الكريم « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

ونعلم من هذه الآية البينة أن الله ــ جلت حكمته ــ

يختار الرسول الصالح لدعوته كما يختـــار الامة أو الأمم التى تحتاج الى الرسالة وتتلقاها بمقـدار حاجتها اليها ..

ولقد كان فساد الدولة الرومانية أو فسـاد الحضارة التى ملأت بها أرجاء العالم المعمور قبيل عصر الميـلاد هو جملة « الدواعى » التى دعت الى الرسالة الروحية يومئذ ، فشاءت الحكمة الالهية ان تختار لها صاحبهـا عيسى عليه السلام ..

ولهذا نرجع الى تاريخ الدعوة المسيحية الاولى فنرى انها انتشرت فى كل قطر من اقطار الدولة الرومانيةقبل سائر اقطار العالم المعمور فشاعت فى أملاكها شرقا وغربا وكادت ان تلتزم حدودها عند البلاد المجاورة لها زهـاء أربعة قرون ، فلم تنتشر فى قطـــر من اقطار الاكاسرة الفارسيين كما انتشرت بين بيزنطة الشرقية ورومـة الغربية وما جاورهما من بلاد القارتين الاوربيةوالافريقية لان آفات الحضارة التى ملأت العالم المعمور الخاضـع لدولة الرومان كانت هى « أساس الفتنـة المادية » التى تناسبها رسالة السيد المسيح وتصلح لعلاجها

وقد تفرق دعاة المسيحية بين بلاد الشرق من سورية الى وادى النهرين الى الهند كما جاء فى بعض أنباءالدعوة الاولى ، فلم تنتشر فى قطر من تلك الاقطار كما انتشرت بين بلاد دولة الرومان ، لان اقطار المشرق كانت لها آفة غير هذه الآفة ، وكانت تنضج للرسالة التى ستأتى فى حينها وتستعد للدعوة الدينية التى تتلقـاها على حسب الحاجة اليها ، وقد جاءت فى حينها المقدور بعد دعـوة السيد المسيح ببضعة قرون

كانت آفة الدولة الرومانية انها أصيبتفىأساسهاالذى قامت عليه ، وهو أساس التشريع

وكان تشريعها المشهور قد اصيب فى صميمه فلحق به شر ما يلحق الشريعة من عوارض الفساد .. وشر ما يلحق شريعة الامة من الفساد ان تجمد على النصوص والحروف وأن تفقد روح الحق والانصاف . وأن تصاب بداء التدليس فيمن يتسلطون باسمها وفيمن تتسلط عليهم من رعاياها المحكومين، وأن يصبح هؤلاء الرعايا المحكومون بين فريقين متناقضين ، فريق يدين بتلك الشريعة ولكنه يجرى فيها على سنة الرياء والخداع ، وفريق آخر يستخف بها ولا يصدق بصلاحها واستقامة أمرها، فيخلع عنانها ويتحلل من ظواهرها كما يتحلل من بواطنها، فهو «الخليع» الذى تعطيه لغتنا العربية اصح أسمائه بين لغات العالم ، لانه منخلع من كل رابطة تربط بينه وبين الناس او تربط بينه وبين الله ، عار من كل لباس يستر فضائح الاخلاق ويحجب نقائص العرف والتقليد

كانت شريعة جمود ورياء ، فلم يكن لها علاج أصلح من علاج الرسالة التى تقيم العلاقات بين الناس على المحبة لا على حروف القانون ، وتعلمهم ان العبادة وجدان وضمير لا حركات جوارح ولا حروف كلمات ، وتطلب ممن يدين الناس أن يدين نفسه قبل أن يدين الخاطئين والخاطئات، بل توحى اليهم ان الخطيئة الظاهرة اقرب الى التوبة والغفران من الصلاح الظاهر ومن ورائه الباطل المستور والكذب الدفين ..

ولقد كان مصاب العالم اليهودى فى عصر الميلاد كمصاب العالم الرومانى كله من قبل شريعته التى أقيم عليها أساسه القديم : جمود على النصوص والحروف ، وتدليس فى ولاية أمور الدنيا والدين ، ورياء غالب على من بقى منهم مؤمنا بشريعته ، وخلاعة مبتذلة يجهر بها الكافر منهم بتلك الشريعة ولا يبالى أن يعلن خلاعته حيث يرتبط بالدولة

او حيث يرتبط بالدين

وكان أصلح القوم ـ كما قال السيد المسيح ـ من يشبه الضريح الفاخر بطلائه النظيف لمرأى العين ، وتحت صفائحه الظاهرة رمة بالية يأكلها الدود

الا ان العالم اليهودى لم يكن صاحب اليد العليا فى حضارة بلده أو فى حضارة زمانه ، وانما كان تبعا للسلطان الغالب الذى طواه وطوى غيره من أوطان العالم المعمورة بين زواياه ، فلو صلح كله لما اغنى شيئا عن ابناء عصره وعن شركائه فى عالمه الواسع وآفاته المحيطة بظواهره وخفاياه ، فكان من قضاء العناية الالهية ان يعرض العالم اليهودى عن الدعوة المسيحية غاية الاعراض ، وأن يكون عداؤه لها اشد وأعنف من عداء الغرباء المسلطين عليها ، ولولا ذلك الاعراض البالغ وذلك العداء العنيف لما تحولت الدعوة بقوتها كلها ، أو بأكبر قواها ، الى ميدانها الواسع ووجهتها « الانسانية » الشاملة ، من وراء اسرائيل ومن وراء فلسطين . .

ولم تقم دعوة السيد المسيح ـ كما تقدم ـ على الحروف والنصوص ، بل قامت لتحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص ، فلعلها جرت على اطرادها حين انتقلت برسالتها من لغتها الاصلية الى لغات أخرى لم يتكلم بها صاحب الرسالة ، فلا يوجد اليوم بين ابناء الامم من يقرأ حروفا ونصوصا سمعت من السيد المسيح ، ولكنهم يقرأون فحواها ويتلقونها « روحا » يجتهد فيها المجتهد بما يلهمه وحى الرسالة الصادق من معنى ينفض عنه جمود الحروف والنصوص

وبعد قرابة العشرين قرنا من دعوة السيد المسيح تعود العبرة من جديد بين الاقوياء والضعفاء ، وبين سلطان السادة وضحاياه ، وبين الغرب القابض على أزمة الدنيا

والشرق الذى أوشك أن يبتلى بمذلة الغربة فى عقر دنياه

ان سلطان الغرب يشقى بداء « المـادة » التى شقيت بها من قبله دولة الرومان ، وانه لينكر على بنى الانسان حقهم فى الكرامة الانسانية لأنه يفخر عليهم بكرامة العلم والحضارة وكرامة « التقدم والارتقاء » وانه ليتجردمن روح الانسانية وهو يحتكر مظاهرها ويطرح عنه حقائقها ليزهو بأشكالها ، وانه ليحتاج الى النذير الرادع والى الدواء الناجع ، فتأتيه الرسالة فى هذه المرة ايضا كمـا أتته من أضعف ضحاياه قبل عشرين قرنا على يد الدعوة المسيحية ، فمن بلاد الشرق التى سلبت حقوق الانسان يتعلم الغرب كيف يرعى تلك الحقوق وكيف يدركهـا جوهرا ولبابا بعد أن قنعمنها فىعنفوان سلطانه بالاعراض والقشور .. ومن بلاد الشرقيتعلم الغرب صاحب العلوم ان قوته الباغية تخلق من الضعف قوة تصد الاقوياء ، وتقدح من الظلمة شررا يحرق أو ينير ، وتكشف القـارة السوداء لابنائها بعد أن كانت تكشفها لمن يتسلل اليهـا ويوشك ان يغمض عيونها عن شمس النهار

ان خالق الذرة يضعفاليوم عن السلطان الذى اقتدر عليه آباؤه وأجداده بما دون ذلك من عدة قاطعة وحيلة واسعة ، ولو لم تكن عبرة من عبر الحكمة الالهية لـكان سلاح الذرة أولى بتحكيم الغرب فى الشرق وسيادة الاقوياء على الضعفاء من أسلحة القرن الغابر والقرن الذى قبله، وهى فى جانب القذيفة الجهنمية أضعف من العصـا فى جانب السيف ..

وليست العبرة من رسالة الشرق اليوم ديانة كتاب منزل او بشارة مسيح موعود ، ولكنها ـ على هذا ـ تقرع الاسماع بآية من وحى الله حين يخرج منها العالم الانسانى بالدرس الذى هو محتاج اليه ، وحـين يذكر

الاقوياء انهم نسوا أن الضعيف المغلوب انسان فذكروا ذلك مكرهين يوم بلغوا بالسلاح غايته من القوة والجبروت، فهم يستعيدون اليوم نعمة الانسانية على انفسهم كما رضخوا بهذه النعمة للضعفاء ، وعجزوا عن سلبهم أياها فى عصر الذرة والصاروخ ! ..

مسألة الرق فى الاسلام

مسألة الرق فى الاسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين أو ذاك ..

ويتفق الماديون والمبشرون لانهم يتجهون الى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، « أولاهما » نشر الدعوة بين الشبان المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديموقراطية وحقوق الانسان ، ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال لهم عنه فى مسألة الرق ولا يعلمون انه الدين الوحيد الذى شرع للارقاء شرعة لم يسبقه اليها دين من الاديان ، وان الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسلام فى انصافه لجميع الارقاء ..

أما الوجهة الاخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون فهى غزو القارة الافريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الافريقية خوفا من اقبال أبناء هذه القارة على الاسلام قياسا على نجاح الاسلام بين الافريقيين فى الازمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك وعظم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها

حكومات الدول القوية ..

فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعواتهم باغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ويعلمون ان الاسلام كفيل باحباط مساعيهم ان لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم في الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون الى تشويه سمعة الاسلام والمسلمين باعادة القول فى مسألة النخاسة وتلفيق الاكاذيب التى توهم الافريقيين المتحررين ان العرب المسلمين قد احتكروا النخاسة قديما وحديثا ، وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم من تاريخ النخاسة انها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند ابناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين

أما الحقيقة التي تقابل هذه الدعاية ، وينبغى ان تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال ، كفيلة باقناع من يستمع اليها مسلما كان او غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير

ان الاديان جميعا — قبل الاسلام — أباحت الرق وألزمت الارقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله

وجاء الاسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق كما فصلنا ذلك فى مواضعه ، وقد ندب المسلمين الى فك الاسار عن الاسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة :

أوجب الاسلام قبول الفداء مع استحسان فك الاسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن

يحنث فى يمينه ومن يظاهر من زوجه ،ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ما هو باق الى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم الى ان يشاء الله

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الاسرى واعتقالهم الى أن يتم الفداء بتبادل الاسرى أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام وأوجبه على الدولة الاسلامية وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب »

فاذا كانت الدول - غير الاسلامية - لم تعرف لها نظاما تتبعه لاطلاق أسراها من الرق فهى المسئولة عن هذا التقصير وليس على الاسلام او الدولة الاسلامية ملامة فيه ، وقد نعود الى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم ان هذه الدول الاخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الاسرى وتحرير الارقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الاسر والرق أكثر من عشرة قرون

ولنسأل ادعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الاسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين اصحاب الحقوق ؟هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند اعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الاسلام يوم اوجب على المسلمين

أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق او يوجبوه في مقام التكفير والاحسان ؟

ان صنيع الاسلام الذى اوجبه قبل اربعة عشر قرنا هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم في انصاف اسراها وأسرى أعدائها ، فأما ان يكون لها صنيع اكرم منه فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتي لنظام من النظم الدولية ان يستقر عليه

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى في تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها في أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها

فالاسلام قد أنصف الارقاء ابتداء بغير اضطرار الى الانصاف اتقاء لثورة سياسية او منازعة اقتصادية أو ازمة من ازمات الحروب والاستعداد بالسلاح ..

ان أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة الى تحرير الارقاء جاءت على اثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الاجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات حيث تدار بأيدى الارقاء ولا تنفق عليها أجور . فان أصحاب الاموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل ان يستجيبوا لداعى الكرامة الانسانية

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول الى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة اخرى بعد هذه الخطوة يوم اصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون ...

وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الافريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود الى معسكر أعدائهم فى سباق

التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين الى هذا الفريق أو ذاك الفريق

فلما وصلت الحضارة الاوربية الى هذا المدى بعد طول التعثر والمحال لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وانصاف ولكنها كانت ــ ولا تزال ــ قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والادارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال

والفارق الاكبر فى مسألة الرق من جانب الواقع التاريخى هو ذلك الفارق الذى تحصيه الارقام بالحساب بين عدد الارقاء فى البلاد الاسلامية وعددهم فى البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الامريكتين ، فان الارقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الاسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرنا ــ على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الامريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ، ولما يمض على قيام الحكم « الابيض » هناك أكثر من ثلاثة قرون ..

وأبعد من هذا الفارق فى العدد فارق المعاملة التى لقيها الارقاء فى البلاد الاسلامية والمعاملة التى لقيها اخوانهم فى الامريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاما من الاسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته « البيض » ..!

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية والامم الافريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها الى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الاسلام .. فاذا انعكست الاية وذهب بها

سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

الدعوة الاسلامية حركة دفاع فى العصر الحديث

فى نحو مائة سنة وصلت الدعوة الاسلامية من مكة الى حدود الهند والصين شرقا والى شواطىء البحر الاطلسى غربا ، ودخل فى الاسلام معظم القاطنين بين هذين الطرفين ..

وفى أقل من خمسين سنة شاع الاسلام بين أبناء القارة الافريقية الذين اتصلوا بالبلاد الاسلامية ، وجاء الاستعمار الاوربى فى القرن التاسع عشر للميلاد فوجد الاسلام منتشرا ، ولا يزال ينتشر ، بين هؤلاء الافريقيين ، وحاول المبشرون بقوة الاستعمار وأموال الحكومات والجماعات الدينية أن يدركوه فلم يستطيعوا بعد مائة وخمسين سنة ، أن يقنعوا بدعاياتهم القوية الغنية عشر العدد الذى دان بالاسلام بغير دعاية منتظمة ولا اغراء

قديما كان الجاهلون بالاسلام يتعللون لانتشاره فى صدر الدعوة بقوة السيف ، وهى خرافة تبطلها نظرة سريعة الى خريطة الكرة الارضية ، فيعلم الناظر اليها أن القطر الذى فتحه المسلمون بالسيف — وهو الاندلس — ليس فيه مسلم ، وأن ثلاثمائة مليون مسلم يقيمون اليوم بين الصين والهند واندونيسيا ، حيث لم يبلغ الفتح الاسلامى الى أبعد من الاطراف

وحديثا يتعلل المبشرون لاخفاقهم ونجاح الاسلام باباحة تعدد الزوجات ، ويقولون ان الافريقى يقبل الاسلام لانه يبيح له أن يتزوج ويتسرى بما شاء من النساء ، وان

التبشير ينهاهم عن ذلك فيعرضون عنه ، وهى خرافة أخرى تبطلها التجربة كما أبطلت خرافة نشر الاسلام بالسيف ، لان الاسلام يحرم الخمر وهى أيسر منالا من تعدد الزوجات ، ولا يصدهم ذلك عنه ، وقد تتيسر الخمر لكل افريقى يريدها ولا يتيسر له أن يعدد الزوجات والسرارى كما يريد ، وربما جاز أن يقال ان الافريقى يهجر المبشرين بعد استجابته لهم اذا أراد تعديد الزوجات فمنعوه ، ولكنه لا يعلم من أول كلمة يسمعها منهم أنهم يمنعون تعدد الزوجات ولا يستجيبهم كل أفريقى وهو أعزب ثم يتركهم اذا شاء الزواج باكثر من واحدة ـ دفعة واحدة ـ ان صح ما ادعوه ..

واليوم لا يسمع هذا التعلل بمسألة الزواج المتعدد أو الزواج المقيد ، فان ذكرت من حين الى حين فانما يذكرها المبشرون للاعتذار عن اخفاقهم الى أصحاب التبرعات ولكنهم يعلمون أنها عذر واهن فيبحثون عن عذر غيره يرددونه اليوم ، وقد يرون أنه أوفق للاحوال الحديثة فى القارة الافريقية وأقرب الى الصدق والى التصديق ، وذلك هو عذر العصبية القومية بين السود والبيض أو بين الافريقيين عامة والاوربيين من المستعمرين والمبشرين ..

قرأنا فى أكثر من كتاب من كتب المبشرين هذه التعلة التى يتعللون بها لاخفاقهم ونجاح الدعوة الاسلامية ، وهى تعلة كانوا يكتمونها من قبل لان اعلانها يلقى تبعة الفشل على الاستعمار وهو قائم فى البلاد لا ينوى أن يتخلى عن شبر من الارض وصل اليه ، فلما اضطر المستعمرون الى الجلاء عن الديار الافريقية أصبح المبشرون فى حل من القاء التبعة عليه ، وأصبح الكثيرون منهم ينادون بحرية الشعوب الافريقية وينكرون التفرقة فى الحقوق بين

الاجناس والالوان ..

ولم ينس المبشرون أنهم بيض من جنس المستعمرين، فاذا حمل الاستعمار تبعته وهو منصرف عن الديار أو على نية الانصراف فماذا يصنع المبشرون بمهمة التبشير ؟ هل يتخلون عنها ويعولون على نية الجلاء فى آثار المستعمرين ؟ وهل يبقون ثم يطمعون من أصحاب التبرعات بموالاة المدد والمعونة بعد العلم بهذا الحاجز القائم بين الاوربيين والافريقيين ، وبعد العلم بأنه حاجز متين يزداد قوة ومنعة فى ابان حركات الاستقلال ونهضات الحرية والعصبية ، ودعوات الامم المتيقظة من المسلمين الافريقيين وغير الافريقيين ؟ ..

ان القوم قد حسبوا للامر حسابه على ما نفهم من كتاباتهم المتأخرة عن خطر الاسلام فى سواحل افريقية الشرقية وما جاورها من الاقاليم التى ثارت على الاوربيين أو تتحفز للثورة عليهم .. ومن حساب هذا الامر عندهم انهم يدبرون تدبيرهم للتعويل على تلاميذهم الافريقيين فى تبشير اخوانهم الذين بقوا على ديانتهم ، كما يعولون على هؤلاء التلاميذ فى تبشير اخوانهم الذين دانوا بالاسلام من زمن بعيد أو قريب ..

فليست حركة التبشير اليوم تنافسا بين المبشرين والاسلام لكسب القبائل الافريقية ولكنها حملة من التبشير على الاسلام لغزوته فى عقر داره ، واستعانة على هذه الغزوة بمحترفى التبشير الافريقيين تلاميذ المبشرين الاوربيين ، ومحالفة بين الاستعمار والوطنية الافريقية من طريق ملفوف ، لمحاربة الاسلام تارة بدعوة الوطنية وتارة بدعوة الدين ..

هذه الخطة تتبع فى افريقية الشرقية .. وتتبع فى البلاد الاسيوية التى تمكن التبشير من اجتذاب فريق

منها اليه ، فسبيله منذ اليوم ان يجند الافريقيين والاسيويين الحملة على الاسلام فى كلتا القارتين ويتوخى هذه الخطة بعينها كل من يجندون الدعاة لتحويل المسلمين عن دينهم واقناعهم بدعوة الاديان الاخرى أو بدعوة المادية والالحاد ، فانهم يستترون ثم يدفعون أمامهم تلاميذهم الافريقيين والاسيويين ، ويعقدونها محالفة خفية بين الاستعمار من بعيد ، وبين القومية الافريقية أو الاسيوية من قريب

ان هذه « التعبئة » الجديدة توافق ظروف الاحوال كما يقال وتتدارك الازمة التى وقع فيها الاستعمار بعد الصدمات التى لقيها ويلقاها تباعا من شعوب القارتين ، فهو ـ بهذه التعبئة ـ يحاول أن ينقل السلاح من يده الى يد الوطنى الافريقى والوطنى الآسيوى وليس له من عدو يحاربه بهذه اليد أو بتلك غير الاسلام

ولا يبالى خصوم الاسلام أن يتحالفوا عليه ويتهادنوا فيما بينهم الى حين ، مع تلك العداوة اللدود التى تفرق بينهم فى غير هذا الميدان ، لانهم يعلمون أن خطر الاسلام باق لا ينقضى بانقضاء هذه الايام وينظرون الى أخطار الاعداء الاخرين فيشعرون بضعفها الى جانب الخطر الاسلامى المقيم ، أو يشعرون بقوتها ولكنهم يعتقدون أنها عارض زائل يفرغون منه بفعل الزمن ، أو يرجعون الى محاربته على مهل بعد اضمحلاله أو دخوله فى دور الاضمحلال والانحلال

ولنعتبر بالخطر الصهيونى ، وموقف المستعمرين والمبشرين منه حيال اسرائيل ، فان عداوة القوم لبنى اسرائيل أشد من عداوتهم للمسلمين من قديم الزمن ، ولكنهم يعلمون أن قوة اسرائيل خطر مأمون الجانب ويتغلبون عليه كلما جاوز حده ويتحالفون معه كلما

احتاجت اسرائيل اليهم ، واحتاجوا اليهـا ، وسـتظل الحاجة بينهم متبادلة الى زمن بعيد

أما الاسلام فقوته أخطـر من ذلك وأبقى على الـزمن ويوشك أن تزداد خطرا مع اليقظة والتقدم . وأن يزداد الاستعمار ضعفا مع التخاذل بين حكوماته وشعوبه ، فلا تحالف معه على غرض من الاغراض المتبادلة بين الفريقين، وقد يكون خطر المادية والالحاد على المبشرين أكبر وأعنف من خطر الدين الاسـلامى لانه دين ايمـان بالله والقيم الروحية على أية حال . ولكن خطر المادية والالحادحركة مولية لا تعيش ولا يمتد بها العمر ــ اذا عاشت ــ كمـا يمتد الاسلام ..

ولقد علمنا نحن المسلمين ــ آسفين ــ أننا لم نكترث زمنا من الازمان قط بتنظيم دعوات التبشير لنشر العقيدة الاسلامية ، فلنعلم الآن ان المسألة قد جاوزت أن تكون اهمالا لنشر الدين وصارت الى ما هو أسوأ وأدهى : الآن هى مسألة الاهمال فى الدفاع والتسليم بالهزيمة فى ابان فرصة الدفاع ، وقد تذهب هذه الفرصة ولا تعود

قوة العامل العنصرى فى حركة التبشير والاستعمار

أشرنا فى المقال السـابق الى قوة العامل العنصرى فى تعويق دعوة التبشير وتهديد سلطان الاستعمار بالقـارة الافريقية ، وعنينا بهذا العامل أن مسألة اختلاف اللون تعتبر حائلا منيعا بين الافريقيين السود وقبول دعـوات المبشرين وحكومات المستعمرين البيض ، لانهم يقرنونبين مظالم الرجل الابيض وبين كل دعوة دينية يسمعونهـ من قبله ..

وقد كان هذا الحال قائما قبل مائة سنة ، ولـكن

المبشرين والمستعمرين لم يحفلوا به يومئذ كما حفلوا به اليوم بعد سريان حقوق تقرير المصير ، وتيقظ الافريقيين عامةلاكتساب تلك الحقوق . لانهم كانوا أصحاب السلطان قبل مائة سنة فى انظمة الحكم والتعليم ، وكان فى وسع القوة والمال ان ترغما الرعايا على ما تريدان وكان الرعايا أنفسهم على يأس من الخلاص القريب ومقاومة سلطان القوة والمال ..

أما اليوم فالباب مفتوح أمام الرعايا المشتغلين ، وليس هنالك ما يمنعهم أن يعرضوا عن دعوات التبشير والاستعمار ، وأن يقبلوا على الطرف الآخر اذا شاءوا ، وهو قائم يتمثل لهم فى الدين الاسلامى ثم فى المذاهب الاجتماعية التى يحذرها المبشرون والمستعمرون

ولم تمض ايام على كتابة المقال السابق فى مجلة «منبر الاسلام» حتى وصل البريد الاجنبى ــ الامريكى والاوروبى ــ حافلا بالاخبار الهامة عن فعل هذا العامل العنصرى فى كل بلد يقيم فيه عدد كبير من السود والبيض

قالت « نيوزويك » : ازدحمت على المدرج الدولى الكبير فى شيكاغو ــ ذات يوم من الاسبوع الماضى ــ جموع السود الشبان يلبسون الاكسية السود والقمصان البيض والقلائد المذهبة ، ومعهم جموع الشابات ــ أخوات الله ــ يلبسن الاكسية البيضاء ويحيون جميعا ذكرى انقضاء ثلاثين سنة على حركة « وجود الاسلام المفقود بأمريكا الشمالية » وهى حركة يقودها زعيم مختار يسمى (ايليا محمد) ولعلها أشهر حركة من حركات السود المبغضين للبيض ، وان كان التابعون لها لا يمثلون غير جزء قليل من عدد الزنوج بأمريكا الشمالية ، وهم لا يكتمون مساعيهم السياسية ولكنهم يسترونها وراء ستار شفاف من الدعوة الدينية .. ويتجندون عادة من الطوائف غير

المتعلمة ومن المضطهدين المحرومين .. وقد زعم ايليا محمد أن أتباعه يبلغون مائتين وخمسين ألفا من الرجال والنساء ولكن العدد الاصح ـ فيما يبدو لا يزيد على خمسين ألفا .. وقد اجتهد لابسو الاكسية السود فى اقصاء المخبرين البيض ومراسلى التليفزيون لانها المرة الاولى التى يسمح فيها بدخول البيض الى هذه المجتمعات ، وكان على المنصة علم مكتوب عليه : « لا اله الا الله محمد رسول الله » وأحاطت بمكان الاجتماع أعلام كتب عليها : « لابد لنا من نصيب فى الارض » .. و « لابد لنا من وظائف وأعمال »

وقد حضر الاجتماع سبعة آلاف رجل وامرأة من خمسة عشر ألفا كان ينتظر حضورهم ، وأفسح الجانب الايمن للنساء فلم يجلس الرجال فى غير الجانب الشمال ..

وكان من برنامج الاجتماع احياء ذكرى السيد فرج محمد الذى يدين له السيد ايليا محمد بالزعامة ، وقد نهض بدعوة اسلامية سوداء سنة ١٩٢٠ ثم اختفى منذ سنة ١٩٣٠ ولم يعرف له مكان .. وكان اسم ايليا الذى سجل بدفتر المواليد « ايليا بول » وكان ابن قس من الطائفة المعمدانية انتقل أخيرا الى مدينة « ديترويت » وتسمى باسمه الاسلامى من ذلك الحين . وتحسبه اذا رأيته ناسكا متهجدا يفرض على أتباعه اجتناب الخمر والتدخين والمخدرات واقامة الصلوات خمس مرات كل يوم ، وهى آداب توافق أحكام الاسلام التاريخية وان خالفتها فى التمييز بين الاجناس ، وبين السود والبيض الذين يسمون فى لغة ايليا النارية بالثعابين ذوات القدمين ..

« وكان زعماء الاجتماع قد أبلغوا الحاضرين أن الاجتماع كلفهم سبعمائة وخمسين ريالا ، وأن الرجل الابيض

يطالبهم بألفين وخمسمائة ريال استولى عليها ساعة الاتفاق على تأجير المدرج . قال زعيم منهم : انهم يتهموننا بنشر تعاليم العداوة والبغضاء ، وهو منهم تدبير كتدابير (الشيطان) . وقد تولى الرجل الابيض الحكم ستة آلاف سنة ونحن هنا فى آخر الدنيا ننادى بالنصيب الذى كان للرجل الابيض فى ولاية الاحكام ، وعلينا أن نستقل بأنفسنا ولكن ليس من الضرورى أن ننعزل عمن حولنا . ثم انتهى الاجتماع بوقوف الحاضرين للصلاة مستقبلين الكعبة » ..

هذا ما كتبته المجلة الامريكية ..

وقد ورد الخبر فى مجلة « الايكونومست » الانجليزية ــ وهى من أهم مجلات العالم ــ مكتوبا بعنوان « جهاد الزنوج » وزادت على ما جاء فى المجلة الامريكية أن هؤلاء السود يتحدثون بينهم فى انشاء جمهورية مستقلة مع بعض ولايات الجنوب ، وتستمد الحركة قوتها من اقامة اعضائها فى البلاد المركزية مثل شيكاغو ونيويورك وديترويت وملواكى حيث تقيم الطبقة الزنجية الوسطى التى تنبهت لحقوقها فى الزمن الحديث ، وتزيد المجلة الانجليزية تقديرها لعددهم فتبلغ به مائة ألف ثم تقول : « انهم يحرمون الخمر والتدخين ويفرضون التدريب الرياضى على الشبان من الثامنة عشرة الى الثلاثين ، مؤكدين فريضة التعليم .. ويقول العارفون بهم ان شريعة العداوة والبغضاء التى يبشرون بها لا تختلف عن شريعة « الكوكلكس كلان » التى أخذ اسمها من صوت البندقية عند اطلاقها ، ولا عن جماعة « مجالس البيض » ويخشون أن يكون تعصبهم للرجل الاسود معطلا للحقوق الدستورية التى يراد بها تحسين أحوال الزنوج السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. وسيظهر غدا هل هم خطر

على الجنس الاسود أو دعامة من دعامات تقدمه عند تنازع الزعماء على الرئاسة بعد وفاة السيد محمد وهو الان فى الرابعة والستين »

وقد نشرت أخبار هذه الحركة فى صحف أخرى لايزيد ما احتوته على أخبار هاتين المجلتين ، ولكننا نفهم الكفاية من صيغة هذه الاخبار كما روتها كلتا الصحيفتين

وبقى أن نعلم :

(١) أن الدعوة الاسلامية بين السود الامريكيين مفتحة الابواب ، شأنهم فى ذلك شأن السود الافريقيين

(٢) أن الاسلام يستطيع أن يعتمد على العامل العنصرى الذى تحتال هيئات التبشير الان على استخدامه بتدريبها للقساوسة السود على دعوة اخوانهم المسلمين واخوانهم الوثنيين ..

(٣) أن النية متجهة الى انتحال المعاذير « القانونية » للقضاء على هذه الحركة باسم الامن والسلام ، وحجة المسئولين فى ذلك انهم حرموا جماعات البيض التى تستخدم السلاح فى محاربة خصومها ، فلا تفرقة اذن ـ عندهم ـ بين معاملة الجنس الاسود والجنس الابيض

(٤) نعلم من تناقض المجلتين أن أصحاب هذه الحركة لا يجهلون أحكام دينهم ولا يستبيحون التمييز بين السود والبيض وهو ممنوع فى الاسلام . فاذا صح أن لهذه الاشاعة أثرا فمن الواجب على المسلمين فى الشرق أن يتداركوا هذه الحركة بما يعصمها من تعلات المسئولين هناك ، وأن يكون تصحيح هذه الاشاعة علانية بين السود والبيض والهنود الحمر وسائر الاجناس ، ولسنا ننتظر من تبشير هؤلاء الدعاة الغيورين أن يستميلوا الى الاسلام من يستمعون اليهم من البيض ، ولكنهم يفلحون ولا ريب فى مقاومة التبشير الذى يحتال له المبشرون باستخدام

القساوسة السود أمريكيين كانوا أو افريقيين

المبشرون نقاد القرآن

ان العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة فى وقت واحد • فان تقبل العقل ذلك فلابد من سبب يوقعه فى هذا الاضطراب باختياره، واكثر ما يكون ذلك السبب مرضا من أمراض الجنون او هوى دفينا يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها ، او خداعا مقصودا يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه

ولسنا نخطىء فى جماعة المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات • فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ويسول له ان يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، او يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه أن يعرض بضاعته ويهيىء لها أسباب النفاق فى السوق، وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج !

عرفنا فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة علما من أعلام التبشير كانوا يلقبونه « بالرسول المختار الى العالم الاسلامى » ويريدون بذلك أنه تكفل أمام جماعات التبشير بتحويل العالم الاسلامى عن عقيدته ولم يكن يستكثر على همته أن يتصدى لتحويل مكة والمدينة فى مقدمة المعاقل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية

ذلك الرسول المختار الى العالم الاسلامى هو رئيس المبشرين فى الشرق الدكتور صمويل زويمر ، وقد بلغ الخامسة والثمانين وتوفى منذ تسع سنوات (١) ولم يترك بعده واحدا من « المهتدين » بتلك الرسالة يقال فيه بحق انه تحول من الاسلام عن يقين وايمان ، لان تلميذه الذى اجتباه فى القاهرة كان له مرتب يتقاضاه ؛ ولم يرتفع له صوت بعد اعتزال استاذه وظائفه المتعددة فى صناعة التبشير !

ذكرنا بهذا « العلامة » كلام قرأناه له فى كتابه « بلاد العرب مهد الاسلام » وكتاب ظهر أخيرا فى موطنه « عن الطب الطبيعى » كأنما وضعوه عمدا ليردوا به على ذلك الكلام الذى نشره زويمر واعاد نشره خلال ستين سنة ولا يزال مرجعا من مراجع التبشير بين أيدى التلاميذ المتخرجين على يدى ذلك الرسول

قال هذا الرسول الى الاسلام فى فصله عن العلوم والفنون العربية : « ان الشهد لم يزل معدودا كالترياق فى بلاد العرب استنادا الى القرآن والحديث ، وقد كانت الاشارة الوحيدة الى الطب فى وحى محمد هذه الكلمة الغبية التى يقول فيها عن النحل انه « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .. » وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه ! !

ان الدجل المتعمد ظاهر فى قول هذا العلامة « الغبى » ان القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو الشهد .. فان المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة ان الشهد شفاء ولم تقل انه كل الشفاء ولا انه شفاء من جميع الامراض ، فان وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على انه

(١) نشر هذا المقال فى مايو سنة ١٩٦١

دواء من الادوية كما يوصف أى عقار من العقـــاقير فى الصيدليات ..

ومثل هذا الادعاء « التبشيرى » لا يعتسف اعتســافا بهذه الصورةالا للافتراء المتعمدطمسا للحقيقة مع سوءالنية

أما حكم العلامة بالغباوة على وصف « الشهــــد » بالشفاء فليس له معنى غير غباوة مطبقة فى القائل ان كان مصدقا لما قال .. لم لا يكون « الشهد دواء من الادوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار ؟

ان علاج الامراض بالاعشاب والازهار قديم جدا فى كل أمة ، وهو قوام العلاج الى اليـــوم فى اكثر الادوية التى يصفها الاطباء العصريون لضروب شـــتى من الامراض وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة

وهذا قبل شيوع الكلام عن « الفيتامينات » وتقرير العلاج بها للامراض الباطنية وأمراض الاعصـــاب وعلل الضعف والاعياء على اختلافها

فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع ان يصـــف دواء الشهد بوصف غير الغباوة ؟

لمـاذا يرفض العقل ان تكون خلاصة الزهرومستودع « الفيتامينات » والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض ؟ ..

ان « الغباوة » هى عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة او عجزه عن فتح الباب لتصورها على كل احتمال

والى هنا قد تكون الغباوة مفهومة اذا هى تشـــابهت فى سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره ، ولكنهـا « غباوة » تنزل الى ما دون « مستوى الفهم » اذا كان صاحبها يرفض الشهد علاجا ثم يتقبل تطهـير الامراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل ان تكون رائحة الشـــواء سرورا للاله ويتقبل امثال ذلك من أوصاف الكتب التى

يتلوها على الناس ويقدسها صباح مساء

بعد وفاة زويمر ببضع سنوات ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه عن الشهد ما كان زويمر يدعيه على القرآن الكريم ، ويعقدالمؤلفلخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله « صيدلية » وافية تغنى عن عشرات من العقاقير

وليس المؤلف واحدا من أولئك المتطببين الجهلاء ، بل هو الدكتور جارفس الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة

وهو لا يعلل فائدة الشهد فى العلاج « بالبركة » ولا بالتأثير النفسانى المستمد من العادة ولا بالتغذيةالصالحة التى تعمل عمل الدواء وان لم يحسبها الاطباء منالادوية العلاجية ، ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الاطباء والصيدليون فى تحضير الادوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الامراض او تضاعف اضرارها ،

ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن الشهد خاصة انه لا يتكلم عن « نظرية » معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التى أثبتت ان « البكتريا » لا تعيش فى الشهد لاحتوائه على مادة « البوتاس » وهى تحرم البكتريا تلك الرطوبة التى هى مادة حياتها

قال : « ان الدكتور ساكيت استاذ البكتريا بكلية الزراعة في فورت كولنز ·· وضع أنواعا من جراثيم الامراض فى قوازير مملوءة بالعسل الصرف .. فماتت جراثيم التيفويد بعد ثمان واربعين ساعة .. وماتت جراثيم النزلات الصدرية فى اليوم الرابع .. وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات .. وماتت جراثيم اخرى بعد خمس ساعات .. »

ثم استطرد المؤلف الى بيان المواد الغذائية الموفورة في

الشهد فذكر منها الاغذية المعدنية وعد أكثر من عشرةمعادن غذائية تدخل فى تركيبه ، ونقل تقرير الاستاذ شويت Schuette العالم الكيماوى الذى يقول فيه ان الاغذية المعدنية تختلف باختلاف الوان الشهد . فالنحـــــاس والحديد والمنجنيز أوفر فى الشهد الضارب الى السواد .. والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونةللدم أو الهيموجلوبين ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم وهو يشير الى اختلاف الوانه وما احتوته عن اسباب الشفاء ثم اجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى الشهد فعدد منها : (ا) انها لا تهيج جدران القنوات الهضمية و (٢) أنها سريعة التمثيل فى البنية و (٣) أنها تتحول سريعا الى طاقة بدنيـــة و (٤) أنها مناسبة للمشتغلين بالالعاب الرياضيـة لتعويض الطاقة و (٥) أنها بين انواع السكريات أوفقها للكليتين و (٦) أنها مهدئة ملطفة و (٧) أنها مساعدة طبيعية لعمليـــة الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها

ومضى الطبيب فى بيان خصائص الشهد النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ، ولم يذكر فى سائر الفصـــول دواء « طبيا » آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامـــل

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى فذكرت كلمة زويمر عن الآية القرآنية ووجدتها مثالا أصلح من كل مثال لابراز « عقلية المبشر » بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة ، مع عيوب الفدامة والعى فى كثير من الاحيان ولاح لى أن نصيب زويمر من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير . الا انها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه ، بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها لو انه اراد تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام

الذات المحمدية

من تحصيل الحاصل أن يقال ان التفكير العربى قد عجز عن ادراك حقيقة الفتح الروحى الذى جاء به الاسلام فى ركنين من أركان العقيدة الدينية ، وهما فكرة الانسان عن الاله ، وفكرته عن النبوة

فالحقيقة البينة للمسلم المتأمل أن الدين الاسلامى قد ارتفع بضمير الانسان شأوا بعيدا الى ادراكه للفكرة الالهية والفكرة النبوية أو فكرة الرسالة والوحى من الخالق الى خلائقه العقلاء ..

فبعد الايمان باله القبيلة ، أو اله الشعب المختار ، واله الشعائر الوثنية أو الاله الذى يحاسب الناس بحساب القرابين والكفارات ولا يحاسبهم بالتبعة والتكليف ، جاء الاسلام بأشرف العقائد الالهية فعلم الانسان أن يؤمن برب العالمين ، رب الانسانية جمعاء .. رب الانسان الذى لا فضل له بغير عمله ، ولا خلاص له بغير ضميره وعقله

وبعد الايمان بنبوات تقوم هدايتها على الخوارق والمعجزات ، أو على الوساطة فى تقديم القرابين ، أو على الحراسة من الأخطار والنقم ، جاء الاسلام بالنبوة التى تخاطب العقل والبصيرة ، ولا تعول على التهويل بالخوارق والأراجيف ، وعلم الناس أن النبى انسان مثلهم يبشر

وينذر وليس بالمنجم الذى يكشف لهم عن الخبايا ويروعهم بالأعاجيب

ومع هذا التقدم الواسع فى مراحل العقيدة الدينية لم نزل نسمع من المفكرين الغربيين من يقول ان الاسلام لم يأت بجديد فى عالم الروح ، وانه نسخة محرفة من المسيحية ، أو صورة جديدة متوسعة من صور اليهودية ... وانه لخطأ ذريع يدل على التهاون المعيب فى أول واجب من واجبات البحث العلمى وأول واجب من واجبات النزاهة الدينية ، وذلك هو واجب الابتداء بالمقارنة بين فكرة الاله فى كل دين ، ولا حاجة معها الى أكثر من التعريف باسم الاله فى ذلك الدين

نقول : ان تهاون المفكرين الغربيين فى هذا الواجب تحصيل حاصل واعادة قول مفهوم من زمن قديم

ولكن تهاون هؤلاء المفكرين ملحوظ فى أمر آخر لا يزال حسن الظن بتفكيرهم فيه أملا غير بعيد عند كثير منا نحن المسلمين من أبناء العصر الحديث

ذلك الأمر الآخر هو ادراك مواطن العظمة وآيات القدرة فى « الذات المحمدية » أو فى « شخصية » النبى عليه السلام ، كما يقال بتعبير هذه الايام

فمنهم من يرى غاية العظمة فى صاحب الدعوة الاسلامية أنه داعية قدير يتوسل بالفصاحة حينا وبالسيف حينا الى نشر عقيدته بين المنكرين المتألبين عليه

ومنهم من يحسب أنه ينصفه غاية الانصاف حين ينفى عنه الاحتيال والخديعة ويشهد له بالصدق والاجتهاد فى طلب الاصلاح

ومنهم من يشهد له بالقداسة الروحية وينسب النجاح « العملى » بعد ذلك الى أعمال خلفائه الراشدين ، ويخصون بالذكر منهم عمر بن الخطاب رضوان الله عليه

وقد ترى على المفكر منهم دلائل حسن النية ، ولكنه يظن أن الانعام فى التفكير والنظر الى ما وراء الظواهر يتقاضاه أن يقيس قيام الدولة الاسلامية الى العوامل المألوفة في أمثال هذه الأحوال ، وأكثرها راجع عند المؤرخين الى تدابير الزعماء وخطط المتربصين لانتهاز الفرص واستغلال « الظروف » كما يقولون ..

وبين هؤلاء مؤرخ لعله أشهر المؤرخين الغربيين من المعاصرين وهو الدكتور أرنولد توينبى صاحب « دراسة التاريخ » فى أكثر من عشرة مجلدات ضخام

ولعل هذا المؤرخ أسلم المفكرين الغربيين نية عند الكلام على الاسلام ، ولكنه فيما نرى ــ أقدر على الاحاطة بالحوادث والمواقف الاجتماعية العامة منه على الاحاطة بأسرار العظمة في « الشخصيات » النادرة ، ولهذا كان اعتقاده أن قداسة محمد عليه السلام لم تعصمه أن ينساق ــ من حيث لا يدرى ــ الى تحقيق مطامع الزعماء الأمويين ، لأنهم كانوا أعرق وأعرف بتدبير وسائل السياسة والملك من بيت النبى الذى تخصص من قبل عصر الدعوة لشئون العبادة ، ولم يستعد للملك كما استعد لها بيت أبى سفيان بأدوات (الحيطة) والدهاء

قال توينبى في رحلته حول العالم فى فصل كتبه عن الامويين:

« ان المسألة ــ وصلت الى السياسة العملية ــ فكان أمراء التجارة المكيون أكبر من ند لابن بلدتهم العجيب ... وكانوا قد اخفقوا فى صد الاسلام ومنع انتشاره فلم يبق لهم من بديل عن ذلك غير الاحتيال عليه بالانضواء الظاهر اليه » ..

ثم مضى يقول ما فحواه ان زعماء بنى أمية جعلوا محمدا عليه السلام يسوق الدولة الى أيديهم وهم يظهرون خدمته ويستدرجون قريشا الى تجديد زعامتهم كرة

اخرى بعد الخلفاء الأولين ، ولم يذكر المؤرخ متى كان من عمل النبى أن ينشىء بعده دولة وأن يذود عنها بنى أمية وغير بنى أمية من الخلفاء والأتباع

هذه « المناورة » الخيالية فصل من فصول التاريخ المألوف يبحث عن رواة المناظر والمؤامرات كلما بحثوا عن قيام الدول والأسر المالكة ، ويرضيهم كما يرضى قراءهم أن يصوروا أمام الناس بطلين أحدهما طيب مثالى والآخر خبير ذو دهاء « عملى » يستفيد من جهـود الدعوة ثم يحولها بحيلته الى الجانب الذى ينتهى بتحقيق مطامعه وتغليب القدرة العملية على الافكار المثالية ولو بعد حين

ولو أن « شخصية محمد » عليه السلام فهمت حق فهمها لما ورد هذا الخاطر على وهم المؤرخ فضلا عن تقريره وتوسيعه واقامة الدين والدولة فى الاسلام على أساسه

ان تاريخ النبوات لم يعرض لنا قط مثلا للشخصيـة التى تدين لها جبابرة « الشخصيات » كما حدث ذلك فى تاريخ الاسلام والصحابة

فأعظم الأنبياء لم يكن حولهم من أصحاب الشخصيات الممتازة باقتدارها وعزيمتهـا من نسـتغرب طاعتهم لهم وتسليمهم بعظمتهم زمنا يقصر أو يطول كيفما طال

لم يكن حول أحد منهم من أحاط به أمثال الصديق والفاروق وعثمان وعلى وأبى عبيدة وخالد بن الوليـــد وعمـرو بن العـاص وأندادهم من الرؤسـاء والدهـاة والفرسان ، وكلهم قد صلح ـ بعد التجارب الكثيرة ـ لاقامة دولة ، وسياسة أمة ، وخلق تاريخ ، وقيادة جيوش وشعوب ، ورياضة أقوياء وضعفاء

هذه « الشخصيات » القوية الفعالة لم يكن أحد منهم لينظر الى « النبى » طوال أيام صحبته الا كنظرة التلميذ المعجب بأستاذه الى ذلك الاستاذ الموقر المحبوب

ولقد عاش ابن الخطاب ما عاش – وهو أمة فى رجل – يردد نداء النبى له باسم الاخوة لانه ، على عظمته النادرة ، كان يستكثر أن يقول له محمد « يا أخى » وهو يناديه

ولقد قيل عن المقارنة بين « الشخصية المحمدية » و « الشخصية العمرية » ما قيل ، وزعم من زعم من الغربيين أن الاسلام مدين بانتشاره لعظمة عمر بعد قيام النبى بدعوة الرسالة ، ولكن الفارق الشاسع بين محمد وعمر لم يزل جليا بارزا يفهمه كل من يفهم الفارق بين الانسان العظيم والرجل العظيم

ولقد كانت شخصية معاوية تتضاءل الى جانب « شخصية » عمر وكانت شخصية عمر تتضاءل الى جانب شخصية محمد ، بغير تردد يخامر الظن عند ذكرهم على اللسان ، أو عند المقابلة بين عناصر العظمة عند كل منهم وكلّ من أقطاب الصحابة العاملين

والنبوة – ولا خفاء – شرف عظيم تدين له الرءوس والقلوب ، لكن النبوة وحدها بغير « شخصية » تناسبها لم تكن كفيلة لذات النبى بهذه الهيبة وهذا الحب والاعجاب جيلا كاملا حافلا بالعظائم والتجارب مزدحما بأطوار النصر والهزيمة ، وعوارض الرجاء والقنوط ، فلو لم يكن محمد يملك من صفات القدرة والشجاعة والبلاغة والتدبير والمهابة وحسن الأثر فى النفوس والعقول نصيبا أوفى من نصيب اصحابه واتباعه لما دانت له هذه الأطواد الشوامخ بالتطامن والاطمئنان ، ولما انقضى الزمن على هذه الصحبة دون أن تظهر فوارق الصفات الشخصية الى جانب فوارق النبوة وفوارق الدعوة وما تقتضيه من الاصغاء بوحى الايمان ، دون وحى العاطفة والبديهة

فالصحابة حول موسى عليه السلام لم تبق لهم سيرة تدلّ على عظمة خارقة يستكثر عليها أن تدين بالطاعة

والولاء لمن هم دون موسى أو دون هارون فى صفات الرئاسة والتعليم ٠٠ والحواريون حول عيسى عليه السلام لم يكن أحد منهم ليرتفع الى مكان الظن بالمشابهة أو المقاربة بينه وبين هذا الرسول الكبير

ولكنك تذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وابن الوليد وابن العاص وأبا عبيدة وغيرهم وغيرهم فتذكر فتوح بابل وفارس وبيزنطة ومصر ، وتذكر سياسة الدول وقيادة الأمم وحكمة الرأى وشجاعة الاقدام والأناة ، ثم تعود الى حضرة النبى لتتخيل هؤلاء جميعا تابعين مطيعين يأوون الى جناح النبى كما يأوى البنون الى الأب الأمين فلا يسعك الا أن تحس من وراء الزمن جلال هذه « الشخصية » وأن تدرك المسافة الشاسعة بين ذلك الرأس الرفيع وبين تلك الرءوس التى تطامنت لديه ، وكلها ـ على هذا ـ مرتفع ممعن فى الارتفاع آفاقا على آفاق

ان النبوة المحمدية صفة الهيبة تولى صاحبها من القداسة ما يوحيه الايمان وتوحيه طاعة الاله

وبعد ذلك عظمة انسانية راسخة القرار رفيعة الذروة ، تهول الناظر اليها ولو كان فى عظمة الصديق ، والفاروق ، وذى النورين ، والامام ، وسيف الاسلام واخوانهم الأفذاذ بين عظماء الأمم وأعلام التاريخ

تلك عظمة « الذات المحمدية » : عظمة « الشخصية » التى استحقت من الله أن يجعل فيها رسالته كما جاء فى الكتاب المبين . ولن يستطيع مفكرو الغرب أن يخلصوا من مألوفات التاريخ و « مناوراته » التقليدية الا أن يدركوا كيف جاوزت هذه العظمة كل مألوف ، وكيف استطاعت بوحيها الالهى مع وحيها الانسانى أن تكسب تلك المكانة العليا بين أصحاب أقطاب ، كل منهم يضيق به أفق الاكبار والاعجاب

الاسلام والجماعة المتحدة

هذا اسم كتاب صدر في هذه السنة باللغة الانجليزية لمؤلفه الاستاذ «مونتجومري وات» عميد قسم الدراسات العربية بجامعة «أدنبرة»

وفضيلة هذا الباحث في دراساته الاخيرة أنه تخلص من آفة التفسيرات المادية للتاريخ ، وعرف مكان « الظروف » الاقتصادية في تطور الحوادث وتطويرها ، فلم يجاوز بها حدها ولم يجعلها أساسا لكل حركة اجتماعية تحدث في هذا العالم الحافل بأسبابه وأسراره ؛ فليست الحوادث الكبرى عنده معزولة عن العوامل الاقتصادية ولا عن عوامل المعيشة اليومية ، ولكنها تختلط بها وتؤثر فيها الى أمد محدود ، ويجب على المؤرخ الباحث أن يصل بها الى هذا الامد ولا يزيد عليه

ومن « أبسط » أمثلته على ضرورة الالتفات الى العوامل الروحية ، وعوامل العقائد والموروثات الفكرية ، أنه يذكر حركة التجديد التي ارتبطت بانشاء مدارس المبشرين في الشرق الاوسط ، ويذكر أثرها في دعوات الثقافة ومذاهب التحرر ، ويذكر اختلاف النظرة الى هذه المدارس بين المسلمين وغير المسلمين من أبناء الشرقين الاوسط والادنى ، ثم يقرر أن اختلاف هذه النظرة كان له أثره في دعوات الثقافة ومذاهب التحرر بين الطوائف والجماعات وليس لهذا الاثر من سبب غير العقائد والموروثات الفكرية ، مع التشابه في ظروف المعيشة وأطوار الاقتصاد بين جميع السكان المسلمين والمسيحيين

وعلى هذه القاعدة من تحديد عمل « الظروف » الاقتصادية بحث الاستاذ مونتجومري عوامل نشأة

الاسلام وعوامل « الوحدة » التى امتازت بهـا الدعوة المحمدية وجعلها المؤلف موضوعا لكتابه ، وان كان قـد وقف بها عند نهاية القرون الوسطى ولم يتقدم بها الى العصر الحديث ..

وأهم وجهات النظر فى المبحث كله أن المعركة بين محمد عليه السلام وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بـين حركة تجديد وحركة تجديد أخرى ولـكن فى طريقـين مختلفين ، بل متعارضين .

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحاضرة التجارية ، وكانت ثروة الارباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية فى مكة وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية الى أخلاق السادة المنعمين فى الحاضرة ، بين أناس من عشائرهم وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ولا يشاركونهم فى نعيم الثروة ولا فى عزة السطوة ، فهم — كسادتهم — غير محافظين ، وغير مطمئنين الى ما هم فيه ، وان كانوا يخافون التغيـير المجهول ولا يسلمون زمامهم للمصلحـين على غير ثقـة بعاقبة هذا التغيير .

فلم يكن السادة ولا العبيد — اذن — محافظـين على القديم كما زعموا لاقناع انفسهم بمحاربة الدعوة المحمدية ، وفاء منهم لآبائهم وأجدادهم ورعـاية منهم لأربابهـم ومعبوداتهم .. بل كانوا جميعا يتحولون من سنن أولئك الآباء والاجداد فى معيشتهم وأخـلاقهم ، ويأخذون فى معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة ، وأملها الاكبر زيادة الثروة والسطوة ، وحقيقتها الواقعة هى حقيقة كل « متعة حسية » يجور صاحبها على نفسه ويجور على المحرومين منها باختياره وبغير اختياره ، وهذه هى الحياة التى وصف

القرآن الكريم أصحابها . فقال انهم اتخذوا الهوى الها « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون »

أما التغيير الذى جاءت به الدعوة المحمدية فقد أفلح واستقر لأنه أعطى النفس الانسانية ـ كما أعطى الجماعة كلها ـ حياة أفضل من حياتها وغاية أحق بالسعى اليها من غايتها ..

ليس متاع الحياة الدنيا غاية حياة الانسان لأن متاع الحياة الدنيا غرور وضلال بغير الباقيات الصالحات

وليس المجتمع الانسانى سوقا للسادة والعبيد ، ولكنه « أمة » تهتدى بامام واحد أو امامة واحدة ، وقبلتها التى تؤمها وتستقيم على الجادة ما دامت مستقيمة عليها هى قبلة الخير والتقوى ، يتساوى فيها العاملون الصالحون ولا يستأثر بها صاحب الثروة والسطوة أو تستأثر بها من حوله عصبية الاسرة أو العشيرة ، وزعامة البادية أو الحاضرة ..

ويقول الاستاذ مونتجومرى ان فكرة « الامة » كما جاء بها الاسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى « الوحدة » فى « أمة » واحدة تختفى فيها حواجز الاجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة ، وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين اتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الامة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفى الغرباء عنها

وتساءل المؤلف : أكانت العقيدة الدينية ضرورية لخلق فكرة « الامة » بهذا المعنى ؟ ألم يكن فى وسع الزعامة العظيمة أن توحد بين العرب بسلطان « الشخصية » المطاعة المحبوبة ثم تدع هذه الوحدة تضم اليها من يضمه الدين من غير أبناء الجزيرة ؟

ورأى المؤلف أن فكرة « الامة » هى التى راضت رجلا مثل عبد الله بن أبى لقبول الرئاسة الدينية ولم يكن ليقبلها لو كانت رئاسة محمد رئاسة دنيوية ، وأن فكرة الامة هى التى جعلت أناسا من الفرس يؤمنون بأنهم أحق من بنى أمية بنصرة الخلافة الاسلامية على قواعد المساواة بين جميع المسلمين ، وان فكرة الامة هى التى جددت للبلاد الاسلامية فى كل عصر « قبلة » تلوذ بها وتهتدى بهداها وهى التى بثت فى صدور المسلمين أنهم « أمة » واحدة أمام الغزوات الأجنبية

ويقول المؤلف ان عقيدة الاسلام تزود ابناءه فى كل عصر « بالصورة المحركة » التى ينظرون اليها ويترسمونها ، ويسمى هذه الصورة المحركة بالانجليز Dynamic Image أى « الطيف » أو المثال الذى يحفز السائر الى الحركة والتقدم ويهون عليه مشقة الطريق ، وأقرب من ذلك باللغة العربية أن نسميها « القبلة الموجهة » أو القبلة المستجابة؛ لانها كلمة موافقة لشعائر الاسلام

وسر هذه القوة فى العقيدة الاسلامية انها منحت الفرد مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن اصحاب السيادة ، وانها — مع هذا الاستقلال الفردى — لم تترك الجماعة بغير وجهة تصمد عليها ، فأبدعت لها فكرة « الامة » وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة ،

فأصبح معنى « الأمة » قابلاً للتطـــــور مع الحوادث و « الظروف »

ونرى نحن أن صاحب كتاب الاسلام والجماعة المتحدة قد أصاب فى التنويه بمعنى « الامة » فى العقيدة الاسلامية واعتباره أنه معنى فريد خلقته العقيدة الاسلامية ولم يكن له مرادف بمعناه فى لغة من اللغات قبل لا بعد الاسلام ..

فكلمة « ناشن » Nation التى تقابل هذه الكلمـــة باللغات الاوربية مأخوذة فى أصلهـــا من معنى الولادة ، ومفادها أن الولادة فى مكان واحد هى الرابطة التى تكسب ابناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية

وكلمة « بيبول » People تقابل عندهم كلمة الشعب احيانا باللغة العربية وترجع أصـــلها الى الســـكن والاقامة ..

وكلا المعنيين ـ معنى الولادة ومعنى السكن ـ قـاصر عن الدلالة على « القومية » كما يفهمها علماء التعريفـــات الاجتماعية والسياسية فى عصرنا الحاضر .. وأصح منها أن تكون رابطة الأمة هى رابطة الاشتراك فى وجهة عامة كما سبقت بها دلالتها فى الآيات القرآنية ..

الا اننا لا ننسى فى هذا المقام أن نعود الى الناحية اللغوية لنعرف مدلول اللفظ فى اللغة ومدلوله فى الاصطلاح بعد الدعوة المحمدية ..

فاستقبال الجهة أصيل فى كثير من الكلمات التى تفيد معنى الوحدة الاجتماعية باللغة العربية وان قل عـــددها بالنسبة الى الاقوام الكثيرين

فالقبيلة ـ وهى أصغر من الامة ومن القوم ـ تطلق على الذين يستقبلون جهة واحدة فى السكن والمرعى ..

والفئة ــ وهى أصغر من القبيلة ــ تطلق على الذين يفيئون الى ظل واحد

والقوم ــ وقد يكونون قبيلة كبيرة أو قبائل متعددة على عهد بينها ــ هم كل جماعة « يقومون » معا فى أمور الحرب والسلم ، ويغلب ان يكون قيامهم معا بأمور الحرب أعم فى بداية الامر من القيام معا بسائر مهام المعيشة ، ولهذا كان المفهوم من القوم « أولا » جماعة الرجال دون النساء ، قبل أن تعم الرجال والنساء أجمعين

فمعنى الوجهة أصيل فى اللغة العربية للدلالة على وحدة الجماعة ، ولكن القرآن الكريم قد جاء بكلمة الامة فى معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التى تحيط بشعوب كثيرة ..

فمن هذه الدلالة القرآنية لزمت وحدة الوجهة معنى الامة فى مواضعها الكثيرة ، وحق لمؤلف كتاب « الاسلام والجماعة الموحدة » أن يعتبر هذه الفكرة ــ فكرة «القبيلة» الروحية ــ عصمة من التفرق وينبوعا لكل دعوة ترد الى حظيرة الاسلام كل من يخالفون الجماعة باسم « الوحدة » وسعيا الى التوفيق ، فقد تعلقت آمال المسلمين على الزمن بهذه القبلة الموثوقة ، كأنها الافق المشرق الذى لا يغيب عنه الضياء ، ولا ينقطع دونه الرجاء

الإسلام والنظم الاجتماعية

مما يعده بعضهم من مآخذ الاسلام أنه دين تشريع ومعاملات ، ولكنه لم يأت للناس بنظام مفصل للشئون الاقتصادية أو للحياة السياسية

ويسرع بعض المسلمين الى تفنيد هذه المآخذ كأنها اتهام يتطلب الدفاع ، قبل ان يحققوا التهمة لذاتها ويكشفوا عن موضع المؤاخذة فيها ، وهم اجدر ان يرجعوا الى القائل الناقد ليسألوه : وهل يناسب جوهر الدين ان يفصل للناس نظم الاقتصاد او نظم السياسة تفصيلا مبرما يتبعون نصوصه كما فرضت عليهم ولا يملكون التصرف فيها بمشيئتهم بعد تقريرها بحكم العقيدة وأصول التشريع ؟ ..

ان أحوال المعيشة الاقتصادية والنظم السياسية تتقلب من زمن الى زمن وتختلف بين أمة وأخرى ، فيصلح لهذا الزمن ما لم يكن صالحا قبل خمسين أو ستين سنة ومما ليس بصالح بعد خمسين أو ستين سنة أخرى . فكيف يتقيد الناس فيها على اختلاف الازمنة بفريضة من الفرائض يدين بها الناس مئات السنين ، وتثبت مع الدين ثبوت العقيدة التى لا تتزعزع مع الأيام ، ولا تساوى شيئا فى موازين الاديان ان لم يكن لها هذا الثبوت وهذا الدوام ؟..

انما يناسب الدين أن يبين للناس قواعده التى يستقر عليها كل نظام صالح يأتى به الزمن ، ولا عليه بعد ذلك أن تختلف هذه النظم بين أمة وأمة فى العصر الواحد ، أوتختلف

فى الامة الواحدة بين عصرين ، ومن الامثلة التى يحسن ان نذكرها كلما ذكر الدين وذكرت نظم الاقتصـــاد أن الحياة الاقتصادية قامت فى الغرب زمنا على رءوس الامـــوال وفوائدها التى يدور عليها عمل المصارف والشركات ، وأن بلاد الغرب شهدت بعد ذلك ثورات اجتماعية قامت على تحريم رؤوس الاموال مهما تكن وسائلها الى تقرير الفوائد واستحقاق الارباح . فهل كان على الاسلام أن يبدل عقائده بين هذين المذهبين خلال جيلين متعاقبين ؟

كلا . وليس عليه أن يبدل هذه العقائد اذا تبـــدل المذهبان معا وجاء بعدهما مذهب ثالث غير الذى يقـدس رؤوس الاموال وغير الذى يحرمها وينظر اليها نظرته الى الرزق الحرام

وانما أقام الاسلام قواعد الاقتصاد التى يقام عليها كل نظام صالح ولا يتصور انها تناقض نظاما منها كان بالامس أو يكون بعد زمان طويل أو قصير

قرر الاسلام ان يمنع الاحتكار وكنز الاموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتـــداول المجتمع الثروة ، ولا تكون دولة بين الاغنياء ، وقرر ان تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءا من ثروة الامة كلها ، وقد يزاد عليها بأمر الامام واحســـان المحسنين ..

واذا تقرر هذا فى مجتمع انسانى فلا حرج عليه أن يتخذ له نظاما من نظم المعيشة الاقتصادية كيفما كان ،ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال واهمال العاجزين عن الكسب والعمل ومن شاء فليسم هذا النظام بما شاء من الاسماء

كذلك فرض الاسلام أن يقوم الحكم على أســـــاس الشورى ، وأن يقوم التشريع على اساس الكتاب والسنة

واتفاق الامام والرعية ولا ضير بعد ذلك أن يتبعوا هذا النظام أو ذاك من نظم الانتخاب أو يعملوا بهذا الدستور أو ذاك من دساتير الحياة النيابية ، فكل نظام صالح ما دام قائما على الشورى مؤيدا بسند من مشيئة الامام وأولى الرأى أو حقوق الجماعة ..

فاذا كانت مآخذ الاسلام عند نقاده أنه اتبع حكمته ولم يتبع حكمتهم فلا حاجة بالمسلم الى الدفاع عن دينه ، لأن دينه لم يخطىء سبيل الهداية الدينية ، ونقاده هم المخطئون ..

واذا كان للمسلم عمل واجب فى مناقشة أولئك الناقدين فعمله الواجب هو بيان (القواعد الاسلامية التى يقوم عليها كل نظام فى المعيشة الاقتصادية وفى الحياة السياسية، وانه لعلى يقين أنها هى القواعد التى يوافقها كل وضع سليم يأتى به الزمن من أوضاع الاقتصاد والسياسة)

اننا نحمد هذا الصنيع لكاتب اوربى فاضل دان بالاسلام منذ خمس وثلاثين سنة ودأب منذ اسلامه على تصحيح أخطاء الاوربيين وابطال مآخذهم بالحجة التى تصلح للاقناع وتقضى حق الدفاع كلما وجب الدفاع ، وقد لازمة التوفيق فى أكثر ما قرأناه له وآخره كتابه الجديد عن مبادىء الدولة والحكومة فى الاسلام ، وقد وسع فيه آراءه التى بسطها فى هذا الموضوع قبل بضع عشرة سنة، بعنوان (تشريع الدساتير الاسلامية) وأصدرها يومئذ باللغتين الاردية والانجليزية

ذلك الكاتب الفاضل هو الاستاذ ـ ليوجولد فايس النمساوى ـ الذى تسمى باسم (محمد أسعد) بعد اسلامه وألف فى الموضوعات الاسلامية كتاب (الاسلام على مفترق الطرق) وكتاب (أصول الفقه الاسلامى) وكتاب (الطريق الى مكة) ، ثم الف هذا الكتاب الاخير وعهد فى

نشره الى جماعة اسلامية بمدينة كراتشي فنشرت ترجمته الاسلامية على يد جماعة البحوث الشرقيـــة بجامعـــة كاليفورنيا ، ومن مقدمته نعلم ان المؤلف يفرق بين نظـام الحكم الذى يقوم على قواعد الدين ونظام الحكم الذى يقوم على غير هذه القاعدة بفارق أصيل عظيم الخطر فى شئون الامم : وهو الموازنة بين اعتبار القيم الاخلاقية فى التشريع أو اعتبار الظروف العارضة فيما تتناوله الشريعة من الاداب والمعاملات . فاذا توافرت قواعد الاخـــلاق السليمة فليست التفصيلات الجزئية ولا الاجراءات المتغيرة مما يقرره الدين بالنصـــوص التى تحجر على الامم أن تتصرف فى شئونها على حسب المواطن والازمنة ، ما دامت تحتفظ بمقومات العقيدة ولا تنقدها

قال الاستاذ اسعد فى فصل كتبه عن مـــدى التشريع الاسلامى : ان القوانين الاسلامية تقوم ــ مع القرآن والسنة ــ على القياس وفتوى اهل الذكر ومشيئة الاجماع ، وان القرآن الكريم يقول للمسلمين (لكل جعلنا منـــكم شرعة ومنهاجا) ليسلك كل مسلم طريقه على حسب المنهـــاج المبين ، فهو أمين على ضميره فيما يختاره من أحكام الدين التى شرعها الكتاب اجمالا ولم يذكر تفصيلات الامثـــلة عليها ، ولكننا اذا رجعنا الى تفصيلات الحـــكومة التى يسميها الغربيون (ديمقراطية حرة) وجدنا انها الىالاسلام أقرب منها الى (الديمقراطية) اليونانية التى استعيرت منها هذه الكلمة

قال ما فحواه : ان أول ما ينهى عنه الاسلام أن يقــوم الحكم على أساس العصبية ، ومن أحاديث النبى قوله عليه السلام : (ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منـــا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) ٠٠ والكتاب يقول : (وأمرهم شورى بينهم) والرسول يقول :

(أن الله لا يجمع أمتى على ضلالة) .. ويقـــول : (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصـــانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ومن يعص الامير فقد عصانى) . ويقول : (اتبعوا السواد الاعظم) فهذه جملة قواعدالحكم فى الاسلام : سلطان لا يقوم على عصبية ، بل على شورى يغلب فيها أجماع السواد الاعظم وتجب فيها الطاعة لمـن يتولى الامر كما تجب لله والرسول ..

واستطرد المؤلف الى تفسير قوله تعالى : (وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) فقال ان النبى عليه السلام سئل عن معنى « العزم » فى هذه الاية فقال انه (مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم) وانه صلوات الله عليه قال مرة لابى بكر وعمر رضى الله عنهما (لو اجتمعنـــا فى مشورة ما خالفتكما) ووضح عمل الوزير مع الامير فقال : (اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد به غير ذلك جعـــل له وزير سوء اذا نسى لم يذكره ، واذا ذكر لم يعنه)

أما الواجب بين الامير والرعية فقد شرحه المؤلف شرحا وافيا فأورد من أحاديث النبى قوله عليه السلام : (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)وقوله:(لاطاعة فى معصية انما الطاعة فى المعروف) وقوله : (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر ، فانه ليس أحد يفارق الجماعة فيموت الا مات ميتة جاهلية) .

وزبدة الاوامر والنواهى جميعا فى هـــذا الواجب بين الراعى والرعية انه الامر بالمعروف ، والطاعة فى المعروف، والحذر عند الخلاف من تفريق الجماعة

وعصمة الجميع أن يستمع الراعى والرعية الى النصيحة من القادرين عليها :(ولتكن منـــكم أمة يدعون الى الخير

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون)
أو كما قال عليه السلام (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف
ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من
عنده ثم لتدعنه ولا يستجيب لكم)

وان على الامة أن تغير ماتكره من شأنها فانه (ما من
قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ثم
لا يغيرون الا يوشك أن يعمهم الله بعذاب) وانه على الامير
ألا يبتغى الريبة فى الرعية لان (الامير اذا ابتغى الريبة فى
الناس أفسدهم) والخير كل الخير فى الجماعة المفلحة ان
تتساند وتتعاون وانما (المؤمنون كرجل واحد ان اشتكى
عينه اشتكى كله ، وان اشتكى رأسه اشتكى كله ، ترى
المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد ،
اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)
وفصول الكتاب كلها حافلة بالشواهد من الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية فيما يختاره الاسلام من نظم
الحكومة والدولة اراد بها المؤلف أن يقرر عناية الاسلام
بهداية الجماعة الى نظامها السياسى كما ينبغى أن يهدى
اليها الدين الذى يؤمن به الناس على توالى الازمنة
واختلاف البلدان ، فهو يقيم لها القواعد ويدع لها ان تبنى
عليها ما شاءت من بناء يستقر بدعائمها ولا يخرج من أساسها

وقد كان فى هذا الكتاب جواب حسن لمن يأخذون على
الاسلام انه دين تشريع ومعاملة ولكنه لم يأت للناس بنظام
مفصل للشئون الاقتصادية او للحياة السياسية ، فليس
فيما زعموه مأخذ على الاسلام الا أن يساء فهم الدين على
حقيقته الباقية ، فانه فى شئون الزمن المتلاحق مصباح
ينير الطريق لمن يبصرون ، وليس بالقيد الذى يقاد به من
يهديه معصوب العينين مكتوف اليدين

هل يتم الاصلاح فى الاسلام بموافقة القرآن أو على خلاف أحكامه ؟

وصلت الى فى البريد نشرة من مجلة آبراهين Preuves التى تصدر بباريس ومعها بيان موجز عن دراسة اسلامية تتلخص فيما يلى :

يسأل الاستاذ جاك أوسترو **Austruy** فى كتابه عن مواجهة الاسلام للتطور الاقتصادى ، هــل يجب على المسلمين وهم بسبيل النهوض أن يحققوا نهضتهم خلافا لتعاليم الاسلام ؟ أو هم مستطيعون أن يحققوها وفاقا لتلك التعاليم ؟ ..

ويرد الاستاذ فرنسيس نور على هذا السؤال فيقول : ان الفكرة الرئيسية فى الكتاب تجعل نظام راس المال ونظام المادية الاقتصادية مدار الاختيار لمن يطلب التقــــدم الاقتصادى ، ولكن المسلم المصلح غير مضطر الى اتبــاع أحد النظامين لانه يستطيع أن يتبع نظاما ثالثا (من صميم تعاليم الاسلام) كما يقول صاحب الكتاب

وهو لا يرى أن المسلمين شعب واحد بل شـــعوب متعددة لا تعوزها موارد الثروة الا انه يستحسن أن تقــلع الدساتير عن فكرة « ان الاسلام دين الدولة » كما أقلعت عنها الدساتير التى فصلت بين الامور الدينيــة والامور الدنيوية ، ولا يوافقه الاستاذ فرنسيس على هذا الرأى ولكنه لم يبين أسباب معارضته ولا الأسباب التى تعزز الرأى المقبول فى نظره

هذه هى خلاصة المساجلة بين الاستاذين فى موقف الاسلام من مواجهة النظم الاقتصادية الحديثة

وتعليقنا عليه ان المسلم لا يشعر بالحرج الذى يضطره

الى الاختيار بين النظامين المذكورين ، ولم يشعر بهذا الحرج قبل العصر الحاضر يوم وقفت به المواجهة أمام نظم أخرى كنظام الفروسية أو نظام الاقطاع او نظام الصناعة الكبرى أو نظام الاستعمار ، لأن الاسلام لم يكن خطـــة اقتصادية تقيد الامة ببرنامج محدود تخرج على الدين اذا هى خرجت عليه ، ولكنه عقيدة انسانية تقيم للمسلم أصول الحلال والحرام وتدع له الحرية التامة بعد ذلك فى اختيار التفاصيل الموقوتة على حسب الازمنة والمصالح والشعوب وعلاقات الامم والحكومات

ولا يعاب الاسلام بذلك ، لانه هو الشرط الاول من شروط الدين الذى ينبغى قبل كل شيء أن يتكفل للمؤمن باستقرار اليقين وبالطمأنينة الروحية فى مواجهة الاطوار والتقلبات ، ومنها زعازع التناقض بين النظم الاقتصادية واضطراب المصالح مع تجدد الطبقات وتبدل العلاقات

فالدين الذى يضطر المؤمن الى تغييره مع كل نظـــام اقتصادى يطرأ على المجتمع أو على العالم كله انما هو زى من الازياء العارضة وليس بالدعامة الروحية التى تكفـل للانسان فضيلة الثبات أمام الطوارىء والغير ، وتفتح له باب الرجاء كلما تطرق اليه اليأس بين نظام فاشل ونظام مرهون بالتجربة أو للشكوك فى عقباه الى حين

والتضارب بين نظام رأس المال ونظام المادية الاقتصادية خير جواب على من يطالبون الاسلام بمجاراة النظم الحديثة كلما تقلبت بها أطوار الاجتماع ؛ فقد كان نقـــاد الاسلام بالأمس يزعمون ان حياة الامم رهن بنظام المعاملات التى تقوم على الشركات والمصارف واستغلال رءوس الاموال والارباح ، وأن الاسلام يغل أيدى المسلمين ويعوق حـركة التقدم لانه لا يقيم المعاملات كلها على هذا النظام ، ثم شهد العالم نظاما آخر ينكر رءوس الاموال أصلا ويبطل الملكيـة

مالا وأرضا وعقارا ، ويطلب من الاسلام أن يصنع صنيعه في مواجهة الازمات العصرية ، ولا يعلم أحد الى أى أمد يطول بها البقاء ، وعلى أى حال من الاحوال تتطـــور بين اليوم والغد القريب .. وبين هذا وذاك تظهـــــر النظم الفاشية والنازية على شتى الاوضاع والاشكال

فكيف كان الاسلام يؤدى حق الدين لو أنه تقلب بين هذه النظم الطارئة عليه ؟ وكيف كان يجمع بينها أو يحض المسلمين على اتباعهافى مواطنها وعهودها ؟

انه لم يصنع ذلك ، وحسنا صنع ، وانه بذلك يظل دينا للمجتمعات الانسانية بين عصر وعصر ، ولا يضطر المسلم الى الخروج من عقيدته بين حقبة وأخرى ، بل لا يضطره يوما الى ذلك السؤال : هل يجب عليه أن يترك الاصلاح أو يحققه على خلاف أحكام القرآن ؟

وليس معنى ذلك أن الاسلام ينفض يديه من مهمـــــة الاصلاح الاجتماعى فى زمن من الازمنة كان أو يكون ، ولكن معناه أنه يقرر للانسانية أصولا لا يتحقق لها صلاح بغيرها ، ثم يفوض للعقل الانسانى كل الرأى فى اختيار ما يلائمه من تفاصيل الاصلاح ، غير مقيد له بفرع من الفروع المتجددة ما دام أمينا على تلك الاصول

كانت نشرة المجلة الفرنسية فى طريقهـــا الينا ونحن نكتب لمنبر الاسلام مقالا عن الاسلام والنظم الاجتماعيـــة وفيه نقول : (انما أقام الاسلام قواعد الاقتصاد التى يقام عليها كل نظام صالح .. فقرر أن يمنع الاحتكار وكنز الاموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دولة بين الاغنياء ، وقرر أن تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءا من ثروة الامة كلها . وقد يزيد عليها بأمر الإمام واحسان المحسنين .. ولا خوف على مجتمع قط يمتنع

فيه الاحتكار والاستغلال وأهمها العاجـــزين عن الكسب والعمل ..

ونعـود ـ بعد الاطلاع على مساجلة الاستاذين أوسترو وفرنسيس ـ فنقول : انهما على حق فيما قرراه من امكان المسلم أن يواجه الاصلاح الاجتماعي بغير اضطرار الى مجاراة نظام رأس المال على علاته أو نظام المادية الاقتصاديه على علاتها ، ونزيد على هذا الرأى الصواب أن الاسلام يتأتى له ذلك دون أن يتقيد بنظام محدود يتبدل غدا كما تبدلت النظم بالامس أو تتبدل أمام أعيننا اليوم فى بلاد المغرب والمشرق ، وحسبه أنه يمنع الاحتكار والاستغلال ، ويحمى الضعفاء والمحرومين ، ليوفر للمجتمع خير ما يحتاج اليه من صلاح واصلاح ويوفر للفرد خير ما يحتاج اليه من عمل وأنفع ما يقدر عليه من جهود

ان القرآن صريح فى النهى عن كنز الذهب والفضة ، صريح فى الامر بتـــــداول المال (كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم

وان القرآن صريح فى منع الاستغلال ولا سيما الاستغلال بافساد الحكم والسيطرة على الحكام : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون)

وان القرآن يأمر بالاحسان ، ويفرض الزكاة وهى تخول الذين يستحقونها جزءا من أربعين جزءا من الثروة العامة لا من ثروة الربح وحسب ـ فى العام وبعد العام

ومن شاء فليتخيل نظاما اجتماعيا يبطل فيه الاحتكار ويبطل فيه أكل الاموال (بالباطل) ويأمن فيه المحروم على قوته ومعاشه ، ثم يتخيل موضعا فيه للانتقاد من ناحية الصلاح والاصلاح

ان عقل الانسان ليعجز هنا عن نقد الحياة الاجتماعية

فى أصولها ، الا أن يكون من عبيد الحروف والعبـــارات المرصوصة على غير روية

وان (الضمير الدينى) ليهدى العقل هنا غاية الهداية التى تطلب من الدين القويم دون أن يربطه بالقيود الغاسرة أو يكرهه على الجمود المعطل عن التصرف والتصريف ،وعلى هذا الضمير الدينى تقوم رسالة الدين التى تعلو مع الزمن على نظم الاقتصاد وبرامج الساسة وشقاشق الاسماء من دعوة تلهج بالديمقراطية أو صيحة تلغط بالمادية ، أوحذلقة تتعلق بأطراف المبادىء وأهداب القواعـــد والنظريات ، وتحسب أن (الانسانية) بنت يوم وساعة ، وأن (الضمير الانسانى) زى من أزياء الامم يلبس مع الصباح ويخلع قبل المساء ..

أما مسألة الدين والدولةفى الاسلام فقياسها علىالاديان الاخرى قياس مع الفارق الكبير كما يقول المناطقة ، ولا سيما الاديان التى توجد فيها الكهانة الدينية ، أو توجد فيها طائفة من أصحاب الرئاسة الدينية تتولى الوساطةبين العباد والمعبود ، وتدعى لنفسها ــ من ثم ــ حق الاشراف على المدرسة والمحكمة والهيكل والمدفن ، كما تدعى لنفســها حق (التطويب) لكل سلطة ولكل قانون ، ولا وجود فى الاسلام لهذه الكهانة ولا للوساطة كيفما كانت بين العباد والمعبود ، فليست مسألة الفصل بين الدين والدولة فى الاسلام بالمسألة التى تصطدم بحق الراعى أو حق الرعية على الوجه الذى عرف فى تاريخ هذه المسألة عند الامم الاوربية ، وليست هى المشكلة المعروضة للبت فيهـا بين شعب من الشعوب الاسلامية

بين البحث والتخمين

قرأت في عدد شهر ربيع الاول في منبر الاسلام مقالا لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي بعنوان « تفسيرنا للقرآن لا يكون بالتخمين » يقول فيه من مبادىء عامة يقررها « ان القرآن عربى وأسلوبه خاضع للقواعد العربية » ثم يقول عن قصة خلق آدم :

(فالله تعالى يخبرنا فى سورة «ص» بحديثه مع الملائكه : « انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »)

والمبدأ الاول الذى يقرره الاستاذ — ويقرره مع فضيلته كل باحث فى معانى القرآن الكريم — هو أن قواعد اللغة العربية تقضى « بأن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر الا لضرورة تقتضى ذلك » .. والا كان صرف اللفظ عن معناه ضربا من التخمين

وهذا — كما تقدم — مبدأ يقرره مع الاستاذ كل باحث فى معانى القرآن الكريم وفى معانى اللغة فى كل كلام مفيد

وانما يحتاج الامر الى التعريف بالتخمين ما هو ؟ وما الفرق بينه وبين البحث عن المعانى فى أخبار الوحى بالامور الغيبية على التخصيص وهى باتفاق الاقوال معلومة الكلمات مجهولة الكيفيات ، وعلى الاخص فيما ينسب الى الخالق — سبحانه وتعالى — من عمل أو كلام

فالتخمين — قطعا — فى معنى هذه الآية وسائر الآيات أن يزعم قارىء القرآن أن التسوية الالهية كالتسوية التى نعهدها فى أعمالنا نحن المخلوقين من الادميين ، وأن النفخ فى خلق ادم من الطين كالنفخ عندنا بالافواه ، وأن طينة آدم كطينة التمثال الطينى الذى يصوره المثالون مشابها

للانسان بالاعضاء والوظائف بغير حراك .

ان الذى يزعم ذلك « يخمن » فى فهم اللفظ والمعنى بلا جدال ، لان أعمال الاله ـ جل وعلا ـ تنزهت عن مشابهة الاعمال الادمية وعن كل عمل محـــدود من أعمـــال المخلوقات ..

فليست معانى الكلمات فى المعجمات اللغوية هى مدار البحث عن تفسير هذه الآيات ، لان الامر فيها يرجـــع الى الكيفيات المجهولة التى نجزم بحقيقة واحدة منهـا ، وهى انها (كيفية) منزهة عن مشابهة أعمال المخلوق ..

ما التسوية ؟ وما النفخ ؟ وما الروح ؟ وما مدلول الآية الكريمة بعد التحقق من معانى هذه الكلمات ؟

اذا كانت « الكيفيات » مجهولة هنا فالمعلوم الذى لاخفاء به قطعا انها ليست تسوية باليدين على مثـــال تســـوية المصورين الادميين ، وأنها ليست نفخا بالافواه كما ينفخ الانسان الهواء فى الطين او غير الطين ، وأن الروح ليست بالروح الانسانية ، وليست على أية حال بالكيفية المحدودة بالقواميس والمعاجم ، لان روح الانسان المخلوق مجهـولة يعلمها الله وحده كما نفهم من آى الكتاب ، وندع الـكلام فيما هو أعظم من ذلك وأخفى على العقل من معنى الروح منسوبا الى الله

كل ما يجوز أن نفهمه من معنى النفخ أنه بث قوة الحياة فى الطين ..

وفى كم من الوقت حدث هذا ؟ أفى لمحة واحدة ؟ أفى يوم واحد ؟ أفى الدهر المتطاول ؟ .. من جزم بشىء من ذلك فانما يخمن ويجزم على التخمين

بل لو قيل ان هذا كله تم فى وقت كلمح البصر لما جاز لاحد أن يحصره فى اللمحة المعهودة لدينا ، لان اللمحة عند الله يتم فيها أمر الساعه كله : « وما أمر الساعة الا كلمح

البصر أو هو أقرب »

وهذه اللمحة مقرون بها فى القرآن الكريم خلق كل شيء وتقديره : « انا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر »

واذا قيل ان بث الحياة فى طينة آدم تم فى يوم واحد فان اليوم الواحد مجهول المقدار فى علم الله : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد يكون اليوم خمسين ألف سنة كما جاء فى قوله تعالى : « تعرج الملائكه والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »

وهذا من حيث الموعد المقدور لبث الحياة فى طينه آدم بعد تسويتها ..

فما هى التسوية ؟ وكم من الزمن قدره الله تعالى لاظهار هذه التسوية فى خلق الطين وفى خلق البنية الآدمية منه ؟

من جزم بوقت محدود لهذه التسوية فذلك هو التخمين بغير دليل ، ومثله فى التخمين بغير دليل أن يزعم الزاعم كيفية لهذه التسويه يمتنع ما عداها ويحرم علينا أن نفهمه من مدلول الآيات ..

واذا كان هذا هو مدلول النفخ والتسوية والطينــــة فالحقيقة التى هى أجل من ذلك قدرا وأخفى من ذلك سرا هى حقيقة الروح ومعناها المقصود فى قوله تعالى « ونفخت فيه من روحي »

فان كلمة الروح قد وردت في عدة مواضع في القــرآن الكريم ..

منها قوله تعالى فى سورة الشورى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا .. »

ومنها قوله تعالى فى سورة الشعراء : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين »

ومنها قوله تعالى فى سورة النحل : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق »

ومنها فى سورة النساء : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ... »

ومنها في سورة «مريم» واذكر في الكتاب مريم اذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا »

وفي سورة الانبياء : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين »

وكل كيفية يحدث بها نفخ الروح بالمعنى الذى وردت به فى هذه الايات فهى كيفية مفروضة على التخمين ، وكل جزم بانكار ما عداها فهو جزم مفروض على التخمين .. وقد كان نفخ الروح من قبيل ولادة عيسى عليه السلام ، وكان من آياته أن يتمثل بشرا سويا فى غير هذا المقام ، وكان الروح وحيا ومصدرا للوحى وسرا محجوبا عن علم بنى آدم فى جميع هذه الاحوال

ونعود بعد البيان عن معانى الكلمات لنقرر مرة أخرى - كما قرر صاحب الفضيلة الاستاذ السبكى - أنها كلمات عربية ، وأن الكلمات العربية جميعا خاضعة لتواعد اللغة تنصرف الى معناها ولا يجوز أن تؤخذ بالتخمين ولها معنى صريح فى اللغة لا يجوز صرفها عنه الى غيره .

نقرر هذا المبدأ مرة بعد مرة ، ولكننا لا نراه فى مرة من المرات يجيز للمفسر أن يقول ان تسوية الطين كانت على هذه الكيفية دون غيرها ، وان النفخ فيه على هذا النحو دون سواه ، وان روح الله يعمل عمله فى بث الحياة واخراج الاحياء من الطين على هذا المثال باستثناء كل مثال آخر ، وان التسوية والنفخ وخلق آدم عليه السلام قد تم كله في لحظة واحدة ، وان هذه اللحظة لا تكون ألف سنة ولا

خمسين ألف سنة ، ولا ألف ألف سنة ، لانها لحظة واحدة مما تلحظه العين الانسانية ولا تدل اللغة العربية على معنى معقول لها غير هذا المعنى

ان هذا المبدأ لا يجيز للمفسر أن يجزم بقول من هذه الاقوال الا أن يكون قوله تخمينا يعوزه السند القاطع ولا يلزم أحدا غيره

وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة فى الطين ، وسوى الطين سلالة خرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لاحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية والنفخ والخلق يلغى كل ما عداها ، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتا محـــدودا باللمحة أو اليوم أو الدهر ويكون بمقدار واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار

ومما روى عن أبى هريرة : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فالمراء فى القرآن كفر ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه »

وأيا كان القول فى سند هذا الحديث فالمبدأ السليم الذى قرره صاحب الفضيلة الاستاذ السبكى ينهانا أن نقيد كلمة من كلمات الاية الكريمة بكيفية محدودة ووقت محدود ، وما سوى ذلك فهو التخمين الذى ينهى عنه الاستاذ كما ينهى عنه كل مسلم غيور على القرآن وعلى عقائد الاسلام

غزوة التبشير فى معقله

تكثر المؤلفات فى اللغات الأوربية عن حياة النبى عليـــه السلام ، وبعضها خاضع لأغراض السياسة أو خاضـــع لأغراض التبشير ، وبعضها الذى يكتبه أناس متمردون على ساسة الدول وجماعات التبشير يخضعون لآفة أخرى

هى آفة الجهل بالحقائق والعجز عن فهم الشرق والشرقيين كما يفهمون أنفسهم فى حاضرهم وماضيهم ، ومن المؤلفين المحدثين عن نبى الاسلام من يكتب عنه ليتخذ من هـذه الكتابة ذريعة الى نشر مذهب فى الحياة الاجتماعية يعارض مذهب الديانة الاسلامية فى هذه الشئون ، ولم تخل المكتبة الأوربية الحديثة بعد هذا كله ، من كتابة عنه ـ صلوات الله عليه ـ تنقل الأخبار عن مصادرها صحيحة محققة ، وتؤدى الأمانة للتاريخ أداء العالم الذى يحاسب ضميره وعقلـه فيما يكتب ، ويترفع عن رواية الكذب أو الخطأ وهو عالم به متعمد لاخفائه ..

الا أن هؤلاء جميعا يكتبون مؤلفاتهم للحاضر ولا يعنيهم أمر الماضى فى هذا الموضوع بعينه ، وهو موضوع حياة النبى وصفاته « الشخصية » كما نقول فى تعبير العصر الحاضر ، فيتركون المخلفات القديمة على حدة ، فى مكتبات علماء الدين وورثة اللاهوتيين من أبناء القرون الوسطى ، وتظل تلك المخلفات مشحونة بالأباطيـل والأغاليط ، تسمم عقول أولئك اللاهوتيين ومن يتلقى العـلم عنهم من ناشئة المبشرين ، ثم يتخرج هؤلاء الناشئة مؤمنين بصدق دعوات التبشير وصواب الحملة على الاسلام كما فهمـوه وفهموا معه أخبار نبيه الكريم فى حياته « الشخصية » وخلقه الموصوف بتلك الأباطيل ، ولو أنهم فهموا أسرار أباطيلهم ، لارتدوا على أنفسهم واستطاع الاسلام أن يغزوهم فى معاقلهم ، فاذا هم يبشرون انفسهم قبل ان يتفرقوا بين أنحاء العالم مستبسلين فى تبشير المسلمين وتنفير غـير المسلمين من الاسلام

تلك المخلفات ، عن القرون الوسطى ، قد تجمعت فى مكتباتها من تصانيف علماء اللاهوت الذين هالهم نفـوذ الحكمة الاسلامية والأدب الاسلامى بين طلاب العلوم الدينية

عندهم عى أثر قيام الحضارة الاندلسية بأوربا الغربيـــة .
وكان من طلاب الحكمة الاسلامية بينهم أناس وصـــلوا الى مقام البابوية وأناس ارتفعوا الى مقام الهـــداية الفـــكرية بمعزل عن الكنيسة بل على خلاف عقائدهم المأثورة .. فلما هالهم هذا النفوذ الفكرى وأزعجهم شيوعه فى معاقـــل الفكر ومعاهد العبادة ، أقبلوا على تأليف الـــكتب التى اجتهدوا غاية الاجتهاد ان يصبغوها بالصبغة العلميـــة ليضمنوا رواجها بين طلاب المعرفة واقناعها لمن يطلبون الدليل ، ولا يقبلون أن يخدعوا عقولهم بأباطيل الدعـاية والتضليل ، وجعلوا همهم كله تشويه الحكمة الاسلامية بتشويه مصدرها الأول وتمثيل صاحب الدعوة الاسلامية فى صورة بعيدة عن التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم بعد ذلك الى البحث فى دقائق الحكمة وأسرار الفلسفة لتنفير الافكار من النبى ورسالته ، لأن تمثيل انسان مقدس فى الصورة التى تنزع القداسة عنـــــــه أيسر جدا من عناء الدراسة فى نقض العقائد وادحاض الافكار ..

وقد نجحت هذه « المكيدة » الساذجة فى حينهـــــا ، ولا تزل بقاياها بمرصدها فى مكانها ، يحفظونها ويعيدونها أملا فى تكرار هذا النجاح بين الناشئة المتعلمين من رجال الدين قبل غيرهم ، عسىأن يكون لها أثرها فىخلق الحماسة الضرورية لكل مبشر يرجى أن يصدقالدعوة والاقناع ، بعد أن شاعت فى هذا العصر شكوكه وشبهاته ،وأوشكت أن تعصف بيقين المبشرين أنفسهم ، وهم يدعون الآخرين الى اليقين ..

ان مهارة أصحاب المكيدة من نوع المهارات الرخيصة ، التى تعتبر رخيصة لأنها تنجح بقليل من الجهد ولكنهـا تفشل وتخفق بجهد أقل منه ، ونجاحها فى أكثر حالاتهـا

انما يتوقف على « الفضيحة » وعلى سهولة الاصغاء اليها في طبائع الجهلاء والأغرار ، بل في طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون الى النفور من المتهم بالسوء لأنهم يعافون السوء ويعرضون عن « التفتيش » في دخائله والتحدث بأخباره ، أو تضيق عقولهم أحيانا عن الجمع بين الاحتراز من قالة السوء والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل

أما فشل الفضيحة بالقليل من الجهد فمرجعه الى طبيعة الاشاعات كلها في صميمها . فان خبرا صادقا من أخبارها قد ينكشف للسامع فيهدم مئات الأخبار الكاذبة التي تستهوي الاسماع الى تصديقها

احدى هذه الأكاذيب التي احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها .. أكذوبتهم عن قصة زينب بنت جحش وزواج النبي عليه السلام منها بعد تطليقها من زوجها ..

كتب الراهب فيدنزيو Fidenzio فقال بعد تنميق مقدماتها على أسلوب القصص الغرامية :

« كان هناك رجل يسمى سيدوس — زيد — له زوجة تسمى زينب — هكذا — وكانت هذه الزوجة أجمل نساء الأرض في زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حباً ، وأراد أن يراها ، فقصد الى منزلها في غياب زوجها يسأل عنه ، فقالت له الزوجة ، ماذا تبغي يا رسول الله ؟ وماذا جاء بك عندنا ؟ ان زوجي قد ذهب الى عمله ، ولم تخف المرأة خبر الزيارة عن زوجها الذي سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ فقالت : نعم كان هنا .. قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم رآه وأطال النظر

اليه . فقال الزوج حينئذ : لا عيش لي معك بعد الآن ..»

ومضى الراهب (الأمين) فى سرد القصة على هذا النمط مستشهدا لها بما ورد عن حديث زيد وزوجته فى سورة الأحزاب ، فتمت (الأحدوثة) عند سامعيها بشاهد من كتاب الاسلام ، واضاف اليها هذا المؤلف وغيره مااختاروا أن يضيفوه من كلام السيدة عائشة ومن مناسبات الوحى فى هذه السورة ، فخيل اليهم أنها حديث لا حيلة فيه للسامع غير التصديق والتأمين ، وغير العجب بعد ذلك من خلائق نبى المسلمين

ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة كما شاعت فى القرون الوسطى ..

ليس أسهل من اسقاطها واسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام ، وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد وهو لا يطمح الى الزواج من مثلها

ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها ويسقط معها كل ما قيل عن مفاجأة النبى عليه السلام بجمالها وتطليق زوجها بعد نظر النبى اليها لاول مرة

وشىء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين فيعلمون حقيقة القصة المحرفة ، ويعلمون أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين ..

فان زيد الذى زوجه النبى من بنت عمه لم يكن الا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه ، وآثر المقام فى جواره على الرجوع الى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم من عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين

أكرم أهله ، وأطاعت الزوجة أمر النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها اليها ، ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة ، فيهم بتطليقها ، ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وميزه بها على صحبه ، فارتفعت بنبى الاسلام مروءته الى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيدا من حرجه ، وعوض زينب من مهانتها ، لتعلم ويعلم الناس انها كفؤ له وان كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها واترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفؤ لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطرها الكسير أن يساق اليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمورا بزواجها

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها الى وصمة انسانية يعاف من أجلها خلق الانسان ، ويعاف الدين الذى يدعو اليه من اجله

ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه ، فاذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للانبياء ، لانها شهادة بغاية البر والاحسان الى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والاحسان الى المرأة المجروحة فى عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها ، برغم ارادتها

وكانت فضيلة الصدق ـ مع فضيلة العفة ـ أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى صلوات الله عليه ..

وفى هذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لانها سهلة الشيوع سهلة التنفيذ

فكل ما توارد من الأنباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية فهو وحى صادق فى كتب بنى اسرائيل ، ونقل غير صادق فى كتاب الاسلام ، مع التحريف والخطأ أحيانا فى الرواية عن الكهان اليهود أو الكهان المسيحيين !

وقد كان رواج هذا الزعم سهلا سريعا بين ابناء القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يعتقدون جميعا أن الكتب الاسرائيلية هى مصدر تلك الانباء الاول ، وان الاختلاف فيها انما يكون بطبيعة الحال تحريفا أو خطأ فى النبأ الذى جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ

لكن الخبر الصغير الذى ينقض ذلك الزعم على أساسه أن الكشوف الحفرية أثبتت اليوم ان الكتب الاسرائيلية لم تكن هى المصدر الأول لما ورد من أنباء القرون الأولى فى التوراة او التلمود ، وقد أثبت القرآن الكريم أنه روى عن النبوءات السابقة أخبارا لم تذكر ولم ترد الاشارة اليها فى كتب العهد القديم ولا فى أقاصيص التلمود وما شابهه من أسانيد اليهود . فاذا كانت مصادر الجزيرة العربية ومصادر بين النهرين أوفى وأقدم من المصدر الاسرائيلى فهذا المصدر الاخير اقرب الى مظنة الخطأ والتحريف من ذلك المرجع الاصيل

وتزاد على هذه الملاحظة الصغيرة ملاحظة أصغر منها ليتحقق المؤرخ أن عمل العصبية القومية كان أفعل وأظهر من عمل الأسانيد التاريخية فى ترويج تلك الاشاعات أو تلك الأكاذيب .. لأن اسم الكاهن الذى زعموا أنه كان يملى قصص القرآن الكريم على النبى صلوات الله عليه ، كان يختلف دائما باختلاف مرجع الاشاعة المفتراة ، فاذا كان المرجع مسيحيا فالراهب سرجيوس — أو بحيرا — هو الملقن لتلك القصص ! واذا كان المرجع يهوديا فالملقن هو « حاخام » اسرائيلى مجهول ، كما جاء فى رواية « بيدرو دى الفونسو » الذى ينتهى فى أصله الى بنى اسرائيل !

تفسير القرآن فى العصر الحديث

تصل الى فى هذه الآونة أسئلة كثيرة من طلاب العلم والمشتغلين بالدراسات الدينية عن فهم القرآن فى عصرنا هذا من وجهة النظر الى العلوم الطبيعية والمخترعات الحديثة ، ومن أمثلتها سؤال من الطالب الأديب عمر عبد العزيز السباجى يقول فيه : ان المتكلمين عن تفسير القرآن الكريم انقسموا الى طائفتين : « احداهما تحبذ تفسير القرآن تفسيرا علميا ، والأخرى تدعو الى فهم القرآن الكريم كما كان يفهمه العرب الأميون الذين خاطبهم القرآن الكريم .. فما رأى سيادتكم فى التفسير العلمى الذى يذهبون اليه ؟ وما هى الأدلة التى تعززون بها الرأى ؟ » ..

ومن امثلة هذه الأسئلة سؤال لطالب الطب الأديب يس مهدى جوده يذكر فيه هذه الآية الشريفة : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم • تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لايرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين »

ثم يقول : « أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة اشارة مبكرة من القرآن الكريم الى القذيفة الذرية ، ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمى الذى أمكن

اثباته فى مواضع كثيرة ؟ »

وهذه وأمثالها اسئلة تأتى فى أوانها ، ونغتبط بها لأنها تدل على بحث الشباب المتعلم فى أمور عقيـــدته وضميره ، وحرصه على الفهم المستقل أنفة من التقليـد أو التسليم بغير دليل . ونرى أن الأسئلة من هذا القبيل ليست بالجديدة فى العالم الاسلامى ، لأنها اعيدت على أساليب مختلفة فى عصور النهضـــات العلمية وأدوار الانتقال من حضارة الى حضارة ، أو الاشتباك بين الثقافات المتعارضة فى المشرق والمغرب ، وتجددها اليوم معقول منتظر بعد تجدد النظر الى السماء والى أسرار المـــادة وحقيقة المخلوقات المادية على هذا النحو الذى لم تسبق له سابقة مثله فيما تقدم من أدوار التاريخ الاسلامى ، وقد شاركت فيه اليوم أبناء الديانات الأخـــرى من المسيحيين والاسرائيليين والبراهمة والبوذيين ، فينـدر أن تطلع على صحيفة من صحفهم تدرس المباحث اللاهوتية الا رأيت فيها محاولات شتى لاعادة تفسير العقائد الكونية عندهم على ضوء العلم العصرى كما يقولون ، وأهم هذه المحاولات ما كان منها متصلا بمسألة خلق الانسان الاول، ومسألة السماوات وسكانها ومسألة القيامة والحساب

والامر الذى لا محل فيه للخلاف أن الانسان العصرى مطالب بفهم كتبه المقدسة وفهم ما توجبه على ضميره من الفرائض والشعائر والواجبات ، ولكن هل معنى ذلك أن الكتب المقدسة لا تفهم الا كما فهمها المخاطبون بها لاول مرة ، أو معناه أنها تفهم فى كل عصر على حسب النظريات العلمية التى انتهى اليها أبناؤها ؟

لا هـــذا ولا ذاك ـ فيما نعتقد ـ هو الفهم المطلوب من المكلف المخاطب بالكتاب

فان المسلم مأمور فى القرآن بالتفكير والتأمل والتدبر

والاستقلال بذلك عن الاباء والاجداد وأحبار الزمن القديم وأئمة الدين فيه

وليس الخطاب مقصورا على العـــرب الاميين ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين ، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان •• اذ ليس من المعقول أن يفكر الانسان على نسق واحد في جميع العصور

اننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم فى عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمدية لو أنهم ولدوا معنا ، وتعلموا ما تعلمناه ، وعرفوا ما عرفنـــاه ، واعتبروا بما نعتبر به من حوادث الحاضر وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمدية الى اليوم ••

ولكن التفكير العصرى شيء واقرار النظريات العلميـــة المتجددة شيء آخر ••

فاننا نستفيد من أخبار الرحلات ، ومن آراء المفكرين ، ومن مذاهب العلماء النظريين والتجريبيين ادراكا نافعا لنا فى التأمل والنظر دون أن نؤمن بصحة كل خبر وصواب كل رأى وصدق كل نظرية ، ولا يمكن أن تتقدم هذه الفائدة زمانها في موضوعها وان لم يكن موضوعها متعلقا بهذا العلم أو ذاك ••

ومثال ذلك أن الانسان المعاصر لا يخطىء فى اســتدارة الارض بعد كشف الامريكتين ، فانه لا يفسر كلمة البسط بالنسبة للارض كما فسرها الذين وهموا أن الارض لا تكون مبسوطة أمامنا وهى على شكل الكرة ، لان الانسان المعاصر يرى بعينه أن الارض تبسط أمامه كما ينظر اليها ، ولا يمنع ذلك أن تكون على شكل الكرة فى استدارتها ، لاننا هكذا نفهم فكرة البسط بالنظر، وهكذا نعلم علم الواقع اليقين أن بسطها أمامنا وامتدادها للسائحين فيها لا ينقض الإستدارة التى لا تقبضها بمعنى من معانى القبض ، وهو

نقيض البسط فى اللغة وفى الادراك المعقول

فالكشف العلمى الحديث يفيد الباحث العصرى فى تصحيح معنى البسط ، ويذكره أن نقيض البسط هو القبض وليس هو الاستدارة الكروية ، ولكنه لا يدعوه الى انكار البسط بهذا المعني الصحيح ..

وعلى هذا المثال ينبغى أن نستفيد من النظريات العلمية دون أن نقحمها على القرآن الكريم ، أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن الى زمن ، ومن تفكير الى تفكير

ولذا كان من الخطأ أن نقرر أن القرآن الكريم يؤيد النظرية السديمية فى نشأة المنظومة الشمسية أو نشأة الكواكب عموما من دخان المجرة المشهودة ، أو دخان المجرات الاخرى التى لا ترى بالعين ولا بالمناظير

فقد تعاقبت النظريات منذ أيام العالم الطبيعى «بوفون» الى اليوم عن نشأة المنظومة الشمسية ، ولم تزل ينقض بعضها بعضا حتى الساعة

هل نشأت المنظومة الشمسية من الاصطدام بمذنب عابر فى الفضاء ؟ هل نشأت من التقاء شمسين متعارضتين؟ هل نشأت من انفجار الشمس نفسها وتطاير اجزائها ثم عودتها الى فلكها بفعل الجاذبية ؟ هل نشأت من تجمع السديم وجموده ؟

كل أولئك آراء يقول بها العلماء ولا يستقر منها رأى واحد الى قرار . ومن شاء فليفهم أن النظرية السديمية هى النظرية الدخانية على وجه من الوجوه ، ولكن ليس له أن يجعل رأيه هذا عقيدة من العقائد القرآنية التى يكفر بالدين من يعارضه فيها ، وليس له أن ينفيها بغير حجة قاطعة من القرآن الكريم

وقد شاء بعض المفكرين ان يفسر السماوات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية تطبيقا لعلم الفلك فى تفسير الكتاب ، وهو اجتهاد حسن على اعتباره فهما لصاحبه لا يوجب على نفسه ان يعتقده ولا يوجب اعتقاده على سواه .ولكنه يجور عن القصد اذا ألزم الناس به الزاما وعرضهم للشك الباطل فى الكتاب الالهى اذ أقحم رأيه عليه، لان علم الفلك لم يلبث ان اثبت أن السيارات عشر غير النجيمات وغير المئات من السيارات الصغار ، ووجودها بهذا العدد الى اليوم حقيقة لا سبيل الى الطعن فيها ، وقد توجد بعدد آخر بعد حين

والذين فسروا الأيام الستة بأيامنا هذه كما نعدها فى كل اسبوع قد أخطأوا الفهم ووجب ان يدركوا خطأهم قبل أن يتبين للعلم ان تاريخ الكواكب يمتد الى ملايين السنين ..

نعم . وقد وجب ان يدركوا خطأهم هذا وان يعلموا أن الايام الستة غير أيام الكرة الارضية فى دورتها حول نفسها، وأن السنين أيضا غير سنوات الكرة الارضية فى دورتها حول الشمس . لأن الشمس والارض لم تكونا مخلوقتين فى اليوم الاول من تلك الايام ، فلا بد أن يكون للخلق حساب غير حساب الفلكيين للايام والسنين

والذين انكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند انفسهم لانهم لم يطمئنوا الى براهينه ودعاواه ، ولكنهم لا يجوز لهم ان ينكروه استنادا الى القرآن الكريم ، لانهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه ، وكل ما يجوز لهم ، أن يوجبوا الايمان بأن الله سبحانه وتعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة فصنع منه السلالة التي نشأ منها آدم عليه السلام فأما أن يحتموا كيفية التسوية وكيفية النفخ وكيفية خلق

السلالة والزمن الذى خلقت فيه ، فهو ادعاء على القرآن الكريم لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفى أو وجوه الاثبات ، ويجوز أن يكون مذهب التطور مذهبا ناقصا فى تطبيقه على الحياة وعلى الكائنات العضوية وبخاصة فى قول أتباعه بتحول الأنواع .. ولكن لا يجوز أن نقحم الآيات القرآنية فى انكار النشوء والتطور فانه انكار أخطر من انكار القائلين بتكفير الفلكيين لأنهم ذهبوا الى استدارة الارض ودورانها حول الشمس فى الفضاء

وكل ما يجب على المسلم ان يؤمن به ، أن كتابه الالهى يأمر بالبحث والتفكير ولا ينهاه عنه ولا يصده عن النظر والتأمل فى مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهى عرضة بعد قليل للنقض أو التعديل ، بل لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التى يفهمها العلم والكيفيات التى يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية فى بداءتها الاولى ونهايتها الأخيرة بين طوايا الغيب المجهول .. لانه ينبغى ان يعلم - عقلا وعلما وايمانا - بأن اليوم اذا نسب الى الاله او نسب الى عمر الكون لن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الانسان ، قبل أن يوجد ، وقبل أن توجد الارض التى خلق عليها الانسان

فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم ، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لافكارنا من علوم العصر الذى نعيش فيه؛ ولكننا لا نطالب فى عصر من العصور بأن نعلق ايماننا بتفسير النظريات العلمية ، وهى لا تستقر عصرا واحدا على تفسير غير قابل للنقض أو للتعديل والتحوير

الصلاة والعلم

يقول الاديب « مختار عبد القادر الفيل » الطالب بكلية الآداب :

« .. انني اومن بالله ايمانا قويا ، واؤدى فرائض الاسلام ، لكنني أوجه السؤال اليكم لرغبتي في المزيد من المعرفة عن أمور اسلامنا وأسأل : ما هي فائدة الصلاة والدعاء الى الله ، وانني لاعلم ان الصلاة رياضة وثقافة وصلة وثيقة بالله ، وعلاقة وثيقة لتقوية العطف بين الناس وبث روح التعاون بينهم لاجتماعهم في بيت الله . ولكن كيف نفهم الدعاء الى الله طلبا لشيء من الاشياء ؟ فان هذا الطلب اما أن يكون مطابقا لارادة الله الثابتة فلا فائدة فيه ، وأما ان يكون مخالفا للارادة الالهية فلا فاعدة فيه كذلك ، ولا يفعل سبحانه وتعالى غير العدل ، فليس ثمة مايدعو الى مطالبته لاننا في هذه الحالة كمن ينزله منزلة الحاكم الذى يقضي بقضاء ، ثم يعدل عنه بعد التزلف والاستعطاف .. وأرجو أن أقرأ رد سيادتكم لاعلم قبل كل شيء هل يحرم علينا الدين أن نبحث في هذه الامور ؟ »

وأقول للطالب الاديب أنه أحسن فهم الصلاة كما أحسن وصفها حين قال أنها رياضة وصلة وثيقة بالله ، وإن الامر الذى أشكل عليه في فهم صلوات الدعاء قد أشكل على كثيرين ، وورد عليهم الاشكال فيه على صور كثيرة بين جميع المتدينين في العصر الحديث من المسلمين وغير المسلمين .. فحسب فريق منهم أن القول بجدوى الصلاة

يناقض القول بالسنن الالهية والقوانين الطبيعية التى أودعها الله طبائع الاشياء وبنى عليها نظام الكـــون كله ، وحسب فريق آخرون ـ كمـــا قال الطالب الاديب ـ أن تنزيه الآله سبحانه وتعالى عن تبديل كلماته وتعديل قضائه يوجب على الانسان أن يتورع عن الطلب الذى يسأله فيه العدول عن قضاء قضاه

ومن كبار علماء الطبيعة عند الغربيين أناس تصدوا للرد على هذا الاعتراض وأجابوا عن اسئلته جوابا يوافق ايمانهم بالله وايمانهم بالعلوم الطبيعية على السواء • وقد فرغ احدهم لهذا البحث ـ وهو الطبيب الجراح الكبير الكسيس كاريل ـ Carrel فكتب فيه رسالة خاصة أجمل فيها صفوة تجاربه العلمية وجعلها جوابا على قول فردريك نيتشه « انه لشيء مخجل أن يبتهل الانسان بالصلاة » ••

فكان من مقرراته فى هذه الرسالة أن نفع الصلاة قد ثبت له ـ عمليا ـ كما تثبت التجارب الطبيعية ، وانه لا يفرق فى هذا بين صلاة الانسان لنفسه أو صلاته لغيره دام صادق النية صادق الطلب فى الحالتين

وأحد هؤلاء العلماء الكبار ـ اوليفرلودج ـ وهـــو من أشهر علماء الرياضة والطبيعة يرد على القـائلين بمخالفة الصلاة للسنن الكونية فيقول :

« انهم يتوهمون ذلك لأنهم يحكمون على الصلاة حكمهم على ظاهرة طبيعية خارجة من حدود الكون • ولكنها فى الواقع ظاهرة كونية يحسب حسابها فى أعمال الكون كما يحسب حسابها فى سائر الحوادث التى تقع فى حياتنـــا بغير صلاة •• واذا كانت الصلاة تربية نفسية فلماذا يحسب المعترضون أن هذه التربية ليست سببا لتحقيق بعض الحوادث كما تسببها كل تربية يتم بها استعـــداد

الانسان لغاية من الغايات ؟ »

والواقع التاريخى عن الصلاة ـ بمعنى الدعاء الى الله ـ أنها ظاهرة روحية تعرف فى الديانات العليا ، ولا تعرف فى الديانات البدائية على هذا المعنى • فهى نتيجة لترقى الانسان فى فهم وحدة الكون ووحدة القوة الالهية التى تقوم بتدبيره ، ولهذا تعرف فى أديان الموحدين والمتحضرين ولم تكن معروفه على هذا النحو بين الهمج الاولين الذين يعددون الارباب ، ويوزعونها بين عناصر الطبيعة فى الارض والسماء ، ويطلبون من كل منها ما يقدر عليه ولا يقدر على غيره ، ويجعلون صلاتهم من قبيل المساومة على تبادل المنفعة لاعتقادهم أن أربابهم تحتاج الى دعواتهم وقرابينهم كما يحتاجون هم الى نعمها وعطاياها • وقد بقيت من هذا الاسلوب فى الصلاة بقية مشهودة بين الجهلاء الذين يساومون الاولياء على الشموع والذبائح اذا استجابوا لما يدعونهم اليه من اغاثة الملهوف ، ورد المفقود ، وتحقيق الغرض المأمول ولو لم يكن من الاغراض التى تحسن بالاولياء ••

فالصلاة فى الاديان العليا علامة من علامات التقدم الانسانى فى فهم حقائق الكون وفهم الصفات الالهية ، ولا قوام لدين من الاديان بغير الايمان بالصلاة على معنى الطلب والدعاء ، مع الايمان برياضتها الروحية وصلتها الوثيقة التى تربط عالم الشهادة بعالم الغيب ، وتجعل وجود الاله حقيقة أعلى من حقيقة النواميس او حقيقة الحوادث الكونية التى تهم الانسان فى مطالب معيشته ، كما تهمه فى مطالب ضميره

فلا الدين ولا العلم يقضيان على الانسان أن ينكر حقيقة النواميس الطبيعية ، ولكن وجود الاله قائم فى ضمائرنا على ايماننا بأن النواميس الطبيعية وحدها لا تغنى الانسان عن الاتصال بخالقها ، لان وجود النواميس لا يلغى عمل

الاله ، ولا يعنى أن الاتصال به والانقطاع عنه سواء

والذين يفهمون أن نواميس الطبيعة واقع مفروغ منه يخالفون العلم والفلسفة ، وليس قصاراهم انهم ينكرون الارادة الالهية من ورائها

فمن المقررات العلمية التى اشتهرت حديثا باسم نظرية هيزنبرج « Heisenberg » أن العلم لا يستطيع أن يعرف مقدما كيف يتصرف كهرب واحد من كهارب الاجسام المادية ، وأن الذى نعرفه من ذلك انما هو حكم الجملة يستحيل تطبيقه على الاجزاء المتفرقة ، ومن المشاهد التى يقربون بها هذا الرأى تقدير شركات التأمين لحوادث السيارات فى البلد الواحد والسنة الواحدة ، فانهم يحسبون الحساب لاصابة عشرين سيارة من كل ألف سيارة — مثلا — فيصدق هذا التقدير وتنتظم عليه موارد الشركة ومصاريفها ، ولكن أخبر الخبراء فى الشركة لو سئل أن يدل على هذه السيارات العشرين أو على بعضها لما استطاع ..

والعلماء الذين يعتقدون أن النواميس الكونية مسألة قديمة حصلت وفرغ الامر منها يتمثلون الكون كأنه مكنة صنعت وأرسلت فى طريقها وانقطعت عوامل التكوين فيها، ولكن هذا الاعتقاد ضرب من التصور لا يوافقهم عليه كثير من العلماء والمفكرين ، ومن هؤلاء المفكرين من يقول — كما قال بيرس Pierce — ان المصادفات قد تكون اليوم قوانين فى دور التكوين وليست شذوذا عن قوانين مبرمة منذ الازل ، وان القوانين قد تكون مصادفات تكررت على وتيرة واحدة ولكنها لا يرتبط بعضها ببعض ارتباط الاسباب بالمسببات ..

ومذهب بيرس هذا مطابق لقول الحكيم الاسلامى أبى حامد الغزالى ، ومطابق للاجماع الذى انعقدت عليه آراء العلماء المحدثين ، فانهم يقولون ان التجارب العلمية انما

هى تجارب وصفية تسجل الواقع كما يتكرر امام المجربين ولكنها ليست بالتفسيرات التى تعلل الاسباب بعلة محققة غير علة التكرار والاستمرار

ومن الامثلة القديمة التى تضرب لتقريب هذا الرأى أن الديكة تصيح قبل طلوع الشمس أبدا وليست هى علة طلوعها ، وأن جرس القطار يدق قبل وصوله الى المحطة وليس هو سبب الوصول ، وأن ضوء القذيفة يرى عند انفجارها قبل سماع صوتها ولا علاقة بين سبب الرؤية وسبب السماع

وأيا كان الرأى فى السببية عند علماء العصر الحديث فالقول الفصل الذى لا شك فيه أن قوانين الطبيعة لم تحصر جميع عواملها ، وأن الحصر الذى وصلنا اليه قد يعين على تقدير الحوادث المترتبه عليها بالاجمال ، ولا يعتمد عليه فى تقدير حادثة واحدة بغير الظن والتقريب

فاذا نظرنا الى التقدير العلمى فالباب مفتوح فى الكون للعوامل التى لا تحصرها ضوابط القوانين والنواميس

واذا نظرنا الى التقدير الدينى فالله تعالى فعال لما يريد ، والخلق « عملية مستمرة » ، وتركتها هملا بغير تبديل فرغت منها العناية الالهية ، وتركتها هملا بغير تبديل

وسنة الله لا تبديل لها حقا ، ولكننا لا نعلم من سنة الله الا ما نهتدى اليه بعقولنا وهداية الله . وقد تكون سنة الله فى تصيب الانسان موقوفة على تربية نفسية تحققها الصلاة ، وقد تكون هذه التربية النفسية سببا مشروطا للسنة الالهية لا يجوز للمؤمن تعطيله ، أو لا يجوز له أن يدعى القضاء فيه باسم الآله

والطالب الاديب يرى للمسألة وجهين لا ثالث لهما من وجوه البحث فى فائدة الصلاة

فاما أن يكون الطلب موافقا للارادة الالهية فهو محقق بغير طلب ، واما ان يكون مخالفا للارادة الالهية فلا معنى

لطلبه ، لان الله يتنزه عن تغيير ارادته كما يغير الحاكم قضاءه بالملق والاستعطاف

ولكن مساله الصلاة لا تنحصر فى وجه من هــــذين الوجهين ، لاننا يجب ان نذكر ــ اولا وآخرا ــ ان ارادة الله متمثلة فى طبيعة الانسان ، وأن من طبيعة الانسـ أن تطلب الغوث عند الحاجه اليه ، وأن طلبه من غير الله عبث مع الايمان بوجود الاله القـــادر على كل شيء ، فاذا اندفعت طبيعه الانسان الى طلب الغوث من الله فمن أين له اذا قمع هذه الطبيعة أنه لا يخالف ارادة الله ، ومن أ له أن الاستجابة هى كل ما يرجى من الدعاء ؟ من أين له أن الدعاء نفسه ليس هو سبيل الاتصال بالله من جانب الانسـان ، لانه فى ذاته عمل من أعمال النفس التى تدل على سجية من سجاياها وان لم يكن لها جواب

ونعود الى رأى الرياضى الكبير أوليفرلودج لان الرياضيين من أقدر الناس على فرض الفروض التى تحل المجهولات ، فنقول : لماذا نحسب الصلاة خارقه للنواميس الكونيةوهى ظاهرة كونية كسائر الظواهر التى تحدث كل يوم فى هذا الكون ؟ ..

وليكن الطالب الاديب على يقين أن سؤاله عن نفعالصلاة لا يمتنع فى الدين الاسلامى بل يجب عليه وجوب التفكير ووجوب سؤال أهل الذكر ، وكلاهما فريضه من فرائض الاسلام ، ولكن لمسألة الصلاة ــ كما قلنا ــ وجها آخر لا ضير من السؤال عنه اذ كان السؤال عنه هو جوابه المريح: ألا يجوز للانسان أن يكشف عن ذات نفسه أمام الله الا أن يعلق هذه المكاشفة مقدما بضمان الجواب ؟

الصيام فى القرن العشرين

من الاشاعات التى راجت زمنا عن القرن العشرين ، أنه عصر الحس والمادة ، أو أنه عصر المادة المحسوسة

ونقول : انها اشاعات ، لانها لا تحسب من الرأى الذى يقوم عليه الدليل ، ولا من الخبر الذى تثبته المشاهدة ، ولا من الواقع الذى يستغنى بذاته عن الرأى والاخبار

فالواقع فى القرن العشرين أن المادة كلها قد انتقلت — فى البحث عن حقيقتها — من عالم الحس الى عالم النظر أو عالم الغيب ، وأن المباحث المادية قد رجعت الى مجال من النظريات والغيبيات لا فرق بينه وبين مجال الروحيات فى حكم الحس والمشاهدة ، فلم نفهم من تسمية الكهارب والنوى بهذه الاسماء ما هو سر القوة التى تربط بينها ، وما هو مكان المادة التى تستقل بوجودها عن الكهارب الموجبة والكهارب السالبة او الكهارب التى تتردد من عنصر الى عنصر بين السلب والايجاب .. وما من فرض من فروض « العلماء المحققين » عن أصل المادة ينتهى الى فهم أوضح من فهمنا لحقائق الروح أو العبادات الروحية ، فقد أصبح العالم « المادى » الذى ينكر الغيب المجهول يحتكر لنفسه ما ينكره على طلاب المعرفه الروحية بغير مسوغ لهذا الانكار يسوغه العلم أو التفكير

وفى القرن العشرين قد ثبت للعبادات الروحية من الفضائل ما لم يثبت لها قبل القرن العشرين بغير فضيلة الطاعة الواجبة لاوامر الدين ، او بغير الاسباب التى ينفرد الدينيون بتفسيرها واقامة الادلة على لزومها ، فلا تدخل

فى نطاق البحوث التى يتصدى لها علماء الماديات أو علماء المحسوسات ..

والصيام فى مقدمة هذه الاوامر الدينية التى أعيد فيها النظر على أيدى ابناء القرن العشرين ، فظهرت لها مزاياها الكثيرة الى جانب مزايا العبادة والايمان بحقوق الغيب ، مع حقوق الشهادة والعيان

فقد اصبح ابناء القرن العشرين جميعا يزاولون نوعا من أنواع الصيام فى وقت من الاوقات لصلاح البنية او صلاح الخلق أو صلاح الذوق والجمال

ومعنى الصيام أنه هو الكف عن شهوات الطعام وسائر الشهوات الجسدية وقتا من الاوقات ، وهذا هو الصيام الذى تدعو اليه الحاجة فى تحقيق أغراض التربية النفسية والتربية الاجتماعية وسائر ضروب التربيـــة النافعة على حالة من الحالات :

فمن الصيام ما يتقرر اليوم لتربية الاخلاق الفدائية فى الجنود ومن يؤدون عملا يستدعى من الشجاعة ورياضة النفس على تقلبات الحياة ما تستدعيه اعمال الجنـــود الفدائيين ..

وقد يستدعى عمل الجندى الفدائى ان يكف عن الطعام بضعة أيام ، أو يستدعى أياما أن يقبل الطعام الذى تعافه نفسه فى سائر أيامه ، او يستدعى أن يرفض الطعام الجيد المشتهى وهو حاضر بين يديه .

ومن الصيام الذى ثبت لزومه فى هذا العصر صيـــام الرياضيين وهم يملكون بارادتهم زمام وظائفهم الجسدية ، ويتجنبون كل طعام يحول بينهم وبين رشاقة الحركة .. أو يحول بينهم وبين الصبر على الحركة العنيفة والحركة التى تتعاقب على انتظام الى مسافة طويلة من المكان أو من الزمن ، ولا يستطيعها من يجهل نظام الصيـــام ولا

يروض نفسه وجسده على نوع من أنواعه طوال الحياة

ومن الصيام العصرى صيام التجميل ، وقد يصبر عليه من لا يصبرون عادة على صيام الرياضة النفسية أو صيام الرياضة البدنية ، وقد يقضى على الصائم من الرجال او النساء أن يلتزم الحمية فى شرب الماء وغيره من السوائل المروية كما يلتزم الحمية فى تناول الغذاء المستطاب ، وان يكن صالحا للتغذية موفور الفائدة للبنية الحية ، ولكنه يؤخذ بمقدار لا يزيد عليه من يحرص على الوسامة واعتدال الاعضاء

ومن الصيام الشائع فى العصر الحديث صيام الاحتجاج على الظلم والتنبيه الى القضايا والحقوق التى يهملها الناس ولا يعطونها نصيبها الواجب من الفهم والعناية

وهذه الانواع من الصيام كلها صالحة لغرض من أغراض التربية العامة او الخاصة يهتدى اليه ابناء القرن العشرين ويعلمون منه ان الآداب الدينية تسبق (التحقيق العلمى) الى خلق العادات الصالحة واشتراع الآداب الضرورية لمطالب الجسد والروح فى الجانب الخاص او الجانب العام فى حياة الانسان

ولعل الفضيلة العصرية ـ فضيلة القرن العشرين ـ التى تحسب من الاخبار الصادقة ولا تحسب من الاشاعات المزجاة أنه يعرض مسائل الحياة للبحث والتقرير ، ويجمع الاشتات المتفرقات من معلومات الاقدمين ليجرى عليها حكم العقل والعلم فى نسق جديد

وعلى هذا النسق يتناول الباحثون العصريون انواع الصيام ويقسمونها الى اقسامها على حسب أغراضها العامة أو الخاصة من قديم العصور الى العصر الحديث .. وقد أحسنوا تقسيمها حقا حين حصروها فى هذه الاقسام الخمسة التى تحيط بها ولا تستثنى نوعا منها

على ما نعلم ، وهى :

(١) صيام التطهير الذى يكف الصائم عن الألمام بالخبائث والمحظورات من شهوات النفوس او الاجسام

(٢) وصيام العطف : ومنه صيام الحداد فى أوقات الحزن او المحنة ، ليشعر الصائم بأنه يذكر أحبابه الذاهبين او الغائبين ، ولا يبيح نفسه ما حرموه بفقدان الحياة أو فقدان النعمة والحرية

(٣) وصيام التكفير عن الخطايا والذنوب ، تطوعا من الصائم بعقاب نفسه على الذنب الذى يندم على وقوعه، ويعتزم التوبة منه والتماس العذر فيه

(٤) وصيام الاحتجاج والتنبيه ، وهو صيام المظلومين واصحاب القضايا العامة التى لا تلقى من الناس نصيبها الواجب من الاهتمام او الانصاف

(٥) وصيام الرياضة النفسية او البدنية التى تمكن الصائم من السيطرة - بارادته - على وظائف جسمه تصحيحا لعزيمته أو طلبا للنشاط واعتدال الاعضاء

وكل هذه الانواع الصومية تستدعى الكف عن الطعام وشهوات الجسد ، تارة بالامتناع عن الطعام كله بعض الوقت ، وتارة بالامتناع عن بعضه فى جميع الاوقات ، وتارة بالاقلال من جميع مقاديره والمباعدة بين وجباته ، أو بالقدرة على مخالفة العادات المتبعة فى تقديره وتوقيته على جميع الاحوال

وشريطته العامة التى تلاحظ فى جميع أنواعه هى تحكيم الارادة فى شهوات النفس والجسد ، أو تربية العزيمة على قيادة الانسان لنفسه حيث يريد

والمتواتر من اقوال الباحثين عن عادات الاجناس البشرية أن الصيام بجميع أنواعه قديم فى أمم العالمين : القديم والجديد ..

ففى حضارات أمريكا الوسطى آثار تدل على قــدم الصيام بين شعائر العبادة التى دان بهاسكانهاالاصلاءقبل ميلاد السيد المسيح ، وقد اشتهر الصيــام البرهمى والبوذى منذ اقدم العصور التاريخية ، مع تحريم أكل اللحوم كما هو معلوم ، واشتهر مثله صيــام البابليين والاشوريين على نحو قريب من الصيام الذى تعلمه منهم اليهود ايام السبى متابعة للشعائر الدينية التى جاء بها الرسل الاسبقون فيما بين النهرين ، وأولهم نوح ــ عليه السلام ــ على القول المشهور .

وكان الصيــام معروفا عند المجوس الزردشــتيين ولكنهم ــ أو طائفة منهم ــ حرموه أخيرا لثــورتهم على العبادات البرهمية والعبادات الاشورية بعد اصــطدام العقائد الجديدة بالعقائد الموروثة السابقة عليها

ولا يندر الصيام فى امة من الامم الكبيرة غــير الامم التيوتونية من ابناء الشمال ، فانه قليل فى تاريخها القديم وان لم يكن مهملا كل الاهمال ، ولعلهم أقلوا منه لصعوبة الاستغناء عن الطعام زمنا طويلا فى البرد الشــديد ، او لصعوبة توقيت المواعيد حيث تطول الفترة بين شروق الشمس وغروبها ، فلا ينتظم التوفيق بينهما وبين وجبات الطعام ..

وعند المقابلة بين انواع الصيام نتبين مزايا الصيــام الاسلامى بين جميع هذه الانواع ، فانه واف بالشريطــة العامة للصيام المفروض بحكم الدين او المتبع لرياضــة الاخلاق ، وهو على ذلك صالح لمقاصد التطهير والعطف والتوبة ، والتفكير .. ولا جــدال فى رجحان الصيام بنظامه الاسلامى ، على نظام الصيام الذى يتحرى الصائم فيه اجتناب بعض الالوان من الاطعمة الفاخرة أوالاطعمة الشهية ، فان اجتناب بعض الالوان لايكفىلترويضوظائف الجسد وتغليب حكم الارادة عليها ، اذا كانت هذه الوظائف

تؤدى عملها بكل لون من ألوان الطعام ، وقد يكون فيه ترويض للذوق على اجتناب اللذائذ والشهوات الجسدية، ولكنه ترويض ينتفع به القادرون على تحصيل الطعام اللذيذ والطعام الثمين ، ولا رياضة فيه ــ حتى للذوق ــ عند فقدان القدرة على تحصيل هذه الاطعمة فى جميع الاوقات

لا جرم كان الصيام فى الاسلام نظاما لا يفضله نظام بين شتى الانظمة التى تقدمت بها فرائض الصيام

الاسلام منهج شامل

عودنى قراء الكتب التى أكتبها فى الموضوعات الدينية أو الموضوعات الاجتماعية التى لها علاقة بالعقائد والبحوث فيما وراء الطبيعة ان أتلقى منهم رسائل على نوعين :

نوع له دلالة حسنة على الرغم مما يحتويه من خلجات الشك والحيرة بين وجهات النظر فى الدين ، ويغلب على هذا النوع من الرسائل انه حسن الدلالة ــ كما تقدم ــ لانه يدور حول السؤال عن كشوف العلم الحديث واطوار الحياة العصرية : هل توافق الدين أو تناقضه ، وهل عقيدة الاسلام فيها توافق المعقول او تحتاج من العقل العصرى الى تفسير وتأويل ، وموضع الدلالة الحسنة فى هذه الاسئلة انها تنم على احترام الايمان والعقل ، واجتناب المغالطة بين المؤمن وبين نفسه فيما يعرض له من الشكوك واسباب الغموض والتردد بين نقائض التفكير ..

والنوع الآخر تسوء دلالته فى بعض نواحيه ولكنها لاتخلو من الناحية التى لها دلالتها الحسنة ايضا بعض الاحايين

ذلك النوع السيىء من الرسائل هو النوع الذى يتهجم أصحابه على الانكار والجزم بالنفى لغير حجة قاطعة ، وهو تهجم سيىء الدلالة من جهة العقل لا من جهة الدين وحسب، لان العقل الذى يسرع الى البت فى مسألة الكون كله بهذه

الرعونة حقيق بالرثاء ، واذا بدا أن هذا الضعف تهمة للعقل فهو فى الوقت نفسه حجة تؤيد قوة الايمان ، لأن الخطأ الواضح فى مهاجمة الايمان حجة ناهضة على حصانته المنيعة أمام هجمات المتعجلين .

ومن أمثلة الرسائل — على نوعيها — هذه الرسالةالتى تلقيتها بتوقيع (السيد مصطفى الجرف) وفيها يقول بعد التمهيد :

« كلما دار نقاش مع الزملاء حول الاسلام كمنهج شامل للحياة ، والبحث فى امكان الاسترشاد بقواعده التشريعية فى تثبيت دعائم الاشتراكيةوخلق مجتمع فاضل تشيع فيه العدالة تجد من يتساءل فى تحد مثير : قولوا لنا لم لم يفلح الاسلام كشريعة حاكمة بعد عهد عمر بن الخطاب ؟ ان آلاسلام مجاله المسجد لا غير .. هكذا يقول الواقع والتاريخ »

ونقول ان هذه الرسالة مثل للرسائل على نوعيها،لانها تدل على احترام صاحبها لايمانه واحترامه لعقله ،كماتدل على الخطأ الواضح فى التهجم على الآراء الحاسمة فى المسائل الكبرى لأهون الشبهات ، وقد تكون الشبهة — فى ذاتها — غير مفهومة فى راس من يتحدى بها هذا التحدى المثير ..

أكبر الظن أن هؤلاء المتهجمين يتبعون مذهبامن المذاهب المادية التى تدعى لنفسها احتكار المبادىء الشاملة للاصلاح بغير مثيل ولا بديل ، وانهم يحكمون بفشل الاسلام لانهم يتوهمون ان العقيدة الناجحة هى العقيدة ذات الشعائر التى يجرى تطبيقها وتنفيذها حرفا حرفا فى حياة كل مسلم ، وفى دستور كل جماعة ، وفى أطوار كل مشكلة من مشكلات الحياة ، ولما كان المسلمون اليوم لا يقيمون الصلاة فرداً فردا ، ولا يؤدون الزكاة

درهما درهما ، ولا ينالون كل حقوقهم فى مجتمعاتهم كبيرا وصغيرا ، فالاسلام اذن عقيدة غير شاملة ومكانها المسجد كما يقولون ، وليس لها مكان فى معترك الحياة !

ولا يحتاج السامع لمثل هذا التهجم الى اكثر من تدوير رأس صاحبه الى مذهبه « الشامل » المزعوم ليرى بعينيه على التحقيق ان قواعده الاساسية جميعا غير قائمة فى مهدها الاول ، وان القائم بين مشروعاته كلها هو القائم فى كل مكان يتحرى الاصلاح على غير تلك القواعد وعلى نقيض الاصول الاساسية فيه ، أكثر الاحيان

فالعقيدة الشاملة هى التى تضع للناس مقياس الاعمال والاخلاق وليست هى العقيدة التى تعمل بأيديهم مايطلب منهم أن يعملوه أحرارا فى الرأى والشعور ، ولو كان شفيع القانون للبقاء ان ينفذه كل خاضع له حرفا حرفا ، وان يمتنع خلافه أصلا وفرعا ، لما كتب لقانون بقاء

ونزيد التفصيل شيئا فنقول : ان العقيدة الدينية سند للروح تعتمد عليه فى شدائد الحياة ، وقسطاس للآداب والعادات ترجع اليه فى قياس الاخلاق والاعمال، وأنها بالنسبة للجماعات – أو للامم التى تدين بها – قوة فعالة،ولو من طريق المقاومة ، يحسب لها حسابها فى التاريخ

والاسلام – بهذه الصفة – عقيدة فردية اجتماعية ، لا يجاريها دين من الاديان ..

نبدأ بقوته العالمية : فنعرفها بالقوة التى تقابلها من جهة خصومها قبل ان نعرفها بما صنعته هى لاقامة بنيانها والدفاع عن كيانها ، فقوة الاسلام العالمية تقابلها فى التاريخ دولة الاكاسرة ودولة القياصرة ، كما تقابلها دول الحروب الصليبية ودول الاستعمار ودول التبشير والدعاية المذهبية على اختلاف الدعاوى والغايات

والاسلام هو الذى منح شعوبه هذه القوة التى ضارعت

تلك القوى كافة وصمدت لها وهى فى دور العزة واليأس ، كما تصمد لها وهى فى دور الضعف والجمود . وقد صمدت قوة الاسلام لخصومها بمبادئها التى تدين بها ولم تصمد لاولئك الخصوم بالمبدأ المستعار ، كما استعار أصحاب (المذاهب المادية) مبدأ الوطنية وهم ينكرونه ليخلقوا به قوة فى موضع الوهن ، وايمانا فى موضع الخوف والهزيمة

أما الاشتراكية الاسلامية فهى اشتراكية الانسان الرشيد الذى يملك حرية التصرف كما يملكها العقلاء من الافراد والجماعات ، وليست هى الاشتراكية الآلية التى تصب العقول فى قالب من حديد يحطمها ولا تقوى هى على تحطيمه بأيدى الحاكمين أو بأيدى المحكومين

فالاسلام قد حرم الاحتكار والاستغلال ، وحرم تداول المال فى أيدى الطبقة الواحدة « كى لا يكون دولة بين الاغنياء » وأوجب للضعفاء العاجزين جزءا من أربعين جزءا من ثروة الامة بأجمعها ، واستنكر خزن الذهب والفضة وحرم الفائدة على المال بغير عمل له جزاء

ومتى تقرر هذا كله فى مجتمع انسانى فلا حرج علينا أن نسميه بما نشاء من الاسماء التى تتقلب من عصر الى عصر وتتبدل بين أمة وأمة ، ولا يضيرنا أن نقول انها اشتراكية أو ديمقراطية أو سندكالية أو تعاونية ، أو مرسومة بتخطيطها ، أو مرسومة بغير تخطيط ، وليس علينا أن نصب العقول والشرائع والحريات فى قوالب الحديد أبد الابدين ودهر الداهرين ، لان قوانين الاقتصاد المادية — فيما يزعم دعاتها — تأبى لحياة الانسان طورا من الاطوار ان لم يكن من ورائه طلسم (القيمة الفائضة أو تعويذة (المادية الحوارية) أو صيحة الصراع بين الطبقات ، أو ما شاكل هذا من الطلاسم والتعاويذ

ولهذه الخاصة التى اختصت بها الاشتراكية الاسلامية استطاع الاسلام ان يسخر فى عصرين متواليين من سخافة متهميه بتعطيل المرافق العامة لتحريمه الربا ، وسخافة متهميه بعد ذلك لانهم ينكرون الربا ومعه رأس المال، ولو كانت اشتراكية الاسلام رهنا بانتقاد (القفازين) الى النقد لكان منكروه اليوم لانهم اشتراكيون ماديون هم منكريه بالامس لانهم رأسماليون محافظون ، يقدسون الربا ، ويبنون الحضارة كلها على الاستغلال وتثمير الاموال

أما قسطاس الاسلام الذى تقاس به الاخلاق والآداب فلا يحكم على فلاحه أو فشله بانقطاع الخلاف له من العالم ، لانه ان كان كذلك كان قسطاسا مستحيل الوجود فى قوانين الطبيعة التى تسرى على المادة الصماء فضلا عن قوانين الاخلاق التى تسرى على نفوس الاحياء، ويعرض لها ما يعرض لاطوار الحياة من عوارض التقلب والانقلاب.

وانما يحكم على فلاحه بحكم المجتمع الاسلامى على المتبعين له أو الخارجين عليه ، فلا يزال اكرم الناس وأشرفهم قدرا فى المجتمع الاسلامى من يقال عنه انه مسلم صادق الاسلام فى اعماله ومعاملاته ، ولا يزال أهون الناس وأرذلهم قدراً من يقال عنه انه انسان (ليس عنده اسلام) كما يجرى ذلك على الالسنة كل يوم فى وصف أراذل الخلق فى حكم هذا الدين ، وهم على الدوام أراذل الخلق بكل مقياس صالح وكل قسطاس قويم ..

وهذا هو الواقع ، وذلك هو التاريخ

فمن حق المسلم ــ وهو يعيش فى العالم ويذكر التاريخ ــ أن يشعر بمجال الاسلام فى المسجد وفى كل مجال ، لان الاسلام هو الذى علمه ويعلمه انه (أينما كان) فثم وجه الله ..

أقوال وأقاويل

لعالم النشر فى البلاد الأوربية عادات متفق عليها ، تتكرر فى كل فترة من فترات الثقافة العامة على نمط يناسبها

واحدى هذه العادات التى لاحظناها غير مرة فى هذا الباب أن مواسمهم « الطباعية » لا تمر فى سنة من السنين دون أن تظهر فى الموسم بعد الموسم منها كتب عدة عن الاسلام والبلاد الاسلامية

وقد تلحق بهذه العادة عادة أخرى تلاحظ فى الكتب التى لم يخصصها المؤلفون بالموضوعات الاسلامية ولم يقصروها عليها ، فقد يصدر الكتاب عن موضوع من موضوعات التواريخ والرحلات ، أو موضوع شائع يتعلق بالحياة البشرية فى أدوارها المختلفة ، فلا ينسى مؤلفه أن يتناول شيئا من الدراسات الاسلامية من جانبها الفكرى أو جانبها التاريخى أو جانبها السياسى ، أو جوانب الأخلاق والمصالح الاجتماعية ، فلا ينفصل موضوع الاسلام عن موضوع التاريخ الانسانى ، ولا سيما التاريخ المتصل بتطور العقائد والنظم الاجتماعية

وبين يدى الآن خمسة كتب وصلت فى بريد واحد ، أربعة منها تتناول الكلام عن الاسلام والمسلمين من بعض النواحى العامة أو الشخصية ، والخامس منها قد خلا من الكلام عن الاديان عامة ، فلا ذكر فيه للاسلام ولا للمسيحية ولا لليهودية أو البوذية ، لانه بحث مقصور على العلاقة بين الكيمياء والحياة الحيوانية

وأقرب هذه الكتب الى موضوعات الدين كتاب ألفه الاستاذ ف . ك . هابولد Happold عن المذاهب الباطنية ، أو المذاهب التى يجوز أن تطلق عليها اسم « الصوفية » ، لما فى التصوف أحيانا من أسرار روحية

يعلمها بعض أهلها ، ويشيع بين طلابها ومريديها أنها تخفى على غير الواصلين

تكلم هابولد عن كل طريق من طرق الصوفية المشهورة فى عقائد الهنود والفرس والمسيحيين الأقدمين والمحدثين والاسرائيليين فى نشأتهم بفلسطين على الخصوص ، وافرد للصوفية الاسلامية فصلا كبيرا معززا بالشواهد من الشعر والنثر فى كتب الأقطاب البارزين من شيوخ الطريق بين الشعوب الاسلامية ، فذكر جلال الدين الرومى والجامى وابن الفارض والعطار والحلاج والبسطامى ، وغيرهم ممن لم يشتهروا فى الشرق والغرب مثل شهرتهم ، وذكر حجة الاسلام الغزالى ليسند اليه ميزان الاعتدال بين المذاهب الصوفية التى يرضاها أهل السنة وبين المذاهب التى جاوزت حد الاعتدال وبلغت من الشطط فى القول بالحلول ووحدة الوجود حدا لاترضاه الجلة من أئمة الاسلام

وانصف المؤلف اذ قال ان الاسلام أشد الديانات الكبرى حرصا على تنزيه الذات الالهية من عوارض البشرية والتجسيم ، سواء ظهرت فى القول بامتزاج الانسان بالاله ، أو امتزاج الاله بالانسان ، أو ظهرت فيما يسمونه بالتجلى ، ويعنون به رؤية « الحق » فى صورة انسان أو مخلوق من المخلوقات .

وقسطاس الاعتدال كما شرحه الامام الغزالى فى مشكاة الأنوار ، أن العابد يفنى فى حب الله وينسى انه فان لانه ينسى ذاته ولا يذكر وجوده الباطل الى جانب الموجود السرمدى الحق فى الذات الالهية ، فليس هناك وحدة أو حلول أو امتزاج بين ذات الخالق وذات المخلوق ، وانما هناك الحب الذى يبطل « الانانية » كما تبطل الاثرة فى نفس العاشق حبا للمعشوق ، ولكن مع الفارق الشاسع بين العشق الالهى وبين عشق الانسان للانسان

والكتاب الثانى عن الكنيسة الأرثوذكسية فى الشرق بقلم الاستاذ تيموتى وير Ware الذى تخصص للبحث فى تاريخ الأديرة والرهبنات الشرقية مع تاريخ الشعائر والنحل التى يدين بها الرهبان المنتمون اليها ، وقد أشار فى عرض الكلام على تاريخ بيزنطية الى أحوال الكنائس والقساوسة وسائر أتباعها وأتباعهم فى ظل السلاطين العثمانيين ، فشهد للدولة الاسلامية بالسماحة فى معاملة الرعايا المسيحيين وقال ان السلاطين لم يقصروا عن أباطرة الروم فى رعاية البطارقة الكبار ورؤساء الدين على العموم • الا انه عاد فقال ان السلطان كان ينظر الى رعاياه من المسيحيين كأنهم طبقة ثانية بعد الطبقة الاولى من رعيته المسلمين ، وقد يكون الخطأ فى كلام المؤلف هذا راجعا الى اهمال المقارنة بين السلاطين والأباطرة فى معاملة المذاهب المختلفة ، والى نسيان المقارنة بين الاجناس فى واجب الاخلاص للدولة التى تحميها

ولو أنه قارن بين السلطان والامبراطور ـ أى سلطان وأى امبراطور ـ لعلم يقينا أن الامبراطور كان يأبى على المسيحى الذى يخالف مذهبه أن يعيش فى ظله آمنا على حياته مساويا لأخيه المسيحى فى حقوقه وحرية اعتقاده ، ولم تكن عنده طبقة أولى وطبقة ثانية فى رعاياه ، وانما كانت الرعية طبقة واحدة يحق لها الوجود ، وطبقات أخرى لا توجد فى ظله الا على خوف وحذر وحرمان من حرية العبادة بغير مصادرة واضطهاد

وقد يعلم المؤلف من مقارناته لأسباب التفرقة بين رعايا السلطان أنهم يفترقون اضطرارا بحكم الفوارق الجنسية والعنصرية ، وأنهم يعاملون بحسب اخلاصهم للدولة التى تعاملهم ، تفرقة فى درجات الولاء ، لا تفرقة فى الحرية الدينية التى تكفلها الدولة لاهل الذمة من رعاياها

والكتاب الثالث عن بونابرت فى مصر للكاتب الانجليزى كرشيفور هيرولد الذى يكتب عن التاريخ الفرنسى والشخصيات التاريخية بأسلوب التبليغات الصحفية ، ويجيد الوصف فى هذا الأسلوب غير مستخف بأمانة التحرى التى يغفل عنها كثير من طلاب التهويل والاستثارة ذين المؤرخين الصحفيين أو الروائيين المؤرخين ..

وفى الكتاب بيان مفصل لكثير من الحوادث والمشاهد ، وكثير من القضايا الاجتماعية والازمات السياسية والعسكرية ، ولكن عناية المؤلف بنظرة نابليون الى هذه الامور وخطته فى تدبيرها وتصريفها مع دولته ومع المصريين والعثمانيين كانت أهم وأعظم من عنايته ببيان الحوادث لذاتها أو بيان آثارها ونتائجها ، وربما كانت عنايته بموقف نابليون من علماء الدين وموقف علماء الدين من البعثة العلمية التى أحضرها معه للدرس والاستطلاع هى الفصل الذى يقال عنه انه بيت القصيد بين سائر الفصول ، وأنه أجمع الفصول لاسباب التعريف بعبقرية نابليون الذى يحسبه المؤرخون بين عظماء القادة العسكريين وتظهره مواقفه من قادة المجتمع المصرى الروحيين فى مظهره الغالب عايه ، وهو مظهر الزعيم الاجتماعى المحنك ، والقائد السياسى ، أو الدبلوماسى ، فى أكثر الاحيان

وكان نابليون يرى بعد اختباره لكبار علماء الازهر أنهم أهل للتوقير والاحترام بحق العلم والمعرفة ، وحق الورع والتقوى ، وحق الخلق الكريم والحكمة الراجحة ، وليس بالقليل منهم من كان أهلا للتوقير والاحترام بحق الثراء وحق النسب العريق . وكان فى مسلكه نحوهم وتودده اليهم يؤمن بأنهم دون غيرهم ، مناط القدوة الاجتماعية ومرجع الطاعة والاعتبار للهيئة الحاكمة ، وقد حاول أن يستخلص منهم آخر الامر بالمعاونة على المشورة ما يدعو

الى اجتناب الثورة والتمرد من جانب المصريين

ويقـول مؤلف الكتاب ان علمـاء الازهر قد احتـفظوا بوقارهم ورصانتهم العقلية أمام عجائب العلم الحـديث التى خيل الى علماء البعثة أنها تقع عندهم موقع السحر من أبناء الشعوب البدائية ، ولكنهم قد نظروا اليها ــ فعلا ــ نظرتهم الى حيل السحرة وأصحاب الشعوذات وان كانوا قد فهموا أنها تستند الى علم جدير بالتحقيق من قبيل ما عرفوه أو سمعوا به من حكمة الاولين

قال المؤلف انه لم تمض حقبة قصيرة على عهد نابليون حتى كان الافريقيون والآسيويون قد علموا ما وراء تلك الحيل من أسرار الكهرباء والكيمياء ، وتبين أن السذاجة كانت من نصيب علماء الحملة لأنهم قدروا الدهشة فى غير موقعها من عقول أولئك الحكماء

ومما يؤخذ من طرائف هـــذا الكتاب مأخذ التأمل والاعتبار أن نابليون على رغبته فى العلم بأحوال مصر وأحوال الجامع الازهر على الخصوص ، قضى أيامه بمصر وهو يعتقد أن الجامع الازهر أثر من آثار صلاح الدين ، ويأخذه الزهو بهـــذه العلاقات الازهرية التى جمعت بينه وبين البطل الاسلامى الكبير فى مقام واحد

***

وختام ما ننقله من الكتب الأربعة فصل عن الساعات الاخيرة فى حياة الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله ؛ وهو فصل من فصول الكتاب الذى ألفته السيدة مارى رولات بنت السير رولات محافظ البنك الأهلى على عهد الاحتلال ، وقد اختارت لكتابها اسم « بناة مصر الحديثة » وقصدت بهم بناة النهضة منذ عصر الثورة العرابية ، وأولهم فى تقديرها الاستاذ الامام رائد الدعوة الثقافيـة ــ الروحية ــ قبل الجيل المعاصر

ومعظم معلوماتها عن نشأة الأستاذ الأمام مستمدة من تراجمه العربية ، ولكنها اعتمدت على مصادرها فيما نقلته عن أخباره الاخيرة ، وكتبت ما أوردته منها بأسلوب ينم على التعظيم والاكبار

قالت : « انه كان يحس آلام المرض قبيل وفاته ، ولكنه كان لا يزال مشبع النفس بكثير من مشروعات الاصلاح ونيات السعي والعمل : صحيفة كبرى ، وجامعة جديدة وسياحة الى فارس والهند وروسيا لتفقد أحوال المسلمين فيها . وتدعوه ضرورة الصحة — أولا — أن يبدأ بالسفر الى أوربا للعلاج وان لم يشعر يومئذ بمبلغها من الخطر .. وكان يزور صديقا له برمل الاسكندرية لقضاء أسبوع عنده قبل الابحار الى أوربا ، ولكنه لم يلبث أن شعر باشتداد وطأة المرض وتبريح الالم والاضطراب ، وأقعده الوهن عن الحركة ثم تعذر عليه النطق فلم يسمع منه غير ذكر اسم الله يستمد منه العزم والعزاء ، وطفق يردد في صوت يشبه الهمس الخافت : الله أكبر .. الله أكبر .. وأدركته زوجته بما وسعها من العطف والرعاية وهي تصغى اليه فلا تستبين ما يقول ، الا أن تفهم من حركة الشفتين أنه يوالى التسبيح بكلمتى التكبير : الله أكبر .. الله أكبر .. ولم يكد يستطيع قبل أن تفيض روحه الى بارئها غير التكبير والابتسام وهو ينظر اليها .. وقد وقف القطار الذى يحمل جثمانه من الاسكندرية الى القاهرة فى غير مواضع الوقوف قضاء لواجب الحزن والتشييع ممن كانوا ينتظرونه فى الطريق .. »

ولم يسلم كتاب السيدة رولات من الخطأ والسهوات ، ولكنها أخطاء وسهوات كأمثالها مما ورد فى كتب هذه المجموعة ، قد تحمل على نقص العلم بالواقع أو اختلاف النظر اليه ، قبل أن تحمل على سوء النية

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص : ب ٢٤

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Atrijari Assharat
P.O. Box 2205.
SINGAPORE

البرازيل :

Mr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRAZIL



هذا الكتاب

كثرت كتابات الغربيين - فى السنوات الاخيرة - عن الاســــلام والامم الاسلامية ،فصدرت كتب ألفها مبشرون ينحرفون عن الصواب بباعث من التعصب وحكم الصناعة والحرفة ، وظهرت كتب لاناس يخدمون السياسة الغالبـة على دولهم ، وكتب أخــــرى لمستشرقين ينشدون الراى خالصا لوجه الحقيقـة العلمية ولكن كتاباتهم مشوبة بالقصور والتأثر بالاشاعات والاكاذيب

ويتضمن هذا الـكتاب مجموعة من البحوث عن الكتب التى ألفهـا كتـاب الغرب من شتى وجهات النظـــر ، تتناول تلخيصا لاهم ما صدر من هذه الكتب ، وتعقيبا عليها ، ومناقشة لمـا يحتاج منها الى مناقشة ـ بمنطق العالم المنصف والمفكر النابه والدارس المتعمق ـ بهدف المزيد من التعريف بالاسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه . .

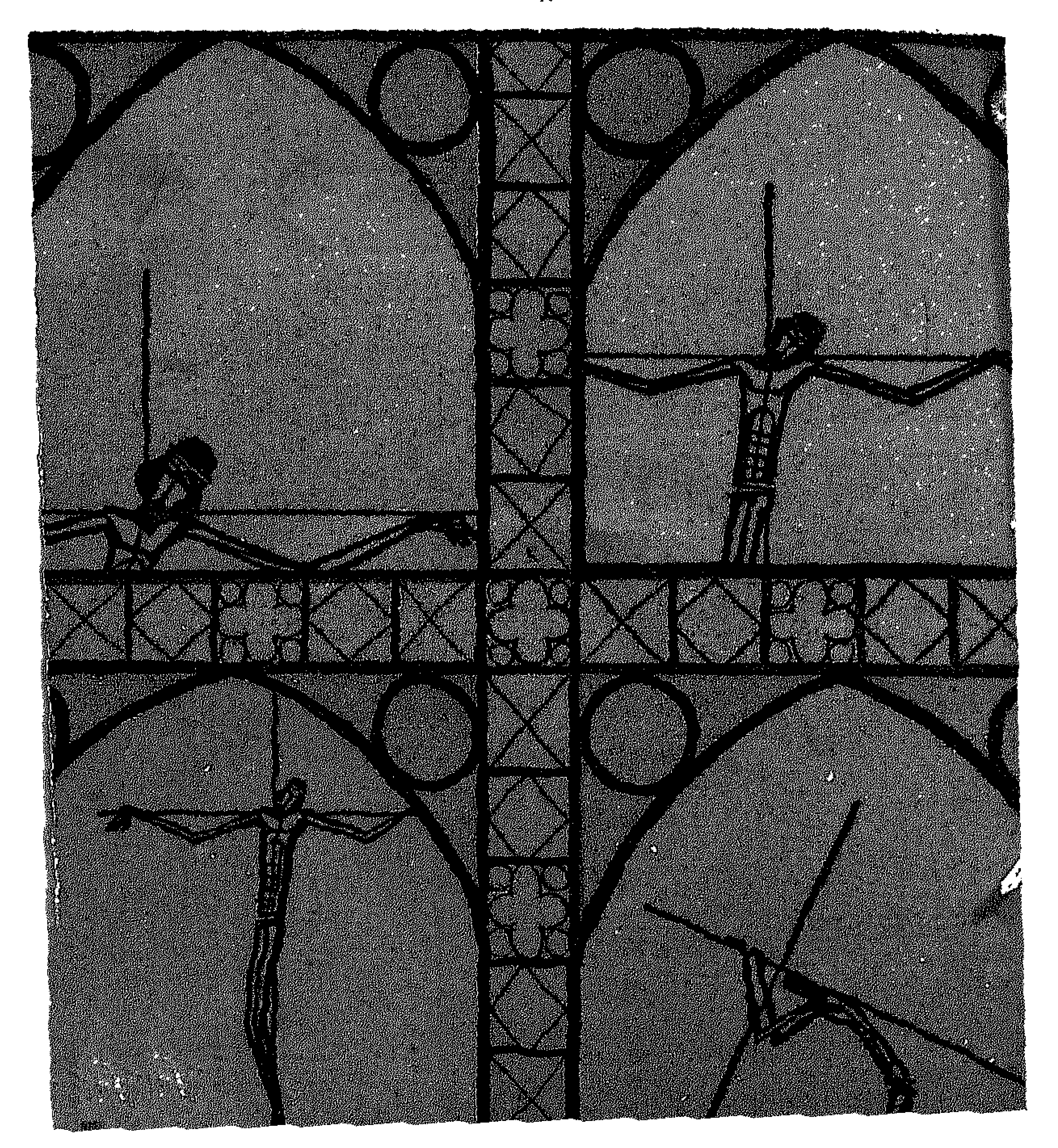
كتاب الهلال ١٥ قرشا

سلسلة ثقافية شهرية

المسيح عيسى ابن مريم

عبد الحميد جوده السحار

١٩٦٠



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٩٠ رمضان ١٣٨٦ يناير ١٩٦٧

No. 190 — Janvier 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

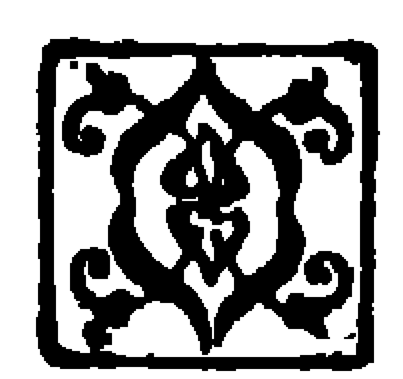
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنان حلمى التونى

عبدالحميد جودة السحار

المسيح
عيسى ابن مريم

دار الهلال

الإهـداء

الى السيد المسيح .. رمز السماحة والحب ..

والى الذين آمنوا برسالته .. رسالة السلام فى كل بقاع الارض ..

والى صديقى محمد محمد فرج ، الذى دفعنى الى كتابة هذا الكتاب ..

المؤلف

- ١ -

« اذ قالت الملائكة يا مريم ، ان الله
اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء
العالمين ، يامريم اقنتى لربك واسجدى
واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء
الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ
يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت
لديهم اذ يختصمون »

(قرآن كريم)

تنفس الفجر ، فانبثق فى الافق الشرقى نبع من الضوء. راح يبعث أشعته الفضية لتبدد ظلام الليل .. وصاح الديك ايذانا بمولد نهار جديد ، فهبت الشمس تقطع رحلتها الابدية ، وأرسلت أشعتها الاولى الى الناصرة ، فانقشعت الغشاوة عن التلال ، وعن أشجار السرو العتيقة التى حنت يد الزمن أطرافها ، وسقط الضوء على أشجار التين والزيتون ، وراح ينسل الى البيوت الصغيرة المبعثرة فى الوادى الخاشع عند أقدام التلال

وتألق زهر البرتقال الابيض كالزنابق ، وتفتح نوار الرمان الاحمر ، وبدا كأنما يبتسم لنور الصباح ، ورجع اليمام على الاشجار ، تسبيحا لخالق الكون والجمال ،

وراح الاخيل الازرق يتنقل فى مراح بين الحقول ، ويحط على الاشجار ، فتلوح كأنما أثمرت ثماراً من الفيروز ..

وأريق النور من كوات المنازل ، فقام عمران من نومه ، واعتدل فى فراشه ، ومد يده وتناول التوراة ، ففتح سفر دانيال ، وراح يقرأ ويفكر فيما يقرأ ، فيهيم فى دنيا من الاحلام . انه ليجد فيما يقرأ غذاء لروحـــــه ، ومادة لتأملاته . ان أسعد أوقات حياته لهى تلك السويعات التى يمضيها فى قراءة التوراة فى الصباح ، وتلك السـويعات التى يمضيها مع جيرانه فى المساء ، يتحدث عن الانبيـــاء وعما فعلوه لبنى اسرائيل ، وعن النبوءات التى تحققت وعن النبوءة الكبرى التى يترقبها الجميع : نبوءة مجىء المسيح ملك اليهود ، الذى سيرسله الله الى بنى اسرائيل

كان يستشعر الزهو يملأ جوانحه اذا قرأ قصـــــة راعوث أو قصة داود ، فهو من نسل ذلك البيت العريق ، انه سليل الملك داود ، وكذلك زوجه من نفس ذلك البيت الكريم ، فما كان لاسرائيلى أن يتزوج الا من طبقته .. انه من نسل الانبياء ، وقد تزوج من امرأة يجرى فى عروقها دم النبوة الكريم ..

وكانت حنه زوجه ، تقدم له طعام الفطور ، وتجلس تشاركه فى طعامه ، فيدور الحديث عن الدين والانبياء ، فما كان هناك حديث فى الناصرة الا عن الانبياء والدين ، فأهلها جميعا من نسل هارون وداود

وكانت الناصرة تتكون من أسرات قليلة فقيرة ، ولو أنها أسرات تنحدر من أصلاب الانبياء . وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الابناء عن الاباء ، فقـــد احترف فرع داود النجارة ، واحترف فرع هارون تجــــارة الاخشاب ، يجلبونها من التلال ، واحترفت الفـــــروع الاخرى صناعة النعال أو تجفيف التين

وكان عمران يخرج الى عمله ، وينطلق فى شوارع الناصرة الضيقة ، يلقي السلام على كل من يقابله ، فالرجال يعرف بعضهم بعضا ، ويرجع ذلك التعارف الى أجيال ، فالزواج محصور فى تلك الاسر الهابطة من الانبياء ، حتى لا يضيع الدم الذكى بين الناس

كان عمران يمارس عمله ، فاذا نزل بحانوته زائر أو صاحب عمل ، طفق يحدثه عن قصص التوراة ، ويردد مزامير داود فى صوت أخاذ يهز المشاعر ، وينزل الخشوع بالقلوب ، فترتيلاته تنبعث من قلب نقى ، مفعم بالايمان العميق ..

وأقبل يوم السبت ، فارتدى عمران أفخر ثيابه ، وارتدت حنة ثياب الخروج ، وانطلقا الى الكنيس ، وذهب عمران الى مكان الرجال ، وذهبت حنة الى الشرفة العالية المعدة للنساء المحجبات ، وراح الجميع يصلون ، فانبعثت الاصوات ملائكية تأخذ بالالباب ، فأحس عمران كأنما يهيم فى السموات ، وما انتهت الصلاة حتى عادت تراوده الفكرة التى طالما راودته فى يقظته ، وطافت به فى منامه ، فكرة الذهاب الى اورشليم ، لخدمة المعبدالعظيم، فقد رأى فى منامه أنه يقوم بسدانته وطهوره وتجميره ، وتقديم الذبائح الى اله اسرائيل

ان زكريا زوج اليصابات أخت حنة ، هناك فى معبد الرب ، يقوم بخدمته ويكرس حياته للعبادة ، فلماذا لا ينطلق هو من اساره ، ويتحرر من قيود الدنيا ، ويهب نفسه خالصة لله رب العالمين ؟ ..

عاد عمران الى بيته ، وقد ملىء عزما على الخروج الى أورشليم ، ليكون من خدام المعبد المخلصين ، وأفضى الى حنة بما قر عليه رأيه ، فجعلا يتأهبان للخروج ، حتى اذا تم لهما ما ارادا انطلقا فى الطريق المنساب بين التلال ،

مخلفين وراءهما بيوت الناصرة الناصعة ، وهبطا الى السهل الاخضر اليانع ، وراحا يطويان الارض ، حتى أشرفا على السامرة فأخذا يتقدمان تقدما فى حذر ، فالسامريون يبغضون اليهود ، فهم يعتقدون أنهم ابناء اسرائيل الحقيقيون ، ولا يعترفون الا بكتب موسى الخمسة ، دون باقى التوراة ، ويعتزون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون ان هارون كتبها بخط يده ..

تأصلت العداوة بين السامرين واليهود ، فكان حجاج الناصرة والبلاد الشمالية يتجنبون المرور بالسامرة فى عيد الفصح ، فى طريقهم الى أورشليم ، خشية ان يقع بينهما ما يكدر صفو الجميع ، وما كان السامريون يذهبون الى اورشليم لذبح قرابينهم ، بل كانوا يترقون فى الجبل، يسوقون ذبائحهم ، حتى اذا كان القمر بدرا ، أمر الكاهن بالذبائح فتنحر ، وتلطخ أبواب الخيم بالدم .. كانت لهم تقاليدهم ومعتقداتهم وشريعتهم ، وكانوا يعتقدون انهم وحدهم الذين يعرفون الله

ونام عمران وحنة ليلتهما ، ما تكاد تغمض عيونهما حتى يفر النوم خوفا ، واشرقت الشمس وقاما يستأنفان سفرهما . كان النهار رائعا ، والحقول مخضرة ، والتلال أقل وحشة ، والرعاة ينطلقون امام الاغنام يرسلون أصواتهم العذبة بالغناء القوى فيعبث بأوتار القلوب ، والفلاحون يعملون : هذا يبذر الحب ، وذاك يحرث الارض ، وثالث ينتظر الثمار من الرب ، والفتيات يحملن الجرار فى طريقهن الى الدور ، وطويت الارض ، واذا بأشجار قليلة على جانبى الطريق ، وبينها بئر يعقوب ، فذهبت حنة تملأ الماء ، واستلقى عمران فى ظل شجرة ، فالبئر مكان اجتماع

النساء ، فى الصباح وفى المساء ، وما كان ليذهب اليها رجل ..

وعادت حنة وجلست الى جوار زوجها، وجعلا يتحدثان عن البئر التى حفرها أبوهم اسرائيل . ثم استأنفا سفرهما وفى قلبيهما أمل ، أمل الوصول الى أورشليم ، لخـدمة المعبد العظيم ..

وفيما هما منطلقان اذا بغلمان يلعبون ، فهز مشهدهم أوتار قلبيهما ، وهفت روحاهمـا اليهم ، فما رزقهما الله أولادا ، وبلغا بئر راعوث .. فنزلا عندها وقد سرت فيهما بهجة ، وطاف براسيهما ما ورد فى التوراة عن هذا المكان الذى عاشت فيه جدتهما الكريمة التى انحدر من نسلهـا الملك داود ..

وناما ليلتهما عند البئر الحبيبة .. وانهما ليستنشقان عبير الماضى ، ويتمثلان حوادثه الهادئة التى مرت بجدتهما كحلم لطيف بين مآسى التاريخ ، وانقضت الليلة بهيجة ، ثم قاما الى الطريق يضربان فيه ، يخترقان الصحراءوالحقول، ويمران بالقرى التى كانت تبدو كصناديق من الطـين مبعثرة ..

وبلغا أرباض المدينة المقدسة فخفق قلباهمـا ، لاحت أورشليم شامخة فى الفضاء ، وبدت قبة المعبد الذهبية تتألق تحت ضوء الشمس الوهاج ، فأحس عمران روحه تخفق بين جنبيه ، وطفرت الدموع من مآقيه

وانطلقا بين التـلال المغطاة بالكـروم وأشجار التين والزيتون ، وانسابا فى مسالك المدينة يشعران بالغبطة ، حتى وصلا الى بيت زكريا ، فراحت حنة تعانق أختهـا اليصابات ، وصافح زكريا عمران فى شوق وترحيب

ومرت الايام ، وانقطع عمران للعبادة ، وكانت حنـة

واليصابات تذهبان الى المعبد ، تجلسان في الشرفة المثلثة التي أعدت للنساء ، وقد دثرهما ايمان عميق ، فالانوار السماوية تتلألأ ، والاصوات الملائكية تتـــردد في المكان ، فتحلق الارواح في عوالم من الصفاء ، والرجال في مسوح الرهبان أطرقوا خاشعين ، فانعكست على وجوههم طمأنينة النفوس ، وزكريا وعمران يخدمان المعبـــد ، فقد وهبا نفسيهما لله .. ربطت بينهما المصـــاهرة ، وألف بين قلبيهما حبهما لله ، وجعلا يسارعان في الخيرات ، ويدعوان الله رغبا ورهبا ، وكانا له خاشعين

وكرت الايام حلوة هنية ، وحملت حنة ، فهزها الفرح ، لان اعظم ما تفعله فتاة في اسرائيل ، أن تنجب لزوجهـا أولادا ، وشغلت بما في بطنها ، فراحت تفكر فيه ، وتتمنى أن يكون كجده داود

كانت تقضي جزءا من نهارها في المعبد ، وتصغي جزءا من ليلها الى قصص موسى وهارون ودانيـــال ، فكانت تعيش مع الانبياء ، وكانوا محور تفكـيرها ، فاذا فكرت فيمن في بطنها ، أمدتها ذاكرتها بما رسب في واعيتها على مر السنين وكر الايام ، ولطالما رأته بعين خيالها نبيـا من أنبياء بني اسرائيل ، كانت تراه مرة كالصبي دانيال ، وتراه تارة اخرى كالصبي داود يصرع جالوت ، ورأته اكثر من مرة كموسى على الجبل يناجي ربه

ومرض عمران ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فراحت حنة تمرضه ، وشغلت به عما في بطنها ، ولم ينفعه حب زوجه وتمريضها ، فذهب الى ربه ليجد ما عمله من خـير محضرا . وتأهبت حنة للعودة الى الناصرة ، وقبـــل الرحيل انطلقت الى المعبد ، ونظرت فوجدت زكريا قائما ، فحرك ذلك أشجانها ، وزاد في حزنها ان انقطع بمـوت

عمران شرف خدمة المعبد الذى كان فى بيتها ، فأطرقت أسفا ، وداعبتها فكرة أضاءت ظلام نفسها ، لماذا لا تنذر ما فى بطنها لخدمة المعبد ، فيقوم بما كان يقوم به أبوه ، فيعود الى البيت شرفه ؟ واطمأنت الى الفكرة ، فشخصت ببصرها الى السماء ، وقالت فى حرارة :

ـ رب .. انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى انك أنت السميع العليم

ورجعت الى الناصرة ، وغادت الى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ، ووضعت ما فى بطنها ، فاذا به فتاة ، فنظرت الى السماء من خلل كوة فى الجدار ، وقالت معتذرة :

ـ رب ، انى وضعتها أنثى

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى ، وفكرت فى اسهم لها : وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ شخصت الى السماء ثانية وقالت :

ـ وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ..

تقبل الله مريم بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، فكانت تمضى سحابة يومها مع أمها فى خدمة البيت ، وتنطلق الى البئر تجلب لها الماء ، وتسقى الاغنام القليلة التى تملكانها ، وتذهب فى طرقات الناصرة تقضى حاجاتها ، فاذا جن الليل وفد الى الدار بعض الاقارب ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وكان حديثهم يدور حول الدين والانبياء ، فكانت تعيرهم سمعها ، فذلك الحديث يصادف هوى فى نفسها ، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود ، فالمدن اليهودية تستيقظ لتتحدث عنه ، وتهجع وصدى الحديث عن ملك اليهود المنتظر

يتردد بين جنباتها

وكبرت مريم ، وصار على حنة أن تفى بنذرها ، فأخذت ابنتها وانطلقت الى أورشليم ، لتسلمها الى العباد المقيمين فى المعبد ، ودخلت على اليصابات تنتظر ، وأقبل زكريا فذكرت له ما جاءت من أجله

وذاع بين العباد المنقطعين للعبادة ان امرأة عمران جاءت بابنتها تدفع بها الى من يكفلها ، فتنازعوا فى أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم ، فاليصابات خالتها ، فقال للمختصمين :

ــ أنا أحق بها منكم ..

ــ ما أحد أحق بها من أحد

ــ فماذا ترون ؟ ..

ــ نرى أن نقترع .. فمن خرجت عليها قرعته كان له حق كفالتها ..

وجاء كل منهم بقلم معروف به ، وحملوا الاقلام ووضعوها فى موضع ، وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث « كاتون (١) » أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا ، فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

ــ لا ، نقترع مرة ثانية

فقال لهم زكريا :

ــ ماذا تطلبون ؟

ــ نلقى أقلامنا فى النهر ، فأينا جرى قلمه على خلاف جريه فهو الغالب

وذهبوا الى النهر ، وألقوا أقلامهم .. فسارت جميع الاقلام مع التيار ، الا قلم زكريا فقد جرى على خلاف جريه فى الماء ..

فكفلها زكريا ، واخذها لتكون خادمة من خدام المعبد ،

---

(١) تطلق على اليهودى الذى لم يبلغ الثانية عشرة

وخصص لها مكانا للعبـــادة فى الطبقة العلوية ، فكانت تصغى الى النقاش الدائر بين العباد ، والى المعلمين الذين يعلمون تعاليم الدين .. فاذا أسدل الليل سدوله ، وخلت بنفسها فى غرفتها ، راحت تقرأ فى التوراة عن المســـيح ابن الانسان ، الذى سيجىء من نسل داود ليقيم العدل ، وينزل أمراء الارض والجبارين عن عروشهم ، وينـــزع أسنان مرتكبى الاثم والشرور ، فتشخص الى الســـماء بعينيها الواسعتين السوداوين ، وتشرد فى عوالم واســعة من التأمل والتفكير

وجاء عيد الفصح ، فوفد الحجاج من سورية ومصر واثيوبيا وآسيا الصغرى وبابل واليونان ، يسوقون أمامهم النحائر ، يقدمونها للنحر فى المذبح ، واصوات المصــلين تتجاوب فى المعبد . ولما انتهى العيد ، خرجت بنـــات أورشليم الى الحدائق ، وخرج الحجاج الشـــبان خلفهن ، يبحثون عن زوجات ، ولم تبق فى منازل اورشليم فتاة ، الا مريم كانت فى محرابها تصلى لله

وفدت حنة مع الحجاج ، وقابلت مريم ، ولما انقضى العيد أخذتها الى الناصرة تعيش معها أياما ، ثم تعود الى محرابها للعبادة والصلاة ، وانطلقت القافلة من أورشليم ، ومر يومان ، وفى اليوم الثالث أشرفت على الجليل ، كـان الربيع قد جاء ، فبدت الحدائق فى ثوبها القشيب ، والحقول كأنما فرشت ببساط من سندس أخضر ، وأخذت الارض زخرفها وازينت ، فتلفتت مريم منشرحة ، فالجليل قد بدا كقطعة من جنات النعيم ..

وانسابت القافلة فى طريقها حتى أشرفت على الناصرة ، فاذا أشجار السرو والتين والزيتون تغطى سفوح التلال ، واذا البيوت فى الوادى خاشعة فى محـــــــراب الكون العريض ، واذا مريم تمد بصرها ، فلا ترى من بين تلك

الدور الا دارها الصغيرة ، التى نبت فى فنـــائها بعض أشجار الزيتون ، وراحت بعض الاغنام تجول فيه

عادت مريم الى الناصرة ، ولكن روحها هائمة بأورشليم، فصلوات الرهبان تنساب رقيقة عذبة فى أذنيها ، ومشاهد العباد تترادف فى مخيلتها ، ومحرابها الذى تقوم فيـــه ليلها ونهارها ماثل أمام عينيها

وجاء الليل بهدوئه وأسراره ، وبدأت حلقات السمار تتجمع فى الناصرة ، وبقيت حنة ومريم وحيـــدتين فى دارهما ، وتصرم من الليل أوله ، واذا بطارق يطـــرق الباب ، فقامت مريم وفتحته فاذا قريب وافد للمؤانســة والحديث ..

جلس الرجل ، وبدأ يتحدث فيما جاء فيه ، قال :

ـ أصبحت مريم شابة ، وخير ما تفعله فتاة من بـــنى اسرائيل أن تتزوج ، وأن تنجب أولاداً ، وقد جئت أخطب مريم

فأطرقت حنة قليلا ، ثم قالت :

ـ لمن ؟ ..

ـ ليوسف بن يعقوب

كان يوسف قريبا لمريم ، وكانت حنة تعرفه ، ولكنهـا صمتت قليلا ، فقال الرجل :

ـ يوسف شاب كريم ، وهو من بيت داود ، وانى أزكيه

فرفعت حنة رأسها وقالت :

ـ أحب شىء الى نفسى أن أزوج مريم قبل أن أموت .

***

وتجاذب الرجل وحنة أطراف الحديث ، ومريم صامتة لا تنبس بكلمة ، حتى اذا انتهت هذه الزورة ، ودخـــلت فراشها ، أحست سحابة من الاسى تنتشر فى صـــدرها ،

كانت تسمع فى المعبد أن المسيح سيأتى من نسل داود ، وستضعه عذراء ، وكانت تحلم ككل عذراء فى اسرائيل أن تكون أم النبى المنتظر ، أما وقد خطبت الى يوسف بن يعقوب ، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل

وأعلنت فى الناصرة خطبة مريم ، وأجل الزواج الى أن يقيم يوسف له بيتا تنتقل اليه العروس ، وأحست مريم شوقا الى أورشليم ، انها تفتقر الى الغذاء الروحى الذى كانت تتناوله فى المعبد ، فاستأذنت من أمها فى العودة الى محرابها ، تمجد الله وتقدس له حتى ينتهى يوسف من اعداد عش الزوجية السعيد

كان على يوسف أن يعمل فى حانوته بيده ، ليدخر المهر الذى يدفعه للعروس ، وما يكفيه لاقامة دار قريبة من دار حنة ، وذلك يحتاج الى وقت طويل ، فأهل الناصرة فقراء لا يدفعون الا أتفه الاثمان فيما يقوم لهم به من أعمال النجارة ، فلم يعترض على عودة مريم الى أورشليم ، لتعيش فى المعبد ، فى رعاية زكريا ، قريبها الشيخ المبارك

وغادت مريم الى محرابها ، تمضى نهارها فى العبادة والاستغفار ، وتمضى ليلها فى التطلع الى نجوم السماء ومناجاة ربها ، وتصل اليها ترتيلات المصلين عذبة تنعش روحها ، وفى ذات ليلة ، بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها ، أحست كأن شخصا فى محرابها ، فتلفتت فلم تجد أحدا ، فمشى الخوف فى أوصالها ، وأرهفت حواسها ، واتسعت عيناها السوداوان رعبا ، ومس أذنيها خفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

ــ من هناك ؟

واذا بصوت عذب يقول :

ــ أنا رسول ربك اليك

وغرق المكان فى ضوء باهر ، فخفق قلبها فى شدة ،

وانبهرت انفاسها ، وتفصد العرق منها ، وانبعث صـوت عذب مس شغاف قلبها :
ـ يا مريم ، ان الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ..
وساد المحراب سكون رهيب ، وبقيت مريم فى ذهول ، حتى اذا أفرخ روعها ، أحست أمنا يغشاها ، وطمـأنينة تنسكب فى روحها ، فملئت نشوة ، وسالت دموع الفرح على خديها ، وخرت ساجدة شكراً لله رب العالمين

- ٢ -

« وكفلها زكريا ، كلما دخل عليهـا زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، قال: يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب »

(قرآن كريم)

الهدوء يلف كل شيء ، حتى كان زفيف النسيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من الذبالة يبدد الظلام ويفرش المكان بنور واه لطيف ترتاح اليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، ولاحت فى الضوء الخافت اللطيف مريم، راكعة فى خشوع ، تبتهل الى الله ، وجرت الدموع على خديها من الرهبة والوجد ، كان فى وجهها نورانية وصفاء ، واقبل زكريا يسير الهوينى ، وقد نال منه الكبر ، يلوح فى

وجهه التقى والصلاح ، ودخل عليها المحراب ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها فتعجب ، وقال لها :

ـ يا مريم ، انى لك هذا ؟

ـ هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ..

وخرج زكريا ، وفتحت مريم التوراة ، وراحت تقرأ قصص الانبياء ، فأحست قربا منهم ، فرسل الرحمن الذين أرسلوا الى موسى وهارون وداود حدثوها ، وبشروها بأن الله قد اصطفاها وطهرها .. ان الحوادث التي كانت تقرؤها فى شغف ، أصبحت تلمسها وتحسها فى أعماقها ، كانت تتمنى ان تكون كراعوث وراحيل اللتين كانتا بركة على بنى اسرائيل ، فاذا الملائكة تخبرها ان الله اصطفاها على نساء العالمين ..

وراح زكريا يفكر فى أمره ، انه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه ان يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى ان يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له ان يطمع فى ذلك واليصابات عاقر ، ولكن لما وقع بصره على الفاكهة ، احيا ذلك موات الامل فى نفسه ، ان الله الذى يرزق مريم بفاكهة فى غير أوانها ، قادر على ان يهب له ذرية على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

ـ يارب ، يارب ، يارب ..

وصفت نفسه ، وتفتحت روحه ، واحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره ، وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

ـ رب ، انى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم اكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى ،

وكانت امراتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا

وأطرق براسه خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما ، يقول فى صوت حلو أخاذ :

ـ يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا ..

فرفع زكريا رأسه وقال :

ـ رب ، أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟! ..

قال الملك :

ـ كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا

ـ رب اجعل لى آية

ـ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا

وخرج زكريا على قومه ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه بالسرور ، ورمز الى قومه ان يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى

ودخل زكريا على مريم محرابها ، فوجد عندها رزقا ، فرمقها فى اكبار ، واستشعر فى نفسه أن الله يعدها لأمر جليل ، فهى من نسل داود ، وما زالت عذراء ، فمن يدرى ، قد تكون أم المسيح الذى تنبأ بمجيئه وبشر به الناس ..

وقنتت مريم لربها ، وسجدت وركعت ، وابتهلت الى الله فى فحمة الليل ، وفى رائعة النهار ، وبينما هى فى محرابها هبت نسائم رقيقة ، وعبق الجو بروائح زكية ، وغرق المكان فى نور سماوى ، واذا بالملائكة امامها ، واذا بأمر عجيب ينزل بصدرها ، ورفعت بصرها وقالت الملائكة :

ـ يا مريم ، ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والاخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ..

اذهلتها البشرى ، فاضطربت ونسيت أنها كانت ترجو ان تكون أم المسيح المنتظر ، ونسيت ما كانت تعرفه من أن أمه ستحمل به وهى عذراء ، فنظرت الى السماء وقالت :

ـ رب ، أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟

قال :

ـ كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ..

واجتهدت مريم فى عبادتها ، فصفت نفسها ورقت ، وجاء الصيف ، فكان النهار طويلا ، والجو حارا ، فأحست عطشا ، فرفعت قلتها لتشرب ، فلم تجد فيها ماء ، فقامت وهبطت الى المعبد ، فطفقت أصوات المصلين تتضح فى مسامعها ، والفت روحها تردد الصلاة فى اعماقها ، وذهبت وقلتها فى يدها ، وخلفت المعبد وراءها ، ولكن أصواتا ملائكية عذبة ظلت تردد الصلوات فى الفضاء ، فخيل اليها ان الكون كله يمجد الله ، وان الريح تسبح بحمده ، وان كل شىء يذكر اسمه . ففاضت بهجتها ، وبلغت البئر وملأت قلتها ، وتأهبت للعودة ، ولكنها وقفت تتطلع فى عجب ، فالدنيا خاشعة ، كل شىء هادىء ، كأنما الارض تتلقى وحيا من السماء ، وفجأة سمعت حركة بجوارها ، فالتفتت خائفة ، فاذا بشاب وسيم يشع من وجهه نور . فاضطربت وارتدت وقد اتسعت عيناها رعبا وانبهرت انفاسها ، وقالت :

ـ انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا

فقال فى صوت يقطر رقة وعذوبة :

ـ لا تراعى ..
فقالت ولا زالت فى خوفها :
ـ من أنت ؟ ..
ـ انما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاما زكيا ..
ـ أنى يكون لى غــلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟ ..
ـ كذلك قال ربك ، هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ..

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت الى محــــرابها ، وقبعت فيه مطرقة تفكر ، فغشيها هم وقلق .. لقد حملت بالمسيح ، وستظهر عليها علامات الحمل . فهل يصدقها الناس اذا قالت لهم ان الله وهب لها غلاما زكيا ؟ لــن يصدقها الناس ، سيتغامزون عليها ، ويرمونها بالفاحشة ، ولن تستطيع لاتهامهم دفعا

وراحت الأيام تمر وهى تعيش فى أفكارها ، واجتمعت عند البئر بفتيات يتحدثن ، فدار الحديث حول الدين ، وجاء ذكر المسيح المنتظر ، فرأت مريم ان تعرف رأى الناس اذا كاشفتهم بسرها ، فقالت لهم :
ـ لقد حملت به ..

فاتسعت العيون دهشا ، وارتسمت على الوجوه زراية، وجرت على الالسن سخرية مريرة ، فانسحبت مريم وهى حزينة ، تكاد كبدها تنفطر ، وعزمت على ان تطوى سرها فى صدرها ، ولكن حديث البئر ذاع بين بنات أورشليم ، وقال الناس : ان مريم تريد ان تخفى خطيئتها بادعائها انها حملت بالمسيح ، عرفت أنها من نسل داود ، ،فوجدت بذلك مبررا لدعواها الكاذبة

وانتشر حديث حمل مريم انتشار الريح ، وذاع حتى بلغ الناصرة ، فساد القوم وجوم ، وراحوا ينظرون الى

يوسف النجار فى احتقار ، وقاطعوه لانه جنى الثمرة قبل أوانها ..

وعجب يوسف لنظرات الناس وكشحهم بوجوههم عنه ، وسأل عما دفع الناس الى احتقاره ، فبلغه ما يقول الناس عنه ، فنزل به حزن ثقيل ، ولم يصدق ما يلصقه الناس بمريم . انه يعرفها تقية نقية ، وقلبه يوحى اليه أنها لا تأتى فاحشة ، وما كان قلبه يخدعه . واستمر حديث الناس يؤذيه ، فلم يستطع عليه صبرا ، فشد الرحال الى أورشليم ، الى حيث تتعبد مريم

انطلق وهو حزين ، ونفسه موزعة بين الرجاء واليأس ، اذا أراد ان يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها ، واذا أراد أن يبرئها ذكر ما يقول عنها الناس ، فبقى فريسة لأفكاره لا يهدأ له بال ، ولا تغمض له عين ، فيستريح من الرؤى التى تهاجمه فى قسوة ، فتمزق روحه ، وتفتت كبده

وبلغ أورشليم ، وتقدم خافق القلب ، مضطرب النفس ، وقد شغل باحساساته عن كل ما حوله ، وقابل مريم ، فألفاها قد رق جسمها ، واصفر لونها ، وكلف وجهها ، ونتأ بطنها ، فانقبض ، ونزل بقلبه حزن عميق ، وغشى وجهه اظلام ، ولكنه كبت ما يقاسيه ، فقد كانت نفسه كأسفنجة تمتص الآلام ولا تطفح بها ، فقال لها وهو مطرق لا يرفع عينيه اليها :

ــ بلغنى ما يقول الناس عنك ، وقد حرصت على أن أميته واكتمه فى نفسى ، فغلبنى ذلك ، فرأيت ان الكلام فيه أشفى لصدرى ..

فقالت مريم فى ثبات :

ــ فقل قولا جميلا ..

ــ ما كنت أقول الا ذلك ، فحدثينى هل ينبت زرع بغير بذر ؟ ..

ـ نعم ..
ـ فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها ؟
ـ نعم ..
ـ فهل يكون ولد من غير ذكر ؟
ـ نعم ، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر انما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر ، او لم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث ، وانه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر ، بعد ان خلق كل واحد منهما وحده ؟ او تقول لم يقدر الله على ان ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على انباته ؟ ..

قال يوسف : لا أقول ذلك ، ولكنى أعلم ان الله بقدرته على ما يشاء ، يقول لذلك كن فيكون ..

ـ او لم تعلم ان الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ..
ـ بلى ..

وأطرق مفكرا .. لقد وقع فى نفسه ان الذى بها شىء من عند الله .. ولم تتركه لفكره ، بل قالت له :
ـ ان الله بشرنى بالمسيح عيسى ابن مريم ..

كان يوسف مؤمنا تقيا ، يعتقد ان الله سيرسل المسيح الى بنى اسرائيل نبيا ، من صلب داود ، وستضعه عذراء ، ومريم من تلك السلالة الطاهرة ، وهى كفء لحمله ، فلم يمار فى ذلك ولم يكذبها ، ودخل لينام فاذا بملك يقول له :

ـ يا يوسف ، ان ما فى بطن مريم من عند الله ، وقد اختارك الله لتكفل رسوله ، ولتكون راعيا له

فهب يوسف من نومه منشرحا ، وسجد لله شكرا ، أن أختاره حارسا لمسيحه ، الذى سيرسله هداية لبنى اسرائيل ..

— ٣ —

« فحملته فانتبذت به مكانا قصـيا
فاجاءها المخاض الى جذع النخلة . قالت
ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »

(قرآن كريم)

راى رهبان المعبد امارات الحمل تظهـر على مريم ، فاستعظموه ولم يدروا على ماذا يحملون امرها ، وساءهم أن تلوث المعبد من كانوا يظنونها انقى اهل الارض طرا ، انهم تخاصموا فى ايهم يكفلها ، وقد شبت بينهم لا تغادر محرابها الا لضروره ، ان هذا الامر يقلقهم ويحيرهم ويعصر نفوسهم فى أسى ، فاجتمعوا يتشاورون ، يديرون قـداح الرأى بينهم ، فرأوا أن يحاكموها ، فاذا ظهر أنها فسقت رجموها ، كما تقضى شريعة موسى

وراح زكريا يذكر لهم ما راى فى محرابها ، ويذكرهم ببشارات الانبياء بالمسيح ، وان هذه التى يتهمونها ظلما هى الأم الموعودة ، التى يترقب بنو اسرائيل وليدها . ان زوجته ما حملت الا ببركتها ، فلولاها لما رزقه الله يحيى، واستمر يبرئها مما نسبوه اليها ، ولكنهم اعرضوا عنـه ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا ما انبرى للدفاع عنها الا لأنه كفيلها ، ولأن أمها أخت زوجته اليصابات..

وخيم الظلام ، ودثر أورشليم فى غلالته السوداء ، ونام الرهبان ينتظرون الصباح ، ليحاكموا مريم ويرجموها ، ودخل يوسف الى فراشه ، وما أسلم جنبيه للرقاد ، وأغمض عينيه حتى هتف به هاتف :

ــ يوسف قم ، وأخرج مريم ، فالقوم يأتمرون بها

هب يوسف من نومه ، فأعد حماره ، وانطلق الى مريم وهو يترقب ، فاخبرها بما أوحى اليه ، ثم حملها على حماره ، وانطلقا فى سكون الليل فى الطريق الضيق ، حذاء الأسوار الهائلة التى تبعث فى النفوس الرهبة ، تلك الاسوار التى بناها داود حول المدينة المقدسة ، وتركا الطرق المتعرجة ، وانسابا بين التلال الصفر ، ثم خرجا الى الفضاء ،فصفرت الرياح، ومشت الرعدة فى جسميهما . كانت الليلة شديدة البرودة ، وأرسل القمر ضوءه ينير الطريق ، فبدت الصحراء الواسعة كبساط أصفر فضى وشاه الحسك . وانطوى الليل واشرقت الشمس فدبت الحرارة فى الاجسام المقرورة ..

ولمحا بئرا فذهبا اليها ، ونزلا عندها حتى اذا استراحا من السفر ، قاما يستأنفان رحلتهما ، وغابت الشمس فى الأفق الغربى ، ولاح الطريق الأبيض الذاهب الى بيت لحم ، فانسابا فيه . وظهرت المدينة بأشجار السرو العالية ، والمنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التى تظللها ، وأخذت بيت لحم تتضح أمام عيونهما ، فخفقت قلوبهما ، وبدت الاغنام بين الاشجار كقطع من الجليد متناثرة ..

وبلغا باب المدينة ، فاذا النسر الرومانى فوقه ، واذا بجند من جنود الرومان واقفون يحصلون الضرائب ، فالملك هيرودس يجبيها فى كل مكان ، ليرفعها الى أسياده فى رومية .. انه يفعل كل ما يرضيهم وان كان فى ذلك ارهاق لشعبه ، فغاية ما يبغيه أن يرضى عنه سيده أوغسطس قيصر ..

دخلت القوافل بعد أن أدت الضرائب ، ومرت الجمال كالاطياف ، وراحت حوافر الحمير تضرب الارض فترتفع أصواتها ، ودخل يوسف ومريم وقد أرخى الليل سدوله .

وانسابا فى طريق قامت على جانبيه أشجار الزيتون

كانت ليلة شديدة البرودة ، وكان القمر فى ليلة تمامه يرسل أشعته ، فيسدل على الكون وشاحا فضيا أخاذا ، وكانت النجوم فى رقعة السماء تتلألأ ، كأنما جلتها يد ساحرة ..

وارتفعت نغمات مزمار ، فاذا براع يرعى غنمه فى الليل ، واذا بالغنم قد استكانت ورفعت رءوسها ، كأنما الانغام تسكب النشوة فى أجوافها ، فنظرا ، فقفزت الى ذهنيهما صورة داود وهو يرعى الغنم ، فقد رعاها فى هذه البقاع التى غطيت بالاعشاب ، فكانت مراعى طيبة ..

وسارا ، وما ابتعدا الا قليلا حتى أحست مريم آلام الوضع . فتلفتت فوجدت حقلا منبسطا ، انه الحقل الذى جاءت اليه جدتها راعوث ، تجمع منه الحنطة وهى كسيرة الفؤاد ، بعد موت زوجها ومجيئها مع حماتهـــا نعمى ، ووجدت ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم ، فرأت أن تتحامل حتى تصل الى نزل قريب ، ولكن فاجأها المخاض الى جذع نخلة ، فاحتمت به تضع ما فى بطنهـــا

كانت الريح تزمجر ، والقر شديدا يجمد الاطراف ، فوقف يوسف بعيدا ، وقد أطرق أسى ، فمريم تضع أمل بنى اسرائيل المرتقب فى الخلاء ، ليس لها وطاء الا الارض ولا غطاء الا السماء ..

وهدأت الرياح ، وهبت نســـائم عبقة بالعطر النفاد ، وتغير الجو فاذا الليلة الباردة تنقلب ليلة رائعة من ليالى الربيع ، وسقط من السماء نور باهر أضـــــاء المكان ، وانبعثت ترتيلات ملائكية هزت نفس يوسف ، وجعلته ينظر وهو لا يدرى ، أهو سابح فى حلم من أبهج الاحلام أم هو يقظان ..

غشى النور أبصار الرعاة ، فنظروا مدهوشين ، ومست

آذانهم الاصوات الملائكية التى تسبح لله القادر ، فامتلئوا عجبا ، وفطنوا الى أن المرأة التى التجأت الى الشجرة انما تضع مولودا مباركا له شأن عظيم

وطاف برأس مريم خاطر •• لقد جاءت ساعة الوضع • وعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها ، فماذا يقول قومها عنها •• فحزنت وبرح بها الحزن ، فقالت :

ـ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ••

ووضعت ابنها ، وما لمس الارض حتى ناداها من تحتها :

ـ لا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى : انى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم انسيا

وحمل يوسف مريم ووليدها ، وذهب الى نزل وضيع . وانطلق الرعاة الى المدينة يقصون ما رأوه فى الليـــلة العجيبة ••

وخرج ثلاثة رجال من فارس ، يرصدون نجوم السماء ، فهم يقرأون ما سطر فى سجل القدر ، ليرفعوه الى ملكهم • كانوا على علم بالنجوم ، وما كان الملك يتخذ أمرا قبل آن يستمع الى نصحهم ورأيهم

كان الملك يحكم شعبه ، وهؤلاء الحكماء يحركون الملك ، فهم الملوك الحقيقيون : يعلنون الحروب ، ويقتلون الرجال ويبوحون ـ ان أرادوا ـ بالسلام ، فهم القوة المحركة فى البلاد ، يقبضون على أزمتها باسم العلم والدين ••

شخص ثلاثتهم الى السماء ، يرصدون النجوم المتلألئة فى الرقعة الزرقاء ، قال قائل منهم :

ـ طلع الليلة نجم جديد

ـ هذا نجم لم نره قبل الليلة ••

ـ ولد الليلة ملك ••

ـ انه ملك اليهود ..
ـ الملك الذى جاء ذكره فى التوراة ، ذلك الذى سيرسله الله سلاما ..
ـ حقا هذا نجمه ..
ـ وأين ولد ؟
ـ هناك فى أرض اليهود
ـ فلنخرج اليه ، نعلن تصديقنا به ، وايماننا بالله الذى أرسله ..

وتجهزوا للرحلة الطويلة ، وحملوا هداياهم ، وكانت من الذهب والمر واللبان ، وامتطوا رواحلهم ، وخرجوا من فارس ، وعبروا دجلة والفرات ، وانسابوا فى الصحراء على امتداد البحر الميت ليبلغوا أرض اليهود ، ويسألوا عن المولود الذى بزغ نجمه فى المشرق ..

بلغ الرجال الثلاثة صهيون ، وانطلقوا يتلفتون ، انهم يرون القوافل غادية رائحة ، والعربات التى تجرها الثيران ذاهبة الى الحقول أو خارجة منها ، فظلوا فى سيرهم حتى رأوا سوقا ، فهبطوا عن رواحلهم ، واندسوا بين الجماهير

راحوا يتنسمون أخبار المولود الذى رأوا نجمه فى السماء ، فلم يهتدوا اليه ، واقترب أحدهم من عين من عيون هيرودس ، وقال له :

ـ بزغ فى المشرق نجم ملك اليهود الذى وعد الله أن يرسله سلاما فجئنا من بلادنا نبحث عنه ، ألا تدرى أين ولد ؟ ..
ـ ماذا تريدون منه ؟
ـ جئنا نؤمن به ونصدقه
ـ لم أسمع بهذا الاسم قبل الآن

واستمر الرجال فى بحثهم وتنقيبهم ، وذهب رجل هيرودس الى القصر ، وكان الملك فى قصره الجديد فى

صهيون ، يفضى اليه بالنبأ العجيب ، فبعث هيرودس رجاله يحضرون له هؤلاء الذين جاءوا من فارس يوسوسون فى آذان الشعب ، أن ملكا جديدا قد ولد ، فيزعزعون ثقة الشعب فيه ..

وخرج رجال الملك الى السوق ، وجاءوا بالرجال الثلاثة فلما مثلوا أمام هيرودس الاكبر ، قال لهم :

ـ من أنتم ؟

ـ نحن أشراف قومنا ، شرفنا العلم والدين ، نقرأ النجوم ، ونعرف الغيب ، وما كان ملكنا يقضى أمرا قبل أن يرى رأينا فيه

ـ وما الذى جاء بكم الى أرضنا ؟

ـ هذا أوان نبى أظلنا زمانه ، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم ، نرقب بزوغ نجمه ، فلما بزغ شددنا الرحال اليه ، نصدقه ونؤمن به ، ونقدم اليه هدايانا

ـ فما بال الذهب والمر واللبان قد اخترتموها من بين الاشياء كلها ؟

ـ تلك أمثاله ، لان الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه ، ولان المر يجبر به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبى يشفى به الله كل سقيم ومريض ، ولان اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبى يرفعه الله الى السماء لا يرفع أحدا غيره ..

ـ وما أدراكم أنه يظهر هنا فى أرضنا ؟

ـ انه رسول الى بنى اسرائيل ، انه ملك اليهود

انقبض هيرودس ، ولكنه أخفى عواطفه ، والتفت الى من حوله وقال :

ـ على بالكهنة ..

فجيء بهم ، فقال لهم :
ـ أسمعوا ما يقول هؤلاء ، ثم انبئونى أين يولد هـذا المولود ..
أصغى الكهنة الى الرجال الثلاثة ، ثم قالوا :
ـ يولد المسيح ، نبي بني اسرائيل في بيت لحم مدينة داود ..
فتطير هيرودس ، وانفجر فى جوفه مرجل غضـبه ، وتحركت عوامل الحقد فيه ، انه طاغية لا يطيـق ان يعترض سبيله انسان ، ويا طالما قضى على افراد أسرته حتى لا ينافسه فى ملكه منافس ، واذا بهؤلاء الغـرباء يقدمون من بلاد بعيدة ، ليخبروه ان وليدا قد جاء الى الدنيا ليستل منه عرشه ، لو انه يدرى أين هذا الوليـد لقتله ، ولاستراح منـه ، ولكنه لا يـدرى أين هو ، فكظم غيظه ، وجعلَ يدارى ما به ، وقال متكلفا الرقة :
ـ اذهبوا ، فاذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فانى أرغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره
وانطلق الرجال الثلاثة الى بيت لحم ، ودلفوا الى الطريق الأبيض الذى قامت على جانبيه أشجار الزيتـون . اخترقوا الحدائق ، وهم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون ، وراحوا يبحثون وينقبون ، ولكنهم لم يهتدوا الى الطفـل المبارك الذى تجشموا أهوال السفر ليقدموا اليه هداياهم، وكنوز قلوبهم العامرة بالايمان واليقين ..
وأقبل الليل ، وبزغ فى السماء نجم ، انه نجم ذلك النبى الموعود ، فتطلعوا اليه فاذا بالنجم يسير ، كأنمـا يهديهم سواء السبيل ، فساروا فى اثره ، وقلوبهم تخفق فى حنايا الضلوع
وتلألأ النجم فوق نزل متواضع كأنما يسير اليه ، فقالوا فى فرح :

ـ انه هنا ، فى هذه الدار ..

وتقدموا خافقة قلوبهم ، يشعرون برهبة ما أحسوا بها قبل الآن ، فطالما تقدموا الى الملوك ثابتى الجنان ، لا يسرى فى أجوافهم خوف ، وطرقوا الباب هونا ، فاذا بالباب يفتح واذا بصوت يدعوهم للدخول ، فتقدموا خاشعين ، وفى ضوء المصباح الخافت تبينوا المكان ، فاذا مريم جالسة وعلى ركبتها ابنها الصغير ، تحيط به هالة من نور ، ووقف الى جوارها يوسف ، الرجل الذى فتح لهم الباب ، ودعاهم الى الدخول

دنا الرجال من الطفل الصغير ، فنزل بقلوبهم أمن ، وانداحت فى أجوافهم بهجة ، لأن رحلتهم لم تذهب هباء ، وقاموا الى مريم يقدمون اليها ما يحملون من الذهب والمر واللبان ، وقالوا لها :

ـ خرجنا الى هنا حاجين ، وجئنا من فارس نعلن تصديقنا برسول رب العالمين

ونام الرجال الثلاثة فرحين ، وعزموا على أن يرجعوا الى هيرودس ويخبروه أنهم عثروا على المسيح ، ليؤمن به ويصدقه ، وما دار بخلدهم أن هيرودس وأهل بيته هم اعداؤه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويموم يبعث حيا ..

واغرقوا فى نومهم ، فرأوا من يقول لهم :

ـ لا ترجعوا اليه ، ولا تعلموه بمكانه ، فانما أراد بذلك أن يقتله ..

وانصرف الرجال الى بلادهم ، وقد أخذوا طريقا غير طريق هيرودس ، الذى يبغى القضاء على رسول الله الي بنى اسرائيل ..

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم
لقد جئت شيئــا فريا ، يا أخت هارون
ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك
بغيا ، فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم
من كان فى المهد صبيا » ؟ .

(قرآن كريم)

بقيت مريم فى المنزل لا تستطيع مغادرته ، فما كان لامرأة وضعت ما فى بطنها ان تترك البيت قبل ان يمضى على ذلك أربعون يوما حسب شريعة موسى ، وتمت الايام، فخرج يوسف ومريم والوليد ، وانطلقوا فى رحلتهـــم الخالدة ، الى الناصرة اذا نزلوا بئرا أطلق عليه من بعـد بئر مريم ، واذا استظلوا بشجرة حجت اليها الاجيال ، واذا مدوا أبصارهم الى مشهد من مشاهد الكون ، هرع الفنانون والرسامون والكتاب على مر العصور يستوحون الطريق الذى يجتازونه الآن ، ليمدهم بالمشاعر والانفعالات التى تيسرلهم ابراز لوحاتهم ، أوشحن كتبهم بالاحساسات النابضـة ..

كانت رحلة هينـة ، لم يستشـعروا فيها آلام النفس التى كانت تضنيهم ، فقد أقلع الخوف بعد أن صدق الله وعده ، ووهب لمريم ابنها فى بيت لحـم اليهـودية ، ان الله حارسهم ومؤيدهم ومظهرهم ، فلن تفت فى اعضادهم الشدائد ، ولن تعرف قلوبهم القلق وان حاقت بهـــم الكروب ، سيمتثلون أوامر الله صابرين ، حتى يتم نوره

ولو كره الكافرون

وانقضت أيام ، وانطوى الطريق ولاحت تلال الناصرة تكللها أشجار السرو والزيتون ، وانساب الركب الصغير الى البيوت الناصعة . وظهر يوسف ومريم والطفل الصغير في شوارع الناصرة ، فتطلع الناس اليهم في احتقار ، واشاحوا عنهم الوجوه زراية ، فلم تطرق مريم عارا ، بل ظلت مرفوعة الرأس ·· اذ كانت على يقين من انها تضم الى صدرها أشرف مخلوق

وأمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار ، فخف اليها بعض أقاربها يقرعونها أمام الناس ، مظهرين غضبهم مما فعلته ، مبرئين أنفسهم من اثمها الذى ارتكبته ، ولحتها أمها ، فانطلقت اليها ، الخزى يكللها ، والحزن ينهش قلبها ، والنار تلسع روحها ، ودموع العار تجرى على خديها ··

نظر القوم الى مريم ، مريم التى سميت باسم اخت هارون التقية الصالحة ، تيمنا بها ، فاذا بها تأتى اليهم وعلى يديها ابنها الناطق بفاحشتها ، وقالوا لها :

ــ يا مريم ، لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا

طأطأت حنة رأسها في ذلة ، وتمنت لو أن الارض تنشق وتبلعها ، فوقع ذلك المشهد شديدا على نفسها ، عاشت تقية نقية ، وما دار بخلدها أن الزمن يدخرها ليوم كيومها هذا الذى تمنت لو لم تشرق شمسه ، اما مريم فكانت هادئة ، لم تنبس بكلمة ، بل أشارت اليه أن كلموه فقالوا فى غضب :

ــ ان سخريتها بنا أفجر من فاحشتها ، كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

واذا بالصبى يتكلم ، فتنعقد السنة الجميع دهشا :

ـ اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا اينما كنت ، واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ،والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا

انجلت عن صدر امرأة عمران الهموم ، واندلحت فيه نشوة هزتها فانهمرت دموع الفرح من مآقيها

ودخلت مريم دار أهلها ، فاذا أشرقت الشمس جلست أمام الباب تداعب ابنها ، وتمد بصرها الى ما حولها فتحس انشراحا ، فالارض ازينت وارتدت ثوبها الاخضر القشيب ، فكانت كأنما ردت الى شبابها ، والتلال توجت بأشجار التين والزيتون فلاحت فى النور زاهية ، وانطلقت الاغنام ترعى العشب هادئة بريئة ، براءة ذلك الطفل الراقد فى حجرها يهز يديه ورجليه فى مرح

خيل لمريم ان الدنيا كلها راكعة تحت قدميها ، لتنافس فى أن تدخل البهجة على قلب ابنها ، النسيم يهب رخاء ينعش الافئدة ، والشمس ترسل اشعتها لطيفة تبعث فى النفس الامل ، والطيور ترفرف فوقها فى فرح ، والاغنام تفد اليها تتمسح بها ، فتضع يده على رءوسها ، فتشرق بسمة على ثغره ، ان قلبه الصغير ليهفو الى وداعة الغنم

كانت الطمأنينة تلف كل شيء فى الناصرة ، فقرت عين مريم ، وسكن الهدوء قلبها ، ولكن ما كانت هذه السكينة لتدوم طويلا ، فما كان الله يدع من يعده للرسالة للراحة والهدوء والدعة ، ان الله يحمله المشاق ، ليعوده الاحتمال والصبر ، ويقسو عليه بالحرمان ، ليغرس فى نفسه العطف ، ويرسله يضرب فى الارض ، ليزيد فى كنوز قلبه الغالية

ومن هناك من صهيون جاء الفزع . كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف فرقا على عرشه ، فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابا .

كان حفيد خادم في هيكل اشقلون ، واغتصبه الملك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين ، وجاءه اليهود . واخبروه أنهم لا يقبلونه ملكا عليهم ، فما كانوا يملكون عليهم الا رجلا من بني اسرائيل فأزهق أرواحهم ، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة ..

كان الخوف من ان يهوى عن عرشه يقلقه ، ويثير ضراوته ، فاذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته ، أمر بخنق زوجته الاميرة مريمنى ، لانه ظن انها تعمل على أن تعتلى عرشه ، ولم يشفع لها عنده انها المرأة الوحيدة التى خفق قلبه بحبها ، وسفك دماء الفريسيين، لانهم تنبأوا بزوال ملكه ، وانقضاء سلطانه . وقتل بعض أولاده ، ليقضى على وساوسه التى نبتت فى صدره ، فقد حامت حولهم شكوكه ، وظن انهم يتآمرون على ملكه..

كان همه الاوحد أن يوطد سلطانه ، ولما كان على يقين أن الشعب يبغضه ولا يؤيده ، استمد التأييد من القياصرة الرومان ، خضع لهم ، ورفع اليهم الضرائب وثبت النسر الرومانى على المعبد ، وعلى أبواب المدن ، واحاط نفسه بجنود مرتزقة ، لا هدف لهم الا سلب ما تصل اليه أيديهم ..

كان حاكما قاسيا فظا غليظ القلب ، غارقا فى الآثام ، بلغ فى الدماء ، فطالما ذبح كهنة ونبلاء ، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء بالتنكيل والتعذيب ، وطالما سلب لينفق آثامه ، حتى سلب قبر داود ، وراح يعب كأس اللذات ، وعرف عنه الشذوذ .. وضاق الناس به ، فذهب وفد من اليهود الى روما يشكون سوء ادارة ذلك الطاغية ، فقالوا أن الذين اصابتهم نقمته أسعد حالا ممن يعيشون فى كابوس حكمه ، ولكن أوغسطس قيصر أصم أذنه ، فهيرودس خادم امين لروما ، يطبق قوانينها ، ويتبع

سياستها ، ويعلم أبناءه بها ليرضعهم حبها ، ويغرس فيهم الخضوع لها ..

وفد المجوس اليه وانبأوه أنهم جاءوا من بلادهم لما بزغ نجم ملك اليهود ، فأنشب القلق أظافره في جوفه ، وانتظر على كره منه اوبتهم ليخبروه بمكانه ، فيقضي عليه، ويستريح من اوهامه ، وطال انتظاره ، ولم يرجع اليه الرجال . فعيل صبره ، وكشر الوحش القابع فى أغواره عن انيابه ، فأمر – كما أمر فرعون موسى من قبله – ان يقتل جميع الرضع في بيت لحم ، حتى يقضي على ذلك المولود الذى تطير به ، واقلقه وانزل بصدره المخاوف والهموم ..

كان ذلك في القصر الهائل الشامخ على جبال صهيون ، اما فى الناصرة فقد عسعس الليل ، واغلق يوسف النجار حانوته ، وعاد الى البيت ، انه يقاسي شظف العيش ، كان الفلاحون والفقراء يعهدون اليه بأعمال النجارة ، وما كان معهم ما يجزونه به . وتناول طعامه ، وراح يقرأ في التوراة ، حتى انقضى من الليل ثلثه ، ودخل الى فراشه ونام ، ورأى في نومه من يهتف به :

– يا يوسف ، قم واحمل الطفل وأمه واخرج الى مصر، فهيرودس يبحث عنه ليقتله

فهب يوسف من نومه ، وقلبه يدق فى شدة ، واخذ المصباح الخافت ، وانطلق الى حيث كانت مريم ، فألفاها نائمة تضم اليها ابنها فى حنان .. فناداها :

– مريم .. مريم ،

ففتحت عينيها السوداوين الواسعتين ، ونظرت فوجدت يوسف أمامها ، وتبينت على الضوء الخافت قلقا فى وجهه ، فقالت :

– ماذا حدث ؟ ..

ـ انهضى .. ان الله يأمرنا أن نخرج الى مصر ..

وقامت مريم تعـــد عدتها لسفر طويل ‥ وتجهز يوسف بالزاد والماء ، ولما تم كل شيء حملت مريم ابنها ، وركبت حمار يوسف ، وساروا فى ســـكون الليل فى طرقات الناصرة الضيقة ، وأخذوا يطوون الطريق المتعرج الذى ينساب بين التلال كثعبان ‥

وخرج جنود هيرودس الى بيت لحم ، وانقضوا على الرضع انقضاض الكواسر ، ينتزعونهم من الصـــدور الخافقة بالحنان ، ليذبحوهم ذبح الانعام ، بين النواح والعويل والصراخ ، وسجا الليل وقد تجللت بيت لحم بسواد الحداد ، وانبعث من دورها النحيب والنشيج ، فما تركت سيوف هيرودس بيتا الا طعنته فى سويداء الفؤاد ‥

واشرقت الشمس والمدينة غارقة فى الدماء والركب الصغير الهارب من وجه الطغيان ينطلق رويدا رويدا فى جوف الصحراء ٠ ونظر يوسف خلفه ، ثم اخـــذ بزمام حماره ، وتقدم يخوض محيط الرمال فى ثقة ، فقد كان على يقين أن الله يرعاهم ، وأنه لن يضيعهم

— ٥ —

« وجعلنا ابن مريم وامه آية ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين »

(قرآن كريم)

ارتفعت الشمس ، ومرت الســـاعات ولا شيء غـير الشمس والرمال والسماء ، لا حركة ولا حس ، كأنما فارقت المكان الحياة ، حتى الرياح خمدت ، ولولا الحرارة

المنبعثة من الرمال ، لخيل للركب الصـغير المنطلق فى سبيل الله ان كل شىء قد مات ..

وظلوا فى سيرهم ، ليلهم ونهارهم ، حتى بلغوا طريق القوافل ، فراحت مشـــاهد التوراة تتمثل حية أمام أبصارهم ، ففى هذا الطريق بيع يوسف بدراهم معدودة ، وفى نفس الطريق سرى يعقوب بأهله ليدخلوا مصر بسلام، بعد ان صار يوسف على خزائن الارض ، وفى هــذا الطريق ذهب موسى هاربا من وجه فرعون بعد أن قتل المصرى ..

كانت تربطهم بهذا الطريق ذكريات وذكريات ، ذكريات حلوة مشرقة بالامل ، وذكريات مرة تغلفهـا الاحزان . ساروا يجترون حوادث الايام ! وما دار بخلدهم ان هذه الرحلة التى يكابدون مشاقها انما خلدت على الايام

واستمروا فى سيرهم بين شروق وغروب حتى أشرفوا على طور سيناء ، فخفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة، فقد تجلى الله لموسى على هذا الجبل ، وكتب فى الالواح وصاياه ، وذهبوا الى الوادى المقدس طوى ، فخلع يوسف نعليه ، ووضعت مريم ابنها على الارض ، فشخص ببصره الى السماء ، وخرت هى ساجدة ، كانوا فى تلك البقعـة الطاهرة يناجون الله

ودخلوا مصر آمنين ، وتركوا الصحراء ، وانطلقوا فى الحقول ، وجاء الغروب ، فراحت الشمس تغوص فى الافق البعيـد ، فبدت جداول الماء فى لون العقيق ، ثم انقلب لونها الى أصفر فضى ، وسرعان ما انقلب الى لجين ، وبدا النخيل كأشباح ســود سامقة فى ظلال السماء ، واختفت الصــقور والحدأ والغربان ، وخفتت زقزقة العصافير ..

مضى النهار وبقى الشفق ، فما نشر الليل أجنحته على

مصر بعد ، وخشع الكون وهدأ وصار كل شيء لا ظل له ، وراحت النجوم تبزغ واحدة اثر اخرى فى رقعة السماء ، واشرف القمر على الفضاء ، فأنار السبل ، وغلف الدنيا بسحره ، وانعكس ضوؤه الفضى على صفحة النيل فبدا كمرآة ..

رنا يوسف ومريم الى النيل رنوة صداقة ، فقد حمل موسى لما ألقته أمه فيه الى قصر فرعون ، ليشب فى كنفه امعانا فى السخرية منه ، وشب موسى وكبر وأرسله الله الى فرعون ليرسل معه بنى اسرائيل ، وظل صابرا حتى أخرج قومه من العبودية والذل المهين ..

انفعل يوسف لتلك الذكريات ، وانفعلت لها مريم ، وكان لها فى نفسيهما وقع السحر .. قوت عزائمهما ، وثبتت ايمانهما ، وراح عيسى ينظر الى ماحوله بعينيه الصافيتين ، وأشرق على فمه الصغير ابتسامة رضا ، فضمته أمه فى هيام ووجد ..

ودلفوا الى منف ، فاذا العجلات تعج فى الطرقات ؛ واذا الجنود فى غدو ورواح ، واذا الناس فى اقبال وادبار، واذا الاعمدة فارهة عالية ، واذا المعابد هائلة شاهقة واذا التماثيل قدت من الصوان ، واذا الجلبة والضوضاء فأزعجهم ذلك الصخب المنبعث من أرجائها ، بعد الهدوء الشامل المسيطر على الحقول والصحراء . وادركهم النصب ، فهبطوا بها يقضون ليلة

ثم ولد النهار ، فخرجوا الى منف يجوسون خلالها ، فألفوا المتاجر منتشرة على جوانبها ، مكدسة بالبضائع والحلى وأدوات الزينة ، والعجلات الفاخرة تنطلق فى دروبها . انها مدينة غنية ، ينعم بالعيش فيها السادة الفارغون اصحاب الاقطاعات ، أما الفقراء فيحيون فيها

حياة السائمة . قرأوا أن يغادروها الى الخلاء حيث الدعة والصفاء ..

ذهبوا شـــمالا ، ونزلوا عين شمس ، وما انتظمت انفاسهم بعد الرحلة الطويلة القاسية ، حتى أخذ يوسف يبحث عن عمل يقتات منه ، انه نجار ، فامتهن النجارة ، ووفقت مريم الى العمل فى حقل من الحقول ، فما أشرف أن يأكل المرء من كسب يده

كانت مريم تخرج مع الشمس ، وتعود مع الغروب ؛ وفى وقت الظهيرة تستظل بشجرة جميز عجوز ، وتتناول طعامها ، ثم تستأنف عملها . والمهد فى منكبها فما كانت تأمن على ابنها أحدا ، والوعاء الذى تجعل فيه السنبل فى منكبها الاخر ، فاذا جن الليل ذهبت تصلى لله وتدعوه ، ثم تنام فى المكان الوضيع الذى أعده صاحب الارض لمبيت عماله ..

ومرت شهور وأعوام ، وعيسى فى مصر ، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها ، وجريان النيل وزيادته ونقصـــانه ، وبذر الحب وترقب الثمار من الرب ، ويصغى الى أمه تقرأ له التوراة ، وتعلمه الدعاء والصلاة ، فكان فى هجعة الليل يرنو الى النجوم المتلألئة فى سماء مصر الزرقاء ، الصافية صفاء القلوب المؤمنة ، ثم يأخذ فى مناجاة ربه ، فيحس على صغره ، كأنما ملىء قلبه نورا وحكمة ..

وتعاقب الليل والنهار ، ومرت الشهور اثر الشهور ، وجرت الفصول خلف الفصول ، وكرت الســـنوات ، وترادفت الفيضانات ، وزاد عمر الزمن سنوات ، وعيسى فى مصر يرى قسوة الحكام ، وذلك الثراء الذى يخرج من الطين دون عناء ، ليبدد فى الهواء

وفى ليلة من الليالى دخل على أمه ، فألفى الوجوم يخيم

على المكان ، فنظر اليها فعرف فى وجهها الحزن ، فدنا منها وقال :

ــ ماذا حدث يا أماه ؟ ..

ــ سرقت خزانة صاحب الدار

ــ يا أم أتحبين أن أدله على ماله ؟

ــ نعم يا بنى ..

ــ قولى له يجمع لى من فى الدار ..

ذهبت مريم الى الرجل ، والتمست منه أن يجمع كل النازلين بداره ، فلما اجتمعوا ، عمد عيسى الى رجلين منهم ، أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فحمل المقعد على عاتق الاعمى ، ثم قال له :

ــ قم به ..

فقال الأعمى فى مسكنة :

ــ أنا أضعف من ذلك

فقال عيسى :

ــ فكيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ، بعثوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة

قال عيسى للرجل :

ــ هكذا احتالا لمالك البارحة ، فقد استعان الأعمى بقوته ، والمقعد بعينيه .. فلم يستطع الرجلان نكرانا ، فقالا : صدق ..

وردا المال الى الرجل ، فجاء الى مريم وقال :

ــ يا مريم ، خذى نصفه

ــ انى لم أخلق لذلك

ــ فاعطيه ابنك

ــ هو أعظم منى شأنا

— ٦ —

« وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا »

(قرآن كريم)

تحت ظلال نخيل أريحا قام قصر هائل .. انه قصر هيرودس الذى شيده لمسراته ، يجتمع فيه بجواريه وبمن يصطفى من زوجاته اللاتى أكمل عدتهن عشرا ، كانت الراقصات العاريات يتثنين فى أبهائه ، وأصوات المغنيات تتردد فى جنباته ، وضحكات المجون تعلو على صخب الندماء والمخمورين ..

ولف القصر — على غير عادة — سكون ، وخيم عليه هدوء شامل وراح الجنود والخدم يسعون هونا فى طرقاته ، فالملك الطاغية طريح الفراش ، يشكو ما ألم به من أسقام . كان مسجى فى سريره الفاخر ، يغوص فى الديباج ، ولكن القروح كانت تأكل جسمه ، والدود يسرى فيه ..

اصفر لونه ، وذبل ، وغارت عيناه ، ولكن لم تختف قسوته وضراوته ، فاذا ضاق بمرضه حطم كل ما تصل اليه يداه ..

وذاع فى البلاد خبر مرضه ، ولما كان الشعب يبغضه من كل قلبه ، استراح الناس الى هذا النبأ ، وباتوا يترقبون الخلاص القريب ، ان هى الا أيام ويموت الطاغية ويتنفس الشعب بعد حكم قاس دام أطول السنين

وشاع فى أورشليم أن هيرودس الكبير قد مات ، فعم الفرح وأمر المعلمان اليهوديان يوداس ومتياس تلاميذهما أن يهبطا النسر الرومانى الذهبى الذى ثبته على باب

الهيكل الكبير ، ليتخلصوا من ذلك العار الذى دمغهم ، وجثم على صدورهم ككابوس بغيض

ونكس النسر الذهبى ، وارتفعت أصوات السرور . ولكن لم تدم هذه البهجة طويلا ، فقد كان فى عمر الشقى بقية ، وبلغته وهو فى مرضه أنباء هذه الثورة ، فبعث أقسى جنوده ليؤدبوا الثائرين ، وفى طرقات أورشليم دار القتال ، فانهزم الثوار ، ورفع النسر ثانية على باب الهيكل الكبير ، وجىء بأربعين من تلاميذ يوداس ومتياس، وأراد هيرودس الراقد فى فراشه أن يبرهن على قدرته وجبروته ، فأمر بحرقهم أجمعين

واشتدت وطأة المرض عليه ، وفكر فى أمره ، فساءه أنه سيموت ولن يذرف عليه احد دمعة ، وحركت هذه الفكرة الوحش الكامن فى نفسه ، فأرسل الى رؤساء القوم ومشايخ الأسرات أن يوافوه الى قصره فى أريحا ، وأمر أن يذهبوا الى ملعب الخيل ، ليرفهوا عن انفسهم ساعة ثم يأتوا اليه ، وانطلق سادات القوم الى هناك ، وما دلفوا الى المكان حتى اغلقت دونهم الأبواب

وأرسل الى اخته سالومى ، وأسر اليها أن تقتل هؤلاء الرجال يوم موته ، فما ينبغى أن يكون ذلك اليوم يوم فرح وابتهاج ، بل ينبغى أن يكون يوم بكاء ونحيب ، وأن يسيطر على البلاد حزن عام ، ولن يكون ذلك الا اذا قتل أشراف القوم وساداتهم

أضناه المرض ، وضاق بالقروح المنبثقة فى جسمه ، فهاجت قرحة نفسه ، وفكر فى أن يتخلص مما يقاسيه من كرب وعذاب ، فهم بالانتحار سأما من الجحيم الذى يحيا فيه ، فالقمل يسرى فى بدنه ، والنار تسرى فى روحه ، فتعذبه عذابا ما أقساه ، ولكن أخفقت محاولته، فلا زال له نصيب من الضنى فى دنياه

وفى سكرات الموت لم يفارقه طبعه ، خيل اليه أن أبنه انتيباس يتعجل موته ، ليتربع فى الحكم من بعده ، فأمر بقتله ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن ينفذ أمره ، فما كان هناك من يصغى الى رجل يلفظ آخر انفاسه ، ويخرج مع تلك الانفاس امره بهلاك من سيئول اليه السلطان

واستسلم الطاغية للموت ، واشباح ضحاياه تطوف بفراشه ، مستنزلة عليه لعنة السماء ، وانسل الروح الخبيث من الجسد الذى لم يعرف الا الخطايا ، ولم يسع الا الى الشر والفساد . وما ذاع نبأ هلاكه ، حتى اشتعلت الثورات ، فالشعب يريد التخلص من حكم أسرة هيرودس الطاغية ، فما يريد أن يحكمه انتيباس ولا ارخيلوس ، ولكن أرخيلوس اعتلى العرش ، ولم ينفذ وصية ابيه فى اشراف القوم ، لا حبا فيهم ، بل خوفا من الفتنة التى اطلت بخطمها

وطالب الثوار أرخيلوس بمعاقبة نصحاء هيرودس ومستشاريه ، فلم يفعل فأعلنت أورشليم العصيان ، وشاء ارخيلوس ان يعلم رعاياها ، انه ليس اقل ضراوة من ابيه ، فأمر بذبح ثلاثمائة منهم فى الهيكل

ثار الاردن ، وثارت اليهودية ، ودعا يهوذا الجليلى الى حرب روما للتخلص من نيرها ، ففى ظلها يستبد بهم امثال هيرودس وأرخيلوس ، فاجتمع الثوار وانطلقوا الى أورشليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى كان يحميها ..

ـدى قائد من القواد بنفسه حاكما على أريحا ، وافتتح عهده بأن دمر قصر هيرودس وأشعل فيه النار ورفع علم الثورة فى جميع المدن اليهودية ، وخف الناس الى يهوذا الجليلى يؤيدونه فى ثورته ، ويشدون أزره فى حربه ضد روما

وغضب أوغسطس فى روما ، فأمر حاكم سـورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنـود العربية والفرسـان الجرمان الذين كانوا تحت امرة القائد الرومانى ، ودخلوا فلسطين ، يقتلون الرجال ، ويتركون المدن طعمة للنيران، ففر الثوار منهم الى التلال ، فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع ..

وسيطر الرومان على أورشليم ، ورفع الحصـار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهـودية ، فاجتمـع الفلسطينيون ومشـايخ اليهـود ، وبعثـوا سـفراء الى أوغسطس يلتمسون منـه أن ينصب عليهم ملكا يعيـد الهدوء والسلام ..

اصغى أوغسطس الى الوفد القادم الى روما ، يلتمس صيانة الأرواح ، فألفى الفرصة سانحة ليقسم فلسطين الى ولايات ، تشغلَ بحزازتها الداخلية عن النسرالرومانى الجاثم عليها ، يكاد يكتم منها الانفاس

قسم فلسطين الى ولايات ، ونصب أبنـاء هيرودس الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فهيرودس عبد مخلص لروما ، غذى أبناءه بحبها ، وسيتنافسون فى ارضاءالنسر الرومانى ، وحمل الضرائب ، وخيرات البـلاد اليه . واحتفظ بأرض اليهودية ، وجعلها ولاية رومانية ، يحكمها حاكم رومانى ، يتلقى الاوامر من روما ، فما كان ليترك أورشليم ، القلب المقـدس ، فى يد حاكم قزم من حكام الولايات ..

وهدأت العواصف التى اجتاحت فلسـطين ، وعاد الصناع الى أعمالهم ، والتجار الى تجاراتهم ، والتلاميذ الى مدارسهم ، ولكن لم يرض المؤمنون الذين ملئت قلوبهم حقدا على الحكم الرومانى ، والقوانين الرومانية .. كانوا يرون الخلاص فى العودة الى شريعة موسى ، فلن يعـرف

الناس راحة القلب ، وهدوء النفس . ولن يقوم العدل ، وتسود المحبة مكان التشاحن والبغضاء ، وتنقشع المظالم، وتنمحي الفوارق ، ويتساوى الجميع ، ويعطف الاغنياء على الفقراء ، ويحب الفقراء الاغنياء ، الا فى ظل حكومة تستمد قوتها من السماء

مات هيرودس فى قصره فى أريحا ، وعيسى فى مصر : يشب غريبا ، بعيدا عن أهله

وجاء الليل ، وذهب يوسف لينام ، فراى فى نومه من يقول له :

ـ قم وخذ الصبى وأمه ، واذهب الى أرض اسرائيل، لانه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي

وراح يوسف يتجهز للعودة ، حتى اذا تم كل شي ، انطلق الركب المبارك فى الطريق الذى خرج منه موسى وقومه ، ان موسى خرج خائفا يترقب ، يخشى أن يلحق به فرعون ، أما يوسف وعيسى ومريم فينطلقون آمنين ، تداعبهم الآمال اذ هم مقبلون على قومهم ، ينتظرون وعد الله ومكتوبه ..

***

خلفوا مصر وراءهم ووطئت أقدامهم أرض فلسطين ، وانطلقوا لا يرون الا الصحراء المترامية ، فى الطريق الموصل الى بيت لحم ، فقد كان يوسف يبغى أن ينزل بها ، ففيها ذكريات حبيبة الى نفسه ، وهى قريبة من أورشليم ، لا يفصل بينهما الا ساعات قليلة على ظهر حمار ، ولكنه علم وهو فى الطريق ، ان ارخيلاوس خلف هيرودس ، ولما كان يعلم انه سر أبيه ، انطلق الى الجليل ، ثم الى الناصرة ، الوطن الاصلى ومنزل الحدود

هبطوا الناصرة ، يحيون فيها حياة بسيطة .فى الصباح تذهب مريم الى البئر تملأ جرتها ، ثم تعودلتعتنى بشئون

بيتها ، ويذهب يوسف الى حانوته ، يعمل فى النجارة ، وعيسي معه يحمل الكراسي والصناديق الى أصحابها ، فما كان يذهب الى المدرسة ، بل كان يعمل ليحصل قوته

وفى ذات يوم أقبل أحد الفريسيين الى حانوت يوسف ، فرنا اليه يوسف فى قلق ، فالفريسيون هم رجال الدين المتزمتون الذين يراعون تطبيق حرفية شريعة موسى • أوصى موسى بالطهارة فراحوا يفتشون على الاسرائيليين ، ليتحققوا انهم يسيرون على الناموس ، كانوا يأمرون بغسل كل شيء ، ولو كان الماء يغسل لأمروا بغسله

تناول الفريسى الأوعية ، وجعل يعاينها ، فلما اطمأن الى نظافتها ، راح يجوس خلال الحانوت ، ويمرر اصبعه على الحيطان ، ويوسف يرنو اليه ، حتى اذا انتهى الرجل وخرج راضيا تهلل وجه يوسف انشراحا ، أما عيسى فكان يتطلع الى ما يجرى أمامه فى امتعاض ، فما كان يطمئن الى مثل ذلك الرياء

وجاء يوم السبت فخرجوا الى المعبد ، يوسف وعيسى الى حيث يجلس الرجال ، ومريم الى المكان المعد للنساء • وجاء خادم المعبد بالتوراة ، وقام رجل ووقف على الشرف ، وراح يقرأ سفر التكوين ، فى صوت عذب خشعت له القلوب ••

وقضيت الصلاة ، واجتمع اليهود حلقات يتناقشون ، فضاق عيسى بنقاشهم ، وانسل من بينهم ، وانساب فى طرقات الناصرة ، وراح يرتقى تلا ، وجلس يرنو الى السماء ••

كان يحب الوحدة ، ويحس راحة اذا انفرد بنفسه ورنا الى السماء • وطالما قالت له أمه ان الله هناك ، فكان ينظر فى شرود ، فيمتلىء غبطة ، فروحه تتصل بملكوت الخالق المتعال ••

وهب النسيم من البحر رقيقا ، فداعب أوراق التين والزيتون ، فبلغ أذنيه حفيف الشجر ، فخيل اليه أن الكون يفضى اليه بأسراره

وانحدرت الشمس ، وراحت تختفى وراء التلال ، وهو ينظر . يخيل لمن يراه أنه وسنان ، ولـــكنه هائم فى الفضاء ، ويفتح قلبه للمعرفة ، والحكمة الهابطة عليه

— ٧ —

« واتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه، ولم يكن جبارا عصيا »

(قرآن كريم)

سجا الليل ، وخيم على أورشليم ظلام ثقيل ، وتلألأت النجوم فى السماء . ولكن نورها كان خافتا لا يقوى على مصارعة أمواج الظلام ، وقامت التلال المحيطة بالمدينـــة موحشة ، وهجع الكون ، وسيطر سكون يبعث الرهبة فى القلوب ، وهبت النسائم خفيفة ، فكأنما كانت أنفاسه يرددها فى انتظام

وخرج يحيى يسعى فى الطـرقات المتعرجـة ، وســار وحده فى حلكة الليل ، يتوقى الاخاديد الموحشة ، وينطلق الى جوار التلال الجرد الشامخة كأنها المردة والشياطين ، فلا يستشعر رهبة ، بل يرى فى هذه الوحشة جمـــالا تنفعل له نفسه ، وتشيع فيها طمأنينة عجيبة . ما كان يرتجف فرقا من الظلام ، كما يرتجف أترابه من الصبيان بل كان يسرى فيه وهو مشغول عنه بالنور المنبثق من روحه ، يبدد له ظلمات الحياة

وبلغ الهيكل الكبير ، فاذا الهدوء شامل ، واذا الظلام

سائدة في أروقة الهيكل ، واذا الرهبان يغدون ويروحون ، واذا العباد راكعون في خشوع • ومد يحيى بصره ،فألفى أباه زكريا قائما يصلى فى المحراب ، فوقف يرقبه متفتح الروح ، فمشاهدة العباد وصلواتهم تنزل على قلبه بردا وسلاما ..

وظل يحيى فى مكانه ، يردد فى حرارة صلاته ،وانتهى زكريا من ابتهالاته ، وتأهب للعودة الى داره ، فألفى ابنه شاخصا الى السماء وفي عينيه دموع ، فانشرح صدره ، وتريث يرنو اليه في وجد ، ثم ذهب اليه ولف ذراعه حوله ، وسارا في ردهات الهيكل حتى خرجا الى الطريق

وما لاح الصباح حتى خرج يحيى يقلب وجهـــــه فى السماء ، ويمد بصره الى ملك الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره ، كان يرى الله في كل ما تقع عليه عيناه • شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه يعبد الله ويقدس له ، فعرفه وصار يهـــابه ويخشاه ..

وانطلق وهو مشغول فى طرقات بيت المقدس المغبرة ، فلمحه اترابه من الصبيان ، فهرعوا اليه وقالوا له :

ــ يا يحيى ، اذهب بنا نلعب

فقال لهم وهو ذاهب فى طريقه :

ــ ما للعب خلقت

ثم دلف الى الهيكل الكبير ، فرأى المجتهدين من الاحبـــار والرهبان ، وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه اليهم ، ووقف ينظر وقد شــــاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا

وبقى فى الهيكل هانئا ، تهيم روحه لتتصل بالله ، ثم قام وخرج الى طرقات أورشليم ، وسار شارد اللب ، يقلب

الفكرة التي احتلت رأسه • وعاد الى الدار ، فذهب الى أمه وقال لها :

ـ يا أماه ، انسجي لى مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف ، حتى آتي الى الهيكل ، وأعبد الله تعالى مع الاحبار والرهبان ••

فنظرت اليه أمه وقالت :

ـ حتى يأتي نبي الله زكريا ، فأؤامره في ذلك

وجعل يحيى ينتظر مجيء ابيه • وتعلقت روحه بالعبادة فعزم أن يكرس حياته لله ، يعبده فى قنوت • ان أصوات المصلين تمس أذنيه عذبة رقيقة ، وان صدى صلواته فى نفسه يشرح صدره ، ويسكب فى قلبه نورا طاهرا لألاء ، يرى على ضيائه جمال ما صوره المبدع الخالق من بدائع تنزل البهجة بأفئدة المؤمنين

وسمع وقع أقدام ، فأرهفت حواسه •• ودخل زكريا وقد مسه الكبر ، فنظر الى أمه ، كأنما يوحى اليها أن تكلمه ، فقالت اليصابات :

ـ ان يحيى قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف

فالتفت زكريا الى ابنه وقال :

ـ يا بنى ، ما يدعوك الى هذا ، وانما أنت صغير ؟ ••

فنظر الصبى الى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء وقال :

ـ يا أبت ، أما رأيت من هو اصغر منى ذاق الموت

نطق الصبى بالحكمة •• انه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لأخراه ، انه يريد أن يدخر ليوم شديد ، لا ينفع فيه الا ما قدمت يداه ، الى يوم يجد ما عمله من خير محضرا ، فانشرح قلب زكريا ، والتفت الى زوجته ، وقال :

ـ انسجي له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف

ووهب يحيى نفسه للمعبد ، يصلى فيه ولا يفارقه ، فتفتقت الدنيا أمام عينيه ، وكشفت له عن أسرارها ٠ كان يصغى الى الكتبة والفريسيين العاكفين على العبادة ، ولكن الحكمة التى يستنبطها من خشوع الليل ، وصخب النهار وزئير الرياح ، وهبوب النسيم ، أعظم ٠٠ أقوال الفريسيين تخرج من الفم لتذهب فى الهواء ، أما آيات الله فكانت تترادف عليه تصقل نفسه ، وتغذى روحه

كانت زقزقة عصفور ، أو لألأة نجم ، أو هبوب موجة من البرد ، أو لفحة من الحر ، تترك فى روحه أثرا اعمق مما يلتقطه من المعلمين الرافلين فى رغد العيش ٠٠ اذ كانت مواعظهم لا تخرج من القلب ، وكانت روحه كوعاء على قمة شامخة لا يملؤها الا ما ينزل من السماء ٠٠

ـ ٨ ـ

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل »

(قرآن كريم)

نما عيسى واشتد عوده ، وبلغ الثانية عشرة ، فأصبح بحسب شريعة موسى بالغا « جادول » ، يمتاز بالروح ، ويعامل معاملة الرجال ، فما صار لأحد عليه سلطان ٠ انه ابن الناموس « ابن هاتوراه » ، يفعل ما يوحيه اليه عقله ، ويتحمل كل ما تجنى يداه

وكان عليه أن يختار مهنة ، ففى هذه السن ينبغى لكل يهودى أن يحترف حرفة ٠ كان يخـــرج مع يوسف الى حانوته ، ولكنه لم يكن قد احترف النجارة ، فكان عليه أن

يختار بمحض ارادته العمل الذى يمارسه • وجاء يوسف اليه يعرض أن يعمل معه ، فقبل الفتى ، وذهب يتدرب ليكون نجارا ..

راح يعمل فى الحانوت المتواضع من شروق الشمس حتى غروبها ، فاذا جن الليل خرج يقلب وجهه فى السماء واذا جاء السبت ذهب الى المعبد ، وما تنقضى الصلاة حتى ينسل الى التلال يصغى الى موسيقى الطبيعة ، فهمسات النسيم ، وتفتح الازهار ، وتعاقب الليل والنهار ، تملأ قلبه علما وحكمة

أشرف موسم الحج على أورشـليم ، فالفصح ، ذلك العيد الذى اتخذه اليهود تخليدا لذكرى خـروجهم من مصر ، على وشك الحلول • كان على كل يهودى ان يحج مرة كل سنتين ، فتأهبت مريم للحج ، ولما كان ابنها قد بلغ ، اصبح عليه أن يخرج مع الخارجين

فرح عيسى لانه سينطلق الى أورشليم ، الى المدينة التى طالما حدثته عنها أمه ، والتى رآها بعين خياله شامخـة تناطح السحاب • سيخرج من الناصرة المحصـورة بين التلال ، الى العالم الواسع الفسيح ليرى بدائع خلق الله التى تنطبع فى نفسه ، وتعمل على صقلها

راحت مريم تتجهز للرحلة فمتلأ أباريق الزيت وتضع التين المجفف فى الاكياس ، ثم تصر بعض الاطعمة الجافة فى صرة لا تفتحها الا فى أورشليم ، وتعد صرة أخرى لطعام الطريق ، وظلت فى غدو ورواح ، حتى اذا جاء المسـاء جلست تعد عباءة جديدة لابنها ، عباءة بيضاء من الصوف سيبدو فيها رائعا ، ككاهن صغير يشع من وجهه نـور التقى والصلاح ••

وحل آذار ، فهبت نسائم الربيع تنعش القلوب ، وخرج الحجاج من بيوتهم ، وتجمعوا فى سوق الناصرة ، قبل

الانطلاق الى أورشليم • ووضعت الاحمال على حمار ،وحمل يوسف صرة ، وحمل عيسى صرة ، وأنطلقوا يحدوهم فرح عظيم ••

وتقاطر الناس من بيوت الناصرة البيض ، وازدحمت السوق بهم ، حتى اذا انتظم عقدهم ، تقدم أسن سبعة بينهم ليسيروا على رأس القافلة • وفصلت العير ،وانسابت فى الطريق الضيق بين التلال المغطاة بأشـــــجار السرو والزيتون ، وهبطت الى الطريق الجيرى متدفقة الى سهل يزرعيل ••

كان الربيع يمس الكون بيده الساحرة ، فلبست الارض زخرفها وازينت ، وبدت سنابل القمح فى ضوء الشمس كأمواج من الذهب ، وقامت الورود حمرا وصفرا وزرقا على جانبى الطريق ، فكانت الحقول كثوب عروس وشى باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ••

سارت القافلة على ضفة نهر قيشون ، فـــــراح عيسى يصغى الى خرير المياه فكان له فى أذنيه وقع التسبيح ، وراح يدور بعينيه فيما حوله ، فيحس كأنما شفت منـه الروح ، ودخلت القافلة الى يزرعيل العاصمة ذات المبانى الشاهقة ، ثم سارت الى جبل جلبوع المتقشف ، كان عاريا من كل ثوب ، فما كانت الامطار تهبط عليه لتنسج له ثوبا من ثيابها الخضر الزاهية ، التى تجود بها على الوديان والســـــفوح • وخاضت القافلة رمال تاناس ، ثم لاحت « ماجدو » فى الافق البعيد ••

وارتفعت اصوات عذبة رقيقة ، تسرى مع النسيم • كان الفرح يداعب النفوس ، فانساب فى المشاعر انغاما حلوة ، تشيع البهجة فى الصدور ، وطويت الارض •وبلغ الركب عين غانم ، فنزلوا يبيتون ليلتهم ، فى أحضان الطبيعة التى سخت بالجمال ، حتى بدا المكان كجنات النعيم

وأقبل الحجاج من كل صوب اقبال الروافد الى النهر الكبير ٠٠أقبل حجاج كفر ناحوم وحجاج المجدل ، وانضموا الى حجاج الناصرة ، واخذ الرجال يتحدثون الى الرجال ، والنساء الى النساء ، والاطفال يلعبون ويجرون فى مرح٠ زالت الفوارق ، وتدانت القلوب ، فالجميع متوجهون الى الله بقلوب صافية ، عامرة باليقين

ووضعت مريم الطعام ، وكان من زيتون وعسل ٠ فلما فرغوا منه ، قام يوسف يجوس بين الحجاج الذين كانوا يتسامرون فى سرور ، وفيما هو فى سيره ، اذ قابل صديقه زبدى ، فصافحه فى حرارة ، وعرض عليه ان يرافقهم فى الطريق ، وكان مع زبدى ابناه يعقوب ويوحنا وكانا فى مثل سن عيسى ، فراح الغلمان يتحدثون ، يعقوب ويوحنا يذكران البحر والمراكب ، فهما يعاونان اباهما صياد الاسماك فى عمله ، وعيسى يتحدث عن الله وملكوته فعيناه لا تتطلعان الا الى السماء

وأسدل الليل ستائره ، وأخذت الاصوات تخفت ، ورفرف النعاس ، فتناول عيسى غطاء ، ونام مع يعقوب ويوحنا ابني زبدى تحت النجوم ٠٠

وأشرقت الشمس ، فهب الناس من نومهم ، وقاموا يتأهبون لاستئناف رحلتهم ٠ حمل الفقراء أمتعتهم ، وقادوا حميرهم وبغالهم ، أما الاغنياء فأسرع عبيدهم يحملون عنهم الفراش الوثير ٠ وانطلق الركب فى طريقه ، ولاحت حدائق التين وغابات الزيتون ، وخلفوا تلال السامرة الجميلة التى تبدو كغادة أبرزت مفاتنها ، واقتربوا من بئر يعقوب ، فأغذوا السير ، ليحطوا الرحال عند البئر ، ويستريحوا من وعثاء السفر الطويل

وانقضى الليل ، وولد النهار ، فدوى فى المكان قرع الطبول ، فقام الحجاج يستعدون للسير ٠ وفصلت العير،

وانطلقت فى قطار طويل ، النساء على الدواب ، والرجال آخذون بزمامها ، والغلمان يجرون ويلعبون ويضـــحكون

الارض تطوى تحت أقدامهم ، هاهم أولاء يمـــرون بشيلوه ، ثم بجبعة شاول ، ثم ببيت ايل ، وها هو ذا النهار ينسحب بعد أن قطعوه ، وأقبل الليل وبئر راعوث على مرمى حجر ، الاشجار عندها تبدو لهم كأمل حلــو مرتقب ، فنزلوا يستقون ويطعمون ..

وفى البكرة انسابوا فى الطريق ، ولاحت لهم أورشليم، فخفقت القلوب فى الصدور ، فمدينة داود المقدسة قائمة أمامهم .. الابراج والقصور شامخة فى الفضاء ، عالية فى كبرياء ، والهيكل العظيم يتألق فى الشمس كجـــوهرة تخطف الابصار ، والدور البيض غارقة فى الضوء ،وقصر هيرودس على جبل صهيون يرنو الى المدينة كأنما يعد عليها أنفاسها ..

ونظر عيسى الى أورشليم ، فأحس قلبه ينجذب اليها ، انه يراها بروحه ، ويشعر بقدسيتها تراق فى نفسه ، انه يحبها بكل مشاعره .. انه ليخيل اليه أنها تبادله عواطفه

واندفعوا الى الوادى حيث قابلهم سفراء عن المعبـــد مرحبين بمقدمهم ، وتفرقت الجموع ، وراحت كل أسرة تهتم بشئونها ، تبحث عن قريب لها فى المدينة تقضى عنده موسم الحج . ولما كانت الشريعة تحرم أخذ نقود مقابل ايواء الحجيج ، فمن لا أقارب له ولا اصدقاء يقاسى فى ايجاد مأوى له ، فراح كثير من الناس يقيمون لانفسهم أكواخا صغيرة من حصر البوص ، ونزل آخرون فى العراء وزخرت أورشليم بآلاف الوافدين من سورية فى أرديتهم الوطنية ، ومن بابل فى ملابسهم السود ، ومن آســيا الصغرى وروما وفلسطين ، وراح يوسف ومريم وعيسى يشقون طريقهم بين الجموع ، حتى بلغوا بيت زكريا ،

فصافح زكريا يوسف وعيسى ، واحتضنت مريم خالتها اليصابات ، وراحتا تتبادلان القبلات ..

وفى الصباح ذهبت الاسرة الى السوق لشراء الزيوت والعطور ، ثم انطلقت الى المعبد . كان الصيارفة جالسين وأمامهم أكداس النقود .. يستبدلون العمـــلات المصرية والبابلية والعملات الاخرى بشاقل اسرائيل ، وكان تجار الاغنام يعرضون على الحجاج خرافهم وعجولهم ، وجلس تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدمونه قربانا لله ، وأخذ يوسف يشترى أضحية ، فما ساق معه خروفا من الخراف التى عنده ، خشية أن ينفق فى الطريق ، أو يصـــاب باصابة تجعله غير لائق للتضحية ، فلا يقدم الى الله قربانا الا اذا كان بارئا من العيوب . وذهب عيسى ومريم مـــع الناس الى صندوق النذور يضعون فيه صدقاتهم

ونظر عيسى ، فألفى حلقات العلماء ، وقد جلس كل كاهن على شرف عال يحيط به تلاميذه ، فهفت نفسه اليهم .. أحس رغبة فى أن يذهب اليهم ليصغى الى ما يقولون ، ويسألهم عن بعض ما يجول فى خاطره ، فهـــذه الزيارة تركت فى نفسه آثارا ، لم يعجبه بعض ما رآه ، وهو يريد أن يعبر عما يخالجه ، وهم بالذهاب اليهم ، ولكن أمه جذبته من يده ، ليدخلا يقدمان صلاتهما لله رب العالمين

كانت شرفة النســـاء تعج بالزائرات ، والمعبد يموج بالمصلين ، وارتفعت الاصوات خاشعة ، شحنت ايمـــانا وطهرا ، فأشرقت الوجوه بالنور ، فقد كانوا يقـدمون الى الله القلوب ..

وقضيت الصلاة ، وخرجت الاسرة الى أورشليم ، كان هليل العظيم موضع احترام اليهود ، كان سقاء يحمل الماء ، وعالما من أبرز علماء بنى اسرائيل ، وكان صديقا وفيا لعمران ابى مريم ، فذهبت الاسرة لزيارته ، وتحدث

هلليل وعيسى يلقى اليه سمعه وهو مشغوف

وتجاذبوا أطراف الحديث ، وتكلم عيسى ، فألفى هلليل قلبه ينجذب اليه ، فالحكمة تتدفق من فم الفتى الصغير ، وما أتم عيسى حديثه حتى قال هلليل فى اكبار :

ــ ذرية بعضها من بعض ، انك ابن حق ابراهيم الخليل

وتتابعت الايام ، وعيسي يذهب الى المعبد ، فى عباءته البيضاء ، يجلس الي حلقات العلماء يعيرهم سمعه ، وتنبعث فى قلبه نشوة ، فحديث الدين والانبياء الى قلبه حبيب ..

وجاء ميقات التضحية ، فخرج يوسف وعيسى وزبدى وولداه يوحنا ويعقوب ، وذهبوا الى قاعة الاسرائيليين ، وكانت تزخر بالحجاج يقودون القرابين ، وصعد يوسف الى المذبح ، وذبح خروفه ، وتلقى الكاهن الواقف عند المذبح بعض دمه فى فلجانة من الذهب ، وأعطى تلك الفلجانة الى كاهن آخر ، وهذا أعطاها الآخر ، وراحت تنتقل من يد الى يد ، حتى بلغت الكاهن الاعظم ، فألقى الدم فى المذبح الكبير

وارتفعت فى القاعة الاخرى أغنيات الليفيين وقرع الطبول ورنين الاجراس ، ولكن عيسى شغل عن تلك الأصوات بالمشاعر النابتة فيجوفه ، والمشاهد التى تجرى أمام عينيه ..

تصرمت ايام العيد السبعة ، وتأهب الحجاج للعودة الى دورهم ، وخرجت القوافل من أورشليم ، وقفل ركب الناصرة وكفر ناحوم والمجدل راجعا فى نفس الطريق الذى جاء منه ، وانقضى اليوم الاول ، ونزل الناس عند بئر راعوث ، ونظرت مريم فلم تجد ابنها ، فسرى فى قلبها قلق ، وراحت تنقب عنه فلم تهتد اليه ، فخفق قلبها رهبة ، وذهبت الى يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تسألهما

عن عيسى ، فأخبراها انهما لم يرياه منذ خرجا من أورشليم ، فزادت مخاوفها ، واستمرت فى بحثها تسأل كل من تقابله عن ابنها ، ومر الليل وهى فى قلقها وارقها ، وما لاح نور الصباح حتى عادت ويوسف الى أورشليم ، يبحثان عن ابنها ..

راحت تمر على الاسرات التى تعرفها فى أورشليم تسأل هذا وذاك عن عيسى دون جدوى ، فزادت مخاوفها ، وأخذت تفحص كل غلام تراه بعينيها السوداوين القلقتين ، وانقضى النهار ثقيلا بغيضا ، وأقبل الليل ومضى ومريم فى قلق وحيرة ، وما اقبل الفجر حتى خرجت تستأنف بحثها ..

كانت تبحث فى الاسواق ، وطرقات المدينة المتعرجة ، وعند سور الملك داود ، وعند الآبار .. ولكنها لم تجد له أثرا ، فدثرتها رهبة ، وعصر الاسى قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها ..

وانقضى اليوم الثانى كسابقه ، ذهاب هنا وهناك ، وعيون تتلفت فى كل مكان ، وقلب ينزف أسى وحزنا ، ولكن ما من أثر له، ووفد الليل ومريم تكاد تسقط من الاعياء.

وفى اليوم الثالث تذكرت ما كانت نسيته ، ان ابنها قد هفت روحه الى المعبد ، وأمضى معظم أيام العيد بالقرب من حلقات العلماء ، فلماذا لايكون هناك ؟ انها بحثت عنه فى كل مكان ولكنها لم تذهب الى الهيكل ..

هرعت مع يوسف الى المعبد ، وفى حجرة من حجراته لمحته ، عيسى بعباءته البيضاء جالسا على الارض وسط المعلمين فخفق قلبها فى شدة ، وراح الخوف ينقشع عن صدرها ، ليحل مكانه طمأنينة وأمن ، ونظرت فاذا ابنها بين شيوخ أجلاء ، اشتعلت رءوسهم شيبا .. كأن هناك هلليل العظيم ، وابنه الحاخام سيميون وشماى الكبير ،

ونيقوديموس ، وأكابر بنى اسرائيل ، فداعب قلبها فرح ، ولكنها لم تجد فى ذلك غرابة ، فقد كانت على يقين أن الله يعده ليكون معلما لمن هم أعلم من هلليل وشماى وسيميون ..

ونادى يوسف : « عيسى .. ! »

وانطلق اليه وأخذه من يده ، وعاد به الى أمه ، فضمته الى صدرها فى حنان ، وقالت له :

ـ لماذا فعلت هذا بنا ، لقد بحثنا عنك وانتابنا خوف وحزن ، وخفنا ان نفقدك

فنظر اليهما فى هدوء وقال :

ـ ما كان الله ليضيعنى

وخرجوا من اورشليم ، وسروا وقد خلوا بالكون ، فجعل عيسى يفكر فيما سمع ، كان ما سمعه رائعا بالغ الروعة ، ولكن ارتفاع الشمس وهبوطها ، وبزوغ القمر وأفوله ، وهدوء الليل وتألق نجومه تمده بحكمة اروع مما سمع ، كان فى قلبه كنوز من العلم والحكمة ، تفوق كل كنوز العلماء والرهبان .. فهؤلاء حصلوها بالدرس وحفظوها فى الصدور ، اما هو فقد وهبها له العليم ، وغرسها فى قلبه ، وجعلها تجرى فيه مجرى الدم

ـ ٩ ـ

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها ابدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم »

(قرآن كريم)

عاد عيسى الى الناصرة ، واستأنف العمل فى حانوت

يوسف ، كان حاضرا بجسمه ، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء ٠٠أصبح يحب الليل ، لانه فيه ينفرد بنفسه وبالله ٠٠ اذا أراد أن يناجي ربه ابتهل اليه في خشوع ، واذا أراد أن يصغي اليه فتح التوراة وقرأ الآيات

وأحب العزلة ، فاذا جاء يوم السبت ، ذهب الى المعبد، فاذا قضيت الصلاة انسل الى قمة التل الذى بنيت عليه الناصرة ، يقف بين أزهار الجبل المتفتحة ، ويملأ رئتيه بالنسيم العليل الذى يداعب شعره الاسود ، ويمد بصره الى ماحوله ، فيرى حقول التين وبساتين النخيل ، والمنازل البيض ساجدة كعابد في محراب الله

ويمس اذنيه رفيف الطيور ، وحفيف الشجر ، وزفيف النسيم ، فيصغي اليها كأنما يتلقى وحيا من السماء ، كان يحس وهو في عزلته شفافية في روحه ورقة في قلبه ، وصفاء في نفسه ، فكان يخيل اليه أنه امتزج بالكون ، أو أن الكون ذاب فيه ٠٠

كان قلبه ناصعا انصع من الثلج الذى يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون ، وروحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون ، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل في يوم صاف هدأت عواصفه ، ونامت رياحه

كان اترابه من الصبيان يتلقون علومهم في مدارس الربيين ومدارس الكتبة ، أما هو فكان يتلقى الحكمة في مدرسة الله ، تحت أشجار التين . وفي الحقول في الظهيرة وتحت نجوم الليل ، كان يستمد حكمته من السماء الصافية ، والسحب المتلبدة ، وزمجرة الرياح ، وهبوب النسيم ، وقيظ الحر ، وقر الشتاء . حتى الخشب الذى يصنعه بيديه ، يجد فيه مادة لتفكيره وغذاء لروحه . تتلمذ لثلاثة علماء : العمل ، والطبيعة ، والتوراة ٠٠

كان يجالس الفقراء ويستمع الى شكاتهم ، فقد كان

فقيرا ، ويحادث الخطائين دون ان يلتفت الى نظـــرات الاستنكار التى تصوب اليه ، ولم يكن خـطاء ، بل كان ذا قلب كبير ، يرحم ضعفهم ، ويرى انهم احق بالرعاية والعطف من المتزمتين المتظاهرين بالتقى والصلاح ، كان انسانا يغفر ضعف الانسان

أصغى الى الكتبة والفريسيين ، ولكنه لم ينفعـــل لمواعظهم ، فكلماتهم تخرج من الفم كلمات ميتة بلا روح ، فلا تجد طريقها الى القلب ، يقول الفريسيون ويرددون القول : اذا جلس اثنان يتحادثان ولم يكن حديثهما عـن الشريعة ، كان اجتماعهما فى سبيل الشيطان ، قول منمق ولكن ما كانت العبرة باللفظ ، ولكن بأثره فى الفؤاد

الفريسيون ينطـلقون فى الـطرقات يتجســـون على الفقراء ، ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم ، ولكنهم لا يهتمون كثيرا بطهارة النفس ، فالفواحش ترتكب دون أن يحركوا ساكنا ، فانما كل ما يهمهم نظافة الثوب

وأصغى الى كبار الحاخاميين فى المعبد فى موسم الحج ، فألفى شريعة موسى البسيطة قد عقدت ، وتفرعت مذاهب ، فما يحلله هلليل يحرمه شماى ، فأعرض عن حلقـــات السفسطة والجدل ومعارض الكلام ، وأقبل بنفس متفتحة على الكون يغترف علما وحكمة من معينه الرقراق

أكب على عمله فى حانوت يوسف النجار ، وأخذ يشكل قطعة الخشب التى فى يده فى مهارة ، ويبذل جهـــده ليجعلها ملساء ، انها ستوضع حول رقبة ثور ثم يشد الى المحراث ، فاذا كانت خشنة آذته ، ولما كان رحيمـا لا يحب تعذيب الحيوان ، فقد اتعب نفســـه ، ليخفف من آلام ثور من الثيران فى حقل من حقول الجليل المترامية

راحت الشمس تختفى خلف تلال الناصرة ، فأغلق

يوسف حانوته ، وذهب هو وعيسى الى الدار . كانا في طريقهما يتبادلان الاحاديث عن الدين ، وكان يوسف يسبغ عطفه عليه ، ولكن يوسف انطلق الليلة وهو صامت ، فاحترم عيسى صمته ، ولم يحادثه ، وشغل عنه بما يدور في نفسه من أفكار ..

ودلفا الى الدار . واتجه يوسف الى فراشه ، وقبل أن يندس فيه ، توجه الى الله ، واخذ يقرأ الشمة : « اسمع يا اسرائيل .. » وانتهى من صلاته ، وارتمى فى الفراش مبهور الانفاس ، فقد كانت الحمى تسرى فى بدنه

واقبلت مريم وفي يدها مصباح ، ودنت تنظر فى وجهه ، فاذا العرق يتفصد من جبينه ، واذا نفسه مضـــطرب ، فراحت تمرضه ، وانقضى الليل ومريم وعيسى الى جواره يخفق قلباهما بالحزن العميق ، اذ يريان يوسف راح في غيبوبة طويلة ، ولم ينبس بكلمة ، ولم يفتح عينيه مرة

واشرقت الشمس ، وغرقت الدور البيض في النور ، فخرج عيسى الى الحانوت ، يعصر قلبه الاسى ، فما خرج وحده قبل يومه ، وخطر الموت على ذهنه فراح يفكر فيه

ونظرت مريم الى يوسف المسجى أمامها وهى حزينة .. صدقها يوم كذبها الناس ، وآمن بابنها وصدق به قبـــل أن تكتحل برؤيته عيناه ، وفر بهما من وجه الطغيان فى سبيل الله . كان مؤمنا عميق الايمان ، نفذ أوامر الله ، فكان نعم الحارس ونعم الكنف ..

وشخص يوسف ببصره الى السماء ، وغمغم في صوت خافت :

ـ الهى ، أعيد اليك وديعتك ، فقد انتهى عملى ، الهى انى ذاهب اليك وانت أقدر على حفظ رســولك ، فأنت خير الحافظين ..

واسبل جفنيـــه ، وذهب الى حيث يذهـــب المؤمنــون

الصادقون ، وغطت مريم وجهه بنقابها ، وجرت عبراتها على خديها ، واقبل عيسى يذرف الدمع الهتون

— ١٠ —

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة »

(قرآن كريم)

قصور حكام الاقاليم مراتع للهو ، فأنتيباس هيرودس غارق في الشهوة ، تساق الى قصوره أجمل الفتيات . راقصات عاريات ، وأغنيات ماجنات ، وكئوس الخمر تدور على الاصفياء ، فتنطلق الوحوش الكامنة فى النفوس تعب اللذاذات فى نهم

وقصور الاغنياء مسارح للخلاعة ، واوكار للمجون ، يحاكون رؤساءهم ، ويتقربون اليهم بالمعاصى والمنكرات ، ويتنافسون فى نيل الحظوة عند أنتيباس بتقديم العذاري الكاعبات اليه ، فقد قر فى أذهانهم أن المناصب لا تنال الا بالنساء ، فهذان قيافا وحنان تقربا اليه بالابكار الأتراب ، فتقاسما رياسة الكهنوت

كانا ضالعين مع الرومان ، يشاركانهم حياة الفسق والمجون ، ويتظاهران أمام الشعب بالتقوى والصلاح ، يقدمان الى مذبح الرب القرابين ، وفى نفس الوقت الى ولى نعمتهم النساء على مذبح الشهوات

ودب الفساد فى مجلس السنهدريم ، ذلك المجلس الذى كان للدين حصنا ، صارت الكلمة فيه للهيروديين الوالغين فى الفساد ، أو للصدوقيين المخادعين الذين يتخدون من الدين ستارا ..

وفى أروقة الهيكل اشتد الخلاف بين الفريسيين

والصدوقيين ، أولئك يعتقـــدون فى المـــلائكة وهؤلاء لا يعتقدون فيهم ، وأولئك يقولون بالبعث وهؤلاءينكرونه

وساد أورشليم والبلاد اليهودية ظلام ، ونزل بنفوس الناس هم ثقيـــل ، وحاق بهم ضـــيق ، ودب فى قلوبهم اليأس ، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبى ، يخرجهم من الظلمات الى النور

كان يحيى عاكفا على العبادة فى الهيكل ، وكانت تصل اليه نتف من حياة قيافا وحنان ذات الوجهين ، ويرى عيشة الرغد التى يحياها الرهبان الفريسيون ، ويصغى الى سفسطة الصدوقيين ، فرأى أن يخرج الى البـــرية ، يعيش بين الوحوش ، فارا بنفسه من ذلك النفاق والرياء

هام يحيى فى البرارى ، يأكل من ورق الشجر ، ويرد ماء الانهار ، ويتغذى بالجراد ، وتستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقويه منطقة من جلد ، وظل فى عزلتـــه يتلقى وحى السماء

وذهب الى الاردن يدعو الناس الى الله ، فاجتمعوا يستمعون اليه ، قال :

ـ ان الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمـــل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئا ، فان مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته الى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وان الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا

وآمركم بالصلاة ، فان الله ينصب وجهـــه قبل عبده ما لم يلتفت ، فاذا صليتم فلا تلتفتوا

وآمركم بالصيام ، فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك

وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجـــل أسره العدو، فشدوا يده الى عنقه ،وقدموه ليضربوا عنقه ،فقال: هل لكم أن أفتدى نفسي منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ..

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصـــنا حصـــينا فتحصن فيه ، وان العبد احسن ما يكون من الشـــيطان اذا كان فى ذكر الله عز وجل

وراح يحيي يقول للوفود التى توافدت عليه :

ـ توبوا فقد اقترب ملكوت السماء

وذاع فى البلاد أن نبيا خشنا قام فى البرية ، يدعـو الى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء ، ولما كان اليهود يترقبون عودة ايليا ليخلصهم من الفساد ، قالوا ان ايليا قد قام . وخرج الرجال والنساء والاطفال من كل فج ، مسرعين الى الاردن .. الاغنياء يحدوهم حب الاستطلاع ، والفقراء عامرة قلوبهم بأعمق الايمـــــان ، وجاءوا اليـــه يعترفون بخطاياهم ، فيعمدهم ويطهرهم

وبلغ نبؤه أورشليم ، وسمع الناس أن نبيا جديدا قام فى اسرائيل ، فنزل ذلك الخبر على قلوبهم نزول الغيث على الارض المجدبة ، فنبت الامل ، وأرهفت الاحساسات، ولاح فى الافق تباشير عهد جديد ، عهد زاخر بالخيرات

وقال قائل لانتيباس أن نبيا فى البرية يدعو النـــاس الى الثورة على دولة الاغنياء ، يحض من له ثوبان على أن يعطى من لا ثوب له ، فبعث الى السنهدرين ، يأمرهم أن يوافوه بخبر ذلك النبى الجـــديد ، فاجتمع المجلس وقرر ايفاد رسله الى ذلك الرجل الخشن ، الناحل من شدة التقشف ، الذى رنت كلماته فى القصور ، فزلزلت قلوب المردة الطغاة

وفى شوارع الناصرة ، تحدث الناس عن النبى الجديد ، وتجاوبت فى أرجائها أنباؤه ، وبلغ عيسى دعـوة يحيى بن زكريا ، فأحس كأنما يترجم أفكاره ، ويعبر عما يجيش فى صـدره . انه يهـاجم الغنى والاغنيـاء ، ويدعو الى المساواة ، ويفضح رياء الكهنة والكتبة . فلم يسـتطع عيسى صبرا ، فشد اليه الرحال

وأقبل الفريسيون ، رسل السنهدرين فى كبريائهم ، الغرور يجرى فيهم ، ويعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يغادرون نضد التوراة .. يقرءون فيها ويقرءون ، ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم الا قراءة التـوراة ، حتى حفظوا النصوص ، وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له

نظروا الى ذلك الرجل الناحل ، العارى الا من مدرعه من شعر ، وأصغوا اليه وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، انه لا يدعو الى نفسه ، ولا يستغل النور المنبثق من روحه الا فى انارة طريق النبى القادم بعده ، ويطهر الناس ليكونوا أهلا لاسـتقباله . انه صـوت منطلق فى البرية ، يعبد الصراط المستقيم

دنوا منه وقالوا له :

ـ من أنت ؟ حتى نخبر من أرسلونا .. المسيح أنت ؟

ـ لا ..

ـ ايليا أنت ؟

ـ لا ..

ـ النبى أنت ؟

ـ لا .. أنا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبى

فنظروا اليه فى زراية ، وقالوا له :

ـ فما بالك تعمد أن كنت لست المسيح ولا أيليا ولا النبى ؟ ..

ـ أنا أعمد بماء ، ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه ..

فنظر بعضهم الى بعض يسخرون ، كان يحيى صلبا كالصخر ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، لا يرجو عطف الناس ، ولا يخشى مقتهم ، أنه قوى فى الحق ، خشن خشونة الصحراءالتى يهيم فيها ، يرى غطرسةالفريسيين وتكبرهم ، لأنهم من نسل ابراهيم ، فقال لهم فى صوت كالرعد :

ـ يا أولاد الافاعى ، من اراكم ان تهربوا من الغضب الآتى ،فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أنتقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم ابا ، لانى أقول لكم ، ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم .. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر .. فكل شجرة لا تثمر ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار ، أنا اعمدكم بماء للتوبة، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه .. هو سيعمدكم بالروح القدس ..

وتدفق الناس عليه ، العوام ، والخواص ، حتى الذين يخدمون هيرودس جاءوا يلقون اليه السمع

وأشرف عيسى على وادى الاردن .. كانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، وكانت تتألق متوهجة فى كبد السماء ، لم يظهر لشىء على الارض ظل ، كانت أريحا قائمة بين أشجارها ، والبحر الميت يعكس وهج الشمس كمرآة تخطف الابصار ، وجبال مؤاب شامخة على الشاطىء الشرقى ، والصخور الصفر عارية خامدة ميتة ، ولكن النهر لم يكن ميتا ، فيحيى غائص فى مياهه الى ركبتيه ،

يطهر الوفود المتدفقة ، التى وهبت للصحراء قلبا خفاقا ينبض بالحياة ..

وهبط عيسى الى الوادى ، وذهب الى يحيى بن زكريا ، الذى جاء يبشر الناس بقرب رسالته ، ويعبد الطريق أمامه حتى يبلغ الناس رسالات الله

— ١١ —

« ياعيسى ابن مريم ، اذكر نعمتى عليك
وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس »
(قرآن كريم)

السماء فوقه ، والرمال تحت قدميه ، والفضاء أمامه ، والافكار تنثال على رأسه . أصغى الى يحيى فألفاه يذكر الناس باقتراب ملكوت السماء ، وهو يعلم أن الله يعده ليبعثه رسولا الى قومه ، فقد بشرت الملائكة أمه به قبل مولده ، وقالت لها أن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل

ان موسى قد ذهب للقاء ربه ، وانفرد فوق طور سيناء اربعين يوما وليلة يناجيه حتى تجلى له وكتب له فى الالواح شريعته ، فعزم عيسى أن يمكث فى الخلاء يتعبد ، ويتأهب لوحى السماء ، فالخلوة تطهر نفسه ، والمناجاة تشحذ روحه ، وتملأ قلبه نورا على نور .

وركع على ركبتيه ، وتطلع طويلا الى السماء ، وجعل يبتهل الى الله فى حرارة ، وجرت دموعه ، وبكى بمثل حنين الابل ، بكاء من ودع الاهل ، وقلا الدنيا . وظل فى مناجاته ، لا يحس شيئا حوله ، فقد تعلقت روحه بالله واحتجبت الشمس وراء تلال مؤاب ، فصبغت التلال

بلون القرنفل والارجوان ، وملئت الاخاديد فى سفوحها بظلال زرق قاتمة ، وبدا نهر الاردن كخيط أزرق ملقى فى الصحراء . وعيسى فى خشوعه غائب عن كل ما حوله من جمال ، فهو ينشد جمال الله

ونامت عيون الابرار وهو يقظان ، يدعو الله فى هجعة الليل .. وسكر بصره ، خيل اليه أن بابا فتح فى السماء، وأن روحه عرجت اليها ، تهيم فى الملكوت ما شاء الله لها أن تهيم ..

كرت الايام ، ومرت الليالى ، وهو لا يحس مرور الايام ولا كر الليالى . غاب عن الزمن ، وغاب عن المكان ،وغاب عن كل شيء الا عن الله ، فهو يفكر فيه بذهنه ، وتنبض بذكره خفقات قلبه ، ويردد لسانه وهو ساجد : « الهى ، ارنى نور وجهك » . فتردد ذلك النداء فى حرارة كل خالجة من خوالجه . باتت حواسه كلها السنة تتضرع الى الله أن يمن عليها بالنور

شفت نفسه ، وأرهفت حواسه ، وانقشعت الحواجز المادية أمام عينيه ، فبدت الدنيا صافية نقية ، واذا نور سماوى يغشى المكان ، واذا ذلك النور فى جوفه ، فيحس كأنما خلق من جديد

ومس أذنيه حفيف صوت ، فالتفت خافق القلب ، فرأى جبريل ، فجفل فى خوف ، ثم أخذت الطمأنينة تعود اليه رويدا رويداً ، فلما أفرخ روعه ، قال له الروح الامين : ان الله أرسله رسولا الى بنى اسرائيل ، وراح يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ..

تصرمت أربعون ليلة وعيسى فى مناجاته ، يتلقى وحى السماء وهو على قمة الجبل منفردا بالله ، كما تصرمت من قبل اربعون ليلة وموسى على طور سيناء يتلقى كلمات ربه ..

سار عيسى وقد استرسل شعره ، وطالت لحيته ، وغاضت تلك الوداعة التى كانت تشع من وجهه .. وبان فيه قوة وعزم . انقضت ايام الدعة والهدوء . واقبلت ايام الكفاح والجهاد ، أيام الاضطهاد والتعذيب .. فما جاء أحد بمثل ما جاء به الا اضطهده الناس وعادوه

عاش عيسى تلك الايام بروحه ، فلم يحس حاجات الجسد ، أما الآن فقد عاد الى نفسه ، انه يشعر بالجوع يعض احشاءه ، وبجفاف العطش فى حلقه ، فتلفت لعله يجد ما يسكت به ذلك الصراخ المنبعث من جوفه ، ولكنه لم يجد شيئا . فانطلق وهو يفكر فى أمره ، ووقعت عيناه على الحجارة المبعثرة فى الفضاء ، فرن فى أذنيه صوت يحيى القوى الخشن : « ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم »

وتحرك جوعه ، فوضع يده على بطنه ، وأحس أنه لم يعد فى البرية وحده ، فالتفت فاذا رجل الى جواره يرنو اليه فى ود ، ودنا الرجل منه وقال له :

ـ سل ربك أن يقول لهذه الحجارة كونى خبزا

وقفزت الى ذهن عيسى صور طالما عاش فيها بروحه ، فطالما قرأ أن اسرائيل وهو فى البرية قد نهكه الجوع ، فسأل الله أن يطعمه فأنزل عليه المن من السماء ، وطالما رأى بين سطور التوراة ملاك الرب وهو يقود ايليا ، المضنى من الجوع ، الى الطعام ، انه لو سأل ربه أن يحيل تلك الحجارة خبزا لاستجاب له ، ولكن ما كان يسأله ، فالتفت الى الرجل وقال له :

ـ مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله

وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

ـ أما علمت انه لن يصيبك الا ما كتب لك ؟

فأطرق الرجل قليلا ثم قال :

ـ فارق الى ذروة هذا الجبل ، فترد منه ، فانظر هل تعيش ..

فأقبل عيسى على الرجل ، وقال له :

ـ أما علمت أن الله قال : لا يجربنى عبدى ، فانى أفعل ما شئت .. فبان فى وجه الرجل القهر ، واستمر عيسى فى حديثه :

ـ ان العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الله يبتلى عبده

وراح الرجل يوسوس له :

ـ لا ينبغى لك يا عيسى ان تكون عبدا ، فقد بلغ من عظم ربوبيتك انك تكلمت فى المهد صبيا ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ..

ـ بل الربوبية لله الــــذى انطقنى ، ثم يميتنى ثم يحيينى ..

ـ تعال ..

وارتقيا جبلا عاليا ، وأشار الرجل باصبعه الى ممالك الارض ، وقال له :

ـ أنظر ، ان كان لك عينان

فنظر عيسى، فرأى جميع ممالك الارض ، فقال له الرجل:

ـ سأمنحك هذه الممالك .. سأجعلك الحاكم المطلق على البشر ، ستتألق فى المجد ، ستكون المســـيطر على كل الارض ، سأمنحك كل هذا لقاء شيء واحد ، ان تسجد لى

فصرخ فيه عيسى :

ـ ابتعد عنى يا شيطان ، ابتعد يا رجيم ، مكتوب : للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد ..

فلم يشأ الشيطان أن يعلن اندحاره ، فابتسم فى خبث وقال :

ـ ان غضبك ليس بغضب عبــد ، ولـــكن أدعوك

لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك ، فأذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك أما انى لا أقول ان تكون الها ليس معه اله ، ولكن الله يكون الها فى السماء ، وتكون انت الها فى الارض

فغضب عيسى غضبا شديدا ، وصرخ صرخة زلزلته، فابتعد ابليس مذموما مدحورا ، وهو يغمغم فى بأس :

ــ يا عيسى ، لقد لقيت فيك اليوم تعبا شديدا

ووقف بعيدا يرنو اليه منهزما ، عجز عن أن يفتنه ، ولكن ما كان الشيطان ليقر بهزيمة ، وقفزت الى ذهنه الشرير فكرة .. اذا كان قد عجز عن فتنته ، فسيجعله فتنة ، فقال وهو يختفى فى الافق البعيد :

ــ سأضل بك يا عيسى بشرا كثيرا ، وابث فيهم أهواء مختلفة ، واجعلهم شيعا ، ويجعلونك وامك الهين من دون الله ..

ــ ١٢ ــ

« ورسولا الى بنى اسرائيل »

(قرآن كريم)

« لم ارسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة »

(متى ١٥ : ٢٤)

الناصرة غارقة فى الصمت ، تطوف بها احلام . راح الناس فى النوم ، حتى نجوم السماء هجعت ، فقد كانت ليلة لم يبزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى ، فابنها خرج الى يحيى بن زكريا، الذى بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت أيام وليال وأسابيع ولم يرجع عيسى اليها ، كان اليقين يملؤها ان

أوان بعث أبنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، انهـا لم تفارقه منذ وضعته ، وانها لتذكر مرارة الايام الثلاثة التى فقدته فيها ، وهو جالس فى الهيكل بين العلماء وانها لترجو اوبته ليعود اليها الاطمئنان

كانت العيون غافلة الا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عند أقدام التلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبل، قد تعلقت بالرجاء

وتوافدت الى رأس عيسى الافكار ٠٠ الى أين يذهب بعد ان بعثه الله رسولا ؟ الى بنى اسرائيل ؟ أيذهب الى الناصرة تلك القرية المغمورة فى الجليـــــل ، وينطلق الى حانوت النجار يدعو الناس منه الى عبادة الله ؟ أيقــوم بين الناس داعيا الى الهدى ، وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة ، ولكن ما كان له بعد أن أيده الله بروح القدس ان يخاف

وقفزت الى ذهنه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر، ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ فى قوة ، لا يهاب أحدا، ولا يخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المـال ، فأمدته تلك المشاهد ، التى تتوافد على رأســه، بقوة وعزم أكيد ٠٠ فاتضح الطريق أمام عينيه ، سيجوب المدن اليهودية داعيا الى الرشاد ، موطـــدا النفس على احتمال الاذى والعـــذاب ، فما أحلى الاضطهـــاد فى سبيل الله ٠٠

وسار فى ذلك الفضاء العريض ، يحس كأنما ملىء علما وحكمة ، فالصحراء والحجارة والسمـــاء تمده بألوان جديدة من التفكير ، وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعـــد عزلة وانقطاعا ، بل صار مؤانسة ٠٠ فما كان فى تلك المفاوز وحده ، بل كان فيها مع العليم الخبير

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة ، فيمم شطرها،

ودخلها ليدعو أهلها الى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين ، فاعتلى مكانا عاليا ، وراح يقول :

ــ يابنى اسرائيل . يا بنى اسرائيل

فاجتمع الناس اليه يصغون ، فقال :

ــ يابنى اسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار

فارتفعت أصوات تسأله :

ــ من انت ؟ ..

ــ انى رسول الله اليكم ..

ــ وما أدرانا انك رسول ؟

ــ جئتكم بمعجزة من ربكم

ــ وما هى ؟ ..

ــ انى أخلق لكم من الطير كهيئة الطير (١) ، فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ فى الطين ، فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو ، وعيون الناس معلقة به ، وعقد الدهش ألسنتهم وبانت فى وجوههم الحيرة ، وظلوا فى ذهول حتى سرى همس :

ــ هذا سحر .. !

وأفاقوا من دهشتهم ، فقالوا فى توكيد :

ــ ان هذا الا سحر مبين

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين ، انه يدعوهم الى النجاة ، فيعرضون عنه .. ولو انه دعاهم الى الضلال لأقبلوا عليه يتسابقون

وأطرق يفكر فيما كان ، انه دعا الناس فجاءوا يصغون

---

(١) ذكرت فى انجيل توما وانجيل الطفولية .. ولم تذكر فى الاناجيل الاخرى لانها وقعت قبل ايمان الحواريين بعيسى

اليه ، وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فاذا كانوا لم يؤمنوا بما قال ولم يصدقوه ، فسيأتى يوم يسارعون اليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فراى أن يعتصم بالصبر ، فالصبر من عزم الامور ..

وغابت الشمس ، وراحت تختفى وراء تلال الناصرة ، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة فى الشفق ، كأنما لصقت على لوحة فى لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير . أحس شوقا الى أمه ورغبة فى أن يفضى اليها باصطفاء الله اياه ، وبعثه رسولا الى بنى اسرائيل ..

وانساب فى طرقات الناصرة ، وقد سيطر السكون ، ونشر الليل الويته ، ودلف الى البيت ، فلما رأته مريم هرعت اليه تضمه الى صدرها فى حنان ، وجلسا فى جوف الليل يتناجيان ، وقال لها فيما قال :

ـ وفيما انا فى صلاتى وابتهالى فوق الجبل ، سقط من السماء نور باهر ، واذا بجبريل الامين يخبرنى ان الله بعثنى رسولا الى بنى اسرائيل ..

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ـ سأغادرك يا أماه لابلغ الناس أوامر الله ، وسأحتمل اضطهادهم ونكرانهم وتكذيبهم فى سبيل الله ، لن استطيع بعد اليوم أن أقيم معك ، وأن اعاونك بخدماتى ، لم أعد يا أماه لك ، بل أصبحت لله

ونظر اليها فألفى فى عينيها دموعا .. فحسبها تبكى لفراقه ، فقال لها : لا تبكى يا أماه ..

ـ هذه دموع الفرح .. انى نبئت يا بنى بكل ذلك قبل أن تولد

فقال عيسى لأمه فى رجاء :

ـ صلى يا أماه لله من اجلى ، وابتهلى اليه ان يؤيدنى

ويثبتني ويمدني بنصر من عنده ، صلي يا أماه ، فصلاتك درعي ..

فقالت مريم في حرارة :

ـ فليباركك رب ابراهيم واسحاق ويعقوب ، كما بارك آباك ..

وسجدا يصليان لله في جوف الليل ، وقد غرقت الناصرة في الصمت

ـ ١٣ ـ

« وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »

(قرآن كريم)

انتقل هيرودس انتيباس الى عاصمته الجديدة طبرية، انه حاكم الجليل ، ولكنه يريد أن يرتفع بعاصمته، ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب واحواض السباحة والمسارح والملاهي ، وبث فيها الحدائق ، فهو يقتفي آثار أبيه هيرودس الاكبر في التقرب من روما ، وفي خضوعه لنزواته وشهواته . وكان معجبا بأبيه ، فراح يستمد منه وحيه ويحاكيه ..

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فاذا ماجاءت الايام المقدسة ، ذهب خاشعا الى الهيكل بأورشليم ، يقدم أنفس الضحايا والقرابين ، فاذا ماضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ، ترك قصره وذهب الى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال متحدية صحراء بتراء ، وهناك يتحرر من قيوده ، ويعيش لشهواته ونزواته، وهو آمن من أن يراه أحد من اليهود .. فهذه القلعة قائمة في أرض سيدون ، وكانت مدينة زاهرة دمرها الله بخطيئة

أهلها ، وما كان بنو اسرائيل يدخلون ارضا حلت عليها لعنة السماء ..

كان يتظاهر لليهود بتقواه ، وان كان فى قرارة نفسه يشتهى ان يكون فى هيئة رومانى أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ؛ ويرتدى ثياب الاسياد ، ويقوم منازلهم بالحفلات ، ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه السامرية تفضحه ، وتصرخ انه رجل شرقى ، نابت فى لفحة الصحراء

وتأهب للخروج الى روما لمقابلة طيباروس امبراطور الرومان ، ليقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء اليه رسل السنهدرين الذين بعثتهم الى الاردن ليروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء ، وقالوا له ان ذلك الرجل يفتن الناس ، ودعواه تهدد الامن العام ، فهو يبشرهم بنبى جديد ، يستل الملوك من عروشهم ، انه يحضهم على الثورة ضد المال والسلطان ..

وفكر هيرودس انتيباس فى ذلك الثائر الجديد، فهاجت وساوسه ، وخشى ان سافر وهو طليق ان يقلب القوم عليه ، فاذا عاد وجده قد افسد الناس ، فأمر جنوده ان يقبضوا عليه ، وان يسجنوه فى قلعة ماكيروس

وانطلق جنود انتيباس الى الاردن ، والقوا القبض على يحيى الذى كان يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ، ليتجمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق بنبيهم الذى أحبوه وآمنوا به ، ووجدوا فيه المبشر بالخلاص ..

لم تكن السامرة تحت حكم انتيباس ، بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين انتيباس وبيلاطس جفوة ، كان

كل منهما ينتظر أن يبدأ زميله بزيارته ، بعد أن عين حاكما على ولايته ، فكل منهما يحسب نفسه أعظم شـأنا من زميله ، ولم تقع الزيارة المرتقبة ، فتغيرت النفوس ، وحل الجفاء ..

بعث بيلاطس جنوده الى الثائرين اللائذين بالجبال ، وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل الى أنتيباس ليرى رأيـه في ذلك الرجل الذي سجنه ، والذى تعلقت به قلـوب المؤمنين المتعصبين ..

شغل هيرودوس أنتيباس بذلك السجين الذى لايملك من دنياه الا مدرعة من وبر الجمل ومنطقة من جلـد ، وبيانا يزلزل عروش الطغاة ، انه لو أطلق سراحه لجمع قلوب المتعصبين حوله ، وهدد ملكه بالزوال ، واذا ابقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى أن لايشتط ، وأن يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه ، وأن يبعث الى الشعب من سجنه بما يشاء

وأقبل يوم السفر الى روما ، فجاءت تودعه زوجتـه ابنة الحارث أمير العرب ، فى جمالها الشرقى الاخاذ ،فرنا الى عينيها السوداوين الواسعتين ، والى وجههـا الذى استدار كبدر ، والى شعرها الذى بدا كليلة حالكة من ليالى الصحراء المظلمة ، فرفت على شفتيه ابتسامة لم تكن منبعثة من القلب ، فقد سئم ذلك الجمال ، وهـو يرجو ان يجد فى روما مفاتن تجدد شباب الفؤاد

ونزل على الامبراطور طيباريوس ضيفا عزيزا ، وفكر وهو من روما ان يزور اخاه فيليبس الذى حرمه هيرودس الاكبر من الميراث ، فعاش فى روما عيشة الرومان .دخل هيرودس على أخيه فيليبس ، فأعجبته هيروديا زوجة اخيه .. كانت رائعة الحسن ، اندى من الندى ،وانضرمن أزهار

الربيع ، كانت ذات جمال يعبث بالافئدة ، وتهفو اليه القلوب . راح يحادث أخاه ، ويرنو الى زوجته فى اعجاب ويرمقها فى اشتهاء وتلاقت عيناه الوالهتان بعينيهـــا ، فأحست حرارتهما ، وفهمت لغتهما ، فرفت على شفتيها ابتسامة مشجعة ، واشتعلت عيناها برغبة طائشة مغرية، زادت حب هيرودس ضراما

كانت هيروديا مغامرة ، تهفـو الى ان يزين تاج الملك جبينها ، وقد تقربت من البلاط الرومانى ، وصـادقت الامبراطور طيباريوس لعلها تؤثر فيه ، وتقنعه ان يعين زوجها فيليبس حاكما على ولاية من ولايات فلسطين ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق حلمها ، وها هو ذا هيرودس أخو زوجها وحاكم الجليل يغازلها ، ويفتح امام اطماعها أبواب الامل . فما كان لها أن تنكص وتغلق ما يفتـــح امامها من أبواب

هام هيرودس بزوجة اخيه حبا ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه وسيطر عليه ، فلم يطق ان يعود الى ولايتـه مسلوب الفؤاد ، فزين لها فى نجوى الهرب معه ، فقالت له فى خبث الحية :

ـ وزوجتك ؟ ..

ـ أطلقها ...

ما أيسرها من كلمة فى بيت هيرودس ، ان هيرودس الاكبر طلق وتزوج مرات ومرات ، حتى أن رجال الدين ضاقوا بذلك ، ورفعوا اليه أنهم يخشون ثورة الناس ، وان هيرودس أنتيباس ، سر أبيه ، لا يجد فى طلاق زوجه أى اثم ، ما دام ذلك الطلاق يمكنه من ارضاء نزواته ، واطفاء شهواته ..

وفى غفلة من فيليبس ، الاخ المخدوع ، والمضـــيف

الكريم الذى رحب بأخيه ، فر هيرودس وهيروديا وابنتها سالومى الصغيرة الجميلة ، التى لم تتفتح عن أكمامها ، ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية ، ولم تحتمل الزوجة العربية ، ابنة الحارث امير العرب ، العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرودس الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ماكيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة

امتلأت ابنة الحارث حقدا ، وما بلغت قلعة ماكيروس حتى فاض غضبها ·· لقد طعنها فى كبريائها ، ولن تنطفىء تلك الوقدة التى أججها فى احشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، ففرت الى صحراء بتراء ، الى قلعة أبيها ، لتضرم نار العداوة فى قلب الحارث ، الذى ثار للاهانة التى الحقها أنتيباس بابنته التى يحبها

وتزوج هيرودس انتيباس من هيروديا زوج اخيه فيليبس ، وابنة اخيه ارسطوبولس فى الوقت ذاته . وغضب الشعب لذلك الزواج ، ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين ، الوافدين من روما ليزينوا بلاط هيروديا

وضاق هيرودس بالحفلات والرسميات ، وأحس رغبة فى أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ·· ان الوحش القابع فى أغواره يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا الى قصره بقلعة ماكيروس ، بعيدا عن أعين الفريسيين المتزمتين ، وان كان يتظاهر أمام شعبه انه من شيعتهم ، وانة مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية !

وبلغا القصر ، وأطلت هيروديا من القلعة الشاهقة ، المطلة على الصحراء المترامية ، كانت كحارس ساهر على

حدود الجليل الفاصلة بين أنتيباس والحارث أمير العرب

وظهرت امام عينيها اشجار النخيل الباسقة ،بسعفها الاخضر ، واشجار الزيتون وكروم أريحا اليانعة ،وراحت تجوب خلال القلعة ، فصكت اذنيها دعوات يحيى القوية ، فأحست شيئا غامضا ينبعث فى جوفها ، فعادت الى هيرودس والتمست منه أن تصغى الى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الابواب

تمدد هيرودس فى فراشه الوثير ، ووقفت هيروديا خلف الستار ، وجاء الحراس بيحيى ، فلم تبهره الطنافس الرائعة ، ولا الستائر الفاخرة ، ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ! بلغه ما فعله هيرودس ، فارتسمت فى وجهه صرامة وثورة للحق . نظر هيرودس اليه ، فمشت رهبة فى جوفه ، كان يهابه فى قرارة نفسه ، ولكنه شاء ان يتظاهر بالقوة ، فقال له فى صوت آمر :

ـ ألا تكف عن هذيانك ؟

فلم يأبه يحيى به ، بل قال له فى قوة ، اطارت ما كان يتشبث به من شجاعته الهاربة :

ـ اهجر هذه المرأة

ـ لماذا ؟

ـ انها لا تحل لك

ولم يجد هيرودس ما يقوله ، فأشار للجنود أن يأخذوه، واطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الستار ، وذهبت الى زوجها ، يتطاير شرر الغضب من عينيها ، وهتفت :

ـ كيف سمحت له ان ينطق بما نطق به ، مرهم ان يقتلوه ..

ولكن هيرودس لم يفعل شيئا ، كان فى اعماقه يهابه،

ويخاف ان يمد اليه يد السوء ، اذا قتله ثار الناس عليه، وحلت لعنة السماء

وعاد يحيى الى سجنه ، وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا ..

— ١٤ —

« واذا أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون »

(قرآن كريم)

كانت حياته رحلة ، ولد فى بيت لحم ، ثم عادت بهأمه الى الناصرة وما استقر بها حتى جاء الامر بالخروج ، فهرب يوسف ومريم الى مصر ، وما درج على أرضهاحتى عاد الى الناصرة ، يخرج فى المواسم الى أورشليم . كانت حياته الاولى رحلة تتخللها فترات من الراحة والاستقرار أما رحلة اليوم فلن تعرف الراحة ، سيذهب من مدينة الى مدينة ، ومن قرية الى قرية ، ومن جبل الى جبل ، داعيا بنى اسرائيل الى ربه الذى أرسله رسولا يبشرهم بملكوت السماء . لن يستقر فى مكان ، ولن يتخذ لهبيتا يأوى اليه ، سينام حيث يدركه النوم ، وحيث يجد أناسا يصغون اليه ، فقد انقضت ايام الدعة ، واقبلت أيام الكفاح فى سبيل الله

وغادر الناصرة ، وسار صوب الجليل ، واخترق الوادى الزاهر ، ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة، ومس الجمال المكان بيده الساحرة ، فبدت الحقول زاهية ناضرة ، وقامت اشجار النخيل سامقة شامخة، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور ، وبدت

البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية

ولاحت على شاطىء البحيرة الغربى الجبال الخضر ، وامتدت على الشاطىء الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة، ومد بصره امامه فرأى الجبال العالية تتوجهـــا الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها ، فبدت كمرمر مصفى ..

وشيدت على الشاطىء الغربى مدن وقرى ، مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو اسماك ، فهى محـــاط للقوافل الذاهبة الى الاردن ومصر وسورية ، وكانت فى هذه المنطقة طبرية ، العاصمة التى شـــيدها انتيباس ، وسماها بذلك الاســم متملقا الامبراطـــور الرومانى طيباريوس ، فلا غرو والتملق ديدنه ، اذ يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية ، ارضاء لامبراطـــوره السابق ، قيصر ..

ووقف على شاطىء البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث المـاء ، فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، واقبلت مراكب الصيادين تتهادى ، ووضحت أصوات المجاديف، وراحت الشمس تبعث الى الارض آخر انفاسها وتصبغ الشفق بالذهب ، ايذانا بانتهاء يوم العمل

وازدحم الشاطىء بالناس ، فقام عيسى يعظهم ويدعوهم الى الله ، ان ما يقوله لم يكن جديدا على اسماعهم ، فقد سمعوا مثله فى المعبد ، ولكنه يمتاز بشىء ، يمتـــاز بالحرارة التى تصهره ، فتجعله يبدو قشيبا ، كأنمــا يلقى فى اسماعهم لاول مرة

كان فى نبراته قوة ، وفى صوته صدق، وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلوب ، فأحسوا نحـــوه انجذابا

واعجابا ، ولكن ذلك الاعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لاول وهلة ..

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع السحر فى نفسيهما .. خيل لهما أنه يدعوهما وحدهما .. تفتح له قلباهما ، وتعلقت به عيونهما ، وأريق فى جوفهما نور ، فقد اوحى الله اليهما أن آمنا بى وبرسولى ، فآمنا به وصدقاه

وانفض الناس من حوله ، وسار فى أثره اندراوس ويوحنا ، وسمع وقع اقدامهما ، فالتفت اليهما وقال فى رقة :

ـ ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن ارتج عليهما ، فقالا :

ـ أين تسكن ؟ ..

لم يكن له دار .. جاء يدعو الى الله ، وينام فى الفضاء فى حراسة الله ، فقال لهما :

ـ تعاليا وانظرا ..

جلسا يصغيان اليه ، وهو يبشرهما بملكوت السماء ، فأحسا سعادة ، ان كل كلمة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل ، فانصرف أندراوس ويوحنا ، وقد شهدا أن عيسى رسول الله

ذهب أندراوس ينقب عن اخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا الى بنى اسرائيل ، وترقب يوحنا بن زبدى عودة اخيه يعقوب ليخبره ان عيسى الذى تامامعه عند عين غانم ، يوم خروجهم الى أورشليم هو الامل المرتقب الذى ينتظره اليهود

واقبل سمعان ، وقد شرح الله قلبه للايمان ، فما تحدث اليه عيسى حتى صدق ما يقول ، فقد اوحى الله

اليه ان يؤمن به وبرسوله

ووفد نثنائيل الى الجليل ، وكان رجلا صالحا ، فذهب الى شجرة التين ، وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « الكريشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع ، ابتهل الى الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح ، وبالدنيا حوله تزهو ، أحس كأنما رد اليها شبابها ، وكأنما سرى فيها روح ..

وذهب عيسى الى البحيرة ، وصادف شابا صيادا ، فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

ــ اتبعنى ..

فترك فيلبس شباكه ومركبه ، وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله اليه الايمان والتصديق ..

واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه ، وراح يصلى لله ويناجيه ، فتشف روحه ، ويسكن قلبه ايمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه نثنائيل ، فلما قابله ، قال له فى حماسة :

ــ ان الذى كتب عنه موسى فى الناموس والانبياء قد وجدناه ..

ــ عمن تتحدث ؟

ــ عن النبى الجديد ..

ــ وأين وجدته ؟

ــ هنا ، فى الجليل ..

ــ ومن هو ؟

ــ عيسى ابن مريم ، من الناصرة ..

فقال نثنائيل فى استخفاف :

ــ من أين ؟

ــ من الناصرة ..

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة :
ـ أيخرج من الناصرة شيء صالح ؟!

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل ، اهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها الا نجارون وقرويون بسطاء ، يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس

أصغى نثنائيل الى فيلبس في عجب ، فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه ، وما قال له : « تعال وانظر » حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ ..

وجاءوا الى عيسي ، فرنا الى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :
ـ ها هو ذا اسرائيلى لا غش فيه
فعجب نثنائيل وقال له :
ـ من أين تعرفنى ؟
ـ رأيتك وأنت تحت التينة ، قبل أن يدعوك فيلبس

وأصغى نثنائيل اليه منشرح الصدر ، أحس كأنما بلسم مس روحه ، وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه الى الايمان والتصديق ، فقال فى انفعال :
ـ أشهد أنك رسول الله

وهجر الصيادون شباكهم ، ووهبوا انفسهم لله الذى أوحى اليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وذهبوا مع عيسى يصطادون الناس ..

« ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم
ثمنا قليلا ، اولئك لاخلاق لهم فى الاخرة ،
ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم
القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم »

(قرآن كريم)

خوار ثيران ، وثغاء أغنام ، وهدير حمام ، ورائحة الروث تتصاعد فى المكان تزكم الانوف ، واصوات ترتفع هنا وهناك ، هذا يتحدث باليونانية ، وذاك بالرومية وثالث بالعبرية وآخر بالفرعونية ، حتى ليخال السامع ان سوقا من اسواق بابل دبت فيها الحياة

وتحت الاقبية جلس الصيارفة ، يشع الجشع من عيونهم ، وأمامهم موائد عليها أعمدة من الفضة ، واكداس من العملات الاجنبية ، وانبعث رنين النقود ، فكان نغمة من آلاف النغمات المتنافرة المدوية

وسرت تراتيل اللاويين وصلوات الكهنة ، وامحت فى محيط الضوضاء ، فما كان المكان سوقا عامة ، بل كان الحرم المقدس فى الهيكل المقدس ، ساق اليه التجار ثيرانهم وأغنامهم وحمامهم ، ليبيعوها للحجاج الوافدين فى الفصح الى أورشليم ، ليقدموا الى الله القرابين ، وجلس الصيارفة أمام موائدهم يبدلون للحجيج نقودهم بالشاقل الاسرائيلى ، على جعل قدره خمسة فى المائة ، فقد فرض على كل اسرائيلى ، غنى أو فقير ، نصف شاقل فدية ، وكان يجمعها الكهنة ، وخوفا من أن تدفع لهم بالعملات النحاسية أو البرونزية أو بعملات اخرى قد يضطرون الى مبادلتها بالجعل المقرر — وفى ذلك خسارة لهم — لذلك حددوها

بشاقل اسرائيل ، ومنحوه القدسية ، لأن عصا هارون ضربت على وجهه ، وضرب على الوجه الاخر قدر المن على شكل كأس ، وكتب حوله بالسامرية : « شاقل اسرائيل » وما قدسه فى نظر الكهنة الا فضته النقية !

وثبتوا فى أذهان الناس أن حراما ان تدخل هيكل الرب ويدك خالية ، كأنما الغنى الوهاب فى حاجة الى أعطيات الناس ، وكأنما من يرزق عباده يسترد لنفسه بعض ما وهب . ان الله غنى عن عباده ، أما الكهنة فعلى الرغم من غناهم ، كانوا فقراء الى ما فى أيدى الناس ، وان كانوا محاويج يحرمون أنفسهم القوت ليشتروا لمن يتسترون خلف أسم الله هدية ، الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا . أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ..

والفريسيون المتزمتون فى الطرقات يتجسسون على الناس ، ليتحققوا ان كل شىء نظيف وطاهر ، كما تقضى الشريعة الموسوية ، لم تزكم أنوفهم رائحة الروث فى الحرم المقدس ، فتجار الثيران والاغنام من الاغنياء وما كانت أخطاء الاغنياء تثير ثائرة الفريسيين حتى هلليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج ، المصريون فى ثيابهم الفرعونية ، والسوريون فى أرديتهم الوطنية ، والاغنياء فى ثيابهم الغالية ، والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى غدو ورواح ، ينظرون الى البحر المتلاطم من الاجناس المتباينة ، جاءوا يقدمون خشوعهم لله

ووفد حجاج الجليل ، النساء المحجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون

جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ·· وبين النساء كانت مريم . كانت فى كل فصح تذهب الى الهيكل المقدس . الايمان العميق يسكن قلبها ، أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها ، والقلق يسرى فيها ، كانت تعلم ان ابنها سيقدم الى اورشليم يعرض نفسه على الناس ، ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

دلف عيسى الى الهيكل ، فاذا التجار يحتلون رواق الامم ، رأى فيه هذه الثيران والاغنام وهو صغير ، وأحس يومها امتعاضا ، ولم يفعل شيئا غير الامتعاض ، فما كان له سلطان ، أما اليوم فهذا المشهد يحرك غضبه . لم يعد ذلك الغلام الذى لا يملك الا الاسى ، انه رسول الله ، وما كان يقبل أن يتحول بيت الله الى سوق للبيع والشراء

عزم على أن يطهر الحرم المقدس من الثيران والاغنام والتجار والصيارفة ، ويعيده كما كان ، مكانا للعبادة والتقديس ، فتلفت فوجد حبالا على الأرض فتناولها وصنعها سوطا ، وراح يطرد الخراف والثيران حتى اذا خلا المعبد منها ، ذهب الى تجار الحمام ، وقال لهم فى صوت آمر :

ـ ارفعوا هذا من هنا

أذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا ، كانوا فى أعماقهم يشعرون انهم مخطئون ، فما كان الحرم مكان بيع وشراء ، وما عاونهم على الاسترسال فى خطئهم الا انهم لم يجدوا من يردهم عن غيهم ، فما ايسر هزيمة الرذيلة اذا دفعتها الفضيلة بيد قوية ، وما أسرع أن ينجاب الظلام اذا سلط عليه النور

وذهب الى موائد الصيارفة وقلبها ، فتبعثرت الشواقل الفضية المقدسة ، وجرت النقود تختفى فى

الروث ، وصاح الصيارفة فى فزع ، ولم يحتجوا على ذلك الذى لم يدروا بأى سلطان يطردهم ، كانوا على أموالهم مشغولين ..

وتجمهر الناس يرقبون ذلك الثائر لكرامة الهيكل ، وقد ملئت أفئدتهم اعجابا ، ورنا الفريسيون والكهنة اليه فى غيرة ، ضايقهم أن يقوم جليلى فقير على تلك الثورة التى صادفت فى نفوس الحجاج هوى ، وزاد فى غيرتهم التفاف الناس حوله ، والقاء السمع اليه

ودخل عيسى الى الهيكل يصلى ، وسارت الجمـــوع خلفه ، فلما اتم صلاته ، دنا منه رجل وقال له :

ـ ان الشعب يحب أن يسمعك ..

وتقدم عيسى يعظ الناس ، وهرعت الجمـــاهير الى المكان حتى ضاق بهم ، وجلست مريم فى الشرفة العلوية المخصصة للنساء ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيهـــا تصغى الى الوعاظ قبل أن تبشرها الملائكة بابنها المـــائل أمامها كملاك . وانبعث فى جوفها احساسات متباينـــة ، واستشعرت فرحا ، ولكن لم يكن ذلك الفرح خالصـــا ، فقد امتزج برهبة ، وطأطأت راسها فى خشوع وغابت عما حولها لحظة ، صلت فيها لله وابتهلت اليه أن يمد أبنهـــا بتوفيقه ، وأن يؤيده بنصره

ارتقى الشرفة مهيبا قويا ، تلك الشرفة التى ارتقاها قبله علماء وكتبة ، واشار بيده ان اصمتوا ، فغرق المكان فى الصمت ، فقال فى صوت قوى يمتاز بحرارة الايمان :

ـ تبارك اسم الله القدوس ، الذى من جوده ورحمتـــه أراد ، فخلق خلقه ليمجدوه

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق نور جميع الانبياء والقديسين ، قبل كل الاشياء ، ليرسله لخلاص العالمين ، وقال على لسان داود : « قبل كوكب الصبح فى ضـــياء

القديسين خلقتك » ..

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الملائكة ليعبدوه ، وتبارك الله الذى خذل الشيطان واتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له

واستمر عيسى فى موعظته ، واشتد على الشعب ، لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة ليعلموا الناس تعاليم باطلة زائفة

وأثرت موعظته فى الناس ، فجرت دموعهم على خدودهم ، وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة ، وأحسوا الله فى أنفسهم ، فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب .. أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلأوا غيظا ، وتحركت بغضاؤهم ، نال منهم على ملأ من الحجاج ، ولكنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورةالناس اذا مسوه بسوء ، وكان أعضاء السنهدرين حاضرين يسمعون ، فحقدوا عليه الا نيقوديموس .. فقد كان لكلامه وقع فى نفسه جميل ..

كان نيقوديموس غنيا حكيما ، وثالث عضو فى السنهدرين ، أثرت فيه دعوة عيسى ، وأحس رغبة فى أن يصغى اليه ، ولما كان عالما كبيرا ، خشى ان يجلس الى جليلى فقير امام الناس يتلقى منه علما وحكمة

تريث حتى اذا اقبل الليل خرج متسترا بالظلام ،وجاء الى عيسى فالفاه يبشر بملكوت الله ، فقد كان يبشر، كما كان يحيى يبشر ويقول : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » . كان عيسى بشيرا ، يدعو قومه الى التأهب لذلك اليوم الذى يأتى فيه ملكوت الله ، الى اليوم الذى ينزل الله فيه الذكر ويحفظه بين الناس

لم يكن عيسى صاحب رسالة جديدة ، فما جاء لينقض

الشريعة الموسوية ، بل جاء يكملها ، وكان يتـــبلقي وحي السماء فيحدث به قومه ، ولم يكتب منه حرفا ، فقد كان يهييء بني اسرائيل بذلك الوحي ليوم آت ينزل فيه الله دينه ، ويوحي فيه كتابه ، ويحفظه الى أن تزول الارض والسماء ، ذلك هو ملكوت الله

دنا نيقوديموس من عيسى ، والقى اليه سمعه ، فراح عيسى يحاوره ويجاذبه أطراف الحديث ، فقـــــال نيقوديموس :

ـ نعم انك أتيت من الله معلما ..

فقال له عيسى ، وهو مقبل عليه :

ـ الحق الحق أقول لك ، ان كان احد لا يولد من فوق لا يقدر ان يرى ملكوت الله

لم يفهم العالم الكبير ما يقوله عيسى ، فقال متعجبا :

ـ كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ ؟ العله يقدر ان يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟

لم يفهم العضو الثالث فى السنهدرين انه يكفى للدخول فى اليهودية الولادة من الماء ، أن ينزل المرء من صـــلب يهودى ، أما الدخـــول فى ملكوت الله فلا بد له من ولادة جديدة ، من روح جديدة مؤمنة ينفخها الله فى المؤمنين ، فقال له عيسى :

ـ الحق الحق أقول لك ، ان كان أحد لا يولد من الماء والروح ، لا يقدر ان يدخل فى ملـــكوت الله ، المولود من الجسد هو جسد ، والمولود من الروح هو روح ، لاتتعجب انى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق . الريح تهب حيث تشاء ، وتسمع صوتها ، ولكنك لا تعلم من أين تأتى .ولا الى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح ..

لم يفهم الفريسي الكبير ان الله يملأ قلوب المؤمنين بروح قوية ، روح مؤمنة جديدة غير الروح التى نفخها فيهم يوم

خلقهم من ماء ، هـــذه الروح العلوية تجعلهم خلقــــا جديدا ، خلقا صالحا للدخول في ملكوته ، في دينه الذى سيبعثه هداية للعالمين ، فقال نيقوديموس :

ــ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

فقال له عيسى فى دهش :

ــ أنت معلم اسرائيل ولست تعلم هذا ؟ الحق الحق أقول لك ، اننا انما نتكلم بما نعلم ، ونشهد بما رأينا ، ولستم تقبلون شهادتنا . أن كنت قلت لكم الارضيات ولستم تؤمنون ، فكيف تؤمنون ان قلت لكم السماويات ؟

قال له عيسى اننا ــ نحن الرسل ــ نتكلم بما يوحى الينا نحدثكم بما تحسونه فلا تصدقوننا ، افتصدقوننـــا لو حدثناكم بالغيب الذى فى السماء ؟

أكان عيسى يحدثه بذلك الغيب ، ويقول له سيأتى آخر مثلى يؤسس ملكوت الله ، وذلك الانسان لا يزال فى السماء حتى الان ، يبعثه الله هداية ورحمة ؟!

وقام نيقوديموس من عنده وهو مؤمن أن عيسى رسول الله أرسله الى قومه بشيرا ، وانطلق وكلمات عيسى ترن فى اذنيه ، يزيد فى روعتها ذلك الغموض الذى يدثرها

ــ ١٦ ــ

« ولله المشرق والمغرب فاينما
تولوا فثـــم وجه الله » .
(قرآن كريم)

الفريسيون يرصدون فعاله بعين الشر ، والنـــاس يصغون اليه فى اعجاب ، ولا شىء بعد الاعجاب ، كان أدرى الناس بالناس ، انهم يلقون اليه السمع ، وينفعلون بمـــا يقول ، ولكنهم لرؤسائهم الروحانيين ينقـــادون ، فاذا

اشتدت العداوة بينه وبين الفريسيين والكتبة واعضـــاء السنهدرين ، فسيخلون بينه وبينهم ، ولن يفزعوا لنصرته أو يمدوه بالعون والتأييد ، فرأى ان يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين ، وان يذهب الى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السموات .. فاذا كثر تابعـــوه ومؤيدوه ، جاء اليهم عزيز الجانب ، يناوئهم فى معقلهم تظاهره قوة تعاونه على اظهار الحق المبين ..

هبط من التلال العالية التى شيدت فوقها اورشليم ، يحيط به بطرس واندراوس ويوحنا ويعقـــوب وفيلبس وصديقه برثولوماوس الاسرائيلى الذى لا غش فيـــه ، وانطلقوا مع الطريق ، فاذا انحنى فى حدة انحنوا معه ، واذا انساب فى يسر انسابوا فيه ، واذا صعد فى جبل ، راحوا يصـــعدون وعند الآبار كانوا يحطون الرحال ويستريحون ..

خرجوا من اليهودية ، ووقفوا فى حدود السامرة ، وأراد التلاميذ ان يدوروا حولها ، فما كان اليهود يدخلونها فهم يحتقرون السامريين ويضعونهم فى مصاف الوثنيين ، لانهم يعتنقون مذهب غاريزيم ، ذلك المذهب الذى لايعترف الا بالاصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما المزامير وأما ما كتبه مردخاى فلا يعترفون به .. فالتوراة نزلت على موسى ، فكيف يكتب موسى ما وقع بعد موته ؟

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ، ويجـدون وزرا فى محادثتهم ، حتى اذا سقط ظل سامرى على واحد منهم ، أوجب ذلك التطهير من النجس الذى حل به ، وقالوا « ان قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى ، هى قطعة من لحم الخنزير »

لم يلتفت عيسى لتلك الاوهام ، فراح يخترق السامرة، حتى اذا بلغ منه التعب ذهب الى شكيم « نابلس »

كانت الشمس في كبد السماء ترسل اشعتها الحامية ، فيتفصد العرق من الوجوه ، ونظر عيسى حوله يبحث عن مكان يستريح فيه ، فألفى بئر يعقوب ، تظللها أشجار التين ، فانطلق اليها وجلس على حافتها يستروح النسمات التي كانت تهب بين الحين والحين . وبقي عيسى في ذلك المكان وحده ، ذهب تلاميذه الى المدينة يشترون طعاما ، ونام الكون في تلك القيلولة ، وهدأت الطبيعة ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم . ففي ذلك المكان ، كما جاء في سفر التكوين ، في ديار « شكيم » سجد ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب لله رب العالمين

انها بقعة مباركة ، جاء اليها يعقوب ونصب فيهاخيمة، واقام مذبحا دعاه ايل اله اسرائيل ، وجاء اليها ابراهيم واسماعيل واسحاق . انها بقعة عاطرة بالذكريات النبوية ، توحي بالتأمل والتفكير

ومد عيسى بصره الى الوادي الاخضر ، والى الاشجار الشامخة ، والى سنابل القمح المتماوجة في ضوء الشمس كنهر من التبر ، فأحس راحة لذيذة بعد التعب المضني الشديد ..

وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها ، فقال لها عيسى :

ـ أعطيني لأشرب ..

عجبت السامرية لذلك الطلب ، وترجمت عن عجبها بقولها :

ـ كيف تطلب مني لتشرب ، وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية ؟ ..

فقال لها في هدوء :

ـ لو كنت تعلمين غطية الله ، ومن هو الذى يقول لك اعطيني لاشرب ، لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا ..

فنظرت المرأة الى البئر العميقـــة ، وقالت له فى استخفاف :

ـ يا سيد ، لا دلو لك ، والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها ، هو وبنوه ومواشيه ؟

فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات الى المعنويات ، ان يرفع هذه السامرية الفقيرة ، كما رفع نيقوديموس معلم بنى اسرائيل ، وثالث أعضاء السنهدرين ، فقال لها :

ـ كل من يشرب من هذا الماء يعطش . ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا ، فلن يعطش الى الابد ، بل المـاء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع الى حياة أبدية

أحست المرأة انها فى حضرة حكيم ، فقالت وقد أخفت نبرات الاستخفاف فى صوتها :

ـ أعطنى هذا الماء لكيلا اعطش ، ولا آتى هنا لاستقى

ـ اذهبى ، وادعى زوجك ، وتعالى ههنا

ـ ليس لى زوج ..

فنظر اليها عيسى قليلا ثم قال :

ـ حسنا قلت ليس لى زوج ، لانه كان لك خمســـة أزواج ، والذى لك الآن ليس هو زوجك ..

أطرقت المرأة قليلا ، فقد كشف عيسى عن سر خيانتها الخليعة ، فقد كانت تبيع نفسها ، فغمغمت :

ـ أنت نبى ..

انها فى حضرته تحس خزيا .. ورفعت رأسها فوقع بصرها على المعبد الذى أقامه السامريون لمنافسة أورشليم ، فخطر لها أن تحول الحديث الى تلك الناحية ، فأشارت الى الجبل وقالت :

ـ آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل ، وانتم تقولون ان فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه

نطقت المرأة المدنسة صدقا .. فهنـــا سجد ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، أما أورشليم فقد فتحهـا داود ، ثم بنى ولده سليمان فيها هيكله . هذه البقعـــة أكثر قدسية من الهيكل ، فلماذا لا يحج اليها الناس ؟ أيحدثها عيسى عن أسرار رسالته كما حدث نيقوديموس ؟

حدثها عيسى عن ملكوت الله ، عن دين الله القيم الذى سيختاره للعالمين ، فاذا جاء ذلك الدين فلن يسجد الناس فى أورشليم أو شكيم ، فلله المشرق والمغرب ، فأينمـا يول الناس وجوههم فثم وجه الله ، راح يقول لها :

ــ يا امرأة صدقينى ، انه تأتى ساعة لا فى هـــذا الجبل ولا فى اورشليم تسجدون لله ، انتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم

وسواء أصدقته المرأة أم لم تصدقه ، فقد صـــدقه الزمان ، جاء ملكوت الله الدين القيم الذى جعل الارض كلها مسجدا ..

قالت له المرأة وقد تأثرت بما قال :

ــ اعلم أن المسيح يأتى ، فاذا جاء أخبرنا بكل شىء

فقال لها عيسى :

ــ أنا هو الذى اكلمك

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير ، الربى الصادق ، يخالف ما يقول به الربيون ، فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة ، حتى ولو كانت زوجته ، ولاح الدهش فى وجوههم ، فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يحدث سامرية فاجرة

ذهبوا اليه وقد كتموا دهشهم ، وفرت المرأة مخلفـة جرتها ، وانطلقت الى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام امامه وقالوا له :

ــ كُل ..
ــ أنا لى طعام لستم تعرفونه ..
فالتفت التلاميذ بعضهم الى بعض وقالوا :
ــ لعل أحدا أتاه بشيء يأكله ..
فقال لهم عيسى ، مؤكدا رسالته :
ــ طعامى أن أعمل مشيئة الذى ارسلنى ، وأتمم عمله

***

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون ، وغص بهم المكان ، فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السموات : فتفتحت قلوبهم له ، ودعوه ان ينزل عندهم يومين

فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس واندراوس ويوحنا ويعقــوب وفيلبس ، وبرثولوماوس ، الاسرائيــلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « ان قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحــــم الخنزير » ..

ــ ١٧ ــ

« يابنى اسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم . انه من يشرك بالله فقد حــرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من انصار »

(قرآن كريم)

بدا بحر جنيسارت الازرق الهادىء كصقال مرآة ، ولاحت للعيون شمسان ، شمس فى السماء وشمس فى الماء .. وامتدت حقول القمح وحدائق الفاكهة ، وكسيت

الارض حلة خضراء ، وزها الوادى بالالوان فقد كان مرتعا للجمال ..

وعلى هذا البحر الصافى الرقراق تقع كفر ناحوم ، وهى مدينة لصيد الاسماك ، ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه ، فالمراكب تحمل البضائع ، ثم تبحر الى الشاطىء الآخر ، حيث ولاية فيليبس ، ابن هيرودس حاكم الربع من قبل الرومان ..

كان الرجال فى غدو ورواح ، الحمالون يحملون سلال الفواكه وأكياس القمح ، وينقلونها من الشاطىء الى المراكب ، والبحارة فى ألوانهم النحاسية ، يتسامرون ، وتجلجل فى الفضاء ضحكاتهم الفضية والنساء ينشرن الشباك على أشجار التين العارية من أوراقها لتجفيفها ؛ وتجار السمك يجففونه ويرصونه على سعف النخل ؛ وما كانوا يأكلونه مكتفين بالتين والبلح ، فما كان التجار يأكلون رءوس أموالهم

وراح محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزنون كل ما يخرج الى المراكب ويقدرون عليه الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة ، بل كانوا فريقين ، فريقا يجمع الضرائب للرومان ، وفريقا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته

وكان اليهود يمقتون هؤلاء الجباة من أعماقهم ، لطبيعتهم التى تبغض الانفاق ، ولان هؤلاء الجباة يذكرونهم على الدوام أن سلطان الدين ذهب ، وأنهم اصبحوا رعايا لدولة وثنية ، لم تكن فى يوم من الايام شعب الله المختار

كانوا يكرهون الجباة وينفرون منهم ، ولا يحادثونهم ، ويعتبرونهم عشارين خطاة ، وكان يزداد ذلك المقت ، اذا كان الجابى يهوديا ممن باع نفسه للرومان

كانت كفر ناحوم مدينة فقيرة مزدحمة بالفقراء ، لم

يكن فيها مجمع يجتمع يوم السبت فيه الصـــــيادون والحمالون والاجراء ، يصغون فيه الى التوراة ، ويقيمون فيه شعائر الصلاة ، ومال قائد رومانى الى اليهودية فبنى فوق هضبة تطل على البحيرة معبدا لله ..

بنى المجمع وما كانت الصلاة فيه ميسورة للكادحين الفقراء ، فما كان كاهن المعبد الاكبر يعظ الناس لوجـه الله ، انه يريد الهدايا والاموال فكان يفـــــرض عليهم النذور والقرابين فما كانت الحقيقة سفرت عن وجهها ، فمن ذا الذى يعلمهم ان الله لا ينال لحـــومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى من الناس ؟ حتى الكهنة واللاويون يجمعون لانفسهم العشور من الوافدين على بيت الله

كان الناس فى كفر ناحوم يتحدثون فى أيمان عن عيسى الذى نزل مدينتهم ، أنه أبرأ ابن نبيل من البـــلاط من مرضه ، دون أن ينتقل من موضعه ، ان الرجل جاء اليه ضارعا أن يشفى ابنه ، فأخبره ان ايمانه برأه من علته ، فلما عاد النبيل الى بيته ألفى ابنه الذى تركه مسجى فى فراشه ، بارئا يغدو ويروح هنا وهناك

راح كل واحد يعلق على هذه المعجزة ويحاول أن يجد لها شبيها فى التوراة ، فقال بعضهم انه ايليا قد قام فايليا شفى المرضى من أسقامهم ، وقال بعضهم انه النبى الذى بشرت بمقدمه البشارات ، وقد أيده الله بالمعجزات ليصدقه الناس ويؤمنوا بما جاء به من عند الله ..

وجاء عيسى الى المرفأ ، فلما رآه الصيادون والحمالون والاجراء فتنوا به ، فتركوا ما فى أيديهم وذهبوا اليه . فنفوسهم ظامئة الى نهر الكلام العذب ، النابع من قلب ملأه الله علما وحكمة ، والتفوا حوله ، فارتقى حجرا ، وراح يحدثهم بما اوحى الله اليه

وتقاطر الناس ، وازدحم المرفأ بهم وهو يحدثهم حديثا

يأسر أفئدتهم .. كان حديثه لا يخرج عما جاء في التوراة، ولكنه كان حديثا مجلوا اخاذا ، فقد أزال عنها جمود السنين . رمقوه فى اعجاب ، ونطقت وجوههم بالفرح النازل بالصدور وبدوا كأنما أريقت فيهم نشوة ، وزاد فى اعجابهم انه يذكرهم بيحيى ، انه يبشرهم بقرب الخلاص كما بشرهم ابن زكريا قبل أن يقبض عليه هيرودس انتيباس ، فهو يصيح بهم مثله : « توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات » ..

تعطل العمل فى المرفأ ، فقطار الحمير المحملة بانتاج وادى يزرعيل لا يجد من ينقل الفواكه والحبوب الى المراكب ، وتلفت أصحاب الاموال ، فلم يجدوا الحمالين والاجراء ، فتملكهم الغضب ، وذهبوا الى حيث اجتمع الناس ..

ألفوا الصيادين والحمالين والاجراء يصغون الى عيسى كالمأخوذين الذين لا يحسون ما حولهم .. حتى الجباة العشارون ألقوا اليه سمعهم فاشتعلت ثورتهم وصاحوا به . ان الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع ، وانه يفسد الاجراء ، ويعطلهم عن اعمالهم .. وما صكت اصوات أصحاب الاعمال آذان الحمالين والاجراء حتى هبطوا من السموات التى حلقوا فيها لحظات ، وانصرفوا الى عملهم وهم يغمغمون ، ان الاغنياء يكرهون عيسى لانه يعطف عليهم ويواسى فقرهم ..

وانصرف الجميع الا اثنين ، أحدهما كاتب يعرف التوراة ، ويعلم الناس فى المجامع والآخر محصل ضرائب يهودى باع نفسه للرومان ، كرهه اليهود وقاطعوه ، واذا تحدثوا عنه قالوا فى زراية : متى العشار

ووقف متى مذهولا عما حوله ، فهو مشغول بالاحساسات الجديدة المتفجرة فى جوفه ، أن نورا ينبعث

من أغواره ، فينير كل شيء أمام بصيرته ، وأن صوتا فى نفسه يوحى اليه أن آمن بذلك الرسول ، الذى رفعك وقربك من السماء

وتقدم الكاتب الى عيسى عارضا عليه نفسه ، قال :

ــ أتبعك اينما تمضى

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة ، فلم يفرح به ، ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :

ــ للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الانسان فلا يدرى أين يضع رأسه ..

انه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، انه فى رحلة دائمة، يوم فى أورشليم ، ويوم فى كفر ناحوم ، ويوم فى الناصرة ، ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة ، أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله الا رجل عميق الايمان

وانصرف الكاتب .. ونظر عيسى فوجد متى يتطلع اليه وفى عينيه صفاء ، كانتا كمرآة صادقة تعكس طهارة النفس ، وفى لمحة فحص عيسى عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للايمان ، أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى ، فأشار له وقال :

ــ اتبعنى ..

وسار عيسى ومتى يتبعه .. لم يعد محصل ضرائب للرومان بل صار محصل علم وحكمة ، وما انطلقا قليلا حتى جاء تلميذ من تلاميذ المسيح وقال له :

ــ يا سيد ، ايذن لى أن امضى أولا وادفن امى

فقال له عيسى فى هدوء :

ــ اتبعنى ودع الموتى يدفنون موتاهم

وذاع فى كفر ناحوم أن عيسى فى المرفأ ، فجاء الناس والمرضى من كل فج ، يتضرعون اليه أن يبرئهم من أسقامهم، وراحوا يتسابقون اليه ليمسهم أو يمسوا طرف ردائه ؛ وازداد الزحام فأشار الى سمعان أن يأتى بسفينة ، وصعد اليها ، وابتعدت السفينة عن الشاطىء قليلا ، واخذ عيسى يعظ منها الناس

وجاء الليل ، وبعث القمر ضوءه فانعكست أضواء القمر والنجوم على صفحة الماء ، وظهرت صور المراكب كأنما تنعكس على مرآة متموجة والجماهير شاخصة اليه ، وقد أرهفوا السمع ، ثم راحوا ينصرفون ، وقد برأ الاكمه والابرص ، وبرأت نفوس من اسقامها

والتف التلاميذ حوله .. ولما كان قد أرسل ليدعو الناس الى الانجيل (١) الى البشارة بملكوت الله ، الى كتاب الله الذى سيبقى بين الناس الى انقضاء العالم ، فقد التفت اليهم وقال لهم :

ــ فلنذهب الى مكان آخر من المدن القريبة منا لاكرز « أعظ » هناك ايضا ، لانى لهذا العمل خرجت

وخرج عيسى وتلاميذه الى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم ، ليبشر الناس ويقول لهم : « توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات »

---

(١) معنى انجيل : بشارة بالسعادة الحقيقية

- ١٨ -

« يأيها الذين آمنوا كونوا انصار الله

كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من

انصارى الى الله ؟ قال الحواريون نحن

انصار الله ، فآمنت طائفة من بنى

اسرائيل وكفرت طائفة »

(قرآن كريم)

فى الفجر ، قبل أن يذهب الليل ويأتى النهار ، وهن القمر وراح يمحى أمام طلائع الشمس التى انتشرت فى الافق الشرقى كمروحة هائلة ، أطرافها من فضة ، وقاعدتها من ذهب نضار ، وهجرت الطيور أوكارها تغرد مستقبلة النهار بتسبيحة الصباح ، وعلى الجبل المطل على كفر ناحوم ، كان عيسى يصلى لله ، انفرد وحده يدعو ربه فى خشوع ويتلقى وحى السماء

كان نسيم الفجر رخاء ينعشه ، وابتهاله الى الله يشرح صدره ، والمشاهد الرائعة تسكب فى روحه حكمة ، هذه الزنابق وهذه الازهار ، وحقول القمح التى تكسو وادى يزرعيل ، وبساتين الفواكه المنتشرة كالجنان، وجمال بحيرة جنيسارت ، وماؤها الازرق الذى يبدو فى صفاء البلور تحرك مشاعره ، انه يراها بعين الشاعر والفنان ، وبعين الحكيم ذى البصيرة النافذة ، وبعين الرسول الذى كشف الكون له عن أسراره ، فتختزن نفسه كل هذه الروائع ، وتتحول فيها الى أمثال يضربها للناس ..

وظل عيسى فى صلاته ، فشغل بالطمأنينة المندأحة في جوفه عما حوله ، كانت روحه تهيم لتتصل بالسماء ،

ومس أذنيه أصوات ، فانتبه الى نفســـه ، ونظر فألفى تلاميذه يزحفون نحوه ، فقام وأقبل عليهم ، وتحت شجرة من أشجار السرو جلسوا يحدثهم ويفقههم فى أمر دينهم
كان تلاميذه كثيرين ، يمارسون أعمالهم ، ثم يأتون اليه يلقون اليه أسماعهم ، ولكنه كان يريد أصفياء لا يفارقونه فى الحل والترحال .. أناسا يهجرون الدنيا ومتاعها ، ويهبون أنفسهم لله ، فراح يختار من بين التلاميذ حوارييه، فاختار اثنى عشر رجلا ليلازموه ، لا يفارقونه فى الليل أو فى النهار ..
وارتفعت الشمس ، وعيسى وتلاميذه تحت الشجرة ، يعلمهم وهم يسمعون ، راح يقول لهم :
ــ أيها الاخوة (1) ، ان سبق الاصطفاء لسر عظيم ، حتى انى أقول لكم الحق لا يعلمه جليا الا انسان واحد ، هو الذى تتطلع اليه الامم ، الذى تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصيخون السمع الى كلامه متى جاء الى العالم ، لان الله سيظللهم كما تظللنا هذه الشجره بل انه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظيــة هكذا ، تقى رحمته المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان
ومتى جاء الى العالم فسيكون ذريعة للاعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ، كما يجعـل المطر الارض تعطى ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا ، فهو غمامة بيضاء ملأى بالرحمة ، وهى رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث
انى أشرح لكم الان ذلك النذر القليل الذى وهب الله لى معرفته ، بشأن هذا الاصطفاء نفسه . يزعم الفريسيون أن كل شىء قدر على طريقة ، لا يمكن معها لمن كان مختارا أن يصير منبوذا ، ومن كان منبــوذا لا يتسنى له بآية

(1) هذا الحديث من انجيل برنابا

وسيلة كانت أن يصير مختارا . وانه كما ان الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذى يسير فيه المختارون الى الخلاص . هكذا قدر ان تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون الى الهلاك

لعن اللسان الذى نطق بهذا ، واليد التى سطرته ، لان هذا انما هو اعتقاد الشيطان ، فيمكن المرء على هذا أن يعرف شاكلة فريسيى هذا العصر ، لانهم خدمة الشيطان الامناء ..

فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى انه ارادة مطلقة ، تجعل للشىء غاية ، وسيلة الوصول اليها فى يد المرء ، فانه بدون وسيلة لا يمكن لاحد تعيين غاية .. فكيف يتسنى لاحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط ، بل يعوزه موطىء القدم من الارض ، لا أحد البتة . فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالاولى ، اذا استلزم سلب حرية الارادة التى وهبها الله لانسان بمحض جوده ، فمن المؤكد أننا نكون اذ ذاك آخذين فى اثبات مكره لا سبق أصطفائه

اما كون الانسان حرا ، فواضح من كتاب موسى ، لان الهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : « ليست وصيتى فى السماء لكى تتخذ لك عذرا قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن ياترى يعطينا قوة لنحفظها ، ولا هى وراء البحر لكى تعد نفسك كما تقدم . بل وصيتى قريبة من قلبك ، حتى انك تحفظها متى شئت »

قولوا لى : لو أمر هيرودس شيخا ان يعود يافعا ، ومريضا ان يعود صحيحا ، ثم اذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما ، أفيكون هذا عدلا ؟

أجاب التلاميذ :
ـ لو أمر هيرودس بهذا لكان اعظم ظالم وكافر ..
حينئذ تنهد المسيح وقال :
ـ ايها الاخوة ، ما هذه الا ثمار التقاليد البشرية ، لانه بقولهم ان الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها ان يصير مختارا يجدفون على الله .. كأنه طاغ وظالم ، لانه يأمر الخاطىء ان لا يخطىء ، واذا اخطأ أن يتوب ، على أن هذا القدر ينزع من الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة ، فيسلبه التوبة بالمرة ..

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى « لعمرى يقول الهكم : لا اريد موت الخاطىء ، بل أود ان يتحول الى التوبة » أيقدر الله اذا مالا يريده ؟

تأملوا مايقول الله ، وما يقول فريسيو الزمن الحاضر
يقول الله أيضا على لسان أشعيا : « دعوت فلم تصغوا الى » وما أكثر ما دعا الله
اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : «بسطت يدى طول النهار الى شعب لا يصدقنى ، بل يناقضنى »

فاذا قال فريسيونا : ان المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا ، فهل يقولون سوى أن الله يستهزىء بالبشر ،كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض ، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟
أما كون المختار يمكن أن ينبذ ، فتأملوا ما يقول الهنا على لسان حزقيال النبى : « يقول الله لعمرى اذا رجع البار عن بره ، وارتكب الفواحش ، فانه يهلك ، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره ، فان بره سيخذله أمامى ، فلا ينجيه وهو متكل عليه »
اما نداء المنبوذين فماذا يقول الله فيه على لسان

هوشيع سوى هذا : « انى ادعو شعبا غير مختار ، فادعوهم مختارين » ..

ان الله صادق ولا يكذب ، ولما كان الله هو الحق ، فهو يقول الحق ، ولكن فريسيى الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم

وجاء الصيادون والاجراء والكتبة ورجال الدين فى عباءاتهم الواسعة وعمائمهم السود ، واقبل أناس من نواحى غير كفر ناحوم ، وكان بين الحاضرين رجال من أورشليم ، وانتشرت الجموع على سفح الجبل ، فقام عيسى فى ردائه الابيض ، وفى قدميه نعلاه ، وراح يعظ الجماهير فى صوته الذى كان له فى آذانهم وقع السحر ، فاشرأبت الاعناق ، وجعل الناس يرشفون ما ينطق به فى لذة ونشوة ، راح يقول :

« طوبى للمساكين بالروح ، لان لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء ، لانهم يرثون الارض ، طوبى للجياع والعطاش للبر ، لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى للانقياء القلب ،لانهم يعاينون الله . طوبى لصانعى السلام ، لانهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ، لان لهم ملكوت السموات ..

« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم ، وقيل عليكم كل كلمة شريرة من اجلى كاذبين .. أفرحوا وتهللوا لان أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الانبياء الذين قبلكم

« أنتم ملح الارض ، ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح ، لا يصلح بعد لشىء ، الا لأن يطرح خارجا ويداس من الناس

«انتم نور العالم ، لا يمكن ان تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال ، بل

على المنارة ، فيضيء لجميع الذين فى البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس ، لكي يروا اعمالكم الحسنة ، ويمجدوا اباكم الذى فى السموات »

اخذ الناس يهزون رءوسهم اعجابا ، وظل الكتبة ورجال الدين صامتين ؛ كانوا يشعرون بالحسد ، ولكنهم لم يكشفوا عن الغيرة التى تأكل صدورهم ، ماذا يقولون وهو يدعو الناس بالموعظة الحسنة ويحدثهم عن الله الواحد . لم يشرك به شيئا ، فلو انه أشرك مع الله الهـا آخر ، لرجموه تنفيذا لشريعة موسى ، وزاد فى صمتهم انه أعلن على الملأ انه ما جاء لينقض تلك الشريعة ، بل جاء يؤيدها ويثبتها ، قال :

« لا تظنوا انى جئت لانقض الناموس والانبياء ، ماجئت لانقض بل لاكمل ، فانى الحق اقول لكم ، الى ان تزول السماء والارض لا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى ، وعلم الناس هكذا ، يدعى اصغر فى ملكوت السموات ، واما من عمل وعلم فهـذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات فانى اقول لكم انكم ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، فلن تدخلوا ملكوت السموات »

كانوا جميعا من بنى اسرائيل ، يعبدون الله وحده ، فلما وجدوه يعلن انه ماجاء بشريعة جديدة تنقض شريعتهم ؛ بل جاء يكملها . صاحوا فرحا وسرورا ، اما الكتبة والفريسيون فقد احنقهم تعريضه بهم ؛ ولكن لم ينبسوا بكلمة ، خشية من الجماهير المنتشية بخمر موعظته ..

قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن يقتل يكون مستوجب الحكم ، واما انا فاقول لكم : ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم

قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن ، واما انا فأقول لكم: ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها ، وألقها عنك ، لانه خير لك أن يهلك احد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها ، وألقهــا عنك ، لانه خير لك ان يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، واما انا فأقول لكم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنا ، يجعلها تزنى ، ومن تزوج مطلقة فانه يزنى

فارتفعت اصوات الكتبة ورجال الدين بالاعتــراض ، وراحوا يصيحون :

ـ ان هذا يناقض شريعة موسى

ـ هذا الذى يقول لكم الى أن تزول السمــاء والارض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النــاموس حتى يكون الكل ، قد بدل الناموس قبل أن يزول هو من موضعه

ـ لم يقل بهذا نبى ولا رسول

وارتفعت صيحات التأييد ، وانقضى وقت طويل قبل أن تهدأ العاصفة ، ليستأنف موعظته ويقول :

« سمعتم انه قيل للقدماء لا تحنث ، بل أوف لربك اقسامك ، واما انا فأقول لكم لا تحلفوا ألبتة ، لا بالسماء لانها كرسى الله ، ولا بالارض لانها موطىء قدميــــه ، ولا بأورشليم لانها مدينة الملك العظيم

« سمعتم انه قيل:عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا ، فأذهب معه

اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد ان يقترض منك فلا ترده » ..

وصاح أحد الفريسيين :

ـ ان هذا ماجاء يكمل الناموس ، بل جاء يعارضه

وماج الناس ، وارتفعت الاصوات وتشابكت الجموع فى مناقشات ، وتصرم وقت طويل قبل أن يعود السكون ، ويستأنف موعظته :

ـ لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا

سراج الجسد هو العين ، فان كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا وان كانت عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلما ، فان كان النور الذى فيك ظلاما ، فالظلام كم يكون !

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لانه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لاجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . انظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن ، وابوكم السماوى يقوتها ، ألستم انتم بالحرى أفضل منها ؟ ومن منكم اذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة . ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم : انه ولا سليمان فى مجده كان يلبس كواحدة

منها ، فان كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم ياقليلى الايمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس ؟ فان هذه كلها تطلبها الامم (١) ، لان أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون الى هذه كلها ، لكن اطلبوا اولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم ، فلا تهتموا للغد ، لان الغد يهتم بما لنفسه ، ويكفى اليوم شره

واستمر فى موعظته حتى اذا أتمها ، هرع الكتبة والكهنة اليه يناقشونه فيما قال ، وأسرعت الجموع اليه تلمس طرف ردائه ، وازداد ضغط الناس عليه ، فذهب سمعان اليه يلتمس منه أن يستريح ، وجاء تلاميذه يكفكفون الجماهير عنه ، ولكن هيهات ، كانوا يتدافعون ليبلغوه ، حتى الاطفال جاءوا يلتمسون بركته

— ١٩ —

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيحشرهم اليه جميعا »

(قرآن كريم)

هبط عيسى من الجبل ، وانطلق وحده بعيداً عن ضوضاء الناس فقد تركوه يلتقط أنفاسه ، وتفرقت الجموع ، ومواعظه تتردد فى نفوسهم ، يقبلونها ويفكرون فيها ويمعنون فى التفكير ، قال لهم : أسألوا تعطوا ، اطلبوا

(١) كان بنو اسرائيل يطلقون على الشعوب الاخرى « الأمم » للتحقير كما كان العرب يطلقون عليهم « العجم »

تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم ، فماذا خلف هـــذه الاقوال ؟ أيقول لهم : اسألوا الله التوبة والمغفرة فيعطيكم توبته ، واطلبوا ما عنده يمنحكم بركته ، واقرعوا بحسناتكم ابواب الآخرة فيفتح لكم جناته ؟ أيعلمهم بهذه الاقوال ان هذا أول الايمان : ان يعتمدوا على الله ، وان يسألوه وحده ، وان يطرقوا أبوابه ؟ أيهدف الى أن يغرس فيهـم ان يكون الله الملاذ الاوحد ، وألا يتخذوا من دون الله اربابا ؟ ماذا خلف هذه الامثال ، أيعلمهم ان هناك حياة غير هذه الحياة تبدأ بعد الموت ! وان هذه الدنيا ممر ، فعليهم أن يأخذوا من ممرهم لمقرهم لعلهم يفلحون ؟

لا تزال موعظته تتردد فى اذانهم ، لكأنمـا الكون كله يهمس بها : « ادخلوا من الباب الضيق ، فما أوسع الطريق المؤدى الى الهلاك وأرحبه ، وما أكثر الداخلين منه ، وما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدى الى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه »

ذهبوا الى دورهم ، ففي رءوسهم ما يفكرون فيه ، اما هو فذهب ليستريح بعد ذلك الجهد المضنى الشاق ،ولكن انى له الراحة ، فهذا أبرص يعترض طريقه ، ويجثو على ركبتيه ، ويتضرع اليه فى حرارة ان يشفيه ، فتتحـرك عوامل الشفقة فى نفسه ، فيمد اليه يده ، ويلمسه فيذهب عنه برصه باذن الله ، ان الله يؤيده بالمعجـــزات ليثبت رسالته ، كما أيد الرسل قبله بالمعجزات

نظر الابرص الى نفسه ، فاذا هو قد ذهب عنه السوء ، فامتلأ فرحا ، وأسرع يعلن المعجزة ، وينفذ ما اصطلح عليه اليهود عند اعلان التطهير من البرص ، فقد كانوا يعتبرونه نجاسة ، لا يتطهر منهـا الابرص ، وان برأ ، الا بطقوس ورسوم ..

كان الكاهن يأتيه خارج المحلة ، ويذبح عصفورا على ماء حي فى وعاء من خزف ، ويأخذ خشب ارز وقرمزا وعصفورا حيا ، ويغمسها فى الدم ، ويرش المتطهر من البرص سبع مرات ، ثم يطلق العصفور الحى ، ويعلن طهارة الابرص ، فيغتسل ويحلق كل شعره ويقيم سبعة ايام خارج داره ، وفى اليوم السابع يأتى بخروفين ، ويذبحهما ، أحدهما ذبيحة أثم والاخر ذبيحة خطيئة ، ويقدم نعجة للمحرقة، ويأتى بدقيق وزيت فيأخذ الكاهن من دم ذبيحة الاثم والزيت ويدهن شحمة اذن المتطهر اليمنى وابهام يده ، وابهام رجله اليمنى ، ويصب الزيت على رأسه ، ويعلن طهارته .. طقوس كتبوها ما انزل الله بها من سلطان ..

ودخل عيسى كفر ناحوم والحواريون معه ، وما استقر بها حتى جاء اليه قائد مائة ، وفى عينيه رجاء ، انه القائد الذى بنى لكفر ناحوم مجمعها ، جاء اليه يلتمس منه أن يشفى عبدا له ، غلاما يحبه تركه يتعذب من آلام المرض ، قال القائد :

ـ جئت التمس منك أن تشفى فتاى الذى غادرته وهو يقاسى نوبة صرع قاسية

فقال له عيسى :

ـ أنا آتى لأشفيه

تضايق اليهود الذين سمعوا ذلك ، كانوا يخشون ان يشفى عيسى ذلك الغلام ، فيؤمن به قائد المائة ، انهم لا يريدون ان يدخل احد فى دينهم ، ولا يتمنون هداية الامم ، فهم يتصفون بأنانية دينية ، فلو اهتدى غير بنى اسرائيل لدخلوا الجنة مع الوارثين ، مع ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وما كان اليهود يرحبون بذلك ، فهم يرون الجنة لهم خالصة ، حتى اسماعيل بن ابراهيم لايرحبون

به فيها ، ولولا ان قال الله لابيه أنه سيباركه ويجعله أمة عظيمة لطردوه من السماء !

كان الدخول الى بيت وثنى خطيئة ، فقال القائد :

ـ ياسيد ، لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى

وصمت الرجل قليلا ثم قال :

ـ لى جند تحت يدى ، أقول لهذا اذهب فيذهب ، ولآخر ايت فيأتى ، ولعبدى افعل هذا فيفعل . قل كلمة فقط فيبرأ غلامى

عجب عيسى لهذا الايمان ، فالتفت الى من عنده وقال:

ـ الحق اقول لكم لم أجد ولا فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، واقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتكئــــون مع ابراهيم واسحــاق ويعقــوب فى ملكوت السموات ..

فالجنة ليست وقفا على شعب دون شعب ، فالوارثون هم عباد الله المؤمنون ، سواء أكانوا من الامم أم من الشعب المختار ..

وقال لقائد المائة :

ـ اذهب وكما آمنت ليكن لك

وجاء المساء ، ووضع الطعام وقبل أن يمدوا اليه يدا راح عيسى والحواريون يصلون لله :

« أبانا الذى فى السموات

ليتقدس اسمك ..

ليأت ملكوتك ..

لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الارض

خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم

اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا

ولا تدخلنا فى تجربة

ولكن نجنا من الشرير
لان لك الملك والقوة والمجد الى الابد
آمين »

كان أمينا فى تبليغ رسالته ، لم يدع مع الله الها آخر فى صلاته ، وكان رسولا كالرسل الذين أرسلهم الله الى الناس ، ليدعوهم الى الصراط المستقيم ، ولو كان يعلم أن مع الله الها آخر ، لصلى له مع الله ، ولكنه ككل الرسل كان يصلى لله الاحد الصمد ، ولا يستنكف ان يكون عبدا لله ، داعيا لوحدانيته ، وعظ الناس فوق الجبل قائلا :

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لانه اما أن يبغض الواحد ويحب الاخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الاخر »

كان يعلم هدف رسالته ، فما أرسل لينقض شريعة موسى ويقيم شريعة اخرى ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت السموات ، فراح يردد فى صلاته « فليأت ملكوتك» وراح اتباعه يرددونها مع الايام

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيالا ، « فليأت ملكوتك » هى الانجيل الذى جاء به الى الاتباع والانصار ، فراح المؤمنون يترقبون ذلك اليوم العظيم ، اليوم الذى يأتى فيه ملكوت بانيه الله ؛ وشارعه الله ، وشريعته كلام الله

— ٢٠ —

« وابرىء الاكمه والابرص واحيى الموتى باذن الله »

(قرآن كريم)

كان يحيى يعيش فى الصحراء الواسعة ، طليقا كالطير،

يستقبل الشروق منشرح الصدر ، يملأ رئتيه بالنسيم الطلق ، ويودع النهار راضي النفس ، فالشروق والغروب واصفرار الشمس كالنضار ، واحمرارها كالدم ، آيات تدعم في قلبه الايمان ، وتقربه من خالق الكون

كانت روحه تهفو الى النجوم ، فهي أنيسته في سكون الليل ، وهي شريكته في تسبيح الله ، وكان ضوء القمر المنعكس على مياه البحر الميت يملأ قلبه نورا ، وهيام الوحوش والغزلان في القفار ، وتحليق الطيور في السماء توحي اليه قناعة ورضا ، انها تجد رزقها في دنيا الله كما يجد رزقه في عسل النحل والجراد

كان يدعو الى التوبة والى تطهير النفوس من الاثم ، لاستقبال ملكوت الله ، فاجتمع الناس اليه مؤمنين به ، فحقد الفريسيون عليه ، وما كانوا يملكون الا الحقد وبعض نصوص ميتة من الشريعة حفظوها عن ظهر قلب ، فرفعوا الى هيرودس أنتيباس أنه يدعو الناس الى الثورة وقلب نظام الحكم

وألقي يحيي في حصن ماكيروس الرابض في الصحراء فغابت عن عينيه السماء الصافية الزرقاء ، والطبيعة الطلقة الموحية .. شروقها وغروبها ، وحرارتها التي كانت تبعث في جسمه الناحل الحياة ،والنجوم المتلألئة الهامسة بالاسرار ، والقمر الهاتف بسنة الحياة ، محاق فهلال فبدر ثم محاق ..

رطوبة السجن تسري في بدنه ، ورائحة الحياة البركانية تملأ صدره ، وتكتم أنفاسه ، والظلمة كانت كسحابة دكناء رانت على بصره ، وسلاسل ثقيلة في قدميه ، ويديه .. عيشة بغيضة لربيب الحرية : عيشة أهون منها على نفسه الموت

كان السجن بغيضا اليه ، ولكن نفسه لم يعتورها وهن،

لم يضعف أمام جبروت هيرودس ، بل ظل يصرخ أن هيروديا لا تحل له ، فغير عليه قلب المرأة المغامرة الطامعة فى أبهة الحكم ، فراحت كالافعى تنفث سمومها ،وتوسوس لهيرودس أن يقتله ، فى الليل وفى النهار ٠٠ ولكن هيرودس كان يصم اذنيه عن فحيح الافعى ، فهو متطير يخشى ان قتله ـ وهو نبى ـ أن ينزل به غضب السماء

كان يحيى يقابل تلاميذه وهو فى سجنه ، يصغى إلى أخبار الناس ، ويبعث اليهم تعاليمه ، فبلغه أن عيسى قام مثله يصيح فى بنى اسرائيل : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأنه يقوم بمعجزات ، يبرىء الاكمه والابرص، وأنه يدعو القوم الى الله ، فأرسل اثنين من تلاميذه يقولان له : « أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ »

غادر الرجلان القلعة ، وانحدر من جبال موآب العالية التى كانت تحجب الشمس ، وسارا والضياء المنعكس من مياه البحر الميت يكاد يغشى عيونهما ، ولاحت لهما التلال العارية الا من زنابق نبتت ، فكانت كجواهر تناثرت فى صحراء ، وانطلقا يخترقان الوديان الخضر ، والفيافى الصفر ، يدخلان مدينة ويخرجان الى مراع يرعى فيها رعاة بنى اسرائيل الرحل ، وينسابان فى صحراء قاحلة ليس فيها ديار ولا نافخ نار ٠٠ كانت قبلتهما كفر ناحوم التى ذاع منها ما فعله صانع المعجزات

ولاح لهما جبل يكسوه الجمال ، فيمما صوبه ، فعلى سفحه تقع مدينة نايين الجميلة ، كانت الشمس فى كبد السماء ، وكانت أشعتها حامية ، فعزما أن يدخلا تلك المدينة يقضيان فيها الظهيرة ، ثم يغادرانها ليلحقا بمن أرسلهما يحيى اليه

دلفا الى المدينة ، وجلسا يستريحان تحت ظل شجرة ، ثم قاما يستأنفان رحلتهما ، وما خرجا من باب المدينة

الشمالى حتى لمحا جبل طابور وجبل أندرو ، ينساب بينهما طريق يصل الى بحيرة جيسارت فأغذا السير واذا بموكب قادم ، فصوبا اليه البصر

كان عيسى وحوله الحواريون والمؤمنون ، غادروا كفر ناحوم في الفجر ، ليبلغوا نايين قبل العصر .. جاء يبشر باقتراب ملكوت السموات ، فهو فى رحلة دائمة ، يبصر الناس بما أرسله به الله

دنا تلميذا يحيى منه ، وبلغاه رسالة السجين ، فلم يقل لهما انه هو الآتى ، بل قال لهما : تعاليا وانظرا

وسار موكب المؤمنين ، وراح يرتقى الطريق الصخرى المؤدى الى نايين ، وقبل أن يجتازوا باب المدينة ، اذا بجنازة خارجة ، واذا بامرأة تولول وتصرخ فى حزن عميق، فالمحمول على الاعناق ابنها الوحيد ، كان آلامل وكان الرجاء بعد موت أبيه ، فاذا به يلحق بأبيه ويتركها للأسى والاحزان ..

نظر عيسى الى المرأة ، فهزه حزنها .. أحس كأن دموعها تحرق قلبه ، فاقترب منها ، وقال لها فى حنان :

ـ لا تبكى ..

رنت المرأة اليه من خلال دموعها ،ولاح فى وجهها عتاب، فكيف يطلب منها أن تكف عن البكاء والنار تسرى فى أحشائها ، انه لا يدرى عظم فجيعتها ، صارت ثكلى بعد أن كانت أرملة تمزق قلبها وتجددت الاشجان ..

وذهب الى النعش ووضع يده عليه ، وقال فى صوت عميق :

ـ أيها الشاب قم

وساد وجوم ، واتسعت العيون ، وتحرك الشاب فى نعشه ، فلاح فى الوجوه هلع ، ووضع النعش على الارض، وقام الشاب تدب فيه الحياة ، فهرعت اليه أمه تضمه وهى لا تكاد تصدق ما جرى ، وتغسل وجهه بدموعها

وفى ذلك الذهول تذكروا ايليا ، فقد أعاد الحيــاة الى ابن المرأة صاحبة البيت الذى ينزل فيه ، وتذكروا ما ورد عن اليشع واعادة الحياة الى ابن المرأة الشونمية ، فصاحوا:

ـ انه نبى ، انه نبى كريم ..

وانطلق عيسى وصحبه ورسولا يحيى ، فراح يعــظ الناس ، ويبرىء الاكمه والابرص ، ثم التفت الى تلميــذى يحيى ، وقال لهما ، مقتبسا البشارة من التوراة :

ـ عودا الى سيدكما وقولا له : العمى يبصرون ،والعرج يمشون والبرص يتطهرون ، والصم يسمعون ، والاموات يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى

انصرف رسولا يحيى ، وقد ملئا عجبا ، وأقبل عيسى على حوارييه والمؤمنين ، يحدثهم عن يحيى العظيم ، فقال لهم :

ـ ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركهـــا الريح ؟ ..

بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أانسانا فى ثياب ناعمة ؟

ها هم ذوو لباس المجد والنعيم فى بيوت الملوك

بل لماذا خرجتم ؟ ألتنظروا نبيا ؟

نعم أقول لكم أفضل من نبى ، لأن هذا هو المكتوب عنه ، هأنذا أرسل ملاكى قدامك ، فيعد طريقك أمامك

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ـ انّ يحيى لم تلد النساء مثله ..

ـ ٢١ ـ

« وان يكذبوك فقد كذب الذين مــن قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » (قرآن كريم)

صعرت الشمس خدها للكون ، وشمخت فى كبرياء ،

كانت كالغانية المزهوة بجمالها تحسب أن لن يغيض ، ورنت الى تلال الناصرة من عليائها ، فقـد كانت فى ذروة مجدها فى كبد السماء ، وسار عيسى وحواريوه حوله فى الطريق المتعرج المنساب بين التلال ، ذلك الطريق الـذى قطعه وهو غلام ، ونظر الى البيوت البيض ، وثبتت بصره على بيت بعينه ، بيت الصبا والشباب ، فذهب اليه وفى قلبه بهيج الاحساسات ..

كان عيسى فى رحلته الدائمة ينتقل من مدينـــة الى قرية ، كفراشة تنتقل بين الافنان ، فما يتم موعظتـه فى مكان حتى ينطلق الى مكان آخر ، فذاع اسمه فى مـدن الجليل ، وقراه ، وان كانت صورته لم تنطبع فى نفـوس الناس ، كان اذا ذكر اسمه تخيلوه مواعظ وأمثـــالا فمواعظه وأمثاله سرت مسرى الهواء

انه يعظ اليوم فى مجمع كفر ناحوم ، وغدا فى سـوق نايين ، وفى الليل على شاطىء البحر ، وفى النهـــار على سفح الجبل ، وترادفت المجامع والاســـواق ، وطويت السهول والصحراء ، فأحس تعبا ، بعد الرحلات الطويلة التى قطعها على الاقدام ، وحن الى ليلة يقضيها تحت سقف بيته بعد تلك الليالى التى قضاها فى بيت سمعان أو تحت قبة السماء ، فانطلق الى الناصرة يمضى فيها أياما

جلس حواريوه فى حديقـــة الدار ، وذهب الى أمه ، ففرحت مريم بمقدمه ، وأقبلت عليه تحـــادثه وقد فاض حديثها بالحنان ، ثم دخل عيسى الى غرفته ومريم ترنـــو اليه فى عطف واشفاق فقد راح منذ غادرها يدعو الناس الى ملكوت السموات

وهبطت مريم الى الحديقة لترى أصفياء ابنها وحوارييه، فوجدت صيادى أسماك بسطاء ، ولـــكن كان فيهم شىء يميزهم عن الناس ، صفاء نفس وايمان ..

طفقوا يحدثونها عن ابنها ، وعن معجزاته ، فقالوا لها في زهو أن ما كانوا يقرأونه في التوراة رأوه رأي العين ، رأوا ابنها يحيي ميتا ، ويبرىء الاكمه والابرص ٠٠فعل ما فعله ايليا واليشع ، فدعم رسالته بالآيات ، كما دعمها الرسل الذين أرسلوا قبله

وذاع في الناصرة خبر مجيء عيسى الى مدينته ، وكانت شهرته قد سبقته ، فتحدث الناس عما فعله في كفر ناحوم ونايين ، وقالوا انه النبي المنتظر ٠٠ كانت احاديثهم مفعمة بالزهو ، ولكن قلوبهم من الايمان خواء

وفي يوم السبت ارتدى الرجال ثيابا نظيفة ، وتزينت النساء ، ولبس الاولاد ثياب الصلاة ، وذهبوا الى المجمع ، فيوم السبت يوم عبادة وراحة ٠ كان المجمع بناء متواضعا مستطيلا ، رفع سقفه على عمد من الطراز اليوناني ، وفي صدره مكان القدس ، وقد اتجه الى أورشليم ، فأورشليم قبلة اليهود من زمان سليمان الحكيم ٠ كان الرجال يجلسون في المجمع بحسب مهنهم ، فالنجارون في ناحية ، والزراع في ناحية ، والتجار في ناحية ، والنساء في شرفة عالية ضرب عليهن الحجاب

وجلس في الصف الاول رئيس المجمع ، وعلى يمينه كاهن المجمع ، وعلى يساره « الشسيلاك » وجلس خلفهم أسن سبعة في الناصرة ، وأمام رئيس المجمع التابوت ، وفيه الاسفار المقدسة ، وجوار التابوت شرف يقف عليه القارىء أو الواعظ « البيمة »

وأقبل عيسى وأمه والحواريون ، وانضم عيسى الى النجارين وجلس حواريوه حوله ، وصعدت مريم الى الشرفة وعيناها على ابنها ، والذكريات تتوافد الى رأسها ، فما أكثر ما رأته في السبوت في ذلك المكان

قام قارىء واعتلى الشرف ، ورتل في صوت عـــذب الشمة : « اسمع يا اسرائيل الهنا اله واحد ... » وقال الاولاد : « آمين » وقضيت الصلاة ، وبدأت خدمه المجمع ، وفيها يقرأ فصلان ، « البراشـــــاه » . وهو فصـــل من الناموس ، و « الهافتراه » وهو فصل من الانبيـــاء ، دنا رئيس المجمع من التابوت وأخرج السفر المقدس ، فنهض الناس ، وسبحوا الله ثم جلسوا ، وتقدم رجــــــل مسن وتناول التواراة وراح يقرأ « البراشاه » ، ولما انتهى منها عاد الى مقعده ، فأصلح عيسى شال الصلاة على كتفيه ، ثم قام وتقدم الى الشرف ، والعيون متعلقة به ، وقلب مريم في جوفها يخفق كجناح حمامة

فتح الخازن التابوت ، وقدم الى عيسى « الهافتراه » . كان درس اليوم سفر النبي أشعيا ، فأشار الخازن بأصبعه الى بداية قراءته ، ولكن عيسى لم يقرأ من حيث أشار اليه ، بل راح يقرأ من أشعيا :

« روح السيد الرب علي ، لان الرب مســـحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب منكسري القلب ، لأنادي للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق ، لانادي بسنة مقبولة للرب ، بيوم انتقام لالهنا ، لأعز كل النائحين »

كان على علم بالتوراة ، يقتبس منها ما يلائم كل حالة ، اقتبس منها « العمي يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يتطهرون ... » والآن يقتبس منها ما يعلن به للملأ أنــه رسول رب العالمين

وطوى السفر ، ودفعه للخازن ، وجلس متأهبا ليـلقي عظته ، وساد القاعة صمت ، فقال لهم في صوت واضح :

ـ اليوم قد تم هذا المكتوب

فهتك الصياح السكوت ، قالوا له :

ـ آتنا بمعجزة لنشهد لك

ـ معجزة من معجزاتك في كفر ناحوم
ـ لن نؤمن بك حتى نرى آية من ربك
وقال الفريسيون في زراية :
ـ أليس هذا عيسى النجار ؟
ـ من أين يأتيه العلم وما كان من الربيين المتعلمين ؟
ـ لن نؤمن بك حتى تأتينا من السماء ببرهان

صارت مريم عيونا ، راحت تنظر ماذا يفعل ابنهـــا لهؤلاء الذين يتطاير الشرر من عيونهم ، انهم يصيحون به أن يأتيهم بمعجزة ، وهل كان في مقدوره أن يفعل معجزة من عنده ، انها تؤمن أن ما يفعله باذن الله ، وما تصـنع المعجزات الا اذا صفت النفوس ، وأفعمت بالايمـــان ، وهؤلاء الجليليون غلظت قلوبهم ، وما جاءوا ليؤمنوا ، بل جاءوا به يشاهدون عملا خارقا من الاعمال

وارتفع الصياح :
ـ شفيت مرضى كفر ناحوم ، فاشف مرضانا
فأشار عيسى اليهم أن اصمتوا ، فلما خفتت الاصوات ، قال :
ـ تقولون : أيها الطبيب ، اشف نفسك · كم سمعنا بما جرى في كفر ناحوم ، فافعل ذلك هنا أيضا · الحق أقول لكم : ليس لنبي كرامة في وطنه · ان أرامل كثيرات كن في اسرائيل في زمان ايليا في ذلك الزمن الذي لم ترسل فيه السماء أمطارا لثلاث سنين ، فحل الجدب بالارض ، واحتاجت الارامل الى العون ، ولم يتقدم ايليا الا لانقـــاذ أرملة واحدة · وكان في اسرائيل كثيرون مصابون بالبرص في زمان اليشع النبي ، فلم يطهر منهم الا نعمان السرياني

فظهر الغضب في الوجوه ، وصاح صالح :
ـ أيقصد أن يقول اننا لا نستحق المعجزات التي صنعها في كفر ناحوم ؟

ـ لم يفعل شيئا لانه يعلم أنه لن يستطيع أن يخدعنا بمعجزاته الزائفة ..

ـ ارجموه ، فالشريعة تقضى برجم النبى الكذاب

ـ ارجموه .. ارجموه ..

وهاج الناس كالليوث الكواسر ، وانقضوا عليه يقتلعونه من مكانه ، وأخذوه وخرجوا به من المجمع ، فمشت الرهبة فى قلب مريم وهرعت تهبط الدرج واجفة ، وهب الحواريون ليخلصوه من أيدى أعدائه ، وراح يوحنا يتدفق بين الجموع كثور هائج ، ولكن هيهات أن يصل اليه ، فقد أطبق الناس عليه كالامواج ..

انطلقوا فى طرقات الناصرة ، والحواريون يجاهدون وما هم ببالغيه ، ومريم فى أثرهم مبهورة الأنفاس ، وبلغوا قمة الجبل المنحدر الى سهل يزرعيل ، وامسكوا به ليدحرجوه حتى يتمزق على الصخور الناتئة ، فقد كان ذلك نوعا من الرجم الشرعى

جاءوا ليدفعوا به ، فأحسوا كأنما يغشى عليهم ، وكأن أيديهم عاجزة عن أن تصل اليه ، واذا به يجتاز بينهم وهم واجمون.. لاح على وجوههم دهش ، وعيسى يسير هادئا سالما ، وقد مالت الشمس للمغيب ، تلفظ آخر انفاسها ، وقد وضعت على الأرض خدها فى ذلة المحتضر ..

ـ ٢٢ ـ

« وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ويوم يبعث حيا »

(قرآن كريم)

دب النشاط فى قلعة ماكيروس ، فالخدم فى غدو

ورواح ، يستعدون للوليمة الكبيرة ، التي دعا اليهـا هيرودس أنتيباس أصدقاءه الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين ، الذين كانوا ضالعـين معه في خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح ..

كان هيرودس يتأهب للاحتفال بعيد ميلاده ، محاكيا الأباطرة الرومان ، ولما كان يتملق شعبه ، ويتظاهر أمامه بأنه فريسي متمسك بالدين والتوراة ، فلم يستطع أن يقيم ذلك الحفـل في قصره ، فأقامه هنـا في قلعـة ماكيروس ، الشامخة على جبل عال في جوف الصحراء

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطـلاق ، يختلس فيها هيرودس اللذة بعيـدا عن رقابة شـعبه الذى لا حديث له الا الحرام والحلال ، وكانت سجنـا رهيبا للثوار الخارجين على السلطان ، والأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب ، لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة اليه سبيلا

ذهب هـيرودس وهيروديا وبطانتهمـا الى القلعـة ، يستقبلون الزوار ووفدت الى رأس هيرودس أفكار ، صرخ فيه يحيى في هذا المكان أن هيروديا لا تحل له ، انه يخشى أن تنزل عليه لعنة موسى فلا يعقب منها ، وهـو يشتهى أن ينجب من يرث بعده ولايته ، كان هيرودس كثير التطير ، طلبت منه هيروديا أن يقتل يحيى ، الذى يقلب عليه بنى اسرائيل ، وطلب منـه السـنهدرين أن يقتله ، حتى لا يثير بين الناس فتنـة ، وأشـار عليـه أصدقاؤه الرومان بقتله قبـل أن يؤلب الشـعب على رومية ، ولكنه كان يرتعد فرقا اذا فكر في قتله ، كان يصدق ما قيل من أن يحيى هو ايليا ، بعث بعد موته يدعو الناس الى الصلاح ، فخاف أن يمد اليه يده ،

فينزل عليه خسفا من السماء ..

لم يكن يذكر خوفه اذا هب يدافع عن وجهة نظره ، بل كان يتسربل بالدهاء ويقول ان من الحكمة أن يترك يحيى فى سجنه حتى ينساه أتباعه ــ وما أكثرهم ــ فبساطة تعاليمه ، ومطابقتها لناموس اليهــود ، جعلت تصديقه أمرا سهلا ، حتى ان كثيرا من الفريسيين المتزمتين المتعصبين صدقوه وأصبحوا له أتباعا ، فالأمل فى أن يخرج من سجنه يوما منع أتباعه من اعلان ثورتهم ، أما اذا قتل فسيندلع لهيب الثورات ، فموته اخطر من حياته . ودمه أفصح من مواعظه التى يخرج بها حواريوه الى الناس .. قد تكدر تعاليمه الصفاء ، أما دمه فيزلزل العروش والتيجان ..

وأتى المساء وأضيئت المشاعل فى القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام ، وبدت من الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها ، والسماء المزينة بمصابيحها والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة . ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب ، ملئت بالفواكه والمآكل والشراب ..

ووفد المدعوون ، الرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد ، وامتلأت البطون ، ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة ، فاتسعت عينا هيرودس ، ولاح فى وجهه انشراح ، فقد كان ينفعل لكل ما يحرك جذوة الشباب الذى ولى ..

كانت هيروديا الى جواره تعابث ابنتها سالومى ، التى كانت رائعة الحسن ، كزنبقة نابتة فى الصحراء ، والتفت هيرودس اليها فوقعت عيناه على عينيها

السوداوين كليل الربيع الساحر ، وقفزت الى ذهنه المخمور فكرة ، لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده ، وقد ذاعت شهرتها كراقصة ماهرة ، حتى قرعت ابواب القياصرة فى رومية ؟

مال نحوها وقال لهـا :

ـ ارقصى لى يا سالومى ..

ـ لا أشعر برغبة فى الرقص ..

ـ ارقصى لى ..

ـ لا أستطيع ..

ـ اذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين ..

فقالت فى مرح :

ـ حقـا ؟

ـ أقسم لك يا سالومى ..

ـ بماذا تقسم ؟

ـ أقسم لك بآلهتى ، ما سألتنى شيئا الا أعطيتك ..

ـ لقد أقسمت ..

ـ أقسمت يا سالومى .. وما حنثت فى قسمى قط ..

رقصت سالومى فى خفة الطيف . وتثنت كأفعى ، وهيروديا ترمقها وفى رأسها أفكار خبيثة ، وهيرودس ينظر فى ابتهاج ، وحبست الأنفاس ، فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها نار ، تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت الى هيرودس وحنت رأسها أمامه ، فقال لها فى انشراح :

ـ انهضى لأمنحك ما تطلبين

احتارت سالومى ، فما تدرى ماذا تطلب ، فذهبت الى أمها تسألها ، وما كانت هيروديا فى حاجة الى تفكير ، فقد فكرت ودبرت ، فقالت لسالومى همسا : « اطلبى

رأس يحيى » ..
عادت سالومي الى هيرودس ، فقال لها وهي تبتسم :
ـ هيه ، ماذا تطلبين ؟
ـ هدية فى طشت من فضة !
فغمغم الملك فى دهش :
ـ هدية فى طشت من فضة ؛ وما هذه ؟
ـ رأس يحيى ..
فاربد وجه هيرودس ، وطارت الخمر من رأسه ، وقال فى فزع :
ـ لا .. لا .. غير هذا يا سالومى .
ـ أريد رأس يحيى فى طشت من فضة
فقال هيرودس وهو يهتز رعبا :
ـ لا .. لا .. غير هذا يا سالومى ..
غير هذا يا سالومى ، اسألى نصف مملكتى ، اسالى أى شيء غير هذا ..
فقالت هيروديا فى اصرار :
ـ لقد أقسمت ..
وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان ، الوالغون فى الاثم والعدوان ..
ـ أقسمت قسما عظيما .. فبر بقسمك ..
ثارت فيه بربريته ، فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ، ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت خائف :
ـ اعطوها ما طلبت
وهبط الجنود الى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم ، وانقشعت النشوة ، وحل قلق ورهبة ، وانقضى الوقت وئيدا بغيضا ، واذا بالجنود يعودون يحملون طشتا من فضة ، فوقه رأس يحيى ، وتناولت سالومي الطشت ،

وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت الى أمها تقدم لها راس من سبها ، ومرغها فى العار ..

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه : لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف اثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل عفيفا ، ولو كانت دعوى الفداء حقا ، وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء ، لكان ذلك الدم الطاهر ، الذى أهدر بلا جريرة ، أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم ، ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء ، فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطىء تموت ، الأبن لا يحمل من اثم الأب . والأب لا يحمل من اثم الأبن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون ، وقرر أن الآباء لا يقتلون عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل انسان بخطيئته يقتل

ان الله عادل ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وهو رحيم ، فاذا كان آدم قد أخطأ ، فقد نال جزاء خطيئته ، طرد من جنة عدن ، وهبط الى دنيا الشقاء ، وراح يستغفر الله ، ويذرف دموع الندم ، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا ، فقد عفا عن زلة عبده ، « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم » ..

— ٢٣ —

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »

(حديث شريف)

شباب بنى اسرائيل الرافل فى العز يحاول أن يتحرز

من ربقة الدين ، فهم يكونون طبقة تتطلع الى محـاكاة الرومان الحاكمين ، فوطأة التقاليد ثقيلة بغيضة ، تكبت العواطف المذخورة المشبوبة بين الضلوع .. انهم يريدون أن ينفسوا عن غرائزهم ، وأن يقضـوا أيامهم فى متعة وسرور . فأجسادهم متعطشة الى البهجـة ، وأرواحهم ظمآى الى النشوة والناموس حائل بينهم وبين الانطلاق المنشود ، فليهجروا الناموس . وليفعلوا ما يبغون

كونوا حلقات منهم .. وراحوا يمضون الامسيات فى بيت من بيوت الفاتنات ، اللائى يفتحن دورهن لاصحاب المال والنفوذ ، وكان بيت مريم المجدلية من تلك البيوت ، كانت مريم شابة جذابة ، كأنما صيغت من لبن ودم ، وكانت تمتاز بعينين سوداوين واسعتين ، يتوج رأسـها شعر فاحم مسترسل ، يخفى صدرها الناهد البديع

اذا نسج الليل خيوطه السود على الـكون ، انسـل الشباب الغنى اليها ، وراحوا يمضون ليلتهم فى سـمر وحديث ومجون ، بين قرع الكئوس ، وتثنى الراقصات ، وأنغام الموسيقى التى تحرك الغرائز ، وتبعث الدفء فى الصـدور ..

كان لمريم اكثر من عشـيق ، وكانوا يتنافسـون فى ارضائها ، فيحملون اليها الهدايا من الذهب واليواقيت ، فكانت تفكر أحيانا فى أن تبعث ببعض المال الى المعبد ، فكان الكاهن يرد اليها مالها ، فالكل يعرفونها غارقة فى الدنس ، والشريعة تحرم لمس أموال الخاطئين ..

وتحت شجرة ضخمة وارفة الظل ، وقف عيسى فى السهل المنبسط ، الذى اصفرت فيه سنابل القمح ، فبدا كأنما ارتدى حلة من الذهب ، واجتمع حوله الجمـوع يصغون اليه .. ومرت مريم المجـدلية فألفت جمهرة ، فانطلقت فى خفة الغزال تنظر ، فرأت شابا ، لم يكن مثل

الشباب الفارغ المتهافت عليها كالذباب ، بل كان وجهه ينطق بالطهارة والرزانة ، ولفت نظرها عيناه ، كانتا صافيتين صفاء غريبا حتى ليكاد يبدو منهما فؤاده ، وادامت النظر اليه فشعرت بمهابة ، ووقفت ترنو اليه لحظة ، ثم همت بالانصراف واذا بصوت عميق يقرع أذنيها ، فتحس كأنما اريقت في جوفها كلماته .. كانت مواعظ قوية أخاذة ، تستحوذ على النفوس ، وتنزل بالقلوب رهبة ..

تسمرت مريم في مكانها ، وأطرقت برأسها ، وارهفت سمعها ، فأحست كأنما ينتشلها من دنياها ، أصغت الى هلليل والى شماي والى الوعاظ من الكتبة والفريسيين ، فلم يطرق أحدهم باب قلبها ، كانت مواعظهم كالطبل الأجوف ، تدوى لحظة وسرعان ما تمحى . أما ما تسمعه الساعة فينفذ الى أعماقها ، وتنفعل له كل خالجة وجارحة . ويبدد الظلام المتراكم فى جوف صدرها ، انها تشعر أن مواعظه تغسل روحها ، وتخلقها خلقا آخر

وانتهى عيسى من دعوته ، وانصرف وحواريوه حوله ، وانتشر الناس فى الأرض ومريم ذاهلة ، فصوته العميق الطاهر لا يزال يرن فى أعماقها ، وانتبهت فوجدت نفسها وحيدة ، فسارت وهى مشغولة بأفكارها

وجاء المساء ، فتواتر العشاق على دارها ، والتفوا بها ، لينعموا بمرحها ، فاذا بها مطرقة ساهمة ، يحادثونها وهى شاردة .. فجعلوا يتظرفون ليبددوا كآبتها ، ولكن هيهات ، كانت غائبة بروحها ، وان كانوا يحلقون حول جسدها ..

وولد النهار ، فخرجت مريم الى الجليل تبحث عمن فجر فى نفسها نبعا من الخير ، فقد باتت تستشعر مشاعر فاضلة ما كانت تعرفها ، وانطلقت تنقب عمن

أحيا موات نفسها ، حتى وجدته يعظ الناس ، فهرعت خافقة القلب تصغى اليه ..

أحست نحوه احساسا غريبا ، شعرت بحبه يملأ جوانحها ، ولكنه ما كان كذلك الحب الخسيس الهابط بها الى حمأة الرذيلة ، بل حبا رافعا ينتشلها من وهدتها الى عالم صاف من الطهر ، أن نورا يسكب فى روحها ، فيفر أمامه ذلك الظلام الذى ران على حياتها ، وغشاوة الدعارة تتهتك عن عينيها ، فترى جمال العفة ، وحرارة كلماته تبخر مستنقع الدنس الراكد فى أغوارها ، فتحس كأنها صارت فى خفة الطيف أو الملائكة ..

وعادت الى بيتها ، وأغلقت عليها بابها ، ولم تفتحه لطارق ، وصمت أذنيها عن توسلات أخدان الليل ، وفى السكون الهاجع طفقت تناجى الله مستغفرة ، تبكى فى حرارة ، فقد عرفت عيناها الدموع منذ عرفته ..

وخرجت وقد عزمت أن تنطلق اليه ترفع اليه شكرها على تخليصها من أدرانها ، ولكن لما وجدته يعظ الجموع احجمت ، كانت تعرف قسوة الناس ، فاذا ما تقدمت اليه ارتفعت أصوات الهزء والسخرية ، فهم يعرفونها امرأة خاطئة .. ويا لقسوة الحكم على الخطاة فى مجتمع مراء يتظاهر بالطهر والعفاف

وانتشرت الجموع فى الطرقات،وسار وحواريوه وبعض الرجال ومريم فى أثره ، ترجو أن تنفرد به ، لتخر ساجدة تقبل قدميه ، فقد أخرجها الى النور من دياجير الظلمات

ودعاه فريسى الى داره ، فدخل وحواريوه حوله ، ولم يقدم لهم الفريسى ماء ليغسلوا أرجلهم ، فما من ضيف يدخل بيت عارف بالناموس الا يقدم اليه الماء ، ولم يقبلهم ، فالضيوف يستقبلون بالقبلات ..

وقفت مريم تنظر ، وأفكارها تراودها ، ان هى عادت

الى بيتها فربما لا تتاح لها فرصة مثل هذه .، وان هى اقبلت فماذا يقول الرجال عنهـا ؟ وبقيت فى حيرة ، تترجح بين الاقدام والاحجام ، وتغلب ايمانها فتقـدمت نحو الدار ..

سارت وقلبهـا يدق فى صـدرها ، مريم المجدليـة الجميلة التى عنت لها الرقاب ، تتقدم واجفة ، فى يدها صندوق من المرمر فيه طيب ، وفى جوفها قشـعريرة ورهبة .. ودلفت الى المكان ، فألفت عيسى ، النبى الذى بذر فيها الايمان ، متكئا على أريكة ، فركعت خاشعة ، وصبت الطيب على رجليه ، وانهمرت دموعها ، فانتثرت كاللؤلؤ على قدميه ، فتلفتت تبحث عن شىء تجفف به دموعها التى تساقطت ، فلم تجد شيئا ، فحلت شعرها وجعلت تجفف به رجليه ..

رمقها سمعان الفريسى فى شزر وزراية ، ولكنها لم تلحظه . كانت ذاهلة عنه بالفرح المنبثق فى صدرها ، فتلك الدموع الطافرة من مآقيها غسلت روحها ، حتى صيرتها أنقى من البلور . وخطر للفريسى خاطر : لو كان عيسى نبيا لعرف أى امرأة هى التى تغسل قدميه بالدموع

رفع عيسى بصره الى الفريسى وقال له :

ـ ياسمعان ، عندى شىء أقوله لك

ـ قل ..

ـ كان لدائن مدينان ، على أحدهما خمسمائة دينار ، وعلى الاخر خمسون ، ولم يكن لهما مايوفيانه ، فسامحهما ، فأيهما يحبه أكثر ؟

ـ الذى ترك له أكثر

ـ نطقت صوابا

فطن الفريسى الى مايرمى اليه ، فهـذه المرأة المثقلة بالآثام ، اذا غفر الله لها ، فسيكون حبها له بمقدار عظم

خطاياها التى غفرت ..
وقال له عيسى :
ــ أترى هذه المراة ؟
فلم ينظر اليها الفريسى ، كأنما النظر اليها نجاسة تحتم التطهير فاستمر عيسى فى حديثه :
ــ انى دخلت بيتك ولم تقدم لى ماء لاغسل رجلى ، اما هى فقد غسلتهما بالدموع ، وجففتهما بشعر رأسها .. لم تقبلنى قبلة وهى لم تكف عن تقبيل رجلى ؟ لم تدهن رأسى بزيت ، اما هى فقد دهنت بالطيب قدمى
كان عيسى يعرف ان الله غفور ، يحب توبة الخاطئين ، تاب على آدم ، وتاب على موسى لما قتل المصرى ، وتاب على داود ، وانه ليتوب على مريم المجدلية ، التى خشعت باكية مستغفرة ، فقال لها :
ــ مغفورة لك خطاياك
وخرجت مريم فرحة مستبشرة ، تحس انها خلقت خلقا آخر ..

ــ ٢٤ ــ

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل ، فى كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف من يشاء ، والله واسع عليم »

(قرآن كريم)

كان الوقت صبحا ، النسيم يهب رخاء ينعش الافئدة ، وصفاء ماء بحيرة جيسارت يقرض النفوس صفاء ، وروعة المشاهد تهز المشاعر ، وتغريد الاخيل الازرق ينسكب فى

الاذان ، فتنشرح له الصدور ، كأنما كان ابتهالا وتسبيحا

وعلى شاطىء البحيرة ، وقف عيسى فى ثوبه الابيض ، تتدلى منه الاهداب ، وعلى رأسه غطاء ، وبالقرب منه يوحنا وسمعان ، وحوله باقى حوارييه ، وعلى بعد خطوات وقفت نسوة محجبات ، يتبعنه اينما يذهب ، انهن مريم المجدلية ، وسالومى زوجة زبدى ، ويونا زوجة جوزى ياور هيرودس ، كن صاحبات اموال ، فأخذن يصرفنها فى سبيل الدعوة ..

وجاء الناس اليه من كل قرية ومن كل مدينة ، يصغون اليه ويشاهدون آياته ، فراح يعظهم ، ويضرب لهم الامثال، فقال لهم :

خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور فأكلته طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر، فلما نبتت جفت لانها لم تسق بالماء وسقطت بذور وسط الشوك ، فنبت معها الشوك وخنقها ، وسقطت بذور فى الارض الصالحة فلما نبتت أخرجت مائة ضعف

وصمت قليلا ثم قال :

ــ من له أذنان للسمع فليسمع

واستمر عيسى يضرب الامثال للناس ، وحواريوه ينظرون اليه فاغرى الافواه ، لا يفهمون كل ما يقول ،كانوا صيادى أسماك أغفالا ، لم يتلقوا علما الا فى مدرسته . لذلك كانوا اذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله

وتفرقت الجموع ، وبقى عيسى وتلاميذه وحدهم ، فقالوا له :

ــ ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

فرنا اليهم فى ود وقال :

ــ لكم أعطى أن تعرفوا أسرار ملكوت الله (١) ..

---

(١) لوقا (٨ : ١٠)

فأصاخوا بسمعهم ، وبان فى وجوههم الاهتمام ، انه يبشرهم باقتراب الملكوت ، وعلمهم أن يبتهلوا الى الله فى صلاتهم ضارعين « فليأت ملكوتك » وقد آن أن يكشف لهم عن سر الملكوت ، ذلك السر الـــذى لا يعـــرفه إلا اياه ، أشار اليه فى مثله ، ومر المثل دون أن يفطنوا اليه ، كسائر الناس الذين حسبوه وسيلة للتعليم وتقـريب الإشياء الى الاذهان ، قال :

ـ يعرف الباقون الملكوت بأمثال ، حتى انهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يفهمون

وضمت قليلا ، ثم أفضى اليهم بالاسرار :

ـ الزرع : هو كلام الله والذين على الطريق : هم الذين يسمعون ثم يأتى ابليس وينزع الكلمة من قلوبهم . والذين على الصخر : هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح ، وهؤلاء ليس لهم أصل ، فيؤمنون الى حين ، وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك : هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون . اما البذور التى سقطت فى الارض الطيبة : فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونهـــا فى قلب مؤمن صالح ، حتى تثمر بالصبر

هذا هو سر ملكوت الله الذى يبشر به ، ويدعو الله فى صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعتـــه البيضاء « كلام الله » . الزرع سينبت فى الارض الصالحة . ويثمر أطيب الثمار بالصبر والايمان .. كانوا يتلهفون على اعلان ملكوت الله فى حياتهم ، على تأسيس شريعة جديدة ، تحكم فى الارض ، تستمد سلطانها من السماء ، وينظم المعاملات فيها كلام الله ، كانوا يأملون ان يروا بأعينهم السراج الوهاج الذى قال عنه : « ليس أحد يوقد سراجا

ويغطيه باناء ، او يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ، لينظر الداخلون النور » ..

عرفوا أسرار الملكوت ، فلن يأتى ملكوت الله ، الا اذا نزل الى الارض كلام الله ، وسادت شريعته ، ونبتت تعاليمه فى الارض الطيبة ، ولن ينال ذلك الا بالصبر ، والصبر الطويل ..

وانطلق عيسى وحواريوه الى منزل متى ، فقد أعد لهم وليمة ، وكان بين المدعوين بعض حواريى يحيى وبعض الفريسيين ، وكان أغلب المدعوين من الفقراء والخطائين ؛ فما كان متى يعرف الا ابناء طبقته

اتكأ عيسى الى الوليمة ، منشرح الصدر ، وأقبل على هؤلاء الفقراء والخطائين يبادلهم الحديث فى عطف ، فقلبه الكبير ينفتح لهم ، ويغمرهم بحنان دافق ، وراح يشاركهم الطعام والشراب ، بينما وقف الفريسيون بعيدا فى كبريائهم وعجرفتهم .. فالاختلاط بأمثال هؤلاء الخطائين يخدش كرامتهم ، وينال من صلاحهم وتقاهم ، اما حواريو يحيى فقد نظروا فى انكار الى مايجرى أمامهم ، فأمثال هذه الولائم لا تتفق مع دعوى النسك والتقشف التى نادى بها يحيى ..

واقترب الفريسيون من بعض حواريى المسيح ،وقالوا لهم فى استخفاف :

ــ لماذا يأكل مرشدكم مع الخطائين ؟

لاحظ عيسى تقارب الرءوس ، والهمس والمناجاة ، ففطن الى مايدور بين الفريسيين وتلاميذه من عتاب ، فقال :

ــ لا يحتاج الاصحاء الى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ، انى أريد رحمة لا ذبيحة ، لم آت لادعو الابرار ،

بل جئت ادعو الخطاة الى التوبة ..

فقال له تلاميذ يحيى :

ـ لماذا نصوم كثيرا نحن والفريسيون ، بينما تلاميذك لا يصومون ؟

فقال لهم فى رقة :

ـ هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا ما دام العريس معهم ، ولكن ستاتى أيام حين يرفـــع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون

وصمت قليلا ، ثم قال :

ـ بمن أشبه اناس هذا الجيل ، وماذا يشبهـــون ؟ يشبهون أولادا جالسين فى السوق ، ينادى بعضهم بعضا ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تبكوا ، لانه جاء يحيى لا يأكل خبزا ولا يشرب خمرا ، فقالوا عنه: ان به شيطانا ، وجاء ابن الانسان يأكل ويشرب ، فقالوا: هذا انسان أكول وشريب خمر

ودخل يايروس ، رئيس المجمع ، مضطربا وفى وجهـه هلع ، فلما رأى عيسى هرع اليه ، وارتمى على قدميه وقال له فى توسل :

ـ ابنتى تجود بأنفاسها ، اضرع اليك أن تنقذها

أثر حزن الوالد الحزين فى قلب عيسى ، فقام معه ، وسار يتبعه حواريوه وحواريو يحيى وبعض الفريسيين ، وفيما هو فى انطلاقه أحس يدا تلمسه ، كانت لمسة ايمان عميق ، فالتفت الى من حوله وقال :

ـ من الذى لمسنى ؟

فقال بطرس :

ـ الناس يحشرون حولك ، ثم تسال عمن لمس طرف ثوبك ؟ ..

وتقدمت امراة انفقت كل ما جمعت لتبرأ من مرضها، كانت تنزف دما طوال السنين ، فرأت أن تلمس ذلك النبى الكريم لعلها تبرأ مما بها ، فنظر اليها عيسى فألفى فى وجهها ايمانا عميقا ، فقال لها :

ـ اذهبى ، بارئة باذن الله

وفى الطريق جاء رسول الى يايروس ، يحمل اليه الخبر الفاجع ، قال له :

ـ ماتت ابنتك

وقال ليايروس ، وهو يلتفت الى عيسى :

ـ لماذا تتعب السيد ؟

فقال عيسى لرئيس المجمع :

ـ لا تخف ، آمن

فقال الرجل فى حرارة :

ـ آمنت ..

وبلغ الحشد بيت يايروس ،فاذا ضجيج العويل يتجاوب فى الفضاء ، فتقدم عيسى ولم يتبعه الا بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقابلته النائحات الباكيات ، فقال لهن :

ـ لماذا تبكين ؟ .. انها نائمة ..

فظهر فى العيون من خلل الدموع استخفاف ، ولم تكدره تلك النظرات ، بل طلب من الجميع أن يخرجوا ، وذهب الى الصبية وخلفه أمها وأبوها وصحابته ، فاذا هى مسجاة فى فراشها ، فأمسك بيدها وقال :

ـ قومى باذن الله

وخفقت القلوب وحبست الانفاس ، واتسعت العيون، واذا بالفتاة تتحرك ، ثم تقوم ناهضة ، وفى الوجوه دهش واستغراب ..

« لاورشليم جعلته مبشرا »

(آشعيا)

أشرقت شمس دعوته فى بنى اسرائيل ، فالجموع تحشر تصغى اليه وتصدقه ، وصفت سماؤه لم يكدرها بعد عداوة أعدائه وحساده ، فاذا كان أهله لم يصدقوه ولم يؤمنوا به ، فقد كان ذلك سحابة عابرة ، وشرحت صدره تلك البداية الموفقة لرسالته ، فدعا حوارييه ؛ ليبعثهم الى بنى اسرائيل داعين الى الله ، مبشرين باقتراب ملكوت السموات ..

كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله ، بل كانوا يستفسرون منه عما يرمى اليه بتلك الامثال اذا ماخلوا به . فكيف يبلغ هؤلاء عنه رسالته ؟ ان الافكار تنبثق من القلب ، وتصقل فى الرأس ، وتخضع للطبع ، فكيف يبلغ يعقوب المندفع ؛ وبرثلماوس الاسرائيلى الذى لاغش فيه، وبطرس المتحمس، واندراوس المفكر ، وفيلبس المؤمن ، ويهوذا القلق المضطرب ، أفكارا واحدة ، أفكار عيسى النابعة من رقراق نفسه ، المغلفة برقة طبعه ، المصقولة بصفاء ذهنه ؟ ..

حرم المسيح عطف الاهل ونعمة الابوة ، فاتخذ هؤلاء التلاميذ أهلا ، ووجد فيهم متنفسا لعواطفه ، فكان يرعاهم رعاية الاب لابنائه ، يحس نحوهم احساسات الحب الابوى ، فكانوا جميعا فى عينيه كاملين .

حتى يهوذا الاسخريوطى ، ذلك الذى جعله أمينا لصندوق جماعته ، كان لم يحرم حبه ، بل كان يقربه ويدنيه ..

جاء الجليليون الاغمار ، الذين أوحى الله اليهم ان آمنوا به وبرسوله ، يصغون الى نبيهم ، الذى راح يرسم لهم الطريق . قال :

ـ الى طريق أمم لا تمضوا ، والى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، وفيما انتم ذاهبون « عظوا » قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات

بصرهم بهدف رسالته ، ان يبشروا بنى أسرائيل ،وبنى اسرائيل فقط ، باقتراب ملكوت السموات ، فقد أرسله الله رسولا الى بنى اسرائيل ، وأما الامم،الشعوبالاخرى، فسيرسل الله اليها « مشتهى الامم » الذى بشر به النبى حجى ..

كان المسيح يعرف أغراض رسالته ، فما بعث الا لشعب الله المختار ، وسيرسل الله الى الامم الاخر ، الذى قال عنه لبنى اسرائيل على لسان موسى : « سوف أقيم لهم نبيا مثلك ، من بنى اخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه (١) ، ذلك الاتى من البرية من الديار التى سكنها قيدار (٢) «من جزيرة العرب » . ذلك الذى بشرت به البشارات ، بأن الله جعله عهدا للشعب ، ونورا للامم

حذر تلاميذه ان يذهبوا الى طريق الامم ، فالذاهب الى طريق الامم هو عبد الله ومختاره الذى بشر به أشعيا : « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للامم .. لا يكل ولا ينكسر ، حتى يضع الحق فى الارض ، وتنتظر الجزائر شريعته (٣) » .

---

(١) تثنية (١٨ : ١٨) (٢) تكوين (٢٥ : ١٣)
(٣) أشعيا (أصحاح ٤٢).

واستمر فى وصيته :

ـ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا عمن فيها ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا ، ولا تدخلوا بيوتا حتى تستأنسوا ، وتسلموا ، فان كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه ، وان لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم اليكم ، فاذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا وانفضوا غبار أرجلكم

***

هانذا ارسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات ، وبسطاء كالحمام

فقال بطرس باندفاعه المعهود :

ـ واذا مزقت الذئاب الخراف ؟

ـ لن ينالوا الا اجسادكم . اما أرواحكم الطاهرة فتحيا عند الله ..

واستأنف وصيته :

ـ احذروا الناس سيسلمونكم الى مجالسهم ، وتجلدون فى مجامعهم ، وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلى ، لتشهدوا لهم وللأمم ، فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون ، فسيوحى اليكم بما تنطقون ، لانكم لستم المتكلمين بل روح ابيكم الذى يتكلم فيكم

سيسلم الاخ أخاه الى الموت ، والاب ولده ، ويقوم الاولاد على والديهم ويقتلونهم ، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ، ولن يخلص الا من يصبر الى المنتهى ..

ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من

سيده .. لا تظنوا أنني جئت لالقى سلاما على الارض ، ما جئت لالقى سلاما بل سيفا ، فانى جئت لافرق بين المرء وأبيه ، والابنة وأمها ، والكنة وحماتها ، وأعداء الانسان أهل بيته

من أحب أبا أو أما اكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة اكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى

كان يدعوهم ان يحملوا أرواحهم على أكفهم ، فالخارج في سبيل الله واهب روحه لله ، فمن يتعرض لوعظ الناس فليأخذ صليبه الذى سيصلب عليه اذا ثار الناس ضده ، وليتأهب للموت ، ويأخذ معه أكفانه

من يقبلكم يقبلنى ؛ ومن يقبلنى يقبل الذى ارسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبي فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار ، فأجر بار يأخذ

وانتهت وصيته ، فخرج تلاميذه الى بنى اسرائيـــل ، اثنين اثنين ، حتى اذا أخطأ أحدهما هداه الاخـــــر الى المحجة ، انطلقوا يبشرون بملكوت الله ، يدعون الى اله واحد ، لا يدعون معه الها آخر ، فما حدثهم المسيح فى وصية الا عن الله الواحد ، وعن رسوله الذى ارسله

— ٢٦ —

« ظهر الفساد فى البر والبحر ، بما كسبت ايدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »

(قرآن كريم)

كانت نفسه صافية ، جموع الناس تهرع اليه تصغى الى مواعظه ، ونظرات الحب والاعجاب ترمقه من هنا

وهناك ، فتسقي الامل ، فينمو ويزدهر . ولم يمض على رسالته غير سنة واحدة ، واذا بدعوته صارت حديث بنى اسرائيل ، حـــديث القرى والمدن ، حـــديث الاكواخ والقصور ..

ان تلاميذه ينتشرون فى الاقاليم يعظـــون ويبشرون ، ويعلنون للناس اقتراب ملكوت السموات ، فلو رحبت الجماهير بهم ، والقوا اليهم السمع والافئدة ، لرفرفت دعوته على الشعب المختار ـ انفرجت شفتا المستقبل عن اسنانه ، فحسب كل من يحسن به الظن سيشهد مولد بسمة راضية

واستمر فى رحلته الدائمة ، يعظ ويبشر باقتـــراب ملكوت السموات حتى لاحت له قباب الهيكل ، فانطـلق خافق القلب ، تداعبه آمال ، كان يرجو ان يؤمن به أهل أورشليم ، فتصبح المدينة المقدسة قلب دعوته النــابض تتدفق منه الى الولايات بشاراته ومواعظه

كانت أورشليم معقل الصدوقيين والفريسيين وحصن أعضاء السنهدرين الذين يستمدون سلطاتهم من السلطة الحاكمة ، فلو ان مواعظه وتعاليمه دكت هذه المعاقل ، لفتحت له القلوب ابوابها

سار فى طرقات المدينة الخالدة ، فاذا اليهود فى مرح وحبور ، كانوا يحتفلون بعيد البوريم ، وهو عيد ليس من الاعياد الدينية ، بل هو عيد لهو وسخرية ، كانوا فى ذلك العيد يتحررون من القيود ، انطلاق وخلاعة ، ضحـــكات ومغازلات ، مداعبات وقبلات ، حفلات صاخبة ماجنة ، دعارة سافرة اغلقت دونها الابواب . والفريســـــيون والصدوقيون فى الطرقات يتحسسون على الشـــعب ، ليطمئنوا ان كل شيء قد غسل جيدا بالماء ، وان كل شيء طاهر ، وان شريعة موسى نافذة !

كانت عيونهم المفتوحة ترى خلاعة الاسرائيليات فى ذلك العيد ، وعربدة الشباب الماجن الفارغ ، وكانت آذانهم المرهفة تستقبل ضحكات الأغراء والنداء ، ولكنهم ماكانوا يحركون ساكنا ، كانوا يعتقدون بقدسية ماجاء فى التلمود من أن « خطيئة الزنا مباحة ما دامت تقترف فى الخفاء » كان كل ما هو مكتوب مقدسا عندهم ، ولو كان ذلك المكتوب يسخر بالعقول ، ويسفه الاحلام .. !

قلب وجهه فيما حوله ، فأحس أسى ، فقد ظهر فى الارض الفساد ، شريعة موسى اندثرت ولم يبق منها الا حروف والفاظ ، أزهق روحها الصدوقيون والفريسيون ، واعضاء السنهدرين الذين يتمسكون بالناموس اذا كان فى التمسك به جلب مغنم ، أما اذا تعارض مع مصلحتهم فما أيسر ايجاد المحللات ..

وجاء يوم السبت فارتدت المدينة المقدسة ثوب الوقار ، انطلق الكتبة الى الهيكل فى طيالسهم الفضفاضة ، والكهنة فى جببهم السود ، والرجال وقد وضعوا على اكتافهم مشامل الصلاة ، وشدوا الى أذرعهم التفلين ، وهى صناديق صغيرة تضم الشريعة ، وتدلت من أطراف الاثواب الهدب ، والشارات الزرق التى يحتمها الناموس ، انطلقوا مطرقى الرءوس متظاهرين بالخشوع كأنهم ملائكة ، متناسين عيد البوريم الذى كانوا فيه شياطين ، فترك فى عيسى أثراً عميقاً ذلك الرياء البغيض ..

وقضيت الصلاة ، فذهب عيسى الى بعض معارفه فى بيت صيدا ، يمضى عندهم يوم السبت فى حديث ، فالسبت عند اليهود يوم مقدس ، يوم راحة ، فمن عمل فيه عملا أو حمل حملا خرق الناموس ، ومن يخرق الناموس يرجم . انطلق وفى الطريق قابل مفلوجا ممددا على سريره ، كان بائسا يائسا ، فحرك بؤسه قلب عيسى ،

فدنا منه ، وقال له فى صوت رحيم :

ـ قم ، واحمل سريرك

أحس المفلوج كأن حياة جـــديدة دبت فيه ، فأطرافه تتحرك ، فراح يرفعها ويخفضها وقد انتشر فيه فرح عظيم ، وقعد فى سريره ، ثم قام والدموع تنهمر من مآقيه وحمل سريره وسار منشرحا يكاد يطير من السرور ..

لمحه اليهود وهو يحمل سريره فى السبت ، فثار الغضب فى الصدور .. انه يخرق بذلك العمل الناموس ، فاليهود المتمسكون بحرفية الشريعة لا يلبسون يوم السبت حذاء به مسمار .. لان ذلك المسمار حمل ، فكيف يسير الرجل وعلى كتفه سرير ؟

هرعوا الى الرجل وأمسكوا به ، وقالوا له فى تعنيف :

ـ انه سبت ، لا يحل لك ان تحمل سريرك

ـ قال لى الذى ابرانى : احمل سريرك وامش ..

ـ من هو ؟

ـ لا أعرفه ..

كان عيسى فى رحلة دائمة ، لا يستقر فى مكان ، حتى ان صورته لم تثبت فى الاذهان ، وان كان اسمه يتردد على كل لسان ، وانصرف الرجل وذهب الى الهيكل يقدم شكره لله ، ولمح الرجل الذى شفاه ، فدنا منه حتى عرفه ، فلم يكتم أمره ، بل ذهب الى رؤساء اليهود ، ودلهم عليه ، فالغدر فى الانسان

وجاء رسل اليهود وأمسكوه ، وذهبوا به ليحاكمـوه لكسره السبت المقدس ، واقتيد الى الكهنة العظـــام ، فسألوه عن خرقه الناموس فى السبت ، فقال لهم ان الله يعمل كل يوم ، وأن الله رب الأيام ، هو رب السبت أيضا ، وراح ينقض لهم اعتقادهم الخاطىء بأن الله خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى يوم السبت ، وقال لهم : ان الله

خلق العالم فى ستة أيام ولم يمسه تعب ولا لغوب

وألفى الكهنة يصغون اليه ، فرأى أن يدعوهم الى الله ، فقال :

ـ الحق الحق أقول لكم ، ان الذى يسمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية

ان كنت أشهد لنفسى ، فشهادتى ليست حقا ، ولكن يشهد لى آخر ، وانا أعلم ان شهادته هى الحق ، أرسلتم الى يحيى فشهد للحق ، وانا لا اقبل شهادة من انسان . لى شهادة أعظم من شهادة يحيى ، جئت من الله بالآيات التى تشهد لى ، فالله أرسلنى ، والله نفسه الذى أرسلنى يشهد لى ، لم تسمعوا صوته ولم تروه ولم تثبت كلمته فيكم ، لانكم لا تؤمنون بمن أرسله ، فتشوا الكتب ، فهى تشهد لى ..

لا تظنوا أنى أشكوكم الى الآب ، يوجد من يشكوكم وهو موسى ، الذى عليه رجاؤكم ، لو كنتم تصدقون موسى لصدقتمونى ، لانه بشر بى ، فان كنتم لا تصدقون كتبه ، فكيف تصدقون كلامى

وانصرف عيسى والكهنة ينظرون ، ولا شىء فى نفوسهم غير الحنق الشديد .. حتى اذا اختفى عن عيونهم هبوا ليمسكوه ويقتلوه ، ولكن كان قد مضى

وما كانت الدعوة تنتشر بالتسامح والموعظة الحسنة ، فهؤلاء الاقوياء سادرون فى عداوتهم وطغيانهم ، يريدون أن يقتلوه ليطفئوا نور الله بأفواههم ، فلو كانت تظاهره قوة لتحدى طغيانهم وثبت فى أورشليم يدك حصونهم ، فلا يفل القوة الا القوة . ..وما كانت تعاليمه تنهاه عن أن يقاتل الذين يريدون أن يقتلوه ، فقد قال : « لا تظنوا أنى جئت ألقى سلاما على الارض بل سيفا » ، ولكن ما كان يمتلك ذلك السيف الذى يلقيه ، فلم يكن أمامه الا أن

يغادر أورشليم ..

كان هيرودس في قصره ، يرى رأس يحيى في طشت من فضة أينما توجه بصره في رقعة السماء ، أو في صفحة الماء ، أو في سكون الليل ، أو في جلبة النهار ، كان منظره يطارده في اليقظة وفي المنام ، فلما رفع اليه أن نبيا جديدا بعثه الله بالآيات ، هبت مخاوفه ، فقال لمن حوله:

ــ هذا هو يحيى الذى ضربت عنقه قد قام من الاموات !

وعاونه تطيره على نمو تلك الوساوس في نفسه ، فكان يرى يحيى قادما ينتقم لدمه الذى أهدر من غير ذنب ، وضاق بمخاوفه ، وأراد أن يضع لها حدا ، فأوحى الى من حوله رغبته في أن يرى ذلك الذى اختلف فيه الناس ، وقالوا عنه انه ايليا ، بل أرميا ، بل نبى من الانبياء ..

وعاد عيسى الى الجليل ، ووافاه تلاميذه ، بعد أن خرجوا ليحملوا الى بنى اسرائيل البشارة ، وأقبلوا عليه يسردون أخبارهم ، لم تتدفق الكلمات من أفواههم حارة نابضة ، بل كانت هادئة مغلفة بالاسى ، ما كانت أنباؤهم مفرحة ، بل كانت اقرارا بالاخفاق

كانوا أصفياء .. كل مميزاتهم عمق الايمان ، وما كانوا صالحين لقيادة الناس بالوعظ والارشاد ، كانت أعباء الرسالة فوق طاقتهم ، فالله يصطفى رسله من أولى العزم من الناس ..

أحس مرارة العداوة بعد المحبة ، ومرارة اخفاق تلاميذه بعد النجاح ، هبت العواصف ، وثارت الانواء ، وتلبدت سماؤه بغيوم ، حجبت شمس الامل ، وأسدلت أستار الظلام ، فتذرع بالصبر ، لعله ينجح في أن يبلغ رسالات الله ..

« اذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين »

(قرآن كريم)

تجاوب صياح الديكة فى كفر ناحوم ، ولاح فى الافق الشرقى ضياء فضى باهت يزاحم عتمة الليل ، وكان فى السماء نجم واحد يتلألأ ، لم يفضحه النور ، وعوت الكلاب فهتكت حجاب السكون .. وترددت أنفاس الفجر ندية عاطرة ..

وخرج عيسى الى البحيرة الهادئة ، كان سطحها مصقولا لم يقو النسيم الواهن على تجعيده ، أو مداعبة سعف النخيل ، ولم تكن البحيرة صافية الزرقة ، فقد انتشرت فيها دوائر داكنة ، ودوائر باهتة ، وتجمعت المراكب عند شاطئها ، ارصادا لطلوع النهار

ووافاه تلاميذه ، فدعاهم الى الخروج الى مكان هادىء منعزل ، ليفقههم فى أمر دينهم ، بعيدا عن جلبة الجموع ، فى أحضان الطبيعة الساكنة ، فصعدوا الى المركب ، وانسلوا فى عماية الصبح ، يشقون بحيرة جنيسارت .

وأخذ النور يراق على الارض والماء ، والطيور ترفرف فى الفضاء ، والصقور السود تنقض كالشهب ، وسرعان ما تعرج الى السماء ، ودبت فى الميناء الحياة ، وعيسى وحواريوه فى طريقهم الى سهل البطيحة العارى الموحش ، البادى كناسك خلع زينته فى هذه البقعة الغنية بالجمال

وتهادى المركب حتى اذا بلغ الشاطىء ، هبط عيسى وتلاميذه ، وذهبوا الى مرتقى من تل ، وجلسوا يصغون الى رسول الله .. كان يعلمهم أوامر الدين ونواهيه، وفيما هم آخذون بأطراف الحديث ، قال أحد التلاميذ :

ـ كتب فى كتاب موسى ، ان العهد صنع باسحاق (١)

فقال عيسى فى أسى :

ـ هذا هو المكتوب ، ولكن موسى لم يكتبه ، بل احبارنا الذين لا يخافون الله ..

الحق أقول لكم : انكم لو أمعنتم النظر فى كلام جبريل تتحققون من خبث كتبتنا وفقهائنـــا ، لان جبريل قال : « يا ابراهيم ، سيعلم كل العالم ان الله يحبك ، ولكن كيف يعلم مقدار محبتك لله ، فعليك أن تفعل شيئا تظهر به محبة الله » فقال ابراهيم : « انى سامع مطيع لاوامر الله » . فقال الله لابراهيم : « خذ ابنك بكرك اسماعيـــل (٢) واصعد الجبل ، وقدمه ذبيحة لله » . فكيف يكون اسحاق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين ؟!

فقال له تلاميذه :

ـ ان خداع الفقهاء لجلى ، قل لنا أنت الحق ، لاننا نؤمن أنك رسول الله

فقال عيسى :

ـ الحق أقول لكم : ان الشيطان يحاول على الدوام تعطيل شريعة الله ، لذلك نجس ، هو وحزبه والمراءون الاشرار ، كل شيء ، المراءون بتعاليمهم الكاذبة والاشرار بحياة الخلاعة والمجون ، حتى ضاع الحق .. ويل للمرائين

واكتشف الناس مكان خلوتهم ، فجاءوا يتراكضون ، وغص السهل بالجموع ، فقام عيسى يعظهم :

(١) هذا الحوار من انجيل برنابا
(٢) فى التوراة : خذ ابنك بكرك اسحاق

ـ السلام عليكم يا بنى اسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتهـــا باذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟ ..

ـ أين بيتك يا روح الله ؟

ـ بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وأدامى الجـــوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشـــتاء مشارق الشمس ، وريحانى بقول الارض، ولباسى الصـــون ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء ، طالب الدنيا مثل شـــارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشا ، حتى يقتله .

ان الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزينـــه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظه لسانه ، ووسعه بيته ..

طوبى لعين نامت ، ولم تحدث نفسها بالمعصية، وانتبهت الى غير اثم ..

وسرت النشوة فى صدور الناس ، فصاحت امرأة :

ـ طوبى لحجر حملك ، ولثدى أرضعك ..

ـ طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به .

واستمر فى موعظته :

ـ الحق أقول لكم : من طلب الفردوس ، فخبز الشعير، والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير

لا تذكروا الحديث بغير ذكر الله ، فتقشعر قلوبكم ، فان القلب القاسى بعيد من الله ، ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ،

فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافيه

اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم .. أنظروا الى هذه الطيور تغدو وتروح ، لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها ، فان قلتم : نحن اعظم بطونا من الطير ، فانظـــروا الى هذه الجماعات من الوحوش والحمر ، فانها تغـــدو وتروح ولا تحصد ، والله يرزقها ..

عجبت من ثلاثة اناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ، ابن آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك

انما أنت عبد بطنك وشهوتك ، اجعلوا كنـــوزكم فى السماء ، فان قلب الرجل حيث كنزه

لا تحدثوا بالحكم غير اهلها فتظلموها ، ولا تمنعـــوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة ، أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه ، فردوا علمه الى الله عز وجل

لا تطرحوا اللؤلؤ الى الخنازير ، فالخنازير لا تصـــنع باللؤلؤ شيئا ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فان الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير ..

أنتم ملح الارض ، فاذا فسدتم فلا دواء لكم

ونظر فاذا بعض الكتبة والفريســـيين بين الجموع ، فقال :

ـ يا علماء السوء ، جعلتم الدنيا على رءوسكم ، والاخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء ، وعملكم داء ، مثلكم مثـــل شجرة الدفلى ، تعجب من رآها ، وتقتل من أكلها

يا علماء السوء ، جلستم على ابواب الجنة فلا تدخلونها ، ولا تدعون المساكين يدخلونها ، ان شر الناس عند الله عالم

يطالب الدنيا بعلمه

واستمر فى وعظه ، والناس يلقون اليه السمع ويقولون: « هـــــذا هو النبى الآتى الى الناس » ومالت الشمس للمغيب ، واختفت خلف التلال الغربيــة ، والجماهير فى مكانها لا تريم ، ونظر الحواريون ، فأعجبتهم كثـــرة بنى اسرائيل الذين جاءوا يسمعون المسيح ، انهم يذكرونهـم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى ، هاهى ذى الصحراء ، وها هى ذى جموعهم ، وها هو ذا رسول الله ، ولكن أين المن والسلوى ؟ أطعم الله آباءهم من السماء ، فلمـــاذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء ، فذهبوا الى عيسى وقالوا له :

ـ يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينـا مائدة من السماء ؟

فنظر اليهم فى عتاب ، وقال :

ـ اتقوا الله ، ان كنتم مؤمنين .

قالوا : « نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين »

فاعتزل وأطرق راسه ، واسبل عينيه ، وتضرع الى الله فى الدعاء والسؤال ، قال عيسى بن مريم : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا ، لأولنـــا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين »

قال الله : « انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين »

رأى عيسى فى نزولها نقمة لا رحمــــة ، فذهب الى حوارييه ، وأخبرهم بما أوحى الله اليه ، فخـــافوا وأبوا نزولها ، وقالوا : « جاع الناس ، فاصرفهم يبتاعوا لهـم خبزا ، فليس عندهم ما يأكلون »

وقال أحد تلاميذه :

ـ أنمضى نبتاع لهم بمئتى دينار خبزا ؟

فقال عيسى :

ـ كم رغيفا عندكم ؟ اذهبوا وانظروا

وعاد اليه أندراوس ، وقال له فى قنوط :

ـ أن صبيا معه خمسة أقراص من شعير ، وسمكتان

فقال المسيح : « ليتكىء الناس »

فبان الدهش فى وجوه الحواريين ، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة ، وذهبوا الى الجموع يقسمونهم فرقا فرقا

واتكأوا بثيابهم الزاهية ، فبدوا كأحواض الزهور المتناثرة فى حديقة ساعة الأصيل ، وتناول أقراص الشعير ورفع عينيه الى السماء وشكر الله ، وراح يكسر الخبز ، فباركه الله حتى أشبع الجميع

وأمر تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتركوه ، وانسل من الناس واعتزلهم ، كان يشعر براحة كلما أمضى الليل قائما يناجى ربه . وخشع الكون ، ونامت العيون ، الا عينيه .. كانتا شاخصتين الى السماء ، وسكت كل لسان الا لسانه ، كان يقول :

ـ اللهم انى أصبحت لا استطيع دفع ما أكره ، ولا املك نفع ما ارجو ، واصبح الامر بيد غيرى ، واصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى

« وقالوا اتخــــذ الرحمن ولدا ،
سبحانه ، بل لله ما فى الســـموات
والارض كل له قانتــــــون ، بديع
الســـموات والارض ، واذا قضى أمرا
فانما يقول له كن فيكون »

(قرآن كريم)

وجاء الهزيع الاخير من الليل ، فهبت الرياح وصفرت فى الفضاء ، وعيسى فى خشوعه يدعو الله ، حتى اذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهبا الى البحيرة ، فراى المراكب فى الغبش تعابثها الرياح ، والامواج ثائرة مزمجرة ، ترفعها فى غضب وتحطها فى استياء ، ولمح حوارييه يغالبون الموج والموج ، فانطلق اليهم يمشى على الماء ..

نظر الحواريون فألفوا شبحا يسير على الماء ، عليـــه كساء ، نصفه ازار ، ونصفه رداء ، فانقبضت قلوبهـــم خوفا ، وصرخوا فى رعب فقد حسبوه خيالا ، فاذا بصوته العذب يمس آذانهم : « لا تخافوا »

فنزلت بهم طمأنينة وأمن ، وهدأت مخاوفهم ، وصاح بطرس باندفاعه المعهود :

— يا معلم ، ان كنت أنت هو ، فمرنى أن آتى اليك

فقال له عيسى : « تعال »

فنهض بطرس ، ووضع احدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الاخرى فخفق قلبه واضطرب ، فصـــاح وهو يهوى : « غرقت يا نبى الله ، نجنى »

— أرنى يدك يا قليل الايمان ..

ومد يده وانتشله ، وصعدا الى السفينة ، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه فى دهش ، فالتفت اليهم وقال :

ـ لو كان لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء ..

وسكنت الرياح ، واستوت السفينة على الماء ، وانسابت فى طريقها ، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون ، لم يكتبوا أقواله ، لان ملكوت السموات صار قريبا

وبلغت السفينة الشاطىء وقد ولد فجر يوم جديد ، وهبط عيسى وتلاميذه ، فلما رآه الناس دهشوا ، فتلاميذه أقلعوا وهو على الشاطىء .. وقد تفرقوا وهو فى الفضاء وحده يناجي ربه ، فكيف لحق بحوارييه ؟

وتجمعت الجموع حوله وانطلقوا الى مجمع كفر ناحوم ، وانتشر خبر اطعامه الناس ، فأقبلت الوفود ، يداعب نفوسهم الجشعة أمل أطعامهم ، وكأنما قرأ عيسى ماتخفى صدورهم ، فقال لهم :

ـ الحق الحق اقول لكم ، أنتم تطلبونني لا لأنكم رأيتم آيات ، بل لانكم أكلتم من الخبز وشبعتم

وقلب ناظريه فيهم ، ثم رأى أن يرفعهم الى عالمه الروحى المتحرر من الماديات ، فقال لهم :

ـ اعملوا لا للطعام البائد .. بل للطعام الباقي للحياة الأبدية ، الذى يعطيكم ابن الانسان . ذلك الطعام الذى باركه الله ..

ـ ماذا نفعل حتى نعمل أعمالا ترضى الله ؟

فقال لهم : « أن تؤمنوا بمن أرسله »

ـ أرنا آية حتى نؤمن بك . آباؤنا أكلوا المن فى البرية

كان عيسى يحاول أن يحلق بهم فى عالم الروح ، وهم لا يريدون الا أن يهبطوا الى عالم الماديات ، الى أشباع البطن ، الى الطعام البائد

— لم يعطكم موسى الخبز من السماء ، ولكن الله يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ، لأن خبز الله النازل من السماء يهب حياة خالدة ..

لم يفهموا ما يرمى اليه ، حسبوه يعدهم خبزا يشبع بطونهم ، لا خبزا يشبع ارواحهم ، فقالوا له :

— أعطنا هذا الخبز فى كل حين

فقال لهم فى صوت عميق :

— انا هو خبز الحياة ، من يقبل الى فلن يجوع ، ومن يؤمن بى فلن يعطش الى الابد . انى جئت من السماء لا لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى

وتذمر اليهود ، فهو ينال من مقدساتهم دون ان يمنحهم خبزا ، قال لهم انا موسى لم يعطهم خبزا من السماء ، فسكتوا حاسبين انه سينزل عليهم من السماء الخيرات، فلما قال انه هو خبز الحياة ، لم يبق من الغضب مفر ، غضبوا لتسفيهه معتقداتهم ، وتذمروا ، وزاد فى تذمرهم قوله انه جاء من السماء ، وكأنما أراد ان يوضح لهم كلامه ، فقال لهم : « الحق الحق أقول لكم ، من يؤمن بى فله حياة أبدية ، أنا هو خبز الحياة » ..

وزادت ثورتهم ، فما كانوا يريدون ذلك الخبز الواهب الحياة الأبدية ، بل يريدون خبز البطون ، فقال لهم يشرح الخلود : « آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا . أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت »

كانوا فقراء أغفالا ، لا يفهمون الأمثال ، وما من حديث ألقى الى من لا يفهمه الا كان له فتنة ، لذلك تخاصم الناس ، وارتفعت فى المجمع الشادات والمناظرات، حلجلت أصوات الكتبة والفريسيين بالاعتراض ، صدقوا أن يحيى رسول الله ، فقد كانت تعاليمه سهلة لا تنافى الشريعة ، ولكنهم لن يصدقوا رسالة من جاء ينقض الناموس ، ويقول ان موسى لم يعطهم المن من السماء ،

وانه خبز الحياة

وانفض الناس من المجمع ، غاضبين ثائرين ، حتى بعض تلاميذه تركوه ، لم يفهموا قوله أنه جاء من السماء ، ولم يقبلوه ، وخرج عيسى وحوله حواريوه ، وانطلقوا صامتين ، وفطن الى أنهم يكتمون تذمرهم ، فقال لهم :

ـ الروح هو الذى يحيا ، أما الجسد فلا يفيد شيئا ، الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة ، ولكن منكم قوما لا يؤمنون

وساروا لا ينبسون بكلمة ، وضاق عيسى بصمتهم ، فقال لهم : « لعلكم تريدون أن تمضوا ؟ »

فقال له بطرس فى فزع :

ـ ياروح الله الى من نذهب ؟ عندك كلام الحياة الابدية ، وقد آمنا وعرفنا انك رسول الله

وتبخر القلق المنتشر فى صدورهم ، وشاعت فيهم طمأنينة عجيبة ، وحل بهم ايمان عميق . فرفعوا وجوههم الى السماء ، وقالوا : « ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين » ..

ـ ٢٩ ـ

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لايسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »

(قرآن كريم)

أورشليم غارقة فى الشاحنات الدينية ، مناظرات

بين أتباع هلليل وأتباع شماى ، وعداوات بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفيين ، وبنو اسرائيـــل يرسفون فى أغلال هؤلاء الكهنة راضين ، فقـــد ثبتـــوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس.

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحـــرمات ، ويقســـمونها الى أقسام ودرجات ، فشماى فى تزمتـــه يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيـــه الدفاع عن النفس ، وقتال الاعـــداء وان جاءوا للبـلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شىء فيه ، وان كان ابرة أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امراة ولـــم تثبت فيه ، حتى الاسنان الصناعية كانت حمـــلا لا ينبغى حمله فى السبت المقدس

أظهروا التقشف رياء للناس ، وتظاهروا بالتقـــوى وحماية الشريعة ، حتى ان فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون فى الطرقات مغمضى العيـــون ، لكيلا تقع عيونهم على النساء ، فيتخبطوا فى سيرهـم ، وبالجدران يرتطمون ، فتسيل الدماء على الجباه ارضاء للناموس ..

وامعانا فى النفاق تمســـكوا بحرفية النـــاموس ، مضحين بالروح على مذبح الرياء ، فاذا جاع يهـودى يوم السبت ولم يكن عنده ما يأكله فخير له ان يمـوت جوعا من ان يطهى طعامه ويكسر السبت ، لان كـاسر السبت يستحق الرجم ، وأما من مات فى سبيل حفظه فهو شهيد ..

وكان بنو اسرائيل يعتقدون أن عداوة الصـــدوقيين والفريسيين فى سبيل الشريعة والتلمود ، ولكن ما قامت تلك العداوة الا للتنافس على المغانم ، والاثراء من غفلة الناس ، كان الصدوقيون يحتكرون بيع الحمـــام فى

الهيكل ، فضاعفوا المناسبات التى يقدم فيها الى الله تقربا وزلفى ، فهب اعداؤهم الفريسيون يعملون على نقص تلك المناسبات . ليلحقوا بتجارة اعدائهم البوار ، فكانت المناسبات المقدسة فى أيدى حماة الشريعة منافسة ، يرفعها فريق ويحطها فريق

ياويل من يكسر يوم السبت من رجال الدين ، لن يطمئن ايمانهم حتى يرجموه ، ففى كسر السبت اثم كبير ، ولكن ما حرموه على الناس أحلوه لانفسهم ، وما ايسره من عمل أن يضعوا قاعدة جديدة « لا سبت فى الهيكل » فيوقدوا النار ويذبحوا الذبائح ، ويختننوا الاطفال ، ويتناولوا النذور

وذاع بين أروقة الهيكل أن نبيا قام فى الجليل ، يبشر كيحيى باقتراب ملكوت السماء ، ويشجع الناس على ترك الذبائح ، يعلمهم أن الله لا ينال من لحوم الاضحيات ولا من دمائها ، وانه لا يريد من عباده الا التقوى ، فثار اعضاء السنهدرين ، أولئك الذين ورثوا شيوخ بنى اسرائيل ، ولكن لم يعملوا عملهم ، بل كانوا فى الفساد غارقين ..

ساءهم أن يقوم ذلك النبى الجديد يفتح عيون بنى اسرائيل فيزعزع سلطانهم ، ويقوض صرحهم الذى أقاموه فى الخداع ، ويفضح تعاليمهم ، ويسد منافذ الخير فى وجوههم ، فلو قر فى أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ، ودون وساطة الكهان ، لبارت تجارتهم ، وذابت قدسيتهم ، وجف نهر الاموال المتدفق عليهم . لذلك بعثوا اليه فريسيين متعصبين ، يتجسسون عليه ، حتى اذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه ، واستراحوا من خطره الذى أرقهم ، وأطار النوم من العيون

أرسل اعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به

وأرسل اليه هيرودس انتيباس يدعوه أن يأتي الى قصره لا ليستمع الى تعاليمه ، فما كان مهتما بتلك التعاليم ، ولكن لان شبح يحيى الذى يطارده فى اليقظة وفى المنام أفزعه ، وجعله يعتقد أنه قام من الاموات يثأر لدمه ، فأراد أن يرى ذلك النبى ، ليستريح من هواجسه التى تضنيه ، ولكن عيسى لم يستجب لدعوته

وفى الجليل حشد الناس يصغون ، وأقبل جواسيس أورشليم يسمعون ، فراح يعظ الناس :

ــ اذا كان يوم صوم احدكم فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس انه صائم ، واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، واذا صلى فليرخ ستر بابه ، فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق

واســـــــتمر فى موعظته ، ثم خرج هو وتلاميذه الى الحقول .. كان اليوم سبتا ، فراح يفقه حوارييه في الدين ، انهم لا يفهمون امثاله . فيشرح لهم فى خـلـوته ما استغلق عليهم ، وما دق على أفهامهم ، واسـ
دروسهم ، وجواسيس أورشليم على الـ
يترقبون أن يقيموا عليه الحجة ا
كان عيسى يدعو بنى ا
دعا اليه ابراهيم ... اذا يجـــل
فلو أنه دعا
الشرك ما ... رقق « مد يدك »
بشيرا ... جل يمد يده ، فاذا اليد اليابسة تتحرك ، ويشت... يرتها الاولى ، وتحرك الغيظ فى صدر اعدائه . على ... رءوسهم ، وطفقوا يتشاورون ، حتى اذا اتفقوا ... قتله وهموا به ، ألفوه قد غادر المجتمع . واختفى بـ... العيون ..

أمرا اذا ، فالحصاد والدراس فى السبت من المحرمات ، وما قام به التلاميذ من قطف وفرك ان هو الا حصاد ودرس ، كسر الناموس فى يوم السبت ، وهى جناية تنطبق لها السماء على الارض ..

هرع الفريسيون الى عيسى غاضبين ساخطين : وقالوا:
ـ فعل تلاميذك ، ما لا يحل فعله فى السبت

كان عيسى يفهم عقليتهم ، انهم يخاصمون بالتوراة ، ولا يقبلون الا حكم التوراة ، فلو انه حاول ان يبرىء تلاميذه بالمنطق والعقل ، لوضعوا أصابعهم فى آذانهم ولأعرضوا عنه ، ولجوا فى اتهاماتهم ، لذلك رأى أن يبرئهم ، بتذكير هؤلاء الغاضبين بحوادث مماثلة وقعت لانبيائهم ، فقال لهم فى هدوء :

أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله واكل خبز التقدمة ، الذى لا يحل اكله ، ولا للذين معه . لانه للكهنة فحسب ؟ أو ما فى التوراة ان الكهنة فى السبت يدنسون السبت فتار اعظ.؟ انى أقول لكم أن ههنا اعظم من الهيكل . لقد بنى اسرائيل ، ز.مان ، ولم يجعل الانسان للسبت ، الفساد غارقين .. ... ت أيضا

ساءهم أن يقوم ذلك النبى ..سلوا يطوون صدورهم اسرائيل فيزعزع سلطانهم ، ويقوض .ه المرة ، فلن أقاموه فى الخداع ، ويفضح تعاليمهم ، و... وسيسقط الخم فى وجوههم ، فلو قر فى أذهان الناس أن معرفته التوبة دون ذبيحة ، ودون وساطة الكهان ، لسكناته تجارتهم ، وذابت قدسيتهم ، وجف نهر الاموال ال... عليهم .. لذلك بعثوا اليه فريسيين متعصبين ، يتجسسان عليه ، حتى اذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه ، واستراحوا من خطره الذى أرقهم ، وأطار النوم من العيون

أرسل اعضاء السنهدرين ... [illegible]

عيسى خطوات حتى أسرع اليه بناء به حادث ، وتوسل اليه أن يشفيه ، فقال له :

ـ اذهب وقم فى وسط المجمع

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى فى اهتمام ، يترقبون ان يشفى الرجل ، فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت ، فالتفت عيسى الى الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

ـ أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها ؟

لم ينبسوا بكلمة ، بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه ، بل جاءوا يترقبون خطأه ، ليقبضوا عليه ويحملوه الى المستهدرين ..

فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

ـ اذا كان لاحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت ، ألا ينتشله ؟ »

اغرقوا فى الصمت ، بقيت عيونهم مثبتة به ، فنبت فى صدره غيظ ، ولكنه كظم ما به وقال :

ـ انقاذ انسان افضل من انقاذ خروف ، اذا يحل فعل الخير فى السبوت

وقال للبناء فى رفق « مد يدك »

فراح الرجل يمد يده ، فاذا اليد اليابسة تتحرك . وعادت سيرتها الاولى ، وتحرك الغيظ فى صدر أعدائه . فمالت رءوسهم ، وطفقوا يتشاورون ، حتى اذا اتفقوا على قتله وهموا به ، الفوه قد غادر المجتمع . واختفى عن العيون ..

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »

(قرآن كريم)

مواعظ تتدفق من قلب مشتعل بحب الانسانية ، ملتهب بالعشق الالهى ، وأفئدة مؤمنة ، تفتحت لغيث الرحمة والعفو والصدق والاحسان . وقلوب قاسية ملئت كبرياء وحقدا . كان عيسى يدعو بنى اسرائيل الى الصلاح ، ويشرح الشريعة الموسوية ، ويعيد الكلم الى موضعه ، ويبث فيها روحا جديدا . والمؤمنون ينهلون من عذب تعاليمه .. والاعداء من الكتبة والفريسيين فى جببهم السود ، قلوبهم غلف ، يترصدون له أن يخرق الناموس ، ليقودوه الى حتفه

كان يسلط نور تعاليمه على التقاليد البالية ، فيفضح رياء من نصبوا انفسهم حراسا على الدين ، أخذ يمجد الروح ، ويعلم الملأ أن الروح يحيا ، أما الجسد فيبلى ، ولا يفيد شيئا ، والكهنة يقدسون القبور ، ويبالغون فى تزيينها ، ويعظمون الموتى . كان لا يخشى فى الله لومة لائم ، وهم يتملقون العامة جلبا للثناء والمديح ، يخزهم وخزا قاسيا ، ولكنهم ما كانوا قادرين على اقامة الحجة عليه

الفريسيون يهتمون بالنظافة ، فقبل الاكل يغسلون أيديهم ، واذا عادوا من السوق غسلوا أيديهم ، واذا تنجست الاوانى المعدنية غسلوها بحسب ما تقضى به القواعد الموضوعة ، واذا كانت الآنية النجسة من الفخار

حطموها . ومبالغة فى الطهارة غسلوا « شـمعدانات » الذهب ، حتى أن أعداءهم الصدوقيين قالوا عنـــهم ساخرين : « سيغسلون الشمس عما قليل »

ودعا الفريسيون عيسى وتلاميذه الى وليمه ،ليتناظروا فى أمر الدين ، فراح الفريسيون يغسلون أيديهم قبـل الدخول ، أما تلاميذه فقد دخلوا وجلسوا الى الطعـام دون ان يغسلوا أيديهم ، فأسرع الفريسيون الى عيسى ، وقالوا فى عجرفة وكبرياء :

ـ لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ ؟ فانهم لم يغسلوا أيديهم قبل الاكل

فرمق المتمسكين بالتفاهات فى زراية وقال :

ـ وأنتم لماذا تتعدون وصية الله ، وتتمسكون بسننكم ؟

فاتسعت عيونهم ، كأنهم يسألونه أن يفسر دعـواه ، فقال لهم :

ـ تقولون لابناء الفقراء : انذروا للهيـــكل نذورا ، فينذرون القليل الذى يجب أن ينفقوه فى رعاية آبائهم ، فاذا احتاج الاباء الى هذه النقود ، صرخ الابناء منذرين: هذه النقود نذر لله ، فيصيب الآباء ضـيق . أن الله يقول : أكرم أباك وأمك ، ولكنكم بسننكم حـرمتم الآباء بر الابناء ..

أيها الكذابون ، أيستعمل الله هذه النقود ؟ ان الله هو الغنى الوهاب انه يقول على لسان داود : «لاينال الله لحوم الثيران ولا دماءها » ..

أيها المراءون .. عطلتم كلام الله واحييتم سـننكم ، لقد تنبأ أشعيا عنكم . قال : « هذا الشعب يسـبح لى بشفتيه ، وقلوبهم غلف .. يعبدوننى بالبـاطل ، فتعاليمهم وصايا الناس »

التزموا الصمت ، فما ناقشـهم الا أفحمهم ، انه

يقوض سننهم فوق رءوسهم ، وما يملكون الا الصمت ، والصمت البليغ ، وتضاءلوا كتلاميذ أمام عالم كبير ، وراح يعلمهم :

ـ اسمعوا وافهموا : ما يدخل فم الانسان لا ينجسه، بل ينجسه ما يخرج من الفم

فهم الفريسيون ما يرمى اليه ، كانوا اهل ثقافة ، وما قتلهم الا غرورهم ، فرحوا بما عندهم من علم . فأعرضوا عن الآيات أما حواريوه فلم يفهموا شيئا، كانت عقولهم الضعيفة لا تتفتح للحكمة ، فانتظروا حتى اذا خلوا به سألوه ماذا يريد ..

احس الفريسيون مرارة الهزيمة ، فتفرقوا . والحواريون يرمقون عيسى فى غبطة ، كان نصره عليهم مبينا ، وتقدم اليه تلاميذه وقالوا فى مرح :

ـ لما سمع الفريسيون قولك نفروا

فقال عيسى فى هدوء :

ـ كل غرس لم يغرسه الله يقلع . دعوهم . هم عميان يقودون عميانا ، وكل اعمى يقود اعمى ففى الهاوية يتردى ..

وانطلقوا ، فسأله بطرس :

ـ فسر لنا ذلك المثل

فرمقهم فى عطف .. كان يحبهم ، يحب اخلاصهم ، يحب ايمانهم وان كانوا لا يفقهون امثاله . قال :

ـ الا تفهمون بعد ان كل ما يدخل الفم يمضى الى الجوف ، ثم الى الخارج ، وأما ما يخرج من الفم فيصدر من القلب ، وذاك ينجس النفس ، فمن القلب تخرج افكارخبيثة : قتل . زنا . فسق . سرقة . شهادة زور . كفر . هذه هى الاعمال التى تنجس الانسان ، وأما الاكل بأيد لم تغسل فلا ينجس الانسان

وسار عيسى فى رحلته الدائمة ، انطلق الى نواحى صور وصيدا ، وهو يحادث حوارييه ، واذا بامرأة كنعانيـــة تركض وراءه قائلة :

ـ ارحمنى يا سيدى ، يابن داود ، ابنتى تتعذب كثيرا

فلم يلتفت اليها ، ما كان ذلك عن قســوة ، بل أراد أن يثبت فى أذهان تلاميذه الذين لا يمتازون بالفطنة ، حقيقة طالما رددها عليهم ، واستمرت المرأة الكنعانية فى توسلاتها : « ارحمنى يا سيدى .. »

وأصم اذنيه عن توسلاتها ، لانها لم تكن اسرائيلية ، حتى أن تلاميذه عجبوا من أمره ، فمـــا كان فظا غليظ القلب ، وظلت المرأة فى صياحها :

ـ ارحمنى يا سيدى ، ارحمنى يابن داود ، ابنتى تتعذب وضاق تلاميذه بها ، فقالوا له :
ـ اصرفها لانها تصيح وراءنا
فقال لهم :
ـ لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة

هذه هى الحقيقة التى يريد أن تقر فى أذهان حوارييه ، قال لهم قبل أن يرسلهم مبشرين : الى طـــــريق أمم لا تمضوا ، الى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل بالحرى اذهبو الى خراف بيت أسرائيل الضـــالة ، وها هــو ذا يعيد عليهم قوله مؤكدا ان الله بعثه رسولا الى بنى اسرائيل ..

فسجدت المرأة عند قدميه وقالت :

ـ سيدى أغثنى ..
ولم تنهض المرأة الا بعد ان اطمأنت الى انه قد شفى ابنتها باذن الله

« وما كان لرسول ان يأتى بآية الا
باذن الله ، فاذا جاء أمر الله قضى
بالحق وخسر هنالك المبطلون »
(قرآن كريم)

الليل والشجر ساجدان ، والكون خاشع تدثره قدسية وجلال ، وعيسى شاخص الى السماء يناجى الله ، فالغيوم تتكاثف حول رسالته ، والعداوات المريرة أطلت بوجهها البغيض ، فخلا بربه يستمد منه عونه وتأييده

كان يدعو الناس بالحسنى والموعظة الحسنة ، كان رقيقا شاعرا ، يبغى أن يجلب للبشر سعادة ، رءوفا رحيما ، يتحاشى ايلام الناس ، ولكن أعداءه أعلنوا الحرب عليه ، واشعلوا نار العداوة والبغضاء • فلم يعد للسلم مكان ، سيقابل العداوة بالعداوة ، واذا أمده الله بسلطان ، فسيقابل القوة بالقوة حتى ينتصر الحق ، فما كانت الشرائع الصالحة تغرس فى الارض بأغصان الزيتون ، ومعسول الكلام ••

للباطل جنوده وأعوانه ، وهم قساة غلاظ القلوب ، فجرة لا يرعون حرمة ، ولا يقفون فى عداوتهم عند حد ، فاذا لم يحشد الحق أعوانه ، ويشهرها على الباطل حربا لاهوادة فيها، فسيزهق الحق ، ويمكن للباطل فىالارض، ويسود العالم الفساد

وانبثق الفجر • وعيسى فى خشوعه فأحس كأن قوة اريقت فى جوفه ، فتيقن ان الله رب الحب ، هو رب القوة أيضا ، أمده بسلطان ليصرخ فى وجوه اعدائه

بالحق دون ان يخشاهم ، ذلك السلطان المهيب الذى امد به من ارسلهم من قبله . وقام عيسى فأسرع حورايوه اليه ، وراحوا يصلون .. ولما قضيت الصلاة ، انطلقوا يستقبلون عهدا جديدا من الجلاد والكفاح والاضطهاد . فى سبيل التبشير باقترات ملكوت السموات ..

وجاءت الجموع زمرا تعيره السمع ، وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء ، يترقبون من الناس الاحترام والتوقير ، وقد ملأت قلوبهم الاحن ، يصغون اليه ، ليقيموا عليه الحجة . وما كانوا مصدقيه ولو جاءهم بملائكة من السماء يشهدون له

وقام الرسول يعلن الملأ بالحقيقة الجديدة :

ـ من ليس معى فهو على ..

رمقه الناس فى دهش ، كانت فى عينيه الصافيتين قوة ، وبدا الحمل فى اهاب أسد ، عودهم ناعم القول ، والمواساة والعطف ، والتسامح وحب العدو ، واذا به اليوم يعلنها مدوية : أنه لم يعد ذلك المتشبث بأهداب السلام ليهنأ بالسلامة ، بل رجل الحرب الذى يبرز للنزال ، فاما انتصر فى سبيل مبدئه او هلك دونه

وران على الجميع هدوء ، كانوا يقبلون اليه يرشفون من نبع حكمته ما يملؤهم نشوة ، ثم يدعونه ويعودون الى دورهم آمنين ، وما كان فى ذلك نصب لهم ، بل كان فيه لذة ، اما أن يدعوهم الى الانضمام اليه على السلطة ورجال الدين ، فدون ذلك مخاطر وأهوال ، وما كانوا يركبون الصعاب طائعين ، فقال لهم :

ـ اجعلوا الشجرة طيبة وثمرها طيبا ، او اجعلوا الشجرة خبيثة وثمرها خبيثا ، لان من الثمرة تعرف الشجرة ، يا أولاد الافاعى ، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة ، فمن فضلة القلب يتكلم الفم ، الصالح

يخرج الصالحات من الكنز الصالح فى القلب ، والطالح يخرج الشر من الكنز الخبيث
أقول لكم : ان كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين

انفعلت الجموع ، كأنما لا تنفعل الا بالقوارع . ان هذا الصوت يذكرهم بصوت حبيب ، بصوت يحيى الشهيد ، « يا اولاد الافاعى » كانت لها فى نفوسهم أثر السحر ، انها الوصف الذى ألبسه يحيى للفريسيين الوافدين اليه من السنهدرين ، وهو نفس الزجر الذى يوجهه عيسى الى جواسيس أورشليم . وكادت الجماهير تتجاوب لدعوته ، وكادوا جميعا يعلنون فى ثورة حماستهم ، انهم معه على أعدائه وأعداء الدين ، وفطن الفريسيون الى ما يعتمل في نفوس الجموع ، فأرادوا أن يريقوا على الجذوة المتأججة فى الصدور ماء باردا فقالوا :
— نريد أن نرى منك آية ..
خبت النار المندلعة فى الاجواف ، فمايطلبه الفريسيون حق ، جاء أنبياء بنى اسرائيل بالآيات ، وقد سمعوا انه شفى المرضى ، وأبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى ، ولكنهم لم يروا بعيونهم شيئا ، فلو شاء أن يتبعوه ، وأن يكونوا معه لا عليه ، فليأتهم بآية من ربهم ليصدقوه وتطمئن قلوبهم
واتسعت العيون واشرأبت الاعناق ، وكتمت الانفاس ، وساد المكان ترقب وانتظار ، وكأنما الآيات شعوذة مشعوذين ، أو سحر ساحرين ، وما دار بخلدهم انه ما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله
ورنا عيسى الى الجموع الغارقة فى الجهالة رنوة غضب ثم قال : « جيل شرير فاسق ، يطلب آية ولا تعطى له ،
وارتفعت أصوات الحنق والغضب ، وراح الفريسيون

يزكون ثورة الجماهير ، ويفضون الناس من حوله، فانجابت الجموع كما ينجاب السحاب ، وبقي عيسى وحيدا وحوله حواريوه وفي القلب أسى ، وفى الوجوه أمارات الحزن العميق ، واقترب فريسي من عيسى كالافعى ، واظهر له الود ، ودعاه الى الغداء ، ولو كان مخلصا لدعى حوارييه معه ، ولكنه دعاه وحده

ودلف الرسول الى بيت الفريسى ، فألفى نفسه بين أناس يتطلعون اليه فى تحد ، فى عيونهم شر ، وفى جلوسهم كبر ، ووجوههم تنضح بخبث ما فى القلوب ، فلم يضطرب ، ولم يراء مثلهم ، فلم يذهب ليغسل يديه ، بل انطلق الى المائدة وجلس

ارتسمت بسمات الزراية على الشفاه ، وقام اليه أحدهم وقال : « لم تغسل يديك قبل الأكل »

فأدار عيسى عينيه فى المتكئين الى المائدة وقال : « انكم أيها الفريسيون تطهرون القصعة وخارج الكأس ، أما بواطنكم فمملوءة شرورا وخبثا ، يا أغبياء ، من صنع الظاهر صنع الباطن ، تصدقوا بما عندكم يتطهر كل شيء ، ولكن ويل لكم أيها الفريسيون ، يامن تعشقون النعنع والسذاب وكل البقول ، وتتجاوزون عن محبة الله والحق ، كان عليكم أن تعملوا هذه ولا تتركوا محبة الله والحق ..

« ويل لكم أيها الفريسيون ، يا من تحبون الصدارة فى المجامع ، والتحيات فى الاسواق

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لانكم مثل قبور مختفية من يمشون عليها لا يعلمون »

فظهر الغضب فى وجه واحد من الناموسيين ، وقال قاطعا نهر توبيخاته المتدفق :

ــ انك تشتمنا نحن أيضا بهذا القول

لم يقف هذا الاعتراض في وجه النهر ، بل حوله بكل قوته وكل اندفاعه ، فراح عيسى يكيل للناموسيين المتزمتين التهم :

ـ وويل لكم أيها الناموسيون ، تضعون على عواتق الناس احمالا لا يطاق حملها ، وانتم لا تمسونها بأصبعكم ويل لكم لانكم تبنون قبور الانبياء وآباؤكم قتلوهم ، كأنما تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، كذلك قالت حكمة الله : انى أرسل لهم انبياء ورسلا ، ففريق يقتلون وفريق يكذبون . ليقع على هذا الجيل دم جميع الانبياء المهرق منذ الخليقة ، من دم هابيل الى دم زكريا (١)

ويل لكم أيها الناموسيون ، أخذتم مفتاح المعرفة، فما دخلتم ، وما تركتم غيركم يدخلون

وفاض مرجل غضب الفريسيين والكتبة ، فقاموا ليبطشوا به ، واذا بأصوات تلاميذه وانصاره تصك آذانهم ، فخافوا أن يمسوه بسوء خشية ثورة المؤمنين ، وغادرهم وخرج ، وهم يصرفون أنيابهم فى حنق شديد

خشي الحواريون ان يكون الفريسى قد دعا الرسول وحده ، لينفرد به اعداؤه ، وينالوه بمكروه ، فجمعوا أنصاره وعند باب البيت وقفوا ينتظرون ، فلما انقضى بعض الوقت ولم يعد ، تناجوا وارتفعت أصواتهم حتى وصلت الى مسامع المتآمرين ، فملأت قلوبهم رعبا، فخرج الرسول مرفوع الجبين

نظر عيسى الى الجموع ، ولا تزال جذوة الغضب مندلعة فى صدره فقال :

ـ تحرزوا من الرياء ، خمير الفريسيين . ما تبطن

(١) يلاحظ أن زكريا لم يقتل ، وقيل انه يقصد زكريا آخر غير النبى ولو كان ما قيل صحيحا لوجب أن يقول « الى دم يحيى » فيحيى آخر من قتل والظاهر أن هذه عبارة زائدة

يظهر ، وما تخف يعلن ، لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور ، وما كلمتم به الاذن فى المخادع ، ينادى به على السطوح

واستمر فى موعظته حتى قاطعه أحد السامعين :

ــ قل لاخى يقاسمنى الميراث

لم يكن عيسى مأمورا بتأسيس شريعة جديدة .. ولم يأت بدين ناسخ لدين موسى ، ما جاء الا ليبشر بقرب ملكوت الله ، ذلك الملكوت الذى يوحد الدين والدولة معا، ذلك الملكوت الذى سينظم الميراث ، لذلك قال للرجل :

ــ يا انسان ، من أقامنى عليكما قاضيا او مقسما

ما جاء عيسى ينظم ويشرع ، بل جاء بالانجيل، بالبشارة بالامل بالسعادة الحقيقية ، بالامر العظيم

ــ ٣٢ ــ

« ان هو الا عبد انعمنا عليه ،

وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل »

(قرآن كريم)

تغشت السماء بسحب دكناء ، وخيم على الكون ظلام، وانسابت السفينة فى بحر لجى ، ظلمات فوقها ظلمات، وجلس عيسى وحواريوه مطرقين ، انهم قليل مستضعفون فى الارض ، يخافون ان يتخطفهم الناس ، لقد اضطهدهم الفريسيون فى كفر ناحوم ، ولاحقوهم بالعداوة والبغضاء حتى اضطروهم الى الفرار الى الوثنيين ، الى نواحى صور وصيدون ..

عاشوا بين عبدة الاوثان آمنين ، كانوا أرأف بهم من شيوخهم وأحبارهم ورهبانهم ، ومن أقاموا أنفسهم حراسا على تراث موسى التليد ، وما دار بخلدهم أن ذلك

الذي يحاربونه أحق بموسى منهم ، فهو رسول وموسى رسول ..

لم يركن عيسى الى الراحة والدعة ، فقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته ، ولم يختره ليفر من الاضطهاد الى الامن والهدوء ، فلو أن الله أرسله الى الامم لبقى بين هؤلاء الوثنيين يهديهم الى نور التوحيد ، ولكن الله أرسله الى بنى اسرائيل ، فعاد الى السفينة بعد ان التقط أنفاسه، وانطلق الى الجليل ، الى أعدائه الفريسيين لينازلهم،فاما قهرهم واما قهروه

لم يذهب الى كفر ناحوم ، فأعداؤه هناك يترقبون ، فاتجه الى مجدلة ، الى بلدة مريم ، ليعظ الناس ويجد فى بيتها بعض الراحة التى فقدها بعد ان هجر بيت أمه فى الناصرة ، يجوب البلاد اليهودية يبشر باقتراب الملكوت

واقتربت السفينة من الشاطىء ، وما مست أرجلهم الارض حتى وجدوا أعداءهم ينتظرونهم ،كانوايتجسسون عليهم ، ويعدون حركاتهم ، فعرفوا وجهتهم ، وسبقوهم ليقابلوهم فى تحديهم المقيت

ولم يكن الفرنسيون وحدهم ، بل كان معهم أعداؤهم الصدوقيون ..تناسوا ما بينهم من احن، وطووا فى أكبادهم مرارة النفوس ، واتحدوا لمكافحة العدو المشترك حتى اذا فرغوا منه ، عادوا سيرتهم الاولى من التنافر والتشاحن، وما كانت تلك العداوة التقليدية تزعزع سلطانهم اوتزلزل الارض تحت أقدامهم

لم يعادوه لانه جاءهم بدين ينقض دينهم ، او لانه انكر انبياءهم ، او دعاهم الى عبادة اله آخر غير الههم ، فما فعل شيئا من ذلك ، فهو يحفظ الشريعة ،ويتمثل بأقوالها ويدعو الى ما دعا اليه الرسل من قبله ، ويحاول اصلاح بنى اسرائيل ، وتقرير ان الشريعة ليست حروفا بل روحا .

ولكنهم عادوه واتفقت كلمتهم عليه ، لانه جاء يعلم الناس أن يتقربوا الى الله دون وساطة ، ولو اتبع الناس تعاليمه لاندثرت مكانتهم ، ودرست سطوتهم ، وخلعوا المسوح التى تمكنهم من أكل أموال الارامل واليتامى ، كانوا فى حربهم له يذودون عن كيانهم وعما هم فيه من رغد ونعيم

واجتمع الناس اليه ، وهم بأن يعظهم ، فقال له الفريسيون :

ـ لن نصدقك حتى تأتينا بآية من السماء

فطلبت الجموع منه ان يأتيهم بآية ، فران الحزن عليه ، ولاح الاسى فى وجهه وقال فى مرارة وهو يتنهد :

ـ لماذا يطلب هذا الجيل آية ، الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية

كانوا يريدون ان يروا برق البروق وقصف الرعود ، أو نزول مائدة من السماء ، أو يرزقهم المن والسلوى ، فالتفت الى الغرب ، فرأى آية الله ، الشمس غارقة فى بحر من الدماء .. فأشار الى تلك الآية ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ومنحوه ظهورهم ، فعاد الى السفينة مطرق الرأس ، يحز فى نفسه اعراض الناس عن دعوته

واقلعت السفينة والشمس تنحدر ، وتصبغ الماء بلون الارجوان وراحت تغوص فى الماء حتى أطبق عليها اليم ، وساد الظلام والسكون ولم يعد يسمع الا أصوات المجاديف ، وزفيف النسيم

وفى غبش الليل لاح لعينيه كفر ناحوم ، مدينة الذكريات الحبيبة ، ذكريات شروق دعوته ، ذلك الشروق الرائع الذى كان يغرى بالتفاؤل ، والاغراق فى التفاؤل . ولكن ما اقصر ذلك الشروق ، اذ تجمعت سحب المقاومة ، لتحجب بينه وبين انصاره ومريديه . ان قلبه يخفق لكفر ناحوم ، وروحه تهفو الى شاطئها ، وكل خالجة فيه تحن

الى سفح جبالها ، تلك البقعة المباركة التى طالما وعظ فيها الملأ من بنى اسرائيل .

انه يحس فى تلك اللحظة احساسات الواقف على اطلال مدينة كانت عليه عزيزة ، فالاسى ينداح فى جوفه ، حتى لتكاد دموع الحزن تطفر من مآقيه ، لو خلى أعداؤه بينه وبين ما يريد لذهب الى مجمع كفر ناحوم يعظ الجموع ، ولكن الفريسيين والصدوقيين هناك ، بعداواتهم يتربصون

وبلغ الظلام الشاطىء الجميل ، واستمرت السفينة فى شروط حتى اذا بلغت بيت صيدا ألقت مراسيها ، وهبط عيسى وحواريوه ، وانطلقوا فى المدينة التى بدت كأنما استعارت من رومية مبانيها ، ولبثوا فيها يوما أو بعض يوم ، ثم انطلقوا حتى بلغوا ارباض قيصرية وفى الطريق التفت الى اصحابه وقال :

ــ أيعرف الناس من أنا ؟

أحس حواريوه مرارة .. ايقولون له ان الذين يعظهم فى غدوه ورواحه لا يعرفونه ، وصمتوا قليلا ، وكان الصمت امر من الكلام ، فقالوا :

ــ يقولون انك يحيى ، وآخرون يقولون انك آيليا ، وآخرون يقولون انك نبى من الانبياء

يا للمرارة ، يذوب من أجل الناس وهم لا يعرفونه ، وقال لحوارييه « وأنتم ما تقولون ؟ »

فقال بطرس فى اندفاعه : « أنت المسيح »

اتحد الفريسيون والكتبة والصدوقيون لمحاربته ، ولجوا فى العداوة والبغضاء وراحوا يطاردونه فى كل مدينة وهم يحسبونه نبيا من انبياء بنى اسرائيل ، او دعيا من ادعيائهم ، فاذا بلغهم ان انصاره يقولون انه المسيح أجج ذلك نار عداوتهم ، ونفخ فى جمرة بغضائهم وزاد في مقاومتهم ، وما كان باحثا عن اضرام العداوات

بل كان يرجو أن يبلغ رسالته ، ويحالفه التوفيق ، فقال لتلاميذه محذرا : « لا تذكروا ذلك لاحد »

وطوى الحواريون صدورهم على سره

— ٣٣ —

« واختار موسى قومه سبعين رجـلا
ليقاتنا ، فلما آخذتهم الرجفة ، قال
رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ،
آتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى
الا فتنتك، تضل بها من تشاء ،وتهدى
من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنـــــا
وارحمنا ، وأنت خير الغافرين »

(قرآن كريم)

غسق الليل بعد ذهاب النهار ، ونفضت الرمال عنهـا حرارة الشمس ، وراق القمر اشعته ، فانداحت حتى وسعت الارض والمـاء والجبال ، وألبست الـكون ثوبا رائعـا من الحسن

وشمخ جبل حرمون فى كبرياء ، فما كان يتطاول اليه ما حوله من تلال وجبال ، وقد اكرمه الله ، فتوجـــه بتاج متألق ناصع من جليد ، كان يعتز به ، لا يخلعه فى صيف أو شتاء ..

كانت سفوحه مرتعا من مراتع الحسن ، تنمو فيهـا الازهار والنوار ، وتترنم فيها الطيور بعذب الالحـــان ، وتجرى فيها جداول رقراقة صافية هاطلة من القمـــة

الخيرة الجوادة بماء الحياة ، كان حرمون وحى الخيال، فألهم الشعراء الغناء والتسبيح بالجمال

وانطلق عيسى وبطرس ويعقوب ويوحنا فى سكون الليل، فبدا لهم جبل حرمون وقد انعكس عليه ضوء القمر رائعا يهز المشاعر ، وراحوا يصعدون فيه ، يخترقون السفوح الخضر ، وزرعا مختلفا الوانه ، ويملأون صدورهم بأنفاس عطرها اريج الزهر ، ورطبها برد الثلج ، فانتشت أرواحهم وأثرت تلك الروعة فيهم ، فتفتحت نفوسهم ، واستعارت القلوب من الرقة السائدة عذوبة وسلاما

انطلقوا وكأنما هدأ كل شيء ، وأصاخ السمع لوقع أقدامهم ، فهم خارجون الى حرمون لميقات ربهم ، كما خرج موسى وقومة الى طور سـيناء ليروا الله وتطمئن قلوبهم ..

انطلقوا حتى اذا بلغوا مرتقى عاليا ، وقف بطرس ويعقوب ويوحنا ، واستمر عيسى فى رقيه ، يبدو لعيونهم كشبح اسود انطبع على صفحة الجليد الناصعة ، ووقف وراح يدعو الله قانتا آناء الليل ساجدا وقائما ، يرجو رحمة ربه . ودثر الكون قدسية ، وبدا كأنما الارض تتأهب لاستقبال وحى السماء ، صفاء وخشوع وطمأنينة وسـلام ..

ونامت عيون بطرس ويعقوب ويوحنا ، كان ذلك الجمال يغرى بالنوم ، ولذيذ الاحلام ، نهكتهم الرحلة الدائمة . فما انتهوا من صلاتهم ، ومست جنوبهم الشعب الاخضر الحنون ، حتى راحوا فى سبات

نامت كل العيون الا عينى عيسى ، كانتا معلقتين بالسماء، يستشف الحكمة ، ويستمد القوة ، ويستلهم وحى الله، وصفت روحه حتى كانت اصفى من الجليد ، وهدأت نفسه حتى كانت أهدأ من الكون الهاجع ، وانسكبت فيه

طمأنينة عجيبة ، فقد كان فى تلك اللحظة اقرب ما يكون الى الله ..

وسقط من السماء ضوء باهر ، وغرق الجبل فى غمرته ، وكان سناه قويا حتى ان النيام هبوا من نومهم ، وفتحوا عيونهم ، فألفوا عيسى يتألق فى الضوء ، فرمقوه فى دهش ، واذا بالضوء يزداد فيغشى عيونهم ، واذا بأرواحهم لاتطيق ذلك السنا ، فأخذتهم رجفة ، وخروا على وجوههم صعقين ، فقد ارسل الله على عبده سكينة مضيئة بهرتهم وكأنما سلبت منهم الروح

غشى عليهم ، وظلوا غائبين عن الدنيا حتى هبط اليهم عيسى ، وراح يطمئنهم ، ويسكن خوفهم ، فلما افرخ روعهم ، قاموا يرنون اليه فى اجلال ، رأوا ماكانوا يقرءون عنه فى التوراة ، رأوا السكينة التى أرسلت الى موسى ، وخروا ، كما خر قوم موسى ، صعقين ..

وهبطوا من الجبل صامتين ، كانت حادثة الليلة عجيبة ، استبدت بجوارحهم وافكارهم ، وفيما هم منطلقون ، قال لهم عيسى :

ـ لا تذكروا لاحد شيئا مما رأيتم

كان يخشى أن يقع الحسد فى قلوب حوارييه ، فتدب بينهم العداوة والشقاق ، وتنزل صدورهم الاحن ؛ فتزداد متاعبه . يريد أن يأتيه حواريوه بصدر سليم ، وكفاه عداوة الفريسيين والصدوقيين والناموسيين

تحقق الليلة لهم انه المسيح ، النبى الذى سيرسله الله خاتما لانبياء بنى اسرائيل .. لقد قالت البشارات أنه نبى عظيم .. وثبتت الليلة عظمته ، اذ اكرمه الله بما اكرم به موسى الكليم ..

وقفزت الى اذهانهم اعتراضات الكتبة والكهنة والفريسيين ، وخطر لهم أن يسألوه ، ولكنهم كانوا يحسون

منه رهبة ، وان كان يعطف عليهم ويواسيهم ويفتح لهم قلبه الكبير ، وطووا تلك الاعتراضات التى راحت تحتل تفكيرهم ، ولجوا فى صمتهم

الطريق طويل ، والهدوء شامل ، ولا شيء غير التأمل والتفكير ، ودوت فى نفوسهم اعتراضات المكذبين برسالته، ولم يقووا على خنق ذلك الدوى المتردد فى رءوسهم ، فقالوا له :

– لماذا يقول الكهنة ان ايليا ينبغى ان يأتى أولا ؟

كان الاعتقاد السائد ان ايليا ينهض من الاموات ويرد الى بنى اسرائيل التابوت فيه سكينة وبعض ماترك موسى وهارون ، فالنبى ملاخى يقول على لسان ربه : «هأنذا أرسل اليكم ايليا النبى قبل مجىء يوم الرب ، اليوم العظيم » . فاذا كان هو المسيح المنتظر ، فكيف لم يأت ايليا قبله ؟

فقال لهم عيسى فى هدوء :

– ان ايليا يأتى أولا ويرد كل شيء ، ولكنى أقول لكم ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا

وصمت قليلا ، ثم قال :

– كذلك ابن الانسان سيتألم منهم

ترى أيحدثهم عن الاضطهادات التى يقاسيها ، أم يتنبأ عن الاضطهادات المطوية فى الغيب القريب ؟

وأراد تلاميذه أن يسألوه عن ايليا الذى سبقه ، ولكن هيبته عقلت ألسنتهم فصمتوا • وأقنعوا أنفسهم أنه يقصد يحيى ، يحيى الذى جاء قبله يبشر باقتراب ملكوت السموات ، يحيى الشهيد

— ٣٤ —

« انما جعل السبت على الذين
اختلفوا فيه ، وان ربك ليحكم بينهم
يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »
(قرآن كريم)

نودى فى القرية اليهودية وفى المدن وفي أورشليم : « أخرجوا الى الجبل ، وأتوا بأغصان زيتون ، وأغصان زيتون برى ، وأغصان آس ، وسعف النخل وأغصان أشجار لعمل مظال » فقد كتب الله على بنى اسرائيل ثلاثة أعياد لشكره على اخراجهم من مصر ، وانقاذهم من العذاب المهين : عيد الفصح ، وعيد الاسابيع ، وعيد المظال

ففى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين ، عقب أن يجمع بنو اسرائيل بيادرهم ، وينتهوا من معاصرهم ، يخرجون رجالا ونساء ، وشبانا وأطفالا وشيبا الى الخلاء ، يعيشون فى مظال ، يقدمون قرابينهم ويمضون الايام فى سرور ومرح ، حتى اذا ما انتهت أيام عيد الحصاد عادوا الى ما كانوا فيه

وكان القادرون يشدون الرحال الى أورشليم ، يصلون فى الهيكل ويمضون الايام فى مظلات أقيمت فى الخلاء ، فراح الناس يتأهبون للخروج ، واجتمعت الجموع فى أورشليم ، ووافى يوم العيد ، فانطلق الناس الى الهيكل ، وقرعت الطبول ، فدبت الحماسة فى الصدور ، كانت طبول الهيكل تدق نشيد النصر ، وبدأت الصلاة ، فراح الجميع يرددون فى خشوع : « اسمع يا اسرائيل ، الهنا اله واحد ... » والاطفال يرددون « آمين » ، وقضيت

الصلاة ، فقام القراء يقرءون الناموس ، وذبح فى المذبح ثلاثة عشر ثورا ، فالشريعة تقضى بذبح سبعين ثورا فى أيام العيد قربانا لله ، على أن تنقص القرابين قربانا كلما انقضى يوم من أيام العيد

وغادروا الهيكل الى مظالهم ، وراحوا يتسامرون ، ويتناجون ويتساءلون فى همس ، عن عيسى الذى أقلق الكهنة ، ويقولون : « أين ذاك ؟ » ، كانوا يحسبون أنه قادم فى العيد ، يدعو الناس الى الذى أرسله ، ولكن انقضى اليوم الاول ولم يظهر ، وانقسموا فيه : فريق يقول : انه صالح ، وفريق يثور ، ويتهمه بأنه أضل الجميع

وكان حديثهم نجوى ، لا يقدرون أن يرفعوا أصواتهم بذلك الحديث ، لخوفهم من رؤسائهم ، فما كانوا يجرءون على اعلان رأى الا اذا وافق عليه أعضاء السنهدرين ، المجلس الموقر !

كان العيد للعبادة والشكر ، ولكنه انقلب الى عيد لتحصيل اللذة ، الفتيات والفتيان فى ضوء القمر يتناجون ، وأنغام الموسيقى الناعمة التى تلهب الحواس ، تهتك سكون الليل وقدسية المكان ، والنشوة تعبث بالرءوس ، فيتبخر التحفظ والوقار ، أصبح العيد رمزا للحرية والتحرر والانطلاق ..

انقضى من العيد أيام ، واطمأن أعداؤه الفريسيون والصدوقيون والكتبة ، الى أنه لن يقدم فيكدر صفو العيد ، واذا به قد جاء الى أورشليم ، وراح يمر بين الجموع التى تموج بها المدينة ، لا يلحظه أحد .. كانوا يعرفون اسمه ، ولكن ما أقل من يعرفون هيئته ، فما كان يميزه عن آلاف الرجال شىء ، فالعين لا ترى عظمة النفس ، وانطلق حتى أتى الهيكل ، ودوت الطبول ، وقرئت الشمة والناموس وقام عيسى فى رواق من أروقة الهيكل يعلم الجماهير ،

فحشر الناس زمرا يصغون

انقلب سرور أعدائه غما ، كانوا يحسبون أن العيد سينقضي دون أن يقدم ليفسد عليهم الملأ من بنى اسرائيل، واذا الجموع تتهافت عليه ، وتظهر اعجابها بما يقول ، وراحوا يقولون :

ـ ما أعجب تعاليمه ، انه ليجمع بين مدرسة هلليل ومدرسة شماى ..

ـ كيف يعرف الكتب ولم يتعلم ؟

ـ أليس هذا عيسى الناصرى ؟

ـ وهل يخرج من الناصرة شيء صالح ؟

وفطن عيسى الى همسهم ، وحزر ما يدور بينهم ، فقال:

ـ تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى ، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق

وتحرك الفريسيون ، والشرر يتطاير من عيونهم ، ووقعت عيناه عليهم ، فقال :

ـ لماذا تطلبون قتلى ؟

لم يكن يخشى الموت ، ولكنه يريد أن يمكن لدينه فى الارض .. لم يكن أمامه فسحة من الوقت ليبلغ رسالته ، ويعلنها ساطعة ناصعة ، واتباعه من الاغفال ، الذين لا يفهمون تعاليمه كل الفهم ، كما ضرب لهم مثلا سألوه عن تأويله ، انه لا يطمئن ان يترك هذا الدين وديعة فى أيديهم ، وخاف الفريسيون ثورة الجماهير المفتونة به ، وما أيسر أن تثور ، فقال الفريسيون مظهرين العجب :

ـ بك مس ، من يطلب قتلك ؟!

كان يعرف ، أن الحجة التى يقيمونها عليه ، هى العمل فى السبت ، ولا حجة غيرها ، فقال لهم مبررا كسره ذلك اليوم المقدس :

ـ أعطاكم موسى الختان ، (١) والختـــان ليس من موسى ، بل من الآباء ، فى السبت تختتنون الاولاد ، فاذا كان الانسان يقبل الختان فى السبت ، لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لانى شفيت انسانا فى السبت ، لا تحكموا بالظواهر ، بل احكموا حكما عادلا

فقال قوم من أهل أورشليم :

ـ أهذا الذى يطلبون أن يقتلوه ؟ ..

وراح عيسى يقول :

ـ لم آت من نفسى ، بل أرســـلنى الحق ، الذى لا تعرفونه ..

ثار اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معـرفة بالله . وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأنهـم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه ، وهجموا عليـه ليمسكوه ، ولكنه اختفى دون أن يروه ، فقد كان قـادرا على الافلات من أيدى الاعداء ، فظهر على وجوههم ذهـول وغمغموا : « هذا سحر مبين »

وذهب عيسى الى المظال ، فاذا صخب ماجن ، وضوضاء فاجرة ، وضحكات خليعة فاسقة ، وأغانى ماجنـة ، كان المكان المقدس أشبه بملهى من ملاهى الوثنيين ، تعـرض فيه ألوان الفسق والفساد ، والفريســيون والكتبـة والصدوقيون يجوسون خلال المظال صامتين خاشـعين ، كأنما كانوا فى محراب مقدس

لم يرتفع لأحدهم صوت اعتراض ، كأن ما يقـع تحت أبصارهم لا يخدش الناموس ، ولا ينقض شريعة موسى ، أما اذا قام هو فى الهيكل يعظ الناس ، ويدعوهم الى الله الواحد ، فقد تصدعت الشريعة وتلمسوا الاسباب ليقتلوه،

---

(١) المقصود أن الختان من الاباء ابراهيم واسحق ويعقوب ، لا من الكهان الاباء كما فهم بعضهم ، فحرموا الختان

ويستريحوا من دعوته ، التي ما جاءت الا لتفض النـاس من حولهم ، وتنزع منهم السلطان

وفي الصباح ، بعد أن دقت الطبول ، وقدمت القرابين، وقضيت الصلاة ، جلس يعظ الناس ، غير هياب ولا وجل، أرسله الله لا يخشى في الحق لومة لائم ، فليصرخ بها في وجوه الجميع مدويه

ورفع بصره ، فاذا جموع قادمة تدفع امرأة ، والمـرأة تخفي وجهها بيديها وشعرها ، ووقفت المرأة ذليـــلة ، خافضة الرأس ، فتحركت شفقته، وأقبل نحوه الفريسيون وقالوا في قسوة :

ـ هذه المرأة وجدناها في زنا ، وناموس موسى يأمـر برجمها ، فبماذا تقول أنت ؟ ..

كان ذلك الناموس معطلا ، عطله رئيس كهنتهم ، بعد أن حاكى بنو اسرائيل الرومان حتى في المفاسد ، فتفشى الزنا فيهم ، وكان الفريسيون يعلمون ذلك ، لكنهم أرادوا أن يحرجوه بخبثهم : اذا أمر بتركها ثاروا للنـــاموس ، وأرغوا وأزبدوا ، وطالبوا بدم المارق ، الناقض للشريعة ، واذا أمر برجمها تحدى السلطة التي عطلت هذا الحد من الحدود ..

ولم يرفع عيسى رأسه ، وان كان بسريرته يلحظ الرياء الذي يقطر من وجوههم ، وســـاءه أن يقيم الخطاءون من أنفسهم حكاما للخطيئة ، ولم يحتـرم المرأة التي اقترفت الزنا ، ولكنه يرى أن متهميها لا حق لهم في رجمها ، كلهم غارقون في الدنس ، وما ثاروا ثورتهم الا رياء ، فحـنى ظهره ، وراح يكتب بأصبعه على الارض :

ـ من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ..

وكأنما غشاوة الرياء تمزقت عن أعينهم ، فتمثلت لهم خطاياهم ، رأى كل منهم نفسه في حمأة الفسق ، فتدبت

جباههم خجلا ، وأطرقوا رءوسهم خزيا ، وطفقوا ينسلون واحدا أثر آخر ..

وبقى عيسى مطرقا ، والمرأة واقفة ترتجف عارا ، وقام عيسى ونظر ، فاذا المرأة وحدها فى وسط الهيكل ، فقال لها :

– أين الذين جاءوا بك ؟ أما دانك أحد منهم ؟

– لا يا سيدى

– وأنا لا أدينك ، اذهبى ولا تخطئى ثانية ..

ومشت المرأة تجر ذيولها ، وخرج عيسى الى الوفود يدعوهم الى تصديق رسالته ، وجاء اليوم الثامن ، فهب الناس فى البكرة ، فى ثيابهم الجدد ، فى أيديهم «اللبلاب» مجدول من لباب النخيل ، وراحوا يتدفقون على الهيكل ، وبدأت المراسيم ، ووضعت تقدمة الصباح على الهيكل ، وحمل كاهن كبير ابريقا من الذهب ، وسار فى موكب عظيم حتى غادر الهيكل ، وذهب الى جبل صهيون ، وفى بركة سلوام اغترف ثلاث غرفات فى خشوع ، وعاد الموكب العظيم ، وانسابت الانغام المتدفقة من الابواق المقدسة ، والكاهن يتقدم • وقد غمر الجموع فرح ، فراحوا يلوحون بما فى أيديهم من « لبلاب » وصب الكاهن الماء فى وعاء فضى ، وصب خمرا فى وعاء آخر ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، ذلك التهليل الذى رجعه داود ، صاحب المزامير

هللو يا ، سبحوا يا عبيد الرب
سبحوا اسم الرب
ليكن اسم الرب مباركا ، من الآن والى الابد
من مشرق الشمس الى مغربها ، اسم الرب مسبح
الرب عال فوق كل الامم
فوق السموات مجده

واستمروا فى التهليل ، حتى اذا انتهت المراسيم ، قام عيسى يقول :

ـ ان عطش أحد ، فليقبل الى ويشرب ، من آمن بى ، كما قال الكتاب ، تجرى من بطنه أنهار ماء حى

لم يكن هذا القول جـــديدا عليهم ، كان يفرحهم أن يقتبس من كتبهم ، ففى ذلك توكيـــــد منه بأنه ما جاء لينقضها ، وفى هزة الفرح قالوا :

ـ هذا نبى حقا

ـ هذا هو المسيح ••

ـ أيأتى المسيح من الجليل ؟

ـ قال الكتاب انه من نسل داود ، يأتى من بيت لحم ، مدينة داود ••

واندس الفريسيون بين الجماهير ، يوغرون صدورهم عليه ، وتغيرت القلوب وما أيسر أن تتغير ، فرددت جوانب الهيكل زمجرات واندفعوا ليمسكوه ، ولكنهم لم يجدوه ، مضى من بينهم دون أن يروه ، وتركهم حيارى يعجبون

وجاء المساء، وأضيئت المصابيح، ففاض النور من الهيكل حتى غمر المدينة ، ووقف اللاويون على الدرجات المـؤدية الى الرواق ، يرددون ترانيم المصاعد :

أرفع عينى الى الجبال من حيث يأتى عونى
معونتى من عند الرب خالق السموات والارض
لا ينعس حافظك
انه لا ينعس ولا ينام حافظ اسرائيل

وراح الفريسيون والناس يرقصــــون نشوة حـــول المصابيح ، فقام عيسى يدعوهم الى الحق :

ـ أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة

فهب الفريسيون يعترضونه • قالوا :

ـ أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقا
فقال لهم :
ـ ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق ، لانى أعلم من أين أتيت ، والى أين أذهب ، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا الى أين أذهب ..

أنتم تدينون حسب الجسد ، أما أنا فلا أدين أحــدا ، وان كنت أنا أدين فدينونتى حق ، لانى لست وحدى ، بل أنا والآب الذى أرسلنى
مكتوب فى ناموسكم : ان شهادة رجلين حق ، أنا هو الشاهد لنفسى ، ويشهد لى الذى أرسلنى

لو كنتم أبناء ابراهيم لعملتم أعمال ابراهيم ، ولكنـكم تطلبون أن تقتلونى وأنا انسان كلمكم بالحق الذى سـمعه من الله ، هذا لم يعمله ابراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم
فزاد غضبهم ، فهو يتهمهم أنهم ليسوا أبناء ابراهيم ، وكل فخرهم أنهم من نسله · فقالوا فى حنق :
ـ اننا لم نولد من زنا ، لنا أب واحد هو الله
ـ لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ، لانى خرجت من قبل الله وأتيت · لم آت من نفسى ، بل ذاك أرســلنى · لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى · أنتم من أب هو ابليس ، وشــــهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ..

ان كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنـــون بى ، الذى من الله يسمع كلام الله ، وأنتم لا تسمعون كلامه ، لانــكم لستم من الله ..
فقالوا :
ـ ألسنا نقول حقا ، انك سامرى بك مس ؟
ـ ليس بى شيطان ، ولكنى أكرم الله وأنتم تهينوننى ، الحق الحق أقول لكم : ان كان أحد يحفظ كلامى ، فلن

يرى الموت أبدا

ــ الآن علمنا أن بك شيطانا • مات ابراهيم والانبياء • وأنت تقول ان كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يذوق الموت أبدا • لعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذى مات ، وقد مات الانبياء ، من تحسب نفسك ؟

ــ ان كنت أمجد نفسى فليس مجدى شيئا • ربى الذى يمجدنى ، الذى تزعمون أنتم أنه الهكم ولا تعرفونه ، وأما أنا فأعرفه • ان قلت انى لا أعرفه أكن مثلكم كاذبا ، لكنى أعرفه وأحفظ قوله ، أبوكم ابراهيم تهلل بأن يرى يومى ، فرأى وفرح

ماجوا لما سمعوا قوله ، عاد يرميهم بالجهل بالله ، وزاد على ذلك أنه ادعى أن ابراهيم رأى يومه وفرح ، فقالوا ساخرين :

ــ ليس لك ــ بعد ــ خمسون سنة ، أرأيت ابراهيم ؟

ورفعوا الحجارة ليرموا من قال لهم انهم أبناء ابليس ، ومن أنكر عليهم معرفة الله ، ونظروا فلم يجدوه ، اجتاز فى وسطهم ، ومضى دون أن يروه ، فارتفعت الاصوات :

ــ انه ساحر ••

ــ هذا سحر مبين ••

ــ ٣٥ ــ

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا اذا ، تكاد السموات يتفطرون منه ، وتنشق الارض ، وتخر الجبال هدا »

(قرآن كريم)

حشر الناس الى الهيكل وفدا ، فاليوم سبت • وقعد

أمام باب الهيكل رجل أعمى يتكفف ، ترمقه العيـــون ، فتتردد فى الرءوس أسئلة : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ ورآه عيسى فأشفق عليه ورد فى نفسه على أسئلة الناس : لا هو أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر معجزة الرب فيه ..

وتقدم الى الاعمى ، وقال :

ــ ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهـــار ، يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل

وتفل على الارض ، وجعل من التفل طينا ، وطلى بـــه عينى الاعمى وقال له :

ــ اذهب اغتسل فى بركة سلوام

وذهب الاعمى الى جبل صهيون ، واغتسل فى البركة ، فاذا به يرى دنيا لم يرها قبل الآن : سماء وماء ، وأشجار وتلال وضياء ، وحسن وبهاء ، فخفق قلبه فى قوة ، وغامت عيناه بدموع الفرح ، ورفع يده يجفف دموعه ، فمـــا عاد يطيق غشاوة عبراته ، التى حالت بينه وبين النور لحظات

ورجع الرجل الى باب الهيكل وقعد ، وخرج الناس بعد انقضاء الصلاة ، ونظروا الى الاعمى ليقوم فى أنفســـهم نفس السؤال : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ فاذا به يستقبلهم بعينين مفتوحتين ، فقالوا :

ــ أهذا الذى كان يجلس يسأل الناس ؟ ..

ــ لا .. ليس هو ..

ــ بل هو

ــ انه يشبهه

ــ سلوه

واقتربوا منه يسألونه ، فقال لهم :

ــ رد عيسى الى بصرى ..

ــ متى ؟ ..

ـ اليوم
ـ فى السبت ؟!
وانقسم الناس بين مكذب ومصدق ، وأخذوا الرجل ، وقادوه الى الهيكل ، ودخلوا على الفريسيين ، وقالوا لهم :
ـ يزعم هذا أن عيسى رد اليه بصره اليوم
فقال له رجال السنهدرين :
ـ كيف أبصرت ..؟

ـ طلى عينى بالطين ، وأمرنى أن أغتسل فى بركة سلوام فلما اغتسلت أحسست كأن غشاوة عن عينى تنجاب ، واذا بدنيا زاهية جميلة ، دنيا ما كنت أتخيلها ، تبدو لى ناصعة رائعة ، ما أجمل أن يرى الناس !
بان فى وجوه الفريسيين قهر ، وقال بعضهم فى حنق : « انه ليس من الله ، فهو يكسر السبت »
وقال آخرون : « كيف يقدر انسان خاطىء أن يقوم بمثل هذه الآيات »
ودارت مناظرات ، ودب بين الفريقين خصام ، وكأنما أرادوا ان يضعوا حدا لتلك الفرقة ، فقالوا للرجل :
ـ ماذا تقول انت عنه ؟
فقال الرجل فى حماسة : « انه نبى »
فصاح صائح منهم : « لا تصدقوا دعواه ، انه أحد تلاميذه ، جاء يلقى بينكم العداوة والبغضاء »
ـ فلندع أهله ..
وأرسل اعضاء السنهدرين فى طلب اهله ، فجاء أبواه يضطربان فقالوا لهما :
ـ أهذا ابنكما ؟
ـ نعم ..
ـ أولد أعمى ؟
ـ نعم ..

ـ فكيف يبصر الآن ؟
ـ لا نعلم ، اسألوه فهو كامل السن
ونادوا الرجل ، فدخل ، فقالوا له :
ـ نعلم ان هذا الذى تزعم انه رد اليك بصرك خاطىء
فقال الرجل فى تهكم :
ـ لا علم لى بذلك ، ولكنى اعلم أنى كنت أعمى وانه رد الى بصرى
فقالوا فى ضيق :
ـ ماذا صنع بك ؟ كيف فتح عينيك ؟
ـ قلت لكم ، وكررت القول : لعلكم تريدون أن تصبحوا له تلاميذ ..
فسبوه ، وقالوا له :
ـ بل أنت تلميذه ، أما نحن فتلاميذ موسى ، نحن نعلم أن موسى كليم الله ، أما هذا فلا ندرى من أين هو ؟
فقال الرجل دون ان يخشاهم :
ـ هذا امر عجاب ، لا تعلمون من أين هو ، ولكنه فتح عينى ، والله لا يستجيب للخاطئين ، الله يلبى دعوة من يتقى الله ، لم نسمع من الازل أن أحدا فتح عينى من ولد اعمى . لو لم يكن مرسلا من الله لعجز عن ان يفعل شيئا ..
أخذتهم العزة بالاثم ، فصاحوا :
ـ أخرجوه ، أخرجوا من ولد فى الخطايا وجاء يعلمنا
كانوا يعتقدون أن الله يفتقد ذنوب الآباء فى الابناء ، فما اعماه الله الا لان أباه كان خطاء ، ولد ذلك الاعمى فى الخطايا ، وقام فى الهيكل يبصر اعضاء السنهدرين الكرام ، فما جزاؤه الا الطرد المهين
وخرج الرجل ، وقابله عيسى ، فدنا منه يدعوه للايمان ، وقال له :

ـ اتؤمن برسول الله ؟
ـ من هو ؟ واين هو ؟
ـ قد رأيته ‥ انه هو الذى يكلمك ‥
وعرف الرجل عيسى ، ذلك الذى رد اليه بصره، وقال عنه امام السنهدرين أنه نبى ، آمن به قبل ان يدعوه الى الايمان ، فرفع بصره الى السماء يعلن ايمانه ، ويشكر الله
ورأى الفريسيون عيسى والرجل يتناجيان ، فهرعوا اليهما يصغيان ، قال عيسى للرجل :
ـ أتيت ليبصر الذين لا يبصرون ، ويعمى الذين يبصرون
فقال له الفريسيون :
ـ لعلنا نحن ايضا عميان !
فقال لهم عيسى : لا تثريب على من ولد أعمى ، ولكن اللوم كل اللوم على من أعمته الخطيئة
وذهب عيسى ، والريح تصفر ، ولكن صدى كلماته فى آذانهم كان أعلى من زئير الريح ، وراح يبتعد وهم يرمقونه، حيارى لا يدرون : أهو خاطىء كما يزعمون ، أم رسول رب العالمين ؟ ‥
واعتزل عيسى يصلى لله ، ويفكر فى امر الناس ، أعلن لهم وأسر لهم اسرارا ، ودعاهم جهارا ، ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه الا انكارا واستكبارا ، يدعـــوهم الى الله فيرمونه بالضلالة ، فغشاه حزن ، ونزل به هم ثقيل
وفكر فى ان يغادر أورشليم ، فعداوة الفريســـيين والصدوقيين والكتبة مريرة ، ولكنه رأى أن يعـود الى الهيكل يستأنف دعوته وجهاده فلو قبلوه قبله الجميع ‥ لو لان قلب أورشليم القاسى ، لتفتحت له جميع القلوب
وذهب الى الهيكل ، ووقف يدعو الناس ، فاجتمعـوا حوله ، قال :
ـ من لا يدخل من باب حظيرة الخراف ، ويأتيها من

مكان آخر ، فهو سارق ، أما من يدخل من الباب فهو راعى الخراف . يفتح له البواب الباب ، وتسمع الخراف صوته ، فاذا دعا خرافه بأسمائها خرجت له ، فيمشى امامها وهى خلفه ، لانها تعرف صوته . أما الغريب فلا تتبعه ، بل تهرب منه ، لانها لا تعرف صوت الغرباء

رمقوه فى تساؤل ، فما عرفوا ماذا يريد بهذا مثلا ،ولمح الحيرة فى وجوههم ، فقال لهم :

ـ الحق أقول لكم : انى أنا باب الخراف ، فمن دخل منى يخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى . السارق لايأتى الا ليسرق ويذبح ويهلك اما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، أنا هو الراعى الصالح ، والراعى الصالح يكرس نفسه للخراف ، اما الاجير اذا رأى الذئب مقبلا ترك له الخراف وهرب ، الاجير يهرب ، لانه أجير ، ولا يبالى بالخراف ، اما انا فانى الراعى الصالح ، أعرف خاصتى ، وخاصتى تعرفنى ، كما أن الآب يعرفنى ، وأنا أعرف الآب ..

وضاق الفريسيون به ، فقال فريق منهم :

ـ انه يهذى ، به مس . لماذا تعيرونه السمع ؟

وقال فريق :

ـ ليس هذا كلام من به شيطان . ايقدر شيطان ان يفتح اعين العميان ؟ !

وهاج الناس فى الهيكل وماجوا ، وترقبه عيسى ثمرة ذلك الجدال .. ومر الوقت ، واشتدت المناقشات ، ثم راحت تخفت وتخفت وتخبو ، كنار أكلت الحطب ، وأخذت تأكل نفسها ، وهدأ كل شىء ، كأنما أريق على المكان ماء بارد ، وانفض الناس من حوله ، واذا به قائم فى الهيكل وحده

وخرج مطرقا ، وسار حزينا ، يعرج فى الطريق ، حتى اذا غادر أسوار المدينة ، وبلغ قمة جبل الزيتون ، نظر

خلفه يرمى أورشليم بنظرة وداع ، وفى قلبه لوعة ، وفى نفسه حزن ، وهاجت شجونه فقال :

« يا أورشليم ، يا أورشليم

« يا قاتلة الانبياء ، وراجمة المرسلين

« أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولكنهم أبوا وأعرضوا ..

« ها هو ذا بيتك يترك للخراب »

وانحدر من الجبل ، يدثره حزن . اعرضت أورشليم عنه ، وأصمت آذانها عن دعوته ، وكذبته وناصبته العداء فسار مطرقا وقد طفرت من مآقيه دموع غالية غزيرة

- ٣٦ -

« ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك »

(قرآن كريم)

ودع اليهودية ، واخترق السامرة ، وعند بئر يعقوب حط رحاله يستريح ، لم تكن هناك امرأة سامرية تجادله فى الدين ، تقول له آباؤهم سجدوا فى هذا الجبل بينما يقول اليهود : فى ورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه ، فيبشرها باقتراب اليوم الذى يسجد فيه الناس فى أى مكان وكل مكان . كان منفردا بأفكاره ، وكانت افكارا مغلفة بقتام .. أعرضوا عنه فى أورشليم ، لم يزدهم دعاؤه الا فرارا ، وكفروا به فى الناصرة ، وحتى الجليل الذى استبشر لدعوته ، عبس وقطب بعد أن راح الفريسيون يلحون عليه أن يريهم آية ، أن ينزل عليهم بروقا ورعودا ، كأنما السماء رهن بنانه ، وكأنما هو ليس بشرا مثلهم

يوحى اليه ، يؤيده الله ــ ان شاء ــ بآياته ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله

وأشرف على الجليل ، رأى بحيرة جنيسارت صافية كعين زرقاء ، والعصافير والطيور ترنم التسابيح الخـــالدة الابدية ، والمروج زاهية تياهة بالشباب .. وورود متفتحة كالخدود ، ونرجس كالعيون ، وأغصـــان مسترسلة كالشعر تنوس لعبث النسيم الهفهاف ، والرجال فى غدو ورواح ، يحملون خيرات السهل الى السفن الراسية فى الميناء ، ومحصلو الرسوم يزنون ويفحصون ، صـــور حبيبة الى نفسه ، فأشرقت واندلعت فيها نشوة ، ولكن سرعان ما تبخرت البهجة ، لم يعد قادرا على أن يذهب الى هؤلاء الاغفال الاتقياء يعظهم دون أن يكدر صفو التلاقى الفريسيون والصدوقيون والاعداء

وسار على شاطىء البحيرة ، ولمحه الناس ، ففتنوا به ، وقبل أن يتركوا أعمالهم ويلتفوا حوله ، زجرهم رؤساؤهم فاستأنفوا ما كانوا فيه من أعمال ، وهرع اليه حواريوه وأنصاره ، وألقوا اليه سمعهم ينهلون من المورد العذب ، وفيما هم فى حديث ودرس ، اذ أقبل قوم فى وجوههم عبوس وقلق ، فنظر اليهم متطلعا ، فقالوا له :

ــ ذبح بيلاطس الجليليين فى المعبـــد ، خلط دمهم بدماء ذبائحهم ..

كانوا يعتقدون أنه ما من مصيبة تنزل بالمرء الا لخطيئة اقترفها ، فاذا كان بيلاطس قتل هؤلاء الجليليين ، فما مكن الله له فيهم الا لانهم قارفوا فى حق الله ذنبا ، وصمتوا يسمعون رأيه ، قال :

ــ أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا أعظم خطيئة من كل الجليليين لمكابدتهم هذا القتل ؟ أقول لكم : كلا . وان لم تتوبوا تهلكوا جميعا ، أتحسبون أولئك الثمـــانية عشر

الذين سقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم أعظم خطيئة من جميع سكان أورشليم ؟ كلا • فان لم تنوبوا تهلكوا جميعا ••

وراح يضرب لهم الامثال :

ـ كان لامرىء شجرة تين ، أتى يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرا فقال للكرام : آتيت ثلاث سنين ألتمس من هذه التينة تمرا فلم أجد عندها ثمرا ، أقطعها • قال له الكرام: يا سيد ، دعها هذه السنة أيضا حتى أصلح لها الارض ، وأضع حولها زبلا ، فان أثمرت أبقيت عليها ، والا فاقطعها ••

ورمقوه بعيون واسعة ، ولم يسألوه تأويل مثله ، ترى أفهم تلاميذه أنه ضرب لهم هذا المثل ، ليشرح لهم أن الله يمهل عبده ، عله يستغفره ويتوب اليه ، أم لم يفهموا شيئا ، ولاذوا بالصمت حياء وهيبة !

والتفت به الجموع ، وخشى الفريسيون أن يفتن الناس وأن يهتك الاستار التى يسدلونها فى مهارة ورياء لاخفاء الحقيقة • فرأوا أن يرهبوه حتى يغادر الجليل ، ويتركه مرتعا خصيبا ، يبذرون فيه البدع والاوهام ، ويجنون منه المال والنفوذ والسلطان ، فجاءوا اليه فى ثياب النصحاء الاصدقاء ، وقالوا :

ـ اذهب من هنا لان هيرودس يريد أن يقتلك

لو كان هيرودس يريد قتله حقا ، لاخفوا عنه تدبيره ، وهل كانت أمنيتهم الا قتله ؟ اختلقوا هذا الخبر ليرهبوه، ويرغموه على الفرار ، فينقذوا أنفسهم من وخزاته ولذعاته كانت سخريته أمضى من السيوف وما كان يشتد الا اذا قرعهم ، وسلط أنواره على ريائهم ، فيبدو عاريا بغيضا ، لم يرهبه تخويفهم اياه « بالثعلب » الرواغ ، هيرودس أنتيباس ، المتطير الرعديد ، الذى يخشى الاوهام ، ويقبل

على قتل الرجال والانبياء ٠ ولم يلق بالا الى تهديدهم ، بل استمر فى وعظ الملتفين حوله

ورأى أن يبعث تلاميذه الى بنى اسرائيـــــل مبشرين باقتراب ملكوت الله ٠٠ فعين سبعين ، وراح يعظهم :

ـ الحصاد كثير ، والفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة الى حصاده ، اذهبوا ، هأنـــذا أرسلكم كحملان بين ذئاب لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ، ولا تسلموا على أحد فى الطريق وأى بيت دخلتموه فألقوا عليه السلام ، فان كان هناك ابن السلام يحـــل سلامكم عليه ، والا فيرجع اليكم ، وأقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، فالفاعل مستحق أجره

لا تنتقلوا من بيت الى بيت ، وأية مدينة دخلتموهـــا وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم

فاخرجوا الى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا : انه قـــد اقترب منكم ملكوت الله ٠ وأقول لكم ، انه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة ٠٠

وخرجوا اثنين اثنين يبشرون باقتراب ملكوت الله ،ولم يأمرهم أن يذهبوا الى الامم أو الى السامريين ، ولم ينههم فقد اتضحت رسالته لتلاميذه ، عرفوا أن الله لم يبعثه الا الى بنى اسرائيل رسولا

وراح يجول على شاطىء البحيرة ، يعظ الناس ، ولكن ما أقل المؤمنين الذين كانوا يصغون اليه ! انفض عنـــه الناس لما لم يأتهم بآية ٠٠ نجح الفريسيون فى بذر بذور الشك فى القلوب التى كانت مهيأة للايمان ، وفى سكون الليل انطلق وحده والحزن يعصر قلبه ، أتى النـــاس

بالهداية فرفضوه .. هداهم الى الطريق القويم فأبوا الا أن يتنكبوا الطريق ، دعاهم الى الله الـواحد ، فابوا الا ان يشركوا مع الله احبارهم ورهبانهم ، واكتأبت نفسه ، كان يرجو أن يتم رسالة ربه ، وأن ينبت أركانها ، ولكن بدا لعينيه أن مستقبل رسالته تلبد بالغيوم . كفر الناس به بعد أن صدقوه ، وفروا منه بعد أن كانوا يقبلون عليه، ويقتتلون ليلمسهم بيده أو ليفوزوا بلمس شيء منه ، ولو طرف ثوبه أو جلد نعله ..

حتى فى الجليل رفضوه ، لو أمر بدعوة الامم لانطلق يهديهم الى الله ، فقد تكون قلوبهم أرحم من قلوب هؤلاء القساة الجاحدين ، ولكنه لم يرسل الى الامم ، فليس أمامه الا أن يجوب البلاد اليهودية يتقى الاضطهاد

واقترب عيد التجديد ، فليترك الجليـــل ليعـود الى أورشليم ، ولئن كان أمامه فسحة من الوقت ، لم يعــد الانتظار فى الجليل محتملا ، عزيز عليه أن يعيش بين أناس جحدوه .. سيذهب فى البلاد يعظ هنا وهناك ، حتى يوافى العيد ، فيقوم فى الوفود داعيا ، فقـد يجنى ثمرة الكفاح ..

وتأهب للرحيل ، ووقف ينظر الى بحيرة جنيســارت والى مدن الجليل القائمة على شاطئها ، فانبثقت فى جوفه ينابيع الحزن ، وكانت أغزر ينابيع نفسه ، كان نبى الاحزان ، ولم يجد متنفسا لاساه الا الكلمات ، فقال وهو يرنو الى الجليل فى لوعة :

« ويل لك يا كورزين ! ..
ويل لك يا بيت صيدا !
وأنت يا كفر ناحوم ، المرتفعة الى السماء .. !
ستهبطين فى الهاوية ! .. »

وانطلق يغادر الجليل دون أن تلوح له يدا واحـــدة

بالوداع ، حتى أغصان الاشجار وسعف النخيل لم تهتز، خفت النسيم ، فبدا كأنه قد مات

— ٣٧ —

« قد بدت البغضاء من أفواهم ،
وما تخفى صـــدورهم أكبـــر »
(قرآن كريم)

ليل سرمد لا يتخلله بصيص نور ، أرض تطـــوى ، وشمس تقبل لتغيب وأناس يحشرون ويصـــــغون ثم ينفضون ، وفريسيون قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، ونور الايمان لا يزحزح ظلمات النفوس ، وبعثت الشمس رسلها ، ولكن دثر الكون ليل سرمد ..

ولاحت له أشجار نخيل عين غانم ، مفتاح الســامرة ، فراح يرقى التل يداعبه أمل ، أضافه السامريون ثلاثة أيام ، يوم قابل السامرية عند بئر يعقوب ، واكتشفت أنه نبى ، كرموه على الرغم من العداوة القاتلة بينهم وبين اليهود ، فلو أحسنوا استقباله لمسحوا عن صـــدره آلام الجفوة التى قاساها فى أورشليم ، وفى الجليل ، وفى كل مكان فينبثق شعاع من نور فى الظلام الدامس الثقيل

وقابله تلميذاه يعقوب ويوحنا ، ودخلوا عين غانم ، وقام عيسى بين الناس يعظهم ويدعوهم الى الله ، فوضـــــعوا أصابعهم فى آذانهم ، وطلبوا منه أن يغادر قريتهم ،وبدت العداوة منهم ، فنكص على عقبيه مقهورا

علم السامريون ان وجهتهم أورشليم لحضور العيـــد ،

وما كان السامريون يعترفون بالهيكل المقدس ، فهم يقولون أن الاباء ابراهيم واسحاق ويعقوب سجدوا هنا في جبل شكيم ، وما الهيكل الا معبد بناه سليمان الحكيم فلو شاء اليهود أن يسجدوا ، فليس هناك الا مكان واحد للسجود ، حيث سجد الآباء في جبلهم المقدس

سبق أن قال عيسى للسامريه عند البئر : تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله ، فلماذا لا يدعو بهذا جهارا ؟ لماذا لا يقول للناس ان أورشليم ان هي الا مدينة فتحها داود ، وما قدسها الا الكهان والتقاليد ، فلو فعل ذلك لايد دعواهم ، ولاصاخوا له • ففي ذلك بعض النصر لهم ، ولكنه لم يفعل ، فهو يخرج الى أورشليم حاجا كالاف الحجاج من بني اسرائيل ، فغير ذلك صدورهم عليه ، وما دار بخلدهم أن زمان ملكوت السماء ، الذي يجعل الارض كلها مسجدا ، لم يظلل الدنيا بعد ، وما جاء عيسى ليضع تعاليمه ، بل أرسل به بشيرا ••

أبوا عليه أن يخترق السامرة ، حتى الطعام رفضوا أن يمدوه به ، لم ينظروا اليه نظرة الوداد السابقة ، لا لخشونة في طباعهم ، ولا لقساوة قلوبهم ، بل لانه جاء الى بلادهم حاجا الى أورشليم ، وما كانوا منطقيين مع أنفسهم لو أنهم آووه وأكرموه ودعوه يخترق ديارهم معززا مكرما وهو لا يحترم معتقداتهم ••

لو أكرموه وتركوه ينطلق الى أورشليم لكان ذلك شاهدا على تهاونهم في أس العداوة المريرة ، المشتعلة بينهم وبين من كانوا لهم اخوانا في اليهودية ، قبل أن يقع الخلاف بينهم ، على شكيم وأورشليم والتوراة التي جاء بها موسى ، والتوراة التي كتب بعض اصحاحاتها مردخاي تمجيدا لاستر التي أنقذت بجمالها شعبها

وحنق تلميذاه يعقوب ويوحنا ، وغلى مرجل غضبهما ، نكأت هذه المقابلة الجافة القاسية الجراح ، وجددت الاشجان ، فما بال الله حليما لا ينزل على هؤلاء الجفاة كسفا من السماء ، ما باله لا يدمدم عليهم بذنبهم ، فيسوى أرضهم ؟ وتذكرا أن ايليا ، هنا فى السامرة دعا الله أن ينزل على أعدائه نارا تحرقهم ، فاستجاب الله دعاءه ، فلماذا لا يدعو عيسى ربه ، لينزل عليهم من السماء نارا ، فيفنيهم كما فعل ايليا

غضب عيسى من ذلك الروح الثائر الحانق ، فزجرهما ، وقال لهما :

ـ ما أرسلت نقمة ، بل أرسلت رحمة

وانطلقوا يدخلون القرى والمدن ، يجتازون السهول والقفار ، ويرقون الجبال ، ويهبطون الوديان ، وعيسى يعظ الناس ، ويبشرهم باقتراب الملكوت ، ويكسر السبت ، يبرىء فيه المرضى ، كأنه ما جاء الا ليكسر السبت المقدس ، فاذا ثار الفريسيون والناموسيون ، والمراءون ، قال لهم فى سخريته اللاذعة :

ـ من منكم يسقط حماره أو ثوره ـ فى يوم السبت ـ فى بئر ولا ينتشله ؟

كانت أجوبته تفحمهم ، فيصمتون على مضض ، يتربصون به الدوائر . فقد يأتى يوم يخرق فيه الناموس ، ويقصر فيه بيانه عن اقامة الحجة المتألقة ، فيقتلونه ويستريحون من ذلك القلق الذى بذر بذوره فى أعماقهم

واستمر فى رحلته ، فهو من يوم أن بعث فى رحلة دائمة ، ولاح فى الافق جبل الزيتون بأشجاره ، انها أورشليم معقل أعدائه ، ذات القلب القاسى الذى كان أقسى من الصخر الذى بنى به أسوارها ، كان مكدودا من الرحلة الطويلة ، التى قطعها على قدميه ، فشاء أن يستريح قبل أن يدخل

متحديا قوات الفريسيين فى عقر دارهم

كان لعازر من أنصاره ، وكان له بيت فى أرباض المدينة المقدسة فانطلق يستجم هناك بعد التعب ، وما دلف الى الدار حتى هرعت مرثا ومريم المجدلية ، أختا لعازر ، تستقبلان الضيف العظيم فى ابتهاج ، وأسرعت مرثا تحضر الماء تغسل له رجليه ، وذهبت تعد له طعامه ، توقد النار وتبعث فى شراء ما تحتاج اليه . وتغدو هنا وتروح هناك ، بينما مريم جلست عند قدميه صامتة ، تصغى الى عذب حديثه الذى يتدفق من فمه الى قلبها

نسيت كل شيء الا ذلك الضيف العظيم الذى كان بيانه سحرا ، تفتحت نفسها ، وهامت روحها فى سماوات من النقاء ، كان حديثه وحيا من السماء ، يرفعها الى أجواء عالية ، فتمتلىء نشوة عارمة . ارتبكت مرثا واحتاجت الى عون اختها ، فارتفع صوتها بالنداء :

ـ مريم .. مريم ..

ولم تسمع مريم نداءها ، كانت غائبة عن كل ما حولها بكلماته التى تنفذ الى قلبها قطرة قطرة ، وارتفع النداء وهى فى شرودها ، طغت شخصيته فذابت فيها ، كأنما لم يعد لها كيان

وضاقت مرثا باعراض أختها عنها ، فاندفعت اليها كالعاصفة ، وقالت للسيد :

ـ قل لها ان تعيننى ، تركتنى أخدم وحدى

ما هذا الذى تفعله مرثا ؟ لقد شغلت نفسها باعداد طعام فاخر ، حتى انها تطلب عون اختها ، فمن قال لها ان السيد يحفل بذلك .. كانت مريم تؤدى له خدمة أجل مما تؤديه مرثا ، كانت تخدمه خدمة روحية ، تصغى اليه وهو يحدثها حديث الشريعة فى اقبال ، فقد اصبح فى حاجة الى من يقبل عليه ، بعد الاعراض والجفوة

كانت مريم متهللة ، فالنبى الكريم يحدثها حديث الدين على الرغم من المثل المتداول بين الربيين « خـــير لك أن تحرق الناموس من أن تعلمه امرأة » ..
ونظر عيسى الى مرثا فى اشفاق ، وقال لها :

ــ مرثا مرثا ، انك مهتمة ومشتغلة بأمـــــور كثيرة ، والحاجة الى واحد ، اما مريم فقد اختارت النصـــيب الصالح ، ولن ينزع منها

كانت هذه الزيارة روضة الحنان فى صحراء دعـــوته القاحلة ، التى لم تنبت فيها مشاعر الود والحنان ، كانت النهلة العذبة الروية للصادى الظمآن .. كانت لروحـــه المعذبة البرد والسلام ، كانت الخيط الابيض فى الليل السرمد ..

ـ ٣٨ ـ

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك . ما يكون لى ان أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب »

(قرآن كريم)

كان غسق الدجى ينحسر ، وعيسى على جبل الزيتون خاشع ، لا حسيس ولا نأمة ، والنجوم أفلت ، والسماء صافية ، للشمس تترقب وارتفع صـــياح الديكة فى أورشليم ، فتجاوبت الاصداء فى الجبـــل ، وزقزقت

العصافير ، وتنفس الصبح فبعث اشعته خافتة توسوس للارض بسر ، حتى اذا ذاع انتشر ، واشتعل الافـــق الشرقى ، وحامت الطيور فوق الجبل ، وجعلت تحط على اسوار المدينة العتيقة ، ودوى فى الفضاء قرع طبول منبعث من قلعة انطونيا ، يدعو جنود الرومان الى مغادرة الفراش

وقام عيسى ونظر الى المدينة .. كان الهيـــكل يتلألأ ، الضوء ينبعث من شرفاته ، فقد اضيئت جميـــع ثرياته احتفالا بالعيد ، وحمل النسيم روائح البخور ، فمـــلأت خياشيمه ، وبدت القباب كمزيج من الجليد والنضـار ، بياض ناصع وذهب وهاج

انهار الناس من كل فج تصب فى الهيكل ، الرجال فى ثياب زاهية ، قد ثبتوا التفلين فى أذرعهم ، ووضعوا المشامل على أكتافهم والنساء محجبات ، والاطفال فى ثياب العيــد وفى أيدى الجميع غصون اشجار الليمون ، وفروع الازهار وسعف النخيل ، يهزونها فى مرح ، فاليوم عيد التجديد ، ذكرى تطهير يهوذا المكابى الهيكل ، بعد أن دنه أبيفانوس

وسار عيسى فى الطريق الجميـــل المؤدى الى البيت المقدس ، وبلغت مسامعه صلوات الجموع وابتهالاتهم ، ودقت الطبول معلنة ان أول ضحية من أضحيات اليــوم الاول قدمت الى المذبح ، وراحت أقداح الدم تنتقل بين أيدى الكهنة حتى يد الكاهن الاكبر ، ليسكبها فى المذبح الكبير ، وقضيت المراسيم ، وانتشر الناس فى الاروقة ، وكانت جدرانها مزدانة بالسيوف ، تخليدا لذكرى الشجعان الذين خلصوا الهيكل مع يهوذا المكابى ، وراح عيسى يغدو ويروح فى رواق سليمان والفريسيون يرمقونه ، ولما لم يقف ليعظ الناس ، ذهبوا اليه وقالوا له :

ــ الى متى تعلق انفسنا ؟ ان كنت انت المسيح ، فقل لنا جهرا ..

ـ قلت لكم ولا تؤمنون ، لانكم لستم من خرافي ، خرافي تسمع صوتي ، وأناأعرفها فتتبعني ، وانا اعطيها حياة أبدية ، ولن تهلك الي الابد ، ولا يخطفها احد من يدي . ربي الذي أعطاني اياها هو اعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد ربي .. أنا والآب واحد

ثار الفريسيون ، انه كفر وادعى أنه اله ، فحق رجمه فتناولوا حجارة ليرجموه ، فالشريعة تقضي برجم من يدعي النبوة كذبا ، فما بالك بمن يدعى الالوهية . نظر اليهم في دهش وقال :

ـ أريتكم أعمالا كثيرة حسنة من عند ربي ، بسبب أى عمل منها ترجمونني ؟

ـ لا نرجمك لعمل حسن ، بل لانك كفرت ، فانك وانت انسان تجعل نفسك ألها

ـ أليس مكتوبا في ناموسكم : « انا قلت انكم آلهة » .. قال آلهة لاولئك الذين صارت اليهم كلمة الله

كان عيسى يتمثل بالتوراة في كل أقواله ، فما أدعى أنه اله لما قال لهم أنا والآب واحد ، أراد أن يقول لهم على طريقة داود أنه رسول الله ، فقد قال داود في مزاميره على لسان الله تعالى :

أنا قلت انكم آلهة
وبنو العلى كلكم
لكن تموتون مثل الناس
وكأحد الرؤساء تسقطون

انه ليستشهد بكتابهم ، وما أكثر اقتباساته منه ، صرخ فيهم يوما : « ابعدوا عني يا جميع فاعلى الاثم » ، وما كان ذلك القول قوله ، بل قول داود في مزاميره . وهو الآن يقتبس من داود قوله ان الله يقول لأنبيائه : أنكم كلكم أبناء العلى ، ولكنكم لا تخلدون ، بل يحق عليكم الموت كالناس ،

والسقوط كالرؤساء ، ان هى الا عصمة من الله واصطفاء
لم يدع عيسى الالوهية ، بل قال كما قال داود : ان الله اصطفاه ، واذا كان قد قال لهم انه ابن الله ، فما أراد بذلك بنوة حقيقية (١) . فياطالما دعا الناس فى أقواله بأبناء الله : « طوبى لصانعى السلام ، لانهم أبناء الله يدعون »، « يا أيها الاحباء نحن ابناء الله » ، « وصلوا للذين يطردونكم .. لتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » . انها أبوة روحية تظلل الجميع ..

وما كانت تلك اللفظة جديدة على مسامعهم ، قال داود فى مزاميره انى ابن الله ..

قال لى أنت ابنى
انا اليوم ولدتك
اسألنى أعطيك الامم ميراثا لك
تحطمهم بقضيب من حديد
تكسرهم مثل اناء من خزف ..

لم يدع ان المعجزات التى أتاها من عنده ، بل قال انه لم يأت بآية الا باذن الله ، « كل شىء قد دفع الى من ربى »، ولم يدع انه اله ولم يدع بنوة حقيقية ، بل بنوة روحية شاركه فيها المؤمنون والأنبياء فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده ..

وأرخى اليهود أيديهم وهم يعجبون ، هذا الذى لم يتعلم فى مدارس الربيين ، ولم يجلس فى أروقة الهيكل يصغى الى شماى وهلليل ، أتاه من العلم ما يفوق علم العلماء ورجال الدين ، انه على علم بكتبهم وناموسهم ، وله بيان عظيم

---

(١) أوريغين Crigenus هو أول من دس فى فكر الكنيسة (الابوة والبنوة) الالهية ، وهو راهب مصرى عاش فى القرن الثاني الميلادى، وكان خصيا متأثرا بالديانة الفرعونيــة

احسوا قهرا ، حسبوه كفر ، وأقاموا عليه الحجـــة ليرجموه ، واذا به يبرهن أهم من ناموسهم انـــه لم يدع الالوهية ، بل استعار حديثه ممن سبقوه ، ليعـــلن انه رسول رب العالمين

واستأنف دعوته ، وأعلن للملأ رسالته ، فأعرضـــوا عنه وكذبوه ، لم يصدقوا ان الله أرسله اليهم ، ولما كانت شريعتهم تقضى بقتل الانبياء الكذبة ، هجموا عليه ليمسكوه ولكنه كعادته أفلت من أيديهم ومضى ، وتركهم فى حيرة ذاهلين ..

سار عيسى يدثره حزن عميق ، لم يبق أمامه الا مغادرة أورشليم فأعداؤه يطلبونه ، ولكن الى أين يتوجه؟ فى الجليل رفضوه ، وفى الناصرة رفضوه ، وفى اليهودية رفضوه ، وفى السامرة رفضوه ، لم يبق أمامه الا أن يلوذ بالبرية ، أن ينتهى الى ما انتهى اليه يحيى أن ينطلق صوب الاردن حيث بشر يحيى باقتراب ملكوت الله

خرج عيسى يحس غصة ، وفى صـــدره جمرة ، وفى مقلتيه دموع ، وفى فؤاده حزن عميق ، وابتعد عن أورشليم رويدا رويدا ، حتى ابتلعه الليل السرمد الطويل

— ٣٩ —

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم »

(قرآن كريم)

سحاب ثقيل فى السماء يتلبد ويزداد قتـــاما ، فيدثر الاردن ظلام ، وهو هناك فى البرية يعلم تلاميذه ، ويعظ

الذين يدفعهم الشوق الى الحج اليـــه ، فيصـــغون الى حكمته ، وتتفتح قلوبهم لها ، يؤمنون حينا ، حتى اذا عادوا الى دورهم انقشع سحر بيانه ، وغمرتهم حياتهم الثقيلة ، وجرفتهم فى تيارها ..

وهطلت الامطار غزيرة ، وهبت الرياح عاتية ، كان الوقت شتاء ، وسرعان ما اصبحت السماء صحوا وبزغت شمسها أما سحاب دعوته فلم ينقشع ، كان يتكاثف ويتجمع ، ليحجب نور الحق ان يحصحص ويتألق

وجاء رسول من مرثا وأختها مريم المجدلية ، يقول له :

ــ هو ذا الذى تحبه مريض ..

علم عيسى أن لعازر سقط مريضا ، فدعا تلاميـــذه ، وقال لهم :

ــ لنخرج الى اليهودية

فقال له تلاميذه فى فزع :

ــ اليهود يطلبون ان يرجموك

وخشى التلاميذ ان يخرجوا ، فقال لهم :

ــ لعاذر حبيبنا قد نام ، وانى أذهب لأوقظه

فقال له تلاميذه فى بساطة :

ــ أن كان قد نام فهو يستيقظ ..

لم يفهموه ، وما فهموه قبل ذلك ، قال لهم ان لعازر رقد رقدة الموت ، وانه ذاهب ليحييه ، وهم يحسبون انه يتحدث عن رقدة النوم فقال لهم :

ــ لعازر مات .. لنذهب اليه ..

نظر بعضهم الى بعض ، كانوا يخشون الخـــروج من البرية ، فاليهود يطلبونهم .. وصمتوا قليلا ، فقام توما يقطع ذلك السكوت :

ــ لنذهب لنموت معه

وخرجوا الى اليهودية ، فجاءه الفريسيون يسألونه عن

الزواج ليحرجوه ، وينفضوا عنــــه هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون به ، قالوا :

ـ هل يحل للرجل ان يطلق امراته لأى سبب ؟

ـ خلقهما الله ذكرا وانثى ، وقال : يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويصبح الاثنان جسدا واحدا ، لم يعودا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذى جمعــــه الله لا يفرقه انسان

كان ذلك يخالف شريعة موسى ، فقال الفريسيون :

ـ فلماذا أوصى موسى ان تطلق بكتاب طلاق ؟

ـ أذن لكم موسى ان تطلقوا نساءكم لقساوة قلوبكم . وأقول لكم : ان من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، ومن يتزوج من مطلقة يزنى

ظهر الدهش فى وجوه تلاميذه ، فما يقرره الســــاعة لا يطاق .. فمن ذا الذى يقدم على زواج وهو لا يدرى أيوفق فيه أم يحالفه الاخفاق ، ثم يقال له ، لا تترك زوجتك الا بسبب الزنا ، قد يحل الشقاق والنفرة بينه وبين تلك الزوجة ، أيعيش فى جحيم الحياة ؟ وقد تسقط فريســة لمرض عضال فماذا يفعل ؟ فقالوا له مستنكرين :

ـ ان كان هذا أمر الرجل مع المرأة ، فخير للمرء الا يتزوج ..

فقال لهم شارحا رأيه :

ـ لا يقبل الجميع هذا الكلام ، بل الذين اعطى لهم . يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون امهاتهم ، ويوجـــد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات ، من استطاع ان يقبـــــل فليقبل ..

وفيما هو يتحدث الى حوارييه ، اقبل عليـــــه اولاد يلتمسون منه البركة ، فانتهرهم التلاميذ ، فقال لهم :

ـ دعوا الاولاد يأتون الى ، ولا تمنعوهم ، لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات ..

وانطلق فى رحلته الدائمة ، الى بيت عنيـــا ، بأرباض أورشليم ، حيث دار حبيبه لعازر .. والى تلك الـــدار التى يتفيأ فيها ظلال الراحة والامن ، وفيما هو فى طريقه اذ قابله رجل غنى ، فدنا منه ، وقال له :

ـ أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمـــل لتكون لى الحياة الابدية ؟

فقال له عيسى :

ـ لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس احد صالحا الا واحــد ، وهو الله .. أن أردت الحياة الابدية فأحفظ الوصايا ..

ـ أية وصايا ؟ ..

ـ لا تقتل .. لا تزن .. لا تسرق .. لا تشهد الزور .. اكرم أباك وأمك . وأحب قريبك كنفسك

ـ هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فماذا يعوزنى بعد ؟

ـ أن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك ، واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى ..

أطرق الرجل ، وعلاه وجوم ، فأمواله كثيرة ممدودة ، وأنه لعزيز عليه ان ينفق كل ماله فى سبيل الله ، فانسـل مطأطىء الرأس حزينا ..

فقال عيسى لتلاميذه :

ـ عسير أن يدخل غنى ملكوت السموات ، ان مرور جمل من سم الخياط ، أيسر من أن يدخل غنى ملكوت السموات ..

وانطلقوا حتى لاحت لهم قمة جبل الزيتون، حيث رقد خلفها بيت لعازر ، وذهب الرسول الى مـــرثا وأخبرها أن عيسى قادم ،فتركت المعزيات والمعزين الذين جاءوا للعزاء فقد مات أخوها منذ اربعة ايام ، وذهبت لاستقبال النبى ،

وبقيت مريم المجدلية فى البيت ، فما بلغها نبأ وصوله .
قابلته مرثا ، وقالت له :
ـ لو كنت ههنا لما مات أخى
فقال لها فى هدوء :
ـ سيقوم أخوك ..
فقالت فى حزن :
ـ أعلم انه سيقوم فى اليوم الآخر
وذهبت الى أختها ، وأسرت لها أن عيسى رسول الله قد حضر ، وهو يدعوها ، فما ان مس اسمه اذنيها حتى هبت تهرول اليه . فحسب من كانوا فى الدار انها منطلقة الى القبر ، تبكى هناك ، فخرجوا فى أعقابها
قابلته مريم ، وقالت له :
ـ لو كنت ههنا لما مات أخى ..
وانهمرت دموعها على خديها ، فأثرت فيه دموعها ، فاضطرب شفقة وقال :
ـ أين وضعتموه ؟ !
ـ تعال وانظر ..

وعند القبر تجمع اليهود الذين خرجوا خلف مريم ، ونظر عيسى ، فجرت دموعه الغالية ، فهمسوا :
ـ أنظروا ، كيف كان يحبه ..
رنا الى القبر مدة ، كان كهفا عليه حجر ، ثم قال :
ـ ارفعوا الحجر
فهرعت اليه مرثا منزعجة ، وقالت :
ـ له اربعة ايام
كانت تخشى أن تفوح رائحته ، فقال لها :
ـ ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله ؟ ..

فرفعوا الحجر ، ورفع عينيه الى السماء ، وقال فى حرارة :

ـ الهى لك الشكر على ما منحتنى ، ابتهـــل اليك ان تستجيب دعائى ، ليؤمنوا انك أرسلتنى ..

وصرخ صرخة عظيمة :

ـ هلم اخرج ..

واذا لعازر يخرج ملفوفا فى أكفانه ، والناس فى دهش وذهول ، فقال :

ـ فكوه ..!

فأسرعت مرثا ومريم الى اخيهما تفكان اربطتـــه فى انفعال ، والدموع تغسل الوجوه ، وذهب فريق اليـــه خاضعا يظهر ايمانه ، واستكبر فريق ، وأبى أن يصدق ذلك الذى أيده الله بالمعجزات

وذهب الذين كفروا الى الفريسيين ، يخبرونهم بما رأوا ، لعل عندهم له تأويلا ، فقالوا لهم ان هو الا سحر مبين ، وصدورهم ضيقة من الغيظ ، وذاع امر احيـــاء لعازر ، فانطلق الناس الى بيت عنيا يعلنون ايمانهم برسول رب العالمين ..

وحقد عليه الفريسيون ، وافزعهم انشقاق الناس فى أمره ، فذهبوا الى قيافا رئيس الكهنة يشكون اليــــه الفتنة الكبرى ، فأطرق قليلا ، ثم قال :

ـ خير لنا ان يموت واحد ، من ان تهلك الامة كلها

حرضهم على قتله ، لينقذ الامة من دعواه التى فرقت بين المرء واخيه وامه وأبيه ، فلو أنهم خلوا بينه وبـــين الناس ، لانقسموا الى فريقين يتجالـــدون ويقتتلون ، ولكانت ثورة أهلية

وعلم عيسى بما بيته الفريسيون له بليل ، علم ان قيافا أحل لهم دمه وانهم يتربصون به الدوائر ، فخرج من بيت عنيا يترقب ، وذهب الى افرايم ينتظر حلول الفصح بعيدا عن الانظار ، حتى اذا وافى العيد ، خرج الى أورشليم ،

يهاجم الفريسيين وهو آمن من مكرهم ، فلن يستطيعوا أن يقتلوه بين الحجيج ، خشية ثورة الجماهير ، فالناس وان لم يؤمنوا به ، ويعطفون عليه، ويصغون اليه، ولا يجدون فى دعواه ما يوجب اهدار دمه ، انه يشرح لهم الناموس شرحا أخاذا جذابا ، ويضرب لهم امثالا تستهويهم ، وما أشد اعجاب الناس بالحكمة ، وان لم يفهموا مغاليقها !

— ٤٠ —

« وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله
من قبل ، فأمكن منهم ، والله عليم حكيم »
(قرآن كريم)

بحثوا عنه فلم يجدوه ، فضاقت الدنيا فى وجوههم، ونزل بهم هم ثقيل ، لن يعرفوا طعم الراحة ، ما دام يسعى على الأرض ، ينفث فى الناس دعوته التى تقوض سلطانهم ، ولم يقدروا أن يداروا عداوتهم فأعلنوا أنهم يطلبونه ، وأصدروا أمرا بتحريض من يعرف مكمنه أن يرشد اليه ..

وبدأت قوافل الحجاج تفد الى أورشليم من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى ورومية واليونان ، ليطهروا أنفسهم تأهبا للفصح ومن افرايم شاهد عيسى جموع الحجاج مخترقة البرية الى البيت المقدس

واقترب العيد فرأى ان يذهب الى بيت عنيا ، الى بيت لعازر حيث الدعة والهدوء ، ليستجم قبل أن يدخل أورشليم للكفاح المرير

وخرج ومعه حواريوه ، وانطلقوا فى حذر ، حتى اذا دخلوا بيت لعازر راحت مرثا تعد وليمة فاخرة للضيوف، كانت حريصة على اكرام النازلين عندها ، بتقديم الوان

من الطعام وصنوف ، اما مريم فما عادت تحفل بالطعام وبالشراب ، شفت روحها ، فاهتمت بغذاء الروح

رأت عيسى قد اتكأ مع المتكئين ، فأحضرت قارورة ناردين خالص ، ودخلت وأكبت على رجليه ، وراحت تدهن قدميه بالطيب ، وتمسحهما بشعـــرها ، فعبق البيت بالروائح الذكية النفاذة ، والتفت الحواريون الى مريم وفى عيونهم شيء من الانكار ، فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، لا أن تمسح بشعرها قدميه ، ورأى يهوذا الاسخريوطى : وكان خازن الجماعة ، ان فى اهراق ذلك الطيب النـــادر تبذيرا ، فقال :

ــ لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمـــائة دينار ، انفقناها على الفقراء

نظرت اليه مريم نظرة انكار ، وبان فى وجهها ضيق ، وساد المكان وجوم ، ولمح عيسى ما فى وجه المجـدلية من انفعال ، فقال :

ــ دعوها ، لماذا تتعبونها ، لقد احسنت الى ، الفقراء معكم فى كل حين ، اما انا فلست معكم فى كل حين

وسكنت النفوس الا نفس يهـوذا ، رأى فى قول عيسى مجاملة لامرأة على حساب تعاليمه ، فهو يدعو الناس الى التقشف والزهد والخروج عن أموالهم لله طيبة نفوسهم ، ويدع امرأة تسكب الطيب على قدميه ،دون أن ينهاها عن ذلك التبذير ، ماذا عليه لو أرشدها الى مافيه خيرها وخير المساكين ؟ ..

واستولى الفضب على يهوذا واستبـــد به ، وجيء بالطعام ، وبدءوا يأكلون ، وغضب يهوذا يأكله ، وما انتهى الطعام حتى كان قلب يهوذا قد تغير على عيسى ، وان حاول أن يوهم نفسه ان ما يحسه ان هو الا غضب وقتى سرعان ما ينقشع ..

وهمس الناس فى أورشليم ان عيسى عاد الى بيت عنيا، الى لعازر الذى أحياه من الموت ، فدفع حب الاستطلاع الناس الى الذهاب الى هناك ليروا الشـــاهد الحى على عظمة النبى الجديد ، فانسلوا بين التلال ، وقابلوا عيسى، وآمنوا به ، وبلغ الفريسيون خروج الجماهير الى بيت عنيا لرؤية لعازر القائم من الاموات ، فتجددت مخاوفهم، فذلك الرجل يفتن الناس ، فاجتمعوا الى قيــافا رئيس الكهنة يتشاورون ، ولما كان الاغتيال ســـلاح المغلوبين ، قرروا أن يقتلوه

كان قيافا رئيس الكهنة عاجزا عن أن يقفَ فى وجه مناوئيه ، كان كل همه ان يرضى السلطة الزمنية ، وان يسير فى ركابها ، يشاركها آثامها وخطاياها ، ويقــاسمها مغانمها وأسلابها ، فاذا لاح فى الافق من يعكر عليه صفو الليالى ، أفتى بقتله ، وما أيسر ان يشير الجبناء باغتيال مناوئيهم ..

واجتمع الناس فى الهيكل يصلون : « اسمع يا اسرائيل، الهنا اله واحد »

وما قضيت الصلاةحتى انتشروا فى الاروقة يتهامسون، لم يرفعوا اصواتهم ، كان حديثهم عن عيسى الذى أقام لعازر من الاموات ، وكثر الهمس ، وسرى بين الحجــاج أن عيسى هو المسيح ، وراح الناس يتساءلون :

ــ أيقدم الى الهيكل فى العيد ؟

وانتشر الفريسيون والصدوقيون يتجسسون ، وحمل الهواء الى مسامعهم همس الناس ، فتحركت مخاوفهم ؛ اذا حضر أصغت اليه الجموع ، وعجزوا عن أن يمسوه بسوء ، فمن يدرى ، قد تهب فى أورشليم الثورة اذا قبضوا عليه وقتلوه ..

وانتشر فى صدورهم قلق ، وانتابتهم حيرة ، أسقط فى

أيديهم فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون ؟ وراحوا يتساءلون:
ـ أيقدم الى الهيكل فى العيد ؟

وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ، ناحل الجسم ، به انحناءة خفيفة ، أسود العينين . تغطى وجهه لحية سوداء صغيرة ، من يراه يحسبه عيسى ، ولكنه لم يكن عيسى ، بل كان يهوذا الاسخريوطى ، وفى طريقه الى بيت قيافا ..

كان كل شيء ظلاما ، الطريق الذى يضرب فيه ، وقلبه الذى يخفق بالغضب الاعمى البغيض ، وصدره الذى كان مأوى لخفافيش احساساته المقيتة ، ساءه ان يتنكر عيسى لتعاليمه ، فأصغى لشيطانه ووهب له نفسه ، وهو يحسب انه ثار لدين الله ، وانه يصيخ الى ضميره

واستأذن فى الدخـــول ، فأذنوا له ، فاذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة ، وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث وهم يصغون اليه ، فى وجوههم دهش وحيرة ، لا يدرون أيصدقون ما يسمعـــون أم يتلقونه فى حذر؟ جاء يهوذا الاسخريوطى، الحوارى الصديق ،يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه

— ٤١ —

« واذ كففت بنى اسرآئيل عنـك ، اذ
جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروآ منهم
ان هذا الا سحر مبين »

(قرآن كريم)

تنفست المدينة المقدسة ، ودبت فيها الحياة ، وخـرج الحجاج الى الاسواق يشترون العطور والهدايا ، وانتشر الجنود الرومانيون فى طرقاتها الضيقة ، وراح ســكان

أورشليم يجولون عند مداخل المدينة ، ويشاهدون وفود حجاج الاقاليم ، كانوا يقبلون فرحين مستبشرين ،يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء والتهليل ، واذا ما لاحت لهم قباب الهيكل ، راحوا يسبحون :

أحمدوا الرب لانه صالح   لان الى الابد رحمته
احمدوا اله الآلهة   لان الى الابد رحمته
احمدوا رب الارباب   لان الى الابد رحمته

وتدفقت المواكب تصب فى أورشليم ، مبتهجة بذكرى تخليص بنى اسرائيل من عذاب فرعون المهين ، وأقبل ركب الجليل ، الرجال بشعورهم الطويلة يهزون اعطافهم فرحا وهم سائرون ، كانوا فى تقدمهم يرقصون ، والنساء محجبات على الخيل والبغال والحمير ، والاولاد يهرولون، وكانت مريم بينهم ، فهى تحج الى الهيكل فى كل عيد ؛ أقبلت يداعبها أمل ملاقاة ابنها فى أورشليم

وعبقت المدينة بالبخور ، ولكن ماكانت رائحته خالصة، بل كانت مشوبة بروائح العرق وروث الخيل والبغال والحمير والاغنام التى ماج بها الهيكل ، فكانت رائحة تضيق الانفاس ، وتقبض الصدور ..

وراح الحجاج يتهامسون ، يتحدثون عن عيسى الذى أحيا لعازر ، وقال الذين ذهبوا اليه فى جنح الليل انه اليوم الى المعبد قادم ، فخرج الحجاج يرصدون طريقه يدفعهم حب الاستطلاع ، كانوا جميعا يبغون أن يروا ذلك الذى كثر الحديث عن آياته ، خرجوا وفى أيديهم سعف النخيل ، وأغصان الليمون ، وكان اليوم احد

وأقبل ركب عيسى ، كان راكبا جحشا وحوله حواريوه، كان مهيبا يشع من وجهه نور الايمان واليقين ، فلما رآه الناس استولت عليهم الحماسة ، فراحوا يهزون فى أيديهم الاغصان وسعف النخيل وهرع اليه بعضهم يفرشون

طريقه بثيابهم ، وارتفعت أصواتهم بتسابيح اقتبسوها من مزامير داود :

ـ أوصنا (خلصنا) ، مبارك الاتى باسم الرب ، أوصنا فى الاعالى ..

وانساب الركب تحوطه الجمـــوع الهاتفة فى طرقات أورشليم ، فخف الحجاج ينظرون ، ويتساءلون :

ـ من هذا ؟ ..

ـ عيسى النبى الذى من ناصرة الجليل

رأى الفريسيون استقبال الناس له ، فأحسوا كمدا ، كانوا يدبرون قتله ، فاذا بالجموع تلتف به ، فلن يستطيعوا تنفيذ خطتهم الا بعد انصراف الحجـاج المفتونين به الى ولاياتهم ، وانطلق الركب والفريسيون يرقبـــونه ، ونار الحقد تأكل أفئدتهم ، وغمغموا فى يأس :

ـ هو ذا العالم قد ذهب وراءه

وهبط عيسى عن جحشه ، وتقدم الى الهيكل ، فألفى الصيارفة وتجار الحمام والعجول والاغنـــام قد عادوا لاحتلال أروقته ، فثار غضبه .. طردهم قبل ذلك مرة ، وطهر الهيكل من أدرانهم ، واذا بهم يعودون الى ما كانوا فيه ، كان همهم أن يبيعوا الذبائح للحجاج ، وان يحققوا أرباحهم ، اما نظافة الهيكل فلم تكن موضوعا ذا بال

وفى ثورته قلب موائد الصيارفة ، وكراسى باعة الحمام، واخرج العجول والاغنام وهو يصيح :

ـ مكتوب : بيتى بيت الصلاة ، فجعلتموه مغارة لصوص

حتى فى ثورته لم ينس طبعه ، لم يكلمهم بحـديث من عنده ، بل استشهد بما هو مكتوب فى ناموسهم ، كانت كل أحاديثه اقتباسا ، ومع ذلك كان لها فى نفوس سامعيه وقع عجيب ..

ووقف يعظ الناس ، وأصـــوات الاطفال تتجاوب فى الهيكل :

ـ أوصنا .. اوصنا

غاظ ذلك الترحيب رؤساء الكهنة والكتبةوالفريسيين، فقالوا له فى غضب :

ـ أما تسمع ما يقول هؤلاء ؟

كانوا يحرضونه على أن يزجـــرهم ، فمن هو حتى يخلصهم ؟! ولكن عيسى قال فى هدوء ، مقتبسا من المزامير:

ـ أما قرأتم قط : من أفواه الاطفال والرضع أعددت تسبيحا ..

كان ذلك اليوم نصرا ، وبدا كأنمـا انقشع ليل دعوته السرمد ، وفود تستقبله فى حماسة استقبـال الغـزاة الفاتحين ، وجموع تصغى اليه فى خشوع ، والفريسيون والكتبة والاعداء يصرفون الانياب غيظا . أشرقت شمس دعوته ، ولكن ما أقصر ذلك الشروق

كان الناس يعيرونه آذانهم وقلوبهم مغلقة ، هتـافات تنطلق من الحناجر والافئدة صامتة ، وحماسة تتهلل بها الوجوه ونفوسهم لا تنفعل لها ، كان ترحيبهم به ترحيب جماهير ، وما كان ترحيب ايمان ويقين

ولم يشأ الفريسيون ان ينقضى اليوم وهو يتألق فى نصره ، فراحوا يجادلونه ويحاورونه ، محاولين أن يشككوا فيه الجموع ، وكانت مناظرتهم له قاسية ،تقطر بالعداوة، ففطن عيسى الى ما تطويه صدورهم من خيانة ، فعزم على أن يخرج من أورشليم ، لا يقضى ليله بين جدرانها

وتقدم بعض الحجاج اليونانيين الى تلميذه فيلبس ، وقالوا له :

ـ ياسيد نريد أن نرى عيسى

فأمهلهم حتى يسأله ، وفى جنـح الليل انسل هــو

وحواريوه الى جبل الزيتون ، ليمضوا ليلهم بعيداً عن أعدائه وشانئيه ..

— ٤٢ —

« واذ قال الله يا عيسى، انى متوفيك،
ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا ،
وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا
الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم ، فأحكم
بينكم فيما كنتم فيه تختلفون »

(قرآن كريم)

على جبل الزيتون ، وتحت الاشجار نام الحواريون ، كان الليل هادئا ، والنجوم ساهرة ، والكون هاجعا غارقا فى الكرى ، وعيسى ساجداً يصلى لله ويدعوه ، وقام ونظر الى السماء وقد بللت عينيه الدموع ، واذا بجبريل يهبط اليه يبلغه وحى الله :

— يا عيسى ، انى متوفيك ، ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ..

دثره حزن عميق ، كان يبغى أن يتم رسالة ربه ، واذا بالوحى يخبره أن أيامه على الارض انقضت ، لم يصدقه الناس ولم يؤمنوا به ، وهو ذاهب الى ربه ، تاركا للناس حوارييه ، انهم لم يفهموه يوما ، فكيف يدعون الناس الى الله بعد موته ؟ وفكر فى تلاميذه ، فزاد حزنه .. كان أدرى بهم من انفسهم ، سيدب بينهم الشقاق ، ويحل الخصام، وتضيع بينهم تعاليمه . لو مد الله فى أجـــله لثبت أركان دعوته ، ولتركها واضحة لا يكتنفها غمـوض ، كانت مدة

رسالته قصيرة ، لم تكن كافية ليغرس فى الناس أصول ما يدعو اليه ، حتى حواريوه لم يتمكنوا من أن يعوا كل ما يقول ..

وفاض ضوء النهار على جبل الزيتون ، وعيسى فى اطراقه الحزين وجاء اليه فيلبس وأندراوس وبعض حوارييه ، وقالوا له :

ـ يطلب الحجاج اليونانيون ان يروك

فقال عيسى فى أسى :

ـ أتت الساعة التى يتمجد فيها ابن الانسان ، الحق الحق أقول لكم : ان لم تقع حبة فى الارض وتمت ، فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير ، اضطربت نفسى ، ماذا أقول ؟ الهى نجنى من هذه الساعة

وصمت قليلا ثم قال :

ـ ان ارتفعت عن الارض أجذب الى الجميع

فطن تلاميذه الى أنه ينعى اليهم نفسه ، فاضطربوا وقالوا :

ـ سمعنا من الناموس ان المسيح يبقى الى الابد ،فكيف تقول : ينبغى أن يرفع ابن الانسان ؟ من هو ابن الانسان هذا ؟ ..

لم يجبهم ، بل قال :

ـ النور معكم زمانا يسيرا ، فسيروا مادام لكم نور ، لئلا يدركم الظلام ، من يسير فى الظلام لا يدرى الى أين يذهب ، مادام لكم النور آمنوا بالنور ، لتصيروا أبناء النور

وذهبوا الى أورشليم ، وكانت تموج بالحجاج ، ودخلوا الهيكل وقام عيسى يعظ الناس :

ـ كان لرجل ابنان ، فجاء الى الاول وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : لا اريد أن أذهب،ولكنه ندم وذهب . وجاء الى الثانى وقال له : يابنى اذهب اليوم

اعمل فى كرمى ، فقــال : هانذا ذاهب ، ولم يذهب فأى الاثنين نفذ ارادة الاب ؟

ـ الاول ..

ـ الحق أقول لكم ان الخطائين والزوانى يسبقونكم الى ملكوت الله ، لان يحيى جاءكم بالحق فلم تؤمنوا به ، واما الخطاءون والزوانى فقد آمنوا به . وانتم بعد أن رأيتم الحق لم تؤمنوا به

وساد صمت قليل ، ثم قال :

ـ اسمعوا مثلا آخر .. غرس رب بيت كرما ، وأحاطه بسياج ، وحفر فيه معصرة ، وبنى برجا ، وسـلمه الى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الحصاد ارسل عبيـده الى الكرامين ليأخذ ثماره ، فأخذ الكرامون عبيده ، جلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ، ورجموا بعضا .. فأرسل عبيدا آخرين ، ففعلوا بهم كذلك ، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ ..

ـ يهلكهم ويسلم الكرم الى كرامين آخرين ، يعطونه الحصاد فى أوقاته

فاستشهد بما جاء فى المزامير :

ـ اما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الـذى رفضـه البناءون صار حجر الزاوية ، لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل ثماره (1)

وضاق الفريسيون به ذرعا ، فالجموع تتكاثف حوله ، وتهتم بأمره ، وهم يبغون أن يقبضوا عليه ، ويتخلصوا منه ، ولكنهم يخشون الجماهير التى تنظر اليه نظرتهم الى نبى ..

(1) جاء فى القرآن : « لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون » . و « كم تركوا من جنات وعيون وزرع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين »

واستمر عيسى فى وعظه وضربه الامثال :

ـ مثل ملكوت السموات كمثل ملك أقام عرسا لابنه ، وأرسل عبيده يدعون المدعوين الى العرس ، فأبوا أن يأتوا، فبعث اليهم عبيدا آخرين ، وقال لهم : قولوا للمدعوين انى أعددت غدائى ، وذبحت العجول الحنيذة ، وجهزت كل شيء ، تعالوا الى العرس ، فأبوا وذهب واحد الى حقله ، وآخر الى تجارته ، وسب الباقون عبيده وقتلوهم ، فلما سمع الملك بذلك غضب وأرسل جنـــوده وقتل أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : العرس قائم، وليس هناك مدعوون ، اذهبوا الى مفارق الطرق ، وادعوا كل من تجدونه . فخـرج العبيـــد وجمعـوا الاشرار والصالحين ، فلما دخل الملك لينظر ، رأى رجلا فى غـير لباس العرس ، فقال له : ياصاحب ، كيف دخلت الى هنا ؟ فسكت ، فقال الملك للخدام : شدوا وثاقه ، واطرحوه فى الظلمة . هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، كثـــيرون يدعون ، وقليلون هم الفائزون

كان يذكر لهم ان من يأتى ملكوت الله دون أن يرتدى ثياب التقى يلقى فى نار جنهم ، وظل الناس يتطلعون اليه ينتظرون منه المزيد ، فضاق صدر الفريسيين ، فابتعدوا يتناجون ويتشاورون ، يفكرون فى أن يحرجوه ، وبعـد تفكير وتدبير ، أرسلوا اليه أحد اعوان هيرودس فقال له :

ـ نعلم انك صادق.. وأنك تهدى الى طريق الله بالحق، لا تخشى فى الله لومة لائم ، فقل لنـــا : أيجوز ان نعطى جزية لقيصر ؟ ..

ساد المكان صمت كصمت الرموس ، وأرهفت الاذان ، القى أعداؤه حبائلهم ينتظرون أن يسقط فيها ، قال :

ـ لماذا تختبروننى يا مراءون ؟!

والتفت الى الملأ وقال :

ـ أروني ينارا ••
فقدموه له ، فتناوله وقال :
ـ لمن هذه الصورة والكتابة ؟
ـ لقيصر ••
ـ اعطوا اذا مالقيصر لقيصر ، وما لله لله
أصابهم غم ، كانوا يعلقون آمالا على هذا السؤال ، فجميع اليهود يكرهون ان يؤدوا جزية للوثنيين •• فذلك دليل على أنهم اصبحوا أذلة ولم يعودوا شعب الله المختار ، كان اعداؤه يحسبون انه سيحرم دفع الجزية للرومان ، تملقا للجماهير ، فيرفعون الى الحكام الاقوياء نبأ ثورته على السلطان ، ويوقعون بينه وبين هيرودس العداوة والبغضاء ، وهيرودس سفاك الدماء ، لا يغفر لمن يهين صديقه قيصر العظيم •• ولكن اقراره بدفع الجزية نقض تفكيرهم •• وما اقرها التماسا للعافية ، فما اقصر ايامه على الارض ، ولكن لانه لم يرسل مشرعا ، ينظم قوانين التوريث ، ويحدد العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، ويسن القوانين ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت الله ، الذى ستكون فيه شريعة الله هى القانون السماوى السائد فى دنيا الناس

ـ ٤٣ ـ

« فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وآن كثيرا من الناس لفاسقون »
(قرآن كريم)

الهيكل فى فحمة الليل يتلألأ بالانوار ، فيبدو كعمود من نور هابط من السماء ، وعيسى وحواريوه على سفح

جبل الزيتون يتمددون ، حتى اذا غفلت أعين المـــدينة ، ومشى الكرى الى جفونها ، انسلوا فى خفــــة الى بيت نيقوديموس ، فهو يعد لهم وليمة سرا قبل حلول العيد

كان نيقوديموس ثالث اعضاء السنهدرين ، سمع عيسى لما وعظ في الهيكل أول مرة ، فتفتح له قلبه ، فذهب اليه متسترا بالليل وقابله ، وأصغى اليه ، ولم ينصرف من عنده حتى صدقه وآمن به . ولكنه لم يعلن ايمانه على الملأ ، بل كتمه فى صدره خشية الناس

وكان عيسى ، كلما وفد الى أورشليم ، يذهب لمقابلته فى سواد الليل ، يتناجيان ويتحدثان فى الدين ، حتى اذا رق النقاب الاسود ، وفضحت الشمس أنوار السرج ، جلس نيقوديموس الى أعضاء السنهدرين يتشـــاورون فيمـــا يفعلون ، ليتخلصوا من ذلك الذى جاء يستل منهم النفوذ ، فاذا ما احكموا خطتهم اشار عليهم بما يدع للرســـول فرصة الافلات مما يدبرون

أنار الضوء المنبعث من الهيكل سفح الجبـــل ، كان عيسى وسمعان ويوحنا ويعقوب ــ أحب تلاميذه الى قلبه ــ يتسامرون ، وكان الباقون يستلقون على العشب، يتطلعون الى السماء ، واستلقى يهوذا الأسخـــريوطى وحده ، بعيدا عن الجميع

انعكس على وجهه ما كان يجرى فى صدره . بان فيه قلق وحيرة واضطراب ، انه غريق لا يدرى مايفعـــل ، تتجاذبه تيارات ، تطفو به الى السطح حينا ، ثم تغوص به الى القرار السحيق

الافكار تتزاحم فى رأسه ، والاحساسات تتدفق فوارة فى جوفه والشك يعذبه ويضنيه حتى ليكاد يقف مفزوعا يصرخ فى الفضاء ، معلنا الآراء العنيفة التى تأكل صـــدره وتطحنه وتقسو عليه ، فيئن أنينا مكتوما يزيد ثورة نفسه،

ويمزق قلبه كسكين

راح يفكر في ذلك الجالس بين تلاميذه في هدوء ،وأخذ يسأل نفسه : من هو ؟ أجاء لسعادتنا ، ليخلص أنفسنا من آلامها ، أم جاء ليعذبنا ويضني أرواحنا ، ويلقى في صدورنا بذور الشك القاسية ؟ أجاء يخرج بني اسرائيل من الظلام الى النور ، ثم يقودنا نحن ــ تلاميذه الذين ضحينا بكل شيء في سبيله ــ من النور الى الظلام البغيض ؟ من هو ؟ لست أدري ، فالقلق يحيرني ، والشك يكاد يقتلني ، أهو المسيح ؟ فان كان المسيح فأين ذلك الملك الدائم الى الابد الذي يأتي به المسيح ، هاهي ذي الايام تمر ، ولا امل ولا بصيص من نور ، انه يلقي المواعظ ويضرب الامثال ، والجموع تحشر زمرا ، ثم لا شيء غير الاصغاء ثم الانصراف ، دون أن ينفذ الى القلوب الايمان والتصديق ! اذا كان هو المسيح فأين ملكه ؟ سألوه عن دفع الجزية لقيصر فأقر دفعها ، فمتى يبدأ مناواة السلطان ، ويسود سلطانه على الجميع ؟ انتظر .. انتظر .. انتظر . عيل صبري ولم يعد في قوس الصبر منزع ، تبددت آلامنا سدى ، وذهبت آمالنا شعاعا ..

انتظر .. انتظر .. انتظر ، أما لهذا الانتظار من آخر؟ الوثنيون يسخرون بالله وهو صامت . لماذا لا ينزل عليهم كسفا من السماء ؟ لماذا لا يقسو في مهاجمته الا على الكتبة والفريسيين ، لماذا يدعنا في حيرة ؟ يقول انه ما جاء لينقض الناموس ، بل جاء ليكمله ، ثم يقول مرة أخرى أن الخمر الجديدة لا توضع في زقاق عتيقة .. لست أدري ماذا يبغي بنا ، اني حائر .. قلق

اذا اتفقت مواعظه مع الكتبة والفريسيين اطمأن قلبي ، واذا عارضت آراؤه آراءهم فيا للقلق الذي يساورني ، ماذا دهاني ، تقوض عش الامل الذي بنيته في صدري ،

فصار جوفى خرابا ينعق فيه البوم

وأراد ان يتخلص من ذلك الكابوس ، فرفع رأسه ونظر ، فخيل اليه أن الاضواء تخفت ، وان الظلام يمد رداءه ، فيحجب كل شيء ، حتى الهيكل السابح فى النور، بدا لعينيه سوادا ، ففزع ، فقد رانت على عينيه دكنة قلبه ..

وحاول ان يطرد الافكار التى كانت تلح عليه فى عناد ، يريد ان يركن الى الهدوء ، ولكن هيهات ، نجوم السماء توحى اليه بأفكار ، وزئير الرياح ينقلب فى أذنيه اعتراضات. تآمر الكون عليه ، وراح يشد ازر نفسه الساخطة ، خيل اليه ان الريح تصرخ : فليأت ملكوتك ، فليأت ملكوتك ، فأخذ يفكر فى ذلك الملكوت برغمه ، أين ذلك الملكوت ؟ومتى يأتى ؟ نبتهل الى الله فى كل صلاة أن يبعثه . ولم يستجب الله الدعاء ، لماذا لا يحدثنا عن ذلك الملكوت ؟ ان كل ماقاله عن ذلك الملكوت انه كلام الله ، لماذا يتركنا فى حيرة ؟ اننى قلق .. اننى حائر ، الشك يخزنى وخزا ما أقساه !

ورنت فى أذنيه أصوات : ينبغى أن يرفع ابن الانسان، من هو ابن الانسان هذا ؟ لم يحر جوابا ، بل تحدث عن النور والظلام ، والسائرين فى النور والظلام ، وتركنا حيارى . من هو ابن الانسان ؟ من هو ابن الانسان ؟ لا أدرى ..لا أدرى الا أن القلق يقتلنى ، والشك يخز قلبى بأصابعه الباردة ..

. اننى غريق أستسلم لليأس، ولكن لماذا ذلك الاستسلام؟ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت انا يهوذا الاسخريوطى حوارى الرسول ، الذى أوحى لله اليه أن آمن بى وبرسولى ؟فعلت فعلة منكرة ، اتفقت مع أعدائه على أن أسلمه ، انا يهوذا الاسخريوطى يسلم نبيه ؟ لا . لن يكون ذلك ، لن يسلم يهوذا الاسخريوطى نبيه

ما هذا القلق ؟ ما هذه الحيرة ؟ يا للشك القاسي المرير، اريد ان اهدأ . . ان استريح ، راسي يكاد ان ينفجر ، قلبي يتمزق ، أنفاسي تضيق ، ليتني أموت وأستريح

وقام وركع ورفع وجهه الى السماء ، وانهمرت دموعه ، واحس انها تنبع من فؤاده ، وقال في حرارة صادقة :

ـ ابانا الذي في السماء ، لماذا اخترتني لهذه التجربة ، ابتهل اليك ان تنير طريقي ، اني اخبط في الظلام ، لا ادرى اين اسير ، انى قلق . معذب . مضنى ، فأعد يارب الهدوء الى قلبي ، والصفاء الى نفسي ، واهدني سواء السبيل

يارب رحمتك ، فلئن لم ترحمني لاكونن من الهالكين ..

وخر ساجدا تمتزج دموعه بالتراب

ــ ٤٤ ــ

« يايها الناس آن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الارحام ما نشاء الى اجل مسمى »

(قرآن كريم)

الهيكل يموج بالجموع ، ووقف الناس حلقات يتحدثون، الصدوقيون فى ثيابهم الغالية ، وفى أصابعهم الخواتم، وعلى رءوسهم العمائم على هيئة اهرام ، وعلى شفاههم ابتسامات ساخرة ، كانوا يتحدثون عن هزيمة الفريسيين امام معلم الناصرة ، قال لهم : ادفعوا الجزية .. ماللقيصر لقيصر وما لله لله ، فلم يعترضوا ، لانهم لو اعترضوا عليه لفضحوا

انفسهم ، واعلنوا على الملأ عدم ولائهم للامبراطور ، ولم يعترضوا لان علماءهم يقولون : « قانون الدولة شريعة »، فلم يكن أمامهم الا تجرع الهزيمة صامتين

وراح الفريسيون يتحدثون ، فيبدون حيرتهم ، فهم لا يدرون من هو ، ولا من أين جاء ؟ كلما سألوه سؤالا ليحرجوه ، رد كيدهم الى نحورهم ،وأجابهم جوابا مفحما، فلا يملكون الا الصمت والحيرة .. انه يحفظ الناموس ، ويستشهد به ، وما تعلم فى مدارس الربيين ، فعلمه عجيب يحيرهم ، ولولا الكبرياء ، لاعترفوا ان ذلك العلم من عند الله رب العالمين ..

وتحدث الناس عنه فى خيبة أمل ، جاءت الفرصة ليكسب قلوبهم ولكنه تركها تفوت ، لو قال : لا يجوز ان تدفع جزية لقيصر ، لدوت حناجرهم فى الهيكل تهتف له، ولاقروا جميعا بزعامته ، انهم ابناء الله ، شعبه المختار ، فلا يليق أن يأتوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لو انه شق عصا الطاعة لايدوه ، فهم يريدون من يخلصهم من قوانين الرومان ، ويعيدهم الى ناموس الله ، ولكنه لم يفعل ، بل ثبت الخزى والعار ، أعطوا مالقيصر لقيصر ، أهذا قول يقوله رسول ؟ أكان موسى يقول ذلك لو وجه اليه نفس السؤال ؟ أين يهوذا الجليلى ، الذى انزل النسر الرومانى عن الهيكل ، ليقود ثورتهم ، من ذلك النبى الجليلى ، الذى يهادن أعداء البلاد ؟

تلفت الصدوقيون ارصادا لمقدمه ، كانوا يترقبون حضوره ، ليسخروا منه ومن الفريسيين،انه يؤمن بالبعث بعد الموت . ويشاركه فى ذلك الايمان الفريسيون ، ولكنهم ما كانوا يصدقون أن الاموات يحيون ، فما أشار الناموس الى ذلك الموضوع . أعدوا سؤالا يوجهونه اليه عن البعث، سؤالا يقطر سخرية وزراية ، سيجعلونه ومن آمن بهذا

الرأى من الفريسيين أضحوكة الجميع

واقبل عيسى ، فارتسمت الابتسامات فى وجوه الصدوقيين ، وتريثوا ، حتى اذا قام يدعو الناس ،وخفت الجموع اليه ، اقتربوا منه فى خيلاء ، وقالوا :

ـ قال موسى : ان مات امرؤ ولم يعقب ، تزوج اخوه امرأته ، لينجب لاخيه نسلا ، فاذا كان هناك سبعة اخوة، وتزوج الاول امرأة ومات عنها دون أن يعقب ، فتزوجها الثانى فمات دون أن يعقب ، فتزوجها الثالث فالرابع حتى تزوجت جميع الاخوة ثم ماتت ، فاذا قامت القيامة ، فمن من أزواجها السبعة تتزوج ؟ ..

لمعت عيون الصدوقيين سخرية ، وترقب الفريسيون قوله ، فيا طالما أفحمهم الصدوقيون بمثل هذه الاسئلة المعقدة ، فهى وان كانت تبدو سخيفة تافهة ، الا انها أسئلة قائمة تنتظر ردا ، وأرهفت الجماهير آذانها فى شغف ، وتطلعت اليه تنتظر قوله

لم يطرق ليفكر ، ولم تظهر فى وجهه الحيرة ، بل قال فى هدوء :

ـ تضلون ، لانكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله . فى الآخرة لا نزوجون ولا يتزوجون ، بل يهيمون كملائكة الله فى السماء ..

اما البعث ، أفما قرأتم ما قيل لكم على لسان الله القائل : انا اله ابراهيم ، واله اسحاق واله يعقوب ، ليس الله اله اموات بل اله أحياء

تذكر الناس ماقاله الله لموسى على الجبل : انا اله ابراهيم، واله اسحق ، واله يعقوب ، انه اله هؤلاء الانبياء الاحياء عنده ، هذا مكتوب فى الناموس وهذا دليل على الاخرة ، فاذا كانوا لم يفطنوا اليه ، فليس الذنب ذنب الناموس ، بل عيب عيونهم المغلقة

وفرح الفريسيون ، فها هو ذا يسوق الدليل الذى يؤيدهم من الناموس ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، حتى غطت أصوات الاعتراض المنبعثة من الصدوقيين الكافرين باليوم الآخر ..

ودنا فريسى منه وسأله :

ـ ما أعظم وصية فى الناموس ؟

ـ ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنا رب واحد . وحب الرب الهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك . هـــذه هى الوصية الاولى . والثانية هى : حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية اخرى أعظم من هاتين

ـ نطقت صدقا .. لان الله واحد لا آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ، ومن كل الفهم ، ومن كل النفس ، وكل القدرة . ومحبة الغير كالنفس هى أفضل من كل الذبائح والقرابين ..

فرنا عيسى الى الفريسى فى عطف ، وقال له :

ـ لست بعيدا عن ملكوت الله

ونظر الى الجمع وقال :

ـ بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء .

هاتان الوصيتان هما ركنا كل دين ، الدعوة الى الله وحده لا شريك له ، فما جاء رسول الا ليدعو قومه الى الله الواحد القهار ، لا يشرك معه الها آخر ، والدعوة الى المحبة والخير ، الى أن يحب المرء لاخيه مايحب لنفسه

انها الدعوة الخالدة ، دعوة نوح وابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى والنبيين ، ودعوة عيسى المسيح ، ودعوة من جاء يبشر به ، ويدعو فى صلاته أن تأتى أيامه ، أيام الملكوت المرتقب

وانصرف عيسى ، وجلس أمام خـزانة الصـــدقات

وحواريوه حوله ، واقبل الناس يلقون النقود ، فـراح الاغنياء يضعون فى زهو مبـالغ كبـيرة ، وجاءت امرأة فقيرة ، ووضعت فى هدوء فلسين ، فالتفت الى تلاميذه وقال :

ـ هذه الفقيرة القت اكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ، لان الجميع القوا من فضولهم ، أما هذه فقد ألقت من عوزها ، ألقت كل ما عندها

ـ ٤٥ ـ

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها ؟

قل انما علمها عند ربى »

(قرآن كريم)

انطلقوا صامتين ، وان كان كل منهم مشغولا بأفكاره ، عيسى حزين لتلك العداوة وذلك العناد البـادى من الفريسيين ، حاربوه فى اليهودية ، وحاربوه فى الجليل . حتى فى مدينة كفر ناحوم أخرجوه ، كانوا يتظاهرون أنهم على أستعداد ليصدقوه ، لو اتاهم بآية من الله ، لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء ابواب ، وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمون ، فقد كان كل ما يرمون اليه أن يشككوا الناس فيه

ذهب اليهم وهو يطمع فى أن يؤمنوا به ، قبل أن يتوفاه الله ولكنهم لجوا فى العداوة والنكران ، رفضوه وبالغـوا فى الرفض ، حتى تقطعت خيوط الامل فقام يصفعهم برأيه فيهم ، ويغلق خلفه الباب ، كان ثائرا كبركان ، حتى أن الجماهير حدقوا فيه مذهولين ، فما كان الذى ينفث تلك الحمم عيسى الوديع ، بل يحيى الثائر قام من الاموات

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته ، فيأخذون فى التفكير فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج لهجموا عليه وقتلوه ٠٠راح يصرخ فيهم : « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون» « ويل لكم ايها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس، وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة

وخرجوا مطرقين ، والتفت احد تلاميذه الى الهيكل، والشمس ترسل أشعتها اليه ، فتنعكس ذهبا وهاجا ٠٠ كان منظرا يملأ النفس روعة ، فأراد أن يسرى عن نبيه ، فقال له : « أنظر يا لهذه الحجارة وهذه الابنية ! »

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

ــ أترى هذه الابنية العظيمة ! ستنقض ، ولن يبقى حجر على حجر

وعض يهوذا على نواجذه ، ورفع يده الى شعره يجذبه فى حنق ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الايام مرارة ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ اذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه ، فقد ثار فى أجاء الى بنى اسرائيل بالامل ، أم جاءهم بالنقمة والعذاب؟ وجوههم والقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والقلق والحيرة

وراحوا يرقون جبل الزيتون ، وعلى سفحه جلسوا ، عيسى فى اطراقه الحزين والشمس فى الغروب ، والشفق احمر ، ولكن كل شيء على عينيه ليل سرمد ، انقضت أيام رسالته ، وما أقل الذين آمنوا به ، وما أندر من فهموه

ودنا منه بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس ، وسألوه عن القيامة ومتى هى ؟ فقال لهم :

ــ اذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب ، فلا ترتاعوا ،

فهذا لابد أن يكون ، ولكن ذلك ليس المنتهى ، فستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتقع زلازل ومجاعات واضطرابات • هذه هى مبدأ الاوجاع

انظروا الى نفوسكم ؛ سيسلمونكم الى المجالس ، وتجلدون فى المجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من اجل شهادة لهم ، وينبغى ان يكرز (يعظ) ببشارة الملكوت فى جميع الامم •• فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به ، بل تكلموا بما يوحى اليكم ، لانكم لستم المتكلمين بل الروح القدس••

سيسلم الاخ أخاه الى الموت ، والاب ولده ، ويقوم الابناء على آبائهم يقتلونهم ، وسيكرهونكم من اجلى ، ولكن من يصبر فهذا هو الفائز ••

فمتى نظرتم رجفة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ، فليهرب الذين فى اليهودية الى الجبال ، ولا ينزل من على السطح لياخذ من بيته شيئا ، ولا يرجع من فى الحقل ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الايام

ان قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا ، او هو ذا هناك فلا تصدقوه ، فسيقوم مسيحون كذابون ، وانبياء كذابون ، يأتون بآيات وعجائب ليضلوا المختارين ايضا ، لو أمكن فانتظروا . ها أنا قد سبقت واخبرتكم بكل شيء ••

تظلم الشمس بعد ذلك الضيق ، وتمحى آية القمر ، وتهوى النجوم ، وتتزعزع قوات السماء ، أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، علمها عند الله

أنظروا واسهروا وصلوا ، لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت • أسهروا لانكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت ،

أمساء أم صباحا ؟ أم يأتى بغتة فيجدكم نياما . ما أقوله لكم أقوله للجميع : اسهروا

انفعلوا جميعا للحديث ، أهو حديث وداع ، أهوانذاره الاخير .. وراحوا جميعا يفكرون ، فما كان لهم الاالتفكير، وهاجت وساوس يهوذا ، وثارت نفسه ، ما بال عيسى يتحدث عن قيام الابناء على الآباء ، وجلد حوارييه فى المجامع ، ما بال بشاراته انقلبت حزنا ورعبا ؟ أين ملك المسيح الذى سيدوم الى الابد ؟ ومتى هو ذلك اليوم الذى تظلم فيه الشمس ، وتتساقط من السماء النجوم ؟ انه يحس كأنما صار ريشة يعابثها الرياح ، لماذا يعذبهم بأحاديثه المغلفة بالغموض ؟ لماذا لا ينير لهم الطريق ، انه يخبط فى الظلام ، لا يجد من يهديه

يا رب ، قليلا من النور .. لقد انتشر فى كهف صدره ظلام ثقيل ، فران على البقية الباقية في قلبه الايمان والتصديق ، الشك يخزه ويعذبه ، أقلعت الطمأنينة ، وتركته للقلق والاضطراب ، ليته يستطيع أن يكفر به ويستريح ..

— ٤٦ —

« ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون »

(قرآن كريم)

قاعة واسعة مدت فيها الموائد ، وجلس حولها الكتبة والفريسيون أعداء الامس ، وحلفاء اليوم ، ألفت بينهم المشاركة فى بغض عيسى ، ذلك الخطر المترجح فوق رءوسهم ، سخر منهم فى المجمع أمام الوفود وسخريته قاسية مريرة ، أمضى من السيف ..

كلماته التى ألقاها فى وجوههم ترن فى آذانهم ، فتفجر

المقت فى أجوافهم ، وتجعل دماء الحقد تتدفق فوارة فى عروقهم ، كانت كلماته كجمرات من نار أحرقت نفوسهم ، وتركت كبرياءهم رمادا ..

تقريعه لهم لا يزال يرن فى جنبات الهيكل ، وقد حفر فى أذهان الملأ ، وسيصبح قصة اذا ما انقضى العيد وعاد الناس الى ولاياتهم . فى الجليل وفى اليهودية وفى الاردن وفى سورية وفى بابل وفى اليونان ، سيرددون سخريته بهم « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه ، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون ، فهم يقولون ولا يفعلون ... يعملون كل أعمالهم لوجه الناس ، يعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تطوفون البر والبحر لتهدوا واحدا ، ومتى هديتموه قدمتموه الى الجحيم » ..

كانت سهام تهكمه فتاكة ، كفيلة بأن تهدم أمة ، فلو انهم صبروا عليه حتى يوم العيد ، لقام بين الجموع يرشقهم بسهام نقده ، ويركبهم بسخريته ، فتضيع هيبتهم ، ويهون على الناس أمرهم . الارض تميد تحت أقدامهم ، فاذا لم يثبتوها بدمائه ، انشقت وبلعتهم، وانه لايسر عليهم أن يقتلوه من أن يزول سلطانهم

لما التأم جمعهم ، راحوا يتباحثون .. كان قتله رأى الجميع ، ولكنهم اختلفوا فى التنفيذ ، اذا تركوه حتى انقضاء العيد أفسد عليهم الناس ، واذا قتلوه فى العيد ، فقد تثور الجموع ، فالجموع متقلبة ترضى اليوم وتغضب غدا ، وتبرم أمرا وسرعان ما تنقضه ، وتزهق روحا .ثم تبكى على الشهيد ، من يدرى اذا ما قتلوه أن يعلن الثورة من لم يؤمنوا به !

كان الكتبة والفريسيون يتدبرون ، وكان يهوذا

الاسخريوطى منطلقا بقامته الطويلة وشعره الاســود ، وعينيه القلقتين فى شوارع أورشليم • يكاد ينفجر من الحنق ، فقد حدث اليوم ما أشعل فى نفسه الثـــورة ، فتأججت قوة عاتية ، حتى فاقت كل ما سبقتها من ثورات

ثار يوم سكبت مريم المجدلية قارورة نادرة من الطيب لتدهن بها قدميه ، ولم يرشدها — وهو الرسول المتقشف — الى طريق الخير ، الى أنها لو تصدقت بثمنها لكان ذلك أذكى وأطيب • وحنق لما رآه يتوعد — وهو رسول الرحمة — الهيكل المقدس ، كان يهوذا يحب الهيكل ، فهو أمل بنى اسرائيل ، فحرك غضبه أن يرى سيده يصب عليه اللعنة

ولكن ما حدث اليوم فجر مرجل غضبه ، وأجج نارقلقه، فعيسى استقر فى بيت عنيا ، وراح يمضى يومه فى بيت مريم ، ركن الى الهدوء ولن يخرج الى الهيكل ، يدعو الناس الى ربه ، كأنما غسل يديه من رسالته

ليته يخرج ويثور فى وجوه الجموع الجاحدة الكافرة ، ليته يأتى هنا بآية ، كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل، ليته يفعل شيئا بدل ذلك الهدوء البغيض ، فيهوذا من كل قلبه يتمنى أن يقوم عيسى بعمل يدعم رسالته ، يمحو طبقات الشك التى تراكمت فى جوفه ، حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من ايمان وتصديق

ولمحه أترابه ، فيهوذا من اليهـــــود ، وليس كباقى الحواريين من الجليل ، فخفوا اليه ، وراحوا يسخرون من معلمه ، ومن تعاليمه ، ومن الملكوت الـــذى يبشر به ، فأحس كأن سخريتهم خناجر تمزق قلبـــه ، وتزيد نار غضبه أندلاعا ••

وقفزت الى رأسه فكرة ، اذا كان عيسى قد ركن الى الدعة ، أو اذا كان قد استسلم لليأس ، فسيضطره الى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم الى مقره حتى

يعود الى الكفاح ، فالاحتكاك بالاعداء كفيل باذكاء روح المقاومة فيه ..

سيرشدهم اليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم في العيد ، وتؤمن به الوفود ، فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق الى ملك المسيح الدائم ما دامت الارض والسماء

لو آمن الناس به فى العيد ، لانقشعت عن عينى يهوذا الغشاوة وتبخر الشك القلق الحائر الجوال في نفسه ، فذلك الايمان يحيى الامل في امكان تأسيس مملكة المسيح التى جاءت بها البشارات

وقام فى نفسه اعتراض ، انه يسلم سيده الى أعـــدائه اذا أرشدهم اليه وما كان يجب أن يمسوه بسوء . انه شك فيه ، وانتابه قلق ، ولكن ذلك ما كان ليدفعه الى تسليمه ..

وكاد يعدل عن تلك الفكرة .. ولكن ذهنه أمده بمـا يؤيده فيما ذهب اليه ، انه لو أرشدهم الى عيسى لجـدد شباب الدعوة ، فلا خوف عليه منهم ، فيا طالما حاولوا أن يمسكوه ولكنه كان يجتاز فى وســطهم كالطيف ، فلن يستطيعوا أن يمسوه بسوء ..

كان يهوذا يتخبط ، لا يدرى حقيقة عواطفه ، كان يشك فيقلق ويثور ، وكانت تهب عليه نسائم من الايمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا ، كل ما يبغيه أن يعيد الى نفسه الطمأنينة والهدوء

وانسل يهوذا الى حيث كان الكتبة والفريســـيون مجتمعين ، وقعد بينهم يصغى الى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج الى دورهم ، ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولـــكنه قال لهم ان خير ما يفعلوه أن يقبضوا عليه قبل العيد فى مكان خلاء ، بعيدا

عن محبيه ، وأعجبتهم الفكرة ، ووافقوا عليها ، وخـــرج يهوذا ، وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكةالمسيح الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه

— ٤٧ —

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغـــيروا ما بانفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »

(قرآن كريم)

جلس عيسى صامتا مظرقا ، ولاح فى وجهه حزن ، وراحت مريم المجدلية ترنو اليه ، فتستشعر أسى ، ولكنها ما كانت قادرة على أن تكلمه ، كانت تحترم صمته ، ولا تجرؤ ان تخرجه من أفكاره ، وان كانت فى قرارة نفسها تحس أنها أفكار حزينة ، مغرقة فى الحزن

وجلس لعازر والحواريون صامتين ، يترقبون أن يقول عيسى شيئا ، فشمس عيد الفصح تدرج لتحتل كبـــد السماء ، وأحس عيسى ان عيونهم مصوبة اليه ، فرفع رأسه وقال لبطرس ويوحنا :

— اذهبا وأعدا لنا الفصح لنأكل

— أين تريد أن نعده ؟

— اذا دخلتما المدينة يستقبلكما انسان حامل جرة ماء. اتبعاه الى البيت حيث يدخل ، وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مـــع تلاميذى ؟ سيريكما علية كبيرة مفروشة ، فأعداه هناك ..

وخرج بطرس ويعقوب ، وغادرا بيت عنيا ، ودرجا فى طرقات جبل الزيتون فلاح لهما الهيكل يتألق فى الشمس

كالذهب ، وانطلقا الى أورشليم ، والشمس عاليـــة فى السماء ، ولا ظل لشيء على الارض ، فقد كان الوقت ظهرا

ولمحا رجلا يحمل جرة ماء ، وما أندر ان يحمل رجـل جرة ، فذلك عمل النساء فانطلقا فى أثره حتى اذا دخل بيتا دخلاه ، وحدثا صاحبه ، فاذا به صديق من أصدقاء المسيح ، وعرفا مكان الاجتماع ، ثم ذهبا الى الهيكل ليقدما النحائر ..

اخذت الشمس تنحدر نحو الافق الغربى ، وقرعت طبول الهيكل الفضية ايذانا ببدء النحر ، فتدفق اليهود يسوقون ذبائحهم أمامهم ، وغص الرواق بالاسرائيليين ، ووقف على الدرج الكهنة اللاويون يقرعون الطبول ، اعلانا للمدينة المقدسة ان ذبائح الفصح تذبح ، وراح الحجاج يصعدون الدرج اثنين اثنين ، ويقدمون قرابينهم لتنحر ، ويتلقى كاهن دماءها فى فلجانة ذهبية ، وتنتقل الفلجانة من كاهن لكاهن حتى تصل الى الكاهن الاكبر ، الواقف أمام المذبح المقدس ، فيلقى بالدم فيه

وذبح بطرس ويوحنا الذبائح ، وعادا الى مكان الاجتماع يعدان الفطير ، وحمل الفصح ، وانتظروا وفود المسيح واخوانهم ..

وغابت الشمس وراء جبل الزيتون ، وخـــرج عيسى وحواريوه ، من بيت عنيا ، وذهبوا الى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بالجماهير ، فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه احد ، كانوا يهرعون اليه اذا قام فى الهيكل يدعوهم الى الله ، اما اذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين الرائحين فى المدينة

دلفوا الى مكان الاجتماع ، فاذا موائد الفصح مدت ، واذا الارائك صفت ، فذهبوا يتكئون • فحاول كل من الحواريين ان يجلس الى جوار المسيح ، وارتفعت بينهم

المشادات ، كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد ذلك الشقاق فى حزنه ، فحواريوه لم يفهموه ، ولم تؤثر فيهم تعاليمه

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا ، تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه فى ملكوته ، احدهما عن يمينه والآخر عن يساره .. كانت تحسب أن ملكوته عالم كائن فوق السحاب ، فأرادت لابنيها السلطان ، وما جاءته من تلقاء نفسها ، بل دفعها الى ذلك أحب حوارييه اليه ، وها هم أولاء فى ساعاته الاخيرة يتنافسون ، كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان

وأراد أن يضع حدا لنزاعهم ، فقال لهم :

ـ اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضى

فصمتوا ، وأخذوا يأكلون ، ثم تناول كأسا وقال :

خذوا هذه واقتسموها بينكم ، لانى أقول لكم انى لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله

وفرغوا من الطعام ، وقام عيسى يغسل ايديهم ، فتعاظموا ذلك ، وتكارهوه ، وقال بطرس فى انكار :

ـ انت تغسل يدى ؟! ابدا

ـ لا تعلم الآن ماذا اصنع ، ولكن ستفهم فيما بعد ..

ـ لن تغسل يدى ابدا

ـ ألا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ، ولا أنا منه ..

فقال بطرس :

ـ هاك يدى ورجلى ورأسى

فلما فرغ من ذلك قال لهم :

ـ أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام ، وغسلت أيديكم بيدى ، فليكن لكم بى أسوة ، فانكم ترون انى خيركم . فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم

لبعض نفسه ، كما بذلت نفسى لكم

والحق الحق أقول لكم : انه ليس عبد اعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسله يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل الذى ارسلنى • وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

ـ انتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى ، ستكونون معى في ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدتى ، وتجلسون على كراسى ، تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر

اطمأن يهوذا الى افكاره التى احتلت رأسه ، فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة ، ويعده بكرسى يدين سبطا من اسباط بنى اسرائيل ، فلو كانت تلك الافكار فاجرة شريرة ، لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه ، فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجة ، فقال له عيسى :

ـ ما أنت فاعله افعله سريعا ••

فخرج يهوذا وانطلق الى الهيكل ، ليخبر اعداء المسيح عن مكانه ، ليخرجه من عزلته ، لينفث فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة ، انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته

« واذ قال عيسى ابن مريم ، يا بنى
اسرائيل ، انى رسول الله اليـــكم ،
مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا
برسول يأتى من بعدى آسمه أحمد ، فلما
جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحرمبين »

(قرآن كريم)

كان الحزن مخيما على جو الاجتماع الاخـــير ، عيسى يعظهم ويحدثهم عن موته ، وعن القادم بعده ، وهم فى حيرة لا يفهمون ، راح يقول لهم :

ـ لا تضطرب قلوبكم ، انتم تؤمنون بالله فآمنوا بى ، فى بيت الله منازل كثيرة ، قلت لكم : انى ذاهب لاعد لكم مكانا ، فان مضيت وأعددت لكم مكانا ، آتى وآخذكم الى ، فحيث أكون تكونون ، وحيث اذهب تعلمون الطريق

فقال له توما :

ـ يا سيد ، لا نعلم أين تذهب فكيف نعرف الطريق ؟

ـ أنا هو الطريق والحق والحياة . لا يأتى أحد الى الله الا بى . لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله ايضا

قال له فيلبس :

ـ يا سيد ارنا الله وكفانا

ـ الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، ولكن يوحيه الله الى

انى ذاهب الى الله ، فان كنتم تحبوننى ، فاحفظوا

وصاياى ، وأنا اطلب من الله فيعطيكم « فراقليط » (١) آخر يمكث معكم الى الابد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم ان يقبله ، لانه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه ، لانه ماكث معكم ويكون فيكم

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل لله الذى ارسلنى ، بهذا كلمتكم وانا معكم، وأما « الفراقليط » الروح القدس الذى سيرسله الله ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ما قلت لكم

قلت لكم : انا ذاهب ثم اعود اليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون ، لانى ذاهب الى الله ، والله اعظم منى

فقال له سمعان بطرس :

ـ يا معلم ، انى مستعد ان امضى معك الى الموت

فنظر عيسى اليه فى اشفاق ، وقال له :

ـ أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الاخيرة يختلفون ، فقال لهم :

ـ قوموا ننطلق من هنا

فقاموا وخرجوا الى المدينة المحتفلة بالعيد ، كان القمر يرسل أشعته الفضية ، فيكسو المدينة العتيقة ثوبا قشيبا ، وتلألأ الهيكل فى الفضاء مزهوا ، وساروا حتى اذا بلغوا جبل الزيتون ، راحوا يصلون خاشعين ،ويبتهلون الى الله ..

أحببت ، لان الله يسمع تضرعاتى

لانه أمال أذنه الى

(١) فراقليط لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الامريكية (بالمعزى) ، وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) ووضع الاب عبد الواحد داود الاشورى العراقى فى كتابه (الانجيل والصليب) ، الكلمات اليونانية التى فى التوراة والانجيل بمعنى احمد واسلام

فادعوه مدة حياتي
اكتنفتنى حبال الموت
أصابتني شدائد الهاوية

كابدت ضيقا وحزنا
وباسم الرب دعوت

آه يارب ·· نج نفسى ··
وجلسوا على سفح الجبل ، وراح يوصيهم :

ـ هذه وصيتي ، أن يحب بعضكم بعضا ، كما أحببتكم ليس هناك حب أعظم من أن يضع المرء نفسه لاجل أحبائه · انتم احبائى ان فعلتم ما أوصيكم به · بلغتكم كل ما اوحى الله الى ، أوصيكم ان يحب بعضكم بعضا

اذكروا الكلام الذى قلته لكم ، ليس عبد اعظم من سيده ، ان كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم ، وان كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم ، ولكنهم يضطهدونكم من أجلى ، لانهم لا يعرفون الذى ارسلنى ··

لو لم أكن قد جئت ودعوتكم الى الله ، ما كانت لهم خطية ، أما الآن فلا عذر لهم ، الذى يبغضنى يبغض الله ، لو لم اكن قد اتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطية ، أما الآن فقد رأوا آيات ربى ، وكفروا بالله ورسوله

ومتى جاء « الفراقليط » الذى سيرسله الله ، روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون انتم أيضا ، لانكم معى من الابتداء (۱)

قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجامع ·· بل تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم انه

---

(۱) لم يشهد أن عيسى رسول الله الا القرآن والحواريون والموحدون الاوائل

يقدم خدمة لله (١) ، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفونى ، كلمتكم بهذا حتى اذا جاءت الساعة تذكرون انى قلت لكم ، ولم أقل لكم من البداية لانى كنت معكم ..

أما الآن ، فأنى ماض الى الذى ارسلنى .. ولا يسألنى أحد منكم أين تمضى ، ملأ الحزن قلوبكم ، لانى قلت لكم هذا ولكن أقول لكم : انه خير لكم أن أنطلق ، لانه ان لم انطلق لا يأتيكم « الفراقليط » ، ولكن ان ذهبت ارسله اليكم . لى أمور كثيرة لاقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق . لانه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمعه يتكلم به ..

بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل ايضا تروننى ، لانى ذاهب الى الله ..

فراح تلاميذه يتهامسون :

ـ ما هذا الذى يقول لنا .. بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى ، لانى ذاهب الى الله ؟ ما هو هذا القليل الذى يقول عنه ، لسنا نعلم بماذا يتكلم ؟

وفطن المسيح الى حيرتهم ، فقال لهم :

ـ أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ، لانى قلت : بعد

---

(١) فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد اجتمع مؤتمر نيقية ، وكان مكونا من الف راهب ، لحل مشكلات الدين والفصل فيها . حاول « آريوس » رئيس الموحدين البرهنة على أن المسيح « عبد الله » وحاول « اناثاثيوس » الشماس السكندرى ان يبرهن « التثليث » وكان متأثرا بالديانة المصرية القديمة . اعترف بعبودية المسيح ثلثا المؤتمرين ، ولكن قسطنطين وكان قد تنصر وكان حديث عهد بالوثنية انضم الى الاقلية الداعية الى التثليث ، وقتل الموحدين ، وهو يحسب انه يؤدى خدمة لله . واحرقت جميع الكتب الداعية الى التوحيد ، ولم تبق الا الكتب التى اقرها مؤتمر نيقية ..

قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضا ترونني ؟ الحـــق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون ، والعالم يفرح • ثم أنتم ستفرحون ، سيتحول حزنكم الى فرح ••

لم يفهموا مرمى حديثه ، سيفرح الناس لما يرون على الصليب رجلا يحسبونه المسيح ، وسيحزنون هم ويبكون، ولكن حينما يعرفون ان الذى صلب كان غيره ، سيتحول حزنهم الى فرح شديد

واستأنف حديثه ، وقال لهم فيما قال :

ـ هوذا تأتي ساعة •• وقد أتت الان ، تتفرقون فيها، كل واحد الى خاصته وتتركونني وحدى ، وأنا لست وحدى لان الله معي ، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم سلام ،سيكون لكم ضيق فى العالم ، ولكن ثقوا انا قد غلبت العالم ••

ورفع عيسى عينيه الى السماء وقال :

ـ يارب ، قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذا الكأس ، فلتكن مشيئتك

يارب : هذه هى الحياة الابدية : ان يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ، وعيسى المسيح الذى أرسلته

الان علموا ان كل ما أعطيتنى هو من عندك • لان الكلام الذى اعطيتنى قد اعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا انى خرجت من عندك ، وآمنوا انك انت الذى ارسلتنى • يارب ، لم يعرفك العالم ، أما أنا فقد عرفتك ، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى

ولف الحزن جبل الزيتون بغلالة سوداء ، لم يقو ضوء القمر أن يفضحها ، فقام عيسى وسار صوب وادى قدرون ، وسار تلاميذه مطرقين صامتين ، وصوته يرن فى آذانهم :

ـ أنا قد غلبت العالم

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين »

(قرآن كريم)

«تآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه

قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنــا

ربطهما . الساكن فى السموات يضحك ،

الرب يستهزىء بهم »

مزامير (٢ : ٢ - ٤)

أشجار الزيتون الضخمة تحجب ضوء القمر عن وادى قدرون ، فيلف المكان ظلام دامس ، والسكون عميق يبعث فى النفوس رهبة ، وعيسى وحواريوه ينسابون كأطيــاف، وان كانت خطواتهم ثقيلة حزينة ، فعيسى يحس ان أيامه على الارض انقضت ، بعد ان أوحى الله اليه أنه متوفيه ورافعه اليه ، والحواريون يستعيدون أقواله ويفكرون فيها ويمعنون فى الفكر ، فلا يهتدون الى شىء . « خرجت من عند الله ، وايضا اترك العالم واذهب الى الله » « أنا معكم زمانا يسيرا ، ثم امضى الى الذى ارسلنى . ستطلبوننى ولا تجدوننى ، وحيث اكون انا لا تقدرون انتم ان تأتوا »ماذا يقصد بهذا ؟ وكيف لا يستطيعون ان يذهبوا حيث يكون هو ؟ وكيف يذهب الى الله ؟ اقوال غامضة لم تقدر عقولهم على كشفها ..

وابتعدوا عن أسوار المدينة العتيقة ، وهم يفكرون فى اقواله : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » كيف يشكون فيه وقد آمنوا به وصدقوه ، ان ايمانهم به عميق ، فهم يؤمنون انه رسول الله ، فلن يشكوا فيه أبدا

ودخلوا ضيعة جثسيماني ، وكانت ليوسف الرامي، وهو صديق من اصدقائه ، وكان ينفرد فيها بحوارييه كلما جاءوا الى اورشليم . كان القمر يرسل اشعته ، فيبدو العشب اخضر زاهيا ، والضوء يتخلل اشجار الزيتون ، فتتبعثر فى ظلها دنانير فضية ، كانت ليلة رائعة ولولا الحزن المنبعث فى اجوافهم ، والرهبة المسيطرة عليهم ، لكانت ليلة موحية بالافكار والامثال

والتفت الى حوارييه ، وقال بصوت حزين :

ـ اجلسوا ههنا حتى امضي واصلي هناك

وانطلق واخذ معه بطرس وابنى زبدى يعقوب ويوحنا، حتى اذا ابتعد عن باقى حوارييه ، ظهر فى وجهه أسى ، وجزع من الموت ، فالتفت الى أحب تلاميذه اليه وقال :

ـ نفسى حزينة حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى

وجلس بطرس ويعقوب ويوحنا ، وتقدم خطوات ليصلى لله وما مست اجسام احب حوارييه اليه الارض حتى راحوا فى سبات ..

وخر عيسى ساجدا ، وراح يدعو الله :

ـ الهى ، ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما اريد انا بل كما تريد انت

وظل فى صلاته وابتهالاته ودمعه سروب ، ثم قام وذهب الى تلاميذه الذين دعاهم ليسهروا معه ، فالفاهم نياما ، فجعل يوقظهم ويقول :

ـ سبحان الله ، اما تصبرون لى ليلة واحدة . اسهروا وصلوا .. اما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف ..

وجلس معهم قليلا ، فأحس رغبة فى الصلاة ، فقام وتركهم وما خلا بنفسه يدعو الله حتى عادوا للنوم

وخر ساجدا ، وراح يدعو الله :

ـ الهى : كتبت على ان أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك ..
واستمر فى دعائه ، ثم جاءهم فوجدهم نياما ، فأيقظهم فقالوا له :
ـ والله ما ندرى مالنا .. والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء الا حيل بيننا وبينه ..
فقال فى أسى :
ـ يذهب الراعى ، وتتفرق الغنم
وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه ، حتى ثقلت جفونهم فناموا ، وظل فى خشوعه ، فأرهفت حواسه ، ومس اذنيه صوت خافت اخذ يتضح ، انه وقع اقدام مقتربة ، فقام ينظر فاذا اضواء مصابيح ومشاعل ، وغمر الضوء المكان ، فهب الحواريون مرعوبين

وتقدم الجنود الرومانيون ، يحملون سيوفهم ، وحولهم خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم ، وقال لهم : « من تطلبون ؟ »
ـ عيسى الناصرى ..
ولم يكونوا يعرفونه ، ارسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم ، فقال لهم عيسى :
ـ انى انا هو ..
فخفق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه ، وينقضى ملك المسيح ، ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون ان يلقوا عليه الايادى ، ويخرج من استسلامه ويأسه ، ويستأنف جهاده وكفاحه ، وفى ذلك تجديد شباب الدعوة التى لم تتفتح براعمها ؟ !
رجع الجنود الى الوراء ، وسقطوا على الارض ، فانشرح صدر يهوذا ، انه يحس فى تلك اللحظة أن ذلك الظلام

الذى تجمع فى صدره ينقشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها ..

نظر عيسى الى الجنود وهم ينهضون ، وقال لهم فى تحد:

ـ من تطلبون ؟ ..

ـ عيسى الناصرى ..

ـ قلت لكم انى أنا هو . فان كنتم تطلبوننى ، فدعوا هؤلاء يذهبون ..

وشهر بطرس سيفا ، وضرب عبد رئيس الكهنة ، فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد انصاره أهون من ان يحموه ، فقال لبطرس :

ـ اجعل سيفك فى غمده

فوضع بطرس السيف فى قرابه ،واتسعت عيون التلاميذ رعبا ، فقال لهم عيسى :

ـ اذهبوا ..

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شىء ، وتركوا رسولهم الذى اخرجهم من الظلمات الى النور ، تحت اشجار الزيتون يحيط به جنود رومانيون غلاظ ، مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب ، خافق القلب مرعوبا ، فلو ان الرومانيين القوا القبض على عيسى ، لقتل يهوذا الشك والقلق

وتقدم عيسى خطوات ، فرجع الجنود الى الخلف وسقطوا على الارض ، وانطلق عيسى من بينهم دون أن يروه ، وذهب ليختفى ، ويتحقق قوله لتلاميذه « بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل ايضا تروننى »

احس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه ، وهزته موجة من الفرح ، عاد الى الحوارى الذى أوحى الله اليه ان آمن بى وبرسولى ايمانه الكامل ، وغسلت روحه ، وتخلصت من شوائب الشك ، كما يتخلص الثوب من أدرانه اذا غسل بالماء ..

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ، ونظروا فلم يجدوا الا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليـــــه وأمسكوه يحسبونه عيسى ، وأراد يهودا ان يقاومهم وان يصرخ بهم انهم اخطأوه ، ولكنهم انهالوا عليه بالسباب ، وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه ، فتيقن ان الله انزل به ذلك البلاء ، ليجازيه على شكه الذى نبت فى جوفه ، بعدان أوحى اليه الايمان ، فلزم الصمت ، وعزم على الا ينبس بكلمة ، وان يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ويدين اسباط اسرائيل الاثنى عشر ، كما قال له المسيح

— ٥٠ —

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من

الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون »

(قرآن كريم)

اضواء المشاعل تتراقص ، فالهواء يعبث بها ، فتضطرب الانوار الساقطة على الوجوه ، فتبدو السحن غريبـــة ، وأصدر قائد الجنود أوامره بالسير ، فساروا ويهوذا فى وسطهم بقامته الطويلة ، مطرقا ، كل من يراه يحسبه عيسى ، وسار على البعد بطرس يرصد ما يفعلونه بمن حسبه سيده ، الذى تركه احب الناس اليه فى ايـــدى اعدائه ، وولوا فرارا ..

غادروا الضيعة ، وانطلقوا فى وادى قدرون ، لا يسمع الا وقع اقدامهم ، وقد استسلم يهوذا لقضاء الله ، ولم يرتجف ولم يحزن . بل لفته طمأنينة ، بعد انقشـــاع

ضباب الشك الذى تلبد حول ايمانه وتصديقه

سيصبر يهوذا حتى الموت ، ليكفر عن الوساوس التى نبتت حينا فى جوفه ، فما كان له ان يتزعزع ، وقد شرح الله صدره للايمان .. استكان لضعفه ، وترك الشيطان يمسه ، فحق عليه ان يتحمل العذاب ليتطهر ،ويستحق ان يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ورن فى أذنيه قول المسيح : « الحق أقول لكم انكم انتم الذين تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الانسان على كرسى مجده ، تجلسون انتم ايضا على اثنى عشر كرسيا،تدينون اسباط اسرائيل الاثنى عشر » فأحس يهوذا كأن قوة علوية تثبته فهو احد الاثنى عشر الموعودين المبشرين بالمجد والعظمة، وما كان لمثله ان يتردى فى الظلام

مسه طائف من الشيطان ، ولما كان من المؤمنين تذكر، فانجابت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو مبصر ، فقرر ان يتحمل عن سيده العذاب والاضطهاد ،

كان الليل قد انتصف ، وكانت المدينة المقدسة غارقة فى ضوء القمر ، وانوار الهيكل تنفذ من الكوات كاشعاعات قطعة من الماس ، والجنود الرومانيون ويهوذا يدرجون فى طرقات أورشليم التى سادها الصمت العميق

ودلفوا الى الهيكل ، وساروا الى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول، واقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم،واراد ان يدخل، فرمته المرأة بنظرة فاحصة ، ثم قالت :

ــ ألست انت ايضا من تلاميذ هذا الانسان ؟

فاضطرب بطرس وقال :

ــ لا لست من تلاميذه

ساق الجنود الرومانيون يهوذا الى غرفة واسعة ، تضيئها المشاعل ، وقد جلس فى نصف دائرة فريسيون

وكتبة ، وراس الاجتماع شيخ كبير ، ابيض الشعر ،هو حنان ، صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ، كانوا يخشون فى اعماقهم ان ينزل عليهم غضب من السماء، وان اخفوا ذلك وتظاهروا بالعبوس والتقطيب

ارادوا ان ينتهوا من محاكمته سريعا ، وان يصدروا حكمهم بموته ، ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان، فقال له حنان :

ـ من هم تلاميذك ؟ وما هى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا ولم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

ـ تكلم ..

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم احد الخدام ، ولطم يهوذا لطمة قوية ، وقال له :

ـ جاوب رئيس الكهنة

وبقى يهوذا ساكنا لاينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه اسئلته ، ويهوذا غارق فى الصمت

ودخل بطرس الى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة ، فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها ؛ فاقترب بطرس من النار .. ووقف يتنعم بالدفء ، بينما وقف هناك فى القاعة القريبة من يحسبه سيده ، يحاكم امام اعدائه ، ويحاسب حسابا عسيرا .

ورنا احد الجنود الى بطرس مليا ، انه هو ذلك التلميذ الذى رفع سيفه ، وقطع اذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه ، وقال له :

ـ الست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

ـ لا لست من تلاميذه

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة ، وقال له:

ـ الم أرك معه فى البستان ؟

ـ لا .. انى لا اعرفه ..

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التى كانوا يذكونها ، فانسل هاربا ، مغادرا الهيكل ، لينجو بنفسه

لم يتكلم يهوذا ، فضاق به حنــــان ذرعا ، وأمر أن يقودوه الى قيافا رئيس الكهنوت ، ليرى رأيه فيـــه ، فانطلقوا به فى جوف الليل ، حتى اذا وقف أمام قيافا ، ظل فى صمته العميق

كان قيافا يرى أنه خير للامة ان يموت واحد من أن يقوم بسببه حرب أهلية بين بنى اسرائيل ، كانت غايته أن يقتله ويستريح ، فراح يسأله وهو مطرق،مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا ، وأراد ان ينتهى منه . فأرسل يستدعى ـ وهو رئيس الكهنوت ـ شهود زور يشهدون عليه ، فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

ـ هذا قال انى أقدر ان انقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه ..

فقال له قيافا :

ـ أما تجيب بشىء ؟ ما رأيك فيما يشهــد به هذان عليك ..

لو كان المقبوض عليه عيسى ، لقال انه قال ذلك ، فما كان لنبى أن يكفر بأقواله ، ولكنه كان يهوذا ، لم يشـــأ أن يكذب فى لحظاته الاخيرة ، فظل ساكتا لا ينطق بكلمة. نفد صبر رئيس الكهنة ، فقال له :

ـ استحلفك بالله أن تقول لنا : هل انت المسيح ؟

لم يشأ يهوذا أن يكذب ، فقال له :

ـ أنت تقول ذلك

ثم صمت قليلا وقال فى حماسة من يؤمن بكل كلمــة ينطق بها :

ـ من الآن تبصرون ابن الانسان جالساعلى يمين القوة، وآتيا على سحاب السماء

فمزق رئيس الكهنة ثيابه .. فما أضاف ذلك القول شيئا ، انه قول يقوله اى مؤمن بالمسيح ، وأراد قيافا ان ينهى هذه المحاكمة ، فقال :

ـ لقد كفر فما حاجتنا الى شهود ، ها قد سمعتم كفره ..

والتفت الى الفريسيين والكتبة والصدوقيين ، وقال لهم : « ماذا ترون فيه ؟ »

وهل كان يرى أعداء المسيح غير موته ، فقالوا :

ـ انه مستوجب الموت

حكموا على يهوذا بالقتل ، وهم يحسبون انه المسيح، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، وابتسموا فى راحة ، ولكن « الساكن فى السماء يضحك،الرب يستهزىء بهم » ..

وانقضى الليل ، وصاح الديك ، فتذكر بطرس قول عيسى له : انه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب ، حتى كادت كبده تتصدع من البكاء ..

ـ ٥١ ـ

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم،
ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا
به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت
أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »

(قرآن كريم)

خرج الى الردهة بعد ان قرر المجتمعون استحقاقه

للقتل ، فقام اليه الخدم والجنود يبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ، ويركلونه ، ويسددون اللكمات الى وجهه ، ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل اهاناتهم فى صبر عجيب ، كان يخفف من آلامه أنه يتلقى الاضطهاد عن سيده الذى هداه الى النور

وساقوه الى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وانعقاد السنهدرين ، فما كانت تجرى المحاكمات القانونية الا فى وضح النهار ، وادخلوه ودخلوا واغلقوا الباب خلفهم ، واخذوا يصفعونه ساخرين ، ثم قفزت الى اذهانهم فكرة يقطعون بها الوقت حتى طلوع النهار ، فحجبوا عينيه ؛ وتقدم اليه واحد منهم ، ولطمه . وقالوا له هازئين :

ــ تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

وجلجلت ضحكاتهم المقيتة تمزق السكون ، واستمروا فى عبثهم وقسوتهم ، ويهوذا صابر ، فمهما اشتدت آلام الجسد ، فهى أهون من عذاب الروح

وانقضى الليل ، واشرقت الشمس ،وانعقدالسنهدرين، من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس المجتمعين قيافا ، رئيس الكهنة المتظاهرين بالتقوى ، الضالع مع الهيروديين فى الفسق والفساد ، وكان بينهم نيقوديموس ، ثالث أعضاء المجلس ، الذى آمن بعيسى وأخفى ايمانه ..

كان نيقوديموس مضطربا لا يقوى على أن يرفع عينيه ، كان يفكر فى انقاذ من آمن به ، وكان يخشى أن تفضحه خفقات قلبه ، لذلك راح يعبث بأصابعه ، يحاول أن يوارى ما به ..

وجىء بيهوذا ، ومثل امام اعضاء السنهدرين ، وقد غير الاضطهاد هيئته ، وما وقعت عينا نيقوديموس عليه

حتى أحس يدا تعصر قلبه ، وانقبض . كانت آثار التعذيب قاسية ، فاستشعر كأن خنجرا يخز فؤاده ، وطأطأ بصره حتى لا تظهر على وجهه انفعالات نفسه

وقال له قيافا :

ــ ان كنت أنت المسيح فقل لنا

ماذا يقول لهم يهوذا ؟ اذا قال لهم انه المسيح كذب ، وان قال لهم انه يهوذا لم يصدقوه ، فقال لهم فى سخرية:

ــ ان قلت لكم لا تصدقون ، وان سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى ..

وصمت قليلا ، وحسب ان الله رفع عيسى ، فقال :

ــ منذ الآن يكون ابن الانسان جالسا عن يمين قوة الله

فصاح قيافا :

ــ ما حاجتنا الى شهود ، سمعنا اعترافه

وامر باخراجه ، وراح أعضاء السنهدرين يتشاورون لم يقل شيئا يستحق عليه القتل ، لم يدع الألوهية ، فلو انه ادعاها لما كانوا فى حاجة الى التفكير فى تهمة تغير صدر بيلاطس عليه ، انهم يريدون ان يتخلصوا منه ومن تأليب الشعب عليهم .. هذه هى المسألة ..

وفكروا فيما يتهمونه به ، انه عمل فى السبت وخرق الناموس وهذا يستوجب القتل ، ولكنه اثبت فى كل مرة انه كان يعمل الخير فى السبت ، وافحمهم والقمهم أكثر من حجر ، واتهموه انه ادعى انه اله ، فأثبت لهم انه استعار التشبيه من مزامير داود ، وانه لم يقصد به الالوهية ، بل الاختيار والاصطفاء ، كان هدفهم قتله ، فليقولوا لبيلاطس انه يدعو الناس الى الثورة ، والى الامتناع عن دفع الجزية ، فلو انهم رفعوا اليه ذلك لوافق على قتله ..

خرج يهوذا الى الجنود الغلاظ ، فعادوا يبصقون فى

وجهه ، ويسبونه ، ويصفعونه ويلطمونه ، وانضم اليهم بعض الفريسيين والصدوقيين ينتقمون لسهام السخرية المريرة التى رشقها عيسى فى ابدانهم

وقام رؤساء السنهدرين ، وانطلقوا الى قصر بيلاطس الهائل ، وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه وحوله الجنود الرومانيون ، ودلفوا الى القصر العظيم، واستأذن قيافا رئيس الكهنوت فى الدخول الى الحاكم فلما أذن له ، قال :

ـ جئنا بعيسى ، ذلك الذى أضل كل اسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة ، من الجليل حتى أورشليم ، ولم يكتف بدعواه ، بل راح يفسد الامة ، ويحرض النـــاس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر ، زاعما انه المسيح ملك اليهود . كان بيلاطس يحب عيسى ، سمع بآياته وتعاليمه، فمال اليه قلبه ، وان كتم ذلك عمن حوله ، فطلب ان يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به ، وقال له :

ـ سلمك الكهنة وشيوخ الشعب الى يدى ،فقل الحق لاقيم العدل ، لانى قادر على ان أطلقك ، وقادر على الامر بقتلك ..

فقال يهوذا :

ـ اذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا ، لانك تقتـــل بريئا ..

واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وقال :

ـ أية شكاية تقدمونها على هذا الانسان ؟

ـ لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به اليك

وراحوا يكيلون اليه التهم ، ويهوذا صامت لا ينبس بكلمة ، حتى تعجب .. كانت اتهاماتهم تقطر عداوة ، وان كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى،

ما يستوجب القتل

لم يطمئن ضمير بيلاطس الى تأييد حكم السنهدرين، فطن الى انهم يريدون قتله غيرة منه ، كانوا مرائين ، ففضحهم امام الشعب الغافل ، ولو تركوه يسعى فى الارض لفض الناس من حولهم

وفطن رؤساء الكهنة ان بيلاطس يفكر فى اطلاقه فقالوا له :

ــ اذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر ، كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلى ، قفزت الى راسه فكرة ، فقال :

ــ هل الرجل جليلى ؟ ..

ــ نعم ..

ــ ارسلوه الى هيرودس ، فهو من رعاياه ، ليرى فيه رأيه ..

وخرج الكهنة وشيوخ اسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون ، وانطلقوا الى هيرودس ، فقد كان فى أورشليم فى العيد ، وتنفس بيلاطس الصعداء .. حسب انه استراح من الحكم فى هذه القضية ، التى لا يستريح ضميره اذا بت فيها بما يرضى اعضاء السنهدرين وشيوخ اسرائيل ، ، الواغلين فى العداوة والبغضاء

ــ ٥٢ ــ

« اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله »

(قرآن كريم)

خرجت الشمس من اكمامها ، وارسلت أشعتها الى أورشليم التى لم تغمض لها عين طوال الليل ، كان أهلها

يحتفلون بالعيد ، ورجال الدين فيها من فريسيين وصدوقيين وناموسيين يحيكون مؤامراتهم ، ليقتلوا عدوهم .. مكروا ومكر الله ، قفز عيسى من اعدائه ،وسقط يهوذا فى ايديهم ، ليطهر الاضطهاد نفسه من ادران الشك التى رسبت فى جوفه ، فما كان له ان يشك بعد ان شرح الله صدره للايمان ، وليتحقق قول المسيح : « كلكم تشكون فى هذه الليلة »

شبه لهم ، فلم يعرفوه ، وراحوا يحاكمونه وهو صامت ، اذا تكلم يكشف سيده أو ينطق كذبا ، فلاذ بالسكوت ، فما كان له ان يكذب وهو فى تطهيره ،ليتحقق وعد المسيح له بأنه من تلاميذه الذين سيجلسون معه فى ملك الله ..

سار رجال السنهدرين وجنودالرومانيين ويهوذابينهم، ولحقته الجماهير التى كانت تخف اليه ، فأسرع الرجال والنساء يسبونه ، ويبصقون فى وجهه ، ويؤذونه وهو مطرق ساكن ، وارتفع صوت يقول :

– انه رجل صالح ، لا يستحق هذا

فزمجرت الاصوات ، وارتفعت الاعترافات :

– انه أضلنا ، لو كان نبيا لايد رسالته بالآيات

– وافق على ان ندفع الجزية لقيصر ، وما كان لنبى أن يرشد قومه الى وضع نير الرق فى اعناقهم

– اين هذا الذى يدعى النبوة من يهوذا الجليلي، الذى ثار ليحررنا من الرومانيين ، فما كان لأبناء الله أن يكونوا تحت حكم الوثنيين عبدة الاوثان

– يا قوم ، انه رجل صالح يدعو الى الله

وثار فى وجهه الناس ، فصمت وانسل بعيدا ، قبل أن يبطشوا به

وبلغ رجال السنهدرين قصر هيرودس انتيباس ، كان الجنود الرومانيون يغدون ويروحون أمامه وفى أيـــديهم الرماح ، كانوا يقومون بالحراسة ، فوالى الجليل وفد الى أورشليم فى العيد ، يقدم القرابين الى الهيكل ارضـــاء لرعاياه اليهود • فهو حريص على أن يظهر امامهم فيمسوح الرهبان ، وان كانوا يتهامسون بأحاديث الليالى الصاخبة الماجنة التى يقضيها فى قلعة ماكيروس

جلس هيرودس يستقبل الصباح ، وارخى لخيـــاله العنان •• سمع وهو فى أورشليم بالعداوة القائمة بين بنى الناصرة ورجال الدين ، فتحركت مخاوفه ، فأوهامه تلح عليه ان ذلك النبى ما هو الا يحيى ، قام من الاموات يثأر لقومه ، ان شبح يحيى يطارده ويؤرقه ويصرخ به فى سكون الليل ، فيطير من عينيه النوم •• بلغ سمعه همس الناس ان الله نصر جيوش الحارث والد زوجته التى فرت منه لما تزوج من هيروديا ، على جيوشه ، انتقاما لدماء نبيه الزكية •• فزاد ذلك من مخاوفه ، وبات فى قلقه يترقب ساعة الانتقام ••

ودخل عليه حاجبه ، وقال له ان رؤساء الســنهدرين يلتمسون مقابلته ، فأذن لهم بالدخول ، وهو يعجب ، فما كانوا يفدون اليه فى العيد ، فلطالما جاء قبل ذلك حاجا الى أورشليم ، ولطالما ساق امامه الهدى ، وذبحه فى المذبح قربانا الى يهوه اله اسرائيل ، ولم يخفوا لاستقباله ، وان كانوا يسارعون الى بيلاطس ممثل الرومانيين

أقبل قيافا ورئيس الصدوقيين ورئيس الفريسيين ، وقالوا :

ــ جاء من الجليل من يزعم أنه نبى ، وراح يفسد الناس ويغريهم بعدم دفع الضرائب الى قيصر ، وقـــد حاكمه

السنهدرين ، وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم، فقد ارسلنا الوالى اليكم

خفق قلب هيرودس ، كان يطمع فى أن يرى عيسى ، ليقضى على وساوسه التى تقلقه ، ولكن عيسى رفض أن يذهب الى ذلك الثعلب فى قصره ، وها هى ذى الفرصة قد سنحت ليراه ويحدثه ، ويطلب منه أن يأتى بآية من آياته وانها لتسلية فى العيد ، ، أن يشاهد هيرودس الآيات !

وجيء بيهوذا مشدودا وثاقه ، فرماه هيرودس بنظرة سريعة فاحصة ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، لم تكن فى وجهه صرامة يحيى ، فملامحه لا توحى بما كانت توحى بهملامح النبى الخشن من رهبة ، كانت نظرة من يحيى تزلزل هيرودس ، وتذيب جبروته

وقف يهوذا خافض الرأس ، وان كانت السكينة تعشش فى فؤاده ، وهيرودس يديم اليه النظر ، ويصغى الى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق من افواههم تقطر عداوة ومقتا ..

وقال هيرودس للماثل امامه :

ـ ما تقول أنت ؟

لم يحر يهوذا جوابا ، وسلم أمره لله ، وترقب قضاء الله فى صبر عجيب ، فقد أضيء أمامه الطريق ، ووضح السبيل . قال له هيرودس :

ـ زعمت انك رسول الله ، فان اردت ان يصدقوك ، فأت بآية .. انا منتظرون .. لم يفتح يهوذا فمه ، ولم ينطق حرفا ، وانقشعت مخاوف هيرودس ، وعاد الى طبعه ، فراح يسخر من يهوذا ، وبعث الى رجال بلاطه يشاركونه فى الزراية بالرجل ، والتهكم عليه ، فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض ..

وصاح صائح :

ـ انه مجنون ..

وجلجلت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وأراد هيرودس أن يرفه عن بلاطه فى العيد ، فأمر بالباس الرجل ثياب المجانين !

أخذ الجنود يهوذا ، يصفعونه ويلطمونه ويخزونه بأطراف حرابهم ، وهيرودس ورجاله يقهقهون ، كأنما سلب منهم كل شعور ، حتى رجال الدين ، اعضاء السنهدرين شاركوهم فى الهذر المقيت

وجىء بيهوذا وقد ألبس ثوبا أبيض لامعا ، فرنت قهقهات العابثين ، وتطايرت فى القصر ألفاظ الاستخفاف والمجون ، وارتسمت ابتسامات عريضة فى وجوه الفريسيين المتزمتين ، ولم يروا فيما يجرى امامهم فى العيد خرقا للناموس ، يستأهل العبوس والتقطيب

أين عيسى ليسخر من ريائهم ، ويمرغ كبرياءهم فى الاوحال أمام ذلك الوالى الغليظ القلب ؟ أين عيسى ليصفعهم بقوارعه ، ويجعلهم ينكمشون فى الاركان ؟ اين ذلك الذى دمغهم بالعار على مر الزمان ؟ انه لم يكن هناك فى ذلك القصر العابث ، بل كان هناك يهوذا الغارق فى صمته ، التائب من ذنبه ، يتحمل ذلك الاضطهاد ، ليتم له التطهير

كانت الجفوة قائمة بين بيلاطس وهيرودس ، كان كل منهما ينتظر عقب أن عين حاكما على ولايته ، أن يبدأ صاحبه بزيارته .. ولكن لما لم تتم تلك الزورة تغيرت النفوس ولكن بدأ اليوم انجياب تلك السحابة ، ارسل بيلاطس الى هيرودس ذلك الجليلى ، ليرى أمره فيه ، فرأى هيرودس أن يرد له مجاملته ، بأن يعيد له الرجل يتصرف فيه ، فأمر أعضاء السنهدرين ان يعودوا الى بيلاطس ، وكتب له :

ـ أقم العدل فى بيت اسرائيل

« لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين »

(قرآن كريم)

كانت كلوديا بروكيولا ، زوجة بيلاطس الحاكم الرومانى فى أورشليم ، فى شرفة القصر تشاهد المدينة المقدسة فى عيد الفصح ، الرجال فى ثياب الصلاة ينطلقون الى الهيكل، والنساء في الثياب الزاهية الجديدة ، اسدلن على وجوههن نقبا كثيفة ، والاطفال ينطلقون مرحين ، فى أيديهم قطع من فطير الفصح ..

نظرت كلوديا صوب القصر القريب ، النـــــازل به هيرودس حاكم الجليل ، فلمحت على البعد السنهدرين من فريسيين وصدوقيين يسوقون أمامهم فريستهم ،وحوله الجنود ، تحلقهم جمهرة من خدام الهيـــــكل واللاويين والمتطفلين ، فخفق قلب كلوديا فى شـــــدة ، واحست انقباضا ، لم يحكم هيرودس فى أمره ، بل أعاده الىزوجها ليتصرف فيه ..

رأت كلوديا فى نومها حلما حول ذلك الرجل ، حلما أفزعها واقلقها ، حلما أوحى اليها فيه ، ان ذلك الرجل برىء لا يستحق القتل ، وقد تألمت فى نومها من تلك الرؤيا ، ولما استيقظت ظلت منقبضة ، وحاولت أن ترفه عن نفسها بالتطلع الى الناس فى العيد ، ولكن رؤيتهـــا لذلك الجمع جددت قلقها ، فبعثت الى زوجها :

— اياك وهذا البار ، فقد تألمت فى الحلم كثيرا منأجله

فكر بيلاطس فى أمر ذلك النبى الجديد ، ان تعاليمه لا تغضب الرومانيين ، تدعو الى حب الاعداء ، ودفـــــع الجزية ، واعطاء ما لقيصر لقيصر ، لا تثبت روح التمرد

والثورة ، بل روح الاستكانة والخضوع

اذا اتهم بأنه ملك اليهود ، فقد اعلن ان مملكته ليست مملكة ارضية ، ان هى الا مملكة سماوية ، وما كان بذلك ينافس طيبروس أو أحفاده فى سلطانهم ، ما قاده رؤساء الكهنة اليه الا ليكون أداة تنفيذ لمآربهم ، يريـــدون أن يقتلوه ، ليتخلصوا من سخريته

من أتباعه حتى يفزع بيلاطس منه ؟ حفنة من الصيادين الفقراء ، وبعض النساء المستضعفات ، أهؤلاء هم رعاياه فى مملكته ؟ أهــــؤلاء هم الذين يثيرهم على طيبروس والامبراطورية الرومانية ؟ ان هى الا عداوة محلية بينـه وبين الفريسيين المتعجرفين ، والصدوقيين الرافلين فى الغرور ، ألبسوها ثوب الخيانة العظمى ، ليوغروا صدر بيلاطس عليه ، فينفذ فيه حكم الاعدام ، ولكن بيلاطس قد عزم على أن ينقذ الرجل ، ويخلى سبيله

جرت العادة أن يطلق الشعب فى العيـــد سراح أحد المسجونين ، وفى يد بيلاطس أسيران ، ذلك الذى جاء بـه رجال الدين ، وباراباس الثائر سفاك الدماء ، فاذا ماخير الشعب فيمن يطلق لهم سراحه ، فلا شك أن الجمـــاهير ستطلب الافراج عن النبى الناصرى

عاد رؤساء السنهدرين اليه برسالة هيرودس ، فطلب الرجل الحائر • فلما دخل يهوذا عليه ، أحس اشـــفاقا نحوه ، كان مجهدا مكدودا ، وما كان وجهه ينم عن ثــورة أو شر ، كان مطرقا فى استسلام كأنمـــــا ألقى للاقدار مقاليده ••

وعاد بيلاطس يحاور ذلك الذى أرسلت اليه كلوديا أنها رأت فى المنام أنه برىء ، فلم يقس عليه ولم يشتد ، ثـم خرج الى الجموع الزاخرة التى حشرت فى ساحة القصر ، وأطل عليهم ، وقال لهم :

ـ قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب ، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم ، ولم أجد فى هذا الانسان علة مما تشتكون به عليه ، ولا هيرودس أيضا ، لانى أرسلتكم اليه ، انه لم يفعل ما يستحق عليه القتل ، فدعوه لى أؤدبه ، وأطلق سراحه

ما كان هذا يبغى الفريسيون والصدوقيون والكتبة والصرافون وباعة الاغنام والحمام فى الهيكل ، فارتفعت أصواتهم :

ـ اقتله .. اقتله ..

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

ـ نريد قتله .. نريد قتله

ـ لم يفعل ما يستوجب القتل

ـ اقتله .. اقتله ..

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستجاب لها خدام الهيكل ، والجماهير التى تنتقل اليها عدوى الثورة ، أو عدوى الرضا ، دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور !

وخفتت الاصوات ، وبدأ بيلاطس يتكلم ، فتعلقت به العيون ، وأرهفت له الآذان قال :

ـ اننا نطلق لكم فى العيد أسيرا ، فمن تريدون أن نطلق لكم فى هذا العيد ، باراباس أم عيسى الذى يدعى المسيح ؟

فهتف الفريسيون والصدوقيون وتجار الهيكل :

ـ باراباس ..

وانطلقت العدوى الى الجماهير ، فراحت تردد :

ـ باراباس .. باراباس ..

تضايق بيلاطس ، كان يطمع فى أن يؤيده الشعب ضد أعضاء السنهدرين ، كان ينتظر أن ترتفع الاصوات طالبة

اطلاق سراح ذلك الذى لم يرتكب اثما ، من كان كل ذنبه أن حسده رجال الدين ، فاذا بالجماهير ببغاوات تردد ما تلقن ..

وأراد أن يثير حماسة الجماهير .. أن يزيل الغشاوة التى أسدلها على العيون الفريسيون والصدوقيون ،فأتى بيهوذا مشدودا وثاقه ، وقال لهم :

ـ فماذا أفعل بهذا ؟ ..

كان يحسب أن رؤيته تعيد الى الناس رشدهم ، ولكن خاب ما حسبه ، فقد ارتفعت اصوات الاعداء مجلجلة :

ـ ليصلب ..

وتجاوبت الاصوات وراحت ترن فى القصر :

ـ ليصلب .. ليصلب ..

فقال بيلاطس فى يأس :

ـ أى شىء فعل ؟

ـ اصلبه .. اصلبه

ـ لم يفعل ما يستوجب الصلب

ـ اصلبه .. اصلبه

ـ اؤدبه وأطلقه

ـ خذ هذا واطلق لنا باراباس ..

ـ باراباس .. باراباس

ـ اصلبه .. اصلبه

ـ نريد باراباس .. باراباس .. باراباس .. باراباس

ـ اصلبه .. اصلبه

رأى بيلاطس الفتنة تتحرك ، على مرجل غضب الجماهير وما هى الا اشارة من رجال السنهدرين الحانقين ، حتى يندلع لهيب الثورة ، فقال لهم :

ـ خذوه انتم فاصلبوه ، فانى لا أجد ما آخذه به

فصرخ رجال السنهدرين :

ـ لنا ناموس ، وحسب ناموسنا هو يستحق الموت ، لانه جعل نفسه ابن الله . يا للرياء ، انهم يدعون أنفسهم شعب الله المختار ، أبناء الله ، وقد حاولوا ان يتهمـــوه بالمروق لما قال لهم انه ابن الله ، ولكنه اثبت لهم انه استعار ذلك من كتبهم ، من مزامير داود ، وانهم جميعا « ابناء العلى يدعون » . أثبت لهم انه لم يدع الالوهية ، وأثبت لهم انه ابن الله مثلهم جميعا ، وأنه عبده ورسوله ومصطفاه ، فلماذا يحاولون الان ان يلصقوا به تهمةسبق أن برءوه منها ؟ وهل كان بيلاطس الرومانى الوثنى يفهم كثيرا أو قليلا فى مثل هذه الامور ؟ أرادوا أن يوهموهانه ارتكب اثما كبيرا فى حق ناموسهم ، ليرغموه على التصديق على صلبه ، فما كانوا قادرين على أن يصلبوه ما لم يوافق على ذلك الحاكم الرومانى ، صاحب الكلمة والسـلطان ، قال لهم بيلاطس لعلهم يوافقون :

ـ اجلده ، ثم أطلق سراحه

ـ اصلبه ، انه يستحق القتل حسب ناموسنا

لم يستطع أن يثنيهم عن عزمهم ، وبدأ الشر يطـــل بخطمه ، فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه أمام الجميع ، وقال :

ـ انى برىء من دم هذا البار ..

فصاح الكتبة والفريسيون والصدوقيون وتجار الاغنام والحمام والصرافون ، وخدام الهيكل ، والشعب المخدوع :

ـ دمه علينا وعلى أولادنا

وخرج باراباس الى الجماهير ، فانطلقت هتـــــافات الفرح ، وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا ، ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه ، وصدق عيسى ، فالناس يفرحـــون ، وتلاميذه يذرفون الدمع الهتون

— ٥٤ —

« وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم
مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون »
(قرآن كريم)

جنود الرومانيين يقودونه الى جوف القصر ، يسخرون منه ، ويبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ويضحكون كانوا فى اعماقهم يكرهون اليهود ، فأتيحت لهم فرصة التنفيس عن البغض المكتوم

وبدأ جلد يهوذا ، فخف جميع جنود القصر ينظرون فى سرور ، كان حدثا جديدا فى حياتهم الرتيبة ، فهرعوا يتسلون منشرحين ، ترن ضحكاتهم مدوية ، كلما عابثه جندى أو لطمه ، أو استخف به او ركبه بمجونه الطليق

وخلعت عنه ثيابه ، وشد الى عمود ، فأصبح ظهره العارى مكشوفا ، وجاء جلاد ، كان وجهه جامدا كأنما نحت من صخر ، وفى يده سوط ذو ثلاث شعب من الجلد، فى نهاياتها قطع من رصاص ، ورفع الجلاد يده ، وأهوى بالسوط على ظهر يهوذا يمزقه ، فلم ينقبض قلب جندى واحد ، بل انبسطت الاسارير

وانهالت الضربات ، ويهوذا يئن كوحش جريح ، وفاضت التهليلات فى المكان • تبلدت الاحساسات ، وطغت وحشية البشر ، حتى فاقت ضراوة الحيوان ، وتطايرت السخريات ، وانطلقت التهكمات ، فتلقفها الجنود مسرورين ، كما يتلقف الاطفال هدايا العيد

تمزق ظهر يهوذا ، ولف سوط على وجهه فقطعه ، وجاءته ضربة على رأسه فراح فى غيبوبة ، فلم يعد يحس

مما حوله شيئا ، وتم جلده ، فهرع اليه بعض الجنـــود يقلبونه ، فألفوا أنفاسه تتردد ، فأحسوا رضا ، لا لانهم اشفقوا عليه أن يموت ، ولا لانهم جزعوا لموته ، بل لانهم سيجدون فيه تسليتهم ، حتى يسلموه الى من يصلبونه

وصاح صائح :

ـ صمتا يا رفاق ، انكم بين يدى ملك اليهود

وقال آخر :

ـ ألبسوه ثياب ملكه وتوجوه ..

فأسرع الجنود اليه ، ولفوه فى ثـــوب قرمزى ، ثم ضفروا اكليلا من الشوك ، وتوجوه به ، ووضعوا فى يده قصبة ، رمزا للصولجان ، واصطف الجنـــود ، وراحوا يمرون أمامه ، وينحنون فى سخرية ، كما تنحنى الرعايا أمام الملك ، ويقولون فى زراية :

ـ السلام عليك يا ملك اليهود

ولم يكتفوا بعبثهم القاتل ، بل كانوا يأخذون القصبة من يده ، ويضربونه بها على رأسه ، ويتصايحون فرحين ، كان بينهم كحمل برىء وقع بين براثن وحوش ، أو كفأر صغير تنهشه عشرات القطط

دار رأس يهوذا ، وفاضت آلامه ، وزادت حتى غاب عن حسه ، فلم يعد يستشعر العذاب ، كانت تدثره غيبوبة رحيمة تفقده الشعور

واقتيد يهوذا الى بيلاطس ، حيث كان قيافا وحنـــان واعضاء السنهدرين يترقبون فريستهم ، ودخل يهـوذا والدم يجرى على وجهه ، وينبثق من ظهره ، يجر رجليه يكاد يسقط من الاعياء

نظر بيلاطس الى رجال الدين المتنمرين ، الى حملــة الشريعة الذين طمس الله قلوبهم ، واعماهم الحقـــيد

البغيض ، الى المجرمين الحقيقيين ، الذين لو أصـــاخ الى صوت ضميره لدمغهم بالافتراء والكذب ، ولكنه كان يخشى منهم ، فهم القوة المحركة للشعب الاعمى ، انهم قادرون على أن يرسلوا الى قيصر في رومية الوفود • يلتمسون منه أن يخلعه ، وأن يأتيهم بوال جديد ، ففضل السلامة على أن يلقي سمعه لصوت الضمير ، قال :

ـ خذوا ملككم واصلبوه

احسوا فى صوته رنة زراية ، فقالوا له :

ـ ليس لنا ملك الا قيصر

وقام رؤساء الكهنة وعيونهم تلمع بالقسوة ، وانطلقوا وجنود الرومان يدفعون امامهم يهوذا المحطم ، كان يريد أن يموت ويستريح ، لم يعد يخشى الموت ، فبعده العزة والسيادة على أسباط بنى اسرائيل

وارتفع صوت بيلاطس :

ـ خذوا هذه ، وضعوها على الصليب

فالتفت قيافا وحنان واعضاء الســـنهدرين ، فوقعت عيونهم على رقعة كتب فيها : « عيسى النـــاصرى ، ملك اليهود » • فثارت دماؤهم فى عروقهم ، ان الوالى الرومانى يسخر منهم ، ولا يكف عن سخريته ، فقالوا له :

ـ لا تكتب « ملك اليهود » ، بل « ذاك قال : « أنا ملك اليهود •• » .

فقال لهم بيلاطس :

ـ ما كتبت قد كتبت

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه (١)
لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك
منه ، مالهم به من علم الا اتباع الظن ،
وما قتلوه يقينا »

(قرآن كريم)

ركب الموت فى طريقه الى جلجثا : قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الجنود الرومانيين حولهم ، وجمع من النـاس ينطلقون فى أثرهم ، ليشاهدوا الصلب ، تزجية للوقت فى العيد ..

كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهوذا ولصين حكم عليهما بالصلب معه . وكان يهوذا اكثرهم ضعفا . كان مجهدا محطما ، مزقته السياط والمحاكمات ، فى وجهه جروح ، وفى ثوبه دم جف ، فالتصق الثوب بالجسم . وساقاه تتثنيان تحته ، يحس كأنما يكاد يهوى من الاعياء مغشيا عليه ..

كانت أورشليم تموج بآلاف الحجاج من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى واليونان ، فألقوا نظرة عابرة على موكب الموت ، وعادوا يستأنفون ما كانوا فيه من مرح

---

(١) ذكر جورج سـايل مترجم القرآن الى الانجليزية ، فى سورة آل عمران صفحة ٣٨ أن السيرنثيين Cerinthians والكربوكراتيين Carpocratians وهم من أقدم فرق النصارى ، قالوا أن المسيح نفسـه لم يصلب ، وانما صلب واحد آخر من تلاميذه يشبهه تماما وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصا آخر صلب بدل المسيح

وحبور ، فما تجشموا عناء السفر جلبا للاحزان ، بل للحبج والترفيه ..

وفي أثر الموكب الحزين ، سارت نسـوة محجبات يذرفن الدموع ، فهن أرق قلبا من الرجال الذين آمنوا به ، فلما احسوا الخطر انفضوا من حوله ، وقست القلوب سمعوه في الهيكل وهللوا له ، فلما دنت الساعة الفاصلة بخلوا عليه حتى بالدموع ..

دب الوهن في جسد يهوذا ، فسقط وصليبه فوقه ، ولولا الانفاس الضعيفة المترددة ، لحسبوه قـد مات ، فصرخ به رجال قيافا وحنان أن يقوم ، وأن يحمـل صليبه ، ولكنه كان عاجزا عن النهوض

وأقبل سمعان القيرواني من حقله ، ورأى جمعا ينطلق خارج المدينة : جنودا رومانيين ، وصلبانا ونساء على البعد يبكين ، فذهب يشاهد ما يجرى في الطريق ، فلما رآه القائد الروماني ، قال له ، وهو يشير الى الصليب الساقط فوق يهوذا :

ـ احمل هذا ..

وذهب سمعان يفعل ما أمر به القائد ، فما كان لامرىء أن يرفض أمرا صدر اليه من قائد روماني ، ولكن رجال قيافا وحنان اعترضوا على ذلك الامر ، وقالوا :

ـ لابد أن يحمل هو صليبه حتى النهاية . هذا هو الناموس ..

كان القائد يبغي أن ينتهي من عمله ، فما كان يهمه كثيرا او قليلا ان تطبق حرفية شريعة لا يؤمن بها ، فلم يلتفت لاعتراضهم ، وحمل سمعان الصليب ، ومال اثنان على يهوذا وعاوناه على النهوض ، وانطلق ركب الموت في الطريق ..

وكان بين النسوة امرأتان ، احستا في قلبيهما وقدة

نار ، وراحت دموعهما الحارة تجرى ، فلا تريان الا ما هما فيه من حزن عميق ، كانتا العذراء أم المسيح ، ومريم المجدلية ، التى اخرجها من الظلمات الى النور ، ولولا تلك الدموع التى غامت بها العيون ، ولولا الحزن الثقيل الذى نزل بهما ، ولولا اليأس الذى ذهب بنفسيهما شعاعا ، لفطنتا الى أن ذلك المجهد المكدود ، الـــرازح تحت عبء الصليب غير عيسى الحبيب

وبلغوا المكان ، وثبتت الصلبان فى الارض ، وجىء بالرجال الثلاثة ، وخلعوا عنهم ثيابهم ، فأشاحت النسوة بوجوههن ، وقلوبهن منقبضة ، وأحست مريم خنـــاجر تطعنها فى فؤادها ، وعلا النشيج والنحيب

ورفع الرجال ، وفى وسط اكفهم دقت مسامير لتثبيتهم فى خشب الصلبان فأحست النسوة كأن المطارق تدق قلوبهن ، فتمزق نياط أفئدتهن ، ودقت مسامير أخرى فى الاقدام ، فكادت مريم أم المسيح تنهار ، وكتمت مريم المجدلية صرخة مفزوعة كادت تفر من قلبها المطعون

وصدق المسيح ‥ كان بنو اسرائيل فى العيد يمرحون ويفرحون ، اذ كانت أمه وأحبابه واصحابه فى جلجثا فى حزن تخر من ثقله الجبال ، حزن أسدل أغشية قاتمـــة كثيفة على العيون ، فلم تعد ترى الا السواد

وراح الوقت يمر وئيدا بغيضا ، ويهوذا على الصليب يئن من العذاب ، وقد ثبتت فوق رأسه الرقعة التى كتب فيها « عيسى ملك اليهود » ورجال قيافا وحنان يرمقونها فى غيظ شديد ، كانوا يحسون فى تلك اللحظة الرهيبة أن سخرية بيلاطس بهم تلطمهم وتكدر صفو المشهد الذى عملوا له ، وترقبوه طويلا ‥

وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى ، فراحوا يقولون :

ـ خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه
ـ ان كان هو المسيح ملك اسرائيل ، فلينزل الآن عن الصليب ، لنرى ونؤمن به

ولو تهتكت الاغشية عن عيونهم ، ولو أرهفت آذانهم ، والتقطت سخرية القدر بهم ،لتيقنوا أن ذلك المصلوب ليس هو ، وأنه خلص آخرين وخلص نفسه ، ولكن كان فى عيونهم عمى ، وفى آذانهم وقر ، وما كان الله يريد لهم الهداية وقلوبهم اعشاش للنفاق والرياء والكفر

وراح الجنود الرومانيون يسخرون بيهوذا وهو على الصليب ، التقطت آذانهم ما يهمس به اعداؤه ، فقالوا له :

ـ ان كنت انت المسيح فخلص نفسك
فقال له المصلوبان معه :
ـ ان كنت أنت المسيح فخلص نفسك وايانا ..

ولكنه لم يكن المسيح ، كان يهوذا يتجرع الكأس المريرة ، ليشفى روحه مما علق بها من وساوس وشكوك، فلم يخلص نفسه ولم يخلصهما

وغابت الشمس ، وزحف الظلام ، والرجال الثلاثة على الصلبان يتعذبون ، يتفصد منهم العرق ، ويلتقطون أنفاسهم فى جهد ، يئنون من الآلام القاسية المريرة ، وهتف يهوذا فى صوت واه :
ـ أنا عطشان ..

كان هناك أناء مملوء خلا ، فغمسوا اسفنجة فيه ، ورفعوها اليه ، فلما أخذ يهوذا الخل ، ألقى رأسه على صدره . دب فيه ضعف شديد ، فلم يعد قادرا ان يرفعه. وصدق عيسى ، فقد قال فى العشاء الاخير : « واقول لكم انى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، الى ذلك اليوم ، حينما اشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى » .

فهو لم يشرب الخل على الصليب ، بل شربه يهوذا ، فالخل من نتاج الكرمة ، وما كان لرسول أن يقول كذبا

ولم يعد يتحمل يهوذا آلامه ‥ وتذكر أن الله يعذبه بشكه الذى خالط ايمانه ، فحقد على نفسه وصرخ :

ــ ايلى ايلى لم شبقتنى ؟! « الهى الهى لماذا تركتنى »

لم يقل : ابى ‥ أبى لم تركتنى ؟ فما كان يهوذا تعود أن يدعو الله « بأبى » ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا ، كانت تجربة قاسية ، دفع ثمنها غاليــا صابرا ، وفى لحظاته الاخيرة وهن فصرخ معاتبا ، ولولا سكرات الموت ما نبس بكلمة ‥

أفزعت تلك الصرخة المدوية فى الظــلام الواقفين يترقبون النهاية ، وقال بعضهم :

ــ انه ينادى ايليا

وتحركوا فى فزع ، فقال آخرون :

ــ انتظروا لنرى هل يأتى ايليا يخلصه

ومزق الصوت قلوب النساء ، فارتفع فى سكون المكان نشيج ونحيب ، زاد فى قلق نفوس الخائفين المترقبين حدوث معجزة ، ولكن المعجزة لم تأت ، فما كان صاحب المعجزات هناك ‥

وصرخ يهوذا صرخة أخرى ، أعقبها صمت مطبق ، فقد أسلم الروح . مات الموتة الاولى ، ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ، ليحيا مع المسيح الى الابد

استحق يهوذا ان يكون مع المسيح وحوارييه ، يدين أسباط اسرائيل الآثنى عشر . كان من المتقين الــذين أرسلهم عيسى الى بنى اسرائيل يبشرون باسمه ، ويدعون الناس الى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله اليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان ، فلما تذكر اذا هو مبصر ، فقــدم

نفسه راضيا عن سيده ليتطهر ، فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة لو قسمت على أهل الارض لوسعتهم

تضايق رؤساء السنهدرين من الانتظار الطويل ،أرخى الليل سدوله ، ومشى الوصب فى ابدانهم ، بعد السهر في تدبير مؤامرتهم ، فأرسلوا الى بيلاطس يستأذنونه في كسر سيقان المصلوبين ودفنهم ، وكانت هذه العادة متبعة لتقصير آلام المصلوبين ، والتخلص منهم ، فقد كان بعضهم يستمر أياما قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، وعاد الرسل من عند بيلاطس بالاذن بذلك ، فأخذ الجنود مطرقه نفيته وكسروا سيقان اللصين ، وذهبوا الى يهوذا ، فألفوه قد فارق الحياة ..

وأراد أحد الجنود أن يتحقق من موته ، فطعن جنبه بحربة ، ولما رأى رجال الدين أن المصلوب قد انتهى ، غادروا المكان يحسون كأنما انزاح كابوس عن صدورهم، وانداحت فى أفئدتهم نشوة الظفر ، حسبوا أنهم قتلوا عيسى ، وتخلصوا منه ، وخلا لهم وجـــه بنى اسرائيل ، يمتصون أموالهم باسم الدين ، فمن ذا الـــــذى يبصرهم بعده ان الله غنى عن عباده ،وأنه لاينال من لحوم الاضحيات ودمائها ، ولكن يناله التقوى منهم ؟ وما دار بخلد أعضاء السنهدرين ان الله سخر منهم ، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم ، « الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم »

انطلق رجال الدين وقد حقت عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ، ويحسبون انهم مهتدون . وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنـــــة من النساء الباكيات النائحات ، وأما حواريو المسيح فقـــد ولوا الادبار مفزوعين ، ولو أنهم فهموه ، لما شـكوا فيه ، ولتيقنوا أنه لم يصلب ، بل صلب غيره فقد قال لهم :

« كلكم تشكون في الليلة » ، و « طوبى لمن لا يعثر في » •
ولو أصــــاخوا لرن في آذانهم قوله ، مؤكدا نصره على اعدائه من صدوقيين وفريسيين :

ـ انى قد غلبت العالم ••

ـ ٥٦ ـ

« وما آنزلنا عليك الكتاب الا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه »

(قرآن كريم)

انسحب الجنود الرومانيون ورجال السنهدرين وخدمة الهيكل يحملون مشاعلهم فى أيديهم ، وخلفوا المصلوبين فى الظلام الدامس الثقيل ، ومريم المجدلية وأختها مرثا وسالومى أم يعقوب ويوحنا وحفنة من النسوة المؤمنات ، يبكين فى حرارة ، حتى تكاد أكبادهن تتصدع من البكاء ، كان الامل فى معجزة تنقذ المصلوب يراود اخيلتهن حتى اللحظات الاخيرة ، ولكن لما طعنه الجندى الرومانى بحربته تبخر الامل ، وجرت دموع اليأس • نفذ القــدر ، وحم القضاء ، وأسلم المصلوب الروح ، دون أن تنقذه السماء ، فما كان المصلوب رسول الله ، وما كان صاحب المعجزات

كان يقف على البعد رجلان ، يرصدان ما يجرى فى جلجثا ، وفى قلبيهما حزن عميق ، كانا نيقوديموس ، ثالث أعضاء السنهدرين ، من آمن بالمسيح وكتم ايمانه ، ويوسف الرامى عضو السنهدرين الــــذى تخلف عن الاجتماع الاخير ، الذى حكم فيه بالقتل على من حسبوه المسيح ، لان الايمان عرف طريقه الى قلبه

ساد الظلام جلجثا ، فزاد انقبــاض نفسـيهما ، فالرومانيون يخلفون اجساد المصلوبين تنهشها الكلاب ، وتتخطفها طيور السماء ، فعز عليهما وهما من اليهــود الذين يحرصون على دفن الموتى فى مقابر فاخرة ، أن يترك جسد من حسبوه المسيح فى الخــلاء ، ففكرا فى أن يستأذنا بيلاطس فى مواراته فى التراب

كان يوسف الرامى اكثر جرأة من نيقوديموس ، فانطلق فى الظلام ، حتى اذا بلغ أورشليم أغذ الســير الى قصر بيلاطس ، لا يخشى غضب الوالى الرومانى ، فيا طالما غضب على من جاءه يلتمس منه ما يريد يوسف أن يلتمسه

دخل على بيلاطس ، فألفاه فى ايوانه ، فتقــدم منه وقال :

ـ جئت التمس يا مولاى الاذن لى بدفن عيسى

تعجب بيلاطس وقال :

ـ أمات هكذا سريعا ؟

كان المصلوبون يقاسون عذاب الصلب يوما أو يومين، أما هذا المصلوب فلم يستغرق بعض يوم ، فلم يصدق بيلاطس ، وبعث الى قائد المئة يسأله ، فلما أكد له موته سمح ليوسف بدفنه

ذهب يوسف واشترى كتــانا ، وذهب نيقوديموس وجلب مئة رطل من مر وعود ، وفى فحمة الليل من جلجثا لاح قبس نور المشعل الذى يحمله نيقوديموس القــادم بالطيب ، وما هى الا لحظات حتى لاح نور آخر يجاهدان يزحزح طبقات الظلمات ، كان النور المنبعث من مشعل يوسف الرامى ، القادم بالاكفــان والتصريح بدفن المصلوب ..

هب يوسف ونيقوديموس ينزعان المسامير الطويلــة

المثبتة فى قدميه •• وجىء بسلم وارتقاه أحدهما ، وأخذ ينزع المسامير من كفيه ويسند الجسد بكتفه ، وهرعت النسوة يساعدنه فى انزال المصلوب ، وحملت الجثة بينهم وانطلقوا الى حديقة قريبة ، كانت ملكا ليوسف الرامى ، وكان بها قبر فاخر أعده يوسف لنفسه ••

وذهب يوسف واحضر ماء ، وراح هو ونيقوديموس يغسلان الجثة ، ويزيلان منها آثار الدم • وتقدمت مريم المجدلية ومرثا وسالومى ، ونزعن عن رأسه تاج الشوك الذى توجه به الرومانيون مستهزئين ، واخذن يحنطن الجثة بالحنوط الذى جاء به نيقوديموس ، ولما غطى به الجسد ، تقدم يوسف وقبل جبهته ، وتقدم الجميع يقبلونها ، مريم فى نشيج ونحيب ، والنسوة فى بكاء وعويل ، والرجلان صامتان ، وان كان الحزن يمزق فؤاديهما ، ووقدة من النار تلسع حلقيهما ، والدموع تزيد نفسيهما أسى ولوعة

وجىء بالكتان وادرج الجسد فيه ، وقام يوسف ونيقوديموس يقرآن فى صوت حزين صلاة الموتى ، ولما انتهت الصلاة ، حمل الجسد المدرج فى الاكفان ، ودلى فى قبره ، ووورى بالتراب ، وانصرف الجميع فى جوف الليل البهيم مطرقين ••

- ٦٧ -

« بل رفعه الله اليه »

(قرآن كريم)

نور الفجر لم يبدد بعد ظلام الليل ، وبدأت زقزقة العصافير تعكر السكون المسيطر على حديقة يوسف الرامي التي قبر فيها يهوذا ، وأخذ شبح يدنو في الظلام مطرق الرأس ، كانت مريم المجدلية متشحة بالسواد قادمة في البكرة ، تذرف على القبر الدموع .. تقدمت في خطوات ثقيلة ، حتى اذا بلغت القبر ألفت الحجر مرفوعا عنه ، فخفق قلبها ، وانتابتها رهبة .. وراحت تركض تبحث عن الحواريين ، الذين هاموا على وجوههم حذر الموت

وعادت وفي رفقتها سمعان بطرس ويوحنـــا ، وقالت لهما :

ـ اخذوا السيد من القبر ، ولسنا نعلم أين وضعوه

كانت تحسب أن المصلوب هو المسيح ، فلما سرقت الجثة انتابها هم ثقيل ، وجرت دموعها غيظا ، ونظر يوحنا الى القبر فوجده خاليا ، ودخل بطرس باندفاعه المعهود ، فلم يجد الجثة فاضطرب ، ودخل يوحنا ، فلما لم يجد شيئا غاص قلبه حزنا وبقيا صامتين لحظات ، ثم خرجا مطرقين ، وانصرفا وقد خلفا مريم المجدلية تذرف الدمع الهتون ..

فر عيسى في الليل من الجنود الرومانيين بعد أن ولى حواريوه الادبار ووقع يهوذا في أيديهم ، فلما صلب وهدأت نفوس أعضاء السنهدرين وأتباعهم ، واطمـــأنوا الى أنهم تخلصوا من عدوهم ، خرج عيسى من مخبئه ، وهبط من جبل الزيتون الى وادي قدرون ، ثم انطلق الى حديقـــة

يوسف الرامى ، الى قبر يهوذا ، الحوارى الذى دفع حياته ليتطهر من أدران الشك الذى راوده

لمح عيسى مريم المجدلية مطأطئة الرأس ، وقد انخرطت فى البكاء ، فاقترب منها ، وبلغ أذنيها وقع أقدام ، فالتفتت فوقع بصرها عليه .. على عيسى الذى تكاد كبدها تنصدع من البكاء عليه ، ولكنها لم تعرفه ، حتى مريم شكت فيه .

ـ يا امرأة .. لماذا تبكين ؟ .. من تطلبين .. ؟

وانسكب فى أذنيها صوته ، صوته الذى طالما جلست الساعات تصغى اليه منتشيه ، ولكنها لم تميزه ، لم تميز وجهه ، ولم تميز صوته ، بل حسبته البستانى ، فقالت له فى توسل :

ـ يا سيد ، ان كنت أنت حملته ، فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ..

كانت مريم تحسبه البستانى ، حمل الجثة الى مكان آخر وأخفاها ، حتى مريم المجدلية شبه لها ، مريم التى كانت دارها بصيص الامل فى الليل السرمد ، الواحة الوارفة فى صحراء دعوته القاسية ، مريم التى أحبته حبا طاهرا سما على كل حب ، لم تعرفه ولم تعرف صوته ، وحسبته البستانى ، فما أيسر أن يختلط الامر على رجال السنهدرين الذين لم يروه الا عرضا ، وعلى بيلاطس وهيرودس اللذين لم يقابلاه أبدا

وارتفع صوت عيسى مرة ثانية :

ـ يا مريم ..

والتفتت مريم ، وأنعمت النظر ، وهتفت :

ـ ربونى (أى يا معلم)

وهرعت اليه ، تمرر يدها فى دهش على وجهه وعلى يديه ، كانت على يقين أنه صلب ، فظنت أن الماثل أمامها روح ، فجلسنت تتحسسه ، فقال لها :

ـ لا تلمسيني ، لاني لم أصعد بعد الى ربي ، ولكن اذهبي الى اخوتي ، وقولي لهم : اني أصعد الى أبي وأبيكم ، الهي والهكم ..

وهرعت مريم الى الحواريين في مرح وفرح ، تخبرهم أنها رأت السيد وأنه أخبرها أنه ذاهب الى ربه ، وأن الله يرفعه ..

وسار عيسى يتلفت ، لا خوفا من أعدائه ، فقد سخر الله منهم ، بل تلفت المودع للدنيا ، وفيما هو في سيره ، اذ لمح اثنين من تلاميذه ، فأسرع اليهما ، وانطلق معهما في الطريق يحادثهما ويحاورهما ولم يعرفاه (١) ، ولم يفطنا الى أنه عيسى ، حتى تلاميذه شبه لهم ، قال لهما :

ـ ماذا تتطارحان ؟ وما هذا العبوس ؟

فأجابه أحدهما :

ـ أأنت غريب ؟ .. ألم تعلم ما حدث في أورشليم في هذه الايام ؟ ..

كان يأمل أن يعرفاه .. وكان يحب أن يعرف كيف فهم تلاميذه ما جرى من حوادث ، وهم بعيدون عن مجراها ، هائمون على وجوههم حذر الموت ، فقال له :

ـ ماذا حدث ؟ ..

ـ حوادث عيسى الناصري ، الذي كان نبيا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله والشعب ، وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، وكنا نرجو أن يكون المزمع أن يفدي اسرائيل

لم يقولا : عيسى الناصري ابن الله ، ولم يقولا عيسى الناصري الرب ، بل قالا عيسى الناصري النبي ، الذي أسلم للكهنة والحكام ، فضايق عيسى أنهم لم يفقهوا شيئا ، ولم

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٢٥

يفهموا قوله فى تلك الليلة التى قال لهم فيها « كلكم تشكون فى هذه الليلة ، طوبى لمن لا يعثر فى » . ولكن كلهم شبه لهم فيه ، فقال لهما :

ـ أيها الغبيان وقصيرا الايمان

واقتربوا من القرية التى كان التلميذان منطلقين اليها ، فتظاهر عيسى أنه مستأنف سيره، فقالا له دون أن يعرفاه :

ـ أمكث معنا ، مال النهار ، ولاحت بشائر الليل

فدخل معهما ، وجيء بالطعام ، فتناول الخبز ، وباركه وكسره ، وقدمه لهما . ولما انتهى الطعام ، خرج عيسى وتلميذاه فى حيرة لا يدريان أكان هو عيسى أم غيره ؟ ! ..

أرخى الليل سدوله ، فاجتمع الحواريون يتهامسون فى دار بعيدة عن عيون اليهود ، كانوا يذكرون أن مريم رأت المسيح ، وأنه أخبرها أنه صاعد الى ربه ، وصدق بعضهم ذلك القول . ورفض بعضهم الاخر أن يصدقه ، حسبوا أن أوهام مريم صورت لها ما قالت ، فقد كانوا جميعـــا يحسبون أن عيسى صلب وقبر ، ولو دار بخلدهم أنه فر من الجنـــود الرومانيين ، وأن غيره صلب عنه ، لكان تصديقها يسيرا ..

وفيما هم فى حوارهم ، دخل رجل وقام فى وسطهم ، فنظروا اليه ، فخفقت قلوبهم رعبا .. كان عيسى بقامته الطويلة وعينيه السوداوين منتصبا ، وأراد أن يعيد اليهم طمأنينتهم ، فقال لهم فى صوت هادىء :

ـ سلام لكم ..

لم يصدقوا أعينهم ، وحسبوه خيالا ، فهرعوا اليـــه يتحسسونه .. فلما تيقنوا أنه المسيح، فرحوا وتحقق قوله لهم : انه عما قليل لا يرونه ، ثم عما قليل يبصرونه ، وأن العالم يفرح وهم يحزنون ، ثم ينقلب حزنهم فرحا وراحوا يتحدثون ، فتيقن أنهم لم يفقهوا شـــيئا ،

فغادرهم وخرج ، وانساب فى سكون الليل وحده ، انه خارج كما خرج موسى ، خارج على ألا يعود ، ذاهب الى ربه ليتوفاه ويرفعه اليه

ذهب عيسى مطرقا ، فلا بنو اسرائيل اصطلحوا ، ولا تلاميذه استطاعوا أن يفهموا أسرار ملكوت الله على الوجه الصحيح •• ذهب ويتردد فى أذنيه قوله : « ولكن متى جاء ابن الانسان فلعله يجد الايمان على الارض •• ذهب ليرفعه الله اليه ، ويرسل اليهم « الفراقليط » الذى بشرهم به ليمكث معهم الى الابد .. « الفراقليط » روح القدس ليعلمهم كل شىء ويذكرهم بكل ما قاله ، ويشهد له أنه عبد الله ورسوله ، ويرشدهم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى

ذهب ليأتى ذلك الذى « جعله الله عهدا للشعب ونورا للأمم ، ليفتح عيون العمى ، ليخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن ، الجالسين فى الظلمة » ذلك الذى « يضع عنهم أسرهم والاغلال التى كانت عليهم » ومن بشر موسى به ، وقال عنه اشعيا عن لسان الله عز وجل : « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته •• لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الارض ، وتنتظر الجزائر شريعته »

ذهب عيسى وما وضع الحق فى الارض ، كسره أعداؤه ، أما الاخر عبد الله ومختاره فلا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الارض ، حتى يسود الدنيا ملكوت الله ••

وبلغ عيسى ظلام الليل الثقيل ، ليرفعه الله الى العزة والمجد والخلود ••



هذا الكتاب

هذا الكتاب يروى قصة السيد المسيح فى اسلوب قصصى سهل ، وهو اول عمل فنى عن حياة السيد المسيح فى ادبنا الحديث يكتبه كاتب مسلم . وقد حاول المؤلف ان يوفق فيه بين ما جاء فى القرآن الكريم والاناجيل الاربعة ..

وقد احتفى النقاد ورجال الدين بالكتاب عند ظهوره اول مره فى عام ١٩٤٩ ... كتب الدكتور احمد زكي ابو شادى فى المقتطف : « اننا نرحب كل الترحيب بكتاب السحار موضوعا ورمزا لهذا الاديب الخلاق ، الذى نؤمن بمستقبله لانه يؤمن برسالته ولانه لا ينزل عن مثاليته ولانه ذو نزعة اصيلة » وحرى بنا ان نذكر هنا مثالا للاسلوب المرسل الذى يمتاز به هذا الكتاب ..

قال السحار فى مستهل الفصل الثانى عشر منوها بمبدء رسالة السيد المسيح عليه السلام « الناصرة غارقة فى الصمت تطوف بها احلام . راح الناس فى النوم ، حتى نجوم السماء هجعت ، فقد كانت ليله لم يبزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى ، فابنها خرج الى يحيى بن زكريا الذى بعثه الله بشيرا بملكوت السماء .. »

ان اسلوب السحار فى كثير من المواقف اشبه ما يكون بالشعر المنثور ، وانه ليشف دائما عن شغفه بموضوعه وعن ايمانه به ، ومن ذلك جاءت نصاعته وسماحته وجاذبيته ..

